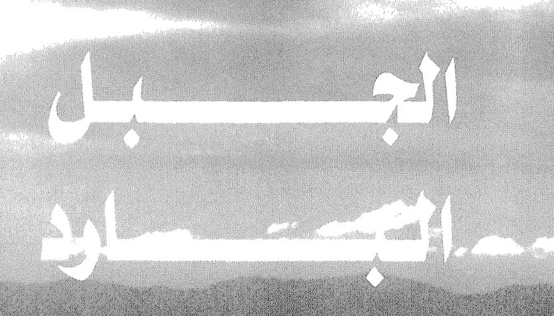
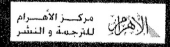


رواية بقلم

تشارلز فريزير

القصة الفائزة
بالجائزة الوطنية للكتاب
فى أمريكا

ترجمة : د. أمين العيوطى



الجبل البارد

رواية بقلم

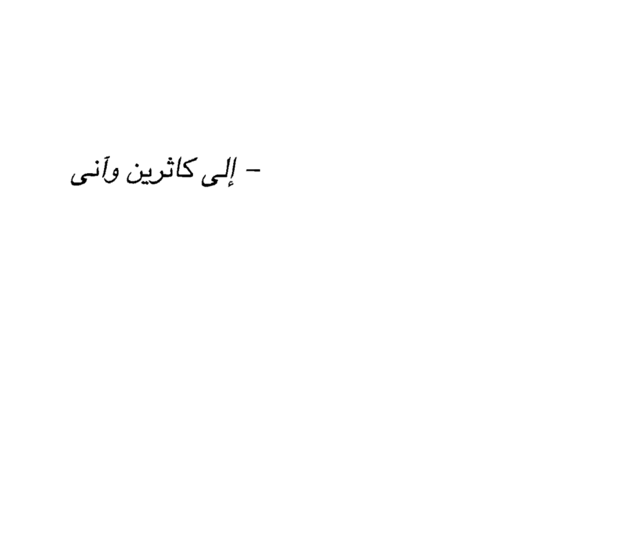
تشارلز فريزر

ترجمة : د. أمين العيوطي

Cover image adapted from a photograph
© James P. Blair/ *National Geographic*
Image Collection.

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الناشر: مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس: ٥٧٨٦٨٣٣



- إلى كاثرين وآني

ظل غراب

بدأ الذباب يتحرك عند أول بادرة من بوادر النهار. اجتذبته عينا إينمان والجرح الطويل فى رقبته. وسرعان ما كان صوت أجنحته وملمس أقدامه أقوى مفعولا من فناء ملىء بالديكة فى إيقاظ رجل من سباته. وهكذا استرد وعيه على يوم آخر فى عنبر المستشفى. هش الذباب بيديه ونظر عبر أسفل السرير إلى نافذة مفتوحة ذات مفصلات ثلاث. كان بإمكانه عادة أن يمد بصره إلى الطريق الأحمر وشجرة البلوط وغابات الصنوبر المسطحة التى تمتد حتى الأفق الغربى. كان المنظر ممتدا بسبب الأراضى المسطحة، حيث بنيت المستشفى على المرتفع الوحيد على مدى البصر. لكن الوقت مبكر بحيث لا يسمح برؤية منظر على بعد، ويستوى عنده لو أن النافذة طليت بلون رمادى.

ولولا العتمة الشديدة لود إينمان أن يقرأ ليقضى الوقت حتى موعد الإفطار، ذلك أن الكتاب الذى يقرؤه كان له تأثيره فى أن ينصرف ذهنه عما يزعجه. لكنه كان قد أحرق كل ما لديه من شموع حتى أخرها وهو يقرأ ليجلب النوم فى الليلة الماضية، وكان زيت المصباح أندر من أن يشعل أضواء المستشفى لمجرد التسلية. ولذا فإنه نهض وارتدى ملابسه وجلس فى كرسى تنسَّل ظهره ، واضعا الحجرة المظلمة بأسرتها وشاغليها المكسورين خلف ظهره. هش الذباب

مرة أخرى ونظر خارج النافذة إلى اللوثة الأولى للفجر الضبابى وراح ينتظر أن تبدأ معالم العالم الخارجى فى الاتضاح.

كانت النافذة طويلة مثل باب، وقد تخيل عدة مرات أنها سوف تنفتح على مكان آخر وتسمح له بأن يسير خلالها وأن يكون هناك. فخلال الأسابيع الأولى فى المستشفى كان بالكاد قادرا على أن يحرك رأسه، وكل ما يشغل عقله أن يراقب الأشياء خارج النافذة ويتصور الأماكن الخضراء القديمة التى يتذكرها فى موطنه. أماكن الطفولة. ضفة الجدول الرطبة حيث تنمو الغلايين الهندية. زاوية مرعى تفضلها اليرقانات ذات اللون البنى والأسود فى الخريف. طرف شجرة الجوزة المعلق فوق الحارة، والذى كان يراقب منه فى أغلب الأحيان أباه وهو يسوق بقرات إلى مخزن الغلال فى الغسق. كانت تمر تحته وعندئذ يغمض عينه ويصغى إلى صوت حوافرها وهى تفرغ الهواء تحتها فى التراب ويخفت ويخفت حتى يتلاشى فى نداءات الرجال والضفادع بأصواتها الحادة. كانت النافذة فيما يبدو تريد فقط أن ترجع بأفكاره إلى الوراء. وهو ما كان أمرا طيبا بالنسبة له، لأنه قد رأى وجه العصر المعدنى وأذهله إلى درجة أن كل ما كان بوسعه أن يراه حين يفكر فى المستقبل عالم انتفى منه كل ما كان يعتبره مهما أو هرب طواعية.

كان قد حدق حتى الآن فى النافذة طيلة أواخر صيف شديد الحرارة والبلل إلى درجة أن يبدو الهواء كأنه يتنفس بالنهار والليل من خلال خرقة غسل الأطباق، وشديد الرطوبة إلى درجة تجعل ملاءات السرير النظيفة تحمض تحته وتنبت الفطر الأسود الدقيق بين عشية وضحاها من صفحات الكتاب الرخوة الموضوع على الطاولة بجانب السرير. داخل إينمان الشك فى أن تكون النافذة قد باحت أخيرا بكل ما لديها أن تقوله بعد مثل هذا التفحص الطويل. غير أنها فاجأته ذلك الصباح، إذ أنها أعادت إلى ذهنه ذكرى مفقودة وهو جالس فى المدرسة، وبجانبه نافذة طويلة مشابهة يحيط إطارها بمنظر مراع وأخاديد واطئة خضراء تندرج فى الارتفاع حتى حدبة الجبل البارد الهائلة. كان ذلك فى سبتمبر. وحقل العشب المجفف فيما وراء تراب ملعب المدرسة الذى طرقته الأقدام يرتفع إلى مستوى الخصر، وذؤابات الأعشاب تصفر لحاجتها إلى أن تقطع. كان المدرس رجلا ضئيلا مكورا، أصلع ذا وجه متورد. لم يكن لديه سوى

حلة سوداء صدئة وزوج من الأحذية عالية الساق كبيرة المقاس مما يرتدى خارج السروال، تلتفت إلى أعلى عند أصابع القدم، بالية إلى حد أن كعبيها يبدوان مثل الإسفين. وقف فى مقدمة الغرفة يتأرجح على طرفى الحذاء. وراح يتكلم بإسهاب طيلة الصباح عن التاريخ، وهو يعلم الأولاد الأكبر سنا الحروب الكبيرة التى دارت فى إنجلترا القديمة.

وبعد فترة من عدم الإنصات بشكل نشيط، تناول إينمان الصغير قبعته من تحت المكتب وأمسك بها من حافتها وطوح رسغه بخفة وانزلقت القبعة خارج النافذة وصادفت تيار هواء صاعدا وحلقت. هبطت على بعد عبر الملعب على حافة حقل الأعشاب المجففة واستقرت هناك سوداء مثل ظل غراب مقرفص على الأرض. رأى المدرس ما فعله إينمان وأمره أن يذهب لإحضارها ويعود ليجلد. كان لدى الرجل مجداف صغير به ثقوب مخرومة فيه، يروق له أن يستخدمه. لم يدر إينمان أبدا ما تملكه فى تلك اللحظة، لكنه خرج من الباب ووضع القبعة على رأسه بزاوية ميل مهندمة ومضى دون أن يعود أبدا.

مرت الذكرى عندما أشرق الضوء من النافذة لينجلى النهار. جلس الرجل الذى يرقد فى السرير المجاور لسرير إينمان وجذب عكازيه إليه. وكما يفعل كل صباح اتجه إلى النافذة وبصق مرارا وتكرارا، وبجهد هائل حتى صفت رئتاه المسدودتان. مرر مشطا فى شعره الأسود الذى يتدلى مسترخيا تحت فكه وقد قص بشكل مربع من كل جوانبه. لف الأجزاء الأمامية الطويلة من شعره خلف أذنيه ولبس نظارته ذات الزجاج المدخن، التى يرتديها حتى فى عتمة الصباح. لأن عينيه فيما يبدو أضعف من أن تواجه أشد أشكال الضوء شحوبا. ثم اتجه إلى طاولته، وهو لا يزال يرتدى قميص نومه، وشرع يعمل فى كومة من الأوراق. نادرا ما كان يتكلم أكثر من كلمة أو كلمتين فى المرة الواحدة، ولم يكن إينمان يعلم عنه أكثر من إن اسمه باليس وأنه قد ذهب إلى مدرسة فى تشابل هيل، حيث حاول أن يحذق اللغة الإغريقية. كان يقضى معظم وقت يقظته محاولا أن يترجم خربشة قديمة من كتاب صغير سمين إلى كتابة واضحة يستطيع أى واحد أن يقرأها. جلس محدوب الظهر إلى طاولته ووجهه على بعد بوصات من مؤلفه وهو يتلوى فى مقعده باحثا عن وضع مريح لساقه. كانت قدمه اليمنى قد بترتها قذيفة فى كولد هاربر، ولم يبد أن جزمة القدم تريد أن تلتئم وقد تعفنت

من الكاحل حتى أعلى. وكانت عمليات البتر قد استمرت فيما بعد الركبة، ورائحته تفوح طوال الوقت مثل فخذ خنزير من العام الماضى.

ولفترة كان هناك فقط صوت قلم باليس يخدش، والصفحات وهى تقلب. ثم بدأ آخرون يتحركون فى الحجرة ويسعلون، وقلة قليلة تئن. وفى آخر الأمر انتشر الضوء حتى أن الحوائط من ألواح الخشب المدهون بالورنيش بدت واضحة، وأصبح بإمكان إينمان أن يميل إلى الخلف بأرجل الكرسى الخلفية وأن يعد الذباب على السقف. قدر أن عدده ثلاث وستون.

وعندما ثبت المنظر أمام عينى إينمان، كشفت جذوع أشجار البلوط عن نفسها أولا، ثم المرج المرقع، وأخيرا الطريق الأحمر. كان قد أولى حركات الرجل اهتمامه لمدة أسابيع، أما وقد شفى الآن بما يكفى لأن يعد ضمن السائرين، فقد صمم إينمان على أن يخرج إلى عربة النقل الصغيرة ويتكلم مع الرجل، إذ أنه حسب أنه قد عاش مدة طويلة مع جرح.

كان إينمان قد أصيب بجرحه أثناء قتال خارج بيترزبورج. عندما نزع عنه رفيقاه المقربان ثيابه ونظرا إلى رقبته وودعاه وداعا رصينا وهما يتوقعان موته. قالا، سوف نلتقى ثانية فى عالم أفضل. لكنه عاش حتى بلغ مستشفى الميدان، وهناك اتخذ الأطباء موقفا مشابها. صنف ضمن من يموتون ونحى جانبا فى مهد حتى يفعل هذا. لكنه فشل فيه. وبعد يومين، إذ كانت المسافة قصيرة، أرسلوه إلى مستشفى نظامى فى ولايته التى ينتمى إليها. وطوال فوضى المستشفى الميدانى، ورحلة القطار الطويلة الكئيبة جنوبا فى عربة من عربات شحن السكك الحديدية المغلقة المليئة بالجرحى، كان قد وافق رفاقه والأطباء ظن أنه سيموت. وكل ما أمكنه أن يتذكره تقريبا عن الرحلة هو الحرارة ورائحة الدم والخراء، لأن الكثير من الجرحى يفرزون مواد سائلة. ومن كانت لديهم القوة خرموا ثقوبا فى جوانب خشب عربات الشحن المغلقة بأعقاب بنادقهم وركبوا برءوسهم مدفوعة إلى الخارج كأنهم دجاج فى صناديق شحن تستروح النسيم.

نظر الأطباء إليه فى المستشفى وقالوا إنهم ليس لديهم الكثير مما يمكنهم عمله. فقد يعيش وقد لا يعيش. أعطوه مجرد خرقة رمادية وجفنه صغيرة لينظف جرحه. وفى تلك الأيام الأولى القليلة كان يمسح رقبته، عندما يسترد وعيه،

بالخرقة حتى صار الماء فى الجفنة مثل عرف ديك رومى. لكن الجرح قد أراد اساسا أن ينظف نفسه. فقبل أن يبدأ فى تكوين قشرة، لفظ عددا من الأشياء : زرار ياقة وقطعة صوف من القميص الذى كان يرتديه عندما أصيب، وشظية معدنية رمادية ناعمة فى حجم عملة الربع دولار، وعلى نحو ليس له تعليل شيئا وثيق الشبه بنواة خوخة. وضع هذا الشىء الأخير على الطاولة المجاورة لسريره وراح يفحصها بضعة أيام. لم يستطع مطلقا أن يحسم ما إذا كانت جزءا منه أم لا. وأخيرا قذف بها خارج النافذة. لكن عندئذ هاجمته أحلام مزعجة أنها كانت قد ضربت بجذورها ونمت، مثل النبتة المسماة فاصوليا جاك المتسلقة والمتشعبة، وتحولت إلى شىء مربع.

كانت رقبته قد قررت أخيرا أن تلتئم. ولكن خلال الأسابيع التى لم يستطع فيها أن يدير رقبته أو أن يمسك كتابا ليقرأه، رقد إينمان يراقب الرجل الأعمى كل يوم. كان الرجل يصل وحده بعد الفجر بوقت قليل، وهو يدفع عربة يد على طول الطريق، فاعلا هذا مثل أى رجل يستطيع أن يرى، ويقيم تجارته تحت شجرة بلوط عبر الشارع، موقدا نارا فى دائرة من الأحجار ويسلق فوقها الفول السودانى فى إناء حديدى. وكان يجلس طيلة النهار مسندا ظهره إلى الحائط، يبيع الفول السودانى والجرائد لنزلاء المستشفى الذين كانوا أصحاء بما يكفى لأن يسيروا. وما لم يأت أحد لشراء شىء. فإنه يرقد ساكنا مثل رجل محشو ويداه متشابكتان فى حجره.

فى ذلك الصيف كان إينمان ينظر إلى العالم كأنه صورة يحيط بها إطار من القالب المصبوب حول النافذة. مرت به امتدادات طويلة من الزمن فى أغلب الأحيان، على الرغم من كل التغيير فى المنظر، فى حين يحسن بها أن تكون لوحة قديمة لطريق، حائطا، شجرة، عربة يد أو رجلا أعمى. وكان إينمان يعد فى رأسه أحيانا أعدادا بطيئة ليرى كم من الوقت قد يمر قبل أن يتغير أى شىء له مغزاه. كانت لعبة وضع لها قواعدها. لم يكن طائر يطير على مقربة منه شيئا يعتد به. لكن رجلا يسير فى الطريق شىء له وزنه. وكذلك التغيرات الأساسية فى الجو- طلوع الشمس، المطر النقى- لكن ظلال سحابة تمر لم تكن يعتد بها. وفى بعض الأحيان يصل فى عده إلى آلاف قبل أن يحدث أى تغير مسموح به فى عناصر الصورة . كان يعتقد أن المنظر لن يبرح ذهنه أبدا - الحائط، الرجل

الأعمى، الشجرة، عربة اليد، الطريق - مهما امتد به العمر. تخيل نفسه عجوزا يفكر فيه. بدت تلك الأجزاء معا كما لو كانت توفر له معنى ما، على الرغم من أنه لا يعرف كنهه ويشك فى أنه سيعرف على الإطلاق.

راح إينمان يراقب النافذة وهو يتناول إفطاره من الشوفان المسلوق والزبد، وسرعان ما رأى الرجل الأعمى يأتى وهو يمشى متثاقلا على طول الطريق، وقد احدودب ظهره بفعل ثقل وزن العربة التى يدفعها، ومن تحت عربات العجلة تثور قوائم سحب ضئيلة من التراب. وعندما أشعل الرجل الأعمى ناره وراح يسلق الفول السودانى، وضع إينمان طبقه على حافة النافذة ودلف إلى الخارج. عبر مرج الحديقة إلى الشارع وهو يجرر خطاه مثل رجل عجوز.

كان الرجل رَبْع القامة صلب الكتفين والفخذين وبنطلونه مزموم بإحكام عند الوسط بحزام جلدى عريض مثل المشحذ الجلدى لسن الأمواس. كان بلا قبعة، حتى فى الحر، وشعره المقصوص غزير رمادى، خشن النسيج مثل شعر فرشة مصنوعة من القنب. جلس منكس الرأس وبدا مستغرقا بشكل ما فى التأمل والتفكير، لكنه وقف حين اقتراب إينمان، كما لو كان ينظر حقا. كانت جفونه رغم ذلك ميتة مثل جلد حذاء وغائرة مثل فنجانين متغضنين حيث كانت مقلتاه يوما ما.

ودون أن يتوقف حتى للتحية قال إينمان، من الذى اقتلع عينيك؟ بدت على وجه الرجل ابتسامة ودودة وقال، لا أحد... لم يكن لدى أى منهما. أخذ إينمان على غرة، لأن خياله قد عمل تحت تأثير اعتقاده أنهما قد اقتلعتا فى نزاع ما دموى متهور يائس، كسر وحشى ما. فكل عمل دنىء مر به أخيرا كان على يدى فاعل إنسانى، حتى كاد ينسى تقريبا أن هناك نظاما كاملا من سوء الحظ.

قال إينمان، لماذا لم يكن لديك أى منهما؟

-هكذا حدث.

قال إينمان، أنك هادئ للغاية .. خاصة بالنسبة لرجل قد يقول عنه معظم الناس إنه تعامل مع هذه المعضلة طيلة حياته.

قال الأعمى، ربما كانت أسوأ لو أننى منحت لمحة من العالم ثم فقدتها.

قال إينمان، ربما. ولكن ماذا كنت تود أن تدفعه الآن لتسترد مقلتى عينيك لمدة عشر دقائق؟ اراهن أنك كنت تدفع الكثير.

تفحص الرجل السؤال. ودار بلسانه حول ركن فمه. وقال، ما كنت لأدفع سنتا يحمل صورة رأس هندى. أخشى أن يحيلنى هذا إلى شخص حاقد.

قال إينمان، لقد حدث هذا لى. هناك الكثير مما أود لو أننى لم أره.

– ليس هذا ما عنيته. قلت عشر دقائق. إن ما أتكلم عنه هو نيل شيء وفقدانه.

فتل الرجل الأعمى ورقة مربعة من ورق الجرائد فى شكل مخروط ثم غمس ملعقة خشنة فى الإناء وملأ المخروط بفول سودانى مبتل. ناوله لإينمان وقال، هيا، استشهد لى بمثل واحد تمنيت فيه أن تكون أعمى.

من أين يبدأ؟ تساءل إينمان. مالفيرن هيل. شاربسبورج. بيترزبورج أى منها يكفى بشكل يدعو للإعجاب لأن يكون مثلا على رؤى غير مرحب بها. لكن فريدريكسبورج كان يوما محفورا بشكل خاص فى ذهنه. ولذا جلس مسندا ظهره إلى شجرة البلوط وقسم أغلفة الفول السودانى إلى نصفين ودفع اللحم بإبهامه فى فمه وحكى للرجل الأعمى حكايته، بداية من كيف انقشع الضباب ذلك الصباح ليكشف عن جيش هائل يصعد التل باتجاه حائط حجرى، طريق غائر. نودى على فوج إينمان كى ينضم إلى الرجال الذين بلغوا الحائط بالفعل، واتخذوا تشكيلا بحذاء البيت الأبيض الكبير على قمة مرتفعات ميريز. وقف لى ولونجستريت وستيوارت المكسو بالريش هناك تماما على المرج بجوار الشرفة، وهم يتبادلون النظر فى المنظار المكبر باتجاه الجانب البعيد من النهر ويتحدثون. كان لونجستريت يرتدى شالا رماديا من الصوف وقد لفه حول كتفيه. وبالمقارنة إلى الرجلين الآخرين بدا لونجستريت مثل تاجر خنازير بدين. ولكن إينمان كان يفضل لونجستريت كى يحمى ظهره فى أى معركة فى أى يوم، مما رآه من طريقة لى فى التفكير. وعلى الرغم من أن لونجستريت يبدو بطيء الفهم، إلا أنه يمتلك عقلا يبحث دائما عن أرض ذات تضاريس حتى يتمكن رجل من أن يجلس القرفصاء ويقتل كثيرين من موضع أمين نسبيا. واتخذ كل ذلك اليوم فى فريدريكسبورج شكل قتال يرتاب لى فيه ويرحب لونجستريت به.

وبعد أن اتخذ فوج إينمان تشكيله، هبطوا على طنف التل ودخلوا فى نيران الاتحاديين المضيئة. توقفوا مرة ليطلقوا وابلا من الرصاص، ثم جروا إلى أسفل

إلى الطريق الغائر خلف الحائط الحجرى. وبينما هم فى طريقهم حفت قذيفة بجلد رسغ إينمان وشعر بها كأنها لسان قط يلعق، دون أن تحدث تلفا، محدثة مجرد خط صغير مكشوط.

استطاع إينمان أن يرى أنهم كانوا فى بقعة طيبة، عندما بلغوا الطريق. وكان أولئك الذين بلغوه سلفا قد تخندقوا على طول الجدار المحكم البناء لدرجة أنه كان بإمكانك أن تقف مستريحا وأن تظل محصنا به. كان على الاتحاديين أن يصعدوا التل ليصلوا إلى الجدار عبر هكتارات وهكتارات من الأرض المكشوفة. كانت البقعة ممتعة حتى أن رجلا وثب على الجدار وأطلق صيحة؛ أنتم كلكم ترتكبون خطأ. هل تسمعون؟ خطأ فادحا! أزت القذائف حول الرجل من كل ناحية. فعاد يقفز عائدا إلى أسفل فى الخندق الذى يقع خلف الجدار، وراح يرقص رقصة سريعة مرحة.

كان يوما باردا وقد تجمد طين الطريق تقريبا بحيث أصبح فى حالة ملاط رقيق القوام. كان بعض الرجال حفاة الأقدام. وقد ارتدى الكثير منهم بزات نظامية مصنوعة صناعة منزلية ذات ألوان مخففة تعملها الصبغات النباتية. وكان الاتحاديون يصطفون فى الحقل الذى يقع أمامهم، وقد ارتدوا بزات جديدة. بزات نظامية زاهية لامعة صنعت فى مصانع، وأحذية ذات سيقان عالية جديدة. وعندما هجم الاتحاديون، أمسك الرجال خلف الحائط عن إطلاق النار واستفزوهم ساخرين وصاح واحد قائلا، اقتربوا أكثر، فأنا أريد تلك الأحذية. وسمحوا للاتحاديين بأن يقتربوا إلى أن أصبحوا على بعد عشرين خطوة قبل أن يطلقوا النيران ليردوهم قتلى. كان الرجال الذين يقبعون خلف الجدار يطلقون النار من مدى قريب للغاية لدرجة أن رجلا أبدى ملحوظة قائلا : ياللخسارة إنهم لديهم خراطيش ورقية، فلو أنهم لديهم الطرازات المنفصلة - بارود وقذائف وحشوات. لأمكنهم أن يدكوا فى بنادقهم حشوات ضئيلة مقتصدة ووفروا فى البارود.

عندما جلس إينمان القرفصاء ليحشو بندقيته، استطاع أن يسمع إطلاق الرصاص. ولكن أيضا ارتطام القذائف باللحم. استثير رجل على مقربة من إينمان، أو ربما كان متعبا لدرجة أنه نسى أن يجذب قضيب التنظيف من الماسورة. أطلقها وأصابت اتحاديا فى الصدر . انكفأ الرجل إلى الخلف. وبرز

القضيب من صدره وهو يرتجف مع آخر نفس له كما لو كان قد اخترقه رمح بلا ريش .

ظل الاتحاديون يهاجمون الجدار طوال النهار بالآلاف، وهم يتسلقون التل لكى يردوا قتلى. كان هناك ثلاثة أو أربعة بيوت مبنية بالطوب مبعثرة خلال الحقل، وبعد بعض الوقت تجمهر الاتحاديون خلفها بأعداد هائلة حتى أنهم بدوا مثل ظلال البيوت الطويلة عند شروق الشمس. وهم يدفعون على فترات منتظمة من خلف البيوت بواسطة فرسانهم الذين يضربونهم بباطن سيوفهم العريضة مثل مدرسين يضربون الطلبة المتهربين بمجداف. وظل الاتحاديون يتجاوزون النقطة التى تختفى عندها كل متعة الضرب. و داخلت إينمان كراهية لهم لإصرارهم المجلجل على الموت.

كان القتال مثل حلم، حلم يحتل فيه أعداؤك أماكنهم ضدك بأعداد هائلة لاتحصى. وأنت ضعيف للغاية. ومع ذلك يسقطون ويواصلون السقوط حتى ينسحقوا. كان إينمان قد ظل يطلق الرصاص حتى انهك ساعده الأيمن من تشغيل قضيب التنظيف والتهب فكاه من قضم أطراف الخراطيش الورقية. وأصبحت بندقيته ساخنة إلى درجة أن البارود يومض أحيانا قبل أن يدفع القذيفة فى مكانها. وعند نهاية اليوم كانت وجوه الرجال من كل ناحية حوله قد علتها قشرة من البارود المرتد إلى درجة أنهم كانوا ظلالا متعددة من الزرقة، وذكروا إينمان بقرد هائل الحجم مع حمار بصلى الشكل متعدد الألوان كان قد رآهما ذات مرة فى استعراض متجول.

كانوا قد قاتلوا طوال النهار كله تحت بصر لى ولونجستريت. وكل ما يلزم الرجال خلف الجدار هو أن يديروا رقابهم وهناك كان الرجلان الكبيران يراقبان. أمضى الجنرالان العصر أعلى التل ينحتان جملا رائعة مثل زوج من المبصبصين. قال لونجستريت إن رجاله فى الطريق الغائر فى موقع حصين للغاية حتى لو انك سيرت كل رجل فى جيش بوتوماك عبر الحقل، لقتله رجاله قبل أن يصلوا إلى الجدار. وقال إن الاتحاديين تساقطوا فى ذلك العصر الطويل مثل مطر ثابت يتساقط من أفاريز سطح بيت.

وقال لى، حتى لا يتفوق عليه الآخر، إنه لأمر طيب أن تكون الحرب بشعة إلى هذا الحد وإلا لراقت لنا أكثر من اللازم. وكما هو الحال فى كل ما يقوله مارس

روبرت، فإن الرجال كرروا شطحات بديهتهم الحاضرة مرارا، ودمروها من رجل إلى رجل، كما لو كان العلى القدير نفسه هو الذى تكلم. وعندما وصل التقرير الطرف الذى يقبع فيه إينمان عند الحائط فإنه لم يفعل شيئا سوى أنه هز رأسه. فحتى فيما مضى، فى بداية الحرب، كان رأيه مختلفا اختلافا بعيداً عن رأى لى، لأنه بدا له أننا نحب القتال حبا جما، وكلما كان أبشع كان أفضل. وكان يرتاب فى أن لى يحبها أكثر من أى شىء وأنه، لو سمح له بما يؤثره، لقادهم من خلال بوابات الموت ذاته. وما كان يزعج إينمان أشد الإزعاج، رغم ذلك، هو إن لى أوضح أنه ينظر إلى الحرب على أنها أداة لتوضيح إرادة الله الغامضة. وبدا له أن لى يرى إن المعركة، - من بين كل الأفعال التى قد يرتكبها الإنسان- لا يفوقها فى قدسيتها سوى الصلاة وقراءة الإنجيل. وأزعج إينمان أن اتباع مثل هذا المنطق سرعان ما يؤدى بالمرء إلى الإعلان عن المنتصر فى كل شجار وعراك كلاب بصفته بطل الله المعتمد. لم يكن يستطيع أن يعرب عن تلك الأفكار بين الجنود،، مثل أفكاره عن إنه لم يتجند لكى يضطلع بمهمة مارس إله الحرب أو واحد رزين وسيم الهيئة مثلما كان لى فى ذلك اليوم على مرتفعات ميريز.

كف الاتحاديون عن التقدم فى وقت متأخر من العصر، وخفت صوت إطلاق الرصاص. رقد آلاف الرجال ميتين أو يموتون فى الحقل المنحدر أسفل الجدار، وبحلول الظلام كان القادرون على الحركة قد كوموا الجثث ليقيموا مخبأ. وفى تلك الليلة التهب الشفق وتلألأ بألوان صارخة عبر السماء باتجاه الشمال. ورأى الرجال على طول الصف من أعلاه إلى أسفله فى مثل هذا الحدث النادر نذيرا،، وتنافسوا ليروا من يمكنه أن يعطى التفسير الأكثر إقناعا لمعناه فى كلمات واضحة. ومن مكان ما من فوقهم على التل أصدر كمان أنغاما حزينة من موسيقى لورينا. أنَّ الاتحاديون الجرحى وأعولوا وهمهموا من بين أسنان تصر فى الحقل المتجمد ونادى بعضهم أسماء محبوباتهم.

وبمصاحبة هذا تسلق من يرتدون أحذية رديئة الصنع من مجموعة إينمان الجدار لينتزعوا الأحذية من أقدام الموتى. وعلى الرغم من أن حذاء إينمان كان بحالة معقولة، إلا أنه قام بغزوة آخر الليل فى الحقل لمجرد أن يرى ما أنجزه جهد اليوم. كان الاتحاديون يرقدون بكثافة على الأرض فى أرجاء المكان فى أكوام ملطخة بالدماء، أجساما مبعثرة بكل أسلوب يمكن أن يتخيله العقل. ألقى

رجل يسير بجوار إينمان نظرة على المشهد وقال، لو أننى سمح لى أن أعمل بطريقتى، لشابه كل شىء شمال بوتوماك ذلك حتى التفصيل الأخير. وكان الخاطر الوحيد الذى خطر له وهو يشاهد العدو هو، ارجعوا إلى بيوتكم. كانت ملابس بعض الموتى قد ثبتت فيها أوراق تدل على من كانوا، والآخرون مجرد بلا هوية. رأى إينمان رجلا يقرفص لينتزع حذاء عن جسد ملقى مسجى على ظهره، ولكن ما إن رفع الرجل قدما وجذب، جلس الرجل الميت وقال شيئا بلكنة أيرلندية غليظة إلى حد أن الكلمة الوحيدة التى يمكن فهمها كانت خراء.

وفيما بعد، بعد منتصف الليل بعدة ساعات، ألقى إينمان نظرة داخل أحد البيوت المبعثرة فى الحقل. كان هناك ضوء يسطع من باب مفتوح عند نهاية واجهة الجمالون. فى الداخل جلست امرأة عجوز، شعرها مشعث بشكل فوضوى، وجهها مذعور. بجوارها على منضدة كانت هناك بقية شمعة مضاءة. وآخرون بالداخل، أموات اتخذوا أوضاع زحف باتجاه ملجأ. والمرأة تحدق مخبولة فيما وراء العتبة، فيما وراء وجه إينمان، كما لو كانت لا ترى شيئا. سار إينمان خلال البيت وخرج من الباب الخلفى ورأى رجل يقتل مجموعة من الاتحاديين مثخنين بالجراح بضربهم بمطرقة على رءوسهم. كان الاتحاديون مرتبين بنظام، رءوسهم كلها تشير إلى اتجاه واحد، والرجل يسير بنشاط على طول الصف، وهو يبذل جهدا واضحا فى أن يدع طرقة واحدة فى كل مرة تفعل فعلها. بلا غضب، مجرد التحرك من واحد إلى واحد مثل رجل لديه عمل عليه أن ينجزه. صفر لحن كورا إلين، همسا تقريبا. كان يمكن أن يقتل رميا بالرصاص، لو أن واحدا من الضباط ذوى العقول الرفيعة ضبطه، لكنه كان متعبا ويرغب أن يتخلص من عدد أكبر ولو قليلا من الأعداء مع قليل من المخاطرة بالنسبة لنفسه. سوف يتذكر إينمان على الدوام أن أول ضوء للفجر ظهر على وجه الرجل عندما وصل إلى نهاية الصف .

كان الرجل الأعمى قد جلس صامتا طوال حكاية إينمان. لكن عندما انتهى إينمان من حكايته، قال الرجل، أنت بحاجة لأن تنحى هذا عنك.

قال إينمان ما كنت لاختلف معك فى ذلك.

لكن ما لم يقله إينمان للرجل الأعمى هو أنه مهما حاول، فلن تتركه ساحة المعركة لكنها زودته بدلا من هذا بحلم متكرر، حلم كان يعاوده مرارا وتكرارا خلال الوقت الذى قضاه فى المستشفى. كان الشفق يتوهج وأشلاء الأجسام المبعثرة الملطخة بالدم- أذرع، رؤس، أرجل، جذوع - تتجاذب ببطء وتعيد تشكيل نفسها فى أجسام بشعة من أجزاء غير متوافقة. كانت تعرج وتترنح وتندفع فجأة إلى الأمام حول ساحة المعركة المظلمة مثل بلهاء عميان على أرجلهم المختلة. كانوا يتقافزون على أحدهم الآخر. يتناطحون برءوس مشقوقة دامية فى غيبوبتهم. ويلوحون بأذرعتهم المتنوعة فى الهواء، وقليل من الأيدى تشكل أزواجا مقنعة. بعضهم كان ينطق أسماء نسائهم. بعضهم يغنى نتفا من أغنيات مرة بعد مرة . وآخرون كانوا يقفون جانبا وينظرون فى الظلام ينادون على كلابهم بإلحاح.

حاول أحد الأشكال، جروحه مفزعة إلى حد أنه يشبه لحما أكثر مما يشبه رجلا، أن يقف لكنه لم يستطع. ارتمى على الأرض ثم رقد ساكنا باستثناء أدارته لرأسه. مد رقبته من على الأرض ونظر إلى إينمان بعينين ميتتين ونطق باسم إينمان بصوت خافت. وفى كل صباح بعد ذلك الحلم، كان إينمان يستيقظ فى حالة مزاجية أسوء من أشد الغربان سوادا التى طارت على الإطلاق.

عاد إينمان إلى العنبر، متعبا من المشى. كان باليس جالسا محملقا فى الغرفة المعتمة وهو يخربش بقلم الريشة فى الأوراق. دخل إينمان السرير وهو يفكر فى أن يغفو بقية الصباح، لكنه لم يستطع أن يجعل عقله يستريح، ولذا التقط كتابه ليقرأ. ما كان لديه هو الجزء الثالث من كتاب برترام رحلات. كان قد سحبه من صندوق كتب تبرعت به سيدات من العاصمة حريصات على التحسين الثقافى والجسمانى للمرضى. ويبدو أن الكتاب قد وهب لأنه قد فقد غلافه الأمامى، لذا فإن إينمان، فى محاولة منه لإحداث التناسق، قد نزع الغلاف الخلفى أيضا، تاركا كعب الكتاب فقط. واحتفظ بالكتاب مربوطا فى لفة من الرق بقطعة من الخيط الغليظ.

لم يكن كتابا يتطلب متابعته من الأمام إلى الخلف، ففتحه إينمان ببساطة عشوائيا، مثلما فعل ليلة بعد ليلة فى المستشفى ليقرأ حتى يهدأ بما يكفى لأن ينام. لم تفشل أعمال ذلك الرحالة الطيب المتوحد- الذى دعاه واحد من قبيلة

هندية « جامع الزهور» تكريما لأكياسه الجلدية المليئة بالنباتات ولاهتمامه الذى انصب كلية على نمو الأشياء الحية البرية- فى أن تخفف وطأة قلقه. قد أصبحت القطعة التى اتجه إليها قطعة مفضلة، كانت الجملة الأولى التى وقع عليها بصره هذه:

واصلت الصعود حتى بلغت قمة أخدود صخرى مرتفع، حين ظهرت أمامى ثغرة أو فتحة بين ارتفاعات أخرى أكثر علوا ، واصلت خلالها كيفما قادنى الطريق الصخرى الخشن، بالقرب من شواطئ جدول كبير سريع متعرجة، انحرف أخيرا باتجاه الشمال، وهو يصب أسفل منحدرات صخرية، ثم انساب خلال غيضة سوداء وغابات عالية، موصلا جداول من الخصب والمتعة إلى الحقول تحته.

جعلت مثل تلك الصور إينمان سعيدا، مثلما فعلت الصفحات التالية، حيث ارتحل برترام منتشيا إلى وادى كووى فى عمق الجبل، وهو يصف بأنفاس لاهثة عالما من السفوح والصخور الشامخة، أخدودا بعد أخدود تتلاشى زرقة فى المدى البعيد، وهو يتغنى أخيرا و يمضى بأسماء كل النباتات التى صادفت نظرته المحدقة كما لو كان يتلو محتويات مشروب قوى. وجد إينمان بعد فترة، على أى حال، أنه قد ترك الكتاب وأنه يشكل فحسب طبوغرافية موطنه فى رأسه. الجبل البارد، كل أخاديده وخلجانه الصغيرة وممراته المائية. نهر بيجون، ليتل ايست فورك، خليج سوريل ديب جاب . فاير سكولد ريدج. كان يعرف أسماءها ويقولها لنفسه مثل كلمات رقيات وتعويذات ليدرأ الأشياء التى تشتد خشية المرء فيها.

بعد ذلك بأيام سار إينمان من المستشفى إلى البلدة. كان رقبته تؤله كما لو كان هناك وتر يصل ما بينها وما بين النتوء اللحمى تحت إبهام القدمين قد انتزع ويرتجف بشدة عند كل خطوة يخطوها. لكنه شعر برجليه قويتين، وأقلقه ذلك. فما إن يتعافى ويصبح قادرا على القتال، حتى يشحنوه بحرا عائدا إلى فيرجينيا. وعلى الرغم من ذلك، فقد سره أنه رجل يستمتع بأوقات فراغه ما دام قد حرص على ألا يبدو عفيا أمام طبيب.

كان المال قد وصله من البيت وتسلم جزءا من متأخر راتبه، ولذا فإنه تجول فى الشوارع وتسوق من المحلات ذات الطوب الأحمر والإطار الأبيض. وعند أحد الترزية وجد معطفا أسود من الصوف المنسوج بإحكام على مقاسه تماما، على الرغم من أنه مفصل على مقاس رجل توفى أثناء تفصيله. باعه الترزى له بسعر مغر، وارتداه إينمان فى الحال وخرج من الباب وهو يرتديه. ومن أحد المتاجر ابتاع بنطلونا متصلبا من النسيج القطنى الغليظ داكن الزرقة. وقميصا صوفيا قشدى اللون، وزوجين من الجوارب، ومطواة كبيرة وسكينا بغمد، وأناء صغير وفنجانا، وكل الحشوات، وعلبا مستديرة من الصفيح بها كبسولات لمسدسه مما كان مخزونا فى المتجر. وقد لفت هذه الأشياء معا فى ورق بنى، وحمل اللفة معا بإصبع شبكه مثل خطاف فى الخيط الغليظ المتقاطع. ومن عند بائع قبعات اشترى قبعة عريضة الحافة بشريط رمادى؛ ثم عندما خرج إلى الشارع خلع قبعته القديمة الملوثة بالدهن وطوحها بعيدا لتستقر بين صفوف الفاصوليا فى حديقة شخص ما. قد يجدون فيها نفعا كلباس لخيال مآته. وثبت القبعة الجديدة على رأسه وذهب إلى محل إسكافى، حيث وجد زوجا جيدا متينا من الأحذية ذات الساق ناسبه مقاسها تماما. وترك حذاءه القديم وهو يجلس على الأرض ملتفا حول نفسه وذاويا ومنهارا. ومن محل بيع أدوات المكاتب ابتاع قلما بسن ذهبى ومحبرة وقليلا من أوراق الكتابة . وما إن انتهى من التسوق حتى كان قد أنفق كومة من الأوراق المالية التى تكاد تكون بلا قيمة تقريبا، كبيرة بحيث تكفى لإضرام النار فى خشب أخضر.

توقف متعبا عند نُزُل قرب المجلس التشريعى الذى تعلوه قبة وجلس إلى طاولة تحت شجرة. شرب قدحا من الشاى مخمر قال عنه صاحب الحانة إنه قهوة جلبت من خلال الحصار، على الرغم من أنه، من منظر محتوياته المطحونة، يتألف فى أغلبه من الهندباء وجريش الذرة المحروق مع ما يزيد قليلا من مسحوق حبات القهوة. كانت الطاولة المعدنية تصدأ فى قشرة برتقالية شبيهة بمسحوق يغلف الحواف، وكان على إينمان أن يحرص على ألا يحك أكمام معطفه الجديد على الجزء المتحلل وهو يعيد قدح قهوته إلى الطبق. جلس هنيهه بشكل رسمى، ظهره مستقيم، وقبضتا يديه مستقرتان على أعلى فخذيه. وبالنسبة لمراقب يقف فى منتصف الطريق ينظر إلى الخلف ناحية الطاولات فى

ظل شجرة البلوط، كان ليبدو صارما وغير مستريح فى معطفه الأسود، والضمادة البيضاء تلتف حول عنقه مثل رابطة عنق مربوطة بإحكام. كان من الممكن أن يفهم خطأ على أنه رجل يجلس معلقا فى الهواء أثناء تعرضه لتصوير شمسى طويل، موضوعا أصبح مذهولا بلا هدف بينما الساعة تدق وقد بلل لوح التصوير الحساس البطىء صورته وثبت على مدى الزمن جزءا من روحه.

كان إينمان يفكر فى هذا الرجل الأعمى. وقد اشترى منه نسخة من جريدة *ستاندا*رد ذلك الصباح مثلما فعل كل صباح أخيرا. كان إينمان يشفق على الرجل الأعمى الآن بعد أن علم كيف حدث عماه، فكيف تجد شيئا تكرهه من أجل شىء موجود فحسب؟ كم يكون ثمن ألا يكون لك عدو؟ ومن يمكنك أن تضربه من أجل أن تقتص منه سوى نفسك؟

شرب إينمان كل ما فى القدح ما عدا ثمالة القهوة ثم التقط جريدته، وهو يأمل أن يشغله شىء فيها ويوجه أفكاره وجهة أخرى. حاول أن يقرأ قطعة عن مبلغ سوء الحال خارج بيترزبورج. لكنه لم يستطع أن يحكم قبضته عليها. فقد كان يعرف، على أيه حال، كل ما يمكن أن يقال فى ذلك الموضوع. وعندما بلغ الصفحة الثالثة، وجد إعلانا من حكومة الولاية موجها إلى الهاربين من الخدمة العسكرية والهائمين على وجوههم وإلى عائلاتهم. فسوف يطاردون حتى يقبض عليهم. وسوف توضع أسماؤهم فى قائمة. وسوف يكون الحرس الوطنى متيقظا فى كل مقاطعة. ويقوم بدوريات ليلا ونهارا. ثم قرأ إينمان قصة مدفونة فى أسفل صفحة فى منتصف الجريدة. كانت تحكى أن توماس وقواته من القبائل الهندية قد خاضوا العديد من الاشتباكات مع الاتحاديين على حدود جبال الولاية الغربية. وقد وجهت إليهم الاتهامات بأنهم ينتزعون فروات الرأس. وأعربت الجريدة عن رأيها على الرغم من أن هذه الممارسة قد تكون وحشية، فإنها بمثابة تحذير غليظ بأن الغزو كان له ثمن فادح.

وضع إينمان الجريدة وراح يفكر فى صبية القبائل الهندية وهم ينتزعون فروة رأس الاتحاديين . كانت طريفة بشكل ما، أن عمال المطاحن أولئك الذين جاءوا واثقين من أنفسهم لكى يسرقوا أرضا لكنهم مع ذلك يفقدون قمم رءوسهم هناك فى الغابات...كان إينمان يعرف الكثيرين من قبيلة الهنود الذين

يبلغون من العمر ما يكفى لخوض الحرب تحت إمرة توماس، وتساءل عما إذا كان سويمر بينهم. كان قد التقى بسويمر فى الصيف عندما بلغ كلاهما السادسة عشرة. كان إينمان قد أوكلت إليه المهمة السعيدة بأن يصحب العجول لترعى آخر أعشاب الصيف فى أعالى جبل بلسم التى لا تغطيها نباتات طبيعية. وقد أخذ معه حصانا لحمل الأمتعة محملا بأدوات الطبخ ولحما من الضلوع والجريش وأدوات صيد السمك وبندقية رش وألحفة ومربعا من الخيش المغطى بالشمع لإقامة خيمة. توقع العزلة والاعتماد على الذات. لكنه عندما وصل إلى القمة الجرداء كان هناك حفل بكل معانى الكلمة. فقد أقام دسته من الرجال أو ما إلى ذلك من قبيلة الكاتالوش الهندية معسكرا على قمة الحافة وكانوا هناك لمدة أسبوع أو أكثر، متكاسلين فى هواء المرتفعات الرطيب يستمتعون بالمدى الذى يحررهم من البيت والمدفأة. كان مكانا بديعا، هناك على القمة الجرداء. كان لديهم مناظر على مدى البصر إلى الشرق والغرب، ومرعى جيد للمواشى، وجداول تسبح فيها أسماك التروتة على مقربة منهم. انضم إينمان إلى الرجال، وظلوا يطبخون عدة أيام وجبات هائلة من خبز الذرة المحمر والتروت ولحوم طرائد فى مرق على نار كبيرة حافظوا عليها مشتعلة بمستوى الركبة ليلا ونهارا. كانوا يبلعون الطعام بكل ألوان الخمر المصنوعة من الذرة والبراندى المصنوع من التفاح وجعة العسل المخمر الكثيفة حتى أن الكثير من المجموعة كانوا يرقدون مخمورين من فجر إلى فجر تال.

وسرعان ما أقبلت جماعة من قبيلة الهنود الشيروكيون من كوت كريك من الجانب الآخر من الحافة مع قطيع أعجف من البقرات المنقطة التى لا تنتمى إلى سلالة منفردة. أقام الهنود معسكرهم على مسافة قريبة ثم قطعوا أشجار صنوبر طويلة وصنعوا منها مرميين ووضعوا علامات على الحدود الفاصلة للعبة الكرة الشهيرة الخاصة بهم. جاء سويمر، وهو فتى غريب ذو يدين كبيرتين وعينين واسعتين، ودعا جماعة الكاتالوش إلى اللعب وهو يلمح بشكل غامض إلى أن الرجال يموتون أحيانا وهم يلعبون. قبل إينمان وآخرون التحدى. قطعوا وشطروا أعواد الشجر ليصنعوا منها مضاربهم. وشدوا أوتارها بشرائح من الجلد وأربطة الأحذية.

عسكرت المجموعتان جنبا إلى جنب لمدة أسبوعين، والرجال الأصغر سنا يلعبون لعبة الكرة معظم أوقات النهار، ويقامرون بمبالغ كبيرة على النتائج. كانت مباراة بلا وقت معين للعب وقليل من القواعد، حتى أنهم راحوا يجرون هناك وهناك ويرتطمون أحدهم بالآخر ويشطرون بمضاربهم كما لو كانوا يشطرون بهراوات حتى يصل فريق إلى عدد محدد من النقاط تسجل من خلال ضرب قوائم المرمى بالكرة. كانوا يلعبون معظم أوقات النهار ثم يمضون نصف الليل يشربون ويحكون حكايات بجوار النار. ويأكلون أكواما من سمك التروت المنقط الصغير، وقد قلى بحيث أصبح هشا، بما فى ذلك الشوك وكل شىء.

هناك فى المرتفعات ظل الجو صحوا معظم الوقت. افتقر الهواء إلى غبشته المعتادة، وامتد المنظر بلا نهاية عبر صفوف من الجبال الزرقاء، كل منها أكثر شحوبا من الجبل الأخير حتى لم يعد من الممكن تمييز الصفوف النهائية عن السماء. بدا الأمر كما لو أن العالم كله يمكن أن يتألف من لا شىء سوى الوادى والأخدود. وأثناء توقف فى اللعب، ألقى سويمر ببصره على أشكال الأرض وقال إنه يعتقد أن الجبل البارد هو الجبل الأساسى فى العالم. سأله إينمان كيف عرف أن ذلك حقيقى، وكسح سويمر بيده الأفق إلى حيث يقف الجبل البارد وقال، هل ترى جبلا أضخم منه؟

كانت أوقات النهار على القمة الجرداء العالية هشة، والضباب يرقد فى الأودية إلى درجة أن القمم ترتفع منها منفصلة مثل جزر زرقاء شديدة الانحدار مبعثرة عبر بحر شاحب. كان إينمان يستيقظ، وهو ما زال مخمورا جزئيا .ويمضى هابطا إلى خليج صغير ليصطاد السمك مع سويمر لمدة ساعة أو ساعتين قبل أن يعود لبدء اللعبة. كانوا يجلسون بجوار الجدول المنساب، وفى خطافيهما نوعان من الطعم، وسويمر يتكلم كلاما غير مترابط بصوت منخفض إلى درجة أنه يندمج مع صوت الماء، ويحكى حكايات عن الحيوانات وكيف وصلت إلى ما هى عليه. حيوان البوسم بذيل عار والسنجاب بذيل مهوش. الوعل بقرون. والفهد بأسنان ومخالب. والأصلة بلفات وناب. حكايات تشرح كيف جرت الحياة وإلى أين تتجه. تكلم سويمر أيضا عن تعويذات يتعلمها ليجعل الغايات المرغوبة تتحقق. تكلم عن أساليب تجلب البلاء، المرض، الموت، وكيف ترد الشر عن طريق النار، وكيف نحمى المسافر المتوحد على الطريق

بالليل، وكيف نجعل الطريق يبدو قصيرا. كان عدد من التعويذات له علاقة بالروح. وكان سويمر يعرف بضع طرق لقتل روح عدو وطرقا كثيرة لحماية روحك. وقد صورت تعويذاته الروح على أنها شيء هزيل معرض للهجمات على الدوام وفي حاجة إلى قوة، يهدد دائما بأنه سيموت بداخلك. وجد إينمان هذه الفكرة كئيبة حقا، إذ أنه قد تعلم من الموعظة والترنيمة ما يجعله يعتقد أن روح الإنسان لا تموت أبدا.

جلس إينمان خلال هذه الحكايات والتعويذات يراقب حافة دائرة الماء حيث يتموج التيار على خيط سنارته المنغمس، وصوت سويمر رنين يندفع، مريحا مثل خرير الجدول. وعندما يكونان قد اصطادا ملء جوال من سمك التروت الصغير، فإنهما كانا ينصرفان ويعودان أدراجهما ثم يقضيان النهار يضربان أحدهما الآخر بمضارب الكرة ويتدافعان ويتناكبان ويتضاربان.

ويعد عدة أيام حل جو مبلل، ولم يأت في موعده، إذ أنهم جميعا على الجانبين كانوا مرهقين، مصابين بخمار السكر، ومضروبين بالسياط. كانت هناك أصابع وأنوف مكسورة وتشققات شتى في الجلد.. كلهم مرقشون من الكاحل إلى مفصل الفخذ بكدمات زرقاء وخضراء من المضارب. كانت جماعة الكاتالوش قد خسرت للهنود كل ما يمكنهم أن يستغنوا عنه وبعض ما لا يمكنهم- مقلايات، وأفرانا معدنية ذات غطاء لطبخ اللحم، أجولة من اللحم، قوائم خشبية لصيد السمك، بنادق ومسدسات. خسر إينمان نفسه بقرة كاملة، وهي حقيقة لم يحسب حساب كيف يفسرها لأبيه. فقد راهن عليها قطعة بعد قطعة، نقطة بعد نقطة. وهو يقول في حمية اللعب، أراهن بخصر ذلك العجل الغض على النقطة التالية. أو، كل ضلع على الجانب الأيسر لبقرتي المراهنة يقول إننا سنكسب. وعندما انصرف المعسكران، كان عجل إينمان لا يزال يسير، لكن عديدا من الشيروكيين كان لهم حق في أجزائه الكثيرة.

وكنوع من التعويض والذكرى، أعطى سويمر إينمان، رغم ذلك، مضرب كرة بحالة طيبة مصنوعا من الهندباء مع شوارب خفاش ملولبة في زمام من جلد سنجاب. زعم سويمر أنها تمنح مستخدمه سرعة الخفاش وقدرته على الخداع. كان المضرب مزين بريش عصافير وصقور ومالك الحزين، وكما شرح له سويمر

فإن طباع تلك الحيوانات سوف تنتقل إلى إينمان. رشاقة الدوران والتحليق والانقضاض وثبات العزم الشديد. لم يحدث كل ذلك، لكن إينمان أمل ألا يكون سويمر قد خرج لقتال الاتحاديين ولكن أن يكون يعيش فى كوخ من لحاء الأشجار بجوار مجرى ماء منساب.

من داخل الحافة جاءت أصوات كمان تضبط أوتاره، زقرات متنوعة وسحبات قوس على سبيل التجربة، ثم محاولة بطيئة تتحسس عزف *أورالى،* تتخللها أصوات صرير وعواء مع كل بضع نغمات. وعلى الرغم من ذلك فإن اللحن المألوف غير متقبل لأداء هزيل، وطاف بذهن إينمان كم بدا صغيرا بشكل مؤلم، كما لو كان نسق لحنه لا يسمح بفسحة لتخيل مستقبل ملبد بالغيوم ومتشابك ومتفائل.

رفع قدح القهوة إلى شفتيه ووجده باردا وخاويا تقريبا، فأنزله. حدق فيه وراقب المسحوق الداكن يغوص فى ربع السائل المتبقى. دومت البقع الدقيقة الداكنة، اتخذت نسقا واستقرت. فكر قليلا فى التكهن، باحثا عن المستقبل فى ترتيب المساحيق التى صنعت منها القهوة، أوراق الشاى، أمعاء الخنزير، أشكال السحب. كأن النسق يقول شيئا يستحق أن يعرف. دفع الكأس ليزيل السحر وألقى نظرة على طول الطريق. فيما وراء صف من الأشجار الصغيرة ارتفع مبنى المجلس التشريعى، كومة رائعة من كتل الأحجار تعلوها قبة. كان أدكن قليلا من السحب العالية التى تلمع من خلالها الشمس مثل قرص رمادى ينحدر سلفا نحو الغرب. وفى الضباب الرقيق بدا مبنى المجلس التشريعى كأنه يقوم مرتفعا بشكل مستحيل، وجرمه مثل برج من القرون الوسطى وسط حلم بحصار. الستائر تتطاير إلى الخارج من نوافذ مكتب مفتوحة وتتمايل فى النسيم. وفوق القبة دائرة داكنة من الجوارح تحوم فى محارة السماء، وريشها الطويل مثل الخمار يرى بالكاد عند أطراف أجنحتها المنثلمة. وبينما كان إينمان يراقبها، لم ترفرف الطيور برفه جناح لكنها مع ذلك صعدت بالتدريج، وهى تمتطى عمودا هوائيا صاعدا، وتدور أعلى وأعلى حتى أصبحت خطوطا قصيرة صغيرة على وجه السماء.

وفى ذهنه، شبه إينمان مسالك حوم طيران الجوارح بمساحيق القهوة التى تبحث عن نسق فى قدحه. فباستطاعة أى امرئ أن يتنبأ بالطرق العشوائية التى

تؤثر بها الأشياء أحدها على الآخر. ومن السهل تماما أن نكشف الطالع لو أن المرء كرس نفسه لفكرة أن المستقبل سيكون حتما أسوأ من الماضى وأن الزمن ممر يؤدى إلى لا مكان سوى مكان به تهديد عميق وملح. والطريقة التى رآه بها إينمان هى أنه إذا استخدم شيء مثل فريد ريكسبورج بصفته معلما على الوضع الراهن فإنه بعد سنين عديدة من الآن، بالمعدل الذى نمضى به سوف يأكل أحدنا لحم الآخر نيئا.

وخمن إينمان أيضا أن تعويذات سويمر كانت على حق فى قوله إن روح الإنسان يمكن أن تمزق إربا وأن تتوقف ومع ذلك يظل الجسم حيا. فبإمكانهما أن يتقبلا ضربات الموت بشكل مستقل. كان هو نفسه حالة فى لب الموضوع. وربما لم تكن حالة نادرة، لأن روحه، فيما يبدو، قد احترقت وخرجت منه لكنه كان مع ذلك لا يزال يمشى. وهو يشعر بخواء، على أية حال، مثل قلب شجرة صمغ سوداء كبيرة. ويشعر أيضا بغرابة، لأن تجربته الحديثة قد أدت به إلى الخوف من أن مجرد وجود بندقية هنرى التى تكرر الطلقات أو مدافع المورتار ذات المواسير القصيرة جعلت كل حديث عن الروح باليا فى الحال. خشى أن روحه قد نسفت حتى أنه أصبح مستوحشا وغريبا عن كل ما حوله مثل طائر البلشون الحزين العجوز يقف يقظا بلا جدوى فى المسطحات الطينية فى بركة تفتقر إلى الضفادع. وبدا له أن البديل الهزيل فى أن يجد أن الطريقة الوحيدة التى يمكن للمرء أن ينأى بها عن الخوف من الموت هو أن يتصرف ببلادة وأن ينصرف لنفسه كأنه ميت بالفعل، دون أن يبقى من نفسك الكثير سوى كوخ من العظام.

وبينما جلس إينمان يتأمل ويحن إلى ذاته الضائعة، اندفعت فى ذاكرته بإلحاح وجاذبية إحدى قصص سويمر التى قصها عليه بجوار الجدول. زعم سويمر أن فوق قبة السماء الزرقاء توجد غابة يقطنها جنس سماوى. لم يكن باستطاعة الرجال أن يذهبوا إلى هناك وأن يمكثوا ويعيشوا، ولكن فى تلك الأرض العالية يمكن للروح الميتة أن تخلق من جديد. وصفها سويمر بأنها أرض بعيدة لا يمكن الوصول إليها، لكنه قال إن أعلى الكبير ترفع قممها إلى أكثر أعاليها انخفاضا. وأحيانا تعبر تلك العلامات والأعاجيب من ذلك العالم إلى عالمنا. وقال سويمر إن الحيوانات هى رسلها الأولية. كان إينمان قد أوضح

لسويمر أنه قد تسلق الجبل البارد حتى بلغ قمته، وجبل بيسجا وجبل ستيرلنج ايضا. لم تكن الجبال تبلغ ارتفاعا أكبر من أولئك، ولم ير إينمان من قممها أى مملكة أعلى.

كان سويمر قد قال إن الأمر ينطوى على أكثر من التسلق. وعلى الرغم من أن إينمان لم يستطع أن يتذكر ما إذا كان سويمر قد أخبره عما قد ينطوى عليه الأمر للوصول إلى المملكة الشافية، إلا أن الجبل البارد حلق عاليا فى ذهنه بصفته مكانا يمكن أن تستجمع فيه كل قواته المبعثرة. لم يكن إينمان يعتبر نفسه شخصا يؤمن بالخرافات، لكنه كان يؤمن بأن هناك عالما غير مرئى لنا. لم يعد يفكر فى ذلك العالم على انه السماء، لا ولم يكن مازال يفكر أننا نذهب إلى هناك حين نموت. فقد احترقت تلك التعاليم. لكن لم يكن بإمكانه أن يلتزم بكون يتألف فحسب مما يمكنه أن يراه، خاصة عندما كان ذلك فاسدا بشكل متواتر. وكذا استمسك بفكرة عالم آخر، مكانا أفضل، وتصور أنه يحسن به أن يعتبر الجبل البارد هو ذلك الموقع شأن أى مكان آخر.

خلع إينمان معطفه وسدله على ظهر كرسيه. وشرع يعمل فى كتابة خطاب. كان خطابا طويلا وعندما انقضى الأصيل شرب عدة أقداح أخرى من القهوة. وسود عددا من الصفحات من الوجهين بالحبر. وجد نفسه يقول أشياء لا يرغب فى قولها عن القتال. وعند إحدى النقط كتب :

« كانت الأرض مغطاة بالدماء وبإمكاننا أن نرى أين انسابت الدماء على الصخور وآثار أيد دامية على جذوع الأشجار »

ثم توقف وحشد جهوده وشرع يكتب ثانية على صفحة جديدة وكان هذا جزءا مما كتبه :

« أنا عائد إلى الوطن بطريقة أو بأخرى، ولا أدرى كيف يمكن أن تسير الأمور بيننا. فكرت أول الأمر أن أخبرك فى هذا الخطاب عما فعلته ورأيته حتى يمكنك أن تحكمى على قبل أن أعود. ثم قررت أن هذا يحتاج إلى صفحة متسعة باتساع السماء الزرقاء لكتابة الحكاية. وليس لدى الإرادة أو الطاقة على هذا. هل تذكرين الليلة السابقة على عيد الميلاد منذ أربعة أعوام مضت حينما أخذتك فى حجرى فى المطبخ بجوار الموقد وأخبرتنى

أنك سيروق لك أن تجلسي هناك إلى الأبد وأن تريحي رأسك على كتفي؟ إنه الآن لضمان مرير بقلبي أنك لو علمت بما رأيت وفعلت، لجعلك هذا تخشين أن تفعلي مثل هذا ثانية»

اعتدل إينمان في جلسته وألقى نظرة عبر مرج مبنى المجلس التشريعي. كانت هناك امرأة ترتدي ثوبا أبيض حاملة طردا صغيرا ملفوفا تسرع الخطو عبر العشب. مرقت عربة سوداء في الطريق بين مبنى المجلس التشريعي والكنيسة ذات الأحجار الحمراء. أثارت ريح الغبار في قارعة الطريق، ولاحظ إينمان أن الأصيل قد تقدم، والضوء يسقط بميل ينبئ عن مقدم الخريف. شعر بالنسيم يشق طريقه عبر ثنيه في الضمادة ويمس الجرح برقبته، الذي بدأ يؤلمه في الهواء المتحرك.

وقف إينمان وطوى الخطاب ثم وضع يده فوق الياقة وطرق بإصبعه الشق الذي كون قشرة. زعم الطبيب الآن أنه يلتئم بسرعة، لكنه لا يزال يشعر بأنه بإمكانه أن يدفع عصا بداخله وأن يخرجه من الناحية الأخرى دون أن يبدي مقاومة أكثر مما قد تبديه يقطينة عفنة . كان لا يزال يؤلمه أن يتكلم وأن يأكل وأن يتنفس أحيانا. ومما كان يزعجه أيضا الآلام العميقة في الأيام الرطبة من جرح أعلى الفخذ الذي أصيب به في مالفيرن هيل منذ سنوات مضت. أعطته جروحه، إجمالا، سببا كافيا لأن يشك في أنه سوف يشفى أبدا ويشعر بأنه صحيح وسالم مرة أخرى. لكن أثناء سيره على طول الطريق ليرسل الخطاب بالبريد ثم يرجع إلى المستشفى، شعر بساقيه قويتين ومطواعتين بشكل يدعو للدهشة.

عندما بلغ إينمان عنبره، رأى على الفور أن باليس لم يكن جالسا إلى طاولته. وكان سريره خاويا. ونظارته الداكنه ترقد فوق كومة أوراقه. سأل إينمان عنه وأخبروه أنه قد مات عند الأصيل ميتة هادئة. وقد بدا رمادي اللون وغادر طاولته إلى السرير، وتقلب على جنبه وأولى وجهه للحائط ومات كأنه يستسلم للنوم.

اتجه إينمان إلى الأوراق ونبش فيها. كان أعلى الصفحة الأولى يقول « شذرات » وقد وضع تحت الكلمة ثلاثة خطوط. بدا العمل فوضى تحير العقل، والخط عنكبوتيا، رفيعا مدبب الزوايا. كان به ضربات جانبية وخطوط متقاطعة

أكثر مما به من الكتابة الواضحة. وكل ما يمكن أن يتضح مجرد سطر هنا وسطر هناك، أحيانا ولا حتى جملة ولكن مجرد جزء متشظ منها. وكانت إحدى الأفكار التى اجتذبت عين إينمان وهو يقلب الصفحات هذه الفكرة: « إننا نسم بعض الأيام بأنها سراء، وبعضها بأنها ضراء، لأننا لا نرى أن سمة كل يوم متماثلة تماما » داخل إينمان اعتقاد بأنه يفضل أن يموت على أن يوافق على ذلك، وأحزنه أن يفكر فى أن باليس قد قضى أيامه الأخيرة يتدارس كلمات شخص أبله. ثم استوقفه سطر يبدو أكثر معقولية. كان هذا السطر « إن أكثر نظام على الأرض يروق للعين جماله ليس إلا كومة من الكناسة العشوائية » قرر إينمان أنه يستطيع أن يتفق مع هذا الرأى. ربت الصفحات على سطح المكتب ليسوى حوافها ثم وضعها فى مكانها.

وبعد العشاء راجع الربطات أسفل السرير. وأضاف إلى البطانية والمشمع اللذين وضعا سلفا فى مخلاته القدح والإناء الصغير والسكين ذى الغمد. أما الكيس الذى يحمله على ظهره فقد امتلأ منذ بعض الوقت بقطع من البسكويت الجاف وبعض جريش الذرة، وقطعة كبيرة من لحم الخنزير المملح، وقليل من اللحم المقدد اشتراه من العاملين بالمستشفى.

جلس بجوار النافذة وراح يراقب نهاية اليوم. كان غروب الشمس مزعجا. فقد تجمعت سحب منخفضة رمادية عند الأفق المنبسط، ولكن عندما هبطت الشمس إلى خط الأرض وجدت فتحة فى السحب وأرسلت شعاعا من الضوء بلون جمرات شجرة الجوز الملتهبة إلى أعلى مباشرة. كان الضوء أنبوبيا وحافته صلبة مثل ماسورة بندقية وقد انتصب قائما نحو السماء لمدة خمس دقائق كاملة قبل أن يتلاشى بشكل مفاجئ. أدرك إينمان تمام الإدراك أن الطبيعة تلفت الانتباه أحيانا إلى ملامحها الخاصة وتوصى بتفسيرها. غير أن السمة، فى أفضل ما يمكن أن تكشف له عنه، لم تفصح عن شىء سوى الشقاق والخطر والحزن.

استيقظ فى وقت ما فى غياهب الليل. كانت الغرفة حالكة الظلام، والأصوات الوحيدة أصوات الرجال يتنفسون ويشخرون ويتململون فى فراشهم. وهناك ضوء شحيح من النافذة فقط، وأمكنه أن يرى ضوء كوكب جوبيتر الناصع وهو

ينحدر باتجاه الأفق الغربي. وهبت الريح من النوافذ ورفرفت صفحات باليس الميت على الطاولة والتف قليل منها إلى الخلف وانتصب واقفا نصف انتصاب لدرجة أنها تلقت ضوء النافذة الباهت وهو يتخلل جوانبها الخلفية وتوهجت مثل أشباح قزمة مشوهة جاءت لتسكن المكان.

نهض إينمان وارتدى ملابسه الجديدة. وأضاف لفة الأوراق التى جلبها من محل بارتمان للأدوات الكتابية إلى مخلاته؛ ثم ثبت السيور الجلدية على ربطاته واتجه إلى النافذة الطويلة المفتوحة وألقى نظرة على الخارج حيث سادت ظلمة الهلال. كانت شرائط الضباب تتحرك منخفضة على الأرض على الرغم من السماء الصافية فى الأعالى. وضع قدمه على الحافة وخطا خارج النافذة.

الأرض تحت يديها

جلست إيدا فى شرفة البيت الذى أصبح لها الآن، وقد توازن على حجرها مكتب قابل للحمل. بللت طرف قلم فى الحبر وكتبت:

« لا بد أنك تعرف هذا، أنه على الرغم من غيابك، فإن الضوء الذى أرى فيه العلاقة السعيدة التى تقوم بيننا باهر إلى حد أننى لن أخفى عنك فكرة واحدة. لا تدع مثل هذه المخاوف تزعجك. واعلم أننى أعتبره واجبا متبادلا، ندين به أحدنا للآخر، أن نتواصل بروح من منتهى الصراحة والصدق. ولنفعل هذا دائما بقلوب مفتوحة»

نفخت فى الورقة لتجففها ثم أمعنت النظر فيما كتبت بعين ناقدة. لم تكن تثق فى خطها، فمهما حاولت فإنها لم تحذق اللغات الحلزونية والأقواس المنسابة فى فن الخطوط الجميلة. فالحروف التى تصر يدها على تشكيلها كانت بدلا من ذلك قصيرة بدينة ومكتظة مثل رموز سحرية. كانت تبغض فحوى الخطاب، أكثر حتى من فن الخط. كورت الورقة وطوحت بها فى شجيرة البقس.

قالت بصوت عال، هكذا يتكلم الناس بالضبط ولا علاقة له بالأمر الحقيقى المطروح.

ألقت نظرة عبر الفناء إلى حديقة المطبخ حيث تحمل الفاصوليا والكوسة و الطماطم خضراوات أكبر من حجم الإبهام بالكاد على الرغم من امتلاء موسم النماء. فقد أكلت الحشرات والديدان الكثير من الأوراق حتى أجهزت عليها. وقامت بين الصفوف وتطاولت فوق الخضراوات أعشاب كثيفة لم يكن باستطاعة إيدا أن تسميها ولا لها الطاقة أو الجرأة على محاربتها. وفيما وراء الحقل الخائب الظن امتد حقل الذرة العجوز، وقد نمت فيه إلى مستوى الكتف شجيرات السومات والحشائش السامة. وفوق الحقول والمراعي، كانت الجبال تبدو لتوها ظاهرة للعيان فيما تلاشى ضباب الصباح. قامت خطوطها الخارجية الباهتة عند الأفق، أكثر شبها بأشباح الجبال عنها بأشياء فعلية.

جلست إيدا تنتظرها أن تكشف عن نفسها بوضوح. تصورت أنه من المريح أن ترى شيئا كما يجب أن يكون، وإلا فإن عقلها ينزعج بفكرة أن كل شيء آخر فى عينها كان موسوما بالإهمال. فمنذ جنازة لم تعمل يدها فى الحقل. لقد حلبت البقرة التى أسماها مونرو والدو دون اعتبار لجنسها وأطعمت الحصان، رالف، لكنها لم تفعل أكثر من هذا كثيرا، لأنها لم تكن تعرف كيف تفعل أكثر من هذا. فقد تركت الدجاج يدبر أمره فأصبح هزيلا وجفولا، وهجرت الدجاجات عشتها الصغيرة وجثمت فى الأشجار وأسقطت بيضها حيثما واتاها مزاجها. عكرت صفو إيدا لعدم قدرتها على أن تستقر فى أماكن وضع البيض. كان عليها أن تبحث فى كل شق فى الفناء لتجد البيض، وذهب بها الاعتقاد إلى أنها اتخذت مذاقا جديدا إذ تغير نظام تغذية الدجاج من فتات المائدة إلى الحشرات.

وقد أصبح الطهو مسألة ملحة بالنسبة لإيدا. كانت جائعة بشكل دائم، إذ لم تتناول خلال الصيف سوى اللبن والبيض المقلى والسلطة وأطباق من الطماطم المنمنمة من النباتات غير المعتنى بها التى نمت برية وكثيفة بحشرات طفيلية. حتى الزبد أثبت أنه يعز على إمكانياتها، لأن اللبن الذى حاولت أن تمخضه لم يتماسك مطلقا أبعد من قوام لبن رائب سائل. اشتاقت إلى وعاء دجاج وعجائن كروية مسلوقة وفطيرة بالخوخ لكنها لم يكن لديها دليل عن كيف يمكن أن تصل إليها.

ألقت إيدا نظرة أخرى على الجبال البعيدة، وهى لا تزال شاحبة وباهتة، ثم نهضت وذهبت تبحث عن بيض. فحصت الحشائش على طول الجدار على مقربة من الحارة، وفرقت العشب الطويل عند قاعدة شجرة الكمثرى فى الفناء الجانبى، خشخشت بين الركام في الشرفة الخلفية، مرت بيديها على طول الأرفف الصدئة فى مخزن الأدوات. لم تجد شيئا.

تذكرت أن دجاجة حمراء قد أغرمت أخيرا بالتحويم حول شجيرتى البقس الكبيرتين على جانبى الدرج الأمامى ذهبت إلى الشجيرة التى ألقت فيها الخطاب وحاولت أن تفرّق الأوراق وأن تنعم بالنظر فى الداخل، لكنها لم تستطع أن ترى شيئا فى وسطها المعتم. طوت تنورتها بإحكام حول ساقيها، وشقت طريقها داخل شجيرة البقس. خدشت فروعها ساعديها ووجهها وهى تندفع إلى الداخل. كانت الأرض تحت يديها جافة وقد تناثر فيها ريش الدجاج وبراز دجاج قديم وأوراق الشجيرة الميتة الصلبة. وبالداخل كان هناك مكان مجوف. وكان النمو الخارجى للأوراق مجرد قشرة خارجية تحيط بمساحة كأنها غرفة صغيرة جدا.

جلست إيدا فيها وجالت ببصرها على الأرض وفى الفروع بحثا عن بيض لكنها وجدت قشرة مكسورة فحسب، وصفار بيضة جاف بلون الصدأ فى كأس قشرة مدببة الحواف.

توافقت مع فرعين وأراحت ظهرها على الجذع. كانت عريشة شجيرة البقس تفوح برائحة الغبار وحدة ومرارة الدجاجات. وكان الضوء معتما، يذكرها بلعب الطفولة فى الكهوف التى كانت تقوم فيها بفرد ملاءات على الطاولات أو أن تنصب خيمة من السجاجيد على أحبال الغسيل. كان أفضلها جميعا الأنفاق التى تحفرها هى وابنة عمها لوسى فى عمق أكوام التبن فى مزرعة عمها. وقد قضيتا أوقات أصيل ممطرة بكاملها مستكنتين وجافتين مثل ثعالب فى جحورها، وهما تهمسان بالأسرار إحداهما للأخرى.

وبإحساس مألوف بدغدغة المتعة اللذيذة، وضيق فى تنفسها، أدركت أنها الآن مختبئة، حتى أن أى واحد يمر من البوابة إلى الشرفة لم يكن ليعرف أنها هناك. ولو أن إحدى السيدات من الكنيسة قامت بزيارة إجبارية لكى تستفسر

عن رفاهتها، فبإمكانها أن تجلس بلا حراك بينما هم ينادون باسمها ويدقون على الباب. ولن تخرج حتى يمر وقت طويل بعد أن نسمع سقاطة البوابة تقعقع منغلقة، لكنها لم تتوقع أن يزروها أحد. فقد تلاشت الزيارات إزاء لا مبالاتها بها.

رفعت إيدا بصرها ببعض خيبة الأمل إلى زركشة السماء الزرقة التى يمكن رؤيتها من خلال الأوراق. ودت لو أن المطر كان يهطل حتى تشعر بمزيد من الحماية وهو يسبب حفيف أوراق الأشجار فوق رأسها. كانت نقطة المطر العرضية التى قد تشق طريقها محدثة صوتا فى وهدة منمنمة فى التراب، لتؤكد أن المطر كان يسقط بالخارج على نطاق واسع على الرغم من أنها ظلت جافة. ودت أبدا ألا تترك مطلقا هذا الملجأ الرائع، فحين أخذت المأزق الذى آلت إليه أخيرا بعين الاعتبار، تساءلت كيف يمكن تربية إنسان بطريقة غير عملية أكثر لمواجهة متطلبات حياة معرضة للخطر.

لقد كبرت فى تشارلستون ونالت تعليما تحت إلحاح مونرو فيما بعد النقطة التى يعدونها حصيفة بالنسبة للإناث. وقد أصبحت له رفيقة واسعة الاطلاع، ابنه مفعمة بالحيوية حريصة عليه. وقد عبئت بآراء فى الفن والسياسة والأدب. ولكن أى قدرات حقيقية يمكنها أن تدعى ؟ أى مواهب؟ تمكن معقول من الفرنسية واللاتينية. مقدار ضئيل من اليونانية. يد بارعة بدرجة مقبولة فى أشغال الإبرة الدقيقة، كفاءة فى عزف البيانو، رغم أنها بلا تألق. القدرة على تصوير المناظر الطبيعية والطبيعة الساكنة بدقة سواء بالقلم الرصاص أو الألوان المائية. وكانت واسعة الاطلاع.

تلك كانت القدرات التى تميزها والتى فى صالحها. لم يكن أى منها يبدو فى الصميم وهى تواجه بالحقيقة الصلبة أنا تجد نفسها مالكة لما يقرب من ثلاثمائة هكتار من الأراضى المنحدرة والمنخفضة، وبيت، وجرن، ومبان ملحقة، ولكن بلا أدنى فكرة عما تفعله به. كان العزف على البيانو يمنحها متعة، لكنها متعة لا تكفى لأن تعوضها عن إدراكها أخيرا أنها لا تستطيع اقتلاع الحشائش من صف من نباتات الفاصوليا الغضة دون أن تقتلع نصفها مع النباتات المزهرة.

داخلها قدر ما من الحنق حين فكرت فى أن قدرا من المعرفة التطبيقية فى مجال إنتاج الأغذية وإعدادها كان أكثر فائدة لها فى ذلك الوقت بالتحديد من أى فهم رفيع لمبادئ المنظور فى التصوير الزيتى. وعلى الرغم من هذا فإن أباها قد حال بينها و بين مشقة العمل طوال حياتها. فعلى امتداد ما يمكن أن تذكره كان يستأجر عونا كافيا، أحيانا السود المحررين، أحيانا بيضا ذوى طباع طيبة ممن لا يملكون أرضا، أحيانا عبيدا حيث تدفع الأجور فى هذه الحالة إلى مالكهم. وفى أغلب السنوات الست من إرساليتها فى الجبال، كان مونرو قد استخدم رجلا أبيض وزوجته الهندية الشيروكية جزئيا ليديرا المكان، تاركا إيدا بلا شىء تفعله سوى ابتكار قائمة الطعام الأسبوعية. ولذا فقد كانت حرة طليقة، كما كانت دائما، فى أن تشغل وقتها بالقراءة وأعمال الإبرة و الرسم والموسيقى.

لكن الأجراء قد رحلوا الآن. ولكن الرجل لم يعط الانفصال إلا تأييدا فاترا واعتبر نفسه محظوظا أن يكون أكبر سنا من أن يتطوع فى سنى الحرب الأولى. لكنه فى ذلك الربيع، و الجيوش فى فيرجينيا ينقصها الرجال بشكل يائس، بدأ يقلق من أنه سرعان ما قد يجند. ولذا فإنه، بعد موت مونرو بقليل، رحل هو وزوجته دون إعلان واتجه إلى أعلى الجبال ليعبر الخطوط إلى الأرض التى يستولى عليها الاتحاديون تاركا إيدا تدير أمرها وحدها.

منذ ذلك الوقت اكتشفت أنها غير مؤهلة بشكل مخيف لمهنة العيش على الكفاف؛ وهى تعيش وحيدة فى مزرعة كان أبوها يديرها بصفتها فكرة لا مورد رزق. فلم يكتسب مونرو مطلقا اهتماما كبيرا فى مجالات الزراعة العديدة المنهكة. كان يرى أنه إذا وسعه أن يشترى ذرة وجريشا للأكل، فلماذا يكلف نفسه عناء إنبات أكثر مما يمكنهم أكله مثل أكواز ذرة للشى؟ وإذا كان بوسعه أن يشترى لحم خنزير مدخنا وأضلع اللحم ، فلماذا ينجر إلى تفاصيل لحم الخنزير الأكثر إزعاجا ؟ سمعته إيدا ذات مرة يعطى تعليمات للأجير بأن يشترى دستة من الخراف أو ما إلى ذلك وأن يضعها فى المرعى أسفل الفناء الأمامى لتمتزج مع البقرة الحلوب. اعترض الرجل موضحا لمونرو أن الأبقار والخراف لا يصلحان للرعى معا. وسأله الرجل لماذا تريد خرافا؟ لصوفها؟ للحمها؟ وكانت إجابة مونرو، من أجل المحيط الجوى.

ولكن كان من الصعب العيش على المحيط الجوى، ولذا فإن شجيرة البقس بدت كما لو كانت توفر تقريبا كل شعور بالحماية يمكن لإيدا أن تتوقعها. قررت ألا تترك الشجيرة حتى يمكنها أن تعد على الأقل ثلاثة أسباب مقنعة حتى تفعل ذلك. ولكن بعد عدة دقائق من التفكير لم تتمكن من إيجاد سوى سبب واحد: لم تكن ترغب فى أن تموت بوجه خاص داخل شجيرة البقس.

فى تلك اللحظة، على أية حال، جاءت الدجاجة الحمراء مندفعة خلال الأوراق، وجناحاها مفتوحان جزئيا تمشى متثاقلة وتجر رجليها فى التراب. وثبت على فرع على مقربة من رأس إيدا وأصدرت صوت وقوقة مضطربا وجاء خلفها مباشرة الديك الذهبى الأسود الذى يخيف إيدا قليلا على الدوام بشراسته . كان عاقد العزم على امتطاء الدجاجة لكنه توقف ، وقد فزع عندما رأى إيدا فى مكان غير متوقع مثل هذا. أمال الديك رأسه بزاوية وثبت عينه السوداء اللامعة عليها. أخذ خطوة إلى الوراء ونبش فى الأرض. كان قريبا من إيدا بما يكفى لأن تلاحظ التراب الذى يسكن بين الحراشيف على رجليه الصفراوين . بدا مهمازا رجليه العنبريان طويلين مثل أصبع. انتفش عرفه الريشى على رأسه ورقبته وتضخم حتى بدا ريشه بلمعانه كأنه قد ذبح. هز نفسه ليعيد الريش إلى مكانه. كان للجزء الأسود من جسمه. لمعة خضراء زرقاء مثل زيت يطفو على الماء. انفتح منقاره و انغلق.

ودار بخلد إيدا، لو أنه يزن مائة وخمسين رطلا لقتلنى حيث أجلس بلا شك. تزحزحت على ركبتيها وقالت، هش! وعندما فعلت ذلك ، اندفع الديك صوب وجهها وهو يتلوى فى الهواء حتى أن مهمازى رجليه طالاها أولا، وجناحاه يضربان. رفعت إيدا يد لتدرأ خطره وجرح مهماز رسغها. أسقطت ضربتها الطائر على الأرض، لكنه نهض وهاجمها ثانية، وجناحاه مثل مروحتين. وبينما راحت تزحف على قدميها ويديها مثل سرطان البحر لتخرج من تحت الشجيرة، أنشب الديك مهمازا وعلقه فى طيات تنورتها. اندفعت من الشجيرة بتخبط هائل ونهضت لتجرى، والديك لا يزال عالقا بتنورتها عند مستوى الركبة. راح الطائر ينقر ربلتى ساقيها ، وضرب مرة بعد مرة بمهماز رجله الطليقة وهو يضربها بجناحيه. صوبت إيدا إليه ضربات بكفيها حتى سقط بعيدا وعندئذ جرت إلى الشرفة واندفعت إلى داخل البيت .

غاصت فى متكأ وتفحصت جراحها. كانت هناك لوثة من الدم بمعصمها مسحتها ورأت بارتياح أنها قد خدشت أكثر مما توقعت قليلا. نظرت إلى تنورتها ووجدتها مغبرة و ملطخة بروث الدجاج وممزقة فى ثلاث أماكن. ثم نهضت لتنظر إلى ساقيها كانتا موسومتين بطرق مختلفة بخدوش وعضات لم يكن أيها غائرا بما يكفى لأن تدمى. لسعها وجهها ورقبتها من خدوش أصابتها وهى تزحف خارجة من الشجيرة . ربتت على شعرها ووجدته رطبا حول رأسها كله. قالت لنفسها هذا هو المكان الذى وصلت إليه. إننى أعيش فى عالم جديد حيث هذه هى ثمار حتى البحث عن بيض.

نهضت من المقعد وصعدت الدرج إلى غرفتها وخلعت ملابسها. وعند مغسلتها ذات السطح المرمرى، سكبت الماء من الإبريق فى الحوض واغتسلت بقطعة صابون لها رائحة الخزامى وقطعة قماش. تخللت شعرها بأصابعها لتمشط أوراق البقس ثم تركته ينسدل على كتفيها. كانت قد تخلت من كلا نمطى الشعر السائدين. إما ململما من كل الجوانب وممشطا بالفرشاة فى شكل لفتين كبيرتين تتدليان على جانبى رأس المرأة مثل أذنى كلب صيد، أو مجذوبا بإحكام على فروة الرأس فى شكل كعكة فى الخلف مثل حصان علق بذيله وحل. فلم تعد لديها حاجة أو صبر على مثل هذه الأنماط. كان بوسعها أن تتحرك فيما حولها وهى تبدو مثل امرأة مجنونة فى بطاقة ملصقة بكتاب تدل على صاحبه، ودون أن يهمها، لأنها أحيانا يمر بها أسبوع أو عشرة أيام دون أن ترى أحدا البتة .

ذهبت إلى خوانها تبحث عن ملابس داخلية نظيفة ولم تجد شيئا، إذ أهمل الغسيل لبعض الوقت. ارتدت ملابس داخلية كتانية سحبتها من قرب قاع كومة الملابس القذرة، وهى تتعلل بحجة أن الوقت قد جعلها أكثر طزاجة من الملابس التى خلعتها لتوها. وألقت فوقها رداء نظيف نوعا ما وتساءلت عن كيف يمضى بها الوقت خلال الساعات حتى يحين موعد النوم. متى تغيرت الأشياء إلى حد أنها لم تعد تفكر فى كيف تقضى اليوم بشكل لطيف أو مريح وبدأت تفكر كيف تقضى اليوم فحسب؟

لقد تلاشت إرادتها على الفعل تقريبا. كل ما أنجزته مما يستحق التذكرة قي الأشهر التى تلت موت مونرو هو أن فرزت الأشياء، ملابسه وأوراقه. حتى ذلك كان مضنيا، لأنها داخلها شعور غريب ومخيف عن حجرة أبيها ولم يمكنها

أن تدخلها حتى مضت أيام كثيرة بعد الجنازة. لكنها خلال ذلك الوقت كانت غالبا ما تقف عند الباب وتنظر إلى الداخل مثل ناس ينجذبون إلى الوقوف عند حافة جرف وينظرون إلى أسفل. كان هناك إبريق ماء قائم عند مغسلة حتى اختفى بمحض إرادته. وعندما استجمعت أعصابها أخيرا على أن تفعل ذلك، دخلت وجلست على السرير تبكى وهى تطوى القمصان البيضاء جيدة الصنع والمعاطف السوداء والسراويل لتخزينها. فرزت وألصقت بطاقات ووضعت أوراق مونرو فى صندوق، مواعظه ومذكراته عن النباتات ويومياته العادية. جلبت كل مهمة معها جولة جديدة من الحداد وسلسلة من الأيام الخالية التى مضت فى النهاية حتى وصل بها الأمر إلى هذا الحال لدرجة إن الإجابة على السؤال، ماذا أنجزت اليوم؟ كانت لا شىء.

التقطت إيدا كتابا من على الطاولة بجوار السرير وذهبت إلى القاعة العلوية وجلست فى المقعد المحشو الذى جرته من غرفة نوم مونرو ووضعته فى مكان يسمح باستقبال ضوء كاف من نافذة القاعة. وقد قضت ردحا طويلا من الأشهر الثلاثة الرطبة الماضية جالسه فى المقعد تقرأ، وقد التفت بلحاف لتتقى برد البيت حتى فى شهر يوليو. كانت الكتب التى سحبتها من الأرفف فى ذلك الصيف متنوعة وعشوائية، روايات حديثة نوعا ما، أيا ما صادف أن التقطته من حجرة مكتب مونرو. أشياء لا تستحق الذكر مثل رواية لورانس *السيف والرداء* وكتبا كثيرة من هذا الطراز. كان باستطاعتها أن تقرأ مثل هذه الكتب وألا تعرف بعد يوم واحد عم كانت تدور. فعندما تقرأ كتبا أكثر جدارة بالذكر، كانت المصائر القاسية لبطلاتها المقضى عليهن بالفشل تؤدى إلى تعميق اكتئابها فحسب. ولفترة من الزمن، كان كل كتاب تلتقطه من على الأرفف يخيفها، كل محتوياتها تتعلق بأخطاء تقترفها نساء تعيسات شعورهن سوداء إلى حد أنهن ختمن حياتهن معاقبات، منفيات، غريبات. اتجهت مباشرة من *طاحونة على نهر فلس* إلى حكاية نحيلة مزعجة كتبها هوثورن تدور نوعا ما حول نفس الفكرة. لم يكن مونرو فيما يبدو قد أتم قراءتها لأن الصفحات لم تفض فيما بعد الفصل الثالث. خمنت أن مونرو كان ليجده كتابا جهما بلا ضرورة، لكنه بدا لإيدا تمرينا طيبا على عالمها الآتى. ومهما كان أمر الكتاب، رغم ذلك، فقد بدت كل الشخصيات تعيش حياة أكثر امتلاء مما تفعل هى.

فى أول الأمر كان كل ما يروق لها فى البقعة التى تقرأ فيها هو المقعد المريح و الضوء الجيد، لكنه بمضى الشهور بدأت تقدر أن المنظر من النافذة

يتيح نوعا من الراحة عن التوتر الذى تسببه تلك القصص الكئيبة لأنها عندما ترفع عينيها عن الصفحة كانت عيناه تجتاحان الحقول وترتفعان على موجات الأخاديد الضبابية إلى جرم الجبل البارد الأزرق. كان المشهد من مقعد القراءة يواجهها بكل الأشكال والألوان الكبرى فى وضعها الحالى. فخلال الصيف، كانت حالة المنظر الطبيعى المزاجية الأكثر ترددا معتمة و كئيبة. الهواء الرطب الذى يأتى من خلال النافذة مشبعا بأريج العطن و النماء ، ويحمل للعين نفس السمة الكثيفة المتلألئة عبر مسافة بعيدة من خلال المنظار المكبر. وعبء الرطوبة فى الهواء يعمل عمله على الإدراك الحسى كما تعمل البصريات ذات النوعية الرديئة، إذ تشوه المسافة و الارتفاع وتمددها تضاؤلها، وتغير الإحساس بالكتلة لحظة بلحظة. منحت إيدا من خلال النافذة درسا تعليميا فى كل أشكال الرطوبة المرئية- غبشة الضوء ، ضبابات الوادى الكثيفة، مزق السحاب معلقة مثل خرق على أكتاف الجبل البارد، المطر الرمادى يتساقط مستقيما فى خطوط طوال النهار مثل خيط غليظ قديم معلق من السماء.

وجدت أن حب هذه الأرض المحدودبة الملبدة بالسحب شىء أكثر صعوبة وأكثر رهفة إجمالا من تذوق صوت تشارلستون الهادئ أثناء نزهة مسائية على طول طريق باترى وحصن سمتر على مسافة بعيدة، والبيوت البيضاء الكبيرة خلف المرء والنخيل ذو السعف المروحى يقعقع سعفه فى نسمة بحر كانت الكلمات التى ينطق بها هذا المنظر المنحدر، بالمقارنة، أقل خفوتا وأكثر خشونة. بدت الخلجان الصغيرة والأخاديد والقمم مغلقة ومحيرة، مكانا جيدا للاختباء.

كان الكتاب الذى تقرؤه إيدا ذلك اليوم كتابا آخر من كتب أبيها، حكاية عن مغامرة على الحدود كتبها سيموس، أحد سكان تشارلستون وصديق لمونرو التقت به إيدا فى عدة مناسبات حين قدم إلى البلدة من مزرعته فى ايديستو. تذكرت سيموس لأنها لم يمض عليها وقت طويل منذ تسلمت خطابا من أحد معارفها فى تشارلستون يصف عرضا أصابه بغم هائل لموت زوجته منذ زمن قريب. لم ينقذه شىء من الحنون سوى المهدئات كما كتب صديقه ولم تستطع إيدا ان تطرح هذه الجملة عن أفكارها.

شرعت تقرأ، ولكن على الرغم من أن أحداث القصة كانت مثيرة، فإنها لم تستطع أن تستبعد فكرة الطعام من عقلها. فمنذ لم يسر أمر البحث عن البيض فى صالحها، لم تكن قد تناولت طعام إفطارها، رغم أن الصباح ينتصف وبعد

قراءة عدد قليل من الصفحات فحسب وضعت الكتاب فى جيبها ونزلت إلى المطبخ وجاست خلال حجرة خزانة الطعام بحثا عن شىء يمكنها أن تعمل منه وجبة. قضت ساعتين تقريبا تضرم النار فى الموقد وتحاول أن تخمر رغيفا من دقيق القمح الأبيض ببيكربونات الصوديوم المخمر الوحيد الذى وجدته ورغم ذلك فإن الرغيف كان أشبه ببسكويتة كبيرة سيئة الصنع حين خرج من الفرن؛ قشرته ذات نسيج مثل نسيج كعكة رقيقة هشة، والباقى مشبع بالماء له مذاق دقيق غير مطهى. قضمت إيدا قطعة ثم استسلمت وألقت بها فى الفناء لينقر الدجاج فيها. وفى الغداء أكلت مجرد طبق من الطماطم الصغيرة والخيار، قطعت شرائح وقطرت بالخل ورش عليها ملح. ورغم كل الرضا الذى أدخله هذا عليها، فقد تكون قد تنفست هواء فحسب.

تركت إيدا طبقها القذر وشوكتها على الطاولة. تناولت شالا من على الأريكة حيث يرقد مكورا وهزته ولفته حول كتفيها. ذهبت إلى الشرفة ووقفت تنظر. كانت السماء صافية وإن كانت مغبشة حتى أن اللون الأزرق بدا باهتا ونحيلا. استطاعت أن ترى الديك الذهبى والأسود بالقرب من مخزن الغلال. كان ينبش الأرض وينقر حيث نبش ثم راح يخطو فيما حوله بشراسة. تركت إيدا البيت واتجهت إلى البوابة و خرجت إلى الحارة. كانت حركة المرور بها ضئيلة أخيرا إلى حد أن متن الأرض فى منتصفه قد نما فيه باقة من نباتات زهرة النجمة وذيل الثعلب. و السياجات على جانب الطريق قد بطنتها أزهار دقيقة صفراء وبرتقالية، وذهبت إيدا ولمست واحدة منها لتراقبها وهى تتقصم وتطرح بذورها.

قالت بصوت عال، عشب متقصف، سعيدة أن هناك شيئا يمكنها أن تطلق عليه اسما ، حتى لو كان اسما من ابتكارها.

سارت إلى آخر الحارة ثم خرجت من الخليج الأسود وسارت فى طريق النهر. وبينما هى سائرة قطفت باقة من الزهور البرية – أى شىء وقعت عليه عيناها– هلاك البرغوث، حشيشة الملاك، بذرة الخنفساء، وحشيشة الشفاء. وعند النهر استدارت باتجاه أعاليه نحو الكنيسة. كان الطريق شارعا عموميا للناس وقد ثلمته آثار عجلات عربات الشحن وغار تحت مستواه من شدة الاستخدام. و المواضع المنخفضة قد مخضت بحيث أصبحت مستنقعا موحلا من مرور الجياد والأبقار و الخنازير، وفى مثل تلك الأماكن تآكلت ممرات المشاة على جانب الطريق بفعل المشاة الذين ينشدون تجنب الغوص حتى أعلى

احذيتهم ذات الساق. وعلى طول جانب الطريق كانت الأشجار تتدلى مثقلة بحملها فى الأوراق الخضراء التى تدنو من آخر الموسم. بدت متعبة من النمو، منهدلة، رغم أن ذلك لم يكن بفعل الجفاف إذ كان الصيف رطبا و النهر الأسود على جانب الطريق ينساب عميقا وناعما.

بعد خمس عشرة دقيقة بلغت إيدا الكنيس الذى عهد به إلى مونرو. كان بالمقارنة إلى كنائس تشارلستون الرائعة لا تكاد عمارته تبلغ فى شكلها أكثر من مصيدة طيور، لكن نسبها - درجة ارتفاع جمالون سقفه ، نسب طوله وعرضه وارتفاعه، وضع سقف البرج المخروطى الشديد الانحدار- كانت من المؤكد ضئيلة ورشيقة. وقد نمى مونرو فى نفسه قدرا عظيما من التعليق العاطفى بالكنيس، لهندسته الدقيقة التى تتفق جيدا مع دوافعه البسيطة فى سنى حياته الأخيرة، كان غالبا ما يقول وهو يسير مع إيدا متجهين إلى الكنيس من النهر، هكذا يتكلم الله بهذه اللغة المحلية الخاصة.

صعدت إيدا التل وذهبت إلى المدافن خلف الكنيسة ووقفت أمام قطعة الأرض التى دفن فيها مونرو. لم يكن التراب الأسود قد نما فيه بعد عشب طويل كثيف. لم يزل حتى الآن بلا شاهد، إذ رفضت إيدا الأساليب المحلية - إما صخرة من صخور النهر المستوية أو لوح من البلوط خدش الاسم و التواريخ بشكل باهت على سطحه. كانت قد طلبت بدلا من هذا شاهدا منحوتا من الجرانيت من موطنها فى المقاطعة. وضعت الزهور على الأرض عند رأس المقبرة والتقطت الحزمة القديمة التى أصبحت الآن ذابلة ومشبعة بالرطوبة.

كان اليوم الذى توفى فيه مونرو فى شهر مايو. فى وقت متأخر من أصيل ذلك اليوم كانت إيدا قد أعدت نفسها للخروج لبعض الوقت ومعها صندوق ألوان مائية وفرخ من الورق لترسم الزهور التى تفتحت حديثا على نبات الودية بجوار الجدول السفلى. وبينما هى تغادر البيت، توقفت لتتكلم مع مونرو الذى جلس يقرأ كتابا فى كرسى من قماش القنب المخطط مما يستعمل فى الخلاء تحت شجرة الكمثرى. بدا متعبا وقال إنه يشك فى أن لديه من الطاقة ما يسمح حتى بالانتهاء من الصفحة التى يقرؤها قبل أن يخلد للنوم، ولكنه طلب منها أن توقظه عندما تعود، لأنه لم يكن يريد أن ينام فى رطوبة المساء. قال إنه يخشى أيضا أنه قد تجاوز بالكاد العمر الذى يمكنه فيه أن ينهض من كرسى بهذا الانخفاض دون مساعدة.

غابت إيدا أقل من ساعة. وما إن سارت من الحقول دلفت إلى الفناء حتى رأت أن مونرو يرقد فى هدوء تام. كان فمه مفتوحا وظنت أنه ربما كان يشخر وأنها سوف تداعبه أثناء العشاء لأنه ترك نفسه مكشوفا فى مثل هذا الوضع غير اللائق. مشت إليه لتوقظه، لكن بينما هى تقترب استطاعت أن ترى أن عينيه مفتوحتان، وقد سقط الكتاب فى العشب. صعدت الدرجات الثلاث الأخيرة جريا ووضعت يدها على كتفه لتهزه، ولكنها عرفت بمجرد لمسه أنه كان ميتا،لأن اللحم تحت يدها كان خامدا تماما.

ذهبت بأسرع ما يمكنها طلبا للعون، وهى تعدو أحيانا وتمشى أحيانا على الدرب الذى يختصر المسافة ويعبر الحافة المرتفعة ويهبط باتجاه طريق النهر بالقرب من مسكن آل سوانجر وما حوله. فمن ذلك الطريق كانوا أقرب الجيران. كانوا أعضاء من جماعة المصلين مع أبيها .وقد عرفتهم إيدا منذ أيامها المبكرة جدا فى الجبال. بلغت بيتهم وهى تلهث وتبكى. وقبل أن يتمكن ايسكو سوانجر من أن يعقل حصانيه فى العربة ويعود مع إيدا من طريق الشارع الدائرى، نزل المطر من الغرب. وعندما عاد إلى الخليج الصغير كان مونرو مبتلا مثل سمكة تروت وعلى وجهه تويجات شجر القرنوس. وكانت الصورة التى رسمتها إيدا بالألوان المائية وسقطت منها تحت شجرة الكمثرى طرطشة تجريدية من اللونين الأحمر الوردى والأخضر.

قضت تلك الليلة فى بيت آل سوانجر، وهى ترقد مستيقظة مفتوحة العينين، تفكر لوقت طويل أنها كانت تتمنى أن ترحل قبل مونرو، رغم أنها تعرف فى أعماق نفسها أن الطبيعة تفضل ترتيبا معينا: يموت الأباء ثم يموت الأطفال، لكنه كان تصميما قاسيا، يسمح بقدر ضئيل من الراحة من الألم، فالتوافق معه يعنى أن المحظوظين يجدون أنفسهم يتامى.

دفنت إيدا مونرو بعد ذلك بيومين فى التلة التى تقع فوق ليتل ايست فورك من نهر بيجون. كان الصباح مشرقا، وريح معتدلة تجتاح سفح الجبل البارد، وكل العالم يرتجف فيها. وبالهواء قليل من الرطوبة من باب التغيير، وبدت كل ألوان وحواف الأشياء هشة بدرجة غير طبيعية. ملأ أربعون شخصا يرتدون الحداد الكنيس الصغير تقريبا. رقد التابوت على حمالتين أمام منبر الوعظ، وقد ترك غطاؤه مفتوحا. وكان وجه مونرو قد تداخل بعضه فى بعضه منذ موته، وقد جوفت الجاذبية وهى تعمل عملها فى الجلد المتراخى وجنتيه ومجرى عينيه، وبدا

انفه أكثر حدة وأطول عما كان عليه فى الحياة. وكان هناك بريق شاحب فى بياض العين حيث ارتفع أحد الجفنين تاركا شقا.

مالت إيدا وقد كورت يدها على فمها، وخاطبت رجلا عبر المشى بين مقاعد الكنيسة بصوت خافت. نهضت وصلصل فى جيوبه بحثا عن فكة وأخرج سنتين ذهب ووضع واحدا على كل من عينى مونرو، لأن مجرد أن يعطى العين المفتوحة فحسب كان يبدو أمرا غريبا وقرصانيا. كانت صلاة الجنازة مرتجلة حيث لم يكن هناك قس آخر مُرسَم من ملتهم يعيش فى نطاق مسافة يمكن قطعها سفرا، وقد رفض كل القساوسة من مختلف أنماط المعمدانيين المحليين أن يشاركوا قصاصا من تخليه عن الاعتقاد فى رب لصبره ورحمته أوجه قصور قاسية. كان مونرو فى حقيقة الأمر يعظ بأن الله لم يكن على الإطلاق واحدا مثلنا، واحد يميل مزاجيا لأن يدوس بغضب علينا حتى تتطاير دماؤنا وتلطخ رداءه الأبيض، بل الأحرى أنه ينظر إلى أفضل وأسوأ البشر بشفقة متعبة مذهولة.

ولذا فإنهم تقبلوا الأمر مع كلمات من قليل من رجال الكنيسة. جرجروا أقدامهم واحدا وراء الآخر إلى المنبر ووقفوا وأذقانهم مطوية على صدورهم حتى يتجنبوا النظر مباشرة إلى جمع المصلين، وبخاصة إلى إيدا التى كانت تجلس فى المقعد الأمامى فى جانب النساء. كان ثوب حدادها، الذى صبغ فى اليوم السابق بلون أسود يميل للخضرة مثل ريش رأس ذكر البط، مازال يفوح معطرا من تلك العملية. ووجهها أبيض مثل وتر عار من حزنها الطاغى.

تكلم الرجال بحرج عما أسموه علم مونرو الغزير وصفاته البديعة الأخرى. عن كيف أسبغ على الطائفة نورا وهاجا منذ قدم من تشارلستون. تكلموا عن أفعاله الصغيرة التى تنم عن الطيبة والنصائح الحكيمة التى قدمها. كان ايسكو سوانجر واحدا من الخطباء، أفصح قليلا من الباقين، رغم أنه لا يقل عنهم عصبية. تكلم عن إيدا وخسارتها الفادحة، عن كيف ستفتقد عندما تعود إلى موطنها فى تشارلستون.

ثم وقفوا، فيما بعد، بجانب القبر والتابوت يتدلى بأحبال بواسطة ستة رجال من الطائفة الذين حملوا الصندوق من الكنيس، وعندما استقر التابوت مستريحا فى حفرته، قاد واحد آخر من الرجال صلاة أخيرة، وهو ينوه بعنفوانه، وخدمته للكنيسة والطائفة بلا كلل، والفجائية المزعجة التى تعثر بها وسقط فى كرى

الموت الأبدى. بدا عليه أنه يجد فى تلك الأحداث البسيطة رسالة يوجهها للجميع عن طبيعة الحياة المتقلبة، وكيف أن الله يعنيها بصفتها عبرة.

كانوا قد وقفوا جميعا بينما القبر يردم، ولكن كان على إيدا، فى منتصف عملية الردم، أن تدير بصرهابعيدا باتجاه منحنى النهر لكى تستطيع أن تتحمل اللحظة. لكن الجميع استداروا ومضوا، عندما كان القبر يدك ويكوم التراب فوقه. أمسكت سالى سوانجر بمرفق إيدا وقادتها أسفل التل.

قالت: أنت تقيمين معنا حتى يمكنك أن ترتبى أمورك للعودة إلى تشارلستون.

توقفت إيدا ونظرت إليها. قالت، أنا لست راجعة إلى تشارلستون على الفور.

قالت السيدة سوانجر، يا آلهى. إلى أين تذهبين؟

قالت إيدا، الخليج الأسود. سوف امكث هنا، لبعض الوقت على الأقل.

حدقت السيدة سوانجر فيها، ثم تمالكت نفسها. قالت، كيف ستفلحين فى هذا؟

قالت إيدا، لست متأكدة تماما.

أنت لن تذهبى إلى ذلك البيت الكبير المظلم وحدك اليوم. تناولى الغداء معنا وامكثى حتى تكونى مستعدة للرحيل.

قالت إيدا، أكون ممتنة. وأقامت مع آل سوانجر ثلاثة أيام ثم عادت إلى البيت الخاوى، خائفة ووحيدة. وبعد ثلاثة أشهر، كان الخوف قد ذوى تقريبا، لكن إيدا عدت ذلك راحة ضئيلة إذ أن حياتها الجديدة بدت لها منظرا مقدما لنفسها كامرأة عجوز مغطاة بأمواج الوحدة والشعور بإمكانياتها المتضائلة.

استدارت إيدا من قطعة أرض القبر وهبطت التل إلى الطريق وقررت حين بلغته أن تظل ماشية إلى أعالى النهر وتقطع الطريق المختصر إلى الخليج الأسود. فإلى جانب أنه طريق أسرع، فإن له ميزة أنه يؤدى بها إلى مكتب البريد. كما أنها سوف تمر ايضا على بيت آل سوانجر، حيث قد يقدمون لها بعض الغذاء.

مضت على طول الطريق والتقت بعجوز تقود أمامها خنزيرا أحمر اللون وزوجا من الديوك الرومية، وهى تهش عليها بغصين من الصفصاف حين تشرد. ثم لحق بها رجل آت من الخلف ومضى. كان محنى الظهر ويسير بسرعة، حاملا جاروفا أمامه. كانت كومة من الجمر تدخن فى طرفه العريض. ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وقال وهو يتلفت دون أن يتوقف إنه قد ترك النار تذوى وذهب ليستعير بعضا منها. ثم مرت إيدا برجل يحمل جوالا ثقيلا من الجرار الفخارية يتدلى من فرع كبير من شجرة قسطل. جلست ثلاثة غربان أعلى شجرة وراحت تراقب ما يجرى تحتها ولم تصدر عنها كلمة واحدة تنم عن رأى. كان الرجل ضخم البنيان وراح يطرق الجوال بمقبض معزقة مكسور، يطرقه بشدة إلى حد أن تطاير منه الغبار. كان يخاطب الجوال، يلعنه، كما لو كان العائق الأساسى فى سبيل أن يحيا حياة رغده قانعة. وصوت ضربات مكتومة، صوت تنفسه وهمهمته، وصرير قدميه وهو يجد موطأ لقدمه فى التراب مما يجعله ينهال على الجوال بالضرب. تفحصته إيدا أثناء مرورها به، ثم توقفت وعادت إليه وسألته عما يفعله. قال: أقشر أغلفة الفاصوليا. و أوضح أن رأيه مستقر على أن كل حبة فاصوليا صغيرة هناك كانت شيئا يستحق الكراهية. وقد حرث الأرض وزرعها بكراهية. ودرب أشجار العنب على تسلق الأعمدة واقتلع الحشائش من الصفوف بكراهية وراقب الزهور وهى تبزغ وقرون الفاصوليا وهى تتشكل وتمتلئ بكراهية. وقد جمع قرون الفاصوليا وهو يلعن كل قرن لمسته يداه، وهو يلقى بها فى سلة مصنوعة من أغصان الصفصاف كما لو كان القذى يلتصق بيديه. وكان الضرب الجزء الوحيد فى العملية، حتى وصولا إلى أكلها، هو الشىء الذى يأبه له.

حين وصلت إيدا إلى الطاحونة، لم تكن غبشة النهار قد انجابت بعد، لكنها أكثر دفئا من أن تظل مرتدية شالها، خلعته ولفته حتى تحمله تحت ذراعها. كانت عجلة الطاحونة تدور، وهى تسكب حملها من الماء فى بركة المطحنة، وهو يتناثر رذاذا ورشاشا. عندما وضعت إيدا يدها على إطار الباب، اهتز المكان كله بدوران دولاب المطحنة وأجهزة التشغيل وعمود تدوير الآلات وأحجار الرحى. مدت رأسها من فتحة الباب ورفعت صوتها عاليا بما يكفى لأن يسمع فوق صرير الآلة وأنينها. قالت: سيد بيك؟

فاحت فى الحجرة رائحة الذرة المجففة، الخشب القديم، بركة المطحنة التى علتها الطحالب، والماء المتساقط. كان الداخل معتما، والضوء الآتى من النافذتين الصغيرتين والباب يسقط فى شكل أشعة تتخلل جوا محملا بغبار القمح المطحون الكثيف. خرج الطحان من خلف أحجار الرحى. فرك يديه معا وتطاير غبار أكثر. وعندما وصل إلى صنوبر الباب، استطاعت إيدا أن ترى شعره وحاجبيه ورموشه والشعر على ذراعيه يغشاها صقيع باهت من غبار الذرة.

قال، هل جئت من أجل البريد؟

لو كان هناك أى بريد.

دلف الطحان إلى مكتب البريد، وهو ملحق ضئيل معرش السقف متصل بالطاحونة. خرج حاملا خطابا وألقى عليه نظرة، وهو يديره من الأمام والخلف. غرزته إيدا فى كتاب تحمله فى جيبها، آل سيمن، وواصلت سيرها على طول الطريق إلى بيت آل سوانجر.

وجدت إيسكو بجوار مخزن الغلال. كان منحنيا يحاول أن يثقب عجلة عربة نقل صغيرة بوتد ثقفه من فرع شجرة سنط ويدفعه إلى الداخل بمزلجة يدوية. وحين مشت إيدا إليه من الطريق، وقف ووضع المزلجة على الأرض ومال إلى الأمام مستندا على العربة، قابضا على اللوح الخشبى العلوى بقبضتى يديه. لم تبد أى اختلافات كبيرة بين لون يديه وصلابتهما وبين ألواح الخشب. كان قد بلل قميصه بالعرق، عندما اقتربت إيدا تشممت رائحته التى كانت رائحة الفخار المبتل. كان ايسكو طويلا ونحيلا، له رأس رقيق وشعر كث غزير جاف رمادى مشط بالفرشاة حتى تقوس إلى نقطة مدببة مثل عرف طائر.

رحب بمبرر أن يترك عمله وصحب إيدا إلى البيت، مارا من خلال بوابة السور إلى الفناء... كان ايسكو قد استخدم السور ليثبت به حاملا خشبيا، وكانت الجياد التى أصابها الملل قد قضمت أعالى السياج حتى تحولت إلى عُقد مفتتة. كان الفناء عاريا، مكنوسا ونظيفا، بلا شجيرة أو حوض زهور للزينة، فقط نصف دستة من أشجار البلوط الضخمة وبئر مغطاة، وهو أمر طريف فى ذلك الريف الحافل بالماء الجارى، لأن المكان الذى اختاروا الإقامة فيه أطلق عليه خليج بلا جدول. كان البيت كبيرا وقد طلى ذات يوم باللون الأبيض، لكن الطلاء

يتقشر فى رقع بحجم اليد حتى أنه يمكن القول إنه يشبه حاليا فرسا منقطة، على الرغم من أنه سرعان ما سوف يكون رماديا فحسب.

جلست سالى فى الشرفة وهى تسلك حبوب الفاصوليا بدوبار لتصنع منها سراويل جلدية، وهناك خمس دوبارات طويلة من الحبوب معلقة سلفا فوقها من عروق خشب الشرفة لتجف. كانت مستديرة الشكل فى كل ملمح منها وجلدها شفافا ولامعا مثل شمعة من شحم حيوانى، وقد صبغ شعرها الذى بدأ الشيب يدب فيه بالحناء بلون الخط الذى يعلو ظهر بغل. دفع ايسكو كرسيا خاليا مستقيما إلى إيدا ثم دخل البيت وأحضر كرسيا اخر له. وشرع يقشر الفاصوليا. لم يقل شىء عن الغداء. ونظرت إيدا إلى السماء الباهتة. وبقدر من خيبة الأمل رأت أن البقعة الساطعة حيث تنتصب الشمس كانت تشير إلى منتصف الأصيل. كان آل سوانجر قد تناولوا طعامهم منذ وقت طويل.

جلسوا معا فى هدوء لمدة دقيقة، والأصوات الوحيدة طقطقة الفاصوليا وفحيح سالى وهى تجذب الخيط خلالها بإبرة وصوت الساعة الموضوعة على رف المدفأة من الداخل وهى تدق بصوت مفاصل إصبع تدق صندوقا. راح ايسكو وسالى يعملان براحة، ويداهما تتلامسان أحيانا كلما دفعاهما فى نفس الوقت فى سلة الفاصوليا. كان كلاهما صامتا وحركاتهما بطيئة، ودمثة أحدهما تجاه الآخر، ويلمسان كل حبة فاصوليا كما لو كانت تتطلب رقة بالغة. وعلى الرغم من أنهما لم يكونا زوجين بلا أولاد، إلا أنهما احتفظا بجو من الشاعرية فى زواجهما مثلما يفعل العقماء فى أغلب الأحيان. بدا عليهما أنهما لم يصلا بفترة خطوبتهما إلى نهاية أبدا. رأت إيدا أنهما شريكين لطيفين، لكنها لم تر شيئا يدعو إلى الاهتمام فى طمأنينتهما. فبعد أن عاشت كل حياتها مع أرمل، لم يكن لديها أى نموذج حقيقى فى ذهنها عما قد يكون عليه الزواج، أى ضريبة قد تفرضها دورة العمل اليومية والرتيبة.

دار حديثهم الأول عن الحرب، عن كيف تبدو الاحتمالات مبهمة، والاتحاديون فوق الجبال إلى الشمال بالضبط، والأمور تتدهور فى فيرجينيا إذا أمكن تصديق تقارير الصحف عن حرب الخنادق فى بيترزبورج. لم يكن ايسكو وسالى يفهمان الحرب إلا على أكثر الوجوه إبهاما، وهما يعرفان على وجه التأكيد مجرد شيئين: أنهما لا يوافقان عليها بشكل عام، وأن ايسكو قد بلغ

عمرا يتطلب فيه بعض العون فى المزرعة. ولهذه الأسباب وكثير غيرها، فإنهما ليسعدهما أن يريا الحرب تنتهى وولديهما يعودان سائرين على الطريق. سألتهما إيدا عما إذا كانت هناك أى أخبار عن أى من الولدين، إذ أن ابنى آل سوانجر قد ذهبا للقتال. لكنهما لم تبلغهما كلمة منذ شهور عديدة ولا يعرفان حتى فى أى ولاية كانا.

وقد عارض آل سوانجر الحرب منذ البداية وظلا حتى وقت قريب متعاطفين عموما مع الاتحاديين، مثل كثيرين فى الجبال. لكن ايسكو قد داخله إحساس بالمرارة من كلا الجانبين، وهو يخشاهما بنفس القدر تقريبا حيث إن الاتحاديين قد احتشدوا إلى الشمال فوق الجبل تماما. كان يزعجه أنهم سرعان ما سوف يأتون باحثين عن طعام ويأخذون ما يريدون ويتركون الرجل بلا شىء. وقد ذهب إلى مقر المقاطعة أخيرا. وقد شاع فى البلدة أن كيرك وجماعته من القمصان الزرقاء قد شرعوا سلفا يغيرون على مقربة من حدود الولاية. وقد هبطوا على عائلة ونهبوا مزرعتهم فى الفجر الرمادى وسرقوا كل حيوان أمكنهم أن يجدوه وكل قطعة طعام سهل الحمل يمكنهم أن يحملوها وأشعلوا النار فى كوخ الغلال عند رحيلهم.

قال ايسكو، هؤلاء هم المحررون. وجماعتنا سيئون أو أسوأ. إن تيج وحرسه الوطنى يزأرون فيما حولهم مثل عصابة من المغيرين النهابين. يضعون قوانينهم كما يحلو لهم، وهم ليسوا إلا نفاية يبحثون عن طريقة كى يظلوا خارج الجيش.

وقد بلغه أن الحرس قد طرد عائلة خارج بيتها إلى الفناء فى وقت العشاء. آل أوينز الذين يعيشون فى أيرن دف. زعم تيج أنهم من المعروف عنهم أنهم يحبون الاتحاديين وأنه يشك فى أنهم أعضاء فى فريق الوتر الأحمر وأن أى ثروة مدخرة مكتنزة لديهم يسقط حقهم فيها. قطعوا أوصال البيت أولا ثم راحوا ينخسون فى أرجاء الفناء بسيوفهم العريضة القاطعة ليروا إن كانوا يستطيعون أن يجدوا ترابا ناعما ناتجا عن حفر حديث. وجهوا إلى الرجل بعض الصفعات، وإلى زوجته فيما بعد. علقوا زوجا من كلاب صيد الطيور كلا على حدة، وحين فشل هذا فى اجتذاب انتباه الرجل ربطوا إبهامى المرأة معا خلف ظهرها ورفعوها منهما بحبل رفيع ملقى فوق فرع شجرة؛ وهى مشدودة منه حتى كادت قدماها تلامسان الأرض. لكن الرجل لم يكن ليتفوه بكلمة، فأنزلوها ووضعوا

ركن سياج معدنى على إبهاميها، لكن ذلك أيضا لم يجعل الرجل يضطرب.

كان الأطفال يعولون والمرأة ملقاة على الأرض وإبهاماها لا يزالان تحت ركن السياج وهى تصرخ قائلة إنها تعرف أن رجلها قد أخفى أدوات المائدة الفضية والثروة المدخرة من القطع الذهبية التى بقيت لهم بعد زمن الحرب القاسية، لكنها لا تعرف أين دفنها، وأنها تعرف فحسب. تضرعت إليه أولا أن يقول، ثم تضرعت إلى الحرس طلبا للرحمة. ثم، عندما رفض أوينز أن يتكلم، تضرعت إليهم أن يقتلوه أولا حتى يمكنها على الأقل أن تراقب ذلك بارتياح.

وعند ذلك قال واحد من الحرس، فتى أشيب الشعر يدعى بيرتس، إنه يرى أنهم ربما يجب عليهم أن يتوقفوا وينصرفوا، لكن تيج صوب نحوه مسدسا وقال، لن أسمح بأن يخبرنى احد كيف أعامل أمثال بيل أوينز وزوجته والصغار. سوف أذهب إلى الاتحاديين قبل أن أعيش فى بلد لا أستطيع فيه أن أنزل بمثل هؤلاء الناس ما يستحقونه.

واختتم ايسكو قوله قائلا، فى النهاية لم يقتلوا أحدا ولم يجدوا الفضة. مجرد أنهم فقدوا اهتمامهم واتجهوا نحو الطريق. وهجرت الزوجة أوينز فى الحال. جاءت إلى البلدة مع الأطفال وهى تعيش الآن مع أخيها وتحكى الحكاية لمن يصغى لها.

جلس ايسكو بعض الوقت وهو يميل إلى الأمام فى الكرسى وساعداه على ركبتيه ويداه تتدليان مرتخيتين من رسغين. بدا عليه أنه يتفحص ألواح الشرفة الخشبية أو أنه يقيس مقدار رثاثة جلد حذائه العالى الساق. عرفت إيدا من خبرتها أنه لو كان فى الخارج لبصق بين قدميه ثم حدق فى تلك البقعة بارتياح واضح.

قال بعد هنيهة، هذه الحرب شىء آخر. إن عرق كل رجل له ثمنه. إن رجال الأراضى المسطحة المزروعة قطنا يسرقونه كل يوم، لكننى أظن أنهم فى وقت ما ربما سيتمنون لو أنهم قطعوا قطنهم اللعين نفسه. أريد أن يعود ولدى فحسب وهم بالخارج يعزقون الأرض الواطئة بينما أجلس أنا فى الشرفة وأصيح، هذا عمل طيب، فى كل مرة تدق فيها الساعة منتصف الساعة.

أومأت سالى برأسها وقالت، أه.أه، وبدا أن ذلك يغلق الموضوع.

انتقلوا إلى أمور أخرى، وإيدا تصغى باهتمام بينما ايسكو وسالى يعددان العلامات التى لاحظاها والتى تنبئ بشتاء قاس. سناجب رمادية تقعقع فى أشجار الجوز، مسعورة على تخزين الكثير و الكثير من الجوز. الشمع الكثيف على التفاح الحمضى البرى. أطواق عريضة من السواد على اليرقانات. نبات الألفية الذى يسحق بين اليدين وله رائحة حادة مثل الثلج المتساقط. شجيرات الزعرور البرى محملة بثمار ناصعة مثل الدم.

قال ايسكو، وعلامات أخرى أيضا. علامات سيئة. كان قد ظل يسجل كشفا من النذر والأعاجيب من كل أنحاء المقاطعة. فقد قيل إن بغلا ولد بالقرب من كاتلوتس، وإن خنزيرا ولد بيدين إنسانيتين فى بلسم. وزعم رجل من كوف كريك أنه ذبح خروفا، ولم يجد له قلبا فى داخله. وأقسم صيادون من بيج لوريل أن البومة أصدرت أقوالا مثل أقوال إنسان، وأنه على الرغم من أنهم لم يصلوا إلى اتفاق على رسالتها، إلا أنهم أكدوا أنه ما إن تكلمت البومة حتى بدا أن بالسماء قمرين. وقد كان هناك لمدة ثلاثة سنوات متتالية هذيان ذئاب غير مألوف فى الشتاء، ومحصول ضعيف من الحبوب فى الصيف. كانت كلها تشير إلى أيام شريرة. وكان رأى ايسكو أنه على الرغم من أنهم ظلوا معزولين حتى الآن عن دناءة الحرب العامة، فإن بالوعتها قد تطفح بعد قليل خلال الثغرات الواطئة وتتدفق حتى تلوثهم جميعا.

حط عليهم صمت، ثم قالت سالى، هل استقر رأيك على اتجاه بعد؟

قالت إيدا لا.

سألتها سالى، ألست مستعدة بعد للعودة إلى موطنك؟

قالت إيدا، موطنى؟ وهى مرتبكة لمدة قصيرة، لأنها قد شعرت طوال الصيف أنها لم يكن لها موطن.

قالت سالى، تشارلستون؟

قالت إيدا، لا. لست مستعدة بعد.

هل جاءك أنباء عن تشارلستون؟

قالت إيدا، ليس بعد لكننى أظن أن الخطاب الذى تسلمته للتو من السيد بيك قد يوضح مسألة الرصيد. يبدو أنه من محامى أبى.

قال ايسكو، أخرجيه وانظرى ماذا يقول.

-لا تطاوعنى نفسى على النظر فيه. فكل ما سيقوله لى، فى الحقيقة، هو ما إذا كان لى مال أعيش عليه لمدة عام من الآن أو ما قد أفعله بنفسى. هذه هى الأمور التى تقلقنى أكثر من غيرها.

فرك ايسكو يديه وابتسم ابتسامة عريضة. قال، قد أكون الرجل الوحيد فى المقاطعة الذى يمكنه أن يساعدك فى هذا الأمر. هناك زعم بأنك إذا أخذت مرآة ونظرت ناحية الخلف فى داخل بئر، فإنك سوف ترين مستقبلك أسفل فى الماء.

وهكذا سرعان ما وجدت إيدا نفسها مائلة إلى الخلف فوق حافة البئر المكسوة بالطحالب، منحدرة فى وضع ليس به ما يزكيه فيما يتعلق بالوقار أو الراحة، بظهر مقوس وردفين إلى الأمام وساقين مفتوحتين من أجل التوازن. أمسكت بمرآة يد فوق وجهها، بزاوية تسمح باستقبال سطح الماء أسفلها.

كانت إيدا قد وافقت على معاينة البئر بصفتها تنوعا فى تجربة عادة محلية ومنعشا من اكتئابها. كانت أفكارها كئيبة وعليلة واسترجاعية بشكل مفرط لفترة طويلة حتى أنها رحبت بالفرصة لتذهب فى اتجاه مضاد لهذا الانسياب، أن تلقى نظرة إلى الأمام وتفكر فى المستقبل، حتى لو كانت لا تتوقع أن ترى شيئا سوى الماء فى قاع البئر.

زحزحت قدميها لتوفر لنفسها تحكما أفضل فى التراب المكتظ فى الفناء ثم حاولت أن تنظر فى المرآة. كانت السماء البيضاء فوقها مكسوة بضباب رقيق مضاء من خلفه، متألق مثل لؤلؤة أو مثل مرآة فضية فى حد ذاته. وأوراق أشجار البلوط الداكنة تحيط بالسماء من كل الجهات بإطار يتطابق مع الإطار الخشبى للمرآة التى تحدق فيها إيدا وهى تتفحص الصورة التى ارتسمت لأعماق البئر خلفها لترى ما قد تخبئة الأيام القادمة فى حياتها. كان قرص ماء البئر المستدير الساطع فى نهاية فراغه الأسود مرآة أخرى عكست لمعان السماء، وقد بطنت فيما حول حوافها هنا وهناك بفراء من غصينات السرخس التى تنمو بين الأحجار.

حاولت إيدا أن تركز انتباهها على مرآة اليد، لكن السماء اللامعة فيما وراءها ظلت تجذب عينها بعيدا عنها. كانت مبهورة بالضوء والظل، بازدواج الانعكاسات والإطارات. كلها تأتى من اتجاهات كثيرة ليأخذها العقل فى

الاعتبار. تواثبت الصور المتنوعة واحدة ضد الأخرى حتى شعرت بدوار يائس، كما لو كان يمكن أن ترتمى إلى الوراء وتغوص برأسها أولا أسفل فراغ البئر وتغرق هناك، والسماء من فوقها، وآخر رؤاها مجرد دائرة لامعة مستقرة فى الظلام، ليست أكبر من بدر.

دار رأسها فمدت يدها المتحررة وتشبثت بأحجار البئر. وعندئذ استقرت الأشياء لمجرد لحظة، وبدا أن هناك حقا صورة فى المرآة. كانت مثل صورة فوتوغرافية سالبة منفذة بشكل ردىء. غامضة فى تفاصيلها، ضئيلة الأثر فى تباينها ومحببة. كان ما رأته عجلة من ضوء لامع، يحيط بها هدب من أوراق الأشجار. ربما إيحاء بطريق خلال ممشى بين أشجار منحدر. وفى منتصف الضوء، تحركت هيئة شخص كما لو كان يسير، لكن الصورة كانت غامضة إلى حد أنها لم تكشف إذا كانت تلك الهيئة تقترب أو تبتعد. ولكن أينما كانت متجهة، كان هناك شىء فى وضعها يوحى بعزيمة راسخة. وتساءلت إيدا، هل المقصود أن أتبعه أم يجب على أن أنتظر قدومه؟

ثم اجتاحها دوار مرة أخرى. انهارت ركبتاها وتهاوت على الأرض. دارت الأشياء حولها لثانية. طنت أذناها وامتلأ عقلها كله بسطور من ترنيمة عابر السبيل الغريب. ظنت أنها قد يغمى عليها. لكن العالم المدوم توقف واستقر ساكنا. نظرت لترى إن كان أى واحد قد لاحظ سقوطها، لكن سالى وايسكو كانا منشغلين بعملهما دون سواه. نهضت إيدا وسارت إلى الشرفة.

قال ايسكو، هل رأيت أى شىء؟

قالت إيدا، ليس بالضبط.

ألقت سالى عليها نظرة حادة، وبدأت تعود إلى سلْك الفاصوليا فى الخيط، ثم غيرت رأيها وقالت، عيناك تبدوان بيضاوين؟ هل تشعرين بوعكة؟

حاولت إيدا أن تنصت لكنها لم تستطع أن تركز أفكارها على صوت سالى. كانت لا تزال ترى فى ذهنها هيئة الشخص المظلمة، وترددت فى أذنيها عبارات الترنيمة الشجاعة « مسافر عبر هذا العالم التحتى، بلا كد، بلا مرض أو خطر فى تلك الأرض الصافية التى أذهب إليها » كانت واثقة من أن الشخص مهم، رغم أنها لم يكن بإمكانها أن ترسم له وجها.

سألتها سالى، هل رأيت شيئا أسفل ذلك البئر أم لا؟

قالت إيدا، لست متأكدة.

قالت سالى لايسكو، تبدو مبيضة العينين.

قال ايسكو، إنها مجرد قصة يحكيها الناس. لقد نظرت فيه مرة بعد أخرى ولم أر أنا نفسى شيئا أبدا.

قالت إيدا، نعم. لم يكن هناك شىء.

لكنها لم تستطع أن تزيح الصورة من ذهنها. غابة يشقها طريق. مساحة مكشوفة. رجل، يسير. الإحساس بأن المقصود أن تتبعه. أو بخلاف ذلك أن تنتظر.

دقت الساعات أربع دقات منغمة برنين منخفض تعوزه الموسيقى مثل طرق نصل رمح بمطرقة.

نهضت إيدا لتمضى، لكن سالى دعتها إلى الجلوس. مدت يدها ووضعت باطن كفها على خد إيدا.

قالت، لست ساخنة. هل أكلت اليوم؟

قالت إيدا أكلت شيئا.

قالت سالى، أراهن أنه لم يكن بالشىء الكثير. هيا معى: سوف أعطيك شيئا تأخذينه معك.

تبعتها إيدا إلى الداخل. كان للبيت رائحة الأعشاب المجففة وضفائر فلفل أسود تتدلى صفوفا فى القاعة الرئيسية الطويلة، معدة لتتبيل المذاقات المتنوعة والصلصات و المخللات والمخللات المحلاة التى اشتهرت سالى بصنعها. وحول أرفف المدافىء وإطارات الأبواب والمرايا من كل ناحية أنشوطات من شرائط حمراء، ودرابزين الدرج مطلى بخيوط حمراء وبيضاء مثل عمود الحلاق.

فى المطبخ، ذهبت سالى إلى خزانة وأخرجت جرة من الفخار بها توت أسود محفوظ، وقد أحكم إغلاق فوهته بشمع العسل الأبيض. ناولتها لإيدا وقالت، سوف يكون هذا طيبا على ما تخلف من عشاء من البسكويت. عبرت إيدا عن شكرها دون أن تذكر فشلها كصانعة بسكويت. وفى الشرفة، طلبت من ايسكو

وسالى أن يزوراها إذا خرجا فى عربتهما ووجدا نفسيهما على مقربة من الخليج الأسود. ومضت حاملة الشال وجرة التوت المحفوظ بين ذراعيها.

كان الممر القديم الذى يعبر رأس الجبل مؤديا إلى الخليج الأسود يبدأ أعلى الطريق بخمسمائة ياردة من مزرعة آل سوانجر، ويصعد بانحدار مبتعدا عن النهر. كان يمر أولا بغابات مكشوفة من نمو عشوائى لأشجار البلوط والجوز والحور، ثم قريبا من رأس الجبل ظلت أشجار الأخشاب دون تقطيع. وكانت الأشجار هائلة وقد أصبحت مختلطة بأشجار التنوب والقنب وقليل من أشجار البلسم الداكنة. كانت الأرض هناك خليطا من الأشجار التى سقطت فى مراحل متنوعة من التحلل. صعدت إيدا دون توقف، وسرعان ما وجدت إيقاع سيرها يتوافق مع لحن عابر السبيل الغريب، وهو لا يزال يردد نفسه واهنا فى رأسها. شدت سطورها الشجاعة التى ترفع الروح المعنوية من أزرها، على الرغم من أنها كانت ترتعد قليلا من أن تنظر أمامها إلى أعلى الدرب خشية أن يخطو شكل قاتم داخل مجال رؤيتها.

عندما بلغت قمة رأس الجبل، استراحت وهى تجلس على نتوء صخرى يشرف على منظر خلفها فى وادى النهر. كان باستطاعتها أن ترى النهر والطريق خلفها، وعن يمينها- بقعة دقيقة من البياض فى الخضرة العامة - الكنيس.

استدارت ونظرت فى الاتجاه الآخر، إلى أعلى باتجاه الجبل البارد، وهو يقف باهتا ورماديا ويبدو نائيا، ثم نظرت إلى أسفل فى الخليج الأسود. لم يبد على بيتها وحقولها أى إهمال من هذه المسافة. بدت ناضرة ومعتنى بها. يحيط بها من جميع نواحيها غاباتها ورءوس جبالها وخليجها. وعلى الرغم من معدل النمو الذى يشبه الأدغال، عرفت أنها لو بقيت لاحتاجت إلى عون؛ وإلا فإن الحقول والفناء سرعان ما سوف تلتئم فوقها الحشائش وطبقة واطئة من النباتات والأحراج حتى يختفى البيت فى أجمة بشكل تام مثل قصر الجميلة النائمة الذى تغطيه الشجيرات الشائكة. شكت، رغم ذلك، فى أن فى الإمكان إيجاد أى أجير يستحق الحصول عليه، حيث إن أى شخص صالح للعمل قد رحل ليشترك فى الحرب.

جلست إيدا وتقصت حدود مزرعتها التقريبية، وهى تمسح خطا بعينيها. وعندما عادت إلى النقطة التى بدأت منها، بدت الأرض وهى مُسورة بهذا الشكل قطعة أرض ضخمة نادرة.كانت الكيفية التى آلت بها ملكيتها إليها لا تزال تبدو غامضة بالنسبة لها. رغم أنها كان بإمكانها أن تسمى كل خطوة على طول الطريق.

كانت هى ووالدها قد جاءا إلى الجبال قبل ذلك بست سنوات على أمل أن يجدا فرجا للسل الذى شق طريقه ببطء إلى رئتى مونرو إلى درجة أنه كان يبلل ستة مناديل يوميا بالدم. وكان طبيبه فى تشارلستون قد زكى منتجعا نجديا به غرفة طعام فاخرة وينابيع معدنية حارة مطيبة، واضعا ثقته فى قدرات الهواء النقى الرطيب والرياضة. لكن مونرو لم يستعذب فكرة مكان مريح هادئ ملىء بالأثرياء وأمراضهم الجمة. وجد بدلا من ذلك كنيسة جبلية تتبع مذهبه الدينى تفتقر إلى واعظ. بحجة أن العمل النافع أكثر تطبيبا من الماء الكبريتى ذى الرائحة الكريهة.

رحلا فى الحال، سافرا بالقطار إلى سبارتنبورج، فى نهاية خط السكة الحديدية أعلى المقاطعة. كانت بلدة خشنة تقع على مستوى عال على جدار الجبال، وقد مكثا هناك عدة أيام وهما يعيشان فيما اعتبر فندقا، حتى يتمكن مونرو من تدبير سائقى بغال لنقل منقولاتهم التى وضعت فى صناديق شحن عبر بلوريدج إلى قرية الجبل البارد. وخلال ذلك الوقت اشترى مونرو مركبة وحصانا ليجرها، وكان كحاله دائما محظوظا فى شراء الأشياء. صادق رجلا يقوم بتلميع سيارة ذات سطح متحرك جديدة وجميلة التركيب بالطبقة الأخيرة من دهان الك الأسود. وإضافة إلى ذلك، كان لدى الرجل حصان مخصى قوى أرقط يتماشى مع المركبة. اشتراهما مونرو دون لحظة مساومة، وهو يعد النقود من محفظته فى يد صانع المركبة المُصْفَرّة ذات الجسأ. استغرق الأمر عدة لحظات، لكن ما إن تم حتى كان لدى مونرو مركبة خيل مهندمة حقا لواعظ فى الأرياف.

سبقا أشياءهما، بعد أن تزودا بالمعدات على هذا النحو، وارتحلا أولا إلى بلدة بريفارد الصغيرة، حيث لا يوجد فندق، بل نُزُل. ومن هناك رحلا فى الضوء الأزرق قبل الفجر بساعة. كان صباحا ربيعيا رائعا، وعندما مرا من خلال البلدة قال مونرو، لقد أخبرونى أننا سنبلغ الجبل البارد بحلول وقت العشاء.

بدا الحصان مسرورا لكونه يقوم برحلة، كان يخطو برشاقة وهو يجذب العدة الخفيفة بخطوة مثيرة للمشاعر، وأسلاك عجلتيه العاليتين اللامعة تطن من السرعة.

ظلا يصعدان طوال اليوم المشرق. وطريق المركبات محدد بشكل محكم بغيضات وأجمات، وهو ينثنى فى طيات على نفسه فى متتالية من الانحناءات لا نهاية لها من الطرق الجبلية الوعرة فى صعوده واديا ضيقا. لم تعد السماء الزرقاء إلا شقا أعلى المنحدرات المظلمة. عبرا ثم عاودا عبور فرنش برود ومرا ذات مرة بالقرب من شلال إلى درجة أن الرذاذ البارد بلل وجهيهما.

لم تكن إيدا قد رأت من قبل أبدا جبالا سوى جبال الألب الصخرية ولم تكن متأكدة كيف تفسر هذه الطبوغرافية النباتية الغريبة، كل صدع وجرف فيه بالنسبة إلى أى نبات مورق غريب على الريف الرملى الضنين فى الأراضى المنخفضة. كانت قمم أشجار البلوط والقسطل و الحور المنتشرة تتلاقى لتصنع قبة تحجب ضوء الشمس. وقرب الأرض احتشدت أشجار الأزاليا والوردية لتصنع طابقا سفليا كثيفا مثل جدار حجرى.

لا ولم تكن إيدا مرتاحة إلى طرق هذه الأرض غير المألوفة التى تثير الإشفاق. كانت هذه الدروب المنثلمة أقل شأنا بالنسبة إلى الطرق الرئيسية الرملية العريضة فى الريف إلى درجة أنها بدت كما لو كانت نتاج مواش متجولة أكثر منها من صنع الإنسان. كان الطريق يتناقص فى العرض عند كل منحنى حتى اقتنعت إيدا بأن المسلك سرعان ما سوف يختفى تماما، تاركا إياهما على غير هدى فى برية عميقة بلا دروب مثل تلك البرية التى انبثقت حين نطق الله لأول مرة بكلمة « الغابة المورقة الخضراء ».

كان مونرو، رغم ذلك، فى حالة ابتهاج مرتفعة بالنسبة لرجل ينزف دما إلى عهد قريب، وهو يتطلع فيما حوله كما لو كان قد عهد إليه بأن يتذكر كل طية فى الأرض وكل ظل من ظلال الخضرة، وإلا كانت عقوبته الإعدام. كان يفزع الحصان من آن لآخر بأن يلقى فجأة وبأسلوب خطابى أبياتا من شعر ويردزويرث وبصوت عال. وعندما انحرفا حول منحنى وتوقفا أمام المنظر البعيد الباهت للريف المنبسط الذى تركاه خلفهما، صاح قائلا « ليس لدى الأرض أى

شىء تعرضه أكثر من هذا جمالا.. إن الروح التى تستطيع أن تمر مر الكرام بمشهد مؤثر فى جلاله لهى روح بليدة. »

توقفا وسط محط من البلسم الأسود حيث ارتفع الدرب عند فجوة واجن رود، فى وقت متأخر من الأصيل، حين امتلأت السماء بسحب دوارة تدفعها ريح شرقية. ومن هناك انحدر الطريق أمامهما بشكل ينذر بالسوء يتبع شلال المياه أسفل مفرق هادر من نهر بيجون. كان بإمكانهما أن يروا جرم الجبل البارد الهائل يرتفع أكثر من ستة آلاف قدم. بين الفجوة والجبل كانت هناك أرض برية وعرة من سفح صخرى شديد الانحدار وواد ضيق عميق. وفى تلك البقعة الموحشة استدعى مونرو شاعره المفضل وصاح، «إن المشهد العليل و المنظر الذى يدير الرءوس لمجرى الماء الذى يهذى، والسحب المطلقة السراح ومنطقة السماوات، والصخب والسلام، و الظلمة والضياء. كلها أعمال عقل واحد، ملامح لنفس الوجه، زهور على شجرة واحدة، صفات سفر الرؤيا العظيم، أنماط ورموز الخلود: الأول والآخر والأوسط والذى بلا نهاية.»

ضحكت إيدا عندئذ وقبلت وجنته، وهى تقول لنفسها، إننى لأود أن أتبع هذا الرجل العجوز إلى ليبريا لو سألنى أن أفعل هذا.

ثم ألقى مونرو نظرة على السحب المنزعجة ورفع غطاء المركبة المطوى المصنوع من قماش كتانى مدهون بالشمع والطلاء، والذى كان أسود داويا على إطاره المفصلى مثل جناح خفاش. ولأنه كان جديدا فإنه طقطق حين جذبه ليعيده إلى مكانه.

هز اللجام واندفع الحصان المخصى الذى يتصبب عرقا إلى الأمام، سعيدا بأن يكون فى جانب الجاذبية المريح. وسرعان ما أصبح الطريق، رغم هذا، منحدرا إلى درجة أن مونرو كان عليه أن يشغل الكابح ليحول دون صعود المركبة المكشوفة على كفل الحصان.

سقط المطر، ثم ساد الظلام. لم يكن هناك ضوء قمر ولا فقاعة ضوء فانوس تنبعث من بيت ما يرحب بهما. كانت بلدة الجبل البارد أمامهما، لكنهما لم يعرفا مدى المسافة. ساقا المركبة فى الظلام، آملين ألا يسقط الحصان منكب الرأس أولا فوق حافة صخرية ما. دلهما نقص حتى الأكواخ الموحشه على أنهما مازالا على مبعدة من القرية. فقد أساءا الحكم على المسافات، فيما يبدو.

نزل المطر مائلا بزاوية، وهو يطرق وجهيهما حتى أن غطاء المركبة لم يفلح كثيرا فى حمايتهما منه. سار الحصان مطأطئ الرأس. وصلا إلى منحنى بعد منحنى على الطريق، وكل منها لا تشوهه لافتة، وعند كل مفترق طرق يخمن مونرو أى طريق عليهما أن يسلكاه.

وفى وقت متأخر، بعد منتصف الليل بوقت طويل، وصلا إلى كنيس على تل فوق الطريق ونهر. دخلا اتقاء للمطر وناما ممددين على المقاعد بثيابهما المبتلة.

طلع النهار على ضباب، لكن إشراقته أعلنت أنه سوف ينقشع سريعا. نهض مونرو متيبسا ومشى إلى الخارج. سمعته إيدا يضحك ويقول، أيتها القوى الكائنة، أشكرك مرة أخرى.

ذهبت إليه. كان يقف أمام الكنيسة وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويشير إلى أعلى الباب. استدارت وقرأت اللافتة : مجلس الجبل البارد.

كان مونرو قد قال، لقد وصلنا إلى موطننا رغم الصعاب الجمة. كانت فكرة تقبلتها إيدا عندئذ بقدر كبير من الشك. فقد عبر كل أصدقائهما فى تشارلستون عن رأيهم بأن منطقة الجبل كانت جزءا من الخلفية الوثنية، غير مألوفة فى إساءتها إلى الحساسية، مكانا من البرية و الظلمة والمطر حيث يهزل الرجل والمرأة والطفل ويتوحشون، مكانا يدفن أعمال العنف الفظة بلا حتى إيماءة فى اتجاه ضبط النفس. وأن الرجال من الأعيان فحسب يتظاهرون بمبالاة ارتداء ألبسه تحتية، والنساء على كل المستويات يرضعون الصغار، تاركين مهنة المرضعات المتحضرة دون أن يعرفوها. وقد زعم مقدمو المعلومات لإيدا أن سكان الجبال لا يتقدمون إلا بخطوة واحدة عن القبائل الهمجية المتشردة.

اكتشفت إيدا، فى الأسابيع التى تلت وصولها وهى تقوم مع مونرو بزيارة أعضاء جماعه المصلين الذين يقيمون الصلاة حاليا أو المحتملين، أن أولئك الناس شاذون حقا. وإن لم يكونوا كذلك بالضبط فى أساليبهم التى تنبأ بها أهل تشارلستون. فأثناء زياراتهما وجدا الناس حساسين ومتحفظين، يصعب استشفافهم إلى حد بعيد. وغالبا ما يتصرفون كأنهم أهينوا، رغم أنه لا إيدا ولا مونرو عرف كيف. كان الكثير من البيوت تدير أمورها كما لو كانت معبأة للقتال. جاءهما الرجال فقط إلى الشرفة ليلتقوا بهما حين كانوا يأتون للزيارة. وأحيانا

ما كان مونرو و إيدا يدعوان للزيارة وأحيانا لا. وغالبا ما كان من الأسوأ ألا يدعوا للدخول عن أن يتركا محرجين فى الفناء، لأن إيدا وجدت تلك الزيارات مخيفة.

كانت البيوت مظلمة من الداخل، حتى فى يوم مشرق. والبيوت التى لها مصاريع تبقيها مغلقة. والبيوت التى لها ستائر يبقونها مسدلة. ومن البيوت تفوح رائحة غريبة من روائح الطهو والحيوانات والناس الذين يعملون، وإن لم تكن رائحة قذرة. والبنادق فى وضع قائم فى الأركان أو معلقة على أوتار فوق أرفف المدافئ والأبواب. كان مونرو يطرق الأبواب زمنا طويلا، وهو يقدم نفسه ويشرح رأيه فى مهمة الكنيسة ويتكلم عن اللاهوت ويحث على حضور اجتماعات الصلاة والقداسات. كان الرجال يجلسون طول الوقت فى كراس مستقيمة الظهر ينظرون إلى النار. وكثير منهم يسيرون حفاة ويمدون أقدامهم أمامهم بلا أى خزى. ومهما يكن ما يمكنك أن تعرفه عن سلوكهم، فقد كانوا يتصرفون وكأنهم وحدهم ينظرون إلى النار ولا يتفوهون بكلمة ولا يحركون عضلة واحدة فى وجوههم تدل على استجابتهم لأى شىء يقوله مونرو. عندما كان يضغط عليهم بسؤال مباشر يجلسون ويفكرون فيه لمدة طويلة، وأحيانا يجيبون بجملة مختصرة غامضة وفى أغلب الأحيان ينظرون إليه بحدة فحسب كما لو أن هذا فى ذاته كل الرسالة التى يهمهم أن يوصلوها. كانوا أناسا مختبئين فى بيوتهم، وبإمكان إيدا أن تسمعهم يتسكعون فى غرف أخرى، لكنهم ما كانوا ليقدموا أنفسهم. افترضت أنهم نساء وأطفال وعجائز. بدا الأمر كما لو كانوا قد وجدوا العالم فيما وراء خليجهم مرعبا إلى درجة أنهم قد يدنسهم أى اتصال بأغراب وأن الجميع باستثناء الأقرباء والأنسباء أعداء.

بعد مثل هذه الزيارات، كان مونرو و إيدا يغادران بخطى حثيثة، وبينما هما يقومان بجولة فى الطريق بمركبتهما المكشوفة يتكلم عن الجهل و عن خطط مبتكرة لدحره، شعرت إيدا فحسب بدوران العجلات وسرعة تراجعها وحسد غامض للناس الذين يبدون غير مكترثين مطلقا للأشياء التى تعرفها ويعرفها مونرو. فقد كان من الواضح أنهما قد توصلا إلى استنتاجات مختلفة عن الحياة وعاشا كلية باستنارتهما.

جاء أعظم اندحار لمونرو بصفته مبشرا فى أواخر ذلك الصيف وتضمن سالى و ايسكو. فقد أخبر رجل اسمه مايز من جماعة المصلين مونرو أن آل

سوانجر مذهلون فى جهلهم فايسكو، حسب أقوال مايز، لا يكاد يعرف القراءة ولم يتقدم أبدا فى فهمه للتاريخ أبعد من الأعمال المبكرة التى أتاها الله سبحانه وتعالى المذكورة فى سفر التكوين. وأن خلق الضوء كان آخر شىء اطلع عليه تقريبا. وقال مايز إن سالى سوانجر أقل من ذلك علما نوعا ما. فكلاهما ينظر إلى الكتاب المقدس على أنه كتاب سحر ويستعمله كما يستعمله قارئ غجرى. كانا يمسكان به و يدعانه يسقط مفتوحا ثم يسددان إصبعيهما إلى الصفحة ويحاولان حل لغز معنى الكلمة المعينة بعد طول تفكير، ويعدانها هاتفا إلهيا ويتصرفان بناء عليها كأنها تعليمات تأتيهما من عقل الله مباشرة. فإن قال الله اذهبا، ذهبا. وإن قال امكثا، لزما مكانهما. وإن قال اقتل، تناول ايسكو بلطته وخرج يبحث عن فروج وكانا رغم جهلهما ثريين بشكل لا مفر منه إذ أن مزرعتهما تحتل قطعة أرض واسعة فى خلوص الخليج التحتانى وتربتها سوداء غنية بالأملاح بحيث تنمو حبات البطاطا بطول ذراعك بأقل جهد يبذلانه فى جز الحشائش لمنعها من التقدم . وإنهما ليكونان عضوين لهما قيمتهما فى جماعة المصلين لو أن مونرو حاول أن يزودهما بمعلومات حديثة.

ولذا فإن مونرو ذهل لزيارتهما، وإيدا إلى جانبه جلسوا معا فى قاعة الاستقبال و ايسكو محدودب إلى الأمام بينما مونرو يحاول أن يشركه فى مناقشة الإيمان. لم يجد مونرو أى دليل على الدين سوى عبادة الحيوانات والأشجار والصخور و الجو. كان ما توصل إليه هو أن ايسكو أثر كلتى قديم، وأن الاحتمال الأكبر أن القليل من الأفكار التى لديه تنتمى إلى اللغة السلتية فى اسكتلندا أو أيرلندا.

ومنتهزا مثل هذه الفرصة الفريدة، حاول مونرو أن يشرح نقاط الدين الحقيقى السامية. وعندما وصلا إلى الثالوث المقدس، أبدى ايسكو شيئا من الانشراح وقال، ثلاثة فى واحد مثل قدم الديك الرومى.

وبعد برهة، حين اقتنع بأن ايسكو لم يصله حقا بعد بيان برواية ثقافته الأساسية. قص مونرو قصة المسيح منذ مولده المقدس حتى الصلب الدامى. ضمن قصته كل التفاصيل الشهيرة، مع تبسيطها، واستجمع كل الفصاحة الممكنة. وعندما انتهى، اعتدل فى جلسته وانتظر رد فعل.

قال ايسكو: وتقول أن هذا حدث منذ وقت مضى ؟

قال مونرو: ألفى سنة، إذا اعتبرت ذلك وقتا مضى

قال ايسكو: أوه كنت لأسميها مدى واسعا حقا. ونظر إلى يديه حيث تتدليان من رسغيه. طوى أصابعه و نظر إليها نظرة نافذة كما لو كان يجرب قياس عدة جديدة. وفكر فى القصة برهة ثم قال، وأن سبب نزول هذا الشخص هو أن ينقذنا ؟

قال مونرو: أجل.

من طبائعنا الرديئة وما شابه ذلك؟

- أجل.

- وأنهم رغم ذلك قتلوه كما فعلوا؟ سمروه بمسامير كبيرة و طعنوه بخنجر وما إلى ذلك ؟

قال مونرو، نعم حقا.

قال ايسكو، لكنك تقول إن هذه القصة تداولها الناس لمدة ألفى عام ؟

-تقريبا.

-على حد القول، زمن طويل.

-زمن طويل جدا.

ابتسم ايسكو ابتسامة عريضة كما لو كان قد حل لغزا ونهض وضربه على كتفه وقال، كل ما يمكننا أن نفعله هو أن نأمل فى ألا يكون الأمر كذلك.

وفى تلك الليلة فى البيت، وضع مونرو خططا عن كيف يمكنه أن يحيط ايسكو علما بالفقه الصحيح وأن ينقذه بهذا من الوثنية. لم يدر بخلده أنه قد جعل منه أضحوكة وأن سعيه من أجل الجهل كان شديد الوضوح منذ اللحظة التى دخل فيها بوابة بيت ايسكو إلى درجة أن يعد إساءة بالغة. لا ولم يفترض أن ايسكو، وهو نفس رقيقة، قد استمتع ببساطة بأن يعطى مونرو كميات هائلة من الجهل الذى جاء يبحث عنه، بدلا من أن يغلق الباب فى وجهه أو أن يقذفه بقدر من ماء غسيل الأقدام الرمادى أو أن يريه عيار بندقية الرش الخاصة به، مثلما كان ليفعل البعض الذين وجهت إليهم إهانة بهذا الشكل.

لم يتفاخر ايسكو أمام أحد بما فعله و الحقيقة أنه لم يبد مباليا على الإطلاق بما إذا كان مونرو قد عرف، أو لم يعرف، حقيقة الأمر، أنه هو وزوجته معمدانيان قد غُطِسا فى الماء. كان مونرو هو الذى نشر الحكاية على سبيل السؤال عن أسماء آخرين ممن يعمهون فى ظلام الجهالة بهذا الشكل. وجد أن من الغريب أن الناس تقبلوا الحكاية على أنها فكهة وأن الناس جاءوا يبحثون عنه فى المتجر أو فى الطريق ويسألونه أن يحكيها. كانوا ينتظرونه أن يكرر قول ايسكو الأخير مثلما يفعل معظم الرجال بعد سرد نكتة ناجحة. وعندما كان مونرو يفشل فى أن يفعل ذلك، كان البعض يقولون السطر الأخير بأنفسهم، وهم يشعرون بجلاء بأن الأمور تظل ناقصة بغير هذا. استمر الحال على هذا المنوال حتى أشفقت إيدا أخيرا عليه وأخبرته أن الناس قد جعلوا منه مادة دعابة.

ظل مونرو فى حالة اكتئاب عدة أيام بعد ذلك بسبب المداعبة الصارخة التى نالها من المستوطنة بصورة عامة. تولدت لديه شكوك فى أنه يمكنه أن يجد لنفسه مكانا أبدا هناك، حتى قالت إيدا أخيرا، أظن أننا، بعد تلقينا دروس فى أصول المعاشرة، علينا أن نتصرف طبقا لهذا.

وبعد ذلك أصبح كل شىء أكثر وضوحا. ذهبا إلى آل سوانجر واعتذرا ومنذ ذلك الحين تصادقوا وتناولا معهم وجبات بشكل منتظم، ولكى يقدموا ترضية فيما يبدو عن مزحة ايسكو، سرعان ما كف آل سوانجر عن كونهم معمدانيين وانضموا إلى الكنيسة.

وخلال تلك السنة الأولى، كان مونرو قد احتفظ ببيتهما فى تشارلستون، وعاشا فى بيت القس البروتستانتى الصغير الشديد الرطوبة بجوار النهر، الذى يفوح برائحة العفن الفطرى الشديدة فى يوليو وأغسطس إلى درجة أنها تلسع الأنف. ثم، عندما بدا أن تغيير المناخ قد أحدث تحسنا فى رئتى مونرو وأن الجماعة قد تحملتهما أخيرا وربما تقبلتهما يوما ما، قرر أن يبقى إلى أجل غير مسمى. باع بيت تشارلستون واشترى الخليج الصغير من عائلة بلاك، التى واتتها فكرة أن ينتقلوا إلى تكساس. راقت لمونرو البيئة المحيطة البهيجة المنظر، وهى مستوية ومفتوحة فى الخلوص التحتانى للخليج الصغير وقد نظف أكثر من عشرين هكتارا وسيجت بحيث أصبحت حقولا ومراعى. راق له قوس سفوح

التلال المغطاة بغابات تمتد إلى أعلى باتجاه الجبل البارد تتخللها أخاديد وتجويفات. كان يحب الماء الذى يأتى من النبع باردا إلى درجة أنه يوجع الأسنان حتى فى الصيف وهو يحمل معه المذاق الحيادى النظيف للصخور التى ينبع منها.

وكان يروقه البيت الذى بناه هناك بشكل خاص. لأنه يمثل إلى حد كبير إيمانه بالمستقبل الذى يتضمن ذاته لمدة بضع سنوات أخرى على الأقل. وضع مونرو تصميم البيت الجديد بنفسه وأشرف على إنشائه. وخرج البيت بحكم الصنع على نفس الشكل السائد، مغطى من الخارج بشكل محكم بألواح خشبية، وبجدران داخليه مغطاة بألواح مزينة بالخرز، وشرفه عميقة تمتد بطول الواجهة، ومطبخ ملحق به يمتد فى الخلف، ومدفأة كبيرة عريضة فى حجرة الجلوس، ومواقد تعمل بالخشب فى غرف النوم وهو أمر نادر فى الجبال. وكان كوخ آل بلاك الخشبى يقع على بعد بضع مئات من القصبات أعلى التل باتجاه الجبل البارد من البيت الجديد، وقد أصبح مأوى للعون الأجير.

عندما اشترى مونرو الخليج الصغير، كان المكان مزرعة تعمل بكامل طاقتها، لكن مونرو سرعان ما ترك أجزاء منها تتهالك، لأنه لم يكن يرمى إلى أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتيا أبدا. لا ولم تكن بحاجة إلى أن تكون كذلك، مثلما افترض، إذا استمر المال فى التدفق من استثماراته فى الأرز والنيلة و القطن فى تشارلستون.

ويبدو، على أية حال، أن المال لم يكن ليستمر، كما تبينت إيدا حين كفت عن مسح ممتلكاتها بعينيها من مجلسها على رأس الجبل وجذبت الخطاب من الكتاب الذى تحمله فى جيبها وقرأته. كانت قد كتبت، بعد الجنازة بوقت قصير، إلى محامى مونرو وصديقه فى تشارلستون تخبره عن الموت وتطلب معلومات عن موقفها المالى. كان الخطاب هو الجواب الذى تأخر طويلا. كان جوابا حريصا، صيغ بمرارة. فقد ناقش من على بعد مسالة الحرب والخطر، والعبارات الأخرى المتنوعة عن الأوقات الصعبة وتأثيرها على دخل إيدا الذى سوف ينقص إلى لا شىء تقريبا على الأقل حتى تنتهى الحرب نهاية سعيدة. وإذا كان الجهد الحربى غير ناجح، فإن إيدا قد لا تتوقع على مستوى الواقع أى شئ بعد ذلك. وانتهى الخطاب إلى عرض بأن يقوم بإدارة ممتلكات مونرو

حيث أن إيدا قد تشعر على وجه مشروع بأنها غير مؤهلة لأداء تلك الواجبات بنفسها، وقد أوحى الخطاب بشكل رقيق أن المهمة تتطلب حصافة ومعرفة خارج مجال إيدا.

وقفت ودست الخطاب فى جيبها وهبطت الدرب إلى الخليج الأسود. وتساءلت إيدا فى ضوء فكرة أن الحاضر يحمل ما يكفى من التهديد، ولا يعرف أحد الأشياء البغيضة التى قد تلحق بهم فى الزمن المقبل، من أين قد تجد الشجاعة على البحث عن الأمل ؟

وعندما خرجت من بين أشجار الأخدود الكبير، وجدت أن الضباب الرقيق قد انقشع أو تلاشى. كانت السماء صافية، وبدا الجبل البارد فجأة قريبا بما يكفى لأن تمد يدها وتلمسه. كان النهار يتقدم بالتدريج والشمس تتجه إلى أسفل وسوف تغوص أسفل الجبل فى خلال ساعتين ليبدأ غسق المرتفعات الذى لا ينتهى، ثرثر عصفور نحوها من مجلسه عاليا فى شجرة الجوز الأمريكية عندما مرت من تحتها. تساقط فتات من الجوز حولها.

وعندما بلغت الجدار الحجرى القديم الذى يحدد أعلى المرعى العلوى توقفت مرة أخرى كانت بقعة فاتنة، واحدا من أركان المزرعة المفضلة لديها. كانت الطحالب والأشنة قد نمت على الأحجار حتى بدا الجدار موغلا فى القدم، رغم أنه لم يكن كذلك. كان أحد آل بلاك المتقدم فى العمر قد بدأه فيما يبدو فى محاولة منه أن ينظف الحقل من الأحجار لكنه تخلى عن ذلك بعد عشرين قدما فقط، وعند تلك النقطة تولى الأمر قضبان حديدية مشطورة. كان الحائط يمتد من الشمال إلى الجنوب، وفى هذا الأصيل الشمسى كان جانبه الغربى دافئا بأشعة شمس الأصيل وقد نمت بجانبه شجرة تفاح، تفاح ذهبى شهى، وقد سقطت منها بضع تفاحات نضجت مبكرا فى الحشائش الطويلة. وجاء النحل إلى رائحة التفاحات المتعفنة الحلوة، وهو يطن فى ضوء الشمس. لم يكن الجدار يشرف على منظر ممتد، مجرد منظر هادئ لركن من أرض مشجرة وتشابك أشجار التوت الأسود. وشجرتى قسطل كبيرتين. رأته إيدا أكثر الأماكن هدوءا عرفته على الإطلاق. تربعت إيدا فى العشب عند قاعدة الجدار ولفت شالها فى شكل وسادة. سحبت الكتاب من جيبها وشرعت تقرأ عنوانه « كيف تصطاد الشحارير، وكيف تطير الشحارير ». راحت تقرأ و تقرأ ونسيت نفسها فى

حكاية الحرب والخروج على القانون حتى غلبها النعاس فى الشمس الهابطة وطنين النحل.

نامت فترة طويلة وحلمت حلما قويا وجدت فيه نفسها فى مأوى قطارات وسط حشد كبير من المسافرين المنتظرين. كانت هناك حقيبة زجاجية فى منتصف الغرفة، تقوم بداخلها عظام رجل، أشبه بعرض تشريحى رأته ذات مرة فى متحف. وبينما جلست تنتظر القطار، امتلأت الحقيبة بوهج أزرق، والضوء يرتفع ببطء مثل فتل فتيل فى جسم فانوس كروى. رأت إيدا بفزع إن العظام تعيد كساء نفسها باللحم، وبينما استمرت العملية أصبح من الواضح لها أن اباها يعاد تشكيله.

تراجع المسافرون الآخرون إلى حائط الغرفة مرعوبين، لكن إيدا، رغم فزعها هى أيضا، سارت إلى الزجاج ووضعت يدها عليه وانتظرت. غير أن مونرو لم يصبح نفسه تماما. ظل مجرد جثة بلا روح، والجلد نحيل على العظام مثل جلد الرق. كانت حركاته بطيئة وإن كانت متهيجة مثل رجل يكافح تحت الماء. وضع فمه على الزجاج وكلم إيدا بجدية شديدة وإلحاح. كان مسلكه مسلك رجل ينبئ عن أهم شئ عرفة. لكن إيدا لم تستطع أن تسمع شيئا سوى تمتمة، حتى وهى تضغط أذنيها على الزجاج ثم جاء صوت ريح تسبق عاصفة، وأصبحت الحقيبة فارغة فجأة. جاء كمسارى القطار ودعا المسافرين إلى ركوب القطار، وكان من الواضح لإيدا أن الوجهة النهائية هى تشارلستون فى الماضى، وأنها لو ركبت فإنها ستصل إلى فترة بنوتتها، وقد عادت الساعة عشرين عاما إلى الوراء. ركب كل المسافرين، وكانوا جماعة بشوشة، يلوحون من النوافذ ويبتسمون. جاءت نتف من اغنية من المقصورات. لكن إيدا وقفت وحيدة على الخط الجانبى بينما راح القطار يبتعد.

استيقظت على سماء ليلية. كانت منارة كوكب مارْس تنحدر للتو أسفل خط أشجار قطعة الأرض المشجرة إلى جهة الغرب. أنبأها هذا أن الوقت لابد أن يكون بعد منتصف الليل، إذ كانت تحدد موقعه فى المساء الباكر فى مفكرتها. انتصب نصف القمر فى السماء. وكان الليل جافا ورطيبا قليلا فحسب. بسطت إيدا الشال ولفته حولها. لم تكن، بطبيعة الحال، قد قضت مطلقا ليلة فى الغابات وحدها، لكنها وجدتها أقل إفزاعا مما كان يمكنها أن تتخيل، حتى بعد حلمها

المزعج. أرسل القمر ضوءا أزرق رائقا على الغابات والحقول. كان الجبل البارد مرئيا مثل لطخة باهتة فحسب من الظلمة عبر السماء. لم يكن هناك ضوء سوى نداء سمانة من مسافة بعيدة. لم تشعر بحاجتها إلى الإسراع بالعودة للبيت.

نزعت إيدا ختم الشمع من على جرة التوت الأسود المحفوظ وغمست أصبعين فيه واغترفت حبات توت فى فمها. كان التوت المحفوظ قد صنع بقليل من التحلية وله مذاق طازج وحاد. جلست إيدا ساعات تراقب ارتقاء القمر عبر السماء وأكلت حتى فرغت الجرة الصغيرة. فكرت فى أبيها فى الحلم وهيئة الشخص المظلمة فى البئر. ورغم أنها كانت تحب مونرو حبا عميقا، فإنها أدركت أن ظهوره فى رؤياها ترك فى نفسها أثرا غريبا. لم تكن تريده أن يأتى باحثا عنها، لا ولا تريد أن تتبعه على الفور أكثر مما ينبغى.

جلست إيدا مدة طويلة تكفى لأن تشاهد طلوع النهار. بدأ الضوء الرمادى الأول يتجمع بوهن، وما إن تكاثر الضوء حتى بدأت الجبال تتخذ شكلا، محتفظة بالضوء المعتم فى جرمها. تلاشى الضباب الذى تعلق بقممها وانحسر عن أشكال الجبال وتشتت فى دفء الصباح. ظلت أشكال الأشجار فى المراعى مرتسمة على ندى الحشائش تحتها. وعندما قامت لتهبط باتجاه البيت، كانت رائحة الليل لا تزال تتلكأ تحت شجرتى القسطل.

وفى البيت، تناولت إيدا المكتب السهل الحمل الذى تضعه على ركبتها واتجهت إلى مقعد القراءة. كان الدهليز غارقا فى الظلمة فيما عدا رقعة من ضوء الصباح الذهبى تسقط على قمة المكتب حيث يرقد على حجرها. وضعت إيدا ورقتها فى مربع من مربعات الضوء وكتبت خطابا سريعا تشكر فيه المحامى على عرضه لكنها ترفضه على أساس أنها فى الوقت الحاضر ترى أن مؤهلاتها لإدارة ممتلكات تتألف من لا شىء تقريبا أكثر من كافية.

ففى ساعات مراقبتها الليلية فكرت مرارا وتكرار فى احتمالات ما ينتظرها. كانت قليلة. فلو حاولت أن تبيع وتعود إلى تشارلستون، فإن المال القليل الذى يمكنها أن تأمل فى تحقيقه من المزرعة فى مثل تلك الأيام الصعبة حين يندر المشترون يمكنه أن يعيلها بالكاد لفترة طويلة. كان عليها بعد نقطة ما، أن ترتبط بأصدقاء لمونرو فى علاقة طفيلية مموهة بشكل معتدل، كمدرسة خاصة أو معلمة موسيقى أو ما إلى ذلك.

ذلك أو أن تتزوج.. كانت فكرة العودة إلى تشارلستون كعانس ما يائسة فكرة مخيفة بالنسبة لها. كان بإمكانها أن تتخيل المشاهد. أن تنفق الكثير مما لديها من المال على خزانة ملابس ملائمة ثم تتفاوض على الزواج مع ذلك النوع من بقايا الطاعنين في السن الفاشلين على مستوى معين من مجتمع تشارلستون – مستوى دون القمة بطبقات عديدة – في حين رحل كل الرجال الذين من عمرها تقريبا إلى الحرب. كل ما أمكنها أن تتنبأ به هو أن تجد نفسها في نهاية الأمر تقول لشخص ما إنها تحبه، في حين أن ما تعنيه هو أنه تصادف أن يظهر في حياتها في وقت احتياج بشكل خاص. لم يكن باستطاعتها، حتى تحت وطأة القسر الشائع، أن ترغم عقلها على تخيل عملية الزواج من مثل هذا الرجل – على إنها لا تبعد عن كونها شعورا عاما بالضغط والاختناق.

ولو أنها عادت إلى تشارلستون تحت وطأة الظروف المهينة، لأمكنها أن تتوقع قليلا من الرثاء وكثيرا من التعليقات المؤلمة، لأنها في نظر الكثيرين قد بددت سنوات المغازلة القليلة السريعة الزوال حين ترتفع النساء الشابات إلى ذروة ثقافتهن، ويركع الرجال احتراما بينما المجتمع كله يقف انتباها يراقب سيرهن قدما باتجاه الزواج كما ولو كانت القوة الأخلاقية الأولية للكون مركزة في ذلك الاتجاه. وفي ذلك الوقت كان أصدقاء مونرو ومعارفه يجدون عدم اهتمامها النسبي بهذه العملية أمرا محيرا.

وقد فعلت القليل لتعين تطور الأمور، ففي حدود قاعات استقبال السيدات التي تعقب حفلات العشاء حيث الزوجات والأزواج يطلقون تعليقات حادة أحدهم على الآخر، كانت عرضة لأن تزعم أنها تشعر بملل فظيع من الخُطاب – الذين بدوا جميعا محدودين في دوائر اهتماماتهم بالعمل والصيد والخيل – حتى إنها شعرت أن عليها أن تجد من يشكل لها لافتة كتب عليها « الرجال ممنوعون » تتدلى من بوابة الشرفة. كانت تعتمد على مثل تلك التصريحات لتثير استجابة مذهبية، سواء من واحد من الناس الأكبر سنا في المجموعة أو من واحدة من الفتيات التي يقدمن في الحفلات لأول مرة حريصة على أن تتكلف التودد بين أولئك الذين يؤمنون بأن أسمى تعبير للمرأة المتزوجة هو خضوعها المعقول لإرادة الرجل. كانت واحدة منهن تقول أن الزواج هو هدف المرأة. وكانت إيدا تجيب، حقا، يمكننا أن نتفق على هذا، على الأقل ما دمنا لا نمعن النظر في

معنى كلمة أن يكون وضعك «فى المرتبة التالية - للواحدة - قبل - الأخيرة» من بدء فترة طمثك. كانت تستمتع بالصمت الذى يعقب ذلك فى حين يروح كل الحاضرين. يعدون الأرقام عدا تنازليا ليكتشفوا المقصودة بهذا الأداء الكلامى.

ونتيجة لمثل هذا السلوك، أصبح الرأى الشائع بين معارفهم أن يرو أن مونرو قد شكل منها نموذجا لكائن مخيف، مخلوقا لا يصلح كلية لمجتمع الرجال والنساء. ولذا فقد أبدى الناس نتيجة لذلك. بعض الدهشة، وغضبا هائلا مع ذلك، من استجابة إيدا لعرضى زواج خلال سنتها التاسعة عشر: فقد رفضتهما دون تردد، وفسرت فيما بعد أن ما وجدته ينقص طالبى خطبتها هو سعة أفق معينة. ذلك وحقيقة أن كلا الرجلين يحافظ على شعره لامعا باستخدام دهان معطر، كما لو كانا يعوضان بهذا بطريقة مرئية ما نقصا فى تألق فطنتهم.

وبالنسبة لكثير من صديقاتها، فإن رفض عرض زواج تقدم به رجل من الأثرياء لا يعيبه شئ بشكل واضح وقابل للإثبات بالأدلة، أمر، وإن كان يمكن تصوره، فإنه أمر لا يغتفر، وفى السنة التى سبقت رحيلهما إلى الجبال، كان الكثيرين من صديقاتها قد تضاءل عددهن، إذ وجدن أنها شائكة وغريبة الأطوار أكثر من اللازم.

وحتى الآن، كانت العودة إلى تشارلستون، فكرة مريرة، فكرة يرفضها كبرياؤها. لم يكن هناك ما يجذبها للعودة إلى هناك. من المؤكد لم تكن العائلة. فلم يكن لديها أقارب أقرب إليها من ابنة عمها لوسى، فلا عمات ولا أجداد والهون يرحبون بعودتها. وكانت تلك الحال من انعدام ذوى القربى أيضا فكرة شديدة المرارة، إذا أخذت فى الاعتبار أن ما حولها من الناس الجبليين مرتبطون برباط عشائرى ممتد ووثيق إلى درجة أنهم لا يكادون يسيرون ميلا على طول النهر دون أن يلتقوا بقريب.

ومع ذلك فإن هذا المكان، رغم أنها غريبة، وهذه الجبال الزرقاء تبدو وكأنها تمسك بها حيث هى. فمن أى اتجاه كان الاستنتاج الذى توصلت إليه والذى ترك لها أملا فى الرضا عن ذاتها هو: أن كل ما يمكنها أن تراه حولها هو كل ما يمكنها الاعتماد عليه. الجبل ورغبة فى أن يمكنها أن تجعل من الأشياء العادية هنا حياة مرضية - بدا أن الأمرين معا يوفران لها وعدا بحياة أكثر رضا واتساعا، رغم أنها لم يكن بمقدورها بأى حال أن تصور خطوطها

الخارجية الأكثر عريا. كان من السهل تماما أن تقول، مثلما قال مونرو فى أغلب الأحيان، إن الطريق إلى الرضا أن يلتزم المرء بطبيعته وأن يسلك طريقها. أمنت بأن هذا صحيح بكل وضوح، ولكن إذا لم يكن لدى المرء أقل إشارة خفية إلى أن يكتشف طبيعته، فإن حتى خروجه إلى الطريق يصبح أمرا معوقا.

ولذا فإنها بالتالى جلست عند النافذة فى ذلك الصباح تتساءل بصدق وبشىء من الارتباك عما ينبغى أن يكون عليه تصرفها التالى. عندما رأت شخصا يأتى سائرا على الطريق. وعندما اقترب من البيت تبينت أن الشخص فتاة من نوع ما قصيرة القامة، نحيلة مثل رقبة دجاجة فيما عدا عبر جانبى مفصلى فخذيها الحادين، حيث كانت عريضة عرضا وافرا. ذهبت إيدا إلى الشرفة وجلست وهى تنتظر ما قد تريده تلك الفتاة.

صعدت الفتاة إلى الشرفة وجلست بدون استئذان فى مقعد هزاز بجانب إيدا وعقدت عقبيها على دعامات المقعد. وشرعت تهتز. كانت من ناحية بنائها متوازنة مثل زحافة جر، ضعيفة فى مركز جاذبيتها لكنها كثيرة النتوءات نحيلة الأطراف. كانت ترتدى ثوبا مربعا عند الرقبة من قماش خشن مغزول فى البيت، لونه أزرق مترب من ذلك اللون الذى ينتج عن صبغة مصنوعة من مرارة العشبة المهلهلة.

قالت: تقول السيدة العجوز سوانجر إنك بحاجة إلى عون.

واصلت إيدا تفحص الفتاة. كانت شيئا أسمر اللون. يحيط برقبتها وذراعيها أحبال رفيعة. هزيلة الصدر. شعرها أسود وخشن مثل ذيل حصان. أرنبة أنفها عريضة. عينان سوداوان بلا إنسان عين فعلا، بياضهما مفزع فى صفائه. كانت حافية لكن قدميها نظيفتان. وكانت أظافر أصابع قدميها شاحبة وفضية مثل قشور السمك.

قالت إيدا السيدة سوانجر على حق، لكن ما احتاجه يتطلب عملا شاقا. حرث، زرع، جمع حصاد وما إلى ذلك. علينا أن نجعل هذا المكان مكتفيا اكتفاء ذاتيا. اعتقد إننى أريد عاملا لهذا الشغل.

قالت الفتاة : نمرة واحد، إذا كان لديك حصان فإننى أستطيع أن أحرث طوال اليوم. نمرة اثنين، أخبرتنى السيدة العجوز سوانجر عن موقفك الشائك. وهناك شىء يجب أن تحرصى على تذكره وهو أن كل رجل يستحق أن تؤجريه قد رحل وذهب. هذه حقيقة قاسيه، لكن هكذا تسير الأمور فى المقام الأول، حتى فى ظل الظروف المواتية.

اكتشفت إيدا أن اسم الفتاة كان روبى، ورغم أن مظهرها لم يكن يدعو إلى الثقة، فإنها صورت نفسها قادرة إلى أى وكل أعمال المزرعة بشكل مقنع. وبنفس القدر من الأهمية أن إيدا اكتشفت، أثناء حديثها أن روبى شرخت صدرها بدرجة هائلة. كان الانطباع العميق الذى تولد فى إيدا أنها تمتلك قلبا راغبا فى المساعدة. ورغم أن روبى لم تكن قد قضت يوما واحدا فى المدرسة فى حياتها ولم تكن تستطيع قراءة كلمة أو حتى كتابة اسمها، فإن إيدا ظنت أنها رأت فيها شرارة لامعة وصلبة مثل شرارة تتولد من الصلب وحجر الصوان. وكان هناك هذا: فشأن إيدا، كانت روبى يتيمة الأم من يوم مولدها. كان لديهما ذلك لتفهم إحداهما الأخرى عن طريقه، رغم أنهما بدون ذلك لم يكن باستطاعتهما إلا أن تكونا غريبين إحداهما عن الأخرى. وفى وقت قصير، ولدهشة إيدا نوعا ما. شرعا يعقدان صفقة.

قالت روبى: أنا لم أستأجر أبدا كعاملة أو خادمة، ولم أسمع كلاما طيبا عن الالتحاق بعمل كهذا. لكن سالى قالت إنك بحاجة لعون، وكانت على حق. ما أقوله هو أننا ينبغى علينا أن نصل إلى تفاهم ما.

قالت إيدا لنفسها، هنا نتكلم عن النقود. لم يكن مونرو قد استشارها مطلقا فى أمر تأجير العمالة. لكنها كان لديها انطباع أن الأجراء لا يملون شروط عمالتهم عادة. قالت: فى هذه اللحظة بالذات، ولعله لفترة قادمة، فإن المال شحيح.

قالت روبى، ليس المال هو المهم. فكما قلت، إننى لا أبحث عن عمل استؤجر فيه. إننى أقول إذا كنت سأساعدك هنا، فعلى كلتينا أن تعرف أن كل واحدة تفرغ دلوها الليلى.

شرعت إيدا تضحك ثم أدركت أنها لم تعن أن يكون ذلك مضحكا. كانت روبى تطلب شيئا يتعلق تقريبا بالمساواة. بدا الأمر من وجهة نظر إيدا أمرا

غريبا. لكنها بعد التفكير فى الأمر قررت أنه حيث لم يكن هناك أى واحد آخر مصطف لمساعدتها، وحيث إنها ظلت تلقى قمامتها طوال الصيف، فإن الطلب كان عادلا تماما.

وبينما هما يتكلمان عن التفاصيل الباقية، جاء الديك الذهبى الأسود يسير بجوار الشرفة وتوقف ليحدق فيهما. نفض رأسه وهز عرفه الأحمر من جانب من رأسه إلى الجانب الآخر.

قالت إيدا، إننى احتقر هذا الطائر لقد حاول أن يجلدنى.

قالت روبى: ما كنت لاحتفظ بديك جلاد.

قالت إيدا: اذن كيف يمكننا أن نطرده.

نظرت روبى إليها بقدر هائل من الحيرة. نهضت وغادرت الشرفة وبحركة سريعة واحدة التقطت الديك وجذبت جسمه تحت ذراعها الأيسر، انتزعت رأسه بيدها اليمنى. صارع تحت ذراعها لمدة دقيقة ثم سقط ساكن الحركة. طوحت روبى الرأس فى شجيرة توت بجوار السياج.

قالت روبى: سيكون لحمه متليفا، ولذا يحسن أن تطهيه على نار هادئة. وما إن حل وقت العشاء حتى كان لحم الديك يسقط من العظم، وكتل من عجين البسكويت بحجم رءوس القطط تطهى فى المرق الأصفر.

لون اليأس

فى وقت آخر كان من المحتمل أن تغشى المنظر نغمة طروب. فكل العناصر التى تشكله توحى بحرية الطريق المكشوف الأسطورية: فجر اليوم، ضوء الشمس الذهبى وبزاوية منخفضة؛ ممر لعربات اليد يحد جانبا منه أشجار القبقب الحمراء، ويحد الجانب الآخر سياج من قضبان حديدية مشطورة؛ رجل طويل القامة يرتدى قبعة عريضة الحواف، يحمل على ظهره مخلاة ويتجه غربا. لكن إينمان، بعد ليال رطبة وتعيسة كهذه التى مرت أخيرا، كان يشعر بأنه مثل طفل صغير شقى من أطفال الله يغير طلبا للسلب والنهب. توقف وارتدى حذاءه عالى الساق على قضيب سياج جانب الطريق الأسفل وألقى نظره على الحقول الندية. حاول أن يرحب باليوم بقلب شاكر، لكن أول ما وقع عليه نظره فى الضوء المبكر الشاحب كان نوع ما مقزز من أفاعى الأراضى المنبسطة يزحف بتراخ مثل غائط من الطريق داخلا فى حوض من الحشائش الوردية الكثيفة.

فيما وراء الحقول قامت غابات منبسطة. لا شىء سوى أشجار لا شأن لها، أشجار صنوبر وأشجار أرز حمراء. كان إينمان يمقت هذه العوائق الصنوبرية الكثيفة المستوية السطح. كل هذه الأرض المنبسطة. تربة حمراء. بلدان حقيرة. لقد حارب على أرض مثل هذه من الأراضى الجبلية إلى البحر، وبدت له أشبه بلا شىء سوى المكان الذى ينساب فيه كل ما هو مقزز ويدعو للرثاء إلى أسفل

التل ويتجمع فى بقع منخفضة. ريف من قمامة القارة السائلة ورواسب بالوعاتها وحفر مجاديرها. أرض موحلة طينية حقا، ولم يكن يستطيع أن يتقبل أكثر من هذا منها. وفى الخارج فى الغابات تصدر حشرات السيكادا أصواتها الحادة فى كل ما حولها، قريبة وبعيدة، صراخا حادا نابضا مثل صوت عدد كبير من العظام الجافة المشرشرة تتلوى إحداها على الأخرى. كان الصوت كثيفا إلى حد أنه بدا مثل ذبذبة متخيلة فى داخل رأس إينمان من صلصلة فى عقله المهموم بلاء شخصى، لا إحساس بالعالم العام يتقاسمه الكل. شعر بالجرح فى رقبته كأنه مسلوخ لتوه وهو ينبض مع كل نبضة من حشرات السيكادا. مرر إصبعا من تحت الضمادة، وهو يتوقع أن يشعر بمكان عميق أحمر اللون مثل شق خيشوم سمكة، لكن ما وجده بدلا من ذلك كان حاشية كبيرة ذات قشرة عند حافة ياقة قميصه.

حسب أن أيام سفره قد أوجدت مسافة قليلة بينه وبين المستشفى. فقد تطلبت حالته أن يسير بشكل أبطأ وأن يستريح فى أغلب الأحيان أكثر مما يريد، وقد أمكنه أن يقطع بضعة أميال فحسب فى كل مرة، وحتى تلك السرعة البطيئة كان لها ثمن باهظ. كان متعبا حتى العظام وضائعا على الأقل جزئيا، وهو لا يزال يبحث عن مسلك يتجه غربيا مباشرة إلى موطنه. لكن الريف كان ريفا يتألف من مبانى مزارع صغيرة، يقطعها كلها خليط من الطرق المتداخلة، لا يحدد أحدها أى لافتة تعلن عنها على أنها فى أكثر الاحتمالات تتجه غربا أكثر من غيرها. ظل يشعر أن الطرق قد قادته إلى أبعد باتجاه الجنوب عما يريد. وكان الجو سيئا، سيل من الأمطار متقطع من أن لآخر خلال تلك الفترة، انهمارات مفاجئة مع رعد وبرق بالليل والنهار. وكانت مبانى المزارع ذات الألواح الخشبية ترقد متقاربة، واحد لصق الآخر، وحقول الذرة كلها مترادفة ولا شىء سوى سياج حديدى يحدد قطعة أرض رجل عما يليها. ولكل مزرعة كلبا صيد شريران جاهزان لأن ينطلقا عند أضأل صوت، ويندفعا بلا نباح وبصوت لا يسمع من بين ظلال الأشجار الداكنة على جانب الطريق لتمزق رجليه بفكين مثل المناجل. وفى الليلة الأولى، ركل عدة هجمات بعيدا عنه، لكن كلبه رقطاء اخترقت جلد ربلة ساقه كأنها اخترقتها بمثقاب جلد. بحث بعد ذلك عن أسلحة ووجد فرع شجرة سنط متينا فى حفرة. وبقليل من الجهد صد الكلب التالى الذى

عضه، وهو يضربه ضربات قصيرة إلى أسفل كأنه يدك التراب حول عمود أقيم حديثا. وخلال جزء كبير من تلك الليلة والليالى التالية، طرد الكلاب ضربا مكتوما بالهراوة لتنطلق راجعة بسرعة فى الظلام وهى لا تزال بلا صوت. جعلت الكلاب والحرس الوطنى المعسعس وظلام الليالى الملبدة بالغيوم من السفر سيرا على الأقدام سفرا عصبيا.

وكانت الليلة التى انقضت لتوها أسوأ الليالى. فقد أنجابت السحب وكشفت عن شهب تقذف بنفسها من نقطة خاوية فى السماء. كانت تنطلق فى مسارات تئز حتى حسبها إينمان موجهة إليه شخصيا بكل تأكيد. قذائف صغيرة تقذف من أعلى. وفيما بعد، جاءت كرة هائلة من اللهب تزأر من الظلام، وهى تتحرك ببطء لكنها مصوبة بحيث تهبط مباشرة فوقه. غير أنها قبل أن تصل إليه اختفت ببساطة مثل لهب شمعة يضغط عليه بالأصابع لينطفئ بين السبابة والإبهام. تبع كرة النار مباشرة طائر ليل ذو جناحين قصيرين غليظين يهفهفان أو خفاش له وجه خنزير، وهو ينقض لينقف رأس إينمان، مما جعله يحنى رأسه ويسير منحنيا ثلاث خطوات واسعة كاملة. وفى التو أومضت فراشة ليلية عابرة جناحيها الكبيرين المنقطين بأعين أمام أنف إينمان مباشرة، وكان قد التبس عليه الأمر وظنها فراشة خضراء غريبة الأطوار دفعت باتجاهه فجأة من الظلام لتنقل إليه رسالة. كان إينمان قد عوى وصوب إلى الهواء أمامه ضربات قوية لم تضرب شيئا. وفيما بعد، سمع وقع حوافر خيول تخب وصعد شجرة وراح يراقب جماعة من الحرس تهدر بالقرب منه، تبحث بالضبط عن واحد مثله ليقبضوا عليه ويجلدوه ويعيدوه إلى الخدمة. وعندما هبط من على الشجرة، شرع فى السير مرة ثانية، بدت كل جذع شجرة تأخذ شكل شخص كامن فى الظلام، ومرة جذب مسدسه وصوبه إلى شجيرة آسى عجفاء تبدو مثل رجل بدين يرتدى قبعة كبيرة. وعند عبوره جدولا غائرا بعد منتصف الليل، غمس إصبعا فى الشط الطينى ولطخ صدر سترته بدائرتين متحديتى المركز بنقطة فى منتصفها وواصل سيره، وقد وضع علامة على أنه أضحوكة المملكة السماوية، مسافر ليل، هارب من الخدمة. بعيد عن موطنة. وهو يقول لنفسه: ستكون هذه الرحلة محور حياتى.

وبعد أن انقضى الليل الطويل، كانت أعظم رغبة لدية الآن أن يتسلق السياج وأن يعبر ذلك الحقل القديم إلى داخل الغابات المنبسطة. أن يختبئ فى أشجار

الصنوبر وأن ينام. لكنه ما أن وصل أخيرا إلى الريف المكشوف حتى شعر بحاجته إلى مواصلة السير، ولذا فإنه رفع قدمه عن قضيب السياج وانكب من جديد على أسفاره.

وارتفعت الشمس فى السماء وأصبحت حارة، وبدا أن كل عالم الحشرات يجد سوائل جسد إينمان باهرة. طنت بعوضات مخططة حول أذنيه ولسعت ظهره من خلال قميصه. وسقطت من الغطاء الحى من الأغصان المقطوعة الذى يعلو جانب السياج قرادات والتصقت بحد الشعر على جبينه وسرواله ووسطه واكتست شحما. وجاء الهاموش الصغير يبحث عن الماء فى عينيه. وتبعته ذبابة خيل لفترة، وهى تزعج رقبته. كانت كتلة سوداء كبيرة من مادة طنانة بحجم نهاية مفصل إبهامه، وود أن يقتلها لكنه لم يستطع، مهما ارتج وصوب ضربات إلى نفسه وهى تهبط عليه لتقضم طفرات من الدم واللحم. رنت الضربات فى الهواء الساكن. ومن بعيد كان يبدو شخصا ذا مزاج موسيقى يجرب منهجا جديدا فى النقر أو مجنونا مطلق السراح يتعارك مع طبيعته السوية ويصوب ضربات بكفه بكراهية للذات.

توقف وتبول فى التراب. وقبل أن ينتهى بالكاد، حطت فراشات ربيعية سماوية اللون على بوله لتشرب، ولون أجنحتها فى الشمس تشبه معدنا أزرق. كانت تلك فيما يبدو، رغم ذلك، طبيعة المكان.

وعند الأصيل وصل إلى مستوطنة عند تقاطع طرق. توقف عند حافة البلدة ومسح بعينية المنظر. لم يكن هناك سوى متجر وبضعة بيوت وملحق بيت حيث كان هناك حداد يضغط على دواسة عجلة وهو يشحذ نصل منجل طويل. لاحظ إينمان أنه يسن المنجل بشكل خاطئ، إذ أنه كان يشحذ الحافة القاطعة بدلا من شحذها إلى الخارج وهو يمسك بالنصل بزاوية مستقيمة على العجلة بدلا من أن يمسك بها مائلة بانحراف. لم يكن هناك ناس آخرون يتحركون فى البلدة. قرر إينمان أن يخاطر بالذهاب إلى المتجر المطلى بدهان أبيض ليشترى طعاما. طوى مسدسه فى ثنيات لفة البطانية حتى يبدو غير مؤذ ولا يجذب الانتباه .

رفع رجلان يجلسان بشرفة المتجر رأسيهما بالكاد وهو يصعد الدرج. كان أحد الرجلين عارى الرأس، وشعره ينتصب من جانب، كما لو كان قد غادر

السرير لتوه ولم يمرر حتى أصابعه خلال رأسه. كان مشغولا بعمق فى تنظيف أظافره بنبل تشحيم بندقيته المدبب، وكل ملكاته مركزة تماما على هذه المهمة حتى أن طرف لسانه، وهو رمادى مثل قدم أوزة، برز من ركن فمه. وكان الرجل الآخر يتفحص جريدة. كان يرتدى بقايا زى عسكرى، لكن مقدمة قبعته الواقية من الشمس قد تمزقت حتى أن قمتها وحدها تعلو رأسه مثل طربوش رمادى. كانت مائلة إلى جانب بزاوية حادة. وافترض إينمان الرجل يتزيا بزى لاعبى كرة المضرب. وعلى الجدار خلف الرجل استندت بندقية ويتويرث على خير ما يرام، معدة معقدة ذات منظار نحاسى، بها عجلات صغيرة ومسامير لولبية مركبة لضبطها من أجل إدارتها ورفعها. كانت ماسورتها السداسية مسدودة بسدادة من خشب القبقب لمنع دخول الأتربة . كان إينمان قد رأى مجرد عدد قليل من بنادق ويتويرث من قبل. كانت مفضلة لدى القناصين، مستوردة من إنجلترا مثلما كانت أنابيب خراطيشها الورقية النادرة والغالية الثمن. لم تكن رهيبة فى قوتها بعيارها الـ ٤٥ ، لكنها بالغة الدقة على مسافات تصل إلى ميل تقريبا. فلو أمكنك أن ترى هدفك ولديك أدنى قدر من المهارة فى الرماية، لأصابته بندقية ويتويرث. تساءل إينمان كيف أمكن لمثل أولئك الرجال أن يحصلو على بندقية رائعة كهذه.

تجاوزهما ودلف إلى المتجر، وهما لا يزالان لايرفعان رأسيهما. وبالداخل كان عجوزان يلعبان لعبة عل غطاء برميل بجوار النار، وقد وضع أحد الرجلين يده على دائرة الخشب وبسط أصابعه، والآخر يسدد طرف مطواة بين أصابعه. راقبها إينمان لمدة دقيقة لكنه لم يستطع أن يتوصل إلى فهم ما يمكن أن تكون قواعد اللعبة، ولا كيف تسجل الأهداف، ولا ما يجب أن يحدث حتى يعلن واحد أو الآخر فائزا.

اشترى إينمان من مخزون المتجر الضئيل خمسة أرطال من جريش: الذرة وقطعة من الجبن وبعض البسكويت الجاف ومخللا حلوا، ثم خرج إلى الشرفة كان الرجلان قد ذهبا، وقد غادرا منذ وقت قريب جدا إلى درجة أن مقعديهما الهزازين كان لا يزالان يتحركان. نزل إينمان إلى الطريق ليواصل سيره غربا وهو يأكل أثناء سيره. عبر كلبان أسودان أمامه من رقعة ظليلة إلى رقعة أخرى.

ثم، عندما وصل إينمان إلى طرف البلدة، جاء الرجلان اللذان كانا بالشرفة من خلف مشغل الحدادة ووقفا فى الطريق يسدان عليه طريق الخروج. توقف الحداد عن دوس العجلة ووقف يراقب ما يجرى.

قال الرجل صاحب القبعة: إلى أين أنت ذاهب، يا ابن العاهرة؟

لم يقل إينمان شيئا. أكل المخللة المتبلة فى قضمتين وأدخل ما بقى من الجبن والبسكويت فى المخلاة. تحرك الرجل الذى كان ينظف أظافره بنبل التشحيم حتى وقف بجانبه. خرج الحداد، مرتديا ميدعة جلدية ثقيلة وحاملا المنجل، من المبنى الملحق ودار ليهاجم إينمان من الجانب الآخر. لم يكن الرجال ذوى أحجام ضخمة، ولا حتى الحداد الذى كان يبدو غير ملائم لحرفته. دل منظرهم على انهم صعاليك، وربما مخمورون، مسرفون فى الثقة بأنفسهم. إذ بدا أنهم يفترضون أن بإمكانهم أن ينالوا منه بدون حاجة إلى سلاح سوى المنجل، حيث إن عددهم فى صالحهم.

كان إينمان قد شرع يمد يده خلفه فى لفة أغطية سريره حين وثب عليه الثلاثة وثبة رجل واحد، منقضين عليه. وفى الحال راحوا يقاتلونه بقبضات الأيدى والرءوس. لم يجد وقتا حتى لإزالة ربطته وهكذا تعارك وهو معاق.

قاتلهم إينمان وهو يتراجع. كانت أمنيته الأخيرة أن يمسحوا به الأرض، ولذا فإنه أذعن حتى أُجبر على الالتصاق بجانب المتجر.

تراجع الحداد خطوة إلى الوراء ونزل على رأسه بالمنجل مثل رجل يشطر خشبا. ويبدو أن تفكيره أن يشق إينمان من منتصفه، أن يشطره إلى نصفين من عظمة الترقوة إلى ما بين الفخذين، لكنها كانت ضربة خرقاء، جعلها شكل الأداة خرقاء مرتين. أخطأ الرجل الهدف بمقدار قدم وانغرز طرف النصل فى التراب.

انتزع إينمان المنجل من بين يدى الحداد واستعمله كما يجب أن يستعمل، وهو يأتى بضربات طويلة كاسحة قريبا من الأرض. هاجم أقدامهم بها، وهو يجزها ويجعلهم يتراجعون قبل أن تبتر من عند الكاحل. كان يشعر بأنه يفعل ذلك بالفطرة، أن يمسك بمنجل فى يديه مرة أخرى وأن يعمل به، رغم أن الجهد الحالى مختلف عن جز عليق الدواب به، إذ أن الضربات شديدة وهو يأمل فى حالته هذه أن يضرب العظام. لكنه وجد، حتى فى ظل هذه الظروف غير المواتية، أن كل عناصر الجز بمنجل – الطريقة التى تمسكه بها، الطريقة التى تقف بها

مباعدا ما بين قدميك - تأتى على المنوال القديم وتبدو له بصفتها شيئا يمكنه أن يفعله بتأثير فعال.

راح الرجال يحجلون ويتلوون جانبا ليتجنبوا النصل الطويل، لكنهم سرعان ما أعادوا تجميع أنفسهم وانقضوا عليه ثانية. راح إينمان يشلخ بالمنجل باتجاه عظام قصبة ساق الحداد، لكن النصل ارتطم بأحجار أساس المبنى وأرسل رشاشا من الشرر الأبيض وانكسر حتى تركه ممسكا بلا شىء سوى المقبض. واصل القتال به، رغم أنه لا يشكل إلا هراوة ضئيلة، والمقبض طويل وغير متوازن ومقوس بطريقة غير متقنة كما كان شأنه.

غير أنه كان كافيا فى نهاية الأمر، فقد ضرب الثلاثة فى آخر الأمر حتى خروا على ركبهم فى تراب الشارع إلى درجة أنهم بدوا مثل من ينتمون إلى المذهب الكاثوليكى وهم يصلون. ثم ظل محتفظا به حتى رقدوا جميعا ممددين بلا حراك ووجوههم إلى أسفل.

طوح المقبض بعيدا عبر الطريق فى رقعة الحشائش المهلهلة. لكنه ما إن فعل هذا حتى انقلب الحداد على ظهره ونهض متهالكا وجذب مسدسا ذا عيار صغير من تحت ميدعته وبدأ يصوب بيد ترتجف باتجاه إينمان.

قال إينمان: خراء على إطلاق النار. وانتزع السلاح الصغير بيده وألصقه برأس الرجل أسفل العين بالضبط وشرع يجذب الزناد بدافع من الإحباط المحض من عناد هؤلاء النفاية الذين يرثى لهم. غير أن الكبسولات كانت مبتلة أو بخلاف ذلك معطوبة وطقطق المسدس على أربع خزانات قبل أن يكف ويضرب به الرجل هنا وهناك على رأسه وألقى به أعلى المبنى ومضى مبتعدا.

انحرف داخلا الغابات، عندما بلغ خارج البلدة، وسار متجنبا الطرقات ليفلت من أى مطاردين. وطوال الأصيل، كان أفضل ما يمكنه عمله هو أن يواصل طريقه غربا بين جذوع أشجار الصنوبر، وهو يشق طريقه خلال الغطاء النباتى الذى يعلو التربة، ويتوقف من آن لآخر لينصت لأى واحد يتبعه. ظن أحيانا أنه يسمع أصواتا من بعيد، لكنها كانت واهنة وربما كانت تخيلا، كما يحدث عندما ينام المرء بالقرب من نهر ويظن أنه يسمع نباح كلاب صيد مكتوم إلى درجة أنه لا يمكنه فهمه. لم يكن هناك نباح كلاب صيد، ولذا فإن إينمان قدر أنه حتى لو كانت الأصوات هى أصوات الرجال من البلدة فإنه آمن بما فيه

الكفاية، خاصة أن الليل يدنو. ولتحديد اتجاهه، كان لدى إينمان الشمس وهى تدور فوقه، وفروع أشجار الصنوبر تقطعها، وتبعها وهى تنزلق نحو الحافة الغربية للأرض.

وبينما هو سائر، فكر فى تعويذة علمها له سويمر، تعويذة ذات قدرة خاصة. كانت تسمى « حتى تدمر الحياة »، وتشكلت الكلمات فى عقله مرارا وتكرارا. كان سويمر قد قال إنها لا تعمل إلا بلغة الشيروكيين، لا بالإنجليزية، وأن تعليمها لإينمان غير مجد. لكن إينمان حسب أن كل الكلمات لها نتيجة ما، ولذا فإنه سار وقال التعويذة، وهو يسددها نحو العالم عامة، كل أعدائه. كررها مرة بعد مرة لنفسه، مثلما يقول بعض الناس صلاة بلا نهاية، خوفا أو أملا، حتى تنطبع فى أفكارهم إلى حد أنهم يمكنهم أن يعملوا أو أن يشتركوا فى حديث وهى لاتزال تواصل بلا عائق. كانت الكلمات التى تذكرها إينمان هى:

انصت. سوف يمتد طريقك باتجاه أرض الليل. ستكون وحيداً. ستكون مثل الكلب فى الحر. سوف تحمل روث الكلب أمامك فى كفيك وهما مضمومتان مثل فنجان. سوف تعوى مثل الكلب وأنت تسير وحيدا باتجاه أرض الليل. وسوف يلطخك روث الكلاب. وسوف يلتصق بك من كل ناحية. وسوف يجلدونك على قدميك وأنت تسير. سوف تعيش حياة متقطعة. سوف تذبل روحك حتى يصبح لونها أزرق، لون اليأس. سوف تشرف روحك على الزوال وتتضاءل، دون أن تعود للظهور أبدا. إن طريقك يقع باتجاه أرض الليل. هذا هو طريقك. ليس هناك سواه.

واصل إينمان على هذا المنوال لمسافة أربعة أميال، ولكن لسبب لا يدركه كانت الكلمات ترجع إليه لتضربه هو وحده. وبعد ذلك بقليل ذكّرته الأفكار التى تعبر عنها كلمات سويمر بموعظة من مواعظ مونرو، موعظة مكثفة إلى حد أنها تجلطت باستشهادات من حكماء متنوعين كما كانت عادة مونرو. فقد تناولت نصا، لا مقطعا من الكتاب المقدس، ولكن فقرة من ايمرسون ، ووجد إينمان فيها تشابها مع التعويذة، رغم أنه مع أخذ كل شىء فى الاعتبار كان يفضل صياغة سويمر. كانت الفقرة التى تذكرها إينمان هى فقرة كررها مونرو أربع مرات فى فواصل زمنية بالغة التأثير على امتداد الموعظة: « أن ما يُبدى الله فىّ، يقوينى. وما يخرجه الله منى، يجعلنى بثرة وكيسا دهنيا. فلم يعد هناك سبب ضرورى لوجودى. فإن ظلال النسيان الطويلة التى تحدث فى وقت غير مناسب تزحف

فوقى قبل الأوان، وسوف أتضاءل إلى الأبد.» خطر لإينمان أن تلك الموعظة كانت أفضل موعظة سمعها على الإطلاق. وقد ألقاها مونرو فى اليوم الذى رأى فيه إينمان إيدا أول مرة.

وقد حضر إينمان الصلاة فى الكنيسة بغرض مشاهدتها. ففى الأسابيع التى أعقبت وصول إيدا إلى الجبل البارد، كان إينمان قد سمع عنها قبل أن يراها. وقد بقيت هى وأبوها فترة طويلة جدا ساذجين فى الريف الذى اتخذاه مقاما لهما، وسرعان ما أصبحا مصدرا لكوميديا هائلة بالنسبة لبيوت كثيرة على طول طريق النهر. فأن يجلس الناس على الشرفة ويراقبون إيدا و مونرو يمران بالمركبة المكشوفة أو أن يروا إيدا فى إحدى نزهاتها فى الطبيعة وهى تسير على طول الشارع الكبير، كان يقترب من المسرح مثلما تقترب أغلب الأمور، وقد أثارت نقاشا كثيرا بصفتها إنتاجا جديدا فى أوبرا دوك ستريت. اتفق الجميع على أنها حسناء بما فيه الكفاية، لكن اختيارها لزى تشارلستون ذاتة أو بهرج تسريحة شعرها كان موضوعا للسخرية. ولو شوهدت وهى تمسك زهور اللينج لتعجب بألوانها أو تنحنى لتلمس سنابل أوراق عشبة جيمسون، كان البعض يقولون إن عقلها مشوش لأنها لا تعرف اللينج حين تراه، ويتساءل البعض الآخر، وهم يبتسمون ابتسامة عريضة، هل كانت ممسوحة الذكاء حتى أنها ربما لتأكل عشبة جيمسون؟ وسرت نميمة بأنها تتجول بدفتر وقلم رصاص وتحدق فى شىء - طير أو شجيرة، عشبة، غروب الشمس، الجبل - ثم تخربش فى الورق لفترة كما لو كانت مشوشة الذهن إلى درجة أنها قد تنسى ما هو مهم بالنسبة لها إذا لم تسجله.

ولذا فإن إينمان فى صباح يوم أحد ارتدى ملابسه بعناية – حلة سوداء جديدة، قميصا أبيض، ربطة عنق سوداء، قبعة سوداء – وذهب إلى الكنيسة ليشاهد إيدا. كان أوان التوت الأسود الشتوى وقد نزل مطر بارد دون توقف لمدة ثلاثة أيام. ورغم أن المطر قد توقف فى وقت ما فى الليل، فإن الشمس لم تسطع بعد من خلال السحب، وخط السماء المائل ظاهر للعيان بين خطوط حواف الجبل مظلما ومنخفضا وبلا ملامح كلية. لم تكن الطرقات إلا وحلا تغوص فيه الأقدام، ولذا فإن إينمان وصل متأخرا وجلس فى مقعد خلفى. كانت هناك ترنيمة ترتفع سلفا. وأحدهم قد أشعل نارا من خشب الشجر الغض فى الموقد، وكانت تدخن من حول قمة الطبق، والدخان يرتفع إلى السقف وينتشر

بشكل مسطح على الألواح الخشبية ذات الخرز ويتعلق هناك رماديا كأنه منمنمة للسماء الفعلية.

لم يكن أمام إينمان سوى مؤخرة رأسها ليجد إيدا من خلالها، ومع ذلك فإن هذا استغرق لحظة فقط حيث إن شعرها الأسود كان ممشطا فى ضفيرة كثيفة متشابكة بطريقة حديثة غير معروفة عندئذ فى الجبال. وأسفله، حيث كان مفتولا، ارتفع وتران ضئيلان من العضلات تحت الجلد على جانبى رقبتها يثبتان رأسها. وبينهما تجويف، تجويف جلدى مظلل. وعقصات من الشعر دقيقة بحيث لا يمكن ضمها إلى الضفيرة. استقرت عينا إينمان هناك خلال الترنيمة كلها، حتى أن كل ما كان يريده، بعد بعض الوقت حتى قبل أن يرى وجهها هو أن يضغط طرفى أصبعيه على مكان الغموض ذلك.

بدأ مونرو الموعظة بالتعليق على الترنيمة التى ترنموا بها جميعا لتوهم. كانت كلماتها تبدو كما لو كانت تتطلع بحنين جارف إلى زمن تغطس فيه فى محيط من الحب. لكن مونرو وعظ قائلا إنهم يسيئون فهم الأغنية إذا خدعوا أنفسهم بأن يظنوا أن كل الخلق سوف يحبهم يوما ما. فما كانت تتطلبه منهم حقيقة هو أن يحبوا كل الخلق. كان ذلك فى مجموعه شيئا أكثر صعوبة، مروعا ومحزنا نوعا ما، إذا بلورنا رأيا من رد فعل جماعة المصلين .

وتناولت بقية الخطبة نفس الموضوع شأن كل مواعظ مونرو منذ وصوله إلى الجبل البارد. ففى كل أحد وأربعاء ، كان يتكلم فقط عما يظن أنه لغز الخلق الأول : لماذا ولد الإنسان ليموت ؟ لم يكن منطقيا فى ظاهره. وعبر الأسابيع، حاول أن يتناول الموضوع من كل اتجاه . ما قاله الكتاب المقدس فى هذا الشأن. كيف أن الحكماء من بلاد عديدة وفى كل الزمن الذى نعرفه قد تناولوه بالحجج المعقولة. باستعارات كاشفة من الطبيعة. جرب مونرو، كل سلطان أمكنه أن يبتكره حتى يصدقوه ، وكلها لا تنجح . وبعد عدة أسابيع، أوضحت دمدمة المصلين أن الموت يزعجه هو بدرجة أعظم مما يزعجهم. لم يكن كثير منهم يرون أنها المأساة التى يراها مونرو، لكنهم رأوها شيئا طيبا إلى حد ما. فقد كانوا يتطلعون إلى الراحة. واقترح البعض أن أفكار مونرو كانت تجد قبولا أكثر لو أنه عاد إلى عمل ما كان الواعظ القديم يعمله. أن يدين الخطاة أساسا وأن يحكى حكايات الكتاب المقدس بحماسة مسلية. موسى الطفل فى نبات البردى. ديفيد الصبى يقذف الصخور بالمقلاع .

رفض مونرو النصيحة قائلا لواحد من الأكبر سنا إن تلك كانت مهمته. وتناقلت ذلك التعليق كل الطائفة ، وكان التفسير العام لها أن استخدامه لكلمة مهمة يضع المصلين فى وضع همج يعمهون فى الظلام . كان كثير منهم قد دفعوا أموالا لإرسال مبشرين بين الهمج الحقيقيين، إلى ناس تصوروهم بجلود ذات ألوان معتمة متعددة فى مواقع تخيلوها أكثر بعدا ووثنية من مواقعهم، ولذا فإن الملاحظة لم تمر بسهولة.

ولكى يخمد النيران التى كانت تندلع حول كنيسته، بدأ مونرو موعظته فى يوم الأحد المشار إليه بتفسير كيف أن كل رجل وامرأة له مهمة. قال إن الكلمة لا تعنى أكثر ولا أقل من عمل يقوم به. وأن عمله أن يفكر فى لماذا ولد الإنسان ليموت، وأنه ينزع إلى مواصلته بمثابرة رجل يروض حصانا أو ينظف حقلا من الأحجار على أقل تقدير. وواصل حديثه بإسهاب. جلس إينمان طوال الوعظ ذلك الصباح يحدق فى رقبة إيدا ويصغى بينما مونرو يكرر أربع مرات فقرة ايمرسون عن البثرة والكيس الدهنى وعن تضاؤله إلى الأبد.

وعندما اختتم القداس، غادر الرجال والنساء الكنيسة من بابيهما المنفصلين. وقفت الخيول ملطخة بالطين نائمة بسيورها الجلدية التى تشدها إلى المركبات، وعدتها وعرباتها ذات العجلتين خلفها موحلة حتى أسلاك إطاراتها. أيقظتها أصوات الناس، وهزت فرس بلون القسطل جلدها بصوت رج سجادة قذرة. امتلأ فناء الكنيسة برائحة الوحل وأوراق الأشجار المبتلة والملابس المبتلة والخيول المبتلة. اصطف الرجال ليصافحوا مونرو، ثم طافوا حول فناء الكنيسة المبتل يتزاورون ويحدسون ما إذا كان المطر قد كف أو كان فقط يستريح. وراح بعض كبار السن يتكلمون بأصوات منخفضة عن غرابة موعظة مونرو وافتقارها إلى الكتاب المسيحى المقدس وعن كيف يعجبون بعناده فى مواجهة رغبات الآخرين.

وتجمع الرجال العزّاب معا، وهم يقفون فى دائرة بأحذيتهم العالية الساق الموحلة وثنيات ساق سراويلهم ملطخة. كان لأحاديثهم مسحة من مساء السبت أكثر منها مسحة من صباح الأحد، وكلهم يتجهون بأنظارهم من آن لآخر إلى حيث تقف إيدا على حافة المدافن وهى تبدو أجنبية وجميلة ومحرجة تماما. كان كل واحد يرتدى ملابس صوفية اتقاء للبرد الرطب، لكن إيدا ترتدى ثوبا كتانيا

عاجى اللون بدا مثلا حول الياقة والأكمام والذيل. بدت كما لو كانت اختارته حسب التقديم أكثر منه حسب الجو.

وقفت ممسكة بمرفقيها. ذهبت النساء الأكبر سنا إليها وقلن أشياء ثم حلت فترات صمت مليئة بالعقد. ثم رحلن. لاحظ إينمان أن إيدا، فى كل مرة يدنو منها أحد، كانت تأخذ خطوة إلى الوراء حتى تصل إلى شاهد قبر رجل حارب أثناء الثورة.

قال رجل من آل ديلارد كان قد جاء إلى الكنيسة من أجل نفس السبب الذى أتى بإينمان بالضبط، هل تحسبها ترد على بأى شىء لو ذهبت وقلت لها اسمى؟

قال إينمان، لا يمكننى أن أقول.

قال هوب مارز لديلارد، ما كنت لتعرف من أين تبدأ خطب ودها. الأفضل أن تدع ذلك لى.

كان مارز أميل إلى القصر وعريض الصدر. وكان لديه ساعة كبيرة تتدلى خارج جيب صدرته وسلسلة فضية تمتد إلى وسط سرواله وحلية ساعة لفيفية الشكل تتدلى من السلسلة.

قال ديلارد، أنت تظن أنك تثقب بمثقاب كبير للغاية.

ثم قال رجل آخر، ضئيل القد وله ملامح غير منتظمة إلى حد، أنه كان مجرد متفرج من بعيد، أراهن بمائة دولار ضد نصف زنجبيل أن لديها زوج - منتخب هناك فى تشارلستون.

قال هوب، من الممكن نسيانهم. فقد نُسى كثيرون من قبل.

ثم حدق هوب فى إينمان وعاين زيه الصارم. قال، أنت تبدو مثل القانون. أن رجلا يخطب ود فتاة لابد أن يتحلى ببعض اللون.

أمكن إينمان أن يرى أنهم جميعا سوف يظلون يلفون ويدورون فى الكلام عن الموضوع حتى يستجمع واحد أو آخر شجاعته فى آخر الأمر ذلك اليوم ليذهب إليها ويجعل من نفسه أضحوكة. وإلا فإنهم سوف يوجهون إهانات إلى أحدهم الآخر حتى يتحتم أن يلتقى اثنان منهم أسفل الطريق ويتعاركا. ولذا فإنه لمس جبينه بإصبعه وقال، يا رفاق، وأنصرف.

ذهب إلى سالى سوانجر مباشرة وقال، سوف أنظف هكتارا من الأرض الجديدة من أجل تقديم شخص إلى المجتمع.

كانت سالى ترتدى قلنسوة ذات مقدمة واقية من الشمس طويلة ولذا فقد كان عليها أن ترجع إلى الوراء وترفع رأسها لتبعد الظل عن عينيها وتنظر إلى إينمان. ابتسمت له ابتسامة عريضة ورفعت يدها ولمست دبوس زينة من النحاس عند ياقتها وفركت أصابعها به.

قالت، لاحظ أننى لم أسألك حتى عن تقديمه لمن.

قال إينمان، لقد آن الأوان، وهو ينظر إلى حيث إيدا تقف وحدها، ظهرها إلى الناس، محدودبة الظهر قليلا تنعم النظر بانبهار واضح فى النقش المنحوت على شاهد القبر. كان أسفل ردائها مبتلا من حشائش القبر الطويلة وذيله قد اتجر فى الوحل في وقت ما.

أخذت السيدة سوانجر سترة إينمان السوداء بين سبابتها وإبهامها وجذبته بمثل هذا اللجام الطفيف عبر الفناء إلى إيدا. وعندما تركت كمه، رفع يده ليخلع قبعته، ثم مشط شعره بيده الأخرى من كل ناحية حيثما كان مضغوطا ويحيط به طوق. ملس شعره إلى الوراء عند كل صدغ وحك يده من الجبين إلى الذقن ليتظاهر بالهدوء. صفت السيدة سوانجر حنجرتها، واستدارت إيدا.

قالت السيدة سوانجر، ووجها مشرق؛ آنسة مونرو، لقد عبر السيد إينمان عن اهتمام عميق بأن يتعرف عليك. لقد التقيت بوالديه. وأضافت على سبيل الإلماح قبل أن تنصرف: أهله هم من بنوا الكنيس.

نظرت إيدا فى وجهه مباشرة، وأدرك متأخرا جدا أنه لم يخطط لما يقوله. وقبل أن يتمكن من صياغة عبارة، قالت إيدا. نعم؟

لم يكن بصوتها الكثير من الصبر، ولسبب ما وجد إينمان ذلك مسليا. حول بصره جانبا، إلى أسفل حيث ينحنى النهر حول الطاحونة، وحاول أن يعيد ركنى فمه إلى أسفل. كانت الأوراق على الشجر وعلى نبات الوردية عند شاطئى النهر لامعة ومتدلية من ثقل الماء. والنهر يجرى متثاقلا وداكنا فى منحنيات مثل زجاج منصهر حيث ينحنى فوق صخور مختفية ثم يغوص فى أحواض إسقاء.

أمسك إينمان بقبعته من قمتها، ولحاجته إلى شىء يقوله نظر إلى أسفل فى تجويفها، كما لو كان ينتظر، من تجربة سابقة، يترقب صادق أن يتبلور شىء ما.

وقفت إيدا تنظر إلى وجهه لحظة، ثم نظرت بعد قليل فى تجويف قبعته هى الأخرى. أمسك إينمان عن الكلام، خشية أن يكون التعبير المرتسم على وجهه تعبير كلب يجلس على حافة جحر مرموط سنجابى.

نظر إلى، إيدا، وأدارت هى كفيها ورفعت حاجبا للدلالة على سؤال عام.

قالت: لك مطلق الحرية فى أن تعيد ارتداء قبعتك وتقول شيئا.

قال إينمان: الأمر لا يعدو أنك كنت موضع تأمل كبير.

_ هل الأمر أن تتحدث معى كشىء طريف؟

_ لا.

_ تحدٍ، إذن، من حلقة الأغبياء تلك الواقفة هناك؟

_ لا على الإطلاق.

_ حسنا، إذن، لتقدم أنت تشبيها.

_ مثل انتزاع رائش حبة قسطل، حتى الآن على الأقل.

ابتسمت إيدا وأومأت برأسها. لم تكن تحسبه يعرف الكلمة.

ثم قالت: خبرنى عن هذا. علقت امرأة قبل قليل على الجو أخيرا. دعته جوا قاتلا للأغنام. وقد كنت أتساءل: لا أستطيع أن أمحوه من ذاكرتى. هل كانت تعنى جوا ملائما لذبح الأغنام أو جوا سيئا بما يكفى لأن يقتلها بنفسه بدون مساعدة، ربما عن طريق الغرق أو الالتهاب الرئوى؟

قال إينمان: الأول.

- حسنا، إذن، أشكرك. لقد وفيت بغرض مفيد.

استدارت انصرفت إلى أبيها. راقبها إينمان وهى تلمس ذراع مونرو وتقول شيئا، ثم ذهبا إلى المركبة المكشوفة وصعدا فيها ومضيا، وهما يذوبان باتجاه نهاية الحارة بين صفىّ السياج اللذين تحيط بهما أجمات من سيقان التوت الأسود المزهرة.

في نهاية المطاف، في وقت متأخر من النهار، برز إينمان خارج غابات الصنوبر ووجد نفسه يتجول على شاطئ نهر كبير منتفخ. كانت الشمس ترتكز فوق الأفق المنخفض بالضبط على الشاطئ البعيد، وهناك ضباب رقيق في الهواء حتى أن كل شيء يكتسي بضوء أصفر صارخ. كان من الواضح أن المطر قد هطل بغزارة أكبر أعلى النهر ورفع النهر حتى بلغ شاطئيه وما وراء ذلك، بحيث صار أوسع وأقوى من أن يسبح فيه، حتى ولو كان إينمان سباحا جيدا. ولذا فإنه سار على شاطئ النهر، على أمل أن يجد جسرا أو قنطرة غير محروسين، وهو يتبع ممرا نحيلا يمر بين غابة الصنوبر المتجهمة إلى يمينه والنهر الذي يدعو للرثاء إلى يساره.

كانت منطقة رديئة، سويت مسطحة فيما عدا حيث توجد أخاديد سيول على فطرتها تمتد عميقة في الطين الأحمر. أشجار صنوبر قزمة في كل مكان. في يوم ما كانت هناك أشجار من أنواع أفضل تقف في مكانها لكنها قطعت منذ زمن بعيد، والدليل الوحيد عليها الآن جذل شجرة عرضي من الخشب الصلب بمحيطها كبير مثل مائدة العشاء. وقد نما اللبلاب السام في أحواض كثيفة تمتد على مدى بصر إينمان خلال الغابات. كان يتسلق أشجار الصنوبر ويمتد بين فروعها. كانت ابر أشجار الصنوبر المتهدلة تعلق بتعريشات اللبلاب المتشابكة وتنعم خطوط الجذوع والأغصان وتكون أشكالا جديدة منها حتى أن الأشجار لاحت مثل وحوش رمادية ترتفع من الأرض.

بدت الغابة مكانا مريضا خطرا. ذكرته بوقت أثناء الحرب هناك على طول الساحل حين أراه رجل نباتا دقيقا، شيئا غريبا كثيف الشعر ينمو في مستنقع وحل. كان نباتا يعرف كيف يأكل اللحم، وأطعماه قطعا صغيرة من دهن ظهر خنزير من نهاية شطفة خشب. كنت تستطيع أن تمد طرف إصبع لما يمثل فمه فيهمّ بنهشك. بدت تلك الغابات المسطحة كما لو كانت تبعد خطوة واحدة فقط من معرفة الحيلة على نطاق أوسع.

ما كان إينمان يريده هو أن يخرج من هناك، لكن النهر يمتد عريضا أمامه، عائق غائط بني اللون في طريقه. كان بصفته سائلا، أشبه بالعسل الأسود وهو يتكثف في أول الأمر عند صنعه عنه بالماء. ود الا يعتاد أبدا هذا النوع من الممرات المائية التي تدعو للرثاء. بل أنه لم يتلاءم مع تصوره لنهر. ففي المكان الذي جاء منه كانت كلمة نهر تعني صخورا وطحلبا وصوت الماء الأبيض يتحرك

بسرعة تحت تأثير سحر كم هائل من الجاذبية المتجمعة. لم يكن أى نهر فى إقليمه كله نهرا أوسع من أن تقذف بعصا عبره، وفى كل واحد منه كان بإمكانك ان ترى القاع حيثما نظرت.

كان الأخدود العريض لطخة على المنظر الطبيعى. وفيما عدا كرات اندفاع الماء الأصفر التى تتجمع على أكوام ذبدية منجرفة أعلى النهر من كتل خشبية جانحة، كان النهر معتما وغير محدد مثل لوح من الصفيح دهن بلون بنى. مقزز مثل محتويات حفرة غائط فى المبنى الخارجى.

ارتحل إينمان خلال هذا الإقليم، وهو ينتقد كل معلم فيه. كيف فكر على الإطلاق أن هذه هى بلده وتستحق القتال من أجلها؟ الجهل وحده هو الذى يفسر ذلك. كل ما كان يمكنه أن يدرجه فى قائمة فى عقله يستحق القتال فى هذه اللحظة بالذات هو أن يعيش متروكا وشأنه فى مكان ما فى التفريعة الغربية لحوض تصريف نهر بيجون، أعلى الجبل البارد بالقرب من منبع سكيبكات برانس.

فكر فى الوطن، الأخشاب الكبيرة، الهواء الشفيف البارد طوال السنة. أشجار الماجنوليا الضخمة عند الجذع إلى درجة أنها تذكرك بقاطرات معروضة فى وضع منتصب. فكر فى الوصول إلى البيت وبناء كوخ له على الجبل البارد عاليا إلى درجة ألا يستطيع أحد أن يسمع صيحته الحزينة سوى صقور الليل وهى تعبر خلال السحب فى الخريف. فى أن يعيش حياة هادئة إلى حد ألا يحتاج إلى أذنين. وإذا شاءت إيدا أن تذهب معه، فربما يكون هناك الأمل، الذى لا يزال الآن بعيدا إلى حد أنه لا يمكنه حتى أن يراه. فى أن يشحذ يأسه بمرور الوقت ليصبح نقطة دقيقة ونحيلة إلى درجة أن تصبح تقريبا نفس الشىء مثل التلاشى.

لكن رغم أنه كان يعتقد بصدق أنك يمكنك أن تفكر فى شىء حتى يتحقق. فإن هذه الفكرة الأخيرة لم تتطور لتتخذ هذا الشكل، مهما أجهد نفسه فى المحاولة. وما كان لديه من أمل لم يكن أكثر لمعانا من لو أن واحدا ما أشعل نارا فى شمعة رفيعة فى قمة الجبل وتركها على مسافة بعيدة يحاول أن يحدد سبيله بها.

واصل السير وبعد وقت قصير بدأ الليل يهبط وسطع جزء من القمر من خلال سحب كثيرة الثغرات. عثر على طريق ينتهى بالنهر؛ وبجانبه لافتة أقامها شخص ما على حافة الماء تشير إلى « معدية ». خمسة دولارات. صاح بصوت عال.

كان هناك حبل متين يمتد من عمود غليظ عبر الماء ويختفى فيه. وصوب الشاطئ البعيد، ارتفع الحبل من الماء ثانية لينتهى عند عمود آخر. وفيما وراء المرساة رأى إينمان بيتا يقوم على ركائز فوق منسوب المياه العالى. كانت هناك نافذة مضاءة والدخان يتصاعد من المدخنة.

صاح إينمان، وبعد برهة من الزمن ظهر شخص ما على الشرفة ولوح بيده وعاد أدراجه إلى الداخل. ورغم ذلك، سرعان ما عاد إلى الظهور من خلف البيت وهو يسحب قارب تجديف مقورا من جذع شجرة بحبل. أقامه النوتى طافيا على الماء واعتلاه وشرع يجدف بقوة ضد التيار فى المياه الأكثر بطأ التى تنساب قرب الشاطئ. ورغم ذلك كان التيار قويا، وهو يجدف بعناء محنى الظهر على المجداف حتى بدا أنه اعتزم أن يواصل تقدمه فحسب. ومع ذلك فإنه قبل أن يختفى عن الأنظار استدار واعتدل فى جلسته وترك التيار يحمله، وهو يتجه بزاوية إلى الشاطئ الشرقى ويعمل بسهولة، موفرا جهده، وهو يمس الماء فقط بطرف المجداف العريض ليوجه القارب. كان الزورق المقور قديما وخشبه الجاف قد حال لونه بفعل الشمس حتى أن جوانبه الخشنة الكليلة كانت تلمع مثل سبيكة معدنية مطروقة على صفحة مياه مظلمة حين انشقت السحب عن القمر.

وبينما كان القارب يقترب من الشاطئ حيث يقف إينمان، رأى أنه لا يقوده نوتى بل فتاة متوردة الوجنتين، داكنة الشعر سمراء البشرة مما يوحى بدماء هندية منذ جيل أو جيلين. كانت ترتدى ثوبا منسوجا فى البيت قدر فى الضوء المعتم أنه أصفر اللون. كانت يداها كبيرتين وعفيتين، وعضلات ساعديها تنعقد تحت الجلد مع كل ضربة مجداف، وشعرها الأسود مرسل حول كتفيها. كانت تصفر لحنا وهى تقترب. وعند الشاطئ خطت خارج القارب المقور حافية القدمين فى الماء الوحل، وهى تجذب القارب بحبل من مقدمته لتدرجه على الشاطئ. أخرج إينمان من جيبه ورقة مالية بخمسة دولارات ومدها إليها. لم تمد يدها لتناولها، لكنها نظرت إليها بقدر من الاشمئزاز.

قالت: ما كنت لأعطى لرجل عطشان مغرفة من ماء هذا النهر لقاء خمسة دولارات، بل أقل من هذا أن أجدف بك عبره.

ـ تقول اللافتة أن الأجر المطلوب خمسة كشايد.

ـ هل يبدو لك هذا مثل معدية؟

ـ هل هذه معبرة أم لا؟

ـ إنه كذلك عندما يكون أبى هنا. فلديه معدية تتسع لركوب جوادين وعربة شحن. وهو يجذبها عبر النهر بالحبل. لكنه لا يمكنه جرها والنهر مرتفع. وقد ذهب للصيد فى انتظار أن يهبط الماء. وحتى ذلك الحين، فإننى أتقاضى أقصى ما يكون شخص ما راغبا فى أن يدفعه، فلدى جلد بقرة وأنوى أن أحصل على سرج يصنع منه. وعندما أحصل على هذا سوف أبدأ فى الادخار لشراء حصان، وعندما أحصل على واحد، سوف أضعه عليه وأدير ظهرى لهذا النهر وأرحل.

قال إينمان: ما اسم هذا الشيء؟

قالت الفتاة: حسنا. إنه ليس إلا نهر كيب فير المديد.

قال إينمان: كم تتقاضين منى لاجتيازه؟

قالت الفتاة: ورقة بخمسين دولارا

ـ هل تأخذين عشرين.

ـ هيا بنا.

وقبل أن يتمكنا من أن يصعدا القارب، رأى إينمان فقاعات دهنية هائلة الحجم ترتفع إلى السطح على بعد ثلاثين قدما من الشاطئ. كانت تلمع فى ضوء القمر وهى تصعد، لكنها تتحرك فى عكس اتجاه تدفق النهر متجهة إلى أعلاه بسرعة خطو رجل يمشى تقريبا. كان الليل ساكنا بلا ريح، وليس هناك أصوات أخرى سوى الماء ينتحب والحشرات تصفر صفيرا حادا.

قال إينمان: هل ترين ذلك؟

قالت الفتاة: نعم.

ـ ما الذى يسببه؟

ـ من الصعب القول، إذ أنها فى قاع النهر.

كان الماء يصعد هائلا وبإلحاح مثل نفس يصعد من بقرة تغرق. وقف إينمان والفتاة يراقبان الفقاعات وهى تصعد من النهر حتى غطت القمر كومة من السحب فاختفت فى الظلام.

قالت الفتاة: يمكن أن تكون سمكة سِلُوْر تنقب على طول قاع النهر تقتلع بعض الطعام. فلديها نظام تغذية يكفى لقتل طير جارح مما ينقض على الديوك الرومية. لقد رأيت واحدة بحجم خنزير برى ذات مرة. جرفها التيار ميتة إلى حاجز رملى. لها شوارب فى حجم الثعابين السوداء.

تخيل إينمان أن ذلك نوع من الأشياء التى تنمو فى هذا النهر سمك رهيب مترهل الحجم رخو مثل دهن ظهر الخنزير. فكر فى التباين بين مثل هذا المخلوق وسمك التروث الصغير الذى يعيش فى فروع نهر بيجون العليا حيث ينهمر الماء من على الجبل البارد. نادرا ما كانت أطول من يدك. لامعة ومتماسكة اللحم مثل قشارات من قضيب فضة.

قذف إينمان بربطاتة قبله ثم ركب القارب ثم استقر مطمئنا فى مقدمته. ركبت الفتاه خلفة وجدفت بشدة ضد التيار، جدفت بيد قوية واثقة، محافظة على مسار مستقيم عن طريق دفع طرف الضربة خارجا بدلا من التحول إلى الجانبين باستمرار. غطى الطشاش حتى على صرير الحشرات .

جدفت الفتاه بشدة ليصلا إلى بقعة معتدلة أعلى النهر قريبة من المرساة، وهى تنتهز فرصة المياه الأكثر بطئا قرب الشاطئ. ثم استدارت وكفت عن التجديف وغرزت النصل فى الماء مثل دفة. انحرفت بهما بزاوية إلى الخارج، مستخدمة التيار حتى يقودهما باتجاه نقطة متوسطة. وسرعان ما اختفت الأرض فيما وراء شاطئ النهر، مع اختفاء القمر، وطفيا وهما لا يريان شيئا فى عالم حالك السواد مثل جوف بقرة. سمعا وسط الصمت طنين أصوات من المرساة الشرقية تأتى من بعيد عبر الماء. ربما كان أى شخص. شك إينمان فى أن يكون رجال البلدة لديهم من التصميم ما يكفى لأن يتبعوه حتى هذا المكان.

ومع ذلك فقد استدار وقال للفتاة هامسا: يحسن ألا يعثر علينا أحد. لكنه نظر إلى أعلى فى تلك اللحظة ورأى قطر القمر يبدو من تحت السحب. وسرعان ما ظهر مكشوفا تماما فى نافذة صغيرة مهلهلة فى السماء. لمع جانب القارب الذى لوحته الشمس مثل منارة على المياه المظلمة.

كان هناك صوت مثل تمرير الأظافر فى تجزع القطيفة المضلعة وصوت

خفق بسوط. تبع ذلك فرقعة طلقة نارية.

قال إينمان لنفسه: بندقية ويتويرث.

انفتح ثقب فى مؤخرة القارب عند خط منسوب الماء. تدفقت مياه بنية إلى الداخل بمعدل ينذر بالخطر مثل بقرة تبول. نظر إينمان أمامه صوب المرساة ورأى ستة رجال يتجمهرون فى ضوء القمر. شرع بعضهم يطلقون نيران مسدساتهم. لكنها لم تكن تملك القوة الدافعة حتى تقطع المسافة. وبالرغم من ذلك فإن الرجل الذى يحمل بندقية قد أدارها إلى أعلى وهو يعمل على قضيب الدك ليكبس حشوة جديدة فيها. كانت الطريقة الوحيدة التى تصور بها إينمان الأمر هى: أن الرجال قد تصوروا الأمسية بصفتها نموذجا صالحا لعيد الراكون، كرياضة؛ وإلا فإنهم يكونون قد عادوا إلى البلدة منذ وقت طويل.

قدرت فتاة المعدية الموقف فى الحال وألقت بثقلها حتى ترج القارب بشدة، وهى تميل به على جانبيه حتى تبلله وتخفيه عن الأعين. مزق إينمان إسورة قميصه وراح يحشو الثقب بها حين أصابت قذيفة أخرى الجانب عند منسوب المياه ومزقت كتلة من الخشب بحجم اليد. تدفق النهر إلى الداخل وسرعان ما بدأ يملأ قاع القارب.

قالت الفتاة ليس هناك ما نفعله سوى أننا سنضطر إلى النزول فى النهر.

ظن إينمان فى أول الأمر أن الفتاة تعنى أن يندفعا سابحين إلى الشاطئ. ولأنه لم يأت من ريف به مياه عميقة، فإنه شك، رغم ذلك، فى قدرته على قطع تلك المسافة سباحة. وبدلا من ذلك. فإنها اقترحت أن ينزلا إلى الماء وأن يتعلقا بالقارب مستخدمين إياه ساترا. غلف إينمان ربطاته بقماش شمعى وربط الحزمة بإحكام ما أمكنه بالأطراف السائبة فى حالة ما إذا غاص القارب كلية ثم ألقى هو والفتاة بنفسيهما معا فى النهر ليدعا التيار يحملهما بعيدا إلى أعلى، وهو يدوم بهما فى اتجاه مجرى النهر .

وعلى الرغم من أن السطح كان أملس مثل مرآة وبدا كأنه لا يمكنه أن يتحرك بسرعة أكبر من رشح الماء من جرة. فإن النهر المنتفخ هدر. إلى الأمام بسرعة دولاب الطاحونة. امتلأ القارب المقور بالماء جزئيا، وطفا بمنسوب منخفض، ومجرد المقدمة التى تشبه شكل الجاروف فوق السطح. كان إينمان قد ابتلع ماء، وبصق وبصق حتى لم يستطيع إخراج شىء سوى رغوة بيضاء، وهو يحاول أن يصفى فمه من النهر المقزز. فلم يذق فى حياته ماء أكثر قبحا.

كان القمر يلوح ويختفى بين السحب، وعندما أصبح هناك ضوء كاف ليهتديا به، أصابت الزورق طلقات نارية أو اصطدمت بالماء وتواثبت متهتهة عبر السطح. حاول إينمان والفتاة أن يركلا بأجلهما وأن يسيرا القارب المقلوب إلى الشاطئ الغربى. لكنه بدا فى ثقله كما لو كان له رأى مختلف وأنه لن يفعل ما يؤمر به بأى وسيلة. قطعا الأمل تركا نفسيهما ينجرفان مع التيار رأساهما فقط فوق الماء. لم يكن هناك ما يفعلانه سوى أن يثابرا وينتظرا حتى يصلا إلى منحنى فى النهر ويأملا فى أن يحمل المساء إليهما شيئا فى صالحهما

بدا النهر من تحت أوسع حتى مما يبدو من الشاطئ والريف الذى يمتد على طول كل من شاطئيه غامض ينذر بالشر فى ضوء القمر امتدت منحنياته دنيئة حول إينمان حتى أنه راح يأمل فى ألا يصيبه بعلامة أو بصمة على عملياته العقلية.

كان بإمكانه، حتى وهو داخل النهر أن يسمع الحشرات وهى تصر بين اللبلاب السام بدون توقف. لم يكن إلا رأسا صغير فى سطح مستو خاو ضخم يحده دغل مظلم من النباتات السامة. حسب أنه سيرى فى أى لحظة معدة سمكة السلور البيضاء ذات الشوارب تصعد من الماء وتمتصه بداخلها. كل حياته تصل إلى مجموع إجمالى لا يزيد على روث السلور على قاع حوض نهر من القمامة السائلة .

طفا مدفوع إلى الأمام وهو يفكر أنه يود أن يحب العالم كما هو عليه، وشعر بقدر هائل من الإنجاز فى هذه المناسبة، عندما واتته تلك الفكرة. فلم تكن الكراهية تتطلب مجهودا سوى أن يتلفت المرء حوله. أقر بأنه من الضعف أن يصل به تفكيره إلى أنه ينبغى على كل ما حوله أن يمتد رائقا بالنسبة حتى يمكنه أن يصفه بأنه مرض. لكنه كان يعلم أن هناك أماكن يكون الحال فيها هكذا بشكل عام. الجبل البارد. فرع سكيبكات. وفى هذه اللحظة بالذات كان العائق الأول لأن يكون هناك هو مائة ياردة من النهر.

وبعد فترة وجيزة، أصابت السحب القمر بالعمى مرة أخرى، وهى تنجرف متجاوزة المرساة، و كان بإمكان إينمان أن يسمع الرجال يتكلمون بوضوح كأنه يقف وسط المجموعة. قال أحدهما، ومن الواضح أنه صاحب بندقية ويتويرث: لو كنا بالنهار لأمكننى أن أطيح بأذنيه من رأسه بهذا الشئ.

وبعد ذلك بوقت طويل ظهر القمر ثانية. رفع إينمان جسمه ونظر عبر القارب. وهناك على بعد عند المرساة، رأى هيئات ضئيلة الحجم تلوح بأيديها وتتواثب

صعودا وهبوطا فى سورة غضبها. تراجعت وكان بإمكانه أن يفكر فى أشياء أخرى كثيرة يتمنى لو أنها تضاءلت وتضاءلت بنفس القدر حتى تختفى. كان الدليل الأساسى على وجودهما طقطقة المعدات المصنوعة من الرصاص، يتبعها على فترات صوت إطلاق البندقية الطويلة. قال إينمان مثل البرق والرعد. شغل الوقت بعد الثوانى بين انطلاق قذيفة وفرقعتها الواهنة. لم يستطع على أى حال، أن يتذكر الطريقة التى يفترض أن تحسب بها المسافة التى تفصلك عنها. لا ولم يكن يعلم أن نفس المبدأ يمكن تطبيقه.

جرفهما النهر فى أخر الأمر حول منحنى وأبعد المرساة عن مرمى البصر. اما وقد كان بإمكانهما الآن أن يصلا بأمان إلى الجانب الآخر من القارب فإنهما استطاعا أن يركلا الماء ببعض الفاعلية، ووصلا إلى الأرض فى وقت قصير. كان جانب القارب قد مزقته الطلقات إربا. بشكل يحول دون إصلاحه، ولذا تركاه يتقلب فى الماء وشرعا يسيران نحو أعلى النهر.

عندما وصلا إلى البيت أعطى إينمان الفتاة مزيدا من النقود تعويضا عن القارب القديم، وأعطته توجيهات ليجد الطرق المؤدية إلى الغرب.

بعد بضعة أميال قليلة إلى أعلى، يتفرع هذا النهر إلى فرع الهو وفرع الديب. فرع الديب هو الفرع الأيسر وسوف تمكث قريبا منه بعض الوقت، لأنه يجرى أساسا من الغرب .

واصل إينمان طريقه إلى أعلى النهر حتى وصل إلى الفرعين، ثم دلف إلى طبقة النباتات التى تعلو تربة الأحراش حتى اختبأ. لم يجرؤ على أن يشعل نارا لطهو عصيدة الذرة ولذا فإنه لم يتناول إلا تفاحة خضراء أسقطتها الريح والتقطها من الطريق و الجبن و البسكويت الجاف اللذين كانا محملين الآن بمذاق كيب فير القوى. جمَّع سريرا من القماش الصوفى الغليظ عميقا بما يكفى لأن يقيه من الأرض الرطبة وتمدد ونام لمدة ثلاث ساعات.. استيقظ مقروحا و مصاب بكدمات حول وجهه من العراك. وعلى يديه و ساعديه برزت بثور من اللبلاب السام أثناء هروبه خلال الغابات المسطحة. وعندما وضع يدا على رقبته، وجد دماء طازجة حيث شق الجرح مفتوحا وتسربت الدماء، من عناء جلد الرجال الثلاثة أو من النقع فى النهر. التقط ربطاته وشرع يمشى مرة أخرى.

أفعال، كلها منهكة

كان الاتفاق الذى توصلت إليه إيدا وروبى فى ذلك الصباح الأول هو: أن تنتقل روبى إلى الخليج وتعلم إيدا كيف تدير مزرعة. أن أجرها سوف يتضمن قليلا جدا من المال. أنهما سيتناولان معظم وجباتهما معا. لكن روبى لم ترق لها فكرة أن تعيش مع أى شخص آخر وقررت أنها ستنتقل إلى كوخ الصيد القديم. وبعد أن تناولا عشاءهما الأول من الدجاج وكرات العجين، ذهبت روبى إلى بيتها وأمكنها أن تلف كل شى يستحق أن تأخذه فى لحاف، وقد جمعت الأطراف وعلقتها حول كتفيها، واتجهت إلى الخليج الأسود دون أن تلتفت للوراء.

قضت المرأتان يومهما الأول معا يعدان قائمة بالموجودات. ويدرجان الأشياء التى تحتاج إلى عمل فى كشف، وترتيبها حسب ضرورتها الماسة. تجولا معا فى المزرعة، وروبى تتطلع فى قطعة من الأرض، تقيم الأشياء، وتتكلم بلا انقطاع. قالت: إن أكثر الأمور إلحاحا هو الحصول على حديقة لآخر الموسم فى الأرض. وتبعتها إيدا وهى تسجل كل شىء فى دفتر كانت قد سجلت فيه حتى يومنا هذا قدرا ضئيلا من شعرها وأفكارها عن الحياة وقضايا الحاضر الكبرى. أدرجت الآن بنودا مثل هذه :

اشياء تعمل فورا: تخطيط مزرعة لمحصولات الموسم المعتدل البرودة ـ لفت، بصل، كرنب، خس، خضراوات.

بذور الكرنب، هل لدينا أى منها ؟

عن قريب: رفع ألواح خشبية لكسوة سطح مخزن الغلال؛ هل لدينا مطرقة ووتد ؟

اشترى جرات من الفخار لحفظ الطماطم والفاصوليا. اقطفى الأعشاب واعملى منها لبدات سرج للحصان.

وهكذا وهكذا. الكثير مما يجب عمله. لأن روبى كانت تخطط فيما يبدو لما يتطلب من كل ياردة من الأرض أن تؤدى واجبها.

قالت روبى: أن حقول تجفيف التبن لم تكن تقطع مرارا وتكرارا بما فيه الكفاية، وإن الكلأ فى خطر أن يغزوه نبات الفربيون وعشب الألفية والعشبة المهلهلة. وأعلنت أن حقل الذرة القديم قد انتفع بأن ترك محروثا وبلا زراعة لسنوات عديدة وأنه الآن جاهز لتنظيفه وتقليبه. أن المبانى الإضافية خارج البيت كانت بحالة معقولة. لكن أعداد الدجاج منخفضة للغاية. وفى تقديرها أن قبو حفظ النباتات ذات الجذور فى البيت المبنى من الصفيح كان عمقه أقل من المفروض أن يقدم؛ وأنها تخشى أن فترة من الجو البارد السيئ قد تجمد البطاطس المخزونة هناك إذا لم يحفروه بعمق أكبر. وأنهما لو أمكنهما إقامة مستعمرة لطائر السنونو محاذية للحديقة فى مأوى الفرع واليقطين، فإن هذا يساعد فى إبعاد الغربان.

امتدت توصيات روبى فى كل الاتجاهات، ولم يبد عليها أنها تتوقف قط. كان لديها جداول لدوران المحاصيل بين مختلف الحقول. وتصميمات لإنشاء حوض طحن حتى إذا ما كان لديهما محصول ذرة أمكنهما أن يطحنا جريشهما وبرغلهما مستخدمتين الطاقة المائية التى تتولد من الجدول لتوفير الحاجة إلى إعطاء الطحان عشوره. وكانت كلماتها الأخيرة ذات مساء قبل أن تشرع فى العودة إلى كوخها فى الظلام : نحن بحاجة إلى بعض الدجاج الحبشى. أنا لست شغوفة بقلى بيضه، لكنه سوف يفى بحاجات الخبيز. فحتى لو طرحنا البيض جانبا، فإن الدجاج الحبشى من أسباب الراحة إذا توافر حولنا ومفيد فى عدة نواح. فهو كلاب حراسة جيدة، وسوف ينقى صفا من الفول الأخضر

من الحشرات قبل أن تستديرى. كل ذلك بغض النظر عن كم هو لطيف أن تنظرى إليه وهو يمشى حول الفناء. وفى الصباح التالى كانت أولى كلماتها : خنازير هل لديك أى منها مطلق السراح فى الغابات ؟

قالت إيدا: لا، كنا دائما نشترى لحم فخذ الخنزير اللازم لنا.

قالت روبى: هناك عالم أرحب كثيرا بالنسبة لخنزير من مجرد الفخذين. خذى دهن الخنزير مثلا. سوف نكون بحاجة إلى قدر وفير منه.

وعلى الرغم من التراخى فى تمتع مونرو بحق الحيازة فى الخليج الأسود، إلا أنه كان هناك من العمل أكثر بكثير مما أدركته إيدا. ففى إحدى جولاتهما الأولى على الأقدام حول المكان، ابتهجت روبى لمرأى بساتين التفاح الواسعة التى زرعها وحافظ عليها آل بلاك وقد بدأت يظهر عليها الآن فقط أول دلائل الإهمال. وعلى الرغم من افتقارها إلى التشذيب مؤخرا، إلا أنها كانت مثقلة بفاكهة تنضج.

قالت روبى: فى أكتوبر القادم سوف نحصل على ما يكفى من الاتجار فى تلك التفاحات حتى نجعل شتاءنا أكثر سهولة مما قد يكون عليه بغير هذا.

توقفت فكرت لحظة افعل. قالت: ليس لديك معصرة، أليس كذلك؟ وعندما قالت إيدا أنها تظن أنهم قد يكون لديهم واحدة، هتفت روبى فرحا.

- أن عصير التفاح المسكر يساوى أكثر بكثير فى التجارة عن التفاح. كل ما يجب علينا هو أن نصنعه.

سعدت روبى أيضا من الرقعة المزروعة تبغا. ففى الربيع كان مونرو قد أعطى الرجال تصريحا بزراعة حقل صغير بالتبغ لاستعماله الخاص. وعلى الرغم من إهمال دام معظم الصيف، فإن النباتات كانت طويلة وعامرة بالأوراق وخالية من الديدان بشكل يدعو للدهشة، رغم أن الحشائش الضارة قد نمت بكثافة بين الصفوف والنباتات بحاجة شديدة إلى تشذيب أعمالها وإزالة النباتات الماصة من حولها. كانت روبى تعتقد أن النباتات ترعرت رغم الإهمال لأنها لابد قد زرعت طبقا للعلامات تماما. وحسبت أنهما قد يحصلان على محصول صغير مع بعض الحظ وقالت أنهما إذا دخنتا الأوراق ونقعتاها فى ماء

الذرة البيضاء ولفتاها فى شكل سدادات، فأنهما يمكنهما مبادلة التبغ ببذور وملح وخميرة وبنود أخرى لا يمكنهم إنتاجها بأنفسهما.

كانت إيدا مشغولة البال جدا بفكرة المقايضة باقتصاديات، إذ أنها لم تفهمها ورغم ذلك وجدت نفسها فجأة غير مرتبطة تماما اقتصاديات المال. تقاسمت مع روبى تفاصيل أحوالها المالية المهلهلة بروح من الشراكة والثقة. وعندما أخبرت روبى بالقدر الضئيل الذى ينبغى عليهم أن يعملوا به. قالت روبى، أننى لم أمسك بيدى قطعة واحدة من نقود أكبر من دولار. وما فهمته إيدا من هذا هو أنه على الرغم من أنها قد تكون قلقة قلقا عظيما لنقص المال السائل، فإن رأى روبى هو أنهما ميسورتا الحال بدونه. كانت روبى تقوم بوظيفتها وقد أبعدت نفسها عن شراء الأشياء ونظرت إلى المال بقدر كبير من الشك حتى فى أفضل الأوقات، وبخاصة حين تقارن بينه فى ذهنها وبين صلابة الحديد والضم والزرع والحصد. وفى الوقت الحاضر كانت الأمور قد أكدت كثيرا أشد آراء روبى قتامة. كانت الأوراق المالية قد رخصت قيمتها حتى أنه أصبح من الصعب شراء أى شىء بأى حال. وفى رحلتهما الأولى معا إلى المدينة أذهلهما أن تدفعا خمسة عشر دولارا فى مقابل رطل من الصودا، وخمسة دولارات ثمنا لورقة إبر ثلاثية، وعشرة دولارات لرزمة من ورق الكتابة. ولو كان لديهما المقدرة لكلفتهما لفة قماش خمسين دولارا. أوضحت روبى أن القماش لم يكن ليكلفهما سنتا لو كان لديهما خروف وشرعتا تجزانه وتسرحان الصوف وتغزلانه وتلفانه وتصبغانه وتنسجانه فى شكل قماش لأرديتهما وثيابهما الداخلية. كل ما أمكن روبى أن تفكر فيه هو أن كل خطوة فى العملية التى رسمت روبى خطوطها بشكل عرضى كان ليستغرق أياما كثيرة من العمل المضنى ليتحصلا على بضع ياردات من القماش الخشن مثل الخيش. كان المال يجعل الأمور أسهل كثيرا.

ولكن حتى لو كان لديهما مال، فإن أصحاب المتاجر لم يكونوا يريدون حقا مالا إذ أن قيمته من المحتمل أن تتدهور قبل أن يوصد بابها دونه. كان الشعور العام أن الأوراق المالية يجب إنفاقها بأسرع ما يمكن، وإلا فمن المحتمل ألا تصبح قيمتها أكثر من قيمة سعة إناء من التبن. كانت المقايضة موثوقا بها أكثر. كان ذلك ما بدا أن روبى تفهمه تماما. كان رأسها محملا بخطط عن كيف يمكنهما أن تجعلا الخليج الأسود يحل المشكلة بنفسه فى ذلك الخصوص.

وفى وقت قصير كانت روبى قد وضعت خطة. عرضتها على إيدا كاختيار. كانت الأشياء التى وضعت عليها علامة فى قائمة جردها للمكان بصفتها أشياء ثمينة وسهلة الحمل وغير ضرورية هى العربة المكشوفة والبيانو. وكانت تعتقد أن بإمكانها أن تبيع أيا منا لقاء كل ما يلزمها لاجتياز الشتاء. واثرنت إيدا الأشياء فى عقلها لمدة يومين. وعند نقطة معينة قالت، إنها لخسارة أن ننحط بذلك الحصان المنقط الرائع إلى جر المحراث، وقالت روبى، سوف يفعل ذلك مهما كان السبيل الذى تختارينه. عليه أن يعمل من أجل طعامه شأن أى واحد هنا.

وفى النهاية أدهشت إيدا حتى لنفسها بأن استقر رأيها على التفريط فى البيانو. ولنقل الحقيقة، رغم ذلك، فلم تكن يدها دقيقة بشكل خاص فى استعمال الآلة، وقد كان اختيار مونرو أن تتعلم العزف عليه فى بداية الأمر. كان يعنى الكثير بالنسبة له إلى حد أنه استأجر مدرسا يعيش معهما، رجلا ضئيل الحجم يدعى تيب بنسون الذى نادرا ما كان يحتفظ بموقع لفترة طويلة إذ لم يكن قادرا على الإحجام عن الوقوع فى الحب مع المكلف بتعليمهن. ولم تكن إيدا استثناء. كانت فى الخامسة عشرة فى ذلك الوقت، وذات أصل، حين جلست تحاول عزف فقرة محيرة من موسيقى باخ، ركع بنسون على ركبتيه بجوار مقعد البيانو وجذب يديها من على المفاتيح وضمهما إليه وضغط ظاهريهما إلى وجنتيه المستديرتين. كان رجلا مدملجا، لا يزيد عمره فى ذلك الوقت عن أربعة وعشرين، وله أصابع طويلة بشكل غير عادى بالنسبة لبنيته القصيرة الغليظة. ضغط شفتيه المذمومتين على ظاهرى يديها وقبلهما بهيام عظيم. ومن المحتمل أن أى فتاة أخرى فى عمر إيدا كانت تتلاعب به لصالحها لبعض الوقت، لكن إيدا استأذنت فى الحال وذهبت مباشرة إلى مونرو وأخبرته بما حدث. أمر بنسون أن يحزم حقائبه وما أن حل وقت العشاء حتى كان قد رحل. وعلى الفور استأجر مونرو معلمة موسيقى خاصة عانسا تفوح ثيابها برائحة النفط وعرق الإبط.

كان جزء من تفكير إيدا فى اختيارها البيانو للمقايضة عليه هو أن حياتها المقبلة لن يكون بها إلا متسع ضئيل للفن و أن أى مكان له فى حياتها يمكن أن تشغله بالرسم. وسوف تفى الأدوات البسيطة من القلم الرصاص والورق بحاجاتها فى ذلك الخصوص. كان بإمكانها أن ترى كل الأسباب الجيدة

للاستغناء عن البيانو. وما لم يكن واضحا بالنسبة لها هو أسباب احتفاظها بالعربة المكشوفة. كانت هناك حقيقة أنها كانت لمونرو، لكنها لم تشعر بأن تلك هى نقطة التمسك بها أقلقها أن قدرة هذا الشىء على الحركة هى ما يشدها إليها. الوعد الكامن فى إطاراتها الطويلة أنه إذا ساءت الأحوال فبإمكانها أن تصعد فيها وترحل بها. أن تكون مثل آل بلاك وأن تتخذ نفس الموقف أنه لم يكن هناك عبء لا يمكن تخفيفه، ولا حياة محطمة لا يمكن إصلاحها من خلال السفر على الطريق.

بعد أن أعلنت إيدا عن قرارها، لم تضيع روبى وقتا. كانت تعرف من كان لديه حيوانات ومنتجات زائدة عن الحاجة يكون راغبا فى الاتجار بشكل مؤات. فى هذه الحالة كان أولد جونز الذى يعيش فى ايست فورك هو من تتعامل معه. كانت زوجته قد اشتهت امتلاك البيانو لفترة من الوقت، ولعلمها بذلك فإن روبى ساومت بشدة. جعلت جونز يعطيها أخيرا خنزيرة من سلالة بلقاء وخنزيرا صغيرا ومائة رطل من برغل الذرة. ولأن روبى تعرف كم كان الصوف شيئا مفيدا من نواح كثيرة، خاصة مع تكاليف الأقمشة المرتفعة فى الوقت الحالى، فأنها راعت أنه لم يكن ليؤثر كثيرا أن تضطلع بالحصول على بضعة خراف جبلية صغيرة، ليست أكبر كثيرا من سلالة كلب متوسط الحجم كامل النمو. ولذا فأنها أقنعت جونز أن يضيف نصف دستة منها أيضا. وملء عربة شحن من الكرنب. وفخذ خنزير وعشرة أرطال من لحم الخنزير المدخن من أول خنزير يذبحه فى نوفمبر.

وفى خلال أيام كانت روبى قد قادت الخنازير والخراف الصغيرة، اثنان منهما لونهما أسود، إلى الخليج الأسود. هشت عليهم على منحدرات الجبل البارد حتى يدبرا أمريهما خلال الخريف، وهى تسمن على ما يمكنهما أن يجداه من ثمار البلوط، الذى سيكون وفيرا. وقبل أن تدعها تذهب أخرجت سكينها وعلمت آذانها اليسرى بقصتين ناعمتين فى شعرها وشق حتى أنها جميعا هربت دامية الرءوس إلى الجبال وهى تصأى وتنفو.

وفى وقت متأخر من عصر أحد الأيام، جاء أولد جونز بعربة شحن ومعه رجل أخر ليأخذ البيانو. وقف الاثنان فى غرفة الاستقبال ونظرا إليه وقتا طويلا. قال الرجل الآخر: أنا لست متأكدا أننا نستطيع رفع ذلك الشىء، وقال أولد

جونز، أننا نتفوق عليه، نحن مضطرون لذلك. وأخيرا حملاه فى عربة الشحن وربطاه بإحكام بالحبال لأنه كان يتدلى خارج مؤخرة الشاحنة.

جلست إيدا فى الشرفة تراقب البيانو يبتعد. كان يرتج على طول الطريق، والعربة بلا زنبركات ترتطم بشدة بكل مطب وصخرة حتى أن البيانو راح يعزف لحنه المفزع النشاز مودعا إياها. لم يكن هناك الكثير من الندم فى حالة إيدا المزاجية، لكن ما خطر لها وهى تراقب الشاحنة تذهب كان حفلا أقامه مونرو قبل أعياد الميلاد بأربعة أيام فى الشتاء الماضى قبل الحرب.

كانت الكراسى فى غرفة الاستقبال قد دفعت إلى الخلف للحائط لتفسح مكانا للرقص، وتبادل من يستطيعون العزف الأدوار على البيانو، وهم ينقرون ترنيمات وفالسات وألحانا عاطفية مما يعزف فى قاعات الاستقبال. كانت مائدة الطعام محملة ببسكويت بلحم الخنزير المدخن، بكعكات وخبز أسمر وفطائر باللحم المفروم، وإبريق شاى يفوح بعطر البرتقال، و القرفة والثوم. وقد تسبب مونرو فى فضيحة صغيرة فحسب بأن قدم شمبانيا، إذ لم يكن أى من المعمدانيين حاضرا. وقد أضيئت كل مصابيح الكيروسين ذات الزجاجات المكورة، وأبدى الناس تعجبهم منها ومن أعالى مداخنها المتغضنة كأنها بتلات براعم تتفتح، لأنها كانت شيئا جديدا ولم تكن قد شاعت بعد. عبرت سالى سوانجر، رغم ذلك، عن خوفها من أن تنفجر، وأبدت رأيا بأن الضوء الذى ترسله ساطع إلى حد مؤلم وقالت أن الشموع الرفيعة وضوء المدفأة تلائم عينيها العجوز تين بشكل أفضل.

وفى أوائل المساء شكل الناس مجموعات متقاربة الأمزجة وراحوا يتبادلون القيل و القال. جلست إيدا مع النساء، لكن اهتمامها يخفق فى أرجاء الغرفة. جذب ستة رجال عجائز كراسيهم قرب المدفأة وتحدثوا عن الأزمة التى تلوح فى مجلس النواب وهم يرتشفون من كئوسهم ثم رفعوها أمام ضوء المصباح ليتفحصوا الحبب. قال أيسكو: إذا وصل الأمر إلى القتال فإن الاتحاديين سوف يقضون علينا. وعندما عارض رأيه آخرون فى المجموعة، نظر أيسكو فى كأسه وقال: لو أن رجلا صنع شرابا مسكرا من قطرة مثل هذه، لحكم الناس بأنها معيبة.

أولت إيدا الشبان اهتماما معتدلا، أبناء أعضاء جماعة المصلين الذين كانوا موضع تقدير. كانوا يجلسون فى ركن خلفى من غرفة الاستقبال ويتكلمون بصوت عال، ومعظمهم يحتقرون الشمبانيا ويشربون خلسة بعض الشىء من زجاجات جيب مدغدغة مليئة بشراب ذرة مسكر. أعلن هوب مارن، الذى كان قد خطب ود إيدا لفترة قصيرة وقوبل على نحو غير مرض، كما لو كان يخاطب الغرفة بوجه عام أنه قد احتفل بعيد ميلاد المخلص كل ليلة لمدة أسبوع.. وزعم أنه كان يضىء طريقه إلى البيت، وهو عائد من تلك الحفلات المملة إلى حد أنها تنتهى قبل الفجر، بنيران مسدسه. مد يده وجرع جرعة من قنينة رجل آخر ثم حك ظاهر يده عبر فمه ونظر إليها ثم حكها مرة ثانية. قال بصوت عال: أن لها ضربة مدوية، وأعاد تمرير القنينة.

شغلت ركنا آخر نساء من أعمار مختلطة. كانت سالى سوانجر ترتدى حذاء جديدا جيدا، وجلست تنتظر تعليقا عليه، وقد مدت قدميها أمامها مثل دمية متخشبة الرجلين. وراحت إحدى النساء الأكبر سنا تحكى حكاية مطولة عن زواج ابنتها التعس. فتحت إصرار الزوج، تقاسمت الزوجة بيتا به عائلة من كلاب الصيد تتسكع فى أرجاء المطبخ فى كل الأوقات فيما عدا رحلات صيد الراكون. قالت المرأة أنها تكره الذهاب لزيارتها، فقد كان هناك دائما شعر كلاب فى صلصة مرق اللحم. وقالت أن ابنتها قد أنجبت لعدة سنوات طفلا بعد آخر حتى أن الابنة، على عكس شططها من الزواج فيما قبل، كانت تنظر إلى الزواج الآن بضوء معتم. فقد أنتهى بها الأمر إلى أن تراه حالة ترقى إلى ما هو أكثر قليلا من مسح الذيول. ضحكت النساء الأخريات. لكن إيدا شعرت للحظة بأنها لم تكن قادرة على الإمساك بأنفاسها.

وفيما بعد اختلطت المجموعات و وقف البعض حول البيانو وغنوا ثم رقص بعض الرجال الأصغر سنا. أخذت إيدا دورها على مفاتيح البيانو، لكن عقلها كان يحوم فوق الموسيقى. وعزفت عددا من الفالسات ثم تركت البيانو وراحت تراقب وهى تتسلى عندما نهض أيسكو، وبلا مصاحبة سوى صغيرة، أدى رقصة منفردة يجرر فيها قدميه وقد شخصت عيناه وراحت رأسه تتمايل كأنها تتدلى من خيط غليظ.

عندما تقدم المساء، وجدت إيدا أنها قد تناولت أكثر من كأس من الشمبانيا بما لا تقتضيه الكياسة. شعرت بوجنتيها لزجتين ورقبتها تتصبب عرقا تحت دانتيللا باقة ثوبها القطيفى الأخضر الطويلة.. شعرت بأنفها كما لو كان قد

أنتفخ، إلى حد أنها قرصته بين سبابتها وإبهامها لتتحقق من عرضه ثم ذهبت إلى مرآة القاعة، حيث اذهلها أن تراه يبدو عاديا.

وفي تلك اللحظة جذبت سالى سوانجر، وقد لعبت الشمبانيا برأسها هى أيضا فيما يبدو، إيدا جانبا فى الدهليز وقالت لها همسا : ذلك الولد إينمان قد وصل هنا لتوه، ينبغى أن أغلق فمى، لكنك يجب أن تتزوجيه. ففى أغلب الأحوال سوف تلدان أطفالا عيونهم عسلية تقريبا.

أفزعت الملاحظة إيدا، فهرعت إلى المطبخ، وقد أحمر وجهها بشدة، لتتمالك نفسها.

لكنها وجدت هناك إينمان وحده جالسا فى ركن الموقد، مما أضفى على تفكيرها تشويشا إضافيا. كان قد وصل متأخرا، بعد أن قطع المسافة على حصانه خلال مطر شتوى بطىء، وهو يستدفئ ويجفف ملابسة قبل أن ينضم إلى الحفل. كان يرتدى حلة سوداء وقد جلس واضعا ساقا فوق ساق، وقبعته المبتلة معلقة من مقدمة حذاء عالى الساق مما يرتدى فوق السروال بالقرب من الموقد الساخن. جلس رافعا كفيه لتتلافيا حرارة النار حتى بدا كما لو كان يدفع عن نفسه شيئا.

قالت إيدا، أوه، يا إلهى هأنتذا. أن السيدات مسرورات سلفا لعلمهن أنك هنا.

قال إينمان، السيدات العجائز.

حسنا، جميع الناس. لقد لاحظت السيدة سوانجر وصولك باستحسان خاص.

استدعى ذلك إلى ذهنها صورة زاهية غير مخطط لها، أوحت بفكرتها ملاحظة السيدة سوانجر، وشعرت إيدا باندفاع الدم فى رأسها. احمر وجهها ثانية وأردفت بسرعة : ولاحظته أخريات، بلا شك.

قال إينمان وقد أربكه سلوكها بعض الشىء، أنت لا تشعرين بدوار ما، أليس كذلك ؟

لا، لا. مجرد أن هذه الغرفة ضيقة.

تبدين محمرة الوجه.

تحسست إيدا وجهها المبلل فى مواضع متعددة بظهر أصابعها ولم تستطع أن تفكر فى شىء تقوله. عملت من أصابعها فرجارا وقاست أنفها مرة أخرى. ذهبت إلى الباب وفتحته لتحصل على نفحة من هواء نقى. كان لليل رائحة أوراق شجر تتعطن، وهو مظلم إلى حد أنها لم تستطع أن ترى أبعد من قطرات الماء تلمع فى الضوء المنبعث من الباب وهى تسقط من إفريز الشرفة. ومن قاعة الاستقبال جاءت أول نغمة موسيقية بسيطة من أغنية الملك وينسيلاس حسن السيرة، وتعرفت إيدا على صياغة مونرو المتيبسة للنغمة على البيانو. ومن الظلام فى الخارج، من مسافة بعيدة، جاء صوت عواء ذئب رمادى متوحد بعيدا فى الجبال.

- قال إينمان، هذا صوت بائس.

احتفظت إيدا بالباب مفتوحا واستدارت إلى إينمان، لكنها عندما فعلت ذلك تآمرت عليها حرارة الغرفة والشمبانيا والنظرة فى عينى إينمان، التى كانت أكثر نعومة من أى منحنى رأته هناك على الإطلاق، وشعرت فى الحال بإعياء ودوار. أخذت بضع خطوات غير ثابتة، وعندما هم إينمان بالوقوف ومد لها يدا أخذتها. وعندئذ، بآلية ما لم تستطيع أن تستعيد توازنها بعد ذلك، ووجدت نفسها فى حجره.

وضع يديه على كتفيها لحظة ومالت إلى الخلف ورأسها تحت ذقنه. تذكرت إيدا ما دار بذهنها من أنها لم تكن تتمنى مطلقا أن تترك هذا المكان لكنها لم تدرك أنها قالت ذلك بصوت عال. ما تذكرته هو أنه بدا راضيا مثلما كانت هى ولم يضغط فى طلب المزيد لكنة حرك يديه إلى طرفى كتفيها واحتفظ بهما هناك. تذكرت رائحة حلته الصوفية المبللة ورائحة باقية من الحصان والسرج.

ولعلها استراحت فى حجره لمدة نصف دقيقة، لا أكثر. ثم نهضت انصرفت، وتذكرت أنها استدارت عند الباب، ويدها على إطاره، لتنظر إليه حيث كان يجلس وعلى وجهه ابتسامة محيرة وقبعة ترقد على الأرض مقلوبة.

عادت إيدا إلى البيانو، حيث نحت مونرو جانبا وعزفت لفترة طويلة بعض الشىء. جاء إينمان فى آخر الأمر ووقف مستندا بكتفه على جانب الباب. كان يشرب من كأس وراح يراقبها لفترة ثم تحرك ليتكلم مع أيسكو، الذى كان ما يزال جالسا بجوار النار. وخلال بقية الأمسية لم تذكر إيدا ولا إينمان ما حدث فى المطبخ. تكلما باقتضاب فحسب وبحرج ورحل إينمان مبكرا.

وبعد ذلك بوقت طويل، فى الهزيع الأخير من الليل عندما أنفض الحفل، نظرت إيدا من نافذة قاعة الاستقبال والشبان يسيرون فى الطريق، يطلقون مسدساتهم باتجاه السماء، ووميض فوهاتها يضيئها أطيافا ظلية موجزة.

ظلت إيدا جالسه بعض الوقت بعد أن دارت الشاحنة التى تحمل البيانو فى الطريق. ثم أضاءت فانوسا وذهبت إلى البدروم، ظنا منها أن مونرو ربما أحتفظ فى القبو بزجاجة أو زجاجتين من الشمبانيا. وأن فتح زجاجه من آن لآخر قد يكون أمرا مبهجا. لم تجد نبيذا لكنها وجدت بدلا من ذلك كنزا أصيلا. كنزا عجل بجهودهما فى المقايضة بشكل هائل. كان جوالا يحتوى على مائة رطل من حبوب القهوة الخضراء. كان مونرو قد خزنه، وهو يرقد هناك سمينا مرتخيا.

نادت روبى وعلى الفور عبأتا المحمصة وحمصتا نصف رطل فوق النار وطحنتاه ثم أعدتا أول قدح قهوة حقيقى شربه أى منهما خلال عام. شربتا قدحا بعد قدح وسهرتا معظم الليل تتكلمان بلا انقطاع عن خطط للمستقبل وذكريات عن الماضى، وعند نقطه أعادت إيدا سرد حبكة دوريت الصغيرة المثيرة بكاملها، وهو أحد الكتب التى كانت تقرأها خلال الصيف. وعلى امتداد الأيام العديدة التالية راحتا تقايضان القهوة نصف رطل بنصف رطل وبملء وعاء صغير للجيران، محتفظتين بعشرة أرطال فحسب لاستخدامهما الخاص. وعندما فرغ الجوال، أخذتا جنبا من لحم الخنزير المدخن، وخمسة مكاييل من البطاطس وأربعة مكاييل من البطاطا، وعلبه من الصفيح من مسحوق الخبز، وثمانى دجاجات، وسلالا متنوعة من عصير الفاكهة والبقول والبامية، وعجلة قديمة ومغزلة فى حاجة إلى إصلاحات صغيرة، وستة مكاييل من الذرة المقشرة، وما يكفى من فلقات شجر منشطرة لإعادة بناء سطح مبنى تدخين اللحوم. وكانت أثمن عملية تجاريه، رغم هذا، هى الجوال الذى يحمل خمسة أرطال من الملح الذى حصلوا عليه، إذ أنه قد أصبح شحيحا وغاليا إلى درجة أن بعض الناس حفروا أرضية مبنى تدخين لحومهم الآن ثم جعلوا التراب يغلى ويصفى جعلوه يغلى وصفوه مرة ثانية. مرارا وتكرارا حتى أنحسر التراب وتبخر الماء، حتى استعادوا الملح المتساقط على الأرض من لحم الخنزير الذى دخنوه فى العام السابق.

فى مثل هذه المسائل التجارية وفى كل شأن آخر، أثبتت روبى أنها أعجوبة من النشاط، وسرعان ما فرضت أسلوب عمل يومى متكررا على إيدا. فقبل

الفجر تكون روبى قد نزلت من الكوخ، أطعمت الحصان، حلبت البقرة، وهى تقرع الأوانى والطاسات فى المطبخ، وتشعل نارا فى المدفأة، وجريش الذرة الصفراء يبقبق فى وعاء. والبيض وشرائح لحم الخنزير المدخن يطرطق دهنا فى طاسة سوداء. لم تكن إيدا معتادة على النهوض فى الصباح الرمادى ـ وفى الحقيقة نادرا ما نهضت قبل العاشرة خلال الصيف ـ لكن فجأة كان هناك اختبار صغير. تخيلت روبى أن عملها هو إعداد الأشياء للعمل، لا القيام على خدمة أحد وعمل ما يأمرون به. وفى المناسبات القليلة التى أخطأت فيها إيدا وأصدرت لها أمرا كما لو كانت خادمة، كانت روبى تنظر إلى إيدا بشدة فحسب ثم تواصل عمل ما تفعله. كانت النظرة تقول أن من الممكن أن ترحل بعد إشعار قصير الأجل مثل ضباب الصباح فى يوم مشمس.

كان جزء من رموز شفرة روبى هو أنها تتوقع من إيدا، على الأقل، أن تكون هناك وأن تراقب انتهاء إعداد الإفطار، على الرغم من أن روبى لم تكن تتوقع أن تقوم إيدا بطهوه. وهكذا فإن إيدا كانت تنزل إلى المطبخ فى كسائها وتجلس فى المطبخ فى ركن الموقد الدافئ وتلف يديها حول قدح قهوة ساخن. ومن خلال النافذة كان النهار يبدأ فى أن يتخذ شكلا، رماديا مفكك الملامح. وحتى فى الأيام التى يتضح فى آخر الأمر أنها صافية، نادرا ما كان بإمكان إيدا أن تتبين حتى سياجات السور حول حديقة المطبخ من خلال الضباب. وعند نقطة ما تطفئ روبى ضوء المصباح الأصفر فيعتم المطبخ ثم يرتفع الضوء من الخارج ويملأ الغرفة. بدا ذلك شيئا يدعو إلى العجب بالنسبة لإيدا التى لم تكن قد شاهدت الفجر كثيرا.

وخلال كل عمليات الطبخ والأكل. كانت روبى تتكلم بلا انقطاع، تضع خططا شاقة لليوم القادم الذى بدا لإيدا متنافرا مع غموضه الناعم خارج النافذة. وما إن اقترب الصيف من نهايته حتى بدا على روبى أنها تشعر باقتراب الشتاء بإلحاح يشبه إلحاح دب فى الخريف، وهو يأكل طول الليل ونصف النهار ليختزن الدهن الضرورى لإطعامه خلال بياته الشتوى. كان كل حديث روبى عن بذل الجهد فى العمل اللازم لبناء القوة الدافعة للبقاء على قيد الحياة كى تجتاز بهما الشتاء. كانت مناجيات روبى تبدو لإيدا كما لو كانت تتألف أساسا من أفعال، كلها منهكة. احرثى، ازرعى، أطعمى، اذبحى.

وحين أبدت إيدا ملاحظة قائلة أن بإمكانهما على الأقل أن يستريحا حين يقبل الشتاء، قالت روبى، عندما يأتى الشتاء سوف نصلح السور ونصنع الحفة ونثبت كل ما هو مكسور حولنا هنا، وهو كثير.

لم يبد مجرد العيش لأيدا مطلقا عملية شاقة بهذا المنوال. وبعد انتهاء الإفطار، كانتا تعملان بشكل دائم. وفى الأيام التى لم يكن فيها شىء واحد كبير لعمله، كانتا تقومان بأعمال صغيرة، تشتغلان فى أرجاء المكان حسب الحاجة. حين كان مونرو على قيد الحياة، كانت المعيشة أكثر إجهادا قليلا من السحب من حسابات البنوك، مجردة ونائية. والآن، مع روبى، أصبحت كل الحقائق والعمليات الفعلية المرتبطة بالطعام والكساء والمأوى مجسدة بشكل غير لطيف. تقع فورا ومباشرة على عاتقهما، وكل منهما يتطلب بذل جهد.

كانت إيدا فى حياتها السابقة قد شاركت بأقل القليل فى الحديقة، بطبيعة الحال، إذ كان مونرو يدفع لمن ينبت النباتات لهما، وبالتالى فإنها أوصدت عقلها على المنتج – الطعام على المائدة – لا العمل على الوصول به إلى هناك. جردتها روبى من ذلك الوهم. الإزعاج الذى يسببه الأكل والمعيشة، كان هذا ما بدا أن روبى توجه إيدا نحوه كل يوم فى ذلك الشهر الأول. مرغت أنف إيدا فى التراب حتى ترى الهدف منه. جعلت إيدا تعمل فى حين كانت لا تريد، جعلتها ترتدى أثوابا خشنة وتنبش التراب حتى بدت أظافرها لها خشنة مثل مخالب حيوان، جعلتها تصعد على سطح مبنى التدخين المطلى بالقار وأن تنكب على وضع فلقات الشجر المنشطرة حتى لو بدا مثلث الجبل البارد الأخضر يدور حول الأفق. اعتبرت روبى أول انتصار لها حين نجحت إيدا فى مخض القشدة لتصبح زبدة. كان انتصارها الثانى حين لاحظت أن إيدا لم تعد تضع كتابا فى جيبها عندما تخرج لعزق الحقول.

أصرت روبى على رفض معالجة كل العمل غير السار بنفسها وجعلت إيدا تمسك بدجاجة تصارع على كتلة شطر الرأس الخشبية وأن تفصل رقبتها ببلطة. وعندما راح الجسم الدامى بلا رأس يترنح حول الفناء، كعادة السكيرين العريقة، أشارت روبى إليها بسكينها المشرشر ذى الغمد قالت، ذلك سندك.

كانت القوة التى اعتادت روبى أن تقود بها إيدا هى أن إيدا تعلم فى مكان ما فى عقلها أن أى واحد آخر قد تستأجره كان ليناله التعب ويمضى ويدعها تفشل. وما كانت روبى لتدعها تفشل.

كانت لحظات الراحة الوحيدة بعد غسل أطباق العشاء ووضعها فى مكانها. عندئذ تجلس إيدا وروبى فى الشرفة وتروح إيدا تقرأ بصوت عال فى الوقت الباقى قبل حلول الظلام. كانت الكتب ومحتوياتها شيئا طريفا للغاية بالنسبة

لروبى، ولذا فإن إيدا قدرت أن المكان الذى تبدأ منه هو قرب البداية. فبعد أن عبأتها بمعلومات عن الإغريق، بدأت تقرأ من هو ميروس. وعادة ما كانوا يتناولون خمس عشرة صفحة أو عشرين فى مساء. ثم، حين يحل الظلام الدامس الذى لا يسمح بالقراءة ويصبح الهواء أزرق ويبدأ فى التجلط بالشبورة، كانت إيدا تغلق الكتاب وتلتمس قصصا من روبى. وعلى مدى فترة من أسابيع جمعت حكاية حياة روبى على أجزاء.

وكما عبرت عنها روبى. فأنها بلغت سن الرشد فقيرة إلى حد أنها كانت تضطر إلى أن تطبخ بلا دهن سوى ما يمكن الحصول عليه من مسح طاسة القلى بجلد لحم. وقد تعبت من ذلك. ولم تعرف امها قط، وكان أبوها من السكان المحليين، شخصا غير موفق أبدا، سيئ السمعة يزدرى القانون أسمه ستوبرود ثيويس. كانا يعيشان فى كوخ أرضيته ترابية أفضل قليلا من حظيرة دجاج لها سقف معرش. كان كوخا ضيقا له مظهر الشىء المؤقت. والشىء الوحيد تقريبا الذى يميزه عن قافلة غجر هو افتقاره إلى عجلات وأرضية. كانت تنام على منصة مخزن تحت السقف منمنمة، مجرد رف حقا. وكان لديها كيس وسادة بدلا من حشية حشته بطحالب جافة. ولأنه لم يكن هناك سقف. مجرد النموذج الهندسى الذى يصنع من الجوانب التحتية من فلقات الأشجار المبطنة بالصفيح، فإن روبى كانت تستيقظ فى صباح أيام كثيرة لتجد مقدار بوصة من الثلج يعلو كومة ألحفتها، قذفتها الريح من بين حواف الفلقات المجعدة مثل دقيق منخول. وفى أمثال هذا الصباح. كانت روبى تجد أن الفائدة العظمى لمثل هذا الكوخ الصغير هو أن حتى أى نار موقدة من غصينات تدفئها بسرعة، رغم أن المدخنة المعيبة التى أقامها ستوبرود كانت تسحب الدخان بشكل سيئ إلى حد أن بإمكانك أن تدخنى لحم الخنزير فى ذلك المكان. وفى كل الأجواء ما عدا الأجواء السيئة، كانت تفضل أن تطبخ بالخارج وراء الكوخ خلف تعريشة من النباتات.

وعلى الرغم من أن الكوخ كان صغيرا وبسيطا على هذا الحال، إلا أنه كان مع ذلك أكثر مما يهم ستوبرود الحفاظ عليه. ولولا إزعاج أن لديه ابنة، فربما اتخذ له سكنا فى شجرة مجوفة عن طيب خاطر، ففى تقدير روبى أن حيوانا له ذاكرة هو تقريبا أسمى تعبير لأبيها عن نفسه.

كان إطعامها لنفسها مشكلة روبى وحدها ما أن بلغت من العمر ما يجعلها مسئولة عن نفسها، وهو ما حدث فى رأى ستوبرود بمجرد أن تعلمت المشى.

وكطفلة، كانت روبى تبحث عن الطعام فى الغابات وعلى امتداد النهر من المزارع الخيرة. كانت أنصع ذكريات طفولتها هو سيرها على طول درب النهر من أجل حساء سالى سوانجر من الفاصوليا البيضاء وفى طريق عودتها إلى البيت وهى ترتدى ثوب نومها- وهو ما كان رداءها المعتاد حتى فى النهار لسنوات عديدة - اشتبك ثوبها فى أشواك ورد برى على جانب الدرب. كانت الشوكة طويلة مثل مهماز ديك، ولم تستطع أن تحرر نفسها. لم يمر أحد فى عصر ذلك اليوم. هبت سحب متفرقة فوق رأسها وذوى النهار مثل مصباح فى هبة ريح. كانت روبى فى الرابعة من عمرها وقضت الليلة ملتصقة بشجرة الأشواك السوداء.

كانت تلك الساعات المظلمة كشفا لها، ولم تنسها أبدا. كان الجو باردا فى الشبورة المنجرفة من شاطئ النهر. تذكرت أنها كانت ترتجف وتبكى لبعض الوقت، تصرخ طلبا لعون. خشيت أن يأكلها فهد متجول يجئ من الجبل البارد. كان ما سمعته من أصدقاء ستوبرود السكيرين أنه كان يخطف أى طفلة فى نبضة قلب. والطريقة التى قالوا بها ذلك، أن الجبال مليئة بمخلوقات جائعة إلى لحم طفلة. دببة تبحث عن طعام. ذئاب هائمة على وجهها. حيوانات ضارية بوفرة أيضا فى الجبال. كانت تأتى بأشكال كثيرة، كلها مفزعة، وتختطفك وتأخذك إلى ما لا يعرفه أحد عن ذلك النوع من الجحيم.

كانت قد سمعت الشيروكيات العجائز يتكلمن عن أرواح تأكل لحم البشر تعيش فى الأنهار وتأكل لحم الناس، تسرقها عند طلوع النهار وتحملها إلى قاع الماء. وأن الأطفال طعامها المفضل، وعندما يأخذون واحدا يتركون فى مكانه ظلا. توأما، يتحرك ويتكلم لكنه بلا حياة حقيقية فيه. وبعد سبعة أيام يذوى ويموت.

كان الليل يجمع كل تلك التهديدات، وجلست روبى الصغيرة هكذا بعض الوقت، ترتجف من البرد وتنشج حتى لم يكن بإمكانها أن تتنفس بالكاد من معرفتها بكل الأشياء التى تبدو محتشدة للانقضاض على الضعف.

لكنها بعد ذلك بوقت قصير سمعت صوتا يخاطبها فى الظلام. بدا حديثه كما لو كان يرتفع من ضجيج اندفاع النهر ورشاشه، لكنه لم يكن شيطانا يأكل لحوم البشر. بدا كأنه قوة حنون من الطبيعة أو السماء. جنى حيوانى، ملاكا حارسا أخذها تحت جناحه وشغل نفسه برفاهيتها من تلك اللحظة فصاعدا.

تذكرت كل نسق نجمة عبرت الجزء المرئى لها من السماء بين أغصان الأشجار، وكل كلمة نطق بها ووصلت إلى أعماق قلبها من ذلك الصوت الهادئ الذى احتواها وواساها وحماها طوال الليل. توقفت مرتجفة فى ثوب نومها، وأنقطع نشيجها.

وفى صباح اليوم التالى أطلق رجل يصطاد السمك سراحها، ومشت إلى البيت ولم تفه بكلمة عما حدث لستوبرود. لا ولا سألها أين كانت. كان الصوت، رغم ذلك، لا يزال صداه يتردد فى راسها، وبعد تلك الليلة أصبحت مثل طفل يولد بغشاء رأس جنين حول وجهه، وهى تعرف أشياء لا يعرفها الآخرون.

وعندما أصبحت أكبر سنا، عاشت هى وستوبرود على ما كانت روبى تربيه على قطعة أرضهم الصغيرة التى كانت تنفرج بعيدا بما فيه الكفاية عن الأرض الرئيسية بحيث لا تستطيع حرثها. ومن جانبه، كان أبوها يقضى وقته فى مكان آخر، وغالبا ما يختفى لأيام متتالية. كان ليمشى أربعين ميلا من أجل حضور حفل. كان يتجه على طول الطريق، عند سماع مجرد إشاعة عن رقص، حاملا كمانه الذى لا يكاد يستطيع أن يجمع منه حفنة من أرقام اعتيادية. وقد لا تراه روبى مرة أخرى لأيام.

وعند افتقاره إلى ذلك النوع من التسلية كان يرحل إلى الغابات. زاعما أنه يصطاد. لكنه فى العادة يوفر سنجابا أو مرموطا سنجابيا من آن لآخر لوعاء السلق. لم ترتفع طموحاته أبدا إلى مستوى الغزلان، ولذا فإنهما عندما تشح القوارض كانا يأكلان ثمار الفسطل أو الراوند البستانى أو أطعمة برية أخرى يجمعها ستوبرود. حتى يمكن القول فى أغلب الأحيان أن جزءا كبيرا من نظامهم الغذائى كان ثمر البلوط.

حتى حب ستوبرود للشراب فشل فى أن يجعل منه مزارعا. فبدلا من أن يزرع ذرة. كان يخرج مع جوال من الكتان فى الليالى التى يختفى فيها القمر حين تكون القولحات ناضجة ويسرق الذرة. ومنها كان يقطر شرابا أصفر دهنيا زعم رفاقه أنه لا مثيل له فى لذعته وقوة مفعوله.

كانت مغازلته الوحيدة للاستخدام قد انتهت بكارثة. كان رجل من الخلوص التحتانى للنهر قد استأجره ليساعد فى إنهاء تنظيف قطعة أرض جديدة لتجهيزها لزرع الربيع. كانت الأشجار العالية قد قطعت سلفا ورقدت فى تشابكات هائلة من أشجار الغابات وقد علت إحداها الأخرى حتى صارت كوما

على طرف الغابة. كان الرجل يريد ستوبرود أن يساعده فى حرقها. أشعلا نارا هادئة وراحا يبتران أطراف الأشجار المقطوعة حتى يمكنهما دحرجتها حين توصل ستوبرود إلى أدراك أن هذا عمل أكبر مما حسب. قلب كمى قميصه إلى أسفل واتجه إلى الطريق. اضطر الرجل إلى أن يعمل وحده، بخطاف كتل خشبية. وهو يحاول أن يدحرج جذوع الأشجار فى النار. كان يقف قريبا من السنة اللهب حين تزحزحت كتل محترقة وأطبقت على رجله بشدة تحتها. ومهما حاول، لم يستطع أن يحرر نفسه، وصرخ فى طلب النجدة حتى تعطل صوته. وظلت النار تزحف عليه، وبدلا من أن يحترق كلية، تناول الفأس التى كان يقطع بها الفروع وقطع رجله من عند الركبة تماما. لف حول النزيف شريطا من سرواله فتل بإحكام مع عصا ثم شذب فرعا مشعبا على شكل عكاز واتجه إلى بيته. عاش، ولكن بشق الأنفس. ولسنوات بعدئذ، كان ستوبرود حذرا من السير فى الطريق قرب منزل الرجل، لأن الرجل ذا الساق المصطنعة الخشبية قد حمل له ضغينة، لخيبة ظن ستوبرود، وكان يطلق عليه أحيانا عيارا ناريا.

لم يخطر ببال روبى إلا عندما كبرت أن تتساءل عن نوع المرأة الذى كانت عليه أمها حتى تتزوج رجلا مثل ستوبرود. ولكن بحلول ذلك الوقت كانت الأم قد محيت من صفحة عقله، فعندما سألته روبى عما كان شكلها، زعم ستوبرود أن ذكراها كانت ضئيلة عنده. قال: لا أستطيع حتى أن أرى فى عقلى أن كانت ضئيلة القد أم بدينة.

ولدهشة الجميع بلا استثناء، تجند ستوبرود فى الجيش، فى الأيام الأولى لحمى الحرب. رحل ذات صباح على بغلهما الصغير ليحارب، ولم تسمع روبى عنه شيئا منذ ذلك الحين. وآخر ذكرى منه لدى روبى كانت الشريطين الأبيضين وهما يلمعان على ساقى حذائه وهو يشق طريقة دافعا الناس بمنكبيه فى الطريق. وخمنت أنه لم يحارب طويلا. فمن المؤكد أنه مات فى معركته الأولى. إما هذا أو أنه هرب من الجندية إلى الأبد. لأن روبى سمعت من رجل من جماعته - كان قد عاد إلى الوطن وقد أطاحت قذيفة بذراعه - أن ستوبرود كان مجهول المصير بعد معركة شاربسبورج.

ومهما كان مصيره، سواء تلقى قذيفة فى مؤخرته أو رحل فجأة إلى الأراضى الغربية، فقد ترك روبى منبتة. فبدون البغل لم تكن قادرة حتى على

حرث الأرض التى تدعو للرثاء. كل ما استطاعت أن تزرعه حديقة صغيرة عملت فيها بيديها مع محراث يعمل بقدم واحدة ومعزقة.

كانت السنة الأولى من الحرب شديدة الوطأة عليها، لكن ستوبرود قد ترك على الأقل بندقيته القديمة غير المحززة، وهو يحسب أن لديه فرصة فى تحسين أسلحته إذا ظهر خاوى الوفاض. أخذت روبى القطعة الأثرية - وهى أكثر صلة بالبندقية القديمة السهلة الحمل منها بالبنادق الحديثة الحالية - وراحت تصطاد الديوك الرومى البرية والغزال فى الشتاء، وتقدد لحم الغزال مثل هندية. كان ستوبرود قد حمل معه سكينهم الوحيد، ولذا فأنها كانت تقطع شرائح اللحم بشريحة طرحت جانبا من منشار قطع متعارض. وكانت أداتها الأساسية لتأدية عمل صانع أنصال السكاكين هى المطرقة. كان تحمى نصل المنشار فى النار وتخدش شكل سكين فى المعدن الساخن بمسمار حدوة حصان ملتو التقطته من الطريق. وعندما يبرد المعدن تطرق الزوائد من الخط المخدوش وتبرد الرائش من النصل و المقبض. ومستخدمة المطرقة مرة أخرى، كانت تدق فى السكين مسامير برشام من نفايات نحاس لتثبت مقبضا من خشب أشجار التفاح كانت قد نشرته من فرع غليظ. ثم تشحذ النصل على صخرة مطلية بالدهن من صخور النهر. كان صنع يديها خشن المظهر، لكنه كان يقطع بنفس كفاءة سكين نشتريه.

وقد أدرجت قائمة بمنجزاتها، وهى تنظر إلى الوراء حتى الآن. حقيقة أنها وهى فى العاشرة عرفت كل ملامح الجبال على امتداد خمسة وعشرين ميلا فى أى اتجاه بنفس الحميمية التى يعرف بها بستانى صفوف الفاصوليا التى زرعها. وأنها بعد ذلك، وهى لا تكاد تكون امرأة بعد، جلدت رجالا بمفردها فى مواجهات لم تكن تود أن تفصلها.

وفى الوقت الحاضر، فأنها تعتقد أنها فى الثانية والعشرين من عمرها، رغم أنها لم تكن متأكدة لأن ستوبرود لم يسجل فى ذاكرته لا سنة ميلادها ولا اليوم. فهو لم يكن بإمكانه حتى أن يتذكر الموسم الذى وصلت فيه. لا لأنها تخطط لحفل عيد ميلاد، لأن الاحتفال كان ملمحا مفتقدا فى حياتها حيث أن البقاء على قيد الحياة كان له طريقة حادة فى تركيز اهتمام المرء فى مكان آخر.

مثل أى شىء آخر، هبة

فى وقت متأخر من الليل سلك إينمان طريقا متدنيا يمتد على طول شاطئ النهر العميق. سرعان ما مال فى منحدر صخرى ضاق بعد قليل صانعا واديا ضيقا عميقا. انطبقت السماء بين جدران من صخور وأشجار مختلطة بغير ترتيب حتى أصبحت مجرد شق أعلاه مباشرة، ومجرة درب التبانة هى الضوء الوحيد. كان الظلام كثيفا إلى حد أنه اضطر لبعض الوقت، حين نزل إلى الوادى، أن يتحسس بقدميه تراب الطريق الناعم ليهتدى إلى الطريق. كان لمعان الضوء على الماء ضئيلا حتى أنه يمكنه أن يراه فقط بأن ينظر جانبا، مثل اكتشاف النجوم الخافتة عن طريق عدم التحديق فيها مباشرة.

وفى آخر الأمر، بعد أن عبر مرتفعا شديد الانحدار وهو يتجه من جانب إلى جانب، أصبح الطريق حزًّا ضيقا بين تساقط النهر تحته وبين شاطئ شديد الانحدار من الصخور المكسورة وتراب تعلوه جزئيا طبقة نباتية. لم يَرُق لإينمان موقعه. كان يخشى أن يكون الحرس الوطنى فى كل مكان. وقد يدركه الفرسان قبل أن يتمكن من أن يجد مكانا يترك منه الطريق، وقد كان الشاطئ شديد الانحدار والكسور بحيث لا يمكنه تسلقه فى الظلام. كان مكانا تعسا للوقوف فيه ضد فرسان مسلحين.. والأفضل أن يواصل طريقه ليخرج ويطرح الجرح فى الأرض خلفه.

شرع إينمان فجأة يهرول هرولة يسيرة مؤلمة وظل على هذا الحال بعض الوقت حتى رأى أمامه ضوءا يرتجف، يبدو فى مضمار سيره مباشرة. أبطأ هرولته إلى مشية، وسرعان ما اقترب من الضوء على مسافة تسمح له بأن يدرك أنه يصدر من رجل يرتدى قبعة عريضة الحواف يقف فى الطريق، ويلقى حوله دائرة صفراء من مشعل من فلقات خشب مغطاة بالقطران محزومة. سار إينمان بهدوء واقترب أكثر على مهل وتوقف بحذاء جلمود صخر لا يبعد عشر ياردات.

كان الرجل يرتدى حلة من ملابس سوداء وقميصا أبيض، ويمسك بحصان من مقوَّد حبل يلتف حول الرقبة. أمكن إينمان أن يرى فى الضوء أن الحصان يحمل ثِقلا، شيئا أبيض غليظا لا شكل له، على ظهره مثل حزمة كتان متدلية. وبينما كان إينمان يراقب، جلس الرجل فى الطريق وقد جذب ركبتيه إلى صدره بذراع واحدة، واستقر مرفق ذراع المشعل فى الحز بين الركبتين بحيث برزت قبضة يده أمامه وهو يمسك بالمشعل ثابتا كما لو كان مثبتا فى كوة. ترك رأسه يسقط على صدره حتى لامست حافة القبعة ذراعه الممتدة. كان يشكل نوعا من لفة قاتمة مضيئة فى الطريق.

قال إينمان لنفسه، سوف يغفو وذلك المشعل يلتهب. وفى ظرف دقيقة ستشتعل النار فى قدميه.

لكن الرجل لم يكن يغفو، كان فى حالة يأس. فقد رفع رأسه باتجاه الحصان وأرسل أنة.

- ألهى، أوه، يا ألهى. لقد عشنا يوما ما فى أرض من الجنة.

تأرجح من جانب لآخر على عظام مؤخرته وقال مرة أخرى، إلهى، أوه، يا ألهى.

تساءل إينمان، ما العمل؟ حجر آخر فى طريقه. لا يمكننى العودة. لا يمكننى الدوران. لا يمكننى أن أقف هنا مثل عِجْلة فى حظيرة. أخرج مسدسه وأمسك به مرفوعا لأعلى ليتلقى مايصله من ضوء المشعل وتحقق من حشواته.

كان إينمان على وشك الاستعداد للتحرك عندما وقف الرجل وأدار قاعدة المشعل فى التراب حتى استقر معتدلا. نهض وسار إلى الجانب البعيد من

الحصان. شرع يحاول أن يرفع الصرة من على الحصان الذى كان يتزحزح بعصبية ويطوى أذنيه إلى الخلف، وبياض عينيه واضح للعيان على طول الحواف السفلية.

انزل الرجل الصرة من على الحصان وحملها على كتفه ودار من خلف الحيوان بشىء من الترنح. استطاع إينمان أن يرى أن ما كان يعتّله امرأة، بذراع متراخ يتأرجح وشلال صغير من الشعر الأسود يلامس الأرض. حملها الرجل خارج قطر ضوء المشعل حتى أصبحا غير مرئيين، لكن اتجاهه كان صوب حافة المنحدر بكل وضوح. استطاع إينمان أن يسمع الرجل يتشج فى الظلام وهو يسير.

جرى إينمان على طول الطريق إلى المشعل وانتزعه وصوبه بنعومة تحت مستوى المرفق باتجاه صوت البكاء. وكان ما أضاءته النار حين ضربت الأرض هو الرجل واقفا على شفا الجلمود تماما والمرأة بين ذراعيه. كان يحاول أن يستدير ليرى مصدر الإضاءة المفاجئ هذا، لكن ذلك استغرق بعض الوقت وهو معاق كما كان. استدار بشىء من جر القدمين ليواجه إينمان.

قال إينمان: أنزلها.

سقطت مكومة عند قدمى الرجل.

قال الرجل، وعيناه مثبتتان على الفوهتين الكبيرتين غير المتوافقتين: بحق الشيطان، أى نوع من المسدسات هذا.

قال إينمان، ابتعد عنها. تعال هنا حيث يمكننى أن أراك.

خطا الرجل فوق الجسم وتقدم من إينمان. ألقى رأسه مائلا إلى أسفل حتى تحجب حافة القبعة وهج المشعل.

قال إينمان: يحسن بك أن تتوقف الآن فورا، عندما اقترب الرجل.

قال الرجل: أنت رسالة من الله. وأخذ خطوتين أخريين ثم ركع على ركبتيه فى الطريق وسقط إلى الأمام واحتضن ساقى إينمان. صوب إينمان المسدس إلى رأس الرجل وضغط على الزناد حتى استطاع أن يشعر بكل الأجزاء

المعدنية الخاصة بآلية إطلاق النار تستحكم احدها مع الآخر. لكن الرجل رفع رأسه عندئذ، واستقبل ضوء المشعل حيث كان لايزال يشتعل على الأرض، وأمكن إينمان أن يرى أن وجنتيه تلمعان بدموع. لان قلب إينمان كما كان يجب على أية حال وضرب الرجل فحسب ضربة متوسطة القوة على عظمة الخد بماسورة البندقية الطويلة.

تمدد الرجل على ظهره فى الطريق، بجرح طفيف أسفل عينيه. كانت قبعته قد سقطت ورأسه مدهون بكريم معطر وأملس مثل تفاحة من الجبين إلى الخلف، وأطراف شعره الأصفر تتدلى فى عقصات حول كتفيه. لمس الجرح بأصبعه ونظر إلى الدم.

قال: أسلم بأننى استحق ذلك.

قال إينمان: إنك تستحق القتل. ونظر إلى حيث رقدت المرأة مكومة على حافة الصخرة. لم تكن قد تحركت. قال إينمان: ربما لا أزال أشعر بالحاجة إلى فعل ذلك.

قال الرجل: لاتقتلنى، إننى رجل من رجال الله.

قال إينمان: البعض يقولون إننا جميعا كذلك.

قال الرجل: أعنى أننى واعظ. أنا واعظ.

لم يستطع إينمان أن يفكر فى إجابة سوى أن ينفخ الهواء من أنفه.

- قال إينمان: هل هى ميتة؟

- لا.

- قال إينمان، ما شأنها؟

- ليس كثيرا. إنها حامل نوعا ما. وذلك ما أعطيته لها.

- وماذا يكون ذلك؟

- عبوة مساحيق صغيرة اشتريتها من بائع متجول. قال إنها تجلب النوم لمدة أربع ساعات. وقد مضى تقريبا نصف ذلك الوقت منذ أن أعطيتها الجرعة لتنام.

- هل أنت والد الجنين؟

- فيما يبدو.

- احسب أنك لست متزوجا منها؟

- لا.

سار إينمان إلى الجانب البعيد من الفتاة وركع على ركبتيه. وضع يده على رأسها الأسود ورفعه. كانت تتنفس بشىء من الشخير الخافت، بصفير عند الأنف. كان وجهها مرتخيا من فقدها الوعى، والظلال التى يلقى بها المشعل ظلال قبيحة وهى تتجمع بأسلوب غير مؤات فى المواضع الغائرة من عينيها ووجنتيها. أعاد وجهها إلى الأرض ونهض من ربضته.

قال إينمان: أعد وضعها على الحصان. وخطا إلى الوراء وقد احتفظ بالمسدس مصوبا إلى الرجل الذى حجل واقفا، وعيناه لا تفارقان طرفى الماسورة. أسرع الرجل وركع وبذل أقصى جهد ليرفع الفتاة من على الأرض. نهض وسار مترنحا إلى الحصان وألقى بها فوقه. رفع إينمان حافة المسدس إلى أعلى مؤقتا ليرى خطوطه الخارجية فى الضوء، وهو يفكر فى كم يروق له مظهر الإلحاح والتركيز الذى أضفاه المسدس على طلب بسيط.

قال الرجل حين انتهى، وماذا الآن؟ بدا عليه الارتياح لأن شخصا آخر كان يتخذ القرارات.

قال إينمان: اخرس.. لم يكن يعرف الخطوة التالية وبدا تفكيره أحرش مثل الخشب وثقيل الحركة من حاجته إلى النوم ومن السير الشاق.

قال إينمان، من أين أتيت؟

قال الرجل وهو يومئ إلى أعلى الطريق فى الاتجاه الذى كان إينمان ذاهبا فيه: هناك بلدة لا تبعد عن هنا.

- تقدم أمامى وأرنى الطريق.

التقط إينمان المشعل وطوحه فوق الحافة. ووقف الواعظ يراقبه وهو يسقط، نقطة متضائلة فى الظلام.

قال إينمان: أما زال النهر العميق هنا؟

قال الواعظ: هكذا يسميه الناس.

شرعا يمشيان. احتفظ إينمان بالمسدس فى يده وقاد الحصان باليد الأخرى. كان المقود من القنب الغليظ وقد التف حول طرفه بضع بوصات من السلك حتى تحول دون تَنَسله، وعندما أمسك بالحبل وخز إبهامه، فأدمى. مضى إينمان وهو يمص أصبعه المجروح، ويفكر فى أنه لو لم يعثر عليهما بمحض المصادفة لكانت المرأة لوثة بيضاء تطفو على النهر الأسود، وتنورتها منتفخة حولها والرجل واقفا فى الطريق يقول انزلى، انزلى. وتساءل إينمان عما يمكن أن يفعله هنا.

وسرعان ما صعد الطريق وعبر أخدودا صغيرا تاركا النهر وراءه. كان يتعرج بين تلال منخفضة. كان القمر قد طلع واستطاع إينمان أن يرى أن الأرض مكشوفة فى رقع واسعة حيث أحرقت الغابة لتفسح مكانا للحقول. ولكن لم يقم أحد بعمل يتطلب جهدا أكبر من اضرام نار فيها، ولذا فإنها كانت أرضا من بقايا جذوع أشجار سوداء وضعت فى طين تشقه قناة وتمتد عارية إلى الأفق البعيد. كان فحم بقايا الجذوع يستقبل ضوء القمر ويلمع. نظر إينمان فيما حوله وقال لنفسه، من الممكن جدا أن أكون على كوكب آخر بأسره بعيد عن المكان الذى أقصده.

كانت كوكبة الجوزاء قد أشرقت كاملة وقامت عند الأفق الشرقى، ومن ذلك أدرك إينمان أن قد جاوز منتصف الليل بوقت طويل. كانت هيئة كوكب الصياد والمحارب العظيمة تقف هناك مثل اتهام، مثل شارة فى السماء تشير إلى نقائصك. كانت كوكبة الجوزاء يحيط بها نطاق محكم، وسلاحها جاهز للضرب. واثقة من ذاتها كما يمكن أن يكون رجل، إذا كان وضع الجسم يحمل أى دلالة على الشخصية. ترتحل بالضبط غربا كل ليلة وتصل فى موعد لا يخطئ.

واحد الأشياء التى لاحظها إينمان كنوع من السلوى هو أنه يستطيع أن يسمى أكثر نجوم كوكبة الجوزاء لمعانا. فقد تقاسم تلك الحقيقة مع فتى من تنيسى فى الليلة التى تلت معركة فريديركسبورج. كانا يجلسان على حافة خندق خلف الجدار، والليلة باردة وقارسة، والنجوم نقط حادة من الضوء،

والشفق قد توهج وخبا. كانا قد التفا ببطانيتين، وأنفاسهما تصعد مثل ريشات وتتعلق فى الهواء الساكن أمامهم مثل أرواح فى سبيلها للرحيل.

قال الفتى: إن الجو قارس جدا، ولو أنك لعقت ماسورة بندقيتك لالتصق لسانك بها.

رفع بندقيته الانفيلد أمام وجهه وتنفس على ماسورتها ثم خدش المكان بظفره ومشط صقيعا. نظر إلى إينمان ثم فعل ذلك مرة ثانية. رفع أصبعه ليتفحصه إينمان وقال إينمان، إننى أراه.

بصق الفتى بين قدميه ثم مال ليرى إن كانت البصقة قد تجمدت، لكن قاع الخندق كان مظلما إلى حد لم يمكنه معه أن يميز إيجابا أو سلبا.

وأمامهما كانت ساحة القتال تنحدر إلى البلدة والنهر، والأرض تمتد مثل كابوس وبدت كأنها قد أعيد تشكيلها لتلائم نموذجا جديدا ومخيفا، كلها قد تبعثرت فيها الأجساد وتمخضها المدفعية. ولكى يحول عقله عن مثل هذا المكان فى تلك الليلة، نظر إينمان باتجاه كوكبة الجوزاء وقال الاسم الذى يعرفه. حدق فتى تنيسى إلى أعلى فى النجم وقال: كيف تعرف أن اسمه ريجل؟

قال إينمان: قرأته فى كتاب.

قال الفتى: إذن فذلك بالضبط هو الاسم الذى نطلقه عليه. إنه ليس اسم الله.

فكر إينمان فى المسألة المطروحة ثم قال، كيف يمكنك أن تعرف على الإطلاق الاسم الذى يطلقه عليه الله.

قال الفتى، ما كنت لتعرف، فإنه يبقيه سرا. إنه شىء لن تعرفه أبدا. إنه درس من المقصود به أن نحسمه بسبب جهلنا. هذا بالضبط ما يأتى فى معظم الأحيان من المعرفة. قالها الفتى وهو يومئ بذقنه إلى الأرض المحطمة، وهو لا يجد فيما يبدو أن الأمر يستحق حتى أن يكتسح بيده منحنياتها دلالة على صرف النظر عنه. فى ذلك الوقت ظن إينمان الفتى أحمق وظل راضيا بأن يعرف الاسم الذى نطلقه على نجم كوكبة الجوزاء الرئيسية وأن يدع الله يحتفظ باسمه سرا مغلقا. لكنه تساءل الآن إذا كان الفتى على حق بشأن المعرفة، أو على الأقل بشأن بعض تنوعاتها.

سار إينمان والواعظ فى صمت بعض الوقت، حتى قال الواعظ أخيرا: ماذا تنوى أن تفعل بى؟

قال إينمان: اننى أفكر فى الأمر. كيف وصلت إلى هذه الورطة؟

– يصعب القول. فليس هناك أحد فى المستوطنة يشك فى شىء حتى الآن. إنها تعيش مع جدتها، وهى طاعنة فى السن وصماء إلى درجة أن عليك أن تصرخ حتى تفهمك. كان من السهل عليها أن تنسل فى منتصف الليل لتعبث فى كومة تبن أو شاطئ جدول مغطى بالطحالب حتى تشرع أول الطيور تصدح فى الساعة التى تسبق الفجر.. وطوال الصيف كنا نتسلل فى الغابات فى لقاءاتنا.

– ماكرين مثل الفهود فى أساليب الخفاء؟ هل هذه هى الصورة التى ترسمها؟

– حسنا، أجل. بشكل ما.

– وكيف وصل الأمر إلى هذا المأزق؟

– بطريقة طبيعية. نظرة ما بالعين، التواء فى الصوت، لمس اليد عند تمرير الدجاج حين كنا نتناول العشاء على الأرض عقب قُدّاسات يوم الأحد.

– هناك مسافة بعيدة بين هذا وبينك وأنت ترتدى سروالك معقودا حول كاحليك فى كوم تبن.

– نعم.

– حتى أبعد من أن تعقد عزمك على أن تلقى بها فى واد عميق ضيق كأنها خنزيرة ماتت من كوليرا الخنازير.

– حسنا، أجل. لكن الأمر أكثر تعقيدا مما تتصوره. لشىء واحد، هناك وضعى. فلو اكتشف أمرنا، لطردت من المقاطعة. وكنيستنا صارمة. فقد طردنا أعضاء لأسباب أبسط مثل السماح بعزف كمان فى بيوتهم. صدقنى، لقد عشت فى كرب وأنا أفكر فى ذلك الأمر ليالى عدة.

– هل تلك هى الليالى الممطرة؟ عندما تكون أكوام التبن والشواطئ المطحلبة مبللة للغاية.

واصل الواعظ سيره.

قال إينمان: كانت هناك وسائل إصلاح أبسط.

– لم أستطع أن أجدها.

– الزواج منها هو أحدها.

– أنت تغفل التعقيدات مرة أخرى. فأنا خاطب بالفعل.

– أوه.

– إننى أعتقد الآن أننى حين استجبت للوعظ، كنت استجيب لنداء زائف.

قال إينمان: أجل. أرى أنك لا تلائم هذه المهمة.

سارا ميلا آخر، ثم بدا أمامهما على شاطئ نهر، نهر مماثل للنهر الذى كان ينساب فى قاع الوادى العميق، بلدة ما. مجموعة من الأبنية الخشبية. كنيسة من ألواح خشب طليت بالجير الأبيض. محل أو أثنان. بيوت.

قال إينمان: ما أعتقد أننا سنفعله هو أن نعيدها إلى فراشها كأن هذه الليلة لم تحدث. هل لديك منديل؟

– أجل.

قال إينمان، لفه وضعه فى فمك ثم انبطح أرضا فى التراب. نزع السلك من حبل المقود بينما فعل الواعظ ما أمره به. مشى إينمان إلى خلف الواعظ ووضع ركبة فى ظهره ولف السلك حول رأسه ست لفات ثم فتل الأطراف معا.

قال إينمان: لو أنك صرخت لجاء الناس يجرون وكان بامكانك أن تلقى علىّ بكل اللائمة. وليس أمامى من طريقة أحكى بها حتى يصدقنى الناس هنا.

دخلا البلدة. فى أول الأمر، نبحت الكلاب، لكنها عندئذ، إذ تعرفت على الواعظ ولأنها تألف جولاته الليلية. لزمت الصمت.

قال إينمان: أى بيت؟

أشار الواعظ إلى آخر الطريق ثم تقدمهما خلال البلدة وخرج من الناحية الأخرى إلى غيضة صغيرة من أشجار الحور. وإلى الخلف بين الأشجار كان هناك بيت ريفى صغير، يتألف من حجرة واحدة، مغطى بألواح خشبية مُثَبتة ومطلى باللون الأبيض. كانت الطريقة التى امتد بها السلك خلف ركنى فمه تجعله يبدو كما لو كان يبتسم ابتسامة عريضة، والتعبير لا يتوافق مع حالة إينمان المزاجية.

قال إينمان، تراجع إلى شجرة الحور الصغيرة هذه. ونزع حبل المقود من الحصان وربط الواعظ من عنقه فى الشجرة. وأخذ إينمان الطرف السائب من الحبل وسحبه فوق كتف الواعظ وربط رسغيه بإحكام خلفه.

قال إينمان، قف هنا هادئا تماما وسوف نجتاز هذا الموقف.

رفع الفتاة من على الحصان وعدلها بين ذراعيه بتوازن طيب يسمح بحملها. ذراع تحت وسطها، وذراع أخرى تحت فخذيها الناعمتين، استقر رأسها الأسود على كتفه وانساب شعرها على ذراعه مثل نَفَس وهو يسير. صدرت عنها أنة صغيرة، مثل شخص يزعجه فى نومه المنتظم حلم عابر. كانت شيئا عاجزا إلى حد كبير، وهى ترقد هناك بلا حتى وعى بالدفاع عن نفسها. معرضة لكل أنواع الخطر ولا يحميها سوى حسن نية العالم النادرة. قال إينمان لنفسه، ينبغى على حتى الآن أن أقتل ذلك الواعظ الخرائى العابث.

حملها إلى البيت وأنزلها فى رقعة من حشيشة الشفاء وهو ينحنى. وذهب إلى الشرفة ونظر من النافذة إلى غرفة معتمة. كان هناك نار منخفضة تشتعل فى المدفأة وعجوز تنام على مرتبة محشوة بالقش بجوار النار. وقد عاشت طويلا إلى حد أنها وصلت إلى حالة تقترب من الشفافية، جلدها مثل جلد الرق، كما لو كان بإمكان إينمان أن يقرأ خلالها ورقة، لو أنه انتزعها وأمسك بها أمام النار. كان فمها مفتوحا. وهى تشْخر. أضاء الضوء الضئيل المتبقى فى المدفأة حقيقة أنها ليس لديها سوى زوجين متبقيين من الأسنان. زوج أمامى علوى، والآخر أمامى سفلى. كان التأثير الذى تحدثه أسنانها يشبه الأرنب.

حاول إينمان أن يفتح الباب ووجده غير موصد بالمزلاج. فتحه وأدخل رأسه. صاح بصوت متوسط الارتفاع مناديا. استمرت العجوز فى شخيرها. قرر أن الوضع آمن بما فيه الكفاية وواصل الدخول بجوار النار كان هناك طبق به نصف قرص من رغيف ذرة وقطعتان مقليتان من لحم خنزير. أخذ إينمان الطعام ووضعه فى مخلاته. كان هناك هيكل سرير فى نهاية الغرفة بعيدا عن النار. قدر أنه سرير الفتاة. اتجه إليه وسحب الأغطية إلى الوراء ثم خطا إلى الخارج ووقف ينظر إلى الفتاة ذات الرأس الأسود. كانت تبدو فى ثوبها الباهت مجرد عينة ضوء على الأرض السوداء.

رفعها وحملها إلى الداخل ووضعها فى السرير. نزع عنها حذاءها وغطاها حتى ذقنها، ثم فكر مرة أخرى، وسحب الأغطية وأدارها على جنبها، لأنه تذكر أن فتى فى جماعته أغمى عليه وهو مخمور نائما على ظهره وكان ليختنق بقيئه لولا أن شخصا ما لاحظ ذلك وركله ليديره. وبهذه الطريقة تعيش لتستيقظ فى الصباح برأس تدق، متسائلة كيف عادت إلى سريرها فى حين أن آخر ما يمكنها أن تتذكره هو العبث فى سقيفة التبن مع الواعظ.

وفى تلك اللحظة، سقطت كتل الخشب التى بالمدفأة من على شبكتها المعدنية محدثة صوت ارتطام، وهى تتزحزح لتتخذ موضعا أكثر ملاءمة، وتوهجت النار. فتحت الفتاة عينيها وأدارت رأسها وحملقت فى إينمان مباشرة. بدا وجهها أبيض فى ضوء النار، وشعرها مهوشا. بدت فزعة.. مشوشة العقل. فتحت فمها كما لو كانت ستصرخ. لكن لم يصدر منها صوت. مال إينمان عليها ومد يده ولمس جبينها ومشط شعرها إلى الوراء حيث انعقص عند صدغيها.

قال: ما اسمك؟

قالت المرأة: لورا.

قال: اصغى إلىّ يا لورا. ذلك الواعظ لا يتكلم باسم الله. ليس هناك رجل يفعل ذلك. عودى إلى النوم واستيقظى فى الصباح وأنا لست إلا حلما يحثك على أن تلقيه خلف ظهرك. فهو لا ينوى بك خيرا. واعقدى عزمك على هذا.

لمس عينيها بطرفى إصبعين مثلما رأى الناس يفعلون بالموتى ليغلقوا جفونهم حتى لايروا رؤى سيئة.. هدأت تحت يده، وعادت إلى النوم.

تركـهـا إينمـان ورجع أدراجـه إلى الخـارج حـيث يقف الـواعظ مـربوطا فى الشـجـرة. وفى تلك اللحظة كـان لفكرة أن يخـرج سكينه وأن يقطع الرجل إربا الكثير مما يزكيها. لكن إينمان، بدلا من ذلك جاس بيده فى مخلاته وأخرج قلما ومحبرة وورقة. عثر على مكان يصل إليه ضوء القمر من خلال الأشـجـار. وكتب القصة موجزة فى شعاعه الأزرق، بدون إعمال الكثير من الفكر أو إضافة لمسات رقيقة إليـها، مجرد أنه خط مـا قد عرفه عن نية القتل فى فقرة واحدة. وعندما انتـهى رشق الورقـة على فـرع شـجـرة بسـفـود على مسـتـوى الرأس بـعـيـدا عن متناول الواعظ.

راح الواعظ يراقـبـه، وعندمـا أدرك نية إينمـان اضطرب وتململ على قـدر مـا يستطيع وهو مكبل من العنق. ركل بقدمـيه فـى اتجاه إينمان، لأنه خـمن مـا كـان قد كتبه.

حاول أن يقبع وأن يصـأ من خلال المنديل المربوط بسلك فى فمه.

قال إينمان: تدلى بشهادتك؟ هل ذلك ما تريد؟

قال الواعظ: آه!

أخـرج إينمـان المسـدس ووضـعـه على أذن الـواعظ. جذب قـادح المسـدس ونقـر إلى أسـفل الذراع الصـغير الذى يوجـه مسـمـار إطلاق النار، إلى آخـر مـاسـورة المسدس.

قـال إينمـان: قل كلمـة واحـدة تعلو عن الـهـمس، وسـوف تفـتقـر إلى رأس. فك السلك. وبصق الواعظ المنديل.

قال: لقد دمرت حياتى.

قـال إينمـان: لا تلق باللوم علىّ. لم أكن أريد أن يكون لـى دور فى هذا. لكننى لا أريد أن أضطر إلى التسـاؤل عمـا إذا كنت سـتعـود بعد لـيلة أو اثنتين إلـى ذلك الوادى الضيق العميق الأسود وأنت تدليها من فوق حصانك مرة أخرى.

– إذن أطلق الرصـاص علىّ. فقط أطلق الرصـاص علىّ واتركنى متدليا.

– لا أظن أن هناك أى جاذبية فى ذلك العرض.

– فليلعنك الله فى الجحيم لقاء ما تفعله بى.

التقط إينمان المنديل المبلل من على الأرض ودفعه في فم الواعظ وأعاد لفه بالأسلاك ومضى. وبينما هو يسير سمع قبعات وأنات تذوى. لعنات ودعوات بلا كلمات.

توقف ودخل الغابات وصنع سريرا من نفايات الأرض. جلس مسندا ظهره إلى شجرة وأكل كسرة خبز الذرة ولحم الخنزير السمين الذى أخذه من بيت المرأة. واستلقى على الأرض ردحا من الصباح ونام.

ثم وجد نفسه مستيقظا، يحدق في السماء الزرقاء من خلال فروع أشجار الصنوبر. أخرج مسدسه ومسحه بخرقة وتحقق من حشواته واحتفظ به فى يده بصفته صحبة. كان المسدس الذى كان يمتلكه من صنع لى مات. ولم يكن الطراز الذى يمسك به إينمان من الطرازات البلجيكية المبكرة الأدنى بل مدموغا بكلمة بيرمنجهام على ماسورته. كان قد التقطه من على الأرض ودسه فى حزامه قبل أن يصاب بجرحه خارج بيترزبورج، وقد تمكن من المحافظة عليه خلال كل فوضى مستشفى ساحة المعركة ورحلة القطار إلى العاصمة فى عربة شحن القطار المغلقة مع الجرحى. كان سلاحا له شكل غريب، كبير الحجم نوعا ما وله نِسَب غريبة، لكنه أكثر سلاح يحمل عند الخصر وحشية فى الوجود. كانت اسطوانته بحجم قبضة اليد ويحمل تسع طلقات من عيار ٤, ٠ لكن الملمح السائد فيه والشىء الذى يحدد اتجاها جديدا غريبا فى أى طراز مسدس كان: أن الأسطوانة تدور حول ماسورة البندقية، شىء بدين خشن تحت الماسورة الرئيسية. ولما كان المقصود منها أن تكون فرصة أخيرة يائسة عند الالتحام، فإنها تطلق حشوة واحدة، سوداء كانت رشا أو رصاصة كبيرة إلى حد أنها تبدو مثل إطلاق بيضات بطة من الرصاص على أعدائك. ورغم حجمه، فإن مسدس لى مات يعطى شعورا بالتوازن والتماسك، وهو فى قبضة اليد، وأنه كتلة معدنية مصبوبة فى قطعة واحدة، وكان هناك قدر ما من اطمئنان النفس يرتبط بمجرد حمل المسدس المتين والتفكير فيما يمكنه أن يفعله فى خدمتك.

دعك إينمان ماسورته وأسطوانته وفكر فى القتال فى البلدة وعبور النهر والواعظ وكيف كان يمكنه أن يفعل الأشياء بشكل مختلف فى كل حالة. تمنى لو أنه تلطخه فوضى الآخرين. كان جزء منه يريد أن يختبئ فى الغابات بعيدا عن

أى طريق. أن يكون مثل بومة، وأن يتحرك فى الظلام فقط. أو شبحا. وجزء أخر يحن إلى ارتداء المسدس مكشوفا على ردفه وأن يسافر بالنهار تحت علم أسود، محترما لكل من يدعه وشأنه، ومقاتلا كل من ينشد القتال معه، وأن يدع سورة الغضب مرشدا له ضد أى شىء يجرى ضد إرادته.

لم يكن قبل الحرب رجلا يجيد التعامل مع البندقية. لكنه ما إن جُنِّد، حتى أصبح القتال سهلا. كان قد قرر أن شأن القتال شأن أى شىء آخر، هبة. مثل رجل يستطيع أن ينحت طيورا من الخشب. أو يستطيع أن يقطف الحانا من آلة بانجو. أو واعظا لديه هبة الكلمات. لا صلة لك بذاتك. فلا يعدو الأمر كون أعصابك مشدودة إلى سرعة اليد وعقل راسخ حتى لا تصبح بليد الفهم ومبهما فى المعركة، وتقديرك ملبدا بالغيوم فى كل وسائل تدبيرك لأمرك، سواء كان مميتا أو غير ذلك. ذلك وأن يكون لديك الحجم الذى يمكنك من أن تتسيد الموقف عند الالتحام، حين يصل الأمر إلى تشديد قبضتك.

وفى منتصف وقت الأصيل، غادر إينمان غيضة أشجار الصنوبر وحاول أن يقطع بعض المسافة. وبعد ساعة فقط وجد نفسه، رغم ذلك، منهكا تقريبا من التعب. كل خطوة مجهود هائل. وعلى البعد رأى أمامه أشخاصا يقفون فى الطريق بجوار معبر ضحل، ولكن كان من الواضح، حتى من تلك المسافة، أنهم عبيد، ولذا لم يهتم حتى أن ينسل إلى الغابات ليختفى لكنه واصل سيره. كان هناك رجل يحاول أن يسوق خنزيرا أحمر اللون توقف ليتمرغ فى الطين، وآخر يحمل ملء ذراعيه خمس ياردات من أعواد الفاصوليا. ركل تاجر المواشى الخنزير بلا جدوى، ثم أخذ عودا من حمل الفاصوليا وضرب الخنزير ونخسه حتى تمكن من الوقوف على أقدامه على مضض وتهادى فى مشيته على طول الطريق. أمال الرجلان قبعاتهما لإينمان وهما يمران قائلين: طاب يومك، ياسيد.

كان إينمان ضعيفا يشعر بأنه يتمنى مؤقتا لو أنه خنزير أحمر كبير يمكنه فقط مجرد أن يستلقى ويتمرغ حتى يحمل إليه أحد عرقا من الفاصوليا. لكنه نزع حذاءه العالى الساق وخاض فى المعبر الضحل، ثم انحرف عند الشاطئ البعيد عن الطريق وتبع مجرى النهر، وهو يفكر فى أن يجد مخبأ يطبخ فيه وجبة ضئيلة من عصيدة الذرة. لكن الريح غيرت اتجاهها وحملت إليه رائحة طهو حقيقى من مكان ما بعيد فى مجرى النهر.

تبع رائحة اللحم التى يحملها الهواء، وهو يتنشق الهواء بصوت مسموع ويطرف بعينيه ورأسه مائل مثل دب. وسرعان ما وصل إلى معسكر فى حنية فى النهر؛ وعربة شحن، وعدد من الخيول، وخيام هرمية من قماش القنب تقوم وسط غيضة من أشجار السندر. جلس إينمان القرفصاء فى الغطاء النباتى الذى يعلو التربة وراح يراقب الناس وهم يقومون بمهام مخيمهم. كانوا خليطا من ناس يرتدون كل ما هو موجود من جلود ملونة بكل الألوان تقريبا. خمن إينمان أنهم خارجون على القانون ومنبوذون مثله. ناس يعملون بالاستعراضات، متشردون من قبيلة من الغجر الأيرلنديين تجار الخيول متجمعون معا. كانت قوائم الخيول قد شدت من كل جوانبها، وهى ترعى الأعشاب الطويلة تحت الأشجار. كانت المواشى متنوعة من رائعة إلى ميتة تقريبا. وعلى الرغم من ذلك، كانت جميعا، وظهورها تلمع فى شمس الأصيل الذهبى، جميلة فى عينى إينمان، رشاقة منحنى رقابها وهى مائلة إلى أسفل، عظام قوائمها الهشة واضحة من خلال الجلد النحيل فوق الشعر الذى يكسو حوافرها.. خمن إينمان أن التجار كانوا يخفونها. فقد قتلت خيول كثيرة فى القتال إلى حد أنها أصبحت نادرة. وقد ارتفعت أسعارها إلى حد لا يُصدق، لكن الجيش أرسل رجالا ليجمعوا قطعان الخيول، يدفعون فيها لا شيء تقريبا. تمنى جانب من إينمان لو أنه لديه المال اللازم لشراء حصان مخصى ضخم واسع الخطوة. يمتطيه ويخب به بعيدا وينهى حياته خادما فى بيت. لكنه لم يكن يملك ذلك المال الوفير ومن الصعب، أيضا، أن يكون متسللا وبصحبته حصان، وغير متعاون. ولذا فإن إينمان ترك الحلم يعبر.

دخل إينمان المعسكر وذراعاه إلى جانبيه، ظنا منه أنه قد يجد بعض الشعور بالقربى مع المنبوذين. استقبله الغجر بكرم واضح، رغم أنه يعلم أنهم كانوا يسرقون حذاءه من على قدمه لو أمكنهم أن يجدوا فرصة لذلك. كان لديهم وعاء حديدى به مرق أسود يغلى فوق نار ضئيلة - أرنب، سنجاب، دجاجة مسروقة، خضراوات متنوعة مسروقة، كرنب أساسا. كتل من اليقطين يتطاير رذاذها فى عسل أسود تشوى على جمرات فى موقد معدنى ثقيل له غطاء مقوس. امرأة ترتدى تنورة زاهية من نفايات قماش وُصلت ببعضها مثل لحاف، غرفت له

طعاما على طبقه القصديرى وشرعت فى قلى فطائر من الذرة فى مقلاة بها دهن خنزير. كانت العجينة تفرقع مثل نار معركة بعيدة عندما غرقت الدهن.

استند إينمان إلى شجرة وأكل، وهو يتطلع فيما حوله إلى خرير الماء على أحجار النهر، وأوراق شجرة سندر صفراء تذبل مبكرا وترتجف لامعة فى حركة الهواء، والضوء يسقط فى أشعة خلال دخان نيران المخيم. رجل يجلس على كتلة خشبية يكشط نغمات رقصات سريعة مرحة ورقصات شعبية أيرلندية من كمان من علبة سيجار. الأطفال يلعبون فى المياه الضحلة على حافة النهر. غجر آخرون يعملون على الخيول. كان صبى يمشط فرسا عجوزا بقولحة ذرة مغموسة فى دلو بوتاس وصناج ليغطى شعرها الأشيب، ثم تناول مبردا رفيعا وراح يعمل على أسنانها. نفضت عنها سنين من العمر أمام عينى إينمان. زجرت امرأة جوادا كميتا ضخما ودفعته إلى جذع شجرة سندر ثم جذبته بقوة وصبت زيت المصباح على أعلا حافره وأشعلت النار فيه لتكبح ميله إلى العرج. وخلال القطيع كله كانت يرقانات ذباب الخيل وأورام العراقيب التى تسبب العرج والانتفاخات البارزة تعالج أو تُستر.

كان إينمان قد تعامل مع الغجر قبل ذلك ورأى أنهم يتمتعون بأمانة مرهفة فى علاقتهم النهابة مع باقى البشر، اعترافهم الصريح ببحثهم الدائب عن فرصة ينتهزونها. لكنهم بدوا بلا خبث فى هذا المنحنى الهادئ من النهر. لم يكن يعنيهم كيف تنتهى الحرب. فأيا ما كان الجانب المنتصر، فسوف يظل الناس بحاجة إلى الخيل. لم يكن النزاع بالنسبة لهم يعدوا أن يكون عائقا مؤقتا لأعمالهم.

مكث إينمان مع الغجر بقية اليوم. أخذ مغرفة من وعاء اليخنى كلما شعر بالجوع. نام لبعض الوقت وأصغى إلى عازف الكمان وراح يراقب المرأة التى تكشف الطالع عن طريق قراءة نسق الأوراق فى قدح من شاى الأعشاب، لكنه رفض عرضها لقراءة مستقبله لأنه حسب أن لديه كل مايحتاجه من تثبيط الهمة.

وفى أواخر عصر ذلك اليوم راح يراقب امرأة سوداء الشعر وهى تسير بين الخيول وتضع لجاما على فرس شهباء اللون. كانت شابة ترتدى سترة رجل من أشغال الحياكة الصوفية فوق قميص طويل أسود وكانت بالقدر الذى يمكن أن

تصل إليه النساء من الفتنة. ذكَّره شىء ما فى سواد شعرها أو الطريقة التى تتحرك بها أو نحافة أصابعها بإيدا لوقت قصير. جلس وحدق فيها وهى تمسك بأطراف تنورتها الطويلة وقميصها الداخلى وتقبض عليها بأسنانها قبل أن تمتطى الفرس منفرجة الساقين. كانت ساقاها عريانتين حتى الفخذ. وجهت الفرس نحو شاطئ النهر وعبرت عند مكان عميق حتى أن الحصان فقد موطئ حوافره وسبح بضربة أو ضربتين. بذل جهدا كبيرا وهو يصعد الشاطئ البعيد، ويحرك ردفيه بشدة. سال الماء من على ظهره وجانبيه وابتلت المرأة حتى ردفيها. كانت تميل إلى الأمام من أجل التوازن ووجهها يكاد يستند على رقبة الحصان، وقد تهدل شعرها على معرفته السوداء حتى أنك لا تستطيع أن تميز الواحد عن الآخر.. عندما وصلا إلى الأرض المستوية لكزت جانبى الفرس بكعبيها وركضا خلال الغابات المكشوفة. كان بالنسبة لإينمان منظرا مثيرا، رؤية تثير الشعور بالسعادة إلى حد أنه كان ممتنا لإتاحة هذه الرؤية له.

وحين لاح الشفق نَحَت بعض الصبية الغجر الصغار قوارب خفيفة من فروع أشجار السندر التى تنمو عند النهر وذهبوا إلى بركة راكدة واصطادوا برمح صيد سمك ضفادع حتى أصبح لديهم ملء سلة.. قطّعوا أرجلها وشبكوها فى عصى رفيعة لشيها فوق نار من جمرات شجرة الجوز الأمريكية. وبينما كان لحم الضفادع يطهى، جاء رجل إلى إينمان ومعه قنينة شراب زعم أنه حصل عليها من التجارة. لم يكن الرجل متأكدا كلية من طبيعة ما حصل عليه، لكنه يعرف أنه يريد بيعها بدولار. ولذا فإن إينمان عدَّ بعض النقود. ألف لنفسه طبق عشاء من أرجل الضفادع وجزء من النبيذ. ووجد الاثنين متوافقين، لكنهما، بعد أن أتى عليهما، لم يكونا عشاء حقيقيا لواحد جائع كما كان هو.

تجول فى أرجاء المخيم باحثا عن طعام آخر وشق طريقه فى آخر الأمر إلى شاحنة المشتغلين بالاستعراض. عرض روائى. جاء رجل أبيض من مجلسه قرب خيمتهم وتحدث إلى إينمان واستفسر منه عما يريد. كان الرجل طويلا ونحيلا ويبدو عليه كبر السن، لأن الجلد تحت عينيه كان شاحبا ذا جيوب وشعره مصبوغا بلون أسود. كان يبدو عليه أنه يدير المكان. سأله إينمان إن كان يستطيع أن يشترى وجبة، وقال الرجل أنه يحسب أن هذا ممكن، ولكنهم لم يكونوا ليأكلوا حتى وقت متاخر جدا فعليهم أن يتدربوا على نمرتهم مادام هناك ضوء. وإن إينمان يستطيع أن يجلس ويشاهد على الرحب والسعة.

وبعد برهة خرجت المرأة ذات الشعر الأسود، التى رآها من قبل، من الخيمة. لم يستطع إينمان أن يحول عينيه عنها. راح يتفحص مظهرها وهى بجوار الرجل، محاولا أن يخمن القوى التى تسرى بينهما.. خمن أولا أنهما متزوجان ثم خمن العكس. أقام الاثنان حاجزا وقفت أمامه المرأة وراح الرجل يقذف سكاكين نحوها حتى أن الأنصال أخطأتها بالكاد وأحدثت ارتجاجات فى الألواح الخشبية. بدا ذلك لإينمان كافيا لأن يجتذب حشدا من الناس، لكنهما كان لديهما أيضا رجل حبشى ذو لحية شيباء له مظهر ملكى يرتدى ثيابا فضفاضة أرجوانية وقُدِّم على أنه فى شبابه كان ملك أفريقيا. عزف على آلة تشبه آلة البانجو، وكان بإمكانه أن يجعل ميتا يرقص تقريبا، على الرغم من أن آلته مصنوعة من لا شىء سوى يقطينة مجوفة مجففة ولها مجرد وتر واحد. كانت الفرقة تضم أيضا مجموعة من الهنود من أشكال متعددة، هنديا سيمينوليا من فلوريدا، وهنديا من كريك، وشيروكيا من اينشوتا، وامرأة من ياماسى. كان دورهم فى العرض أن يقولوا نكاتا وأن يقرعوا الطبول ويرقصوا ويغنوا. كانت عربة الشحن التى يسافرون بها محملة بقنينات أدوية صغيرة ملونة ومزركشة، كل واحدة منها مختصة بعلاج أحد الأمراض: السرطان والسل وأمراض الجهاز العصبى والملاريا والشلل والنوبة المرضية ونوبات الصرع والضعف العام.

وبعد أن حل الظلام، طلبوا من إينمان أن ينضم إليهم لتناول العشاء، وجلسوا جميعا على الأرض بجوار النار وتناولوا شرائح كبيرة تدمى من لحم البقر وصينية بطاطس مقلية فى دهن الخنزير وخضراوات برية متبلة بما لم تمتصه البطاطس من دهن الخنزير. انضم الحبشى والهنود للوجبة كما لو كانوا جميعا من لون واحد ومتساوين. تناوبوا الأدوار فى الكلام، ولم يطلب أحد الإذن بالكلام أو أعطى له الإذن.

وعندما انتهوا من الطعام ذهبوا وجلسوا القرفصاء بجوار الماء، وكل منهم يجلو طبقه برمل النهر. ثم ألقى الرجل الأبيض بعصى على جمر نار الطهو ليذكيها دون نظر إلى الاقتصاد فى الخشب حتى ارتفع اللهب إلى مستوى الكتف. مرر القائمون على الاستعراض زجاجة بينهم وجلسوا يحكون حكايات

لإينمـان عن سـفرياتهم التى لا تنتـهى. قـالـوا إن الطريق مكان مـتـفـرد، بلد قـائم بذاته لا تـحكمـه حكومـة بل يـحكمـه القـانون الطبـيـعى. وخـاصـتـه الوحـيـدة هى الحرية. كانت حكاياتهم عن إفلاسـهم وعن الثمـار التى تسقطها الرياح، ألعاب الورق ومزادات الخـيـول وانتشـار الـحـمقى المدهش. مـآزق متنوعة مع القـانون، كوارث تجنبوها بشق الأنفس، بلهاء ظفروا بهم فى التجارة، حكمـاء التقوا بهم على الطريق وحكمتهم المتضاربة فى أغلب الأحيان. ذكّر كل منهم الآخر بأماكن مخيمات معينة وبوجبات تناولوها فيهـا، وتوصلوا إلى إجمـاع على أن أروع كل هذه الأماكن كان مكانا جاءوا إليه منذ بضع سنوات فى الماضى حيث كان هناك نهر عظيم الحجم يتدفق من قـاع واجـهـة صـخـرة، واتفـقـوا أيضـا علـى أنهم لم يأكلوا دجاجا مقليا أفضل من ذلك الذى طهوه فى ظل تلك الصخرة.

وبعد برهـة لم يستطع إينمـان أن يولى كثيـرا من الاهتمام سوى بكم كانت المرأة تبدو جميلة فى ضوء النار، والطريقة التى أضـاءت بها شـعرها ونعومة بشرتها. ثم قال الرجل الأبيض عند نقطة ما شيئا غريبا. قال إن العالم يومـا ما سيكون منظما بحيث إذا استخدم رجل كلمة عبد فسوف تكون كلمة استعارية فحسب.

وفى وقت ما فى جوف الليل، تناول إينمان مخلاتيه وذهب إلى الغابات فيما وراء المخيم ونشر فراشـه على مدى سمع موسيقى الغجر ورنين أصـواتهم. حاول أن ينام، لكنه تقلب فقط على الأرض. أضاء شمعة وصب ما بقى من النبيذ فى قدحه الصفيحى وأخذ لفة برترام من مخلاته وقرأ وأعاد قراءة الجملة التى وقعت عليها عينه كانت تدور حول نبات لا اسم له شبيه، فى حدود ما أمكنه تبينه، بالوردية:

> تنمو هذه الشجيرة فى أدغال أو غيضات صغيرة، فى الأماكن المكشوفة العالية حيث تزرع الأشجار ذات النمو الكبير بشكل متفرق؛ وترتفع سيقان بسيطة كثيرة معا من جذر أو مصدر منتصبة بارتفاع أربعة، خمسة وستة أقدام؛ وفروعها أو أغصانها، التى تنتج بالقرب من أعلا السيقان، تقف هى أيضا منتصبة تقريبا، متباعدة على نحو خفيف عن السيقان الرئيسية، التى تزود بأوراق متوسطة الحجم بيضاوية الشكل مدببة ذات لون شاحب أو أخضر يميل للأصفر؛ وهذه الأوراق ذات نسيج

متماسك مضغوط، وكلا السطحين أملس لامع، وتقف منتصبة تقريبا على مِعْلاقات قصيرة، وتنتهى الأغصان بعناقيد زهرية أو سنابل من الأزهار البيضاء، لها خمس شرائح طويلة وضيقة.

شغل إينمان نفسه بشكل ممتع بعض الوقت بهذه الجملة الطويلة. قرأها أولا حتى استقرت كل كلمة فى رأسه بثقل محدد خاص بها، فلو لم يفعل لانزلق انتباهه على عبارات بحيث لا تترك أى آثار. وعندما أنجز ذلك، ركز البيئة المحيطة فى عقله، وهو يزودها بكل التفاصيل التى تنقص غابة مكشوفة عالية: أنواع الأشجار التى يمكن أن تنمو هناك، الطيور التى تتردد على فروعها، نباتات السرخس التى تنمو تحتها. وعندما أمكنه أن يقبض على تلك الصورة واضحة وثابتة، شرع ينشئ الشجيرة فى عقله، ويشكل كل تفصيلاتها حتى قامت فى عقله مفعمة بالحيوية قدر استطاعته. رغم أنها لم تتوافق بحال من الأحوال مع أى نبات معروف وكانت فى ملامحها المتعددة خيالية تماما.

أطفأ شمعته ولف نفسه فى فراشه ورشف آخر نبيذه استعدادا للنوم، لكن عقله راح يدور حول المرأة ذات الشعر الأسود وحول المرأة التى تدعى لورا ونعومة فخذيها على ذراعيه وهو يحملها. ثم فكر فى إيدا وعيد الميلاد منذ أربع سنوات مضت، فقد كان هناك شمبانيا أيضا. اسند رأسه إلى لحاء الشجرة وجرع جرعة طويلة من النبيذ وتذكر ببعض الدقة ملمس إيدا وهى تجلس على حجره فى ركن الموقد.

بدا الأمر حياة أخرى، عالما آخر. تذكر ثقلها على رجليه، نعومتها، ومع ذلك تزوى عظامها من تحت. كانت قد مالت إلى الخلف وأراحت رأسها على كتفه، وفاح من شعرها رائحة الخزامة ورائحتها. ثم اعتدل فى جلسته ووضع يديه على طرفى كتفيها وشعر ببطانة عضلاتها ومفصلى الكتفين البارزين تحت الجلد. وجذبها إليه وأراد أن يطوقها بذراعيه وأن يضمها بإحكام، لكنها نفخت هواء من شفتيها المزمومتين ووقفت وراحت تسوى تجعيدات تنورة ثوبها ومدت يدها إلى أعلى لتمسد عقصات شعرها التى تفككت عند صدغيها. واستدارت ونظرت إليه.

قالت: حسنا. حسنا.

كان إينمان قد مال إلى الأمام، وتناول يدها وحك ظاهرها بإبهامه. وتحركت العظام الرقيقة التى تمتد من الرسغ حتى مفاصل الأصابع تحت ضغط إبهامه مثل مفاتيح بيانو. ثم قلب يدها وفرد الأصابع حين حاولت أن تجذبها فى شكل قبضة. وضع شفتيه على رسغها حيث تلتف العروق زرقاء زرقة الإردواز. سحبت إيدا يدها ببطء ثم وقفت تنظر إلى كفها شاردة الذهن.

قال إينمان، ليس هناك أى أنباء مكتوبة عليها. ليست هناك أى أخبار يمكننا قراءتها.

كانت إيدا قد أنزلت يدها وقالت: كان ذلك غير متوقع. ثم انصرفت.

وعندما ترك إينمان الذكرى تمضى فى حال سبيلها أخيرا ونام، حلم حلما مشرقا مثل إشراقة النهار الحقيقى. فى ذلك الحلم كان يرقد، مثلما يفعل فى العالم العادى، فى غابة من الأخشاب الصلبة، وفروعها متعبة بشكل واضح من صيف من النماء على بعد مجرد أسابيع من اللون والخريف. وكانت هناك شجيرات مختلطة مع الأشجار تخيلها من قراءته لبرترام. كانت مغطاة بأزهار كبيرة مهلوسة، مدببة الشكل. وفى عالم الحلم، تسرب مطر دقيق من خلال الأوراق الكثيفة وتحرك بطول الأرض فى ستائر شفيفة إلى حد أنها لم تبلل ملابسه. ظهرت إيدا بين جذوع الأشجار وتحركت بنفس سرعة تقدم المطر باتجاهه. كانت ترتدى ثوبا أبيض ملتفة بقماش أسود حول الكتفين والرأس، لكنه عرفها من عينيها ومن الطريقة التى تمشى بها.

ونهض من رقدته على الأرض، وعلى الرغم من أنه كان يحيره كيف اتفق أن تكون هناك، فإنه تملكه حنين إلى ضمها وذهب ليفعل ذلك، ولكن لثلاث مرات حين مد ذراعيه إليها تحولت ضبابا بينا، مبهما وخفاقا ورماديا. وفى المرة الرابعة. رغم ذلك، وقفت ثابتة وحقيقية وضمها بشدة. قال، كنت آتيا من أجلك على طريق وعر. ولن أدعك تذهبين أبدا. أبدا.

نظرت إليه ونزعت اللفافة من حول رأسها وبدت من النظرة التى ارتسمت على وجهها أنها توافق، رغم أنها لم تنبس بكلمة واحدة.

استيقظ إينمان من نومه على صداح طيور الصباح. وما كانت رؤياه لإيدا لتخفف قبضتها على عقله، لا و لا كان هو يتمنى ذلك. نهض وعلى العشب ندى كثيف والشمس قد قامت بالفعل على قمم الأشجار. مشى خلال الغابات إلى المخيم، لكن الجميع كانوا قد رحلوا. كانت النار قد خبت حيث كانت عربة شحن الأدوية. لم يكن هناك ما يدل على أن أهل الاستعراض كانوا حقيقة سوى دائرة النار الكبيرة السوداء ومجموعة من الخطوط المتوازية فى التراب بفعل إطارات عربتهم. شعر إينمان بالأسف لأنه لم يودعهم، لكنه سار طوال اليوم بروح مشرقة من الحلم الذى وهب له فى الليلة الظلماء.

رماد ورد

ذات أصيل دافئ، كانت روبى وإيدا تعملان فى الحقل التحتانى، الذى خصصته روبى للحديقة الشتوية. كان ذلك النوع من الأيام التى كان عشب القهوة الضار قد نما فيها بحيث بلغ طوله سبع أقدام وتفتحت رءوس أزهاره المعدنية الخريفية فجأة وراحت تلمع فى الشمس، تبدو لكل الدنيا مثل صقيع فى باكورة صباح. كانت بمثابة تذكرة كيف يقترب الصقيع الأول الحقيقى بسرعة، على الرغم من أن الشمس لا تزال حارة والبقرة ما زالت تقضى اليوم وهى تتبع ظل شجرة الجوز الكبيرة. وتتحرك عبر المرعى السفلى.

راحت إيدا وروبى تعزقان وتنتزعان الأعشاب من بين صفوف الكرنب واللفت الصغير، والكرنب الذى تنمو أوراقه الخشنة بذؤابات والبصل، ذلك النوع من الطعام الخشن الذى سيعيشون عليه فى أغلب الأحيان أثناء الشتاء. كانتا قد أعدتا الحديقة بعناية قبل ذلك بأسابيع، وهما تحرثان التربة وتلطفانها برماد المدفأة وسباخ من مخزن الحبوب ثم تسلفان الأرض التى تكتل فيها الطين بعد الحرث، وروبى تقود الحصان فى حين تركب إيدا على ذراع الجر لتضيف إليه ثقلا. كانت مسلفة تسوية الأرض بعد حرثها أداة فجة، جمع أجزاءها واحد من آل بلاك من فرع متشعب فى جذع شجرة البلوط. وقد حفرت ثقوب خلال الخشب اللين لطرفى الجذع المنفرشين وانطبقا أحدهما على الآخر بنتوءات

طويلة من السنط الأسود المعالج. وعندما جف خشب البلوط انطبق بشدة حول نتوءات السنط الحادة ولم يكن بحاجة إلى ربط أكثر. وأثناء العمل جلست إيدا عند نقطة التشعب، وقد جمعت كل قوتها بيديها وقدميها بينما كانت المسلفة ترتج عبر الأرض وتفتت كتل التربة المحروثة وتمشطها لتصبح ناعمة بشعب أشواك السنط. راحت تراقب الأرض المقلوبة وهى تمر وانتزعت ثلاث أوراق شبيهة جزئيا برءوس السهام ومكشطة من حجر الصوان وشرك طيور كامل دقيق. وعندما شرعا فى الزرع، أمسكت روبى بحفنة من البذور السوداء الدقيقة. قالت، لا تبدو كثيرة. إن الأمر يتطلب إيمانا حتى تصل من هذا إلى قبو نباتات جذرية ملىء باللفت بعد أسابيع طويلة من الآن. أضيفى إلى ذلك خريفا دافئا، لأننا بدأنا متأخرتين.

كانت المحاصيل تنمو بشكل طيب، وزعمت روبى أن هذا يرجع بشكل كبير إلى أنها قد زرعت، تحت إصرار منها، بتطابق دقيق مع الأمارات. ففى رأى روبى أن كل شىء – وضع أعمدة السياج، صنع قطع الكرنب المخلل، ذبح الخنازير– يخضع لناموس السماوات. كانت قد نصحتها بقطع حطب النار حين يدخل القمر فى المحاق، وإلا فإنه لن يفعل أكثر من أن يقلى ويَهُسّ فى أذنيك فى الشتاء القادم وفى أبريل القادم عندما تكون أوراق شجر الحور فى حجم أذن سنجاب، سوف نزرع الذرة عندما تكون الأمارات مبشرة، وإلا فإن الذرة سوف تذبل وتتدلى. وفى نوفمبر سوف نذبح خنزيرا فى أثناء اكتمال القمر، فإننا إن لم نفعل فإن الدهن وضلوع لحم الخنزير سوف تتقوس فى المقلاة.

كان مونرو ليستبعد مثل هذه المعتقدات بصفتها خرافة، وتراثا شعبيا. لكن إيدا اختارت أن تعتبر الدلالات استعارية، فى توقها المتزايد إلى سعة اطلاع روبى فى الطرائق التى سكنت بها الأشياء الحية هذا المكان المحدد، كانت، فى رأى إيدا، تعبيرا عن مباشرة وظيفة مراقب، وسيلة للعناية، انضباطا.. فهى توفر شعيرة اهتمام باتساق العالم المادى ونزعاته حيث يمكن أن تتقاطع مع عالم آخر ما. وقررت فى نهاية الأمر أن الدلالات كانت وسيلة لليقظة، وأنها تستطيع أن تُجلَّها بتلك الشروط.

عملتا بين النباتات بعض الوقت فى عصر ذلك اليوم. ثم سمعتا صوت عجلات، وحصان، ودلو معدنى يرتطم بخوان له رنينا يملأ الخليج. انعطف

بغلان طاعنان فى السن ثم عربة شحن حول منحنى الطريق وتوقفا بجوار السياج. كانت أرضية العربة ممتلئة بأكوام من أكياس جلدية وصناديق حتى أن الناس جميعا كانوا يسيرون. ذهبت إيدا وروبى إلى السياج ووجدتا مجموعة تتألف من مهاجرين من تنيسى فى سبيلهم إلى كارولينا الجنوبية. وقد تبعوا عددا من المنعطفات الخاطئة على طول النهر، وضلوا الطريق إلى واجون رودجاب، ووصلوا الآن إلى هذا الدرب المسدود. كانت الجماعة تتألف من نساء منهكات ونصف دستة من الأطفال الصغار. وكان يقوم على خدمتهم عبدان طيبان، رجل وامرأته، يحومان حول النساء لصقهن مثل ظلال، على الرغم من أنهما كان يمكنهما بكل سهولة أن يبترا كل رقبة من رقاب العائلة فى أى ليلة وهم نيام.

قالت النساء إن أزواجهن قد رحلوا للقتال، وإنهن يهربن من الاتحاديين فى تنيسى، متجهين إلى كارولينا الجنوبية حيث توجد شقيقة إحدى النساء. طلبن الإذن بالنوم فى مخزن التبن الذى يقع تحت السقف، وبينما كن يعددن عشهن فى التبن انصرفت إيدا وروبى إلى أعمال الطهى. قطعت روبى رقاب ثلاث دجاجات، لأن الفناء كان مليئا الآن بأفراخ الدجاج حتى أنهما أصبح من العسير عليهما أن يسيرا إلى المبنى القائم فوق النبع بدون أن تدوسا واحدة منها، وأصبح عددها وفيرا إلى حد أن باستطاعتهما أن يتوقعا كفاية من الديوك فى أسرع وقت. قطعتا الدجاجات وقليتاها، طهيتا فاصوليا، سلقتا بطاطس، وطهيتا عصيرا على نار هادئة. عملت روبى وصفة بسكويت ثلاثية، وعندما أصبح العشاء جاهزا نادتا على الزوار وأجلستاهم إلى مائدة الطعام. تناول العبدان نفس الطعام، لكنهما أكلا تحت شجرة الكمثرى.

تناول المسافرون طعام العشاء فى وقت طويل نوعا ما، وعندما فرغوا من تناوله، لم يبق إلا جناحان وفخذ على طبق الدجاج، وقد أتوا على أكثر من رطل من الزبد وإبريق به لتر من الذرة البيضاء. قالت إحدى النساء، ياآلهى، لقد كان هذا عشاء طيبا. فقد مضى أسبوعان لم نذق فيهما من الطعام سوى خبز ذرة جاف بدون زبد أو دهن خنزير أو عسل حتى نبلله قليلا. طعام خانق.

قالت إيدا، ما الذى جرى حتى تسافروا؟

قالت المرأة، هجم الاتحاديون علينا ونهبوا حتى الزنوج. أخذوا كل قطعة طعام أمكننا أن نربيها هذا العام. بل لقد رأيت رجلا يملأ جيوب سترته بدهن الخنزير. يغرفه بالحفنة. ثم جردونا من ملابسنا كلية وفتشونا تفتيشا ذاتيا بواسطة اتحادى قالوا لنا إنه امرأة فى زى عسكرى. لكنه لم يكن. فقد كان له تفاحة آدم. أخذ منا كل قطعة مجوهرات كنا قد أخفيناها. ثم أضرموا النار فى بيتنا فى المطر وانصرفوا. باختصار لم يبق إلا مدخنة تقف حارسا فوق حفرة قبو ممتلئة بماء أسود كريه الرائحة. لم يكن لدينا شىء، لكننا مكثنا فترة قصيرة لحاجتنا إلى الإرادة على الرحيل عن السكن. وفى اليوم الثالث وقفت مع أصغر بناتى ننظر فى قاع تلك الحفرة حيث كان حطام كل شىء لدينا. التقطت شقفة من طبق العشاء وقالت، ماما، أتوقع أننا سرعان ما سنأكل أوراق الشجر. عند ذاك عرفت أن علينا أن نرحل.

قالت امرأة أخرى، تلك طريقة الاتحاديين. فقد أتوا بفكرة جديدة عن الحرب. اجعلوا النساء والأطفال يكفرون عن موت جنودنا.

قالت المرأة الثالثة، هذا هو الزمن الذى يشق القلب حتى يصبح كُعْبُرة مريرة. أنتم أوفر حظا، تعرفين، فى هذا الخليج المختفى.

صحبت إيدا وروبى المسافرين إلى الفراش، وفى صباح اليوم التالى طهيتا كل ما لديهما من بيض تقريبا وصنعتا وعاء من جريش الذرة والبسكويت. وبعد الإفطار رسمتا خريطة للطريق حتى الثغرة ووجهتاهم إلى المرحلة التالية من رحلتهم.

وعند ظهر ذلك اليوم، قالت روبى إنها تريد أن تذهب وتتحقق من بستان التفاح، ولذا اقترحت إيدا أن يتناولا غداءهما هناك. أعدتا نزهة للأكل فى الهواء الطلق من القطع الباقية من دجاج ليلة الأمس المقلى ووعاء صغيرا من سلطة البطاطس خفقت لها روبى المايونيز، وبعض شرائح الخيار بالخل. حملتا الغداء إلى بستان التفاح فى دلو من الخشب وأكلتاه تحت الأشجار على لحاف منشور على الحشائش.

كان أصيلا يسوده ضباب خفيف زاه، وضوء الشمس بلا مصدر ومتناسق. فحصت روبى أشجار التفاح وقررت برصانة أن التفاحات تنضج على نحو يدعو للارتياح. ثم نظرت فجأة إلى إيدا وقالت، اتجهى إلى الشمال. ابتسمت

ابتسامة عريضة بينما كانت إيدا تحسب الاتجاهات الأربعة وهى تتذكر أين تغرب الشمس. كانت مثل هذه الأسئلة عادة اكتسبتها روبى أخيرا. بدا عليها أنها تجد متعة فى إثبات مدى فقدان إيدا للاتجاه فى الدنيا. فبينما كانتا تسيران بجوار الجدول ذات يوم سألتها: ماهو اتجاه ذلك الماء؟ من أين يأتى وإلى أين ينساب؟ وفى يوم آخر قالت، سمى لى أربعة نباتات على جانب ذلك التل يمكنك أن تأكليها عند الضرورة. كم بقى من الأيام على ظهور القمر التالى؟ سمى لى شيئين مزدهرين الآن وشيئين مثمرين.

لم يكن لدى إيدا بعد تلك الإجابات، لكن باستطاعتها أن تراها آتية، وكانت روبى هى نصها الأساسى. وأثناء جولات العمل اليومية، سرعان ما لاحظت إيدا أن مأثورات روبى الشعبية كانت تتضمن الكثير من عدم القابلية للتنفيذ فيما وراء زراعة المحاصيل. ففيما يبدو كانت أسماء الأشياء غير المجدية - سواء كانت حيوانية أو نباتية - وعادات حياتهما تشغل الكثير من تفكير روبى، لأنها كانت تشير على الدوام إلى المخلوقات الصغيرة التى تشغل أركانا منعزلة من العالم. كان عقلها يلاحظ كل حشرة شبيهة بالجراد فى موقع للعشبة المهلهلة، الحشرات التى تثقب قولحات الذرة فى الخيام الصغيرة التى حصلوا عليها من طيات أوراق نبات الصقلاب، حيوانات السمندر المخططة والمنقطة بوجوهها الودودة المبتسمة تحت صخور فى الخليج. كانت روبى تلاحظ النباتات المشعرة العليلة سامة المظهر والفطريات التى تنمو على لحاء الأشجار المحتضرة المبلل، كل اليرقانات والحشرات والديدان التى تعيش منفردة داخل غلاف من عصى أو جريش أو أوراق. كل حياة وراءها قصة. كل إشارة صغيرة تأتى بها الطبيعة لتوحى بعقل يحدد حياتها فى حدود ذاتها كانت تستوقف انتباه روبى.

ولذا، بينما كانتا تجلسان على اللحاف، نعسانتين وممتلئتين من الغداء، فإن إيدا أخبرت روبى أنها تحسدها على معرفتها بكيف تمضى الحياة. الزراعة، الطهو، والمأثورات التقليدية العشوائية. سألتها إيدا: كيف توصلت إلى معرفة مثل هذه الأشياء؟

قالت إيدا إنها تعلمت القليل مما تعرفه بالطريقة المعتادة. الكثير منها جاء من معرفة الجدات التى حصلت عليها من التجوال فى أرجاء المستوطنة وهى تحادث أى عجوز تود تبادل أطراف الحديث، وهى تراقبهن وهن يعملن وتسأل

أسئلة. وبعضها جاء من سالى سوانجر، التى تعرف، كما زعمت روبى، كثيرا جدا من الأشياء الصامته مثل أسماء كل النباتات حتى أبسط الأعشاب. زعمت رغم ذلك، أنها توصلت بعد طول تفكير إلى كيف يعمل منطق العالم. كان الأمر فى أغلب الأحيان مسألة يقظة.

قالت روبى، تبدئين بمحاولة رؤية ماذا يجب، ماذا. وهو ما فسرته إيدا بأنه يعنى، لاحظى وافهمى طريقة عمل صلة الأشياء فى الطبيعة.

أشارت روبى إلى طرطشة لون على جانب حافة التل الأخضر وقالت: سماق وقرانيا تبدل ألوانها مقدما بالنسبة لأشجار أخرى. لماذا تفعل ذلك قبل الأوان بشهر تقريبا؟

قالت إيدا، المصادفة؟

أتت روبى بصوت ضئيل مثل بصق ذرة تراب أو هاموشة من على طرف لسانها. كان رأيها أن الناس يحبون أن يدعوا أى شىء لا يستطيعون سبرغوره وشأنه على أنه شىء عشوائى. وهى ترى الأمر على نحو آخر. فكل من السماق والقرانيا كان مليئا بالتوت الناضج فى ذلك الوقت من السنة. والسؤال الذى يجب على المرء أن يطرحه هو، أى شىء آخر يحدث يمكن أن يكون له علاقة بالموضوع؟ إن أحد الأشياء هو، الطيور التى تتحرك. كانت تلقى نظرة طوال النهار وطوال الليل أيضا. لم يكن عليك سوى أن تنظرى إلى أعلى لتعرفى ذلك. ما يكفى لأن يزوغ منك بصرك. ثم فكرى فى الوقوف على مكان مرتفع مثل الصخرة العالية وأنت تنظرين إلى أسفل إلى الأشجار مثلما تراها الطيور. ثم تساءلى كيف تبدو كل الأشجار خضراء ومتشابهة. الواحدة منها تشبه الأخرى تماما، سواء كانت تكفل وجبة أم لا. ذلك ما تراه كل الطيور المتجولة. إنها لا تعرف هذه الغابات. إنها لا تعرف أين تعيش شجرة معينة تحمل غذاء. وكان الاستنتاج الذى توصلت إليه روبى هو، ربما تغير القرانيا والسماق لونهما إلى اللون الأحمر لتقول لكل الطيور الغريبة الجائعة كلى.

قالت إيدا: يبدو أنك تفترضين أن للقرانيا خطة فى هذا.

قالت روبى: حسنا، ربما تفعل ذلك.

سألت إن كانت إيدا قد أمعنت النظر أبدا فى الوسخ الذى تحدثه الطيور من كل نوع- روثها.

قالت إيدا: بالكاد.

قالت روبى: لا تتصرفى بهذا الكبرياء فى هذا الشأن. وفى رأيها أن الإجابة عن هذه المسألة المطروحة تكمن فى هذا. أن كل شجرة قرانيا صغيرة لا يمكنها أن تنمو حيث تسقط تحت شجرة قرانيا كبيرة. فلأنها ثابتة فى مكانها، فإنها تستخدم الطيور لتتحرك فى أرجاء المكان إلى أرض واعدة أكثر. إن الطيور تأكل التوت، والبذور تخرج كاملة غير معيبة، جاهزة للنمو حيث تسقط، وقد اكتست بالسباخ سلفا. وكان رأى روبى أنه لو حاول شخص إعمال فكره لحل هذا اللغز على امتداد الزمن، فربما وجد فيه درسا ما، لأن الكثير من الخلق يعمل بهذه الطريقة للوصول إلى مثل هذه الغايات.

جلستا صامتتين فترة قصيرة، ثم استلقت روبى فى الهواء، الساكن الدافئ عند العصر وغفت على اللحاف. كانت إيدا متعبة أيضا، لكنها قاومت النوم مثل طفلة عند وقت النوم. نهضت وتجولت فيما وراء البستان إلى طرف الغابات حيث بدأت زهور الخريف الطويلة – عصا الذهب وعشبة الحديد وعشبة القهوة – فى الازهار بألوان صفراء وسوداء ورمادية بلون الحديد. كانت الفراشات الضخمة والطيور الخطافية الذيل تعمل بين رءوس الأزهار. كانت ثلاث عصافير دورية تتوازن على قصبات التوت الأسود، وقد تحول لون الأوراق إلى اللون الأحمر الداكن. ثم طارت بعيدا، متماوجة قريبا من الأرض، وظهورها الصفراء تومض بين أجنحتها السوداء حتى اختفت فى أجمة من شجر القرنوس والسماق فى البقعة الفاصلة بين الحقل والغابات.

وقفت إيدا ساكنة وعيناها غير مركزتين، وبينما هى كذلك، تنبهت إلى التحركات النشيطة لعدد وافر من المخلوقات الصغيرة وهى تتذبذب خلال كل الزهور المحتشدة، على طول السيقان حتى تصل إلى الأرض. حشرات تطير، تزحف، تصعد، تأكل. كان تكديسها للطاقة نوعا من الاهتزاز النيِّر للحياة الذى ملأ رؤيا إيدا غير الموجهة حتى الحواف تماما.

وقفت هناك، جانب منها منبهر انبهارا بليدا، وجانب منها يقظ، يفكر فيما قالته النساء المهاجرات عن حظ إيدا الوفير فى يوم كهذا، رغم الحرب التى تلوح

فى الأفق وكل العمل الذى تعرف أن الخليج يتطلبه منها، فإنها كان بإمكانها أن ترى كيف يمكنها أن تصلح عالمها. بدا لها رائعا إلى درجة أنها داخلها الشك فى إمكان عمله.

بعد العشاء فى ذلك المساء، جلست إيدا وروبى فى الشرفة، وإيدا تقرأ بصوت مرتفع. كانتا قد فرغتا من هوميروس. فقد نفد صبر روبى من بنيلوبى، لكنها كانت تجلس أمسية طويلة وتضحك وتضحك على مِحَن أوديسيوس، على كل الأحجار التى ألقت بها الآلهة فى طريقه. كانت تشك، رغم ذلك، فى أن هناك فى أوديسيوس من ستوبرود أكثر مما كان هوميروس العجوز راغبا فى إفشائه، ووجدت أن الأعذار التى التمسها لتمديد رحلته كانت مشكوكا فى أمرها للغاية، وهو رأى يؤيده فحسب الفقرة الحالية التى كانت الشخصيات محبوسة فيها فى كوخ راعى الخنازير وهم يشربون ويحكون حكايات. وصلت إلى استنتاج أنه، جملة وتفصيلا، لم يتغير الكثير فى طرائق الأشياء رغم مرور حجم هائل من الزمن.

عندما شرع الضوء يخفت، وضعت إيدا الكتاب جانبا. جلست وراحت تتفحص السماء. أعاد شىء ما فى لون الضوء أو رائحة الليل الآتى إلى ذاكرتها حفلا حضرته فى رحلة عودتها الأخيرة إلى تشارلستون قبل سمتر، وحكت حكايته لروبى.

أقيم الحفل فى بيت ابنة عمها، وهو بيت فخم يقع على منحنى عريض لنهر واندو، ودام الحفل ثلاثة أيام. وطوال مدته، كانوا جميعا ينامون فقط من الفجر حتى الضحى وعاشوا على الكفاف ما عدا المحارات والشمبانيا والفطائر الحلوة. وكل مساء كان موسيقى ورقصا، ثم يخرجون فى آخر الليالى، تحت قمر يكتمل، فى قوارب تجديف على المياه البطيئة. كان زمن حمى الحرب غريب، وحتى الشبان الذين كانوا يعتبرون قبل ذلك بليدى الفهم وغير جذابين اكتسبوا فجأة هالة من الفتنة تتلألأ حولهم، لأنهم خامرهم شعور بأن الكثير منهم سوف يموتون بعد وقت قصير. وخلال تلك الأيام القصيرة، كان أى رجل يصبح حبيباً لشخص آخر إذا شاء.

وفى الليلة الأخيرة للحفل، كانت إيدا قد ارتدت ثوبا بنفسجيا زاهيا بدانتيلا مصبوغة بنفس اللون. وكان مونرو قد اشترى ثوب القماش كله الذى صنع منه

الثوب حتى لا ترتدى أى فتاة أخرى ذلك اللون. أبدى ملاحظة قائلا إنه يبرز شعرها الأسود على خير وجه ويضفى عليها جوا من الغموض بين الألوان الوردية والزرقاء الشاحبة والصفراء الأكثر شيوعا.

وفى تلك الليلة غازل رجل من السهل الذى تنمو فيه الحشائش الخشنة.. أنيق المظهر ولكنه بليد الفهم إلى حد بعيد والابن الثانى لتاجر أصباغ زرقاء ثرى- غازل إيدا بلا كلل حتى وافقت أخيرا على أن تخرج معه فى نزهة على النهر، رغم أن القليل الذى تعرفه عنه جعلها تميل إلى الاعتقاد بأنه مجرد شخص مغرور أحمق.

كان اسم الرجل بلاونت. جدف حتى منتصف نهر واندو وترك القارب ينجرف مع الماء. جلسا متواجهين، وقد جذبت إيدا الثوب البنفسجى بإحكام حول رجليها لتحافظ على حاشيته من القطران الذى يسد شقوق القارب. لم يتكلم أى منهما. وكان بلاونت يزين المجدافين بالريش فوق الحد المقبول، تاركا المياه تقطر منهما فى النهر. بدا عليه أن شيئا يشغل عقله ويتوافق مع صوت الماء وهو ينساب من على المجدافين، لأنه ظل يفعل ذلك حتى أخبرته إيدا أن يتوقف كان بلاونت قد اشترى قنينتين وزجاجة شمبانيا ممتلئة جزئيا مازالت باردة بما يكفى لأن يعرق المرء فى الهواء الثقيل. عرض على إيدا كأسا، لكنها رفضت حصتها، ولذا فإنه أتى على الزجاجة وطوح بها فى النهر. كانت المياه تستلقى ساكنة حتى أن دوائر رشاشها كانت تنداح وتنداح حتى أصبحت أبعد من أن ترى.

كانت الموسيقى المنبعثة من البيت تصلهما عبر الماء ضعيفة إلى حد لا يمكن معه التحديد بدقة أكبر سوى أنها كانت موسيقى فالس. فى الظلام بدت خطوط الشاطئ بعيدة لحد مستحيل. تغيرت الصفات العادية للمنظر الطبيعى بحيث أصبح من الصعب التعرف عليها، وقد تقطرت بحيث أصبحت أجزاء غريبة أقل مما يمكن، بسيطة مثل الهندسة. مستويات ودوائر وخطوط. وقد قام البدر فوق رءوسهم مباشرة، ورطوبة الهواء تُنعِّم قرصه. وكانت السماء تومض مثل الفضة، زاهية حتى أن النجوم لا تبدو فيه. وكان النهر العريض فضيا أيضا، وإن كان أقل لمعانا بشكل طفيف. ارتفع من الماء شبورة الصبح، رغم أن الفجر بعيد بساعات. والخط الفاصل بين النهر والسماء مجرد خط الأشجار الداكنة عند كل من الأفقين.

تكلم بلاونت أخيرا. تكلم لفترة قصيرة عن نفسه. فقد تخرج أخيرا فى جامعة فى كولومبيا وقد بدأ يتعلم لتوه حصة تشارلستون من تجارة الأسرة. لكنه سوف يتجند فورا بطبيعة الحال إذا بدأت الحرب، كما كان كل واحد يتوقع انها ستنشب سريعا.. تكلم بتبجح عن صد أى قوة عقدت عزمها على اخضاع الولايات الجنوبية. كانت إيدا قد سمعت مثل هذه الأفكار تتكرر مرارا على امتداد الحفل وقد تعبت منها.

وبينما كان بلاونت مستمرا فى الكلام، يبدو أنه أصبح، رغم ذلك، غير مقتنع شأنه شأن إيدا، إذ عجز عن مواصلة الحديث عن الحرب وأخلد إلى الصمت. راح يحدق فى قاع القارب الأسود حتى أصبحت إيدا لا تستطيع إلا رؤية قمة رأسه. ثم أقر بلاونت، تحت تأثير الخمر وغرابة الليل، بأنه فَزِعٌ من القتال الذى كان ينتظره بالتأكيد تقريبا. لم يكن واثقا مما إذا كان سيقدر على أن يبلى بلاء حسنا بطريقة تجلب له الفخار. لكنه لم يكن بإمكانه أيضا أى سبيل للهرب لا يجلب العار. وعلاوة على ذلك، فقد عاودته أحلام متكررة بالموت المفزع فى عدة أشكال. كان متأكدا أن أحدها سوف يطالب به يوما ما.

كان يتكلم وهو ينظر إلى أسفل، كما لو كان يخاطب غطاءى حذائه، لكنه عندما أمال وجهه الشاحب بزاوية فى ضوء القمر، لاحظت إيدا مسالك الدموع اللامعة تسيل على وجنتيه. أدركت بدفقة حنان غير متوقعة أن بلاونت لم يكن محاربا لكن كان له قلب صاحب متجر. مدت يدها ولمست يده التى استقرت على ركبتيه. كانت تعلم أن الشىء الذى يليق قوله هو أن الواجب والشرف يتطلبان فعلا شجاعا للدفاع عن الوطن. كانت النساء ينطقن بمثل هذه العبارات طوال الحفل. لكن إيدا وجدت حلقها مسدودا ضد الكلمات. ولافتقارها إليها، كان بإمكانها أن تستخدم أسلوبا أبسط فى الكلام بأن تقول له فقط، لاتقلق، أو، كن شجاعا. لكن مثل هذه الصيغة المريحة بدت لها فى تلك اللحظة زائفة بحيث لا يمكن النطق بها. ولذا لم تقل شيئا واستمرت فقط تربت على ظاهر يده. كانت تأمل فى ألا يظن بلاونت أن أمارة الحنان تعنى أكثر مما تعنيه، إذ أن دافعها الأول حين يلح عليها الرجال هو أن تتوقف وأن ترتد إلى الوراء. ولم يكن قارب التجديف ليفسح مجالا للتقهقر. غير أنها، وهما ينجرفان، داخلها ارتياح حين رأت أن بلاونت كان غارقا فى الخوف من الموت بحيث لا يمكنه مغازلتها. جلسا على هذا النحو بعض الوقت، حتى جرفهما التيار إلى منحنى النهر. اتجه القارب مباشرة إلى الجزء الخارجى من المنحنى، مهددا بأن يرسو على شاطئ

رملى يلمع مثل خط شاحب فى ضوء القمر. تمالك بلاونت نفسه وأمسك بالمجدافين مرة أخرى وأعادهما فى مجرى النهر إلى المرساة.

صحبها إلى شرفة البيت الساطع الإضاءة، وداخله يتوهج بمصابيح أجراند. كانت أطياف خيال الراقصين تعبر النوافذ الصفراء، والموسيقى جلية الآن بما يكفى لتحديدها: أولا موسيقى جونجول ثم موسيقى شتراوس. توقف بلاونت فى مدخل الباب. وضع طرفى أصبعين على ذقن إيدا ورفع وجهها ومال إلى الأمام ليقبل وجنتها. كانت مجرد ضغطة شفتين قصيرة وأخوية. ثم مضى مبتعدا.

تذكرت إيدا الآن أنها بينما كانت تسير عبر البيت لتصعد إلى الدور العلوى، أصيبت بدهشة - عند رؤيتها لهيئة ظهر امرأة فى المرآة. توقفت ونظرت. كان الرداء الذى ترتديه المرأة بلون يقال له رماد الورود، ووقفت إيدا، وقد سمرها فى مكانها وخزة حسد لرداء المرأة وشكل ظهرها الرائع وشعرها الأسود الكثيف والإحساس بالثقة الذى كانت تبديه فى كل وضع تتخذه.

تقدمت إيدا خطوة إلى الأمام، وكذلك فعلت المرأة الأخرى، وأدركت إيدا أنها كانت تبدى إعجابها بنفسها، إذ عكست المرآة صورتها فى مرآة مواجهة لها على الحائط خلفها. وقد تآمر ضوء المصابيح ولون المرآتين على تبديل الألوان، فحولت البنفسجى إلى وردى، لكنها صعدت الدرج إلى غرفتها واستعدت للنوم، لكنها نامت نوما سيئا فى تلك الليلة، لأن الموسيقى استمرت حتى الفجر. وبينما هى راقدة مستيقظة فكرت كم كان غريبا أن تشعر بأنها قد حظيت بموافقتها على ذاتها.

وفى اليوم التالى، بينما كان المحتفلون يركبون مركباتهم لتعود بهم إلى المدينة، قابلت إيدا بشكل غير متوقع بلاونت على الدرج الأمامى. لم يستطع أن يواجه عينيها، وتكلم بشق الأنفس، إذ أنه كان شديد الارتباك من تصرفه فى الليلة السابقة. ورغم ذلك، فإن إيدا رأت أن ما يقف فى صالحه أنه لم يطلب منها أن تبقى ما قد حدث سرا. لم تره مطلقا مرة أخرى، لكنها علمت من خطاب جاءها من ابنة عمها لوسى أن بلاونت قد مات فى جيتسبورج. أصابته طلقة، حسب كل التقارير، فى وجهه أثناء الانسحاب من سيميترى ريدج. كان يسير القهقرى، إذ لم يشأ أن يصاب بطلقة فى الظهر.

عند نهاية الحكاية، لم تتأثر روبى كثيرا بمسعى بلاونت فى سبيل الشرف ولم تستطع إلا أن تعجب لحياة ناس عقيمة إلى حد أن ينشدوا إغفال النوم والتجديف فى النهر من أجل الاستمتاع.

جلستا فترة قصيرة، تراقبان الضوء وهو يتلاشى والتفاصيل تختفى من الأشجار عند الحواف. ثم نهضت روبى وقالت، حان وقت عملى الليلى. كانت تلك طريقتها المعتادة لقول تصبحين على خير. ذهبت لتلقى نظرة أخيرة على الحيوانات، وتفحص الأبواب فى المبانى الملحقة، ولتضيف وقودا إلى موقد المطبخ حتى يشتعل فترة أطول.

وفى تلك الأثناء، ظلت إيدا فى الشرفة، والكتاب ما زال فى حجرها، وهى تنظر عبر الفناء وإلى مخزن الغلال إلى أعلى صوب السماء التى تظلم. فيما وراء الحقول إلى المنحدرات المغطاة بالغابات. كانت الألوان التى ذكرتها بتشارلستون قد خفتت. كل شىء ينحدر نحو السكون. لكن أفكارها، فيما يبدو، كانت عاكفة على أن تنطوى على نفسها، لأنها تذكرت أنها ومونرو قد جلسا هكذا ذات ليلة بعد أن انتقلوا إلى الخليج بالضبط. بدت عناصر المنظر هذه المألوفة الآن غريبة على كليهما. كان هذا البلد الجبلى مظلما للغاية ويميل إلى أن يكون رأسيا بالمقارنة إلى تشارلستون. وقد علق مونرو قائلا: إن ملامح هذه الطبوغرافيا الرائعة، شأن كل العناصر الطبيعية، هى ببساطة أمارات على عالم ما آخر، حياة أكثر عمقا لها وجود كامل آخر، علينا أن نوجه إليه كل توقنا. ووافقته إيدا الرأى عندئذ.

لكنها الآن، وهى تمسح المنظر بعينيها، كان من رأيها أن ما تراه لم يكن أمارة بل كان كل الحياة الكائنة. كان وضعا متعارضا فى أغلب نواحيه مع وضع مونرو، ورغم ذلك، فإنه لم يشطب مذهبه الخاص به فيما يتعلق بالتوق العارم، رغم أن إيدا لم يكن بإمكانها أن تجد له اسما.

عبرت روبى الفناء وتوقفت عند البوابة. قالت، إن البقرة بحاجة إلى الذبح. ثم، وبدون أى تحية أخرى، واصلت سيرها فى الطريق باتجاه كوخها.

غادرت إيدا الشرفة وسارت مارة بمخزن الغلال إلى المرعى. كانت الشمس قد اختفت من فترة طويلة تحت سلسلة حواف الجبل، والضوء يتلاشى بسرعة. كانت الجبال تقوم رمادية فى الغسق، شاحبة وواهية مثل نَفَسٍ يُنفخ على زجاج. بدا المكان مسكونا بقوة هائلة من الوحشة. حتى كبار السن كانوا يتكلمون عن العبء الذى يثقل كاهل الشخص وهو وحده فى عزلته فى الجبال فى ذلك الوقت من اليوم، أسوأ حتى من الظلام الدامس فى ليلة بلا قمر، لأن ما يحمله الظلام من تهديد نحس بوطأته بكل قوة فى وقت الغسق. كانت إيدا قد أحست بتلك

القوة منذ البداية واشتكت منها. تذكرت أن مونرو قد حاول أن يدلل على أن الإحساس بالعزلة لا ينبع من هذه الأرض بالذات كما زعمت. لم يكن شيئا فريدا خاصا بها أو بالمكان لكنه كان عنصرا من عناصر الحياة العامة. وأن العقل البسيط أو العقل الغليظ قد لا يشعر به، على نفس النحو الذى تكون به بعض البنيات الجسدية عديمة الإحساس بالحرارة أو البرودة. كان لدى مونرو تفسير، شأنه فى معظم الأمور. قال إن الناس فى أعماق قلوبهم يشعرون بأن الله كان فى كل مكان طول الوقت منذ زمن بعيد، وأن الشعور بالوحدة هو ما يملأ الفراغ عندما يتراجع الله درجة واحدة أبعد.

كان الهواء باردا. وقد حط الندى على العشب بالفعل، وهدب رداء إيدا مبتلة عندما وصلت إلى البقرة والدو، التى كانت مستلقية فى الحشائش الطويلة بحذاء السياج السفلى. نهضت البقرة، ومفاصل فخذيها متيبسة، واتجهت إلى البوابة. خطت إيدا فى مستطيل الحشائش، الشكل الذى فلطحته والدو. شعرت بحرارة البقرة ترتفع من الأرض حول رجليها، وأرادت أن تستلقى هناك وتستريح، وقد فاجأها التعب بسبب غير قابل للتعليل كما لو كان من تراكم شهر من العمل. وبدلا من ذلك، انحنت فترة قصيرة وأعملت يديها تحت الحشائش وفى التراب الذى كان لايزال دافئا مثل شىء حى من حرارة اليوم وجسم البقرة.

نعبت بومة من الأشجار التى تقع وراء الجدول. عدَّت إيدا إيقاع العبارة ذات الخفقات الخمس كما لو كانت تُقطِّع بيتا من الشعر، مقطع طويل، مقطع قصير، مقطعان طويلان. كان الناس يقولون عن البومة إنها طائر الموت، رغم أن إيدا لم تستطع أن تجد أى سبب لهذا. كان النداء ناعما وفاتنا فى الضوء الأردوازى، مثل هديل حمامة وإن كان به مادة أكثر وفرة. خارت البقرة عند البوابة نافدة الصبر، وهى بحاجة - مثلما كان الكثير من الأشياء فى الخليج - إلى ما كانت إيدا تتعلم أن تفعله، ولذا فإنها سحبت يديها من الأرض ووقفت.

منفى وتجوال وحشى

سار إينمان أياما فى جو رطيب وسماوات زرقاء وشوارع خالية. كان مساره بالضرورة متهاويا إذ ينشد تجنب الجبال المستدقه القمم والبلدات، لكن السبيل الذى وجده خلال الريف العميق والمزارع المتباعدة بدا له أمنا. قابل قليلا من الناس وهؤلاء أساسا عبيد. كانت الليالى دافئة ينيرها ضوء القمر وهو يكتمل بدرا ثم يصل إلى الاكتمال ثم يتناقص. وكان هناك فى أغلب الأحيان أكوام تبن للنوم حتى يستطيع أن يستلقى على ظهره وأن ينظر إلى القمر والنجوم، وأن يتخيل لبعض الوقت أنه متشرد حر طليق لا يخشى شيئا فى الخلق كله.

امتزجت الليالى معا بلا أحداث، على الرغم من أنه حاول أن يسجل فى عقله علامة مميزة من كل ليلة منها. تذكر يوما واحدا فحسب يتألف من مسار خشن المنظر. كان هناك كثير من المنحنيات فى الطريق، كلها لا تحمل لافتات أو تتوهج حتى أنه كان مضطرا إلى السؤال عن الطريق مرارا وتكرارا. وصل أولا إلى بيت مبنى فى ثنية طريقين بالضبط، طريقين متلاصقين إلى حد أن الشرفة تسد الممر. كانت هناك امرأة تجلس مستريحة فى كرسى مستقيم الظهر وساقاها منفرجتان، وهى تمضغ شفتها السفلى وتبدو عيناها مركزتين على حدث ما عظيم وغير محدد عند الأفق. وحيث تداخلت تنورتها فى حجرها كان هناك غدير من الظل.

قال إينمان: هل هذا هو السبيل إلى ساليزبرى؟

كانت المرأة تجلس ويداها المتعقدتان مضمومتان فى قبضتين على ركبتيها. ولأنها منكبة، فيما يبدو، على التدرب على عدم الإسراف فى ايماءاتها، فإنها بالكاد قلبت إبهامها الأيمن وهى تجيب. ربما كانت إيماءتها لا شىء أكثر من تكة عصبية. ولم يتحرك ملمح آخر فيها، لكن إينمان واصل سيره فى الاتجاه الذى أوحت به.

وبعد وقت قصير صادف رجلا أشيب الشعر يجلس فى ظل شجرة صمغ عطر. كان الرجل يرتدى صدرية بديعة من الحرير الأصفر بلا قميص تحتها، كانت غير مزررة ومفتوحة حتى أن حلمتى ثدييه تتدليان مثل حلمتى ثدى خنزيرة. كانت رجلاه ممدودتين أمامه مستقيمتين وهو يمسح بكفه فخذا كما لو كان كلبا أثيرا وسيئ السلوك. عندما تكلم، بدا كلامه متقلصا على لا شىء سوى الحروف المتحركة.

قال إينمان: هل هذا هو المنحنى الذى يؤدى إلى ساليزبرى.

قال الرجل: اى اى اى اى اى؟

قال إينمان: ساليزبرى. هل هذا هو الطريق؟

قال الرجل بشكل نهائى: أ أ أ أ أ!

واصل إينمان سيره.

وبعد وقت قصير جاء إلى رجل فى حقل يقتلع بصلا.

قال إينمان: ساليزبرى.

لم ينبس الرجل ببنت شفة لكنه مد ذراعا وأشار إلى الطريق ببصلة.

وكل ما تذكره إينمان من مسيرة يوم آخر كان السماء البيضاء وأنه فى وقت ما منه ماتت بقرة هاربة، سقطت بهبة تراب فى الطريق أمامه، وفمها الأسود مفتوح ولسانها الرمادى متدل كما لو كان ليتذوق التراب، وأنه بعد ذلك جاء ثلاث فتيات يعملن فى مزرعة بثياب قطنية باهتة وهن يرقصن حافيات فى تراب الطريق. توقفن حين رأينه قادما وتسلقن سياجا وجلسن على الحاجز المعدنى العلوى وقد رفعن ركبهن الصدئة إلى ما تحت أذقانهن. راقبنه وهو يمر ورفع يده إليهن وقال: هاى.

وذات صباح عند نهاية هذا الوقت، وجد إينمان نفسه يسير خلال غابة من أشجار الحور الصغيرة، وأوراقها تتحول سلفا إلى اللون الأصفر، رغم أن الموسم لم يكن يستدعى ذلك بعد. دار تفكيره حول مسألة الطعام. كان قد أحرز تقدما معقولا، لكنه قد تعب من التوارى والجوع والعيش على لا شيء سوى عصيدة الذرة والتفاح وفاكهة الكاكى والبطيخ المسروق. كان يفكر كم كان ليستمتع بمذاق اللحم والخبز. وكان يزن تلك الرغبة ضد حساب المخاطر التى قد يتعرض لها للحصول عليها عندما صادف مجموعة من النساء يغسلن فى نهر. خطا إلى داخل طرف غابة وراح يراقبهن.

كانت النساء تقفن فى الماء حتى ربلات سيقانهن، وهن يطرقن الملابس على أحجار ملساء ويشطفنها ويعصرنها، ثم ينشرنها على شجيرات قريبة لتجف. كان بعضهن يتحادثن ويضحكن، وأخريات يدندن نتفا من أغان. كانت ذيول تنوراتهن محشورة بين أرجلهن وملتفة داخل نطاقاتهن ليحفظنها من الماء. بدون لإينمان أنهن يرتدين السراويل الشرقية التى ترتديها أفواج زواف، التى كان جنودها يبدون مشرقى الأسارير وبهيجى المنظر وهم قتلى مبعثرون عبر ساحة معركة. كانت النساء، وهن يجهلن أن هناك من يراقبهن، قد رفعن تنوراتهن إلى أعلى أفخاذهن، والماء الذى يسيل من الملابس ينساب على الجلد الشاحب ويلمع فى الضوء مثل زيت.

وفى يوم آخر كان هذا يكتسب جاذبية، لكن انتباه إينمان استقر على حقيقة أن النساء قد جلبن معهن غداءهن - بعضه فى سلال من أغصان صفصاف طرية وبعض آخر مربوط فى أقمشة. كن قد تركنه قائما على شاطئ النهر. فكر أولا أن ينادى عليهن ويطلب شراء شيء يأكله منهن، لكنه شك فى أنهن قد يصطففن على الفور ويلتقطن صخورا من قاع النهر ويطردنه. ولذلك قرر أن يظل مختبأ.

شق طريقه بين الأشجار والصخور الصلدة إلى شاطئ النهر. وبعد أن سلل يدا من خلف جذع شجرة سندر نهرى ليرفع العديد من أطعمة غدائهن، تناول أكثرها ثقلا، تاركا مكانها مالا أكثر إنصافا بكثير، إذ بدا له أن من الأهمية بوجه خاص أن يكون كريما فى تلك اللحظة.

مضى مبتعدا على الطريق، وهو يؤرجح الحزمة القماشية من أحد أطرافها السائبة، وعندما قطع بعض المسافة بينه وبين النهر، فتح القماش المتعقد ووجد

ثلاث قطع كبيرة من السمك المسلوق، وثلاث حبات من البطاطس، وقطعتى بسكويت لم يتم إنضاجها.

خطر لإينمان، بسكويت بالدجاج؟ ياله من فن طهو غير لائق. وكم كانت وجبة شاحبة، خاصة حين ضاهاها بالوليمة البنية اللون التى تخيلها.

أكلها على أى حال، وهو يتناول غداءه سائرا على الأقدام. وبعد ذلك بوقت قصير - وهو يرتحل على امتداد طريق مهجور، ولم يبق سوى قضمتين - انتابه شعور مثل حكة فى خلف رأسه. توقف وتطلع فيما حوله. كان هناك شخص ما على بعد خلفه، رجل يسير بسرعة. أتى إينمان على قطعة البطاطس بسرعة حتى جاء إلى أول منحنى فى الطريق. وما إن دار حوله، حتى دخل الغابات واتخذ موضعا طيبا للمراقبة خلف جذع شجرة مقطوعة.

وبعد برهة دار الرجل حول المنعطف. كان بلا قبعة ويرتدى معطفا طويلا رماديا تخفق حواشيه ويحمل على ظهره مخلاة جلدية منتفخة بعض الشىء وعكازا له نفس طوله. كان يمشى بخطى واسعة، ورأسه منكسا، وهو يحدد خطوته بالعكاز مثل راهب زاهد متسول من سالف الأيام. وعندما دنا الرجل أكثر، أصبح من الواضح أن وجهه مجروح وموسوم بكدمات يتحول لونها إلى الأصفر والأخضر. كانت شفة مشقوقة قد التأمت جزئيا بقشرة داكنة حتى بدت مثل شفة أرنبية. خصلات من زغب أشقر تنمو على فروة رأسه التى تسمها هنا وهناك قشور طويلة. كان رقيق الحال عند البطن إلى حد أن طرفى سرواله تراكبا أحدهما على الآخر مثل طيات كبيرة وقد حزما بحبل طويل. وعندما رفع الرجل عينيه الزرقاوين من النظر إلى أسفل الطريق تحت قدميه، رأى إينمان على الفور أنه كان، تحت كل التلف الذى أصابه، الواعظ.

رفع إينمان نفسه من خلف كتلة الخشب وقال: هاى، أنت يا من هناك.

توقف الواعظ وحملق. قال: يا آلهى الكريم. الرجل الذى كنت أبحث عنه بالضبط.

نزع إينمان سكينه وأمسك بها وطرفها المستدق إلى أسفل، وذراعه مسترخية.

قال: جئت إلى تبحث عن الانتقام، لن أضيع حتى خرطوشة سدى. سوف أشطرك هنا تماما.

- أوه لا، أنوى أن أشكرك. لقد أنقذتنى من خطيئة مهلكة.

- هل سرت كل هذا الطريق على أمل أن تقول ذلك.

- لا، إننى مرتحل. مهاجر مثلك. رغم أننى تعجلت فى الكلام. فليس كل من يتجولون مهاجرين. على أى حال، إلى أين تتجه؟

تفحص إينمان الواعظ. قال: ماذا حدث لوجهك؟

- عندما وجدونى على الحال الذى تركتنى عليه، وعندما قرأوا المذكرة، نزع عدد من المصلين وعلى رأسهم شماسنا جونستون عنى ثيابى وأعطونى علقة ساخنة. وألقوا بثيابى فى النهر وحلقوا شعرى بسكاكينهم، وأظن أن ذلك نتيجة لتحيرهم حول جزء ما من قصة شمشون ودليلة. ثم رفضوا حتى أن يسمحوا لى بساعة ألملم فيها أشيائى. أمسكوا بى من الخلف، وجاءت المرأة التى كنت سأتزوجها وبصقت على وشكرت المولى القدير أنها لن تحمل اسم فيسى. لم يكن لى إلا يداى لأستر نفسى بهما، وأمرونى أن أغادر البلدة وإلا شنقونى عريان من برج الكنيسة. وكان يحسن بهم أن يفعلوا ذلك. فلم أكن بقادر على أن أستمر فى العيش هناك على أية حال.

قال إينمان: أجل، أظن ذلك. ولكن ماذا عن المرأة الأخرى؟

قال فيسى، أوه، لورا فوستر. جروها إلى الخارج لتحكى ما تعرفه. لكنها كانت لاتزال قادرة بالكاد على أن تستجمع فكرتين. وعندما يتضح فى أى حال من الأمومة هى، فسوف تطرد من الكنيسة لبعض الوقت. فلنقل، سنة. ثم لن تكون سوى موضوعا للقيل والقال. وفى خلال سنتين أو ثلاث سوف تتخذ لها زوجا، واحدا من العزاب العجائز يكون راغبا فى تنشئة لقيط مادامت امرأة حسنة المظهر قد وافقت على الصفقة. وسوف ينتهى بها الأمر إلى حال أفضل بالنسبة لعلاقاتنا، وبالنسبة لى حيث إننى اعتزمت أن ألقى بها وبخطيبتى وراء ظهرى.

قال إينمان: لايزال الأمر غائما بالنسبة لى إذا كنت قد فعلت الشىء الصحيح بأن تركتك تعيش.

وبدون كلمة أخرى أغمد سكينه وعاد إلى الطريق، وبدأ يستعد لمواصلة رحلته. لكن الواعظ اصطف إلى جانبه.

قال: حيث إنه يبدو أنك ذاهب غربيا، فسوف أواصل السير معك إذا لم يكن لديك مانع.

قال إينمان: الحقيقة أننى لدى مانع، وهو يفكر أنه من الأفضل له أن يمضى وحده عن أن يمضى فى رفقة أحمق.

أتى بحركة كما لو كان سيصفع الواعظ بظاهر يده، لكن الرجل لم يجر أو يعارك أو حتى يحاول أن يرفع عكازه ليتقى الصفع. فبدلا من ذلك، قوس كتفيه ليتلقى الضربة مثل كلب مُفَزَّع، ولذا فإن إينمان توقف ولم يضرب. وفكر فى أن يستمر فى السير فحسب، مادام يفتقر إلى الإرادة لطرد الرجل، وأن يرى ما يحدث.

انساق الرجل وراء مرفق إينمان، وهو يتكلم على غير هدى. كان يتصرف تحت تأثير فكرة أنه قد كسب رفيق طريق. بدا أن طموحه أن يزيل من على كاهله عبء كل ملمح من حياته السابقة بأن يمررها إلى إينمان. أراد أن يقاسمه كل عثرة فعلها. ومن الواضح أنه فعل الكثير، كان واعظا يدعو للرثاء؛ كان كل ذلك واضحا حتى بالنسبة له.

اعترف قائلا: لقد أظهرت عوزًا هائلا فى كل سمة من سمات عملى فيما عدا الوعظ. لكننى كنت أتألق فى هذا. فقد أنقذت أرواحا أكثر من عدد أصابع يديك وقدميك. ولكننى نبذته الآن وأنا ذاهب إلى تكساس لأبدأ من جديد.

- كثيرون يذهبون.

- هناك مكان فى كتاب العهد الجديد يتكلم عن زمن حين لم يكن هناك أى ناموس فى إسرائيل وكان كل رجل يعمل مايراه صحيحا فى نظره. وقد سمعت نفس الشىء عن تكساس. إنها أرض حرية.

قال إينمان: تلك هى الحكاية التى يحكونها عنها. ماذا تنوى أن تفعل هناك، أبعد مما فعلت؟

قال فيسى: أوه، بالكاد لا شىء. إننى أفتقر إلى الاستعداد لنبش الأرض. أما فيما يتعلق بمهنة دائمة، فإننى متردد. ولما كنت يعوزنى مهنة، فربما أذهب وأدعى لنفسى ملكية قطعة من الأرض بحجم بلد وأرعى ماشية عليها حتى أمتلك قطيعا كبيرا بما يكفى لأن تستطيع أن تمشى طوال اليوم عبر ظهورها دون أن تطأ قدمك الأرض.

- ماذا تحسب أنك ستستعمله لتشترى به ثورك الأول وبقرتك؟

- هذا بالضبط.

وسحب فيسى من تحت معطفه الواسع مسدسا طويلا كبيرا من مسدسات الجيش من نوع « كولت »، كان قد استولى عليه فى طريق خروجه من البلدة.

قال: ربما دربت نفسى على أن أكون قناصا نابه الذكر.

قال إينمان: من أين جاءك ذلك؟

- علمت زوجة جونستون العجوز بما قد حدث وأشفقت على. رأتنى أكمن فى الشجيرات فصاحت بى أن أذهب إلى النافذة، وحين دخلت غرفة النوم لتأتى لى بهذا الزى الزرى الذى أرتديه لمحت هذا المسدس على طاولة المطبخ. مددت يدى خلال النافذة وأخذته وقذفته فى الحشائش، وعندما أكملت ارتداء الملابس، التقطته وأخذته معى. بدا راضيا عن نفسه مثل صبى سرق فطيرة بتروٍ من على حافة نافذة.

واصل كلامه قائلا: هكذا واتتنى فكرة أن أكون قناصا. فهذه الأشياء تعطيك أفكارا لم تسع إليها.

أمسك بمسدس كولت أمامه، وهو ينظر فيه كما لو كان يتوقع أن يرى مستقبله فى لمعان أسطوانته.

كانت مسيرة عصر ذلك اليوم مسيرة ذات حظ عظيم فى البحث عن الطعام. فلم يكن إينمان وفيسى قد ارتحلا بعيدا حين جاءا إلى بيت مهجور بنى اللون فى نهاية غيضة من شجر البلوط. كانت الأبواب مفتوحة والنوافذ مكسورة والفناء قد نما فيه نباتات الأرقطيون وآذان الدب والتبغ الهندى.. وفيما حول البيت خلايا نحل. بعضها فى خلايا من قطاعات جذوع أشجار الصمغ الأسود المجوفة، وقد حفرت فيها ثقوب ووجهت بأطراف الفرجار الحادة. والبعض الآخر فى أعواد من القش، رمادية مثل قش التسقيف القديم وقد بدأت تلين وتتجوف عند أكاليلها. ورغم الإهمال. كان النحل يعمل كثيفا فى ضوء الشمس، جيئة وذهابا

قال فيسى، لو أننا سرقنا واحدة من هذه الخلايا لكانت أكلة طيبة.

قال إينمان، عليك بها.

قال فيسى، أنال لدغة نحلة مؤلمة. وانتفخ. لا يناسبنى أن أدخل بينها.

- لكنك كنت تأكل الشهد لو ذهبت أنا لآتى به، هل هذا ما تقوله؟

- طبق من الشهد يرضى شهوتنا ويشد من أزرنا على الطريق.

لم يستطع إينمان أن يجادل فى تلك النقطة، ولذلك شمر أكمام قميصه ودس أطراف سرواله فى حذائه العالى الساق ولف رأسه بمعطفه، تاركا مجرد ثنية يرى منها. مشى إلى إحدى الخلايا ودرَّج السقف وأغترف حفانات من العسل والشمع فى وعائه حتى امتلأ عن آخره وسال على جوانبه. تحرك ببطء وتؤدة وناله قليل من اللدغ.

جلس هو وفيسى على حافة الشرفة، والوعاء بينهما، وأكلا العسل بملء ملاعقهما. كان أسود مثل القهوة، إذ جاء من كل نوع من الزهور، وكان مليئا بأجنحة النحل وقد تصلب لأنه لم يسرق منذ بعض الوقت. لم يكن شيئا إذا ما قورن بالعسل الصافى الذى يأتى من زهور أشجار القسطل والذى كان أبوه يجمعه من النحل البرى عن طريق تبطينها لتصبح خلايا أشجار والنحل يطير خلال الغابات. وعلى الرغم من ذلك، فقد أكله إينمان وفيسى كما لو كان عسلا طيبا. وعندما فرغا من العسل تقريبا، استخرج إينمان قطعة كبيرة من الشمع وقضم قطعة.

قال فيسى بنبرة استهجان فى صوته: أتأكل الشمع؟

قال إينمان، إنك تقول ذلك كما لو كان هناك ديك فى الوعاء. وراح يمضغ قرص من الشمع.

- مجرد أنه يبدو كما لو كان يسد رمق الواحد.

قال إينمان، إنه يفيدك. مقوى. وقضم قضمة أخرى ومد لفيسى قطعة أكلها دون استمتاع بمذاقها.

قال فيسى، بعد أن فرغ الوعاء، مازلت جائعا.

قال إينمان، هذا إذا لم تستطع أن تفزع شيئا نقتنصه. ونحن بحاجة إلى السير لا الصيد. إن هذا النوع من الترحال يكبح شهواتك.

قال فيسى، هناك من يقولون إن ذلك هو الطريق إلى القناعة، اذهبوا إلى حيث لا يوجد ما تشتهون، حيث تفقدون شهواتكم. وهذا جنون. فالقناعة إلى حد كبير مسألة إقناع نفسك بأن الله لن يضربك بشدة لميلك فى اتجاه جوعك. لقد رأيت قلة من الناس يفيدون من الاعتقاد بأن القمر يتحول إلى دماء فى يوم الحساب. وأعلم أننى لا أرغب فى أن أصدق هذا الاعتقاد كثيرا.

قفز إينمان من الشرفة وشرع فى السير. ارتحلا بسرعة معقولة لمدة ساعة أخرى حتى أصبح الطريق مجرد ممر يصعد حافة متدحرجة ثم تبعا مسقط

مجرى ماء صغير ملتويا لفترة قصيرة. كان الماء يجرى أسفل التل فى سلسلة من المنحدرات البيضاء تقطعها من آن لآخر منحنيات هادئة وبرك مياه صغيرة حيث تتدرج الأرض أو تنحنى، إلى حد انه لو لم يكن الواحد حريصا بشأن التفاصيل لظنها مجرى مياه جبليا. وكان لرائحة الخليج الرطب أيضا رائحة الجبال فى أنف إينمان. عبير النباتات وأوراق الأشجار المتعطنة، والتراب المبلل. غامر بقول كل ذلك.

طوح فيسى رقبته إلى الوراء وتشمم الهواء.. قال، إن لها رائحة مؤخرة شخص ما.

لم يعلق إينمان. كان متعبا وعقله يعمل بطريقة عشوائية. ظلت عيناه على خيط المياه أمامه. كان الممر الذى وجدته لتشق طريقها إلى الأرض السفلى ملتفا مثل أمعاء خنزير. كان قد تعلم الكثير من الكتب بما يكفى لأن يعرف أن الجاذبية فى شكلها المثالى من المفروض أن تعمل فى خطوط قوة مستقيمة. لكنه عندما نظر إلى الجدول يشق طريقه الثعبانى على منحدر التل، فإنه رأى أن مثل هذه المعلومات مجرد أفكار هوائية. فقد أبرزت منحنيات الجدول كيف أن كل ما يتحرك لابد أن يشكل نفسه حسب متاهة المنظر الطبيعى الفعلى، مهما تكن خياراتها.

عندما وصل الجدول إلى أرض مستوية، فإنه رق وأصبح مجرى مائيا أفضل بقليل من حفرة طينية ولم يبد اختيارا أبعد من هذا يمكن أن يجده إينمان فى مجرى مائى جبلى. توقف فيسى وقال، حسنا، انظر إلى هناك.

وهناك فى الجدول، الذى كان لايزال ضيقا بما يكفى لأن يخطو الواحد عبره بقفزة على قدم واحدة، كانت هناك سمكة سلور تبدو أطول من عارضة فى مقدمة عربة يجرها ثوران، وإن كانت أكبر كثيرا فى محيط الخصر. والحقيقة أنها كانت بدينة مثل حوض خشبى لغسل الثياب. كان وجهها قبيحا بعينيها الدقيقتين والزوائد الخطية الشاحبة فى فكها التى تمتد من فمها وتهتز فى الماء. كان فكها السفلى متراجعا للخلف ليجعل امتصاص نفايات القاع أكثر سهولة، وظهرها أسود يميل للاخضرار وحبيبى المظهر. ورغم أنها مجرد قزم مشوه بالمقارنة إلى ما قد تخيله إينمان فى أعماق كيب نير الطينى، إلا أنها بدت بدينة كثيرا ولابد أنها دارت حول منعطف خاطئ لدرجة تثير الأسى عند مكان ما لتجد نفسها هنا فى مياه ضحلة لدرجة أنها لا يمكنها أن تعكس اتجاهها إلا إذا كان لديها مفصل فى منتصفها.

قال فيسى: إنها لتكون أكلة طيبة.

قال إينمان موضحا: ليس لدينا عدة لصيد السمك.

- كنت لأدفع أى شىء فى مقابل عمود خشبى وخيط سنارة وخطاف مطعم بكتلة كبيرة من الخبز الأبيض المدْهِن.

قال إينمان: حسنا، ليست لدينا، وهو مشمئز من مثل هذه العادة فى صيد السمك فى الأرض المنبسطة. لم يكن قد فعل أكثر من تحريك قدم ليواصل سيره حين فزعت السمكة من خياله وتمرغت مبتعده فى مجرى الماء

تبع فيسى إينمان وهو يسير مبتعدا، لكنه ظل يستدير وينظر إلى أعلى الجدول. أوضح أنه ممتعض. وفى كل مائة ياردة من تقدمهما كان يقول، كانت تلك سمكة كبيرة.

وعندما قطعا مجرد نصف ميل، توقف فيسى وقال، ليس هناك شىء آخر سوى أن علىّ أن أحصل على تلك السلورة. استدار وشرع يجرى بخطوة هرولة الى أعلى الدرب. وتبعه إينمان بخطوة سير. وعندما اقترب فيسى من المكان الذى رأى فيه السمكة، سلك الطريق المؤدى إلى داخل الغابات وراح يتخبط إلى الأمام، وهو يدور فيها لبعض الوقت حتى أنه عندما عاد إلى الماء كانا قد بلغا أعلى المجرى. راح إينمان يراقبه عندما شرع فيسى يستكشف الغابات بحثا عن فروع أشجار ساقطة ويجرها إلى داخل المجرى. كومها ووثب فوقها حتى يدكها إلى أسفل. وفى آخر الأمر كان قد بنى نوعا من السد الصغير، كله من فروع شائكة.

قال إينمان: ماالذى تدبره؟

قال فيسى، انتظر هنا فحسب وراقب.

ثم دار فى الغابات ثانية وسار فى الجدول مع التيار حيث حسب أن تكون السمكة. قفز فى الجدول وسار ضد التيار، وهو يركل المياه فى تقدمه، وعلى الرغم من أنه لم ير السمكة مطلقا، فإنه يعرف أنه لابد أنه يدفعها أمامه.

عندما اقترب فيسى من السد، استطاع إينمان أن يرى السلورة تدفع الفروع بأنفها بحثا عن ممر. نزع فيسى قبعته وطوحها إلى شاطئ الجدول. خاض فى الماء إلى السمكة ومال إلى الأمام وغمس نصفه الأعلى فى الماء ليقبض عليها ويخرجها، وخرجت السمكة والرجل يتخبطان، ويسيل منهما الماء صفحات. كان

فيسى يحتضن السمكة من منتصفها، ويداه تقبضان على بطنها الأبيض. كانت تصارعه بكل ما لديها. كانت تضرب رأسه برأسها الذى بلا عنق، وشواربها تجلد وجهه. ثم انثنت مثل قوس هائل قوى، وقفزت مباشرة، واندفعت من بين ذراعيه عائدة إلى الماء.

وقف فيسى يئز طلبا للهواء. كان بوجهه آثار حبارات حمراء طويلة حيث لسعته شوارب السمكة، وذراعان مجروحتان من الخياشيم الشائكة، لكنه مال إلى الأمام والتقطها من الماء ثانية وصارعها فى جذبة أخرى. حاول مرارا وتكرارا لكنه فشل فى كل مرة حتى لم يعد هو والسمكة قادرين على الحركة من الإعياء. صعد فيسى من الجدول منهكا وجلس على الشاطئ.

سأله إينمان: هل يمكنك النزول هناك وتجربة قدرتك عليها؟

مد إينمان يده إلى ردفه وأخرج مسدس لى مات وأطلق الرصاص على رأس السلورة. تخبطت لمدة قصيرة ثم رقدت ساكنة.

قال فيسى: يا الله.

عسكرا تلك الليلة هناك. ترك فيسى لإينمان إشعال النار بحذاء الجدول والعناية بها، وكذلك الطهو. لم يكن يعرف فيما يبدو عمل أى شىء سوى الحديث والأكل. عندما شق إينمان السمكة، وجد بين محتويات معدتها رأس سمكة قرش صغير وعصفورا أزرق ابتلع بأكمله. نحاهما جانبا على صخرة مسطحة. ثم قشر الجلد من على جزء من ظهر السمكة وجوانبها وكشط شرائح. كان بين محتويات مخلاة فيسى قطعة من دهن خنزير فى ورقة مطلية بالشمع. أذابها إينمان فى المقلاة ودحرج قطع السمك فى جريش الذرة وقلاها حتى أحمرت. وبينما هما يأكلان، نظر فيسى إلى الصخرة وتأمل فى التغذى على السمك.

قال: هل تحسب أنها ابتلعت سمكة القرش الصغيرة تلك كاملة منذ زمن بعيد ثم أتت عصائر معدتها على بقيتها.

قال إينمان: ربما. لقد سمعت أشياء أكثر غرابة.

لكن الطائر الأزرق كان أمرا محيرا والطريقة المرضية الوحيدة التى استطاع إينمان أن يعلل بها وجوده هو أن رتبة أفضل من السمك، ولنقل سمكة تروتة مدهشة، ارتفعت من الماء والتقطت الطائر الأزرق من فرع واطئ من شجرة بجانب الجدول، ثم ماتت سمكة التروتة الرائعة تلك على الفور وابتلعتها سمكة

السلور كاملة من القاع وهضمتها من الخارج إلى الداخل، حتى أن كل ما تبقى هو الطائر الأزرق.

أولما على السمكة طوال المساء، وهما يأكلان حتى فرغت الوجبة والدهن. ثم قطعا قطعا كبيرة من السمكة ورشقاها فى أعواد خضراء وشوياها عارية فوق جمرات النار. استمر فيسى يتحدث ويتحدث، وعندما تعب من سرد تاريخ حياته، حاول أن يستخلص قصة إينمان. أين يمكن أن يكون بيته. إلى أين كان يقصد. أين كان. ولكن فيسى لم يكد يستطيع أن يحصل على كلمة تجيب عن أسئلته. فقد جلس إينمان عاقدا رجليه فحسب وراح يتطلع فى النار.

قال فيسى أخيرا: أعتقد أنك فى حال سيئ مثل ليجيون.

وأخبر إينمان بقصة الرجل الذى واسى المسيح روحه المجروحة. كيف وجده المسيح عريان، هاربا من البشر. مختبئا فى البرية، وهو يصر على أسنانه على صخور قبر، ويدمى نفسه بأحجار، وقد طاش صوابه من سوء حظ ما.

قال فيسى: كان فى الجبال وبين القبور دائما. ليل نهار، يبكى ويعول مثل كلب. وسمع يسوع به وذهب إليه وأعاد أموره إلى نصابها فى الحال بأسرع من جرعة أملاح تجرى بداخلك. عاد ليجيون إلى بيته خلقا جديدا.

جلس إينمان فحسب، ولذا فإن فيسى قال: أعلم أنك هربت من الحرب. وهذا يجعل منا نحن الاثنين هاربَيْن.

- هذا لا يجعل منا أى شىء معا.

قال فيسى: لم أكن لائقا للخدمة العسكرية.

- أى أحمق يمكنه أن يرى ذلك.

- أعنى أن هذا ماقاله طبيب. وقد كنت أتساءل إن كنت قد فاتنى الكثير.

قال إينمان: أوه، لقد فاتك مقدار وافر.

قال فيسى، حسنا، خراء. لقد خمنت هذا.

- سوف أخبرك بشىء فاتك. انظر كم كان واعظ يدعو حاله للرثاء لينفع نفعا كبيرا.

كان مـا أخبـر فيـسى به هو عن الانفـجـار الذى حدث فى بيـترزبورج. كان فوجه قد حدد له موقع مباشرة إلى جانب فتيان من كارولينا الجنوبية فجرهم حفارو الأنفاق الاتحاديون. كان إينمان فى خنادق من القضبان المضفورة مع أغصان يحمص شيلما ليصنع قدحا مما يسمونه قهوة عندما جاشت الأرض على طول الخطوط إلى يمينه. ارتفع عمود من التراب والرجال فى الهواء ثم تساقطوا في أرجاء المكان. انهمر التراب على إينمان. وهبطت بجانبه مباشرة قطعة من أسفل رجْل أحد الرجال ومازال الحذاء العالى الساق على القدم. وجاء رجل من أسفل الخندق بعيدا عن إينمان يشق الخندق جريا وهو يصيح بصوت جهورى، لقد تفجر الجحيم!

تراجع الرجال الذين كانوا بالخنادق على يمين الحفرة ويسارها وهم يتوقعون هجوما، لكنهم أدركوا بعد برهة أن الاتحاديين قد اندفعوا داخلين إلى حفرة الانفجار، محتشدين معا فحسب، وأربكهم منظر القوة الخالصة ذلك.

وبسرعة استدعى هاسكل على الفور مدافع الهاون ووضعها وراء حافة الحفرة وأصدر أمرا بحشوها بأوقية طفيفة ونصف من البارود، حيث كان كل ما عليهم أن يفعلوه أن يضربوا القذيفة عاليا لمسافة خمسين قدما إلى حيث يتجمهر الاتحاديون مثل حظيرة من الخنزيرات تنتظر سقوط المطرقة بين العينين. أطاحت نيران مدفع الهاون بالكثيرين أشلاء، وعندما تم ذلك، قاد فوج إينمان الهجوم داخل الحفرة، وكان القتال داخلها من نوع مختلف عما فعله قبل ذلك. كان حربا بأشد أشكالها قِدَماً، كما لو كان مئات من الرجال قد وضعوا فى كهف، كتفا إلى كتف، وطلب منهم أن يقتل أحدهم الآخر. لم يكن هناك متسع لإطلاق النار وحشو البنادق، ولذا فإنهم استخدموها أساسا كهراوات. رأى إينمان فتى صغيرا قارع طبول يضرب رأس رجل بصندوق ذخيرة. لم يعبأ الاتحاديون حتى بالرد على القتال. فتحت أقدامهم كلها تناثرت أجسام وقطع من أجسام، وقد تمزقت أوصال كثير من الرجال فى الانفجار والقصف حتى أصبحت الأرض ملساء وأرسلت نتنا رهيبا من أحشائهم المبللة. ولاح من جدران الحفرة الترابية الفجة من كل اتجاه مجرد دائرة من السماء فوقهم، كما لو كان هذا هو كل العالم هناك والقتال هو كل ما به. قتلوا كل من لم يهرب.

قال إينمان: هاك نوع ما فاتك. هل أنت آسف؟

بسط إينمان فراشه ونام، وفى الصباح أكلا شرائح من السمكة أيضا لطعام الافطار. وشويا قطعا كبيرة ليحملاها معهما للغذاء، وعلى الرغم من ذلك، فعندما فككوا المخيم، كان لايزال هناك سمك أكثر مما أكلوه. وكان هناك ثلاثة غربان تنتظر أعلى شجرة الجوز.

فى وقت متأخر من عصر اليوم التالى، تجمعت السحب وهبت ريح ونزل مطر غزير وثابت بلا أى أمارة إلى أنه سيتوقف. واصلا سيرهما فيه وهما يبحثان عن مأوى، وفيسى يحك قفاه طول الوقت ويشكو من صداع حاد، نتيجة لضرب إينمان له بهراوة من عجلة عربة شحن حتى أسقطه على ركبتيه فى وقت مبكر من ذلك اليوم.

كانا قد دخلا متجرا ريفيا يبدو مهجورا لشراء طعام، وما إن دخلا من الباب حتى سحب فيسى مسدس « الكولت » وأمر صاحب المتجر أن يفرغ خزينة نقوده. وكان إينمان قد تناول أول شىء ثقيل طالته يده. الهراوة القائمة على رف بجوار الباب. وأسقطه على الأرض. وطار المسدس مقعقعا عبر الأرضية الخشبية وتوقف عند جوال جريش. ركع فيسى على شفا إغماءة، لكنه انتابته نوبة سعال وهكذا استعاد وعيه. نظر صاحب المتجر إلى فيسى ثم إلى إينمان ورفع حاجبه وقال: ماذا يجرى بحق الجحيم؟

كان إينمان قد عبر عن اعتذاره بسرعة والتقط المسدس، أمسك بفيسى من ياقة قميصه ورفعه كما لو كان يرفعه بمقبض. سحبه إلى خارج المتجر ثم أجلسه على الدرج وعاد إلى المتجر ليشترى سلعا. كان الرجل، رغم ذلك، قد أخرج فى تلك الأثناء بندقية وجلس مقرفصا خلف منضدة البيع، مصوبا البندقية إلى الباب.

قال: هيا اذهب. إن لدى هنا ثلاثين سنتا من عملات فضية، لكننى سوف أقتل أى شخص يأتى ليأخذها.

مد إينمان ذراعيه إلى الأمام، وكفاه إلى أعلى.

قال وهو يتراجع، ماهو إلا مأفون.

والآن، بينما هما يسيران فى المطر، راح فيسى ينتحب ويود أن يتوقف ويقرفص فى الرذاذ تحت شجرة صنوبر. لكن إينمان، متدثرا بغطاء الأرضية، واصل سيره باحثا عن مخزن غلال.. لم يجدا أيا منها، لكنهما لقيا بعد وقت

قصير أمة عجوزا بدينة آتية على الطريق. كانت قد شكلت قلنسوة مطر ضخمة بطريقة معقدة نوعا ما من أوراق شجرة كاتالبا كبيرة متهدلة. كانت تسير جافة كما لو كانت تحت مظلة. وبعد أن رأت ما كان عليه حالهما - مشردين - أخبرتهما على الفور أن هناك نُزلا يقع أمامهما، يديره رجل لا تهمه الحرب مثقال ذرة ولم يكن ليسأل أى أسئلة.

وجدا المكان على بعد ميل، نوعا من منزل واسطبل يقع على جانب الطريق. محطة على الطريق حيث تستبدل مركبات الخيول ويجد المسافرون مأوى. كان المبنى الرئيسى حانة منها لكة بها جناح واطئ مُعرَّش السقف يمتد بزاوية مستقيمة عليها إلى الخلف. كان مطليا بلون الصدأ ويقوم تحت شجرتى بلوط هائلتى الحجم. كان تجار المواشى يقضون الليل هناك مع خنازيرهم ومواشيهم فى أيام ماقبل الحرب حين كانت بوابات دفع المكوس التى تمتد إلى أسواق المواشى عند نهاية خط السكة الحديدية تكتظ بالحيوانات. لكن تلك الأيام كانت مثل فردوس مفقود، وحظائر الحيوانات الممتدة تقوم حول المكان الآن خاوية تعلوها نباتات العشبة المهلهلة.

اتجه إينمان وفيسى إلى الباب وجرباه ووجداه مغلقا بالمزلاج، على الرغم من أنهما يمكنهما أن يسمعا أصواتا بالداخل. طرقا الباب وظهرت عين فى شق بين الألواح الخشبية. ارتفع المزلاج ودخلا ووجدا نفسيهما فى حفرة شديدة الرطوبة، بلا نوافذ، وليس بها سوى مدفأة لتنشر ضوءا ورائحة نتن قوية تنبعث من ملابس مبللة وشعر قذر. لم تكن عيونهما قد تلاءمت مع الظلام وهما يتحركان داخلين فى الغرفة، لكن الواعظ مشى قدما، وقد ثبت ابتسامة عريضة على وجهه كما كان يدخل أرضا يعرفها ويتوقع أن يلتقى بأصدقاء. وسرعان ما تعثر فى رجل عجوز يجلس على مقعد واطئ بلا مساند وطرحه أرضا. قال الرجل المطروح على أرض الغرفة: اللعنة، وصدرت همهمات متعاطفة من الأشخاص المظلمين الذين يجلسون إلى طاولات متناثرة فى الغرفة. أمسك إينمان بفيسى من كتفه وجذبه خلفه. أعاد الكرسى المقلوب إلى وضعه وساعد العجوز على النهوض على قدميه.

واصلا دخولهما الغرفة ووجدا مقاعد، وعندما اتضحت لهما الرؤية رأيا أن حريقا شب فى مدخنة المدفأة حديثا قد حرق ثقوبا فى أحد جوانب السقف.

كانت الثغرات لم ترقع بعد، وتساقط المطر حول المدفأة بنفس الغزارة التى ينزل بها تقريبا فى الخارج حتى أن الضيوف المبللين لم يكن بإمكانهم أن يقفوا بشكل مفيد بجوار النار ليتدفأوا ويجففوا أنفسهم. كانت المدفأة هائلة الحجم، وهى تمتد عبر معظم نهاية الحجرة وتؤدى بالمرء إلى أن يتخيل توهجات العام السابق الهائلة. ولكن النار التى كانت بها الآن، رغم ذلك، يمكن تغطيتها ببطانة لبد سرج.

وبعد قليل دخلت عاهرة بحجم رجل ضخم من حجرة خلفية. كانت تحمل قنينة فى إحدى يديها وفى اليد الأخرى خمسة أقداح صغيرة، وأصابعها الغليظة بداخلها. أمكن إينمان أن يرى مقبض موس مستقيم أحمر دس فى شعرها الأشعث فوق أذنها اليمنى. كانت ترتدى ميدعة جلدية حول خصرها البدين، وثوبها بلون الجوز وقصته عند الصدر واطئة ومزرة جزئيا لتكشف صدرا هائل الحجم. عندما مرت من أمام النار الضئيلة، أدار كل رجل فى الغرفة رأسه ليرى خطوط محيط ساقيها الرائعتين من خلال الرداء النحيل. كانت تنورة الرداء تعجز عن تغطيتهما تغطية كاملة، ولذلك كانت ربلتا ساقيها القويتا العضلات معروضتين عرضا كاملا. كانت حافية، وقدماها ملطختان بالطين. جلدها أسود مثل غطاء موقد، وبدت حسنة المنظر، على الأقل بالنسبة لأى رجل يجد جاذبية فى مثل هذا المقياس الضخم. مشت الهوينى حول الغرفة، تصب مشروبات، ثم جاءت إلى طاولة إينمان. وضعت قدحين وملأتهما ثم جذبت كرسيا وجلست منفرجة الرجلين، وتنورتها مرفوعة. أمكن إينمان أن يرى على داخل فخذها ندبة سكين باهتة تمتد من ركبتها وتختفى فى خلال تنورتها المحزمة.

قالت وهى ترمقهما لترى أين تجد منفعة: أيها السيدان. ابتسمت ابتسامة عريضة. أسنان منتظمة بيضاء، ولثة زرقاء. أفرغ الواعظ كأسه ودفعه إليها، وعيناه مستقرتان على الشق بين ثدييها. ملأت كأسه حتى الحافة وقالت: ما اسمك، يا حبيبى؟

قال: فيسى سولومون فيسى. وجرع كأس شرابه الثانى دون أن يرفع عينيه عن شق صدرها العظيم. بدا أنه يرتجف، فقد كان وقع الحز عليه عظيما.

قالت: حسنا. يا سولومون فيسى، ماذا لديك لتقوله عن نفسك؟

قال: ليس بكثير.

قالت: لا بأس، ولا يبدو عليك أنك كثير، أيضا. لكن لا يهم. كم تود أن تدفع لقضاء بعض الوقت هناك فى الخلف مع تيلدى الضخمة.

قال فيسى: كنت لأدفع الكثير. كان جادا مثلما يمكن لرجل أن يكون.

قالت: ولكن هل لديك الكثير لتدفعه؟ هذا هو السؤال.

– أوه، لا تقلقى بهذا الشأن.

نظرت تيلدى إلى إينمان. قالت، هل تريد أن تأتى أنت أيضا.

قال إينمان، اذهبا أنتما الاثنان.

وقبل أن يتمكنا من مغادرة المكان، على أية حال، جاء رجل يرتدى سترة جلدية قذرة من الجانب الآخر من الغرفة ووضع يدا على كتف تيلدى. كان بصدغه كيس دهنى أحمر وبدا نصف مخمور. كان دافع إينمان الأول أن يسجل أسلحة الرجل. مسدس عند ردف، وسكين بفمه عند الردف الآخر، وشىء مصنوع يدويا يشبه هراوة مكسوة بالجلد تتدلى من سير جلدى من مشبك حزامه. نظر الرجل إلى أسفل إلى تيلدى وقال: تعالى هنا، أيتها المرأة الضخمة. بعضنا من الرجال يريدون كلمة معك. جذبها من كتفها.

قالت: لدى عمل هنا.

نظر الرجل إلى فيسى وابتسم ابتسامة عريضة. قال، ليس لهذا الشخص حق إبداء رأيه فى الموضوع.

عند ذلك نهض فيسى وسحب مسدسه « الكولت » من تحت معطفه وشرع فى توجيهه صوب بطن الرجل. لكن فيسى كان بطيئا للغاية وواضحا للغاية فى اتيان حركته حتى أنه عندما وصلت ماسورة المسدس إلى مستواها كان الرجل قد سحب مسدسه. كانت ذراعه ممدودة حتى نهايتها وقامت الفوهة على بعد أصبع من أنف فيسى. تذبذبت يد فيسى على نحو متردد، وتدلت الماسورة حتى أنه لو أطلق الرصاص لما أصاب سوى قدم الرجل.

قال إينمان: نَّحيا ذلك الشىء جانبا.

صوب الرجلان أعينهما فى اتجاهه، وعندما فعلا ذلك مدت تيلدى يدها واختطفت مسدس فيسى من يده.

نظر الرجل إلى فيسى وزم شفتيه امتعاضا.

قال لتيلدى: أنت كلبة تأكلين الخراء. ثم قال لفيسى، لقد أنقذت لتوها مؤخرتك من أن تقتل، نظرا لأننى لو قتلتك وأنت أعزل لنال منى القانون.

قال فيسى موجها كلامه لا إلى شخص على وجه الخصوص: أريد استعادة مسدسى.

قال إينمان، حان الوقت لأن تسكت. وجه كلامه إلى فيسى لكنه لم يحول عينيه عن الرجل ذى الكيس الدهنى.

قال الرجل، لن أفعل ذلك.

لم يقل إينمان شيئا.

ظل الرجل ممسكا بمسدسه مصوبا نحو رأس فيسى وبدا أنه لا يرى سبيلا إلى وضع حد لنزاعهما.

قال وهو يهز المسدس هزة ضئيلة فى وجه فيسى، أتوقع أننى سأضطر إلى أن أضربك به علقة بدلا من ذلك.

قال إينمان، هيى!

نظر الرجل، وكان مسدس لى مات قد ظهر الآن، يرقد على جانبه على الطاولة، ويد إينمان مستقرة أعلاه.

وبسبابة يده المتحررة أشار إلى الرجل أن يغادر المكان.

وقف الرجل طويلا ناظرا إلى مسدس لى مات، وكلما أطال النظر أصبح إينمان أهدأ.

وأخيرا أدخل الرجل مسدسه فى جرابه وابتعد، وهو يتمتم بينما كان يجتاز الغرفة جمع فريقه وخرج من الباب.

قال إينمان مخاطبا تيلدى: أعطينى ذلك. مدت له مسدس فيسى ودسه فى وسط سرواله.

قال إينمان مخاطبا فيسى، أنت مصمم على أن يقتل كلانا

قال فيسى، ليس هذا محتملا. كانوا اثنين على واحد.

- لا، لم يكن كذلك.. لا تعتمد على فى أن أؤيدك.

- حسنا، لقد فعلت ذلك توا

- سيان عندى، لا تعتمد على. فربما تركت الشخص التالى ينال منك.

ابتسم فيسى ابتسامة عريضة وقال، أحسب أن لا. ثم نهض هو وتيلدى وغادرا الغرفة، وهو يطوق بذراعه الفجوة الضئيلة التى كانت لها خصرا.

حرك إينمان كرسيه إلى الخلف لصق الجدار حتى لا يمكن أن يأتيه أحد من خلفه. رفع كأسه الفارغة لرجل يرتدى ميدعة بدا عليه أنه صاحب البار.

قال إينمان موجها كلامه إلى الرجل حين جاءه بقنينة: تلك مدفأة كبيرة.

قال الرجل: لقد طليناها بالجير الأبيض فى الصيف الماضى ووضعنا فيها هيكل سرير. إنه أرطب مكان للنوم رأيتّه على الإطلاق.

قال إينمان، حسنا.

- هل تتناول العشاء؟

- أجل. لقد ظللت أتناول العشاء فى الغابات لأيام الآن.

قال الرجل، كن مستعدا فى ظرف ساعتين تقريبا.

وعندما تقدم النهار، جاء بضعة مسافرين آخرين. عجوزان فى طريقهما لبيع حمل عربة شحن من المنتجات الزراعية وهما يدفعان عربة يد عليها مقلايات بمقابض، وبكرات شرائط، وأقداح قصديرية، زجاجات صغيرة منفوخة من زجاج أخضر تحتوى على مستحضر أفيونى لتسكين الآلام وصبغات أعشاب من مختلف الأنواع فى كحول. وقليل من مسافرين متنوعين. تجمع الكل وراحوا يتحادثون ويشربون معا على طاولة طويلة.. تكلموا عن أيام تجارة المواشى الخوالى بحنين عظيم. قال أحد الرجال، لقد سقت الكثير من الأبقار عبر هذا المكان. وتكلم آخر عن سرب من الأوز والبط رافقه على هذا الطريق ذات يوم، وقال إنهم كان عليهم كل بضعة أيام أن يغمسوا أرجل الطيور فى قار ساخن ثم فى رمل حتى يحولوا بينها وبين إبلاء أنسجة أقدامها. كان لدى كل رجل حكايات يحكيها.

جلس إينمان، رغم ذلك، وحده طوال الساعات المتأخرة من عصر ذلك اليوم على مقعد بدون مساند عند الطرف الجاف من الغرفة وهو يرشف مشروبا قيل إنه ويسكى أمريكى. وإن كان ينقصه كل الصفات المعتادة لذلك المشروب فيما عدا الكحول. نظر إلى النار غير المجدية فى الطرف البعيد من الغرفة بغضب. ألقى عليه الآخرون نظرات خاطفة من آن لآخر، وفى نظراتهم قدر ما من القلق. كانت وجوههم مرايا يستطيع إينمان أن يرى فيها نفسه كما كان من الواضح أنهم يرونه كرجل ربما يطلق عليك النار فحسب.

كان إينمان قد دفع خمسة دولارات من دولارات الولايات التى انفصلت عن الولايات المتحدة لينام فى عِلِّية التبن وخمسة أخريات للعشاء الذى حين جاء كان إناء يحوى لا أكثر من نصفه من يخنى دجاج وأرانب داكن اللون مع شقفة من خبز الذرة. وحتى نظرا لعدم قيمة النقود، كان ذلك لايزال تعريفة عالية.

وبعد العشاء، فى آخر أضواء الغسق، وقف عند باب الإسطبل تحت بروز من ألواح الخشب المرتجفة فى خلفية النُزل. مال على سياج مشدود بعُقد حبال وراح يراقب المطر يهطل فى حبات غزيرة فى طين فناء عربات الشحن وطين الطريق. جاء المطر تحمله ريح شمالية رطيبة. كان فانوسان يتدليان من روافد السقف المائل. بدا ضوؤهما مخففا بالماء لا يكاد يفى بغرض سوى أن يلمع فى برك الماء وأن يبرز كل شىء فى تباين معتم. كان الضوء يُبَيِّن كل البقع المضيئة وأطراف الأشياء الحادة. تقطر المطر على نحو ثابت من البروز، وخطر لإينمان تعليق لونجستريت فى فريدريكسبورج: الاتحاديون يتساقطون على نحو ثابت مثل مطر يقطر من أفريز شرفة. قال إينمان لنفسه، لم يكن يشبه ذلك، لا وجه تشابه.

كان خشب محطة الطريق قديما، وقد ارتفعت حبيباته، وهو يشعر بها مسحوقا تحت كفه، حتى فى الرطوبة. وفى حظيرة مواشى عبر الطريق الموحل، وقف حصانان فى المطر، رأساهما منكسان. وبداخل الإسطبل، كانت هناك خيول أوفر حظا تقف فى مرابطها. لكنها كانت من ذلك النوع من الخيول التى تطبق فكيها عليك إذا مررت بها، واستدار إينمان ليراقب فرسا ملطخة بالماء والطين قضمت شريحة من لحم بحجم ثمرة جوز من أعلى ذراع أحد الرجال العجائز المتجهين إلى السوق وهو يمر خلال القاعة فى طريقه إلى غرفته.

وبعد وقت قصير، بينما كان إينمان يحدق بعينين غير مركزتين فى المنظر الذى يظلم، قرر أن يذهب للفراش فحسب وأن ينهض مبكرا ويواصل طريقه. صعد السلم الخشبى إلى العلّية ووجد أن رفيقه فى الغرفة كان هناك سلفا. كان البائع المتجول الأشيب، إذ دفع المسافرون الآخرون أجر أسرّة. كان الرجل قد حمل أكياسه الجلدية وصناديقه من عربة اليد إلى أعلى فى العلّية. ألقى إينمان بربطاته فى كومة تحت طنف السقف وخطا بتلكؤ عائدا إلى كومة من التبن خارج دائرة الضوء الأصفر الذى ينبعث من مصباح الكيروسين الذى أحضره البائع من النُزُل. كان المصباح معلقا من بالته فى مسمار طويل دق فى عارضة خشبية من عوارض السقف.

راح إينمان يراقب بينما جلس الرجل تحت الضوء المرتعش وخلع حذاءه وجوربه. كانت قدماه مقروحتين عند الكعبين وأصابع القدمين بفقاعات جلد دامية مشدودة. أخرج مبضعا لفصد الدم من حقيبة جلدية. سقط ضوء الفانوس على صلب الأداة الحادة اللامع وأرسل شعاعا فى الظلام مثل سلك ذهبى كامد اللون. راح الرجل يثقب قدميه بها حتى فتح البثور وفصد السائل الوردى، وهو يضغط بأصابعه. مسح أصابعه فى سرواله ووقف وأخذ خطوات عرجاء جيئة وذهابا عبر العلّية وهو يسير بحرص ورقة بالغين.

قال مرة ثانية: هاك.

قال إينمان: لقد كنت تسير سيرا شاقا مثلى.

- أحسب هذا.

أخرج الرجل ساعة من جيب معطفه وألقى نظرة على واجهتها. طرقها بأحد مفاصل يده وقربها من أذنه.

- قال: كنت أظن الوقت متأخرا. إنها السادسة فحسب.

- أنزل الرجل الفانوس من المسمار المعلق به ووضعه على أرضية الغرفة ولحق بإينمان فى كومة التبن. جلسا دقيقة فى صمت. كان المطر ينقر ألواح الخشب المرتجفة فوق رأسيهما ويذكرهما بكم كان أى سقف محكم وكومة قش جاف شيئين رائعين. أسهمت دائرة ضوء المصباح الصفراء فى جعل العلّية الواسعة أكثر دفئا وراحة. كان كل الفراغ فيما وراء قطرها ينتهى فجأة بظلام،

كما لو كان الضوء قد خدش أبعاد غرفة حولهم بإحكام. كان بإمكانهما أن يسمعا تحتهما تزحزح الخيول من مرابطها، ونفخ أنفاسها. والهمهمة النعسانة للناس الآخرين وهم يتكلمون.

نبش البائع المتجول فى حقيبته مرة أخرى وأخرج قارورته القصديرية. نزع سدادتها وجرع جرعة طويلة. ثم مد يده بها إلى إينمان.

قال: هذا شراب من متجر فى تنيسى.

أخذ إينمان جرعة ووجده شرابا طيبا، له نكهات الدخان والجلد وأشياء أخرى بنية اللون ودسمة.

وفى الخارج، استجمع المطر قوته وهبت الريح فى الظلام وهى تصفر فى ألواح الخشب المرتجفة. صرت الألواح، وتواثب الضوء وتأرجح فى تيار الهواء. كانت ليلة عاصفة لساعات. راحا يشربان وسط الهدير والوميض، وهما متمددان فى القش يحكيان حكايات عن النفى والتجوال الوحشى.

اكتشف ان اسم الرجل هو أوديل، وأمكنه أن يرى فى ضوء المصباح أنه أبعد ما يكون عن كبر السن، رغم أن شعره أبيض مثل أوزة. كان على أقصى تقدير أبعد قليلا من إينمان فى سياق الزمن.

قال أوديل، لم أعش حياة سهلة. ولا تدع ما أنا عليه الآن يدل على ما كان أمرى دائما. ولدت ثريا. وبمقتضى حقوقى ينبغى أن أرث إرث مزارع قطن ونيلة فى جنوب جورجيا. ثروة يمكن أن يحدث هذا فى أى وقت الآن، لأن أبى عجوز. ويمكن أن يكون قد مات بالفعل، فى حدود علمى، روث سمك الكراكى العجوز. كان من الممكن أن يكون كل هذا لى. من أرض أوسع من أن يشغلنى قياسها بالهكتارات. فحدودها تمتد عشرة أميال من ناحية وستة من الناحية الأخرى. وفوق ذلك عدد من الزنوج أكبر مما يمكنك أن تجد لهم عملا نافعا. كلها لى.

قال إينمان: ولماذا أنت لست هناك؟

استغرقت الاجابة عن سؤاله الأمسية كلها، وعندما فرغ زيت المصباح، حكى البائع المتجول حكايته الحزينة عن حب ساور فى غيه فى الظلام. كان أوديل فتى سعيدا. أكبر الأبناء. نال تربية وتعليما بحيث يتسلم أمور المزرعة. وكانت المشكلة، وهو بعد شاب فى العشرين من عمره، أنه وقع فى حب غير لائق مع

إحدى الخادمات السوداوات، أمةٌ تدعى وسيندا. وكما حكى فإنه أحبها حبا يتجاوز الجنون، لأن مجرد حبها على الإطلاق، بعد أن عرف به الجميع، كان دليلا على عقل ملتاث. كانت، فى البدية، امرأة فى الثالثة والعشرين، بها ثُمْنُ الوراثة الزنجية قال إن جلدها لم يعد فى سمرته أن يكون لون جلد غزال مدبوغ. كانت وردة صفراء

ومما زاد الأمر تعقيدا أن أوديل لم يكن قد مر على زواجه من ابنة صاحب مزرعة كبير فى المقاطعة زمن طويل. كانت آماله طيبة للغاية حتى أنه كان له أن يختار من بين الفتيات القاصيات والدانيات. كانت المرأة التى اختارها زوجا له امرأة ضئيلة القد وهزيلة، تصيبها نوبات من الإرهاق العصبى وتقضى أوقات عصر كاملة مغمى عليها على كنبة الإغماء فى قاعة الاستقبال. لكنها كانت جميلة على نحو شفاف، وقد فضلها على كل الأخريات. وبعد الزواج، على أية حال، بعد أن خلع منها أكواما من التنورات المنتفخة، لم يبد أنه قد تبقى منها الكثير. كانت ضئيلة رقيقة القوام للغاية. وجد بها القليل مما يحفظ عقله من الشرود.

كانت العائلة كلها تعيش فى البيت الكبير- أوديل وزوجته الضئيلة الجديدة وأبواه وأخوه وأخته. كانت واجبات أوديل خفيفة، إذ لم يكن أبوه قد وصل بعد إلى النقطة التى يتخلى فيها عن سلطاته. لا لأن أباه كان يمتلك براعة فائقة من مهارات ملكية الأرض، إذ أن إنجازه الأول فى حياته هو أنه كُلِّف بمذاق الايسينث والويسكى منذ أن قام بزيارة إلى فرنسا وهو شاب.

ولما لم يكن لديه إلا أقل القليل ليشغل عقله، فإن أوديل قضى الكثير من وقته يقرأ روايات سكوت. فى الشهور اللطيفة البرودة يصطاد الحيوانات وفى الشهور الدافئة يصطاد السمك. ونمى فى نفسه اهتماما بتربية الخيول. وأصابه الملل.

جاءت لوسيندا إلى الأسرة نتيجة لمجموعة معقدة من مكاسب القمار كان أبوه قد جمعها فى رحلة صيد دببة فى الخريف. ونتيجة للعب الورق فى الأمسيات، وعدد كبير من الخنازير، والعديد من عائلات العبيد، وسرج حصان. ووجار ملىء بكلاب صيد الطيور، وبندقية إنجليزية الصنع رائعة، أنتقلت حيازة لوسيندا. وفى اليوم الذى سلمها فيه صاحبها السابق، لم تكن لوسيندا تحمل

سوى قطعة قماش مربعة، ربطت أطرافها حول كل حاجياتها الشخصية إلى درجة أن الربطة لم تكن أكبر من يقطينة.

أسند إليها العمل فى المطبخ، حيث رآها أوديل أول مرة. دخل الحجرة ووقع فى حبها فى تلك اللحظة، فى حب سواد شعرها الهش، وعظام يديها وقدميها وكاحليها الرقيقة، والطريقة التى كان جلدها يمتد بها عبر ترقوتها. كانت حافية القدمين، وقال أوديل لإينمان إنه وهو واقف هناك ينظر إلى أسفل إلى قدميها بشكلهما اللطيف ود لو أن زوجته كانت ميتة.

ولشهوة بعد ذلك، كان يقضى الكثير من وقته جالسا فى كرسى فى ركن الموقد يشرب قهوة ناظرا إلى لوسيندا فى ذهول حتى علم كل من بالبيت النحو الذى يجرى عليه الحال. انتحى أبوه به جانبا ذات يوم ونصحه بأن يسوى الأمر بأن يصحبها إلى أحد المبانى الملحقة بالمزرعة، كما عبر عنها، وأن يطرحها أرضا.

رُوِّع أوديل. فسر لأبيه الأمر قائلا إنه كان فى حالة حب.

ضحك أبوه وقال: لقد ربيت أحمق.

وفى اليوم التالى أجَّر أبوه لوسيندا لعائلة فى الجانب البعيد من المقاطعة. كانوا مزارعين محدودى الحال غير قادرين على شراء عبيد خاصين بهم. دفعوا أجرا لوالد أوديل لقاء عملها واستخدموها فى أعمال الحقل، تحلب الأبقار وتحمل الأخشاب. كل ما كان بحاجة إلى عمل.

استولى اليأس على أوديل. قضى أياما عديدة راقدا فى الفراش. أو متجولا حول المقاطعة، يشرب ويقامر. حتى اكتشف أن زوجة المزارع كانت تجعل لوسيندا تحمل البيض إلى البلدة لتبيعه.

كان أوديل يستيقظ فى صباح تلك الأيام، ومزاجه مشرق فجأة كما يمكن لمزاج أن يشرق، ويعلن أنه ذاهب للصيد. كان يأمر بإسراج حصان وإعداد بندقية محشوة فى غمد، وكلبين. كان يثب فوق الحصان من الشرفة ويركب أميالا خببا، والكلبان يتبختران خلفه على طول الطريق، ويتجول هنا وهناك فى الغابات يتفحص الروائح بكثير من الانشراح كما لو كان يصطاد فعلا. كان يركب الحصان إلى البلدة، ماراً خلالها، وخروجا من الجانب الآخر وإلى أسفل الطريق حتى التقى بلوسيندا تسير حافية القدمين، وعلى ذراعها سلة بيض. كان

يترجل ويسير إلى جانبها، ويأخذ منها السلة لحملها عنها، ويحاول أن يجد موضوعا مناسبا للحديث. ولم يحاول مرة واحدة خلال تلك الشهور الأولى أن يجذبها إلى داخل الغابات. كانت تستعطفه أن يتركها وشأنها، إكراما لخاطره وخاطرها. وعند طرف البلدة كان يعيد إليها السلة ويتناول يدها بين يديه، ورأسهما منكسان عند الفراق.

وجد أوديل نفسه فى آخر الأمر بطبيعة الحال، يسحبها إلى داخل الغابة ويطرحها فى فراش من قش الصنوبر. وبعد ذلك شرع يذهب إلى كوخها عدة ليال فى الشهر. كان يعقل الحصان فى الغابات ويربط الكلب فى شجرة. وعندما يدخل المساحة المكشوفة فى غابات أشجار الصنوبر حيث يقوم كوخها، كانت تهرع إليه فى ثوب نومها النحيل فيضمها إليه ثم يقودها إلى الداخل لينام معها حتى قبل فجر اليوم تماما.

كان يتغيب عن البيت بتعلات متنوعة، على رأسها صيد الراكون، وسرعان ماعلم كل عبد فى المنطقة حتى أن أوديل كان يدفع دولارا عن كل راكون حديث الصيد. ويشترى، إذا استطاع، واحدا وهو فى طريقه إلى البيت ليثبت صحة حكايته عن الصيد. وإلا فإنه كان يرجع إلى البيت يندب عدم مهارته فى إطلاق النار، وسذاجة كلابه، وندرة حيوانات الصيد المتزايدة.

استمر الحال على هذا المنوال لمدة عام. ثم أخبرته لوسيندا ذات ليلة أنها حامل. وعند ذلك، لم يستطع أوديل أن يتحمل أكثر من هذا، وفى اليوم التالى ذهب إلى أبيه، وقابله فيما يقال له حجرة المكتب، رغم أن كل ما كان يدرسه هناك هو دفاتر حسابات المزرعة. وقفا معا بجوار المدفأة. عرض أوديل أن يشترى منه لوسيندا. كان ليدفع أى ثمن يحدده، بلا مساومة.. جلس أبوه يفكر مذهولا.

قال: دعنى أتأكد من أننى أفهم هذا. هل تشترى هذه الزنجية من أجل أعمال الحقل أم من أجل فرجها.

صوب أوديل ضربة قاسية إلى أذن أبيه. سقط الرجل ثم نهض وسقط مرة ثانية. أدمى ثقب أذنه. وصاح بصوت جهير، أدركونى.

قضى أوديل الأسبوع التالى محبوسا فى بيت للتعليب، مصابا بكدمات حول رأسه وفى ضلوعه من العلقة التى نالها على يدى شقيقه الأصغر ورئيس عمال أبيه. وفى اليوم الثانى جاء أبوه إلى الباب وتكلم من خلال شق قائلا، لقد بعت تلك الداعرة فى مسيسبى.

ألقى أوديل بنفسه على الباب مرة بعد مرة. عوى طوال تلك الليلة مثل كلبى صيد الراكون، ثم بين آن وآخر على فترات لأيام عديدة تالية.

وعندما أنهك إلى درجة لم يستطع معها أن يعوى، فتح أبوه قفل الباب. وترنح أوديل خارجا، وهو يطرف بعينيه فى الضوء. قال أبوه، أعتقد أنك قد تعلمت درسا. وخطا مبتعدا باتجاه الحقول السفلى، وهو ينقر رءوس الحشائش والزهور البرية بمقبض سوطه المضفور.

دخل أوديل البيت وحزم ملابسه فى كيس جلدى ومن صندوق الخزانة فى مكتب أبيه أخذ كل النقد الذى أمكنه أن يجده - كيسا على جانب من الكبر ممتلئا بقطع ذهبية وحزمة من الأوراق المالية وذهب إلى حجرة أمه وأخذ بروشا من الماس والياقوت، وخاتما من الزمرد، وعدة عقود من اللؤلؤ. ثم ذهب وأسرج جواده وركب إلى مسيسبى.

وفى السنين السابقة على الحرب، بحث فى الولايات التى تزرع القطن حتى أبلى ثلاثة جياد وأتى على مخزونه من الأشياء القيمة. لكن لايزال أمامه أن يجد لوسيندا، ولم تطأ قدمه مطلقا أرض موطنه مرة أخرى.

كان لايزال، بمعنى ما، يبحث. كان ذلك السبب، حين دعت الحاجة إلى أن يكسب رزقه، فى اختياره لحياة تجوال. وقد تدنى نصيبه فى العمل فى نهاية الأمر من تاجر يمتلك حصانا وعربة شحن إلى سمكرى يدفع عربة يد. ولم يعد لديه سوى خطوات قليلة باقية وبإمكانه أن يتصور نفسه بعد قليل وهو يجر زحافة بلا عجلات أو عربة يد، إما ذلك أو أن يبيع حليا تافهة من ربطة يحملها على ظهره.

عندما انتهت الحكاية، وجد إينمان وأوديل أن قنينة الشراب قد فرغت. ذهب أوديل إلى ربطات سلعه وعاد يحمل زجاجتين صغيرتين من دواء مسجل ببراءة، معظمه عن الحبوب والكحول. جلسا وراحا يرشفان منها، وبعد وقت قصير قال أوديل: أنت لم تر أنواع الخسة التى رأيتها. أخبره عن رحلاته فى مسيسبى بحثا عن لوسيندا، والمشاهد التى جعلته يخشى أن يكون قد أنتقل بالفعل إلى العالم الآخر بطريقة ما دموية بشعة. ومشاهد جعلته يخشى أنه لم يكن. حدثه عن زنوج يحرقون أحياء. عن أولئك الذين تقطع آذانهم وأصابعهم لأنواع مختلفة من سوء السلوك. وقد صادفه أسوأ مثل هذه العقوبات فى ناتشيز.. كان يسير على طول طريق موحش قرب النهر. وسمع بعيدا فى الغابات هرجا ومرجا يصدر عن صقور جواعة، عويلا طويلا. أخذ بندقيته وذهب ليتحقق، وكان ما

وجده أمرأة فى قفص صنع من أعواد الفاصوليا تحت شجرة بلوط دائمة الخضرة. كانت الشجرة قاتمة وهى تغص بالصقور. حطت على القفص وأخذت تنقر المرأة بداخله. كانت قد اقتلعت إحدى عينيها سلفا ومزقت شرائح من جلدها عن ظهرها وذراعيها.

عندما رأت أوديل بعينها الواحدة صاحت بصوت جهورى أطلق النار على. ولكن أوديل أطلق كلتا ماسورتى بندقيته على الشجرة. سقطت صقور على الأرض حول المكان وطارت الصقور الباقية طيرانا متثاقلا. تملك أوديل خوف فجائى من أن تكون المرأة لوسيندا. ذهب إليها وفتح القفص عنوة بطرف البندقية الغليظ وسحبها إلى الخارج. أرقدها على الأرض وسقاها ماء. لم يكن لديه أدنى فكرة عما ينوى أن يفعله، ولكن قبل أن يقرر تقيأت المرأة دما وماتت.. نظر إليها ولس قدميها وعظمة ترقوتها وشعرها. ولكن لم يكن من الممكن أن تكون لوسيندا.. كان لونها مختلفا وقدماها منعقدتين.

عندما فرغ أوديل من حديثه كان ثملا وقد جلس يجفف عينيه بأسورة قميصه.

قال إينمان لافتقاره إلى تعليق أفضل: إنه عالم محموم.

عندما طلع النهار رماديا ضبابيا، غادر إينمان النُزُل المحترق ونزل إلى الطريق. تبعه فيسى بعد وقت قصير. كان مصابا بقطع موسى نحيل تحت إحدى عينيه وهو لايزال ينزف خطا من دماء على وجنته، وظل يمسحه بكم معطفه.

قال إينمان: ليلة شاقة؟

– لم تكن تقصد إيذاء حقيقيا. وقد حدث خدش الموسى هذا عن طريق مساومتى لها بإلحاح على ثمن قضائها الليلة معى.. لكن على الأقل لم يتحقق خوفى الأعظم لحسن الحظ، أن تستخدم ذلك النصل على عضو رجولتى.

– حسنا: أرجو أن تكون الليلة جديرة بذلك.

– تماما. إن أوجه فتنة النساء الفاسدات الفاسقات يضرب بها المثل، واعترف بأننى رجل مفتون أكثر مما ينبغى بخصائص التشريح الأنثوى. ففى الليلة الماضية حين خلعت قميصها الداخلى الكبير ذلك ووقفت أمامى، كنت مذهولا لطلعتها التى تبهج العين. مصعوقا، فى حقيقة الأمر. كان منظرا يستحق أن أسجل بصماته لأذكرها فى شيخوختى، منظرا يبهج عقلا يستسلم خلافا لذلك للقنوط.

الأصل والجذر

كانا قد شرعا في الذهاب إلى البلدة في مطر بارد يتساقط رذاذا. كانت إيدا قد ارتدت معطفا طويلا من نسيج قطني ناعم مطلي بالشمع، وارتدت روبي سترة من اشغال الحياكة الصوفية فخمة شغلتها من صوف غير مصبوغ مازال دهن صوف الغنم عالقا بها، زاعمة أن الزيت يطرد الماء مثل المعطف الواقي من المطر. كانت نقطة ضعف السترة الوحيدة هي أنها تنشر شذا نعجة لم تُجَز. كانت إيدا قد ألحت على حمل مظلتين، لكن بعد ساعة على الطريق تفرقت السحب وسطعت الشمس. ولذا فإنه ما إن كفت الأشجار عن القطر، حتى حملتاهما مطويتين، وروبي تحمل مظلتها فوق كتفها مثل صياد يتجه إلى الغابة حاملا بندقية.

كانت السماء الآخذة في التحسن حافلة بطيور مقيمة وطيور مهاجرة متجهة جنوبا قبل أوان موسمها: أنساق متعددة من البط والأوز رمادية وبيضاء، بجع يُصفِّر، صقر من نوع كوبر وصقر أحمر الذيل، صقر ليلي، سمان، عصافير، والرفراف صياد السمك.

أبدت روبي ملاحظات على كل هذه الطيور وغيرها وهما في طريقهما إلى البلدة، وهي تجد خيط قصة أو دليلا على الشخصية في أدق عاداتها. كانت روبي تفترض أن سقسقة الطيور نطق محمل بمعنى مثل الحديث البشري

وزعمت أنها يروق لها بشكل خاص وقت الربيع حين ترجع الطيور وهي تصدح بأغانيها لتقدم تقريرا عن أين كانت ومافعلته أثناء إقامتها هناك.

عندما عثرت إيدا وروبى على خمسة غربان تعقد مجلسا على حافة حقل أصفر ممتلئ بما تبقى من الزرع بعد حصاده. قالت روبى: لقد سمعت أن هناك زعما بأن الغداقات تعيش عدة مئات من السنين، رغم أن كيفية اختبار ذلك مجرد تخمين. وعندما طارت أنثى كردينال تحمل غصين شجرة سندر فى منقارها على مقربة منهما لفت ذلك نظر روبى لغرابته. قدرت أنها طائر مشوش بشكل عميق، إذ لماذا تحمل مثل ذلك الشىء إن لم يكن لبناء عش؟ ولكن لم يكن هذا أوان ذلك. وعندما مرتا بموقع أشجار الزان بالقرب من النهر. قالت روبى إن النهر يحمل اسمه من أعداد الحمام الزاجل الهائلة التى تحتشد أفواجا هناك لتأكل لوز الزان، وقالت إنها قد أكلت كثيرا من الحمام فى شبابها عندما كان ستوبرود يختفى لأيام تاركا إياها لتعول نفسها. فقد كانت أسهل صيد يمكن لطفل أن يناله. فلم يكن عليك حتى أن تطلقى عليها النار، أن تسقطيها من على الشجرة فحسب بعصى طويلة وأن تلوى رقبتها قبل أن تفيق لنفسها.

وعندما أزعج ثلاثة غربان صقرا عبر السماء، عبرت روبى عن احترامها البالغ للغراب الذى يسبه الناس عادة، وهى تجد الكثير مما يستحق المحاكاة فى نظرته للحياة. ولاحظت باستهجان أن كثيرا من الطيور تفضل الموت على أن تأكل أى طعام سوى ما يروق لها مذاقه. أما الغربان فإنها يروق لها مذاق ما يعرض لها. أبدت إعجابها بحدة فطنتها، وافتقارها إلى الكبرياء، وحبها للفصول المضحكة، ومكرها فى العراك. كانت ترى أن كل هذه الأشياء تشكل عبقرية الغراب، التى كانت نوعا من التحكم الإرادى فيما اعتبرته ميلا طبيعيا لسرعة الغضب والاكتئاب، كما يتضح من ريشها الكئيب.

قالت روبى بعبارة مقصودة، يمكننا جميعا أن نتعلم من الغراب، لأن إيدا ظلت صماء باكتئاب إلى حد أنها يحسن بها أن ترتدى شريطا أسود على كمها لتعلن ذلك للعالم. كان بعض ذلك الاكتئاب راجعا إلى عمل الأسبوع السابق الشاق. فقد عملتا تبنا فى الحقول المهملة. رغم أنه كان فى نهاية الأمر مختلطا بالعشبية المهلهلة ونبات الفربيون إلى حد لا يكاد معه يصلح للاستعمال. فقد عملتا يوما عدة ساعات فى إعداد المناجل للقطع. احتاجتا أولا إلى مبْرد وحجر جلىْ لإنعاش أسنان المناجل الثلمة الصدئة، التى وجدتاها ترقد مضطجعة على

روافد سقف مخزن الأدوات. لم تستطع إيدا أن تقول بطريقة أو بأخرى إذا ما كان مونرو قد امتلك مثل هذه الأدوات مثل المبرد وحجر الجلخ. كان لديها شكوكها، لأن المناجل لم تكن له لكنها تركت من حيازة آل بلاك للأرض في الخليج. نقبت إيدا وروبى معا فى محتويات المخزن حتى وجدتا مبردا رفيعا مستدقا، وطرفه الحاد مغروز فى قولحة ذرة يعلوها التراب بصفتها مقبضا. لكن لم يظهر حجر أبدا بين ركام الأشياء.

قالت روبى، لم يكن لدى أبى أيضا أبدا مسنٌ. كان يبصق فحسب على قطعة من الطفل ويدعك سكينه عليه بحركة أو حركتين من يديه. ومهما بلغت درجة حدته، كان ذلك كافيا. لم تكن مسألة كبرياء لديه إذا كان يمكن للسكين أن يحلق شعرا على ذراعك أم لا. فما دام أمكنه أن ينشر به قرصا من قطعة تبغ للمضغ، كان سعيدا بما فيه الكفاية.

وفى النهاية أقلعتا عن البحث ولجأتا إلى أسلوب ستوبرود، مستخدمتين قطعة من الطفلة والطين الصفحى مسطحة وملساء وجدتاها بالقرب من الجدول. وبعد دعك كثير، ظل النصلان على حال هامشى من الحدة، لكن إيدا وروبى ذهبتا إلى الحقل وأرجحتا المنجلين طوال وقت العصر ثم جرفتا الحشائش المقطوعة فى ركام، وأنهتا العمل فى الليلة السابقة، بعد غروب الشمس بوقت طويل. وفى اليوم السابق للخروج فى نزهتهما، عندما كان التبن قد جف على الأرض ملأتا زحافة الجر مرة بعد أخرى به وأفرغتاه فى مخزن الغلال. كانت الجذامة تحت أقدامهما تقف صلبة وحادة حتى أنهما شعرتا بها تندفع فى نعلى حذاءيهما. عملتا على جانبين متضادين من الركام، وهما تتبادلان تذرية القش فى الزحافة. وعندما تقطع إيقاعهما، كانت شعب مذراتيهما تدقان أحدها الآخر وتفزع رالف، الذى استسلم للنعاس على سيور الزحافة، فيهز رأسه.. كان العمل شاقا، وعلق برأسيهما نفايات القش وفى ثنايا ثيابهما والتصقت بسواعدهما ووجهيهما التى بللها العرق.

وعندما فرغتا، شعرت إيدا بأنها على وشك التهالك. كان ذراعاها تنتشر فيهما بقع حمراء كمن يعانى من الحصبة لأن أطراف الحشائش المقطوعة وخزتهما، وكشطتهما، وكان هناك بثرة تمتلئ دما فى نسيج جلدها بين السبابة والإبهام. كانت قد اغتسلت وتهالكت فى السرير، وهى لم تأكل شيئا سوى قطعة بسكويت باردة بالزبد والسكر.

ورغم أنها كانت متعبة، فإنها وجدت نفسها تصحو مرارا وتكرارا من نوم حقيقى فى حالة صحو جزئى ضبابى متأرجح، مزيج من النوم القلق والصحو يتقاسمان أسوأ جوانب كل منهما.. شعرت بأنها تجرف التبن وتقذفه طوال الليل وعندما تيقظت بما فيه الكفاية لأن تفتح عينيها، رأت ظلال أغصان الأشجار السوداء تتحرك فى رقعة من ضوء القمر تسقط على ألواح أرضية الغرفة ثم أظلمت السحب السوداء القمر، فى وقت ما من الليل، ونزل المطر غزيرا وغلب إيدا النعاس.

استيقظت على فجر مطير وهى تشعر بأنها مقعدة من وجع عضلاتها. كانت يداها تنبسطان بمجهود من قبضتهما المتخيلة على المذراة، ورأسها ينبض بألم عام. بألم محدد فوق وخلف جفنها الأيمن بالضبط. لكنها عقدت عزمها على أن تقوم بجولة نزهتها كما خططت لها، فقد كانت إلى حد كبير نزهة تقومان بها للاستمتاع، رغم أنهما كانتا بحاجة إلى شراء بعض البنود الصغيرة القليلة المدرجة فى جدول أعمالهما. كانت روبى تريد أن تزود مؤنهما من مواد حشوات بنادق الرش الخاصة بهما- من رش ورصاص لصيد الطيور والغزلان إذ جعلها الجو الذى يميل للبرودة اللطيفة فى حالة مزاجية لصيد الديوك الرومية البرية والغزلان. ومن جانبها، أرادت إيدا أن تفحص الأرفف الواقعة فى خلفية مكتبة بيع الأدوات المكتبية لترى إذا كانت أى كتب جديدة قد وصلت ولتشترى دفتر يوميات مغلفا بالجلد وبعض أقلام الرصاص للرسوم التخطيطية حتى تسجل بعض محاولاتها فى دراسة النباتات فى بيئتها الطبيعية. وأساسا، رغم ذلك، لأن إيدا كانت تشعر بأنها مقيدة تماما بالخليج بعد أسابيع من العمل. وكانت تتوق بشدة إلى الخروج فى نزهة إلى البلدة للتريض إلى حد أن عضلاتها الموجعة، وحالتها المزاجية السوداوية وجد الصباح الذى لايبشر بخير لم تمنعها من الخروج. لا ولم يمنعها اكتشافها غيرالسار فى مخزن الغلال فى وقت ما أثناء عمل اليوم السابق أن الحصان قد أصابت الأحجار باطن حافره بكدمات ولم يكن قادرا على جر العربة المكشوفة.

كانت إيدا قد قالت مخاطبة ظهر روبى وهى منحنية فى المطر تمسك بيديها حافر الحصان الملطخ بالطين، إننى ذاهبة إلى البلدة حتى لو أضطررت إلى أن أزحف.

ولذا كان تقدم إيدا على الطريق كئيبا فى ذلك الصباح، رغم أفضل محاولات روبى فى الحديث عن تقاليد الطيور. سارتا مجتازتين مزارع قائمة فى وديان

وخلجان صغيرة، والمزارع تتفتح بين التلال التى تغطيها الغابات مثل غرف فى بيت، كان هناك نساء وأطفال وعجائز يعملون على المحاصيل، إذ أن كل رجل راشد قادر على الحرب قد رحل للقتال. وكانت الأوراق على عيدان الذرة بنية اللون عند الأطراف والحواف، ومازالت القولحات التى تركت للتقشير قائمة على عيدان فى انتظار أن تجففها الشمس والصقيع. وقد رقدت اليقطينات وفواكه العصائر وهى تلمع على الأرض بين خطوط الذرة. وقامت نباتات عصا الذهب وعشب القهوة وجذر الثعبان مزهرة بحذاء السياجات، والأوراق على سيقان التوت الأسود وأشجار القرنوس داكنة الحمرة.

سارت إيدا وروبى فى طرقات البلدة وهما تنظران إلى المتاجر، وأزواج الخيول والعربات والنساء اللاتى يحملن سلال التسوق. كانتا قد أصابتا دفئا إلى حد أن إيدا حملت معطفها الشمعى مكورا تحت ذراعها. وارتدت روبى سترتها حول وسطها وقد دفعت شعرها إلى الخلف بمستوى ياقتها وقد ضفرته بشريط من خصلات شعر الخيل. كان الهواء لايزال مغبشا. والجبل البارد لطخة زرقاء، حدبة على خط الحافة البعيدة، وقد جعله المسار الطويل صغيرا بحيث لم تعد له أبعاد على خلفية السماء أكثر من ورق ملتصق بورق.

لم تكن عاصمة المقاطعة بلدة على قدر كبير من التهذيب. على جانب منها كان هناك مبان لمتاجر الألواح الخشبية تقوم صفا واحدا، ثم حظيرة خنازير وحفرة طينية، ثم متجران آخران، وكنيسة، ومكان لتأجير العربات. وعلى الجانب الآخر ثلاثة متاجر، ثم المحكمة- وهى عبارة عن إطار مبنى أبيض له قبة صغيرة تقوم بعيدا قليلا عن الطريق وأمامها مرج مرقع - ثم واجهات أربعة متاجر أخرى، اثنان منها بنيا بالطوب الأحمر. ثم امتدت البلدة بعد ذلك إلى حقل مسبخ بعيدان الذرة الجافة. وقد تخددت الطرقات بفعل عجلات عربات الشحن الضيقة. وكان الضوء يلمع من مياه تجمعت فى أحواض لا حصر لها صنعتها ممرات الخيول.

ذهبت إيدا وروبى إلى محل خردوات وأشتريا حشوات أثواب، ورشا وطلقات رصاص، وقلنسوات وبارودا. وفى محل بيع الأدوات المكتبية دفعت إيدا أكثر مما تقدر عليه لشراء رواية آدم بيد فى ثلاثة مجلدات، وستة أقلام فحم كبيرة، ودفتر يوميات من قطع صغير مصنوع من ورق جيد راق لها لأنه صغير بما يكفى لأن يناسب جيب معطفها. ومن بائع فى الطريق اشتريتا جرائد - جريدة المقاطعة وجريدة أشفيل الأكبر حجما.

واشتريتا جعة دافئة مصنوعة من جذور نباتات من امرأة تنقر برميلا فى عربة يد وشربتاه واقفتين وأعادتا للمرأة أقداحها القصديرية. واشتريتا للغذاء جبنا صلبا وخبزا طازجا حملتاه إلى مكان قريب من النهر وجلستا على صخرتين لتأكلاه.

وفى وقت مبكر من عصر اليوم توقفتا عند بيت السيدة ماكينيت، وهى أرملة ثرية فى منتصف العمر أبدت اهتماما شديدا بمونرو لمدة موسم أو موسمين ثم أصبحت بعد ذلك صديقته بعد أن عجز عن رؤيتها فى نفس الضوء. لم يكن وقت تناول الشاى، لكنها سرت لرؤية إيدا حتى أنها عرضت عليهما فرصة استمتاع أعظم. فلأن الصيف كان رطبا ورطيبا، كان لازال لديها فى ذلك التاريخ المتأخر ثلج مستقر فى حفرة الثلج فى البدروم. وقد كُسِر فى كتل كبيرة من البحيرة فى فبراير السابق ولف فى نشارة خشب. وبعد أن أقسمت عليهما ألا يفشيا السر، كشفت لهما عن أن لديها أربعة براميل من الملح وثلاثة من السكر منذ وقت طويل قبل الحرب. كان ما يدور برأسها هو الإسراف فى الآيس كريم، وكلفت خادمها- وهو شخص عجوز أشيب أضعف من أن يُجَند- بأن يكسر الثلج ويدير الآلة.. ففى زمن ما فى الماضى كانت قد صنعت عددا من الورق الرقيق المجعد المحلى بالسكر ولفته فى شكل مخروطات وتركتها تجف، وقدمت الآيس كريم فيها. لم تكن روبى، بطبيعة الحال، قد تناولت مثل هذا الشىء واستمتعت به. وبعد أن لعقت آخر قطرة بيضاء، مدت مخروطها إلى السيدة ماكينيت وقالت، هذا قرنك أعيده إليك.

دار حديثهن عن الحرب وآثارها، وكانت السيدة ماكينيت تعتنق آراء تتفق مع كل افتتاحية فى جريدة قرأتها إيدا على مدى أربع سنوات، وهو مايعنى أن السيدة كينيت تجد الحرب رائعة ومأساوية وبطولية. أنبل من قدراتها على التعبير. قصت عليهما قصة طويلة مسرفة فى العاطفية قرأتها عن معركة أخيرا، وقد غاب عنها فيما يبدو أنها قصة مختلقة.. دارت رحى المعركة- كما كانت كل المعارك تدور أخيرا- فى مواجهة صعاب جمة. وعندما أشرفت المعركة على نهايتها المحتومة، جرح ضابط شاب مندفع فى الصدر جرحا بليغا. سقط على ظهره وهو ينزف قطرات كبيرة من دماء قلبه. انحنى أحد رفاقه واحتضن رأسه حتى يخفف من ميتته. ولكن عندما احتدم وطيس المعركة حولهما، وهو فى النزع الأخير، نهض الضابط الشاب وسحب مسدسه وأضاف إسهامه إلى اطلاق

المدافع. مات منتصب القامة وقادح المسدس يطقطق على حشوات فارغة. وجد على شخصه خطاب مكتوب لحبيبته، وعباراته تنذر بالنحو الذى جرى عليه موته. واكثر من هذا، أن الرسول الخاص الذى حمل الرسالة إلى بيت الفتاة، اكتشف أنها كانت قد ماتت من نوبة قلبية فى نفس اليوم والساعة بالتحديد اللذين مات فيهما حبيبها. أحست إيدا بحكة على جانبى أنفها، فى المراحل الأخيرة من الحكاية. لمست تلك الأماكن خفية بأطراف أصابعها. لكنها وجدت عندئذ أن ركنى فمها يمكنهما أن يظلا مزمومين بجهد بالغ.

وعندما أنهت السيدة ماكينيت قصتها، جالت إيدا بنظرها فيما حولها من اثاث وسجاد ومصابيح، فى بيت تسير أموره بلا جهد، وفى السيدة ماكينيت وهى راضية ومدملجة فى كرسيها القطيفى وشعرها يتدلى لفائف من على جانبى رأسها. كان يحسن بإيدا أن تكون فى تشارلستون. وشعرت بأنها مطلوب منها أن تعود إلى سلوكها القديم فى تشارلستون. قالت، ذلك أسخف ماسمعته على الإطلاق. وواصلت كلامها وهى تضيف أنها تجد الحرب، خلافا للنظرة العامة إليها، تبدى أى شىء سوى الصفات الرائعة للمأساة والنبل. وأنها تجدها، حتى على هذه المسافة البعيدة، وحشية يسودها ظلام جهل مطبق من كلا الجانبين بالتساوى. تنحط بقدر الجميع.

كان هدفها أن تصدم أو تسىء، لكن السيدة ماكينيت بدلا من ذلك بدت مسرورة. حدقت فى إيدا بنصف ابتسامة وقالت، تعرفين اننى أكن لك محبة قوية، لكنك مع ذلك أكثر فتاة ساذجة سعدت بمقابلتها حتى الآن.

أمسكت إيدا عندئذ عن الكلام وساد فراغ محرج سرعان ما ملأته روبى بفهرسة الطيور التى لاحظتها ذلك الصباح والتعليق على تقدم المحصولات المتأخرة وبتقديم تقرير عن الحقيقة المذهلة وهى أن لفت ايسكو سوانجر قد نما كبيرا فى تربة حقله السوداء حتى انه لم يكن قادرا إلا على مطابقة ست حبات منها فى سلة تحمل قليلا. لكن السيدة ماكينيت قاطعتها بعد برهة وقالت، ربما شاركت معنا بآرائك عن الحرب.

ترددت روبى لثانية ثم قالت إن الحرب تستأثر بالقليل من اهتمامها. وقد سمعت قصصا عن البلد الشمالى وتوصلت إلى فهم أنها أرض كافرة، أو

بالأحرى أرض لها آله واحد، وهو المال. والتقرير الذى وصلها عنها أنه فى ظل سيادة مثل هذه العقيدة الشحيحة فإن الناس يصبحون وضعاء وممرورين ومخبولين حتى يصل الأمر بعائلات بأكملها إلى أن يصبحوا مجانين بالمورفين، بسبب افتقارهم إلى أشكال أسمى من الراحة الروحية. وقد اخترعوا أيضا يوم عطلة يقال له عيد الشكر، بلغت أنباؤه روبى أخيرا، ومما فهمته عن ملامحه فإنها وجدته يحتوى على علامة تدل على ثقافة ملوثة. أن يكونوا شاكرين ليوم واحد فقط.

وفى وقت متأخر من عصر اليوم، بينما كانت إيدا وروبى تسيران على طول الشارع الرئيسى، رأيتا زمرة من الناس تقف عند الحائط الجانبى لمبنى المحكمة ورءوسهم مرفوعة إلى أعلى. ذهبتا لتريا مايحدث ووجدتا سجينا فى نافذة الطابق الثانى يدلى بحديث إلى الناس أسفله. كان الأسير رافعا يديه إلى أعلى قابضا على القضبان، وقد رفع وجهه إلى أقصى حد يمكنه ان يبلغه بينها. كان الشعر الذى ينمو على رأسه أسود ومغطى بالزيت ويتدلى فى شكل ذيول فأر تحت فكه السفلى. وتحت شفته السفلى نمت خصلة صغيرة من لحية سوداء على الطريقة الفرنسية. وكل ما أمكنهما أن ترياه من ملابسه قبل أن تحجبه حافة النافذة سترة زى رسمى رثة مزرة حتى العنق.

كان يتحدث بأوزان متعجلة بطريقة واعظ من وعاظ الشوارع، وقد جمع حشدا من الناس بسورة الغضب التى تتجلى فى صوته. زعم أنه قد قاتل بضراوة خلال الحرب. وقد قتل عدة اتحاديين وتلقى قذيفة فى صدره فى ويليامز بورج. لكنه فقد الإيمان بالحرب أخيرا وأنه يفتقد زوجته. وأنه لم يجند بل تطوع للقتال، وكل مافعله مما يعد جريمة هو أن ينهى تطوعه وأن يسير عائدا إلى بيته والآن هاهو يقف سجينا. وأنهم قد يشنقوه، رغم أنه كان بطل حرب.

واصل السجين حديثه عن كيف قبض عليه الحرس الوطنى منذ أيام فى مزرعة خليج نائية، مزرعة أبيه، على جانب جبل بلسم. وقد كان هناك مع مشردين آخرين. قال إن الغابات تغص بهم. وبصفته الوحيد الباقى على قيد الحياة فإنه يعتقد أن من واجبه أن يقص كل التفاصيل من خلف قضبان نافذة سجنه، وبقيت إيدا وروبى لتسمعا، على الرغم من أنها كانت حكاية بالغة الخسة وسفك الدماء.

كان الوقت يقترب من الغسق، وقد حجبت سحب رمادية خانقة قمم الجبال وكان المطر قد بدأ ينزل، بقطرات دقيقة وبلا ريح حتى أنه لا يكاد يبلل رجلا يقضى الليل بطوله فيه. ساعد فقط فى تعميق الألوان، بحيث يجعل تراب الطريق أكثر حمرة وأوراق أشجار الحور التى تتلاقى فى الأغانى أكثر خضرة. كان الأسير ومشردون آخرون ووالد الأسير فى البيت عندما سمعوا جيادا تأتى من عند آخر منحنى الطريق التقط.. أبوه البندقية، وهى السلاح الوحيد بينهم. وخرج إلى الطريق. ولما لم يكن هناك وقت يسمح ببلوغ الغابات، فإن الثلاثة الآخرين جمعوا أسلحة صنعوها من أدوات المزرعة وذهبوا ليختبئوا فى كوخ لعليق الحيوانات، حيث راحوا يراقبون الطريق من بين أعمدة الجدار غير المفتوحة.

جاءت جماعة صغيرة من فرسان، صامتين ومجهزين بملابس سيئة، من حول المنحنى وهم يسيرون بخطى بطيئة، صاعدين إلى الخليج. ويبدو أنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى إجماع على الزى. كان رجلان أسمران ضخما الجثة يشبه أحدهما الآخر فى ملامحهما حتى أنهما ليبدوان توءما يركبان وقد تزييا بشكل غامض بما يمكن أن يكون بقايا كنست من الموتى بأرض المعركة، وفتى ضئيل الحجم برأس شيباء يرتدى ملابس مزرعة - سروالا كتانيا متصلبا، وقميصا صوفيا بنى اللون، وسترة صوفية رمادية قصيرة- وكان من الممكن أن يعد الرجل الآخر واعظا رجاله بمعطفه الأسود الطويل الذيل، وسرواله المصنوع من جلد حيوان الخلد، وقميصه الأبيض وربطة عنقه السوداء على ياقته المنشاة. كانت جيادهم أشياء قذرة بعمود فقرى أعوج، ورقاب هزيلة، وقد تبرزت برازا أخضر على خلفياتها. وهى تسحب وراءها حبالا من مخاط أصفر تنفخه من فتحات رأسها. لكن الرجال كانوا مسلحين تسليحا جيدا بمسدسات خرقاء عند أردافهم، وبنادق رش فى أغمدة سروجهم.

وقف العجوز ينتظرهم، وبدا فى الضوء الرمادى ورذاذ المطر نوعا من الأشباح، كائنا رماديا ما يقف منفرج الساقين على القمة العشبية بين مسارات عربات الشحن. كان يرتدى زيا من الصوف المنسوج منزليا، وقد صبغ بلون جوزى من لب قشر الجوز، ويرتدى قبعة تبدو ناعمة مثل قلنسوة النوم، وقد تربعت على رأسه كأنها شىء يذوب. وكان لغده يتدلى فى ثنيات مثل ثنيات كلب الصيد، وقد أمسك ببندقيته الطويلة خلفه بحذاء ظهر ساقه.

قال، حين كان الفرسان على بعد عشرين خطوة: توقفوا عندكم.

تجاهل الرجلان الضخمان والفتى الأشيب الأمر وضغطوا على مطياتهم بكعوبهم، ليحثوها على التقدم بخطوة بطيئة. اتخذ الرجل الذى يبدو واعظا مسارا بزاوية، متجها إلى حافة الطريق، وقد أدار حصانه بحيث يخفى جسمه بندقية قصيرة من نوع سبنسر فى غمدها عند ركبته.. توقف رفاقه فى مجموعة أمام الرجل العجوز.

حدثت حركة سريعة، وأطلق شخص ما صرخة بطبقة صوت عالية.

كان الرجل العجوز قد أبرز بندقيته من خلف ظهره وبحركة واحدة سريعة دفعها تحت لغد ذقن واحد من الرجلين الضخمين ثم جذبها إلى الخلف. كانت بندقية صيد طيور ذات تصميم بالغ القدم. وكان قادحها مرفوعا واستدارة فوهتها كبيرة مثل بندقية تطلق على مدى قصير. وعلى رقبة الرجل الضخم الجثة سال خط من دم يختفى فى ياقة قميصه.

جلس الرجل الضخم الآخر والفتى الأشيب وهما ينظران بعيدا عبر حقل ذرة صغير حيث تُشكل عرمة من عليق العام الماضى مخروطا مرتخيا على طرف الغابات. ابتسما كما لو أنهما يتوقعان شيئا هزليا متواضعا أن يظهر من بين الأشجار.

قال الرجل العجوز: أنت يا من تقف قرب السياج. أعرف من أنت.. أنت تيج. تعال هنا.

لزم تيج مكانه، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، لكن عينيه بديتا مثل نار مدفأة باردة جرف منها الرماد.

قال الرجل العجوز مخاطبا تيج: هؤلاء زنوجك الضخام الأجساد؟

قال تيج: لا أعرف أن هذا شأنهما. لكنهما ليسا لى. لا يمكنك أن تعطينى ذلكما الاثنين مجانا.

- لمن هما اذن؟

قال تيج: أحسب انهما ملك لنفسيهما.

قال الرجل: تعال أنت هنا معنا.

قال تيج: سوف أستريح هنا على طرف الغابات فحسب.

قال الرجل، أنت تثير أعصابى وأنا أقر رأيى على أن أضع حشوة فى شخص ما.

قال تيج بعبارة مقصودة: ان لديك بندقية بماسورة واحدة.

– إن هذه البندقية شاملة تماما إذا ما أطلقتها. أخذ عدة خطوات إلى الوراء حتى قدر أن الرجال الثلاثة أمامه يطوقهم جميعا النسق الذى تطلقه البندقية الكبيرة.

ثم قال: انزلوا عن الجياد وقفوا فى مجموعة

ترجل الجميع ماعدا تيج. وقفت الخيول وألجمتها تتجرر على الأرض، وآذانها منتصبة إلى الأمام كما لو كانت تمتع نفسها. وضع الرجل ذو الجرح، واسمه بايرون، أصابعه عليه ونظر إلى الدم ثم مسح يديه على ذيل قميصه السائب. ووقف الرجل الآخر، واسمه آيرون، برأسه مائلا إلى جانب، وظهر فى فمه طرف لسان وردى، وهو منتبه بحرص الآن لكل تفصيل من تفاصيل المشهد الحالى. دعك الفتى الأشيب عينيه الزرقاوين وجذب ثيابه من كل جانب كما لو أنه استيقظ لتوه من النوم بها. ثم وقف وتفحص بانبهار شديد ظفر سبابته اليسرى.

كان فى طول أصبعه تقريبا، بالطريقة التى يطيلها البعض لقطع الزبد وغمسها فى دهن الخنزير ومثل هذه الأعمال.

وقف الرجل والبندقية تغطى ثلاثتهم واستعرض بعينيه أسلحتهم المتنوعة.

وجه سؤالا إلى تيج: لماذا يستخدم هؤلاء الزنوج سيوف الفرسان العريضة الطويلة. لكى يمسكوا بها اللحم فوق النار للشواء؟

سادت لحظة صمت طويلة ثم قال الرجل العجوز: ماذا جئتم تنشدون هنا؟

قال تيج: أنت تعرف. للقبض على المشردين.

قال الرجل العجوز: لقد رحلوا جميعا. منذ وقت طويل. يقيمون فى الغابات حيث يصعب العثور عليهم أو صعدوا الجبال ليعبروا الخطوط ويقسموا قسم الولاء.

قال تيج: أوه، إذا قبلت وجهة نظرك، فيحسن بنا أن نعود أدراجنا إلى البلدة مرة ثانية. هل ذلك ما تقوله؟

قال الرجل: توفر علينا المتاعب لو فعلت.

قال تيج: أنت لا تحذر فنحن عرضة لأن نشنق مؤخرتك العجوز أيضا. ولو أنهم رحلوا، لما جئت لتقابلنا فى الطريق وأنت مسلح.

وفى تلك اللحظة سقط الفتى الأشيب منبطحا على وجهه وصرخ: يا ملك الملوك!

وفى اللحظة الأولى التى تركز فيها انتباه الرجل العجوز على الفتى، اندفع آيرون إلى الأمام فجأة برشاقة غير متوقعة من أمرئ له هذا الحجم الضخم وصوب إلى الرجل ضربة بقبضة يده اليسرى سقطت مثل هراوة على رأس العجوز. وشفع ذلك بصفعة على يده أطاحت بالبندقية. سقط الرجل العجوز مطروحا على ظهره، وقبعته بجانبه فى التراب.. خطا آيرون فوقه والتقط البندقية وضرب بها الرجل حتى انفصل كعب البندقية ثم ضربه بالماسورة فحسب. وبعد قليل رقد الرجل ساكنا فى الطريق. كان واعيا شيئا ما لكن نظرة محيرة ارتسمت فى عينيه. سال شىء ما من إحدى أذنيه له كل ملامح صلصة العين الحمراء.

بصق آيرون على الأرض ومسح الدم من على رأسه، ثم سحب سيفه العريض الطويل ووضع سنه تحت ذقن الرجل العجوز ذات اللغد وضغطه حتى تسبب فى جريان خط من الدماء مساو لخط دمه.

قال: للإمساك باللحم فوق النار.

قال آيرون: دعه. لم يعد به ما يؤذى.

كان للرجلين، على الرغم من حجمهما، صوتان حادان ضئيلان، بطبقة صوت عالية مثل صداح الطيور.

أبعد بايرون السيف من على ذقن الرجل، لكنه عندئذ، وقبل أن يتبين أحد نواياه، تناول المقبض بكلتى يديه، وبحركة بدت كما لو تكن أكثر من دفع خفاقة فى مخمضة زبد، سغد العجوز من معدته.

خطا بايرون مبتعدا ويداه ممدودتان مفتوحتان على جنبيه. لم يكن هناك ما يرى من نصل السيف، مجرد الوقاء المزخرف والمقبض الذى لف حوله سلك يبرزان تحت صدر الرجل العجوز. حاول أن ينهض لكن رأسه وركبتاه ارتفعتا، لأنه كان مسمرا إلى الأرض.

نظر بايرون إلى تيج وقال، هل تريدنى أن أقضى عليه؟

قال تيج: دعه يصارع الأمر مع خالقه.

نهض الفتى من حيث كان لا يزال منبطحا على الأرض وذهب إلى الرجل ووقف فوقه وحدق فيه ببلاهة.

قال الفتى: إنه جاهز للموت. إن مصباحه يحترق وهو ينتظر العريس.

ضحك الجميع ما عدا العجوز وتيج. قال تيج: اسكت يا بيرتس. دعنا نتحرك.

امتطوا جيادهم ليركبوا إلى البيت، وعندما فعلوا ذلك لفظ الرجل آخر أنفاسه ومات معوّلاً. وأثناء مرورهم، كان بايرون يميل منحنيا فى ركابه، رشيق الحركة مثل راكب يقوم بخدعة فى استعراض بخيمة، وسحب السيف ومسحه على معرفة الجواد قبل أن يعيده إلى غمده.

ذهب بايرون إلى البوابة وركلها ليكسر المزلاج ويفتحها، وعبروا منها حتى وصلوا إلى الشرفة تماما.

صاح تيج: اخرجوا، كانت هناك نغمة مبتهجة فى صوته.

وعندما لم يظهر أحد، نظر تيج إلى بايرون وأيرون وأشار بذقنه إلى الباب الأمامى.

ترجل الاثنان وعقدا أنشوطتى لجاميهما حول أعمدة الشرفة وشرعا يقومان بدورات فى البيت فى اتجاهين متضادين، وقد سحبا مسدسيهما.. تحركا مثل شراكة ذئاب خرجت تتصيد، بتنسيق جهد صامت باتجاه هدف مشترك. كانا سريعى الحركة بطبيعتهما وحركاتهما سهلة وطليقة، رغم كونهما ضخمى الحجم. لكن ميزتهما الرئيسية تكمن فى قبضتيهما، ففيما بينهما بدا عليهما أنهما قادران على أن يمزقا رجلا إربا بأيديهما تقريبا.

وبعد أن دارا فى البيت الخاوى ثلاث مرات اندفعا من خلال البابين الأمامى والخلفى فى نفس اللحظة. وبعد برهة خرجا، أيرون يحمل حفنة من الشموع الرفيعة من فتيلها وبايرون يحمل جزءا من لحم الخنزير أمسك به من ساق عظمته البيضاء مثل رجل دجاجة. ثم، وبدون كلمة أو إيماءة أمر أو حتى إيحاء، ترجل تيج وبيرتس من على مطيتيهما وسار الجميع إلى مخزن الغلال، حيث فتحوا أبواب مرابط الخيل على مصاريعها. ولم يجدوا سوى بغل واحد عجوز. ساروا حول المكان وسط التبن فى العِلّية ودفعوا سيوفهم فى أعمق الأكوام ثم خرجوا ووجهوا اهتمامهم إلى مخلاة العلف، ولكن عندما اقتربوا منه انفتح الباب فجأة واندفع ثلاثة مشردين عدوا.

كان الرجال معاقين فى هربهم، لأنهم يحملون أسلحة مرتجلة لها مظهر الصناعة اليدوية من عصر أكثر ظلمة - سن محراث مسنون يتأرجح فى طرف سلسلة، وجاروف قديم مطروق ومسنون بمبرد على هيئة رمح، وهراوة متعقدة من شجر الصنوبر لها رأس مدبب بمسامير حدوات خيل.

ترك تيج الرجال يجرون كل فى طريق ثم وضع بندقيته القصيرة لصق كتفه وأردى العدائَيْن الأماميين، اللذين سقطا بقعقعة سلاح عظيمة. توقف الرجل الأخير، الأسير ورفع ذراعيه وواجههم. نظر إليه تيج برهة.. كان الرجل حافى القدمين، وقد دفع أصابعهما فى التراب كما لو كان يبحث عن موطئ قدم أفضل. لعق تيج إبهامه ومسحه على مقدمة بندقيته ورفعها ولاءم حلقة التسديد على حذها. وقف الرجل هناك بلا حراك. ظل محتفظا بقبضته على الهراوة المدببة بحيث وقف بها مرفوعة فوق رأسه مثلما يُصَوِر المتوحشون فى اللوحات المصورة فى الكتب.

أنزل تيج بندقيته القصيرة ووضع طرفها الغليظ على الأرض وأمسك بها سائبة بيد واحدة من ماسورتها.

قال: ألق بتلك العصا على الأرض، وإلا أرسلت اليك هذين الاثنين ليمزقاك إربا.

نظر الأسير إلى الرجلين الضخمين ثم أسقط عقدة الصنوبر عند قدميه.

قال تيج: حسنا. والآن قف هناك فحسب.

سار كل الرجال إلى الأسير، وقبض أيرون عليه من عنقه ورفعه مثل جرو يرفع من مؤخرة عنقه. ثم وجهوا اهتمامهم إلى الرجلين الملقيين على الأرض كان أحدهما ميتا ولم يكد يدمى بما يكفى لأن يلطخ ملابسه. وكان الآخر قد تلقى طلقة فى أمعائه. كان لا يزال حيا، ولكن بشق الأنفس أقيم على مرفقيه ونُزع عنه سرواله ولباسه الداخلى حتى بلغ ركبتيه. سد غور جرحه بأصبعين ثم نظر إليهم وصاح بصوت جهورى، لقد قتلت.

جاء الحرس وأحاطوا به، لكنهم عندما اشتموا الرائحة الحادة فى الهواء تراجعوا. تلوى الأسير ألما كما لو أنه يريد أن يذهب إلى صديقه الملقى على الأرض لكن أيرون ضربه فى جانب رأسه، ثلاث ضربات مباشرة بكلوة قبضته أخرج بيرتس جديلة سوداء من تبغ المضغ وأمسك أحد اطرافها بين أسنانه وأخذ سكينه ونشرها عند شفتيه ووضع البقية فى جيبه. وعندما بصق حك التراب بمقدمة حذائه العالى الساق فوق البقعة العنبرية كما لو كان بالغ الحساسية بشأن ترك أثر فى الأرض، مكترثا بترك علامة.

رقد الرجل المصاب بطلق نارى مسطحا وطرف برموشه باتجاه السماء وبدا محيِّرا بها. شكل فمه كلمات لكن لم يصدر عنه صوت فيما عدا طقطقة فمه الجاف. ثم أغمضت عيناه وكان من الممكن لبعض الوقت أن يظنه الآخرون ميتا فيما عدا أنه يعمل أصابعه على فترات متباعدة. كانت الأرض حوله قد فرشت بحصير أحمر وثيابه تلتصق به ثقيلة وملساء مثل قماش مزيّت بل إنها بدت فى الضوء المعتم لامعة. ثم كف الدم عن النزيف وفتح عينيه مرة أخرى بدون أى محاولة للتركيز.

خمنوا أنه قد مات.

عرض بيرتس أن يذهب ويبصق العصير فى عينيه ليرى إن كان سيطرف بعينيه، لكن تيج قال: لسنا بحاجة إلى اختباره. لقد مات.

قال بيرتس للأسير: لقد سبقك هذا الرجل إلى الموت مثل أبيك.

لم يقل الرجل شيئا وقال تيج: بيرتس، اصمت، وأحضر لى شيئا نقيد به يديه ثم نقتاده عائدين إلى البلدة فى نهاية المطاف.

ذهب الفتى إلى الجياد وعاد بلفة حبال. ولكن عندما انحنى تيج ليقيد يديه، جن جنون الأسير لم يكن هناك مايعلل أفعاله الا أنه يفضل الموت على أن يقيد. راح يركل بقدميه فى فزع، مصيبا تيج بضربة موجعة فى فخذه. ولذا فإن تيج ورجاله تقاتلوا معه وكان الرجل هائجا حتى انه لم يكن من الواضح لبعض الوقت لمن ستكون الغلبة. راح يضربهم بكل طرف من أطرافه، بل إنه نطح برأسه أيضا. كان يصرخ طول الوقت، صرخة عالية مغردة أفقدتهم رباطة جأشهم تقريبا لكنهم طرحوه أرضا فى النهاية وقيدوا رسغيه وكاحليه معا. وحتى عندئذ استجمع روحه المعنوية وجاهد ومد رأسه حتى عض يد تيج إلى أن دميت. مسح تيج يده على طرف معطفه ونظر إليها.

قال: إننى افضل أن أقبل عضة خنزير على أن أقبل عضة رجل.

أعاد بيرتس إلى البيت ليحضر كرسيا مستقيم الظهر ثم عملوا جميعا على تقييد الرجل فيه، وأوثقوا رباطه وذراعاه إلى جانبيه وعقدوا الحبل أنشوطة حول رقبته حتى لم يعد بإمكانه أن يفعل شيئا سوى أن يهز أصابعه وأن يلوى رقبته بالطريقة التى تلوى بها السلاحف البحرية رقابها عند نقر ظهورها.

قال تيج: هاك. أود أن أراه يعضنى الآن.

قال بيرتس: هياج شرس. لقد قرأت عن ذلك. إنها تعبير يعنى مايمكن أن يفعله الناس.

صمتوا وجلسوا القرفصاء وحبسوا أنفاسهم، وجاهد الرجل ضد الحبال حتى أدمت رقبته ثم هدأ. استراح بايرون وأيرون وسواعدهما على أفخاذهما الضخمة الثقيلة. وراح تيج يمتص جرحه ثم أخرج منديلا ونفض التراب من على معطفه الأسود ومسح آثار الحذاء التى تركها الرجل على فخذ سرواله الباهت. رفع بيرتس يده اليسرى ورأى أنه قد فقد نصف ظفره العلوى فى العراك. أخرج سكينه وقلمه، وهو يلعن خسارته طول الوقت.

قال أيرون: يمكننا أن نأخذ المزلجة التى تقبع هناك ونضعه عليها ونجره إلى البلدة ملجما فى ذلك الكرسى.

قال تيج: ممكن. لكننى أميل الآن بالضبط إلى حمله إلى علِّية مخزن الغلال وربط رقبته فى عارضة السقف ودفعه خارج باب مخزن التبن.

قال بيرتس: لا يمكنك أن تشنق رجلا جالسا.

قال تيج: لا يمكنني؟ أود أن أعرف لم لا؟ لقد رأيت ذلك يحصل، وحق جهنم.

قال بيرتس: حسنا، ورغم ذلك، سيبدو الأمر أفضل لو أننا أحضرنا شخصا من أن لآخر.

وقف الرجال وتشاوروا فى الأمر وكان من الواضح أنهم سمعوا صوت العقل فى رأى بيرتس، لأنهم تجمعوا حول الكرسى ورفعوه وحملوه إلى المزلجة وربطوا الكرسى فى المزلجة وربطوها فى البغل وشرعوا فى السير إلى البلدة، ورأس الرجل تتأرجح لأنه لم تكن لديه الإرادة حتى فى أن يبقيها مستوية.

صاح الأسير بصوت جهورى عند نهاية حكايته، لن يستمر هذا العالم طويلا. إن الله لن يدعه يستمر طويلا.

ما إن انتهى من حديثه حتى كانت الشمس قد مالت نحو المغيب، ودارت إيدا وروبى حول مبنى المحكمة وشرعتا تسيران باتجاه البيت. كانت كلتاهما مكتئبة وصامتة فى بادئ الأمر، ثم راحتا تناقشان قصة الأسير بعد مضى بعض الوقت. أرادت إيدا أن تطرحها على أنها مبالغة، لكن استنتاج روبى كان أن لابد من النظر إلى الأمر على أنه حقيقة حيث إنه يتفق تماما مع إمكانيات الرجال. ثم تجادلتا بشكل عام لمسافة ميل أو اثنين حول ما إذا كان العالم يحسن أن ينظر إليه بصفته مكانا للتهديد والخوف إلى حد أن الموقف المتمشى مع المنطق الذى يمكن للمرء أن يتمسك به هو الاكتئاب، أو ما إذا كان ينبغى على المرء أن يجاهد للوصول إلى الضوء والابتهاج حتى ولو كانت هناك يد بقبضة مظلمة معلقة جاهزة لأن تهوى بضربة فى أى لحظة.

عندما بلغتا الشعبة الغربية لنهر بيجون واستدارتا إلى أعلى طريق النهر، كان الضوء يخفت وقد انسدل ظل سلفا على نتوء يطلق عليه بيج ستومب، ألقت به جبال بلوريدج الأضخم حجما. بدا الماء أسود وباردا، وتعلقت رائحة النهر فى الهواء، جزءين متساويين تقريبا من المعادن والنباتات. وعلى الرغم من أن النهر قد انخفض منسوبه منذ الصباح، فإنه لايزال مرتفعا من أمطار الليلة السابقة، والصخور البارزة فيه مبللة ومظلمة حيث تلتقى الأشجار على كلا شاطئيه تقريبا فى منتصفه وتبقى المجرى ظليلا طول اليوم.

لم تكونا قد سارتا بعيدا فوق الشعبة حين توقفت روبى وعدّلت جسمها باتجاه الماء، وقد لمحت شيئا فيه، كما لو كانت تود أن تراه عن كثب.. غاصت بركبتيها فى نُقرة، مثل مقاتل يُخفض مركز جاذبيته ليتماسك استعدادا للهجوم. قالت، حسنا، انظرى هناك. ليس ذلك منظرا مألوفا.

وعن بعد وقف فى النهر طائر بلشون ضخم أزرق اللون. كان طائرا طويلا، بادئ ذى بدء، لكن شيئا ما فى الزاوية التى رأيتاه منها وتوزيع ضوء الشمس الغاربة جعلاه يبدو حتى أكثر طولا. بدا فى طول قامة الرجل فى الضوء المائل وقد سقط ظله الطويل على الماء. كانت رجلاه وأطراف جناحيه سوداء مثل النهر. ومنقاره أسود عند قمته وأصفر من أسفله والضوء يلمع عليه بلمعان مكتوم كما لو كان لمعان ساتان أو حجر صوان منحوت. كان طائر البلشون يحدق فى الماء بتركيز كاسر. وعلى فترات متباعدة يأخذ خطوات بطيئة رقيقة، وهو يرفع رجلا من الماء ويتوقف، كما لو كان ينتظر أن تكف عن القطر، ثم يعيدها إلى قاع النهر فى بقعة جديدة يختارها فيما يبدو بعد تفكير عميق.

قالت روبى: إنه ينتظر ضفدعة أو سمكة.

لكن تحديقه المبالى فى الماء أعاد إلى ذاكرة إيدا قصة نرسيس، ولكى تعزز دراساتها المتواصلة للإغريق، قصت على روبى صيغة مختصرة للحكاية.

قالت روبى، إن هذا الطائر لايفكر فى نفسه البته، عندما انتهت إيدا من القصة. انظرى إلى منقاره.

أنه كاف لأن يطعن ويصيب بجروح؛ تلك هى طبيعته الأساسية. إنه يفكر فى أى شىء آخر يطعنه ويأكله.

مشيتا ببطء متجهتين إلى حافة النهر واستدار طائر البلشون لينظر إليهما بشىء من الاهتمام. أجرى تعديلات ضئيلة دقيقة على رأسه الضيق كما لو كان يعانى من ضيق فى أن يرى من حول نصل منقاره. بدت عيناه لإيدا كأنهما تبحثان عن مزاياها ويعجزان عن ذلك.

قالت موجهة كلامها إلى البلشون، ماالذى تفعله هنا؟ لكنها عرفت من مظهره أن طبيعته طبيعة ناسكة وصوفية. كان شأنه شأن كل الطيور من نوعه مهاجرا منفردا، غريبا فى طرائقه ولاتحكمه سياسة أو عقيدة شائعة بين الطيور التى تطير فى أسراب. تعجبت إيدا من أن طيور البلشون يمكنها أن يتحمل أحدها

الآخر على قرب يكفى لأن تتوالد. فقد رأت عددا ضئيلا منها فى حياتها، وكانت تلك مستوحشة حتى أنها تجعل القلب موجوعا نيابة عنها. طيور المنفى. ففى كل مكان كانت تبدو بعيدة عن موطنها.

سار الطائر باتجاههما إلى حافة النهر ووقف على حاشية طينية. لم يكن يبعد عشر أقدام. مال برأسه درجة بحيث لم تكن مستوية، ورفع رجلا سوداء، وحرافيشها فى حجم الأظافر، والقدم مرفوعة بالكاد فوق الأرض. حدقت إيدا فى أثر القدم الغريب فى الطين. وعندما رفعت عينيها، كان الطائر يحدق فيها كما لو كان يحدق فى شخص قابله من زمن بعيد، وقد سجلته ذاكرته بشكل معتم.

ثم فرد الطائر جناحيه ببطء.. وقد نفذت العملية كما لو كانت مسألة مفصلات وروافع، أوناش وبكرات. كانت كل العظام تحت الريش والجلد واضحة كل الوضوح. وعندما فعل ذلك كان الجناحان عريضين إلى درجة أن إيدا لايمكنها أن تتخيل كيف يخرج من بين الأشجار.

خطا الطائر خطوة باتجاه إيدا، رفع نفسه من على الأرض، وبخفقة واحدة أو خفقتين من جناحيه الهائلين حلق فوق رأسها وابتعد خلال قمة الغابات. شعرت إيدا بمدى اكتساح الجناحين، وحركة الهواء، وظل أزرق بارد عبر الأرض، عبر جلد وجهها.

دارت وراحت تراقب حتى اختفى الطائر فى السماء. رفعت يدا كأنها تلوح مودعة قريبا جاء لزيارتها. وتساءلت، ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ بركة؟ منارة مخدرة؟ حارسا من عالم الروح؟ أخرجت إيدا دفتر يومياتها وثقفت أحد أقلام الفحم بمطواتها حتى ظهرت سنه. رسمت رسما كروكيا سريعا مفكك الخطوط من الذاكرة لطائر البلشون وهو يقف فى الطين. وعندما فرغت لم تكن راضية عن منحنى الرقبة وزاوية المنقار، لكن رجليه واستدارة الريش عند الحوصلة والنظرة التى بعينيه صحيحة تماما. وكتبت أسفل الصفحة بخطها الذى يشبه الرموز السحرية بلشون أزرق/ تشعبات نهر بيجون/ أكتوبر ١٨٦٤. نظرت إلى أعلى فى السماء ثم قالت لروبى، كم تظنين الساعة الآن؟

صوبت روبى نظرة إلى الغرب وقالت، بعد الخامسة بقليل، وكتبت إيدا الساعة الخامسة وأغلقت الدفتر.

وبينما هما سائرتان إلى أعلى النهر تحدثتا عن الطائر، وكشفت روبى ماتشعر به من علاقتها الزاخرة بالعقبات مع طيور البلشون. قالت إن ستوبرود كان فى أغلب الأحيان أثناء طفولتها يتنصل منها قائلا إنها لم يكن لها أب رجل فقد كانت أمها فى أثناء حملها بروبى- عندما تسكر وتشعر بالمرارة وترغب فى إثارته- توجه اتهاما فى أغلب الأحيان بأن ستوبرود لم يكن له نصيب فى الطفل وأن السبب فيه كان طائر بلشون أزرق. وزعمت انه حط ذات صباح عند الجدول، وبعد أن قضى وقت الأصيل يرشق سمك جراد البحر جاء إلى الفناء حيث كانت تكسر كسرة قديمة من خبز الذرة وتنثرها على الأرض للدجاج كانت الحكاية التى حكتها أم روبى، والتى أعاد أبوها حكايتها، هى أن طائر البلشون خطا على رجليه الطويلتين ذات المفصلين اللذين يتجهان إلى الخلف وسدد عينيه فى عينيها. زعمت، كما قال ستوبرود، أن النظرة لم تكن تُخطأ، لم يكن لها إلا تفسير واحد. استدارت وراحت تعدو، لكن الطائر طاردها إلى داخل البيت، حيث، بينما هى تزحف على يديها وركبتيها محاولة أن تشق طريقها تحت هيكل السرير لتختبئ، أتاها الطائر من خلفها. ووصفت ما تلا ذلك على أنه مثل جلد مخيف فى مداه.

قالت روبى، قال لى تلك القصة مئات المرات. وأعرف أنها فى أغلبها واحدة من أكاذيبه، لكننى مازلت لا أستطيع أن أرى واحدا من هذه الطيور دون أن أتساءل.

لم تدر إيدا ماذا تقول. كان الضوء تحت الأشجار قد أصبح ذهبيا وارتجفت أوراق أشجار الزان والحور فى ريح خفيفة. توقفت روبى وارتدت سترتها الصوفية وسوت إيدا التجاعيد من على معطفها ولفته حول كتفيها مثل عباءة. وواصلتا سيرهما، وعند معبر النهر الضحل التقيتا بامرأة شابة تحمل طفلا ملفوفا فى مفرش مائدة من مربعات معلقا على كتفها.

حجلت حافية القدمين عبر المعابر الحجرية برشاقة غزال يعدو ولم تفه بكلمة ولم تنظر حتى فى عيونهما حين مرت، رغم أن الطفل حملق فيهما بلا تعبير من عينين عسليتين مثل قشور جوزة البلوط فى رأسه. وبعد المعبر بقليل، طارت طيور صغيرة من شجرة تفاح تقوم وحدها فى حقل قديم. طارت قريبا من الأرض ودخلت الغابات كانت الشمس الغاربة فى عينى روبى ولذا فقد كان بإمكانها فقط أن تخمن نوعها، ولكن لم يكن ذلك مهما فيما يخص الطقس. فقد كان نسق طيرانها ينبئ عن أنه سيكون هناك مزيد من المطر.

وعلى مسافة أبعد على الطريق، قرب فجوة فى النهر حيث يُغمس الناس أحيانا عند تعميدهم، ارتفعت سحابة من طيور السنونو من شجرة قبقب، تقارب فى لونها ذروة لون الشجرة، كانت حافة الشمس السفلى تلامس تماما حافة الجبل والسماء بلون سبيكة قصدير مطروقة. طارت طيور السنونو من الشجرة مثل جسم واحد، بنفس شكل شجرة القبقب الدائرية التى كانت تملؤها. ثم مالت فى الريح، وانزلقت جانبا فى الهواء المتحرك بأجنحة مفرودة لمدة نبضتى قلب، حتى أن إيدا تأملت صورتها الجانبية الرقيقة ورأت فراغا فضيا كبيرا بين أفراد الطيور. وفى الحال، كما لو أن ذلك حدث بإشارة، اندفعت صاعدة صعودا شديد الانحدار واستدارت أجنحتها كاملة باتجاهها وسدت الثغرات المضيئة بين الطيور حتى بدا السرب مثل صورة شجرة القبقب الحمراء وقد انعكست على السماء. وخفقت ظلال الطيور عبر حقل العشب الطويل فيما وراء الطريق.

تورد الغسق حول إيدا وروبى كما لو كان الظلام المنبعث من النهر يتسرب باتجاه السماء. أعادت قصة البلشون الخيالية التى قصتها روبى عن الأصل والجذر إلى ذاكرة إيدا قصة حكاها لها مونرو قبل زمن قصير من موته. كانت عن الطريقة التى خطب بها ود أمها، ولكى تقطع الأميال التى تظلم فى أعالى النهر، أعادت إيدا سردها على روبى بشىء من التفصيل.

كانت إيدا قد علمت أن مونرو وأمها قد تزوجا فى وقت متأخر نسبيا من حياتهما. هو فى الخامسة والأربعين وهى فى السادسة والثلاثين. وعلمت إيدا أن حياتهما معا كانت قصيرة. لكنها لم تكن تعرف ظروف خطبتهما وزواجهما، مفترضة أن ارتباطهما كان ارتباط صداقة هادئة، ذلك النوع من الرابطة التى طالما رأتها تنشأ فى العديد من المرات بين عزاب غريبى الأطوار وعانسات يكبرن فى السن. وافترضت أنها هى نفسها كانت نتاج خطأ حسابى ما.

كان ذلك حتى عصر أحد الأيام فى الشتاء قبل موت مونرو. كانت الثلوج المبللة قد هطلت طول اليوم، والندف الكبيرة تذوب ما أن ترتطم بالأرض. جلس مونرو وإيدا بجوار المدفأة طوال عصر ذلك اليوم الطويل. إيدا تقرأ له من كتاب جديد، تدبير الحياة. كان مونرو قد تعقب لسنين عديدة كل قول نشر للسيد ايمرسون باهتمام بالغ، وفى ذلك اليوم رأى أن ايمرسون، كما كان دائما حتى فى شيخوخته، ربما كان أكثر تطرفا لدرجة أبعد فى آرائه الروحية مما ينبغى.

وعندما اقترب اليوم من نهايته خارج النوافذ، نحت إيدا الكتاب جانبا، بدا مونرو متعبا وشاحبا، وقد غارت عيناه. جلس يدقق فى ملاحظة النار التى

سكنت فى رمادها وراحت تحترق ببطء بلهب ضئيل. وقال فى نهاية الأمر: أنا لم أخبرك البتة كيف حدث أننى تزوجت أمك.

قالت إبدا، لا.

- إنه أمر يعاودنى أخيرا. ولا أعرف لم. أنت لم تعرفى أبدا أننى التقيت بأمك وهى لا تكاد تبلغ السادسة عشرة وأنا فى الخامسة والعشرين.

قالت إبدا، لا.

- أوه، أجل. فى المرة الأولى التى رأيتها فكرت فى أنها أكثر شىء فتنة رأيته من قبل. كنا فى فبراير. وكان يوما رماديا باردا، تهب فيه نسمة خافتة رطبة من المحيط. كنت بالخارج امتطى جوادى. وكنت قد اشتريت أخيرا حصانا هانوفريا ضخما يبلغ طوله سبعة عشر كفا لا ينقص بوصة. كستنائيا بلون حجر الدم. كان مفصلا قائمتيه الخلفيتين ملتويين إلى الخلف بدرجة ضئيلة. لكن ذلك لم يكن أمرا ذا بال. وكان خببه يدعو للعجب، كأنه يطفو. كنت قد ركبته إلى خارج حدود تشارلستون قليلا، إلى الشمال من طريق آشلى، متجاوزا ميدلتون، ثم عابرا من فوق وأسفل إلى هاناهان فى طريق عودتى إلى البيت. كانت نزهة ركوب طويلة. كان الحصان يرغى رغم برودة الجو اللطيف، وكنت جائعا مشتاقا إلى طعام العشاء. كان الوقت مثل هذا الوقت من اليوم بالضبط. ليلة رمادية. كنا قد بلغنا النقطة الأولى حيث يمكنك أن تقولى وأنت واثقة إننا قد تركنا الريف ودخلنا المدينة.

وصلنا إلى بيت، بيت يمكن وصفه بأنه لا هو متواضع ولا هو فخم. كانت له شرفة عريضة فى كلّ ناحية منه نخيل قصير مروحى السعف. كان أقرب إلى الطريق من أن يناسب ذوقى. نوافذه مظلمة، وبه مذود للماء فى فنائه. وظنا منى أن لا أحد بالبيت، توقفت وترجلت لأروى عطش حصانى. وجاء من الشرفة صوت امرأة يقول، ربما يجب أن تستأذن أولا.

كانت فيما يبدو تجلس وحدها فى الشرفة فى مقعد خشبى تحت النوافذ. رفعت قبعتى وقلت، استميحك عذرا. خطت خارج ظل الشرفة وهبطت الدرج وتوقفت عند الدرجة السفلى. شعر بلون جناح الغراب. كانت تمشطه، إذ انسدل إلى عجزها تقريبا، وهى تمسك بفرشاة لها مقبض صدفة سلحفاة. كان وجهها شاحبا مثل الرخام. لم يكن بها شىء إلا وكان أسود أو أبيض أو شيئا بين بين.

وعلى الرغم من زيها الخشن، فإننى فتنت. فلم أر مطلقا لها مثيلا. فليس هناك كلمة تصف كم بدت لى جميلة. كل ماستطعت أن أقوله، مرة أخرى يا انستى، استميحك عذرا. ركبت الجواد وانطلقت، مضطربا، وكل أفكارى مشوشة. وفى وقت ما من تلك الليلة، بعد أن تناولت عشائى وأويت إلى فراشى، أدركت، كان مقدرا لى أن أتزوج تلك المرأة.

وفى اليوم التالى شرعت فى خطب ودها، عملت بدأب شديد وحرص كما يمكن أن يفعل أى رجل. جمعت عنها أولا معلومات. وجدت أن اسمها كلير ديشوتس. كان أبوها فرنسيا، يكسب عيشه من الاتجار مع موطنه ذهابا وإيابا، يستورد النبيذ ويصدر الأرز. كان رجلا ميسور الحال، وإن لم يكن من الأثرياء. رتبت لقاء معه فى مخزنه قريبا من مرفأ على نهر كوبر. مكان رطب مظلم له رائحة النهر. كان ممتلئا بصناديق شحن خشبية من نبيذ بوردو، نقى ورخيص، وجوالين من أرز. قدمنا إلى أحدنا الآخر صديقى أزويل الذى كان قد تعامل معه تجاريا فى الماضى. كان ديشوتس، جدك، رجلا قصير القامة ثقيل الوزن. بدين ووقور هو التعبير الملائم. أساليبه فرنسية أكثر مما يعنينى، إذا فهمت ما أقصده. لا أنت ولا أمك تشاركه أى خاصية ظاهرة للعين المجردة.

أوضحت نواياى منذ البداية. كنت أود أن أتزوج ابنته وأنشد موافقته ومساعدته. عرضت عليه أن أزوده بمصادر استعلام عنى، وببيانٍ مالى، وأى شىء يمكن أن يقنعه بمرغوبتى بصفتى زوج ابنته.. كان بإمكانى أنْ أرى عقله يعمل. راح يجذب ربطة عنق ويدور بعينيه. ثم انتحى جانبا وتشاور فى الأمر مع أزويل فترة. وعندما عاد، مد يده وقال، هل لى أن أقدم أى مساعدة فى أمكانى.

كانت نقطته الوحيدة التى غصصت بها: هى: أنه يريد ألا تتزوج ابنته قبل عيد ميلادها الثامن عشر. وافقت، لم تبد لى سنتان زمنا طويلا للانتظار، وطلبا عادلا من جانبه. وخلال بضعة أيام صحبنى إلى بيته للعشاء بصفتى ضيفا. وكان تقديمى إلى أمك على يديه. أمكننى أن أرى فى عينيها أنها تعرفنى من الليلة التى التقينا فيها بالفناء، لكنها لم تفه بكلمة. واعتقدت من البداية أنها تبادلنى شعورى نحوها.

توددنا أحدنا إلى الآخر شهورا، خلال الربيع والصيف وفى الخريف. كنا نلتقى فى حفلات راقصة رتبت دعوتها إليها. وكنت أركب إلى بيت آل ديشوتس مرارا وتكرارا على جوادى الهانوفرى.. وكنا نجلس كلير وأنا على المقعد فى الشرفة العريضة ليلة بعد ليلة خلال الصيف الرطب ونتحدث فى كل موضوع

عزيز على قلبينا. وفى الأيام التى لم أكن أتمكن فيها من الركوب فى الخارج، كنا نرسل خطابات تلتقى فى سبيلها فى مكان ما فى شارع ميتينج. وفى أواخر الخريف أعددت خاتما. كانت ماسة زرقاء، حجرا بحجم طرف بنصرك. كان مركبا فى نطاق من الذهب الأبيض المُشَبَّك.. عقدت عزمى على تقديمه لها ذات مساء فى أواخر نوفمبر كمفاجأة.

وفى التاريخ الذى اخترته، ركبت الحصان الهانوفرى إلى الشمال فى الغسق، والخاتم يستكن فى كيس من القطيفة فى جيب صديرتى. كانت ليلة باردة الهواء، سريعة الحركة وشتوية، على الأقل بتعبيرات تشارلستون. ليلة تشبه فى ملامحها تلك الليلة التى التقينا فيها لأول مرة.

وحين وصلت إلى بيت ديشوتس، كانت السماء مظلمة تماما. لكن البيت كان مضاء، كل نافذة متوهجة ترحيبا بى، ووصل إلى سمعى صوت بيانو خافت، باخ، من الداخل.

جلست فى الطريق برهة، أفكر فى أن الليلة هى ذروة مجهود المواسم السابقة. وكل أمنيات قلبى فى متناول يدى.

ثم سمعت همهمة أصوات منخفضة من الشرفة. ورأيت حركة. كانت خطوط وجه كلير الجانبية تميل إلى الأمام، وطيف خيالها الأسود فى إطار من ضوء النافذة الأصفر ومن الجانب الآخر للنافذة مال وجه آخر، وجه رجل - تلاقيا وقبّلا، قبلة طويلة مشبوبة العاطفة كما أمكننى أن أرى. افترق وجهاهما، وامتدت يدها إلى وجهه ووجهته إلى الخلف مرة ثانية. تقلصت معدتى. ويداى. تقت إلى أن أخطو إلى النافذة وأن أصيح بإستيائى البالغ وأن أضرب شخصا ما بالسوط. لكن دور الخاطب الذى خانته خطيبته لم يكن دورا أستعذب مذاقه.

وبدون فكرة أخرى، أعملت مهمازى فى الحصان وأسرعت بالانصراف بخطى محمومة. قطعنا أميالا وأميالا. وذلك الحصان الطويل يمد ركضه بخطى طويلة. كان أشبه بالركوب فى حلم، باندفاع خلال عالم مظلم بمعدل أقرب إلى طيران مجنح منه إلى امتطاء ظهر حصان. عبرنا مسطح أشجار البلوط الرومى والصنوبر المشقوق، خلال مناطق جرداء من الحشائش السلكية والحشائش الخشنة، حتى أبطأ الحصان أخيرا وهو ينفخ بشدة، منكس الرأس، فى مكان تحف الطريق من جانبيه أجمات نبات الآسى الشمعية.

لم تكن لدى فكرة واضحة عن أين كنت. لم أكن قد التزمت بمنحنيات الطريق أو حتى اتجاه طرفى البوصلة الدقيقين الذى كنا نتبعه. كل ما أعرفه هو أننا نتجه شمالا بشكل عام. إذ لم نكن قد اندفعنا من خلال أى من نهر آشلى أو نهر كوبر وغرقنا. وفى ضوء القمر الجزئى الضئيل بدا الحصان الكستنائى الذى يتصبب عرقا أسود مثل الأبنوس، ولامعا مثله. وفيما عدا أن ألعب دور المتهور وأسلك سبيلا إلى الغرب وأضل طريقى مدى الحياة فى أراضى تكساس عديمة المسالك، لم يكن أمامى ما أفعله سوى أن أستدير وأتجه إلى البيت. وعندما استقر رأيى على أن أفعل ذلك، على أية حال، رأيت أمامى أن السماء مضاءة بلون أصفر فوق الآس الشمعى كما لو كانت مضاءة بنار موقدة فى الهواء الطلق. بدت ملامح الخلق الأخرى مشتعلة مثلى. وفرت لى النار، كما فكرت، اتجاها مؤقتا.

اتجهت صوب الضوء. وبعد منحنى أو اثنين من منحنيات الطريق فوجئت بكنيسة تحترق. كان سقفها وبرجها مشتعلين. لكن جسم البناء لم تمسه النار بعد. تركت الحصان ومشيت إلى الكنيسة ودخلت من الباب وسرت إلى أسفل الممر بين المقاعد. أخرجت كيس الخاتم من جيبى ووضعته على المذبح ثم وقفت هناك وسط الدخان والضوء الصارخ اللون. بدأت أجزاء من السقف تسقط ملتهبة حولى. وأنا العريس أنتظر عند المذبح؛ خطر لى أن أحرق نفسى.

وفى تلك اللحظة بالضبط اندفع رجل داخلا من الباب. كانت ملابسه ملتوية حوله وهو يحمل زجاجة بها ربع جالون من الشراب بقى بقاعها بوصة تتوهج بلون عنبرى. قال: ماذا تفعل هنا. اخرج.

وجعلنى الكبرياء، فيما أظن، أقول: تصادف مجيئى إلى هنا، ودخلت لأرى إن كان بإمكانى أن أساعد.

قال. حسنا: اخرج.

غادرت الكنيسة معه، وصممنا على إنقاذها، رغم أنه كان مخمورا وأنا قد فقدت صوابى تقريبا. ومن جدول قريب حملنا ما أمكننا من الماء فى زجاجة شرابه. كنا نقرفص بجوار الجدول فى انتظار أن تبقبق الزجاجة حتى تمتلئ من خلال عنقها الضيق ثم نسير معا إلى الكنيسة لنلقى بالماء على النار بمقدار ربع جالون فى كل مرة، لا على أمل أن نطفئها ولكن على أمل أن نقول، إذا سئلنا،

إننا حاولنا. وعندما طلع الفجر وقف الرجل وأنا بوجهين يعلوهما السناج ننظر فى دائرة مستديرة على الأرض.

قال الرجل: هذا هو الحال لقد احترق كل شيء ما عدا المفصلات ومقابض الأبواب.

قلت: أجل.

- لقد فعلنا ما بوسعنا.

- بدون شك.

- ليس هناك من يستطيع أن يلقى باللوم علينا لافتقادنا إلى الجهد.

قلت: لا.لا أحد.

هز قطرات الماء الأخيرة من زجاجة شرابه على الحشائش التى لفحت لفحا خفيفا على حافة النار ووضعها فى جيب معطفه وسار إلى أول الطريق. ذهبت إلى الحصان وامتطيته وعدت إلى تشارلستون.

وبعد أسبوع حجزت تذكرة سفر بباخرة متجهة إلى انجلترا، وفى العام التالى لم أفعل شيئا أكثر من التسكع فيما حولى أتفحص الكنائس القديمة واللوحات القديمة. وعندما عدت، وجدت أن أمك قد تزوجت ذلك الرجل الذى رأيته معها بالشرفة. كان رجلا فرنسيا، شريكا لأبيها، وسيطا للأنبذة. وكانت قد رحلت معه للعيش فى فرنسا.

وقد كنت دائما منجذبا إلى شئون الروح. ولذا فإننى انسحبت من واجباتى فى الأعمال التجارية العائلية وعملت راعيا فى الكنيسة باستسلام وابتهاج. ولم أندم أبدا للحظة على ذلك القرار.

ومر تسعة عشر عاما، وذات يوم من أيام الربيع اكتشف أن كلير قد عادت من فرنسا وحدها. كان زوجها قد توفى. وكان زواجا بلا أطفال، زواجا غير سار كلية إذا كان لنا أن نصدق القيل والقال. مريرا، فى حقيقة الأمر. وكان الرجل الفرنسى الضئيل الحجم قد عاش بقدر أكثر أحلامى أنانية.

وخلال أيام من سماعى هذه الأنباء عدت إلى المخزن الذى يقع على نهر كوبر والتقيت مرة أخرى بديشوتس. كان عندئذ عجوزا. بالغ البدانة عند الخصر ومتهدل اللغد، وكنت أنا بطرف شعر مستدق ينمو على مقدمة رأسى وقد غزا الشيب صدغَى. كانت النظرة التى ألقاها على تصلح لتوضيح كلمة

تعال توضيحا كاملا. قال: كيف يمكننى أن أساعدك؟ بنبرة صوت يمكن أن تؤدى فى وقت سابق إلى شاهدين ومسدسين.

قلت: سوف نتصارع بكل جوارحنا حول هذا الأمر ثانية، وفى هذه المرة فإننى أنوى أن نصل إلى نهاية.

وفى ذلك الخريف، تزوجنا أنا وأمك، وكنت سعيدا لمدة عامين كما يمكن لرجل أن يكون. وأظن أننى أسعدتها أيضا. كان زوجها السابق، الرجل الفرنسى الضئيل، غير مرضى من كل النواحى. كان يلومها لعدم الأنجاب وأصبح عابسا وخشنا وجعلت شاغلى أن أرد عنها كل إساءة وكل دناءة.

وبدت الشهور التى علمنا فيها أنك آتية بركة غريبة لاثنين مثلنا: عجوزين أتلفهما الماضى. وعندما ماتت كلير أثناء ولادتك، لم أكن بالكاد أظن أن الله سيكون قاسيا معنا. لم أستطع أن أفعل إلا القليل لمدة أسابيع. وجد الجيران الطيبون مرضعة لك ولزمت أنا فراشى. وعندما نهضت ثانية، فعلت ذلك بتصميم أن أوقف حياتى عليك.

عندما فرغت قصة أبيها، وقفت إيدا وسارت خلف مقعده ومسدت شعره إلى الخلف عن جبينه وقبلت قمة رأسه. لم تعرف ماذا تقول. بهتت لحكاية خلقها. ولم تستطع فى تلك اللحظة أن تتمالك نفسها من جديد، لا بصفتها خطأ مطبعيا رزينا من نوع ما ولكن بصفتها نتاجا لعاطفة مشبوبة كافحت فى مواجهة صعاب جمة.

ما إن فرغت قصة إيدا، حتى كان الظلام الدامس قد حل وقام قمر يغلفه ضباب خفيف فوق ركام من السحب باتجاه الشرق. مر شكل طائر مظلم عاليا عبر وجه القمر. ثم طائر آخر، ثم طيور أكثر وأكثر فى أوتار دوائر سريعة التلاشى.

ربما كانت من جنس طيور الغطاس أو الشنقب التى تطير ليلا فى طريقها إلى الجنوب. لم تكن النجوم قد ظهرت بعد، ولكن إلى الغرب بدا كوكبان، منارتان مضيئتان فى السماء النيلية اللون، يغربان خلف شفة مرسلة للجبل البارد.

قالت إيدا: الكوكب الأزرق، الأكثر لمعانا هو كوكب الزهرة، وهى وروبى تنحرفان فى الطريق المؤدى إلى الخليج الأسود.

الحياة على طريقة ديك المصارعة

عند منتصف النهار، عثر إينمان وفيسى على شجرة نشرت حديثا. شجرة جوزة أمريكية متوسطة الحجم، وقد قطعت موازية للدرب الذى سلكاه. وإلى جوارها رقد منشار طويل ذو مقطع مستعرض. وقد زيت نصله وهو خال كلية من الصدأ، وكل أسنان حافته القاطعة المعقدة لامعة من شحذها حديثا.

قال فيسى: انظر إلى هناك، منشار متروك. إن أحدا ما ليعطينى لقاءه مبلغا من المال.

ذهب ليلتقطه وقال إينمان، إن الحطابين قد ذهبوا لتوهم ليتناولوا وجبة غذائهم وسرعان ما سيعودون لطرح هذه الجوزة وشقها.

-أنا لا أعرف شيئا مثل هذا، سوى أن هناك منشارا بجوار الطريق وأننى وجدته.

التقطه فيسى ووازن طوله عبر كتفه وواصل السير. وعند كل خطوة كان المقبضان الخشبيان عند كل من الطرفين يتواثبان والنصل العريض يطن ويئز مثل موسيقى قيثارة اليهودى.

قال: سأبيع هذا لأول رجل نقابله.

قال إينمان: انك تبدو مطلق الحرية للغاية ومستريح البال فى تعاملك مع

ممتلكات الآخرين. أود أن أسمع كيف جعلت ذلك ينسجم مع الكتاب المقدس فى مواعظك.

- تأكد تمام التأكد من ذلك، أن الله ليس متشددا البتة فى قضية الملكية. فاحترامه لها ليس عظيما، وهذا انحياز يبرهن عليه عند كل منعطف. لاحظ على وجه الخصوص الطريقة التى تستخدم بها النار والفيضان. هل رأيت على الإطلاق نسق عدل فى تطبيقهما؟

- لا. ليس نسقا يمكنك ملاحظته.

- تماما. كل مايمكننى قوله إن الرجل الذى يهدف إلى أن يصيغ نفسه على نمط الألوهية لايمكنه أن يفكر تفكيرا جادا فى من يخصه منشار معين. مثل هذه الأشياء تشتت ذهنك عن الرؤية العظيمة

قال إينمان: الرؤية العظيمة؟ نظر إلى رأس الواعظ الذى ملأته القشور، والقطع الحاد تحت عينيه الذى أصابه من العاهرة الضخمة، والعلامة التى مازالت هناك من ضربة الموس التى أصابه بها إينمان بجوار النهر العميق. قال: لم يبق إلا أنت للكلام عن الرؤية العظيمة مع كل السياط التى نالتك. وكل واحد منها عدل، فيما يتعلق بهذا.

قال فيسى: إننى لاأقول إننى لم أكن أستحق المشق بالسوط. كم من رجل افضل منى ناله جلد بشكل أسوأ. لكننى لاأنوى أن أنال جلدا أخر باستخفاف.

وجهت تلك الفكرة عقل فيسى إلى أمور الدفاع، وقال، دعنى أرى مسدسك القوى ذلك.

قال إينمان: لا.

- هيا. أنا لن أوذيك.

- لا.

- كل ما كنت أفكر فيه ذلك الدرع الواقى الملائم تماما لأحد الرماة.

قال إينمان:إنه أثقل وأكبر مما يجب. أنت بحاجة إلى مسدس من مسدسات البحرية. كولت أو ستار. فهو الثقل الصحيح لسحب مسدسك بسرعة.

- أود على الأقل أن تعيد إلى مسدسى.

قال إينمان: إننى أعتزم الاحتفاظ به حتى نفترق.

قال فيسى: قد يحدث هذا بشكل غير متوقع. وعندئذ سوف أترك أعزل.

- ويظل العالم مكانا أفضل لهذا السبب.

وبعد قليل سارا تحت شجرة سنط من الفصيلة البقلية تميل فوق الطريق. ولافتقارهما إلى مؤونة أفضل، انحنيا وملأ جيوبهما بقرونها الطويلة الصدئة. وواصلا رحلتهما، وهما يشقان القرون بظفرى إبهاميهما ويأكلان لبها عن طريق كشطة بأسنانهما. وبعد قليل، لمحا على بعد رجلا يقف تحت الطريق، يتأمل المنظر الذى يقع أمامه تأملا عميقا فيما يبدو، وأهم ملامحه ثور اسود ضخم، ميت فى شعبة جدول. نزل إينمان إليه. ووضع فيسى المنشار على جانب الطريق ولحق به.

وقفا إلى جوار الرجل ونظرا إلى الثور المنتفخ، وماء شعبة الجدول يرتطم ببطنه، والذباب سحابات حول أنفه ومؤخرته. وقفوا جميعا معقودى الأيدى، وعيونهم مثبطة، فى وضع عمال يواجهون عملا لايريدون أن يؤدوه.

لم يكن الرجل عجوزا بالتحديد، لكنه كان فى طريقه إلى ذلك. غليظ عند الجذع مثلما تبلغ ذكور جنس معظم الحيوانات الثديية المكتملة الذكورة بدءا من القرد إلى الحصان نضجها المتأخر.

كان يرتدى قبعة، أثرا قديما صوفيا أسود له قمة قمع سكر. وعلى الرغم من أن اليوم لم يكن باردا كثيرا، فإنه قد ربط حافتها العريضة حول اذنيه بقطعة من نبات السيزال الذى تصنع منه الحبال حتى تلاءمت حول رأسه مثل قلنسوة. ولحية ذات شاربين خديين وشوارب كثيفة هائلة تتشعث من عظام فكيه، وهو ينعم النظر من تحت ظل حافة قبعته بعينين سوداوين، وقد انتفخت جفونهما وزودتا بغطاء مثل عينى طير جارح. كان له فم مستدير أعاد إلى ذاكرة إينمان منخر سمكة خطمية هائلة الحجم رآها خلال نوبة قتال قصيرة بحذاء الساحل قرب بداية الحرب.

كان هناك بندقية عيار عشرة مليمترات ذات ماسورة واحدة مسندة إلى شجرة قريبة.

بدت الماسورة كأنها نُشِّرت بحيث تصبح قصيرة لتقذف على مدى أوسع مما كان مألوفا أو عمليا. وقد تمت تلك العملية بأدوات غير كافية، لأن الفوهة كانت مشرشرة وبلا زاوية قائمة كلية على الماسورة، كما لو كانت قد قطعت منحرفة بميل.

قال فيسى: كيف تنوى إخراجه؟

صمت الرجل قبل أن يجيب وشكّل بسبابته وإبهامه كماشة ثم راح يفتش تحت سرواله عن مخلوق دقيق يزعج مابين فخذيه. أخرج كماشته وأمسك بها قرب عينيه وبدا انه يطقطق شيئا بين أظافره الصفراء السميكة كانت يداه كبيرتين وبجلدها قشيرات طباشيرية.

شرح لهما أن الثور هام على وجهه منذ بضعة ايام ومات بسبب خلل ما غير معروف. قال إن شعبة الجدول هى مصدر مائهم وأن نكهتها المحايدة العادية قد اكتسبت نتنا لاذعا أرسلهم يبحثون عن السبب على طول شواطئه، وقدّر أنهم قد يعملون جميعا معا لينتشلوا الثور من الماء.

حدج إينمان الرجل وفيسى بنظراته. ثم نظر إلى الكتلة المحدبة للثور وقدّر أن الأمر يستلزم زوجا من الخيل يجند لسحب الثور إلى الخارج.

قال: يمكننا أن نحاول جذبه. لكن ذلك ثور ضخم. ربما يحسن بنا أن نفكر فى طريقة ما أخرى.

تجاهله الرجل وربط حبلا بعنق الثور وأمسكوا جميعا بالحبل وسحبوا بمشقة.

قال الرجل: عتلات. يمكننا أن نرفعه إلى الخارج إذا أمكننا أن نجد أعمدة.

قال فيسى: ليس علينا أن نجدها، يمكننا أن نصنع أعمدة ملائمة. فلدى منشار ربما تريد أن تشتريه منى بعد أن تنتهى. وجرى إلى الشط ليأتى بالمنشار العريض. كان مستثارا مثل صبى شرع فى أداء عمل مع الرجال للمرة الأولى.

رأى إينمان أن الفكرة هزيلة، ولذا فإنه جلس على زند خشبى مقطوع وراح يراقب متسليا بينما شرع الرجلان يعملان بحماسة بالغة فى غير مكانها. ذكّراه بمهندسى الجيش وأتباعهم وهم يشرعون فى بناء جسر أو ماشابه ذلك، وكل حرصهم لايتناسب مع قيمة الشيء الذى يعملون فيه، والنتيجة النهائية أن يبذلوا مجهودا كبيرا كاملا تراءى لإينمان أن الأفضل أن يترك بدون عمله.

وبينما إينمان يراقب، نشر فيسى والرجل ثلاثة أعمدة غليظة. وبدون تأخير كانا فى الماء حتى سيقانهما وقد ألقيا بصخور كبيرة فى مكانها لتعمل مرتكزات للرافعة. عملا بتوافق، وهما يحاولان أن يدحرجا الثور، ولايمكنهما أن يصلا إلى أن يجعلاها تعمل أكثر من أن ترتج بتراخ وهما يجهدان مع الأعمدة. انضم إينمان إليهما، وفى هذه المرة تحركت بالفعل. كانت المشكلة، حتى وأطراف

الأعمدة مدفوعة إلى قاع الماء، أنهم لم يمكنهم سوى إنجاز نحو قدم من الرفع. وعندئذ يتعبون ويتركون الأعمدة فيسقط الثور بطرطشة.

قال فيسى، أعرف يمكننا أن نرفعه ثم ندفع صخورا تحته بأقدامنا لتثبته. ثم نرفعه ثانية من هناك برافعة أعلى ونضيف صخورا أكثر. ونفعل ذلك مرارا وتكرارا وعما قريب ندحرجه.

رمق إينمان المسافة بين الثور والأرض الجافة.

قال: ندحرجه مرة واحدة، وسيظل فى الماء.

قال فيسى: ندحرجه مرتين، إذن.

قال إينمان: سوف يصل به هذا إلى الشط، لكنه سيظل يتعفن ويجرى فى الماء

قال فيسى: ندحرجه ثلاث مرات. كان كل جزء فيه مستنقدا بأعجوبة الرافعة والأعمال الهندسية الرجولية.

أمكن إينمان أن يتصورهما هناك حتى يحل الظلام وهما يرفعان الثور بالرافعة ويدعمانها بصخور ثم يرفعان مرة أخرى. وساعة بعد ساعة من زمن السير الصالح أو زمن الراحة الطيب تمر.

ذهب إينمان إلى شط الجدول حيث كان فيسى قد ترك المنشار. التقطه وعاد إلى الثور ووضع حافة النصل على رقبته.

قال، ليذهب واحد إلى الناحية الأخرى.

بدا فيسى خائب الظن إلى حد مؤلم، لكن الرجل أمسك بالمقبض البعيد، وبعدة جذبات فصلا الرأس. ثم، بعد ذلك مباشرة، قسماً من الصدر والقائمتان الأماميتان متعلقتان به. فصلت القطعة التالية الخلفية عن البطن. انفتحت باندفاع هائل الأعضاء وسائل داكن وانطلاق غازات.. راقب فيسى ماجرى ثم مال وتقيأ فى الماء. وطفت رغوة لب قرون السنط مبتعدة فى مجرى الماء.

أطل الرجل وقاق كأن نكتة نادرة مرت بهم. قال: معدة ضعيفة

قال إينمان: إنه رجل وعظ. وهذا يبعد عن عمله المختار.

وعندما فرغوا من النشر، كانت شعبة الجدول مكسوة بأجزاء من الثور، سرعان ما سحبوها إلى الخارج وتركوها بعيدا ملقاة على الأرض. ومع ذلك ظل

الماء يجرى أحمر وذكّر إينمان بالجدول فى شاربسبورج.

قال إينمان. ماكنت لأشرب ذلك الماء لبضعة أيام قادمة.

قال الرجل: لا. أحسب أن لا.

غسل الرجل وإينمان أيديهما وسواعدهما فى الماء الصافى أعلى الجدول.

قال الرجل، تعاليا لتناول العشاء معنا ولدينا علّية تبن تصلح للنوم.

قال إينمان للرجل، إذا خلصتنا من ذلك المنشار فقط.

قال فيسى مبتهجا، أتوقع أن أحصل على دولارين اتحاديين. خمسون سنتا منها أوراق مالية.

قال إينمان، خذه. بلا ثمن.

التقط الرجل المنشار ووازن منتصفه عبر كتفه، وبيده المتحررة التقط البندقية التالفة وذهب إينمان وفيسى معه، سائرين إلى آخر الطريق الذى كان يتبع مجرى الجدول.

بدا الرجل منشرح المزاج لإبعاده الثور من مياه شربه، بل محبا للفكاهة. لم يكونوا قد ساروا بعيدا عندما توقف ووضع أصبعا على أنفه وغمز بعينه. ذهب إلى شجرة بلوط كبيرة ذات تجويف فى جذعها على مستوى النظر. دفع ذراعا فى التجويف وسحب زجاجة بنية مسدودة.

قال، إن لدى عددا من هذه الزجاجات مخبأة حول المكان لوقت الحاجة.

جلسا لصق جذع الشجرة ومرروا الزجاجة فيما بينهم. قال الرجل إن اسمه جونيور، وشرع يحكى حكاية عن شبابه، عن أيام سفره فى جولات مصارعة الديوك. أخبرهما عن ديك بعينه، ديك دومينيكى ضخم كان يعيش للاشىء سوى المصارعة ووطء الدجاجات.. عن كيف كان يجلد كل شىء يصارعه لعدة شهور.. عن صراعات ملحمية وانتصارات مذهلة كان الديك يطير فيها مختبئا فى عوارض مخزن الغلال، وهو يبدو كما لو كان يواجه هزيمة مؤكدة، ويجثم هناك حتى يسخر منه المشاهدون. ثم، حين يصل الاستهزاء به إلى سمته، يسقط على الديك المنافس، تاركا كومة من الدم اللامع والريش فى التراب.

حكى لهم جونيور أيضا عن كيف كانت النساء يلقين عليه بأنفسهن فى أسفاره بنفس عافية الديك وهو ينقض على عدوه. ويذكر امرأة معينة كانت متزوجة دعاه زوجها إلى الإقامة معهم بضعة أيام بين المصارعات. حطت عينها عليه، وهى تحتك به فى كل فرصة.

وذات يوم حين خرج زوجها للحرث ذهبت لتملأ الدلاء من ماء البئر. وعندما مالت لتمسك بالدلو، قال جونيور إنه جاء من خلفها ورفع تنورتها إلى ظهرها. وكما حكى فإنها لم تكن ترتدى لباسا داخليا تحت التنورة، وقال إنها أمالت مؤخرتها ووقفت على أطراف أصابع قدميها. وأتاها هناك بالضبط، وهى مائلة على فوهة البئر. قال، ودام الأمر طوال ما استغرقها من وقت لترفع الدلو من الماء. وعندما فرغ واصل طريقه والديك تحت ذراعه. أفضى بإينمان وفيسى إلى أن يصدقا أنه كان له فى حياته المبكرة عدد عظيم من مثل تلك الأيام المدهشة. قال، لقد كانت لى صولات وجولات.

رأى فيسى أن هذه القصة قصة رائعة، فقد لعب الشراب بعقله وهو يشرب على معدة خاوية.. صاح فرحا عند نهايتها وثرثر عن كيف أن تلك كانت الحياة التى يحياها رجل.

قال بصوت ملئ بالشجن، أن تعيش مثل ديك مصارعة، ذلك هدفى.

وافقه جونيور على أن حياة التجوال كانت حياة رائعة بالنسبة له، وقال إن كل متاعبه بدأت حين استقر واتخذ زوجة، إذ حدث أنها بعد ثلاث سنوات من الزفاف ولدت له طفلا زنجيا. وأكثر من هذا، أنها رفضت أن تفصح عن أسم الوالد، وحرمت جونيور من انتقامه العادل. وبدلا من ذلك شرع فى اتخاذ إجراءات طلاقها، لكن القاضى رفض منحه اياه على أساس أن جونيور كان يعلم أنها داعرة حين تزوجها.

أتت بأختيها بعد ذلك لتعيشا معهم، وقد برهنتا على أنهما على قدر مساو لها من العهر، إذ حملت واحدة منهما بتوءم ذكر من جنس غير محدد، وعلى الرغم من أنهما الآن قد كبرا عدة سنوات- لايستطيع أن يحدد رقمها بالضبط- فإنهما ربيا بدون أى هداية أكبر مما يحصل عليها خنزيران متوحشان، ولم يهتم أى من الأم أو أى شخص آخر من أهل البيت أن يسميهما، ويشرن إليهما فقط على نحو لامثيل له بثنى ابهاماتهن بشكل خطافى فى اتجاه الولد المقصود قائلات، ذلك الولد.

زعم جونيور أن حاصل تجربته فى الزواج أدى به إلى أن يعتقد أنه كان ينبغى عليه أن يتزوج فتاة فى الثالثة عشرة وأن يربيها حتى تصلح له. اما والحال على ماهو، فقد زعم أنه يرقد ليال عديدة يفكر أن كل لحظة حتى مماته ستكون كئيبة وأن ملاذه الوحيد أن يقطع رقابهن وهن نائمات ثم يسدد البندقية إلى رأسه أو أن يهرب إلى الغابات وأن تطارده الكلاب ويحاكم ويطلق عليه الرصاص مثل راكون.

أخمد هذا ابتهاج فيسى، وبعد هنيهة أعاد جونيور الزجاجة إلى مكانها والتقط المنشار مرة أخرى. قادهما إلى آخر الطريق فى منحنى أو منحنيين إلى بيته، الذى كان يقع تحت الطريق فى أرض مستنقعية رطبة. كان بيتا واسع البنيان، ثبتت على جوانبه ألواح خشبية وفى حاجة شديدة إلى الاصلاح إلى حد أن جانبا منه قد سقط منه ركام من أحجار النهر المسطحة التى تشكل أساسه. ونتيجة لذلك، فإنه قام مائلا كما لو كان فى مرحلة الغوص فى الأرض.

كان الفناء مزدحما بمحال إقامة ديوك مصارعة هرمية الشكل مبنية من عصى لم تُقَشر مربوطة أحدها إلى الآخر بسيقان نبات زهر العسل.. وبداخلها، كانت الطيور تحملق من الشقوق بأعين باردة لامعة ترى العالم كله لايزيد على فرصة انقضاض على خصم. كان هناك خيط دخان أبيض نحيل يرتفع من المدخنة.

وعمود دخان أسود يعلو من مصدر ما آخر خلف البيت.

وعندما تركوا الطريق ليهبطوا إلى مستنقع جونيور، ضج كلب بثلاثة قوائم مرقع الشعر من نوع الكلاب الصغيرة خارجا من تحت الشرفة وعدا واطئا على الأرض وبلا صوت تماما على مسار متجه إلى إينمان مباشرة، الذى تعلم أن ينتبه إلى كلب صامت أكثر من كلب ينبح. وقبل أن يصل إليه، ركله إينمان وأصابه تحت ذقنه بمقدمة حذائه. انهار الكلب وقبع ساكن الحركة فى التراب.

نظر إينمان إلى جونيور وقال: ماذا كان على أن أفعله؟

قال فيسى: ليس كل من ينبح عليهم الكلاب لصوص.

وقف جونيور ينظر فقط.

نهض الكلب آخر الأمر مرتجفا على قوائمه الثلاث وبسلسلة من مناورات مبهمة لتغيير اتجاهه عاد أدراجه إلى تحت الشرفة.

قال إينمان: أنا مسرور لأنه لم يمت.

قال جونيور: ماكنت لاهتم فى أى الحالين.

ساروا إلى أسفل متجهين إلى البيت ودخلوا المطبخ وغرفة الطعام. اتجه إينمان فى الحال إلى خزانة فطائر وأخرج زجاجة أخرى وثلاثة أقداح قصديرية. كانت أرضية المكان أشبه بممر منحدر فى ميلها، وعندما ذهب إينمان ليجلس فى كرسى مستقيم الظهر عند طاولة، كان عليه أن يشدد الوطء على الأرض بقدميه ما أمكنه حتى يمنع نفسه من أن ينزلق جانبيا بفعل الجاذبية. إلى الحائط المنخفض فى ركن المدفأة قام هيكل سرير، وأمكن إينمان أن يرى

أنهم لم يحاولوا حتى أن يقيموه مستويا برفادة لكنهم بذلوا فقط جهدا متواضعا في أن يديروه بحيث تصبح رأسه في الجانب العالي.

كانت هناك صور مقطوعة من كتب وجرائد معلقة على الحوائط، لكن بعضها معلق متوازيا مع الأرضية المائلة، والبعض الآخر على خط أكثر تجريدا يمكن الوصول إليه بمستوى روحي. وكان هناك نار تحترق ببطء في المدفأة، وموقد ذو غطاء يقوم في جمرات الفحم ويرسل رائحة لحم نتن يطهى. وكانت المدفأة مائلة إلى الوراء إلى حد أن الدخان كان يميل وهو يرتفع عن الحائط الجانبي قبل أن يجد طريقه أعلى المدخنة.

ومع كل توقعات المرء من خط العالم الرأسي وقد ضرب به عرض الحائط، أصبح حتى صب جرعة صغيرة من الشراب من الزجاجة في الكأس أمرا محيرا، وعندما هم إينمان بفعل ذلك، أخطأ الكأس كلية، وبلل أعلى حذائه قبل أن يعثر على المدى والتوجيه الصحيحين. وعندما نجح في ملء الكأس، جرع جرعة ومد يده ليضع القدح على مائدة الطعام ولاحظ أن المصدات التي نشرت من أغصان شجر السندر قد مسمرت حول كل مكان في المائدة حتى لا تنزلق الأطباق والأقداح من الناحية الواطئة.

راح فيسي يدور في المكان وهو يرشف من قدحه وينظر حوله، ويمشي متثاقلا صعودا وهبوطا. ثم خطرت له فكرة.

قال: يمكننا أن نركب رافعات تحت الجانب الواطئ، وسرعان ما نقيم هذا المكان في وضعه الصحيح.

ويبدو أن الرافعات قد أصبحت تشغل صدر تفكيره، كما لو كان قد اكتشفت آلة يمكن تطبيقها على كل الألغاز التي تقع في سبيل أي شخص. أغرز رافعة تحت أي شيء يقوم على نحو خاطئ ودعه يقف في وضع صحيح وعلى زاوية قائمة مع العالم.

قال جونيور، أحسب أننا يمكننا رفعه. لكنه كان على هذا الحال لمدة طويلة، وقد عرفنا سره الآن. إنه ليبدو أمرا شاذا أن تعيش في مكان بلا زاوية انحدار.

شربوا لفترة قصيرة، والشراب يلعب بسرعة برأس إينمان، فهو لم يكن قد أكل شيئا سوى قرون السنط منذ عشاء الليلة الماضية الضنين. ونزل الشراب بمعدة فيسي بوقع أشد، فجلس ورأسه مائل على نحو عجيب وهو ينظر في قدحه.

وبعد قليل دخلت فتاة فى الثامنة أوالعاشرة من العمر من الباب الأمامى كانت طفلة ضئيلة الحجم، نحيلة الكاحلين وعظام الكتفين. كان جلدها بلون القشدة الثقيلة، وشعرها بنى اللون يتهدل إلى ما تحت كتفيها بخصلات هشة كان إينمان نادرا ما رأى طفلة أكثر فتنة.

قال جونيور: هل أمك هنا؟

قالت الفتاة: نعم.

قال جونيور: أين هى؟

قالت: فى الخارج بالخلف. كانت منذ دقيقة مضت.

رفع فيسى عينيه عن قدحه وتفحص الطفلة.

قال موجها حديثه إلى جونيور: لقد رأيت اطفالا بيضا بشرتهم أكثر سمرة من ذلك. ماهو تقديرك لها. ثُمْن زنجية أو أقل؟

قال جونيور: ثمن أو ربع، لافرق. فكل مايمكننى أن أراه أن بها دماء زنجية.

وقف فيسى فجأة وسلك طريقه إلى السرير. رقد وفقد وعيه.

سأل إينمان الفتاة: مااسمك؟

قالت: لولا.

قال جونيور: لا. ليس هذا اسمها. استدار إلى الفتاة وحملق فيها. قال: قولى مااسمك.

قالت الفتاة: أمى تقول إنه لولا

– حسنا، ليس هذا اسمك. هذا بالضبط ذلك النوع من أسماء بيت القطط الذى يخطر على بال أمك، لكن أنا الذى أطلق الأسماء هنا. ان اسمك عفة.

قال إينمان: كنت لأقول إن أيا من الاسمين اسم رائع.

قال جونيور: لا. ان اسمى يحجب الاسم الآخر، لأن اسمى يخلد ذكرى ماعليه أمها من عهر.

جرع ماتبقى فى قدحه وقال، هيا بنا. وبدون أن يلتفت ليرى إذا كان إينمان يتبعه تقدم إلى الشرفة الأمامية وجلس فى كرسى هزاز.

خرج إينمان إلى الفناء وألقى برأسه إلى الخلف لينظر إلى السماء. كان الوقت يدنو من المساء والضوء نحيل ومائل، وقام فى شرق السماء جزء من

القمر ومنارة كوكب الزهرة. وكان الهواء جافا وبه لسعة برد وجذب إينمان نفسا عميقا فى رئتيه جعلت رائحته والإحساس به فكرة تومض فى عقل إينمان. لقد أدركنى الخريف الآن توا. وماأنبأه به الجو هو أن عجلة السنة قد دارت درجة أخرى.

صاح جونيور مناديا: ليلا.

وفى ظرف دقيقة جاءت امرأة تطوف حول ركن البيت وجلست على درج الشرفة بين إينمان وجونيور مباشرة. رفعت ركبتيها عاليا وراحت تتفحص إينمان بعين ناقدة. كانت شيئا ذا شعر ناعم مبيض، وافرة العجيزة، ترتدى ثوبا قطنيا نحيلا حالت ألوانه من الغسيل لدرجة يمكن لأى رجل معها أن يرى نسيج جلدها من خلال قماشه بلون جلد الرق. كان الثوب يوما ما قد طبع بأزهار صغيرة فى صفوف لكنها قد بهتت حتى بدا ما بقى منها أكثر شبها بحروف الطباعة، خربشة باهتة من إحدى اللغات التى تكتب رأسيا.

كانت الفتاة، فى كل خطوط جسمها، دائرية، ونصف فخذيها العلويان الشاحبان باديان للعيان حيث انحسر الرداء على الدرج. كانت عيناها بلون زهور عشبة الجريش المستدير الشاحبة. وكانت تتجول دون أن تمشط شعرها. وكانت قدماها حافيتين قد خدشهما الورد البرى، وبها ما يوحى بالغرابة حتى أن إينمان وجد نفسه يصفى عقله بأن يعد أصابع قدميه موحلة على قدم من قدميها المستديرتين ليتحقق من أن الأصبع الخامسة السرية تشكل حقا مجموع الأصابع. جذب جونيور غليونا من قولحة ذرة ذات ساق طفلية من جيبه ومعه كيس تبغ متعفن. ملأ الغليون ودفع به فى فتحة فمه. دلى الكيس لإينمان لكى يتفحصه.

قال: كيس من جلد الظبى. لا يمكن لرجل أن يصنع كيسا أفضل من صنعة الله. إن مثل تلك الأشياء اختبار من الله ليرى إن كنا سنكتفى بما يوفره لنا أوأننا سنجافى سلطانه ونبحث عن تحسينها بأدواتنا الضعيفة.

ثم وجه كلامه إلى الفتاة قائلا، ولعة.

نهضت بقدر مامن الانزعاج وانفتاح تنورة ثوبها ودخلت البيت وعادت بقلفة مشتعلة، مالت لتلائم القلفة فى الغليون، وأولت لإينمان مؤخرتها وهى تفعل ذلك.

تجمع الرداء النحيل فى شق ردفيها وغلفه بإحكام إلى درجة يستطيع معها أن يرى الفراغ المقوس فى عضلة جانبى مؤخرتها المضمومة والغمازتين اللتين

تعلوان التقاء عمودها الفقرى وعظام ردفيها. بدا كل بنيانها التحتى مكشوفا أمام عينيه، وشعر إينمان بأنه يرى محيا وجه لوجه، رغم أنه لم يكن محيا غير ودود كلية.

لكن الفتاة تلوت عندئذ وأرسلت صيحة حادة مثل أرنب عند نهاية انقضاض بومة، وأمكن لإينمان أن يرى كماشة أصابع جونيور تنسحب من جوار صدرها

قالت: جونيور، اللعنة.

عادت ليلا إلى جلستها على الدرج وجلست وضغطت بساعدها على صدرها بإحكام ودخن جونيور فترة قصيرة، ثم حركت ليلا ذراعها وكان هناك بقعة دقيقة من دم أسود قد نقع فى قماش مقدمة ثوبها.

قال جونيور: أحضرى هاتين العاهرتين ليطعماك. فلدى فرس أتحقق منها فى المرعى السفلى.

نهض وذهب إلى حافة الشرفة ولبس سرواله ثم بال بقوس غزير على شجيرة قطر الحقل. هز نفسه وأعاد حزم ملابسه، وخرج إلى الفناء وإلى الطريق الذى يعتم وهو ما زال يدخن ويغنى لحنا حول ساق الغليون. كانت الكلمات التى سمعها إينمان منها هى: الله أعطى نوح أمارة قوس قزح، لا ماء ولكن نارا فى المرة التالية.

تبع إينمان ليلا حول البيت. كانت المبانى الإضافية – بيت تدخين اللحوم، بيت التعليب، مبنى صغير فوق نبع، عشة الدجاج، معلف الذرة– تتاخم مساحة من تربة مضغوطة مثل حوش فى منتصفها كانت هناك نار تشتعل فى كتل خشبية. كانت تخفق عاليا بارتفاع رأس ليلا وترسل شررا أعلى. وكان الليل يستجمع نفسه ويظلل بالسواد حواف الأشجار فيما وراء بساتين الذرة والبقول المعشبة فى منتصف المسافة. وبالقرب منها قامت حديقة المطبخ يحيطها أوتار سياج، التصق بأطرافها الحادة غربان ميتة متراخية فى مراحل مختلفة من التعفن. وضوء النار يمتد فى الظلام ويلقى ظلالا هشة على جدران المبانى التى لم تطل. غير أن قبة السماء فوقها مباشرة لا تزال فضية لا تسمها نجوم.

نادت ليلا: هيى!

ومن بيت تدخين اللحوم جاءت امرأتان شاحبتان، من الواضح أنهما شقيقتا ليلا، لأنهما تشبهانها بما يكفى من التفاصيل لأن يجعلهن ثلاثة توائم. ومن المبنى القائم عند النبع برز طفلان ذكران بشعر أسود. تجمع الكل حول النار وقالت ليلا، العشاء جاهز.

لم يقل أحد شيئا، وغمست إحدى الشقيقات سبابة صدئة فى حلقة عنق جرة فخارية مسدودة ورفعتها من على الأرض بالقرب من النار ووازنتها على عقفة ذراعها وجرعت جرعة عميقة رنانة.

مررتها إلى الأخريات وعندما وصلت إلى إينمان توقع خمرا مخمرا بالبيت رديئا، لكن نكهتها كانت لا تضارع أى شراب معروف. كان لها مذاق التربة الغنى وشىء آخر، خلاصة قوية المفعول مولفة من فطر أشجار وغدة حيوانية لها خصائص يعرفها القليل. دارت الجرة عدة مرات.

رجعت إحدى الشقيقات بظهرها إلى النار ورفعت ذيل ثوبها ومالت ودفعت ذيل الرداء القصير باتجاه النار. وحدقت فى إينمان بنظرة ابتهاج بغشاوة زجاجية فى عينيها الزرقاوين. كان ثدياها يتدليان مستديرين ومتهدلين كما لو كانا سيشقان صدرتها ويفتحانها. تعجب من نوع بيت العاهرات الذى صادفه عرضا.

وقفت الأخت الثالثة دقيقة، وقد ضمت كفيها على شكل فنجان على أعلى فخذيها وهى تنظر بعيدا عبر حقل الذرة، ثم ذهبت إلى غرفة تدخين اللحوم وعادت بجاروف له شوكة خشبية. مشطت الرماد على حواف النار وشرعت تخرج حزما متفحمة من قشور الذرة. بدا الصبيان منتبهين مؤقتا. وراحا يشاهدان، ومشى أحدهما إلى الكومة وقال بصوت فاتر: عجين على هيئة ولد. عجين.

وخلافا لذلك بدا الطفلان مذهولين لإينمان. كانت عيونهما بلا تعبير وراحا يتحركان فى ضوء نار الحوش مثل شبحين صامتين. كانا يخطوان حول الفناء الصارخ الضوء فيما يبدو لهما خطوات دائمة التكرار، وهما يحكان فى التراب بجرجرة وقع أقدامهما. عندما خاطبهما إينمان لم يجيبا ولم تختلج عين باتجاهه حتى ولو ليفيدوا أنهم سمعوا رنين صوته، وبدأ يفترض أن ما قاله الصبى عند النار يشتمل على مخزونهما الجماعى من الكلمات.

شرعت الأخوات يفضضن حزم القشور، وارتفع البخار منها فى الهواء الرطيب. وعندما انتهين كان لديهن ستة أرغفة من الخبز الداكن، كل رغيف منها قد شكل ليصور قزما كبير الرأس، حتى أدق تفاصيل الأعضاء المنتفخة وهى ترتفع على بطون تلك الأشكال. ألقت الفتيات بالقشور فى النار فتوهجت باللهب واحترقت فى نفس اللحظة.

قالت ليلا، كنا نعلم أنك ستأتى.

أعطت الأختان رغيفا لكل من الصبيين. اندفعا نحوهما ودفعتا أجزاء فى حجم قبضات أيديهما فى فميهما. وعندما فرغا من الأكل شرعا مرة أخرى يخطوان فى الممرات التى أبلياها فى التراب. راح إينمان يراقبهما، محاولا أن يفهم الأشكال التى يصوغانها بمشيهما. هنا قد يجد علامة لايجب أن تفوته. لكنه تخلى عن ذلك بعد قليل. لم يكن يستطيع أن يجد أى معنى فى العلامات التى يتركانها على الأرض.

أخذت الفتاتان ماتبقى من الأرغفة ودخلتا البيت وجاءت ليلا ووقفت بجوار إينمان. وضعت يدا على كتفه وقالت: رجل ضخم مثلك.

لم يستطع أن يفهم الاستجابة التى يتطلبها هذا. وأخيرا نزع مخلاته وبها نقوده ومسدس لى مات ووضعها على الأرض عند قدميه. كان الليل قد تقدم لكنه لم يعد مظلما تماما الآن، وبإمكانه أن يرى على البعد على جانب أحد التلال أن هناك مايبدو ضوءا أصفر يتحرك متذبذبا وغير محدد خلال الأشجار، تطوقه لحظة هالة وينتشر، ويصبح فى اللحظة التالية نقطة شديدة اللمعان. بدا الضوء غريبا إلى حد أن إينمان تساءل إن كان لا ينبعث من مصدر خارجى ولكنه تأثير خلل فى تفكيره.

قال إينمان: ماهذا؟

تبعت ليلا الضوء وقالت، هذا لاشىء انه ضئيل الليلة. أحيانا يكون كبيرا مثل قمر إضافى. أما ماهو، فقد قتل جونيور رجلا وكلبه أعلى ذلك التل فى وقت ما حين كنت بنتا. فصل رقبتيهما ببلطة ووضع كلا منهما على جذعة شجر جوز. ذهبنا جميعا وألقينا نظرة. كان وجه الرجل يتحول إلى لون الزنوج الأسود تقريبا، وكان بعينيه نظرة غريبة. ومنذ ذلك الحين، يظهر ذلك الضوء وهو يتحرك عبر التل. يمكنك أن تذهب إلى هناك الآن ولاترى شيئا، لكن ربما يحتك بك شىء مثل جلد بقرة عجوز جاف.

سألها إينمان: لماذا قتل الرجل؟

– لم يقل مطلقا. إنه سريع الغضب. وهو سريع فى تسديد اللطمات. فقد أطلق النار على أمه وأرداها قتيلة. والطريقة التى يحكى بها هذا أنها كانت ترتدى ميدعتها ملتفة حولها وظن انها بجعة.

– لم ألاحظ أن هناك عددا وفيرا من البجع فى هذا البلد.

– أنها قليلة.

كانت حدة الضوء على التل قد خفتت إلى ضوء أزرق واكتسبت سرعة، وهو يخفق بين الأشجار. ثم أختفى.

قال إينمان: ماذا تظنين أن يكون هذا الضوء؟

- إن الله القدير نفسه يقول بكلمات واضحة وضوح النهار فى الكتاب المقدس إن الموتى لايحملون أى فكرة برءوسهم. وكل فكرة تهرب منهم. ولذا فإن الضوء ليس ذلك الرجل المقطوع الرأس. أعتقد انه كما يقول الناس إن أشباح كلاب تحمل أحيانا فوانيس على رءوسها. لكن من الممكن أن أكون مخطئة. فالعجائز يقولون إنهم كانوا يرون هناك أشباحا أكثر من الآن.

نظرت إليه ليلا طويلا. وحكت يدها على ساعده. قالت: أعتقد أنك تسافر تحت علم قرصان أسود.

قال: انا لاأسافر تحت علم من أى لون.

جاءت إحدى الأخوات إلى الرواق الخلفى وقالت، تعاليا لتأكلا. حمل إينمان المخلاة إلى الشرفة ومدت ليلا يدها وأخذت سيور ربطته التى يحملها على كتفه ونزلت بها أسفل ذراعيه ووضعتها إلى جوار المخلاة. ألقى إينمان نظرة إلى أسفل وقال لنفسه، إن هذا ليكون خطأ، لكنه لم يستطع أن يرتب أفكاره أبعد من ذلك.

وعندما استدارت ليلا وأختها ليدخلا البيت، أخذ المخلاة ودفع بها إلى عمق حتى مرفقه فى فراغ بين عصى وتربة مكومة فى الشرفة، تبع الفتاتين إلى داخل البيت، الذى بدا الآن بلا تفسير مفهوم أوسع مما كان عليه من قبل.. قادتاه إلى آخر رواق أشبه بممر منحدر جدرانه من ألواح خشبية غير مطلية، وشعر بأن قدميه على وشك أن تنزلقا من تحته. وفى الظلام بدا المكان حظيرة أرانب فسيحة، مقسمة تقسيما محيرا إلى عدة غرف دقيقة بأبواب على كل جدار.

كانت الحجرات تؤدى إلى إحداها الأخرى بطرق تتحدى المنطق، لكن إينمان وليلا شقا طريقهما فى نهاية الأمر إلى داخل الغرفة الرئيسية ذات السقف المائل حيث أعدت أماكن على المائدة ذات المصدات. واصل فيسى نومه مثل الموتى فى ركن المدخنة.

كان هناك مصباح يتصاعد منه الدخان على المائدة، وضوؤه الضعيف يتحرك عبر سطوح الجدار والأرضية ومفرش المائدة مثل ظلال على أحجار قاع جدول. أجلست ليلا إينمان على رأس المائدة وربطت فوطة مائدة بها مربعات فى

نسيجها حول رقبته، وقد لف رغيف مما كان فى الرماد بفوطة اخرى فى منتصف المائدة

أحضرت إحدى الأخوات طبقا مسطحا من المدفأة فوقه قطعة كبيرة من اللحم تعوم فى دهن شفاف. لم يكن بإمكان إينمان أن يتبين من أين جاء ذلك المخلوق بالضبط. بدت قطعة اللحم أكبر من أن تكون من خنزير وأكثر شحوبا من أن تكون من بقرة. كانت اعدادا من مفصل كروى حُقّى، كتلا من اللحم عند كل من طرفى العظمة، وقد تداخل فى اللحم خيوط من أوتار عضلات وأربطة مفاصل. وضعت الفتاة الطبق أمامه، وهى تزنقه على مستوى وعاء به ملعقة طهو مقلوبة. كان هناك سكين وحيد منقط بصدأ عند مكان جلوسه. التقطه ونظر إلى ليلا.

قالت، ليس لدينا أى شوكة للحم.

أمسك إينمان بالعظمة بيده اليسرى وشرع يشرح قطعة اللحم إلى شرائح، لكنه لم يترك مطلقا أى أثر على لب قطعة اللحم.

كانت الأخوات الثلاث قد تجمعن الآن حول المائدة ليقسن مدى تقدمه. كانت تفوح منهن رائحة سلالية مثل تلك الرائحة التى تنبعث من أحواض نبات البن الشديدة الرطوبة، وتغلبت حتى على رائحة اللحم النتنة الفائحة الغريبة سكنت ليلا إلى جوار إينمان وهى تحك الجزء الطرى من بطنها على كتفه، ثم تزحزحت واقفة على أطراف قدميها وأمكنه أن يشعر بالفجوة المشعرة بين ساقيها تخدش جلده من خلال الثوب النحيل.

قالت، إنك شىء بهى الطلعة. لكنك تجتذب النساء مثلما يجتذب شعر الكلب البرق.

حملقت إحدى الأخوات فى إينمان وقالت، أود لو احتضنتنى حتى أنخر.

قالت ليلا، هذا لى. وكل مابقى لكما هو أن تنظرا إليه فقط وأن تتمنيا فى كف وتتبرزا فى الكف الأخرى لتريا أيهما يمتلئ أولا.

شعر إينمان بنوع من الخدر المرهق. كان لايزال ينشر قطعة اللحم لكنه يشعر بذراعيه ثقيلتين. بدا فتيل الفانوس المشتعل كما لو كان يرسل أشعة غريبة فى الغرفة المعتمة. عاد إينمان إلى التفكير فى الجرة وتساءل اى نوع من السكارى كان هو.

تناولت ليلا يده اليسرى الملطخة بالدهن من قبضتها على العظمة ومرت بها تحت تنورتها واستقرت بها على فخذها حتى يستطيع أن يشعر انها لم تكن تلبس لباسا داخليا.

قالت لأختيها: هيا أخرجا، وخرجتا إلى الرواق. استدارت إحداهما عند الباب وقالت: أنت كما يقول الواعظ تماما. أنت كنيسة مؤسسة على ملاطفة الجماع.

دفعت ليلا طبق اللحم إلى الجانب العالى من المائدة بإبهامها، وأطاحت به من على الملعقة وأراقت مرقا رماديا سال إلى أسفل وراح يتساقط نقطا من طرف المائدة. تزحزحت ليلا وتدحرجت حتى أصبحت تجلس على المائدة أمام إينمان، وساقاها منفرجتان حوله. جذبت تنورتها إلى الخلف فى حزمة عند وسطها ومالت إلى الخلف على مرفقيها، مارأيك فى ذلك؟ ماذا يشبه؟

قال إينمان، لاشيء سوى ذاته. لكن عقله لم يكن ليصوغ كلمات، لأنه شعر بأنه غير قادر على الحركة مثل شخص مسحور. ظلت بصمة كفه اللامعة على فخذها الشاحب، وفيما وراء ذلك الفجوة المفتوحة. بدا مبهرا بشكل خارق للعادة رغم أنه كان مجرد شق فى اللحم.

قالت، نل بعضا منه، وهزت كتفيها من قمة ردائها وخرج ثدياها ينسكبان إلى الخارج، بحلمتين شاحبتين كبيرتين فى استدارتهما مثل فتحة جرة تحمل لترا من الشراب، مالت ليلا إلى الأمام وجذبت رأس إينمان إلى الشق بين ثدييها.

وفى تلك اللحظة فتح الباب عنوة ووقف جونيور وهو يحمل الفانوس الذى يتصاعد منه الدخان فى يد وفى اليد الأخرى البندقية ذات العيارات العشرة.

قال، ماذا يجرى بحق الجحيم؟

مال إينمان إلى الخلف فى كرسيه وراقب جونيور وهو يسدد البندقية إليه ويستقدح الزناد المدبب الذى يبدو فى طول أذن بغل. كانت الفوهة الغشيمة عند طرف الماسورة القصيرة سوداء وهائلة. كانت لتقذف بنسق طلقات يغطى معظم الحائط. تدحرجت ليلا من على المائدة وشرعت تجذب ثوبها فى اتجاهات مختلفة حتى استترت.

خطر ببال إينمان، ان هذه حفرة روث تدعو للرثاء ليموت فيها المرء.

ساد صمت طويل ووقف جونيور يقرص على أحد أنيابه العليا ويفكر تفكيرا
ـميقـا فى شىء مـا، ثم قـال: أنت على وشك أن تـعلم أنه ليس هناك بلسم فى
لجحيم.

جلس إينمـان إلى المائدة وهـو يحـدق فى فـوهة البندقـيـة وخطر لـه، أن هناك
شيئا للقيام به الآن. فـعـلا صـحـيحـا أقـوم به. لكنه لم يسـتطع أن يتوصل إليه.
شعر بأنه مثل حـجر مثبت. رقدت يداه أمـامه على مفرش المائدة وحملق فيـهما
وفكر دون جدوى. لقد بدأت يداى تلُوحان مثل يدى أبى، على الرغم من أنـهما لم
تكونا كذلك من زمن قصير.

قـال جـونيـور: إن الطريقـة الوحـيـدة التى أسـتطيع أن أتدبر فـى الأمـر بـهـا
بالشكل الذى يرضينى هو أن لدينا زواجا قادما، ذلك أو القتل، سيان.

قالت ليلا، مرحى.

قال إينمان، انتظر.

قال جونيور: أنتظر؟ فات وقت الانتظار.

القى نظرة إلى حيث كان فـيسى يرقـد نائمـا فى ركن المدخنة. قـال مـوجـهـا
كلامه إلى ليلا، اذهبى وأيقظيه

قال، إينمان ثانية، انتظر، لكنه لم يستطع أن يصوغ جملة بعد تلك النقطة.
لكن أفكاره لم تكن لتـفى بغـرضــه.. رفـضت أن تحـقق ترتيـبـا أو تتناسب مع
مايجرى، وتسـاءل مرة أخرى عما كان فى الجرة بجوار النار.

ذهبت لـيلا وانـحنت فـوق فـيـسى وهزته. صـحـا على ثديين فى وجـهـه، وهو
يبتسـم ابتسامـة عريضـة كمـا لو كان قد انتقل إلى عـالم جديد. حـتى رأى فوهة
البندقية.

قال جونيور موجهـا حديثه إلى ليلا، والآن اذهبى واحضرى الآخـرين. مشى
إليـهـا وصـفـعـهـا على وجـهـهـا بشـدة. وضـعـت يدا على العـلامـة الـحـمـراء البـادية
وغادرت الـحجرة.

قال جونيور لإينمان، هناك شىء آخر. انهض.

وقف إينمان لكنه شعر بأنه يترنح على قدميه. راح جونيور يتحرك فى أرجاء
المكان، لكنه ظل محـافظا على تغطية إينمـان بالبندقية، وقبض على ياقة معطف

فيسى وانهضه واجتاز به الغرفة ببطء. كان فيسى مشدودا إلى أعلى على ضرتى قدميه ولذلك سار مثل رجل يتسلل إلى شىء. وعندما قرنهما جونيور احدهما بالآخر، نخس إينمان فى مؤخرته بماسورة البندقية المشرشرة.

قال جونيور، ألق نظرة هناك على ما أتيت به.

تحرك إينمان كما يتحرك المرء تحت الماء، بجهد وبطء، خارجا إلى الشرفة الأمامية. وفى أول الطريق أمكنه أن يرى حركة ضئيلة فى الظلام، اشكالا وكتلا فقط. سمع نفخ حصان. وسعال رجل. وطقطقة حافر على الحجارة. أُشعل ضوء واندلع فانوس. ثم أخر، وأخر زيادة على ذلك، حتى استطاع إينمان أن يرى فى الضوء المصفر الصارخ جماعة من الحرس الوطنى. وخلفهم تشابك من رجال يمشون على أقدامهم مصفدين ومنكسرين، تتداخل ظلالهم فى الظلام.

قال جونيور مخاطبا إينمان، لست أول واحد أوقعه فى الشرك هنا. اننى أحصل على خمسة دولارات على الرأس عن كل مشرد أسلمه.

صاح أحد الفرسان، هل نحن ذاهبون أم ماذا؟

لكنهم بعد مضى ساعة كانوا لايزالون لم يذهبوا. فقد قيدوا إينمان وفيسى إلى سلسلة من السجناء ودفعوهم جميعا لصق جدار مبنى تدخين اللحوم. لم يكن أى من المقيدين قد تفوه بكلمة. تحركوا إلى الجدار بحيوية لاتكاد تبلغ حيوية موكب من الجثث. كلهم يجرجرون خطاهم مطموسى المعالم، منهكين من أسلوب حياتهم أخيرا - بصفتهم جنودا أو هاربين أو أسرى - إلى درجة أنهم مالوا للخلف وغلبهم النعاس فى الحال وأفواههم مفتوحة بدون انتفاضة أو شخير. ومع ذلك فإن إينمان وفيسى جلسا متيقظين أثناء تقدم الليل. وكانا يلويان على فترات لفات الحبل على ايديهما، على أمل أن يبدى علامة على المرونة.

راكم الحرس نارا حتى ارتفعت إلى أفاريز البيت وأرسلت وهجا وظلا على جدران المبانى. حجب ضوؤها النجوم الحقيقية وتطاير الشرر إلى أعلى فى عمود ثم اختفى فى الظلام. وهى رؤية أوحت إلى إينمان أن النجوم قد اجتمعت فى مؤتمر واتفقت على الهرب، لترسل ضوءها على عالم أكثر وداً.

ومن بعيد على جانب التل، لمعت منارة الكلب الشبحى برتقالية اللون مثل

يقطينة وانزلقت بين الأشجار. استدار إينمان وحملق فى النار. مرت هيئات أشخاص مظلمة جيئة وذهابا أمامها، وبعد بعض الوقت أخرج أحد الحراس كمانا وأحدث أصواتا جوفاء من الأوتار ليختبر الآلة على أصداء لحن. وعندما أوفت بغرضه، سحب القوس عليها وشرع يعزف دندنة بسيطة لعدد من النغمات، سرعان ماتبين أنها دائرية فى منطقها كان النسق يدور ويدور على فترات متقاربة وبدا ملائما بالتساوى للرقص أو - إذا تكرر وقتا طويلا بما فيه الكفاية - أن يصيب المرء بحالة من الذهول. كان الحراس يميلون بأردافهم إلى الوراء ويجرعون محتويات جرار وكئوس كبيرة متنوعة الأشكال، ثم رقصوا حول النار، ويمكن رؤيتهم أحيانا مقترنين بليلا أو إحدى الأختين، وهم يحدثون فى التراب صوراً ظليلة متنوعة من الثلم.

قال فيسى: ليس هناك تفاوت كبير بين هذا المكان ومخزن أتان لعين. سوى أنهم لم يتقاضوا أجراً من أحد بعد.

كان الرجال غير المشغولين بالرقص مع ليلا أو الأختين يرقصون بمفردهم. كانوا يدورون فى دوائر، يترجرجون فى رقصة معقدة سريعة ينقرون فيها الأرض نقرات خفيفة، وقد مالوا بخصورهم، وهم يرفعون ركبهم عاليا، ووجوههم تحدق بالتبادل فى أقدامهم على الأرض ويميلون إلى الخلف ليتأملوا السموات الشاحبة. ومن آن لآخر كان أحدهم، وقد استحوذت عليه الموسيقى، يرسل صيحة حادة كأنه جريح.

رقصوا حتى أصبح عليهم أن يتوقفوا وينقحوا ثم حاول جونيور، وقد لعبت الخمر برأسه، أن يرتب زواجا بين إينمان وليلا.

قال جونيور: دخلت البيت، وكان ذلك الرجل الطويل على وشك الدخول بليلا. علينا أن نزوجهما.

قال قائد الحرس: أنت لست واعظا.

قال جونيور وهو ينظر إلى فيسى: ذلك الرجل الضئيل الحليق واعظ.

قال القائد: اللعنة، لايبدو ذلك عليه.

قال جونيور: هل تشهد؟

قال الرجل، لو أن هذا يطلق سراحنا على الطريق.

أخرجوا إينمان وفيسى من حجرة تدخين اللحوم وفكوا وثاقهما وساروا بهما والبنادق مصوبة إليهما إلى النار. وقفت النساء الثلاثة ينتظرن ومعهن الولدان براسيهما الفاحمين والحرس على أحد الجوانب يشاهدون، وظلالهم مرتعدة وضخمة على جدران البيت.

قال جونيور: اذهب إلى هناك. خطا إينمان خطوة باتجاه ليلا. لكن خاطرا كان يحاول أن يغزو عقله وصل أخيرا قال: لكنها متزوجة بالفعل.

قال جونيور: إنها متزوجة بحكم القانون. لكنها غير متزوجة فى رأيى أو فى عينى الله. اذهب إلى هناك.

ذهب إينمان مسلوب الإرادة ليقف بحذاء ليلا.

قالت: يالفرحتى.

كان شعرها قد حزم حديثا عند رقبتها فى لفيفة شبكة شعر. وقد صبغت وجنتاها بطلاء وجه، لكن الجانب الأيسر من وجهها لايزال محمراً تحت الطلاء من أثر يد جونيور. كانت تمسك بحزمة من عصا الذهب وحشيشة الحديد جمعتها من صف سياج حقل الذرة وقد ضمتها إلى بطنها. راحت تخطط فى التراب دوائر صغيرة مبتهجة بأصابع قدميها. وقف جونيور وفيسى جانبا، والبندقية مضغوطة على قاعدة عمود فيسى الفقرى.

قال جونيور لفيسى: سأقول مايجب أن يقال وأنت عليك فقط أن تقول أههه.

فك جونيور الخيط من على ذقنه ونزع عنه قبعته ووضعها على الأرض عند قدميه.

كان رأسه مغطى بلطخة باهته من الشعر الخشن ينتشر نحيلا على قمة رأسه، شعر منتصب يليق أكثر مايليق بأن ينمو على مؤخرة رجل. اتخذ وضعا رسميا وقد احتضن البندقية بذراعيه وشرع ينشد ترنيمة بصوت أجوف. أخذت شكل أغنية مطموسة المعالم، شكلية وقاتمة، إيقاع لحنها الأليم يرن نشازا فى الأذن. كان موضوع قصيدتها العاطفية، فى حدود أفضل مااستطاع إينمان من فك شفراتها، الموت وحتميته وعواقب الحياة التى لاتسر الخاطر.

وقف الولدان يدقان بأقدامهما كما لو كانا يعزفان الإيقاع الأساسى للأغنية ويوافقان عليه.

وعندما انتهى من الغناء، شرع جونيور فى الجزء الكلامى من الاحتفال. ظهرت كلمات مقيد والموت والمرض بشكل بارز. حوّل إينمان نظره بعيدا إلى جانب التل، وكان الضوء الشبحى يتحرك مرة أخرى خلال الأشجار. ود إينمان لو يأتى فحسب وان يحمله بعيدا.

عندما انتهى حفل الزفاف، قذفت ليلا بالزهور فى النار.. واحتضنت إينمان بشدة. وضغطت فخذا ممتلئا بين ساقيه. ونظرت فى عينيه وقالت: وداعا، وداعا.

خطا واحد من الحرس الوطنى خلفه ووضع مسدسا من نوع كولت على صدغه وقال: تخيل ذلك. عريس فى دقيقة، وفى الدقيقة التالية، لو جذبت هذا الزناد، لرسمت على وجهها ابتسامة وغرفت أشلاء مخ زوجها من على الأرض فى فوطة مائدة.

قال إينمان، أنا لاأفهمكم ياناس، وأعادوا شد وثاقه ووثاق فيسى إلى سلسلة الرجال وأمروهم بالسير على الطريق باتجاه الشرق.

مشى إينمان أياما عديدة مربوط الرسغين إلى طرف حبل طويل مع خمسة عشر رجلا آخرين حتى أنهم مضوا مشدودين معا مثل مهرات مقطوعة الذيول. كان فيسى مربوطا أمام إينمان مباشرة، وراح يمشى بصعوبة ورأسه منكس، مذهولا من سوء حظه. وعندما كان الطابور يشرع فى المشى أو يتوقف يُنتزع إلى الأمام وترتفع يداه المقيدتان أمام وجهه مثل رجل أحس بحاجة مفاجئة إلى الصلاة. كان بعض الرجال فى أول الصف عجائز لحاهم شيباء، والبعض الآخر أكبر من صبية، كلهم متهمون بأنهم إما هاربون أو متعاطفون. استنتج إينمان أنهم جميعا متجهون إلى السجن. إما ذلك أو أن يرسلوا ثانية للقتال. كان بعض الرجال ينادون على الحرس دوريا، وهم يصيحون معتذرين ويعلنون أنهم جميعا رجال غير ماكانوا متهمين به. كانوا يدّعون البراءة. وهمهم آخرون بتهديدات، قائلين إنهم لو لم تكن أيديهم مربوطة وكان لديهم فأس، لشطروا الحراس من قمة الرأس إلى مابين الفخذين، شاطرين إياهم إلى أجزاء متساوية دامية يبولون عليها قبل أن ينصرفوا ليجدوا بيوتهم. وأنشج آخرون وتضرعوا أن يحرروا، وهم يستدعون قوة ما متخيلة من الرحمة تحيا فى قلوب الرجال ليعززوا مطالبهم.

وشأن غالبية الناس الهائلة، كان الأسرى ليمضوا من على الأرض دون أن يكادوا يتركون أى أثر اكثر دواما من حرث ثلم. كان بامكانك أن تدفنهم وأن تخدش أسماءهم بسكين على لوح خشب من البلوط وان تغرزه فى التراب، ولايبقى شيء واحد - لا افعالهم الخسيسة أو الرءوم أو الجبانة أو الشجاعة - ليذكر حتى طوال الوقت الذى تستغرقه الحروف المحفورة فى لوح الخشب لتقاوم بالتعرض للجو. ولذا فإنهم ساروا منحنين، كما لو كانوا يحملون عبء حياتهم التى عاشوا بلا ذكرى.

كره إينمان كونه مشدودا إلى الآخرين، كره أن يمضى أعزل، وكره أكثر أن يتحرك مجْبرا عن رغباته. كانت كل خطوة يخطوها مريرة مثل الانزلاق على ظهره. بدأت الأميال التى قطعها والأمل فى العودة تولى هاربة منه. وعندما ارتفعت الشمس بكاملها فى وجهه بصق عليها، وهو لايملك وسيلة أخرى لتوجيه ضربة.

سار السجناء طوال اليوم ولعدة أيام متتالية وهم لايكادون ينطقون بكلمة فيما بينهم. ولكى يقوم أحد الحراس بالتسرية عن نفسه فإنه ركب إلى آخر الطابور وأطاح بماسورة بندقيته بقبعة كل رجل على الأرض وضرب كل رجل انحنى ليلتقط قبعته بطرف البندقية الغليظ.وواصلوا السير تاركين وراءهم خمس عشرة قبعة ترقد على الطريق كائر على مرورهم.

لم يعطوا شيئا ليأكلوه، وللشرب لاشيء سوى مايمكنهم أن ينحنوا ليغترفوه من ماء بحفان أيديهم حيثما كان الطريق يتشعب على جدول. نال الضعف من رجال الجماعة العجائز على وجه الخصوص من مثل تلك الأنصبة الضئيلة، وعندما لم يعد بإمكانهم المشى، حتى حين كانوا ينخسون بمواسير البنادق، كانوا يطعمون عصيدة مصنوعة من مخيض اللبن وخبز ذرة قديم مفتت فيها. وعندما كانت رءوسهم تصفو يواصلون السير.

كان الرجال قد وصل بهم الحال إلى شق طريقهم بصعوبة، كل واحد منهم، بالطريقة المعتادة. وكل حدث لعين يأتى فى إثر حدث آخر حتى وصلوا إلى حال لم يتوقعوا مطلقا أن يصلوا إليه ولايستطيعوا بأى سبيل أن يتخلصوا منه. كانت أفكار إينمان تدور على الدوام حول مثل هذه الأمور.. لم يكن هناك شيء يتوق إليه، بخلاف أن يتحرر، سوى أن يرى دم جونيور يسيل.

ساق الحرس السجناء فى بعض الأيام طوال اليوم وكانوا ينامون بالليل.

وفى أيام أخرى كانوا ينامون وينهضون عند غروب الشمس ويشرعون فى المشى ويظلون يسيرون طوال الليل. وبعد كل مسيرة، كان المكان الذى يصلون إليه على نفس شاكلة المكان الذى كانوا فيه تماما. غابات شجر صنوبر كثيفة عند قمم رءوسهم لدرجة أن الشمس لاتلمع على الأرض. ورغم كل الاختلاف الذى أمكن لإينمان أن يراه فى المنظر الطبيعى، كان من الممكن أن يكون يتحرك فى الظلام بنفس الخطى الغريبة الثقيلة الحركة التى يخطو بها رجل فى حلم يهرب فيه مما يخافه لكنه، مهما حاول، يحرز تقدما ضئيلا ضده.

وأله، أيضا، السفر الشاق. شعر بأنه ضعيف ومترنح. جائع أيضا. كان الجرح برقبته ينبض مع نبض قلبه، وظن أنه قد ينفتح ويشرع فى بصق أشياء إلى الخارج مثلما فعل فى المستشفى. عدسات منظار الميدان، بريمة السدادات، سفر مزامير صغير لعين.

راح يراقب كل الأميال المتجهة غربا التى قطعها تشرع تعود إليه وهى تكُر حول بكرة إلى الخارج وتتشابك تحت قدميه. وبعد أيام من المشى، توقفوا عند حلول الظلام وترك السجناء بلا قيد، وبلا طعام أو ماء. لم يوفر لهم الحرس، مثلما حدث فى الليالى السابقة،مكانا للنوم، ولا أعطوهم بطاطين ولا أشعلوا نيرانا. تكوم الرجال منهكين مثل قطيع من الكلابليناموا على الأرض الحمراء العارية.

كان إينمان قد قرأ كتبا يخدش فيها السجناء فى زنازين الحصون علامات على عصى أو أحجار ليتعقبوا مرور الأيام، لكن لم يكن لديه حتى تلك الوسائل ليفعل ذلك، على الرغم من أنه يمكنه أن يرى كم يكون ذلك مفيدا لأنه قد بدأ يشك سلفا فى تقويمه العقلى. ومع ذلك لم يكن بحاجة إلى أن يحتفظ بحسابات أبعد من ذلك، ففى أغوار الليل أيقظ أحد الحراس السجناء من نوم هزيل. وجه ضوء فانوس على وجوههم وأمرهم أن يقفوا. وقف الحراس الستة الآخرون فى مجموعة متناثرة. كان بعضهم يدخنون غلايين ويمسكون بكعوب بنادقهم القديمة الطراز على الأرض. قال واحد منهم يلعب دور القائد: لقد تحدثنا فيما بيننا وقررنا أن قطيعكم من الروث تبددون وقتنا فحسب.

وعند ذلك رفع الحرس بنادقهم.

تهاوى أسير صبى، لايتجاوز الثانية عشرة بكثير، على ركبتيه وشرع يبكى. وقال عجوز أشيب الرأس: لايمكن أن تكونوا تعنون قتلنا جميعا هنا.

أنزل واحد من الحراس سلاحه ونظر إلى القائد وقال: إننى لم أوقع باسمى على قتل الأجداد والصبية الصغار

قال له القائد، استقدح الزناد لإطلاق النار أو أذهب إلى هناك معهم

عاين إينمان بنظراته ظلام غابات الصنوبر. قال لنفسه، المنظر من مثواى الأخير.

ثم بدأ إطلاق الرصاص بوابل. بدأ الرجال والصبية يتساقطون حوله. تقدم فيسى خطوة إلى الأمام بقدر ماسمح له الحبل وصاح وسط إطلاق النيران. قال: لم يفت وقت تنحية هذه الخسة. ثم اخترقه الرصاص عدة مرات.

كانت القذيفة التى أصابت إينمان قد مرت سلفا خلال كتف فيسى ونتيجة لذلك لم تصبه بكل كفاءتها. أصابت إينمان فى جانب رأسه عند منبت الشعر وزحفت على جمجمته بين الجلد والعظام، وخطّت حزا صغيرا هناك أثناء مرورها. وخرجت من خلف أذنه. سقط كما لو كان قد ضرب ببلطة مبطنة بشرائح خشبية، لكنه لم يفقد وعيه كلية. لم يكن بإمكانه أن يتحرك، لاأكثر من أن يطرف بعينيه، لاولم يكن يود ذلك. كان العالم يدور من حوله وراح يشاهده، رغم أنه لم يكن يشعر بنفسه جزءا منه. بدا العالم كما لو كان يزدرى الفهم كان الناس يموتون حوله ويتساقطون وكلهم مشدودون معا.

عندما انتهى إطلاق النار، وقف الحرس كأنهم غير واثقين مما تكون عليه الخطوة التالية. بدا أحدهم كما لو كان قد أصابته نوبة ما أو تعويذة سحر، وراح يرقص ويغنى "جو ذو العين القطنية" وتواثب حتى ضربه رجل آخر على قاعدة عموده الفقرى بكعب بندقيته. وأخيرا قال أحدهم: يحسن بنا أن نواريهم التراب.

شرعوا فى أداء العمل بهمة هزيلة، مجرد حفر حفرة ضحلة ونَثْر الرجال بداخلها وأهالة التراب عليهم بعمق يصل إلى العمق الذى يزرع فيه المرء البطاطس. وعندما انتهوا، امتطوا جيادهم ومضوا.

كان إينمان قد سقط بوجهه فى عقفة ذراعه ولديه مساحة للتنفس، رغم أن غطاء التراب فوقه كان نحيلا ومفككا حتى يمكنه أن يرقد هناك ويموت جوعا قبل أن يختنق.

استراح، وهو ينجرف داخلا فى وخارجا من يقظة مشوشة. كانت رائحة التراب تدخل خياشيمه وتجذبه إلى أسفل ولم يكن قادرا على أن يجد القوة على أن ينهض منها، بدا الموت هناك أسهل من عدم الموت.

ولكن قبل طلوع فجر اليوم، هبطت خنازير برية من الغابات، كشطت الأرض بخطامها واستخرجت بعد عناء أذرعا وأقداما ورءوسا. وسرعان ما وجد إينمان نفسه مقتلعا، وهو يحدق عينا لعين، بائسا وعدوانيا ومحيُّرا، فى وجه خنزير برى طويل ذى أنياب هائلة.

قال إينمان، ياه!

أجفل الخنزير البرى بضع أقدام إلى الوراء وتوقف ونظر وراءه إليه مذهولا، وعيناه الضيقتان تطرفان. رفع إينمان قامته خارجا من الأرض. أصبحت أمنيته أن ينهض وأن ينبض بالنضارة مرة أخرى. وعندما شق إينمان طريقه منتصبا مرة أخرى، فقد الخنزير البرى اهتمامه وعاد إلى نبش الأرض.

ألقى إينمان برأسه إلى الخلف صوب السماء ووجد أن منظرها لايبدو صحيحا. كانت بها نجوم، لكنه لم يستطع أن يتعرف حتى على كوكبة واحدة معروفة فى سماء بلا قمر. بدا الأمر كما لو كان أحد قد أخذ عصيا وأهاجها حتى لم يعد هناك أى معنى، مجرد قشور ضوء يسقط بلا نسق على الظلام العام.

وكما تفعل جروح الرأس، فإن رأسه أدمت على وجه لايتناسب مع وجعها المؤلم الفعلى. غطى الدم وجهه والتصق التراب به، حتى أن وجهه كان بلون الغراء وبدا مثل تمثال من الطَفْل بصور مرحلة ما سابقة من حياة البشر حين كانت ملامح الوجه مؤقتة حتى ذلك الحين. وجد الفجوتين فى فروة رأسه وتحسسهما بأصابعه ووجدهما مخدرتين وقد بدأتا تتجلطان وتنسدان. مسح نفسه محدثا تأثيرا ضئيلا بذيل قميصه. وشرع يجذب الحبل الذى يربط يديه، انحنى بظهره إلى الأمام، وبعد دقيقة برز فيسى من الأرض مثل ذنب بحر ضخم اشتبك بخطاف يُجذب إلى أعلى من بحيرة طينية. كان وجه فيسى مغلقا على تعبير حيرة مخدرة، وعيناه مفتوحتين وقد التصق التراب بأجزائهما المبللة.

لم يستطع إينمان أن يجد، وهو ينظر إليه، أى أسف على موته، لا ولم يستطع أن يجد فى هذا مثالا على عدل يشق طريقه حولنا ليظهر دليلا على أن

مايرتكبه رجل من اخطاء ترتد إلى نحره. كان إينمان قد راى كثيرا من الموت حتى اصبح يبدو شيئا عشوائيا كلية. لم يستطع حتى أن يبدأ فى عَّد كم من حالات الموت شاهدها اخيرا. كان عددها يصل، بلا شك، إلى آلاف. انجزت جميعا بكل طريقة معتادة يمكنك أن تتخيلها، وبعضها لايمكنك ان تأتى بها لو فكرت فيها اياما. فقد غدا معتادا على رؤية الموت، ان يمشى بين الموتى، ان ينام بينهم، أن يَعُد نفسه بهدوء بين المشرفين على الموت، حتى لم يّعُد الموت مظلما او غامضا. خشى أن يكون قلبه قد مسته النار فى أحيان كثيرة حتى لايمكنه ابدا أن يكون مدنيا مرة أخرى.

هام إينمان على وجهه حتى اتى حجرا حادا، وجلس حتى طلوع الشمس يحك فيه رسغيه المقيدين. وعندما تحرر أخيرا، نظر مرة ثانية إلى فيسى. تهدل الآن جفنه مغمضا تقريبا. ود إينمان أن يقوم بعمل له دلالة تجاهه، ولكن كان كل ماأمكنه ان يفكر فيه، لافتقاره إلى جاروف للدفن، هو أن يدحرج فيسى إلى أسفل الحفرة، ووجهه إلى أسفل.

اولى إينمان ظهره للفجر وشرع يمشى صوب الغرب. وطوال ذلك الصباح شعر بأنه مذهول ومخلوع المفاصل.. كانت رأسه تؤلمه وفقا لخفقان نبضه. وشعر بأن جمجمته على وشك أن تسقط أشلاء عند قدميه.. وجمع من أحد السياجات لفة من أوراق نبات الألفية الريشية وربطها حول راسه بساق النبات التى عراها من الأوراق. ان قوة نبات الألفية تكمن فى قدرته على أن تسحب الألم، وهو مافعله لحد ما. راحت الأوراق تهتز بمرور الوقت اهتزاز مشية المتعب، وقضى النهار يراقب ظلالها تتحرك أمامه على أرض الطريق.

وقف عند منتصف النهار عند تقاطع طرق، وعقله مغبش، غير قادر على أن يستقر على واحدا من الاختيارات الثلاثة المخططة على الأرض أمامه. كان لديه فحسب حاسة أن يلقى الطريق الذى جاء منه. نظر إلى السماء لتحدد له اتجاهه، لكن الشمس كانت تقوم فوقه مباشرة. كان يمكنها ان تسقط على اى طريق. وضع يده على الجلد المجعد على رأسه، وتحسس الدم ذا القشرة تحت خط شعره، وهو يفكر، سرعان ماأصبح لاشىء سوى ندبة. بدأ أثر الجرح الأحمر برقبته الذى أصيب به فى بيترزبورج يؤله كما لو كان متعاطفا مع إخوته الجدد. شعر بكل أجزائه العليا كأنها قرحة كبيرة خام. قرر أن يجلس فى نفايات

شجرة الصنوبر على جانب الطريق وأن ينتظر أمارة أو علامة تحدد أحد الممرات أمامه بصفتها مفضلة على الممرات الأخرى.

وبعد وقت تأرجح فيه بين النوم واليقظة رأى عبدا أصفر اللون يأتى على الطريق يسوق زوجا غير متجانس من عِجْلين، أحدهما أحمر والآخر أبيض. كانا يجران مزلجة محملة ببراميل جديدة وعدد كبير من البطيخ الصغير الداكن اللون مكوم بإحكام مثل العصى الوترية. لمح الرجل إينمان وصاح بالعجلين ليتوقفا، "يَّسْ!"

قال: يا الله القدير، إنك تبدو مثل جامع القمامة.

مد يده فى المزلجة وخبط بقبضته بطيختين أو ثلاثا قبل أن ينتقى واحدة ويؤرجحها من تحت مستوى كوعه ويقذف بها إلى إينمان. شقها إينمان على حافة حجر. كان اللحم المشرشر فى النصفين ورديا ومتماسكا تشقه حبوب داكنة، وغاص برأسه فى النصف الأول ثم فى النصف الآخر مثل كلب جائع.

وعندما قام عنهما، لم يكن هناك أى شىء سوى قشر نحيل ولحيته يقطر منها عصير وردى على تراب الطريق. حملق إينمان إلى أسفل بعض الوقت فى نسق القطرات ليرى إن كانت تحمل مغزى فى اتجاه يبشر بالخير، لأنه يعلم أنه بحاجة إلى عون، مهما كانت غرابة الينبوع الذى يأتى منه. ومع ذلك فإن القطرات التى كانت فى التراب لم تقدم له أى علامة جاهزة، لا حرفا هيروغليفيا يمثل فكرة ولاطوطما، مهما كانت الزاوية التى ينظر منها إليها. أعلن لنفسه أن العالم غير المرئى قد تخلى عنه بصفته روحا غجريا ليتجول بمفرده، بلا دليل أو خريطة، خلال عالم محطم يتألف فى أغلبه من الإعاقة.

تخلى إينمان عن تفحصه للأرض ورفع بصره وأبدى شكره على البطيخة. كان الرجل الأصفر وترى القوام، هزيلا فى كل جزء منه لكنه ملفوف العضلات عند الرقبة والساعدين حيث شمر كمَّى قميصه الصوفى الرمادى إلى المرفق. كان سرواله الكتانى قد صنع لرجل أطول قامة وقد شُمِّرَ على هيئة أساور فوق قدمه الحافية.

قال، أركب هذه المزلجة وتعال معى.

ركب إينمان جالسا على الباب الخلفى للعربة، مسندا ظهره إلى برميل لامع، يفوح برائحة خشب البلوط المشقوق حديثا. حاول أن ينام لكنه لم يستطع، وحدق كما لو كان فى غيبوبة فى آثار جر مزلاجات الزحافة العريضة البلوطية، وهو يراقبها تتراجع على الطريق المترب، خطين مزدوجين يبدوان كما لو كانا يقدمان درسا وهما يقتربان أكثر وأكثر من أحدهما الآخر كلما تباعدا. نزع غطاء رأسه من أوراق الآلفية وألقى بها قطعة قطعة فى الفراغ بين آثار مزلجات الزحافة.

عندما اقترب الرجل من المزرعة التى كان مملوكا فيها، دعا إينمان إلى الزحف بداخل أحد البراميل، ثم حمله إلى الداخل وأفرغ حمولة الزحافة فى قاعة حفظ الغلال.

خبأ إينمان فى التبن تحت طنف العلِّية، واستراح إينمان هناك فى العلف بضعة أيام، ومرة أخرى فقد متابعة العَد. قضى الوقت نائما يقدم له العبيد الطعام من أرغفة من دقيق الذرة مقلية فى دهن خنزير، وخضروات لاذعة، وقطع لحم من سلسلة ظهر الخنزير مشوية ودسمة تطقطق بدهن متفحم.

عندما أصبحت قدماه قادرتين على تحمل وزنه مرة ثانية، استعد إينمان لبدء الرحلة مرة أخرى. كانت ملابسه قد غليت بحيث أصبحت نظيفة، وقد تحسن رأسه بعض الشىء وغطى بقبعة سوداء لطخت حول شريط حافتها بعرق العبيد. كان هناك نصف قمر فى السماء، ووقف إينمان بباب مخزن الغلال يودع الرجل الأصفر.

قال إينمان: علىّ أن أذهب، لدى مهمة صغيرة أؤديها آخر هذا الطريق، ثم علىّ أن أعود للبيت.

قال الرجل الأصفر: أنصت إلى. لقد هربت جماعة من الاتحاديين من سجن ساليزبرى الأسبوع الماضى. والطريق مكتظ بدوريات راكبة ليل نهار بحثا عنهم. إذا حاولت أن تسلك هذا الطريق، فمن المؤكد أن يقبضوا عليك، إن لم تكن حريصا. بل من الممكن أن يقبضوا عليك حتى وأنت حريص.

– ماهو أفضل ماأفعله؟

– إلى أين تتجه؟

– غربا.

– اتجه شمالا. اذهب باتجاه ويلكس. إذا سلكت فى هذا الاتجاه، فهناك طوائف من الأصدقاء المورافيين والكويكرز على طول الطريق يمدونك بالعون. صل إلى قاع الحافة الزرقاء ثم اتجه جنوبا مرة أخرى متتبعا التلال السفحية الواقعة عند سفوح الجبال. أو اذهب إلى الجبال وعد إلى اتباع الحواف عائدا إلى مسارك. لكنهم يقولون إن الطريق بارد ووعر هناك.

قال إينمان: أنا من هناك.

أعطاه الرجل الأصفر جريش ذرة ملفوفا فى ورقة ومربوطا بخيط غليظ، وشريحة من لحم الخنزير المملح، وبعض قطع لحم خنزير مشوى.

ثم عمل لبعض الوقت فى خربشة خريطة بالحبر على قطعة من الورق، وعندما انتهى منها كانت عملا فنيا. كلها مفصلة بالبيوت الصغيرة ومخازن غلال ذات أشكال غريبة وأشجار معقوفة بها وجوه فى جذوعها وفروعها مثل أذرع وشعر. فى أحد الأركان كانت تقوم بوصلة مزخرفة. وكانت هناك ملاحظات مدونة فى نص مكتوب بدقة عمن يمكن الوثوق بهم وعمن لا يمكن. وبالتدريج طمست معالم الأشياء وتباعدت حتى أصبح كل شىء فى الغرب أبيض اللون فيما عدا الأقواس المتصلة بحلقات التى رسمها الرجل لتوحى بأشكال الجبال.

قال: هذا فى حدود ما رأيته. إلى تلك الحافة هناك بالضبط.

قال إينمان: هل تستطيع القراءة والكتابة؟

– إن لى سيدا مخبولا. ذلك القانون لا يعنى له شيئا.

مد إينمان يده فى جيبه ليعطى الرجل نقودا. فكر فى أن يخرج كمية سخية، لكنه وجد جيبه خاويا وتذكر أنه قد ترك النقود التى بقيت له فى المخلاة المختبئة فى كومة خشب جونيور.

قال إينمان: كنت أود لو أن لدى شيئا أدفعه لك.

قال الرجل، ما كنت لآخذه على أى حال.

وبعد عدة ليال وقف إينمان أمام البيت المائل بانحراف. كان يقوم مثل ضفدعة تحت الطريق فى مستنقعه، وكل نوافذه سوداء. نادى على الكلب ذى

القوائم الثلاث بصوت خافت من خارج وجاره وقدم له قطعة من عظم خنزير حملها فى جيبه ملفوفة فى أوراق شجرة جميز. جاء الكلب يتشمم، بلا صوت. اختطف العظمة واختفى تحت الشرفة الأمامية.

تبع إينمان الكلب إلى اسفل ودار حول البيت إلى الخلف. كانت النار الكبيرة مجرد بثرة سوداء باردة على الأرض. ذهب إلى الشرفة الخلفية. كانت المخلاة التى يحملها على ظهره مازالت ترقد هناك. نظر بداخلها، وكان كل شىء هناك ماعدا مسدس فيسى الكولت. دفع ذراعه فى كومة الخشب وأمسك بمخلاة المئونة وتحسس كعب مسدس لى مات من خلال النسيج. سحبه وكان أشبه بمقوٍ أن يشعر بثقل المسدس فى يده، وتوازنه وصوته عندما استقدح الزناد.

كان بصيص ضوء يلمع تحت باب مبنى تدخين اللحوم فذهب إينمان وشق الباب وألقى نظرة بالداخل. كان جونيور واقفا يدعك ملحا على فخذ خنزير. وكانت هناك حربة بندقية مغروزة فى الأرضية الترابية، وتجويف خطمها يحمل شمعة رفيعة بإحكام شأن أى شمعدان فضى. كانت أرضية بيت التدخين مطروقة ومدهنة حتى أن اللهب يرسل لألآت منها. كان جونيور منحنيا على فخذ الخنزير، يرتدى قبعته ووجهه مظلم فى ظل حافتها. فتح إينمان الباب على مصراعيه ووقف فى الضوء. رفع جونيور وجهه إليه لكن لم يبد أنه تعرف عليه. خطا إينمان إلى جونيور وسدد ضربة بماسورة لى مات إلى أذنه ثم انهال عليه ضربا بكعب المسدس حتى رقد مسطحا على ظهره.. لم تصدر عنه أى حركة فيما عدا انسياب الدم اللامع الذى سال من أنفه وجروح رأسه وزوايا عينيه. تجمع الدم فى بركة من الدماء على تراب مبنى التدخين الأسود.

توقف إينمان وفرفص وأراح ساعديه على ركبتيه ليلتقط انفاسه.

لف الشمعة خارج تجويفها وتحسس خشونتها حيث كانت الصراصير تأكل الشمع الحيوانى. وجه الضوء إلى وجه جونيور. كان ما يرقد أمامه شيئا بشعا حقا، لكن إينمان كان لا يزال يخشى أن عقول كل الرجال تتقاسم نفس الطبيعة مع اختلاف حقيقى ضئيل. أطفأ الشمعة ثم استدار وغادر المكان. كان هناك فلقة ضوء رمادية فى الأفق الشرقى حيث كان القمر ينوى أن يبزغ. وعلى التل كان الضوء الشبحى ضعيفا، يخفق فى حركته. خبا ثم اختفى. ولكن ببطء إلى حد لا يمكنك معه أن تقول متى.

سار إينمان طيلة تلك الليلة وهو يدور شمالا خلال ريف مكتظ بالسكان، وأضواء النوافذ تلمع فى كل مكان، والكلاب تنبح. وكان الرجل الأصفر على حق؛ فقد مر فرسان مرارا وتكرارا فى الظلام، لكن بإمكان إينمان أن يسمعهم فى الوقت الملائم ليخطو داخل الشجيرات. وعندما طلع الصباح كان هناك ضباب، ولذا، فإنه لما لم يكن هناك ما يقلقه من دخان ضئيل، فإنه أشعل نارا فى الغابات وسلق شريحتين من لحم الخنزير المملح وصب جريشا فى الماء وعمل خلطة فوضوية من عصيدة دقيق الذرة. رقد طول ذلك اليوم فى أجمة، ينام بعض الوقت ويقلق بعض الوقت. كانت هناك غربان فوقه فى فروع الأشجار، وكانت تزعج ثعبان فئران وجدته فى الشجرة.

جلست على فروع الشجرة فوق الثعبان وهى تقوق له، ومن آن لآخر يطير واحد منها على مقربة منه ويتظاهر بأنه سينقره بمنقار يتلألأ. أتى الثعبان بالاستعراضات الشريرة المعتادة لنوعه، فينتصب وينفش رقبته ويفح ويسدد ضربة كما لو كانت ضربة مميتة. لكن كل محاولاته كانت تقابل بجدل صاخب واستهزاء من جانب الغربان، وسرعان ما رحل الثعبان. مكثت الغربان معظم وقت العصر، تحتفل بانتصارها. راح إينمان يراقبها كلما كانت عيناه مفتوحتين، ويلاحظ سلوكها عن كثب وأسلوب تعبيرها. وعندما أغمضت عيناه، حلم بأنه يعيش فى نوع من العالم حيث يود المرء لو استطاع أن يظن نفسه فى شكل غراب حتى تظل لديه القدرة، رغم امتلائه بالضلال المظلم، إما أن يطير من أعدائه أو أن يستهزئ بهم حتى يبعدوا. ثم، وبعد أن قضى وقتا على هذا الحال، راقب إينمان حلول الليل، وبدا له كما لو كانت الغربان قد انتفخت لتجلل كل شىء بالسواد.

بدلا من الحقيقة

كانت سماء الصباح بلا ملامح، لونا مثل ذلك اللون الذى يبدو على ورقة من مسحة هزيلة من هباب مصباح. وقف رالف فى الحقل، رأسه منكس، وهو ينفخ. كان مشدودا إلى زحافة محملة بأعمدة سياج من خشب السنط، وكانت ثقيلة مثل كمية مماثلة من الأحجار. بدا عليه أنه غير عابئ بأن يجرها خطوة أبعد صوب حافة الجدول حيث تنوى روبى أن تخطط سياجا متعرجا جديدا للمرعى على شكل ثعبان كانت إيدا تمسك بسوط المركبة المضفور، ولطمت ظهر رالف لطمة أو لطمتين بطرفه المجعد دون أن تحدث تأثيرا.

قالت لروبى: إنه حصان مركبة.

قالت روبى: إنه حصان.

ذهبت إلى رأس رالف وتناولت ذقنه فى يدها ونظرت فى عينيه. ألقى بأذنيه إلى الوراء وأظهر لها حافة من البياض بأعلى مقلتى عينيه.

ضغطت روبى شفتيها على أنف الحصان البنفسجية ثم تراجعت إلى الخلف بوصة وفتحت فمها على اتساعه ونفخت نفسا عميقا بطيئا فى فتحتى أنفه الناتئتين. كانت تعتقد أن الرسالة التى ترسلها بمثل هذه الإيماءة تخص فهما متبادلا بينهما. كان فحواها أنها هى ورالف من نفس الرأى فيما يتعلق بالمسألة

المطروحة. أنك تحسم تفكير الحصان بهذه الطريقة اتخذتاها رسالة لتنفسا عن حالتهما المعتادة من توتر الأعصاب. أن بإمكانك أن تهدئ خيولا مبيضة العينين بمثل هذا النفس الحلو المعشر.

تنفست روبى مرة ثانية ثم قبضت على حفنة من معرفة رالف أعلى كاهله وجذبت. أسرع خطاه، وهو يجذب الزحافة، وعندما وصلتا إلى الجدول فكت وثاقه من عدته. وأطلقته ليرعى البرسيم الذى ينمو على حافة ظل الشجرة، ثم عملت هى وإيدا على تخطيط خط متعرج من خشب السنط على امتداد شط الخليج. وعندما يتوافر لهما الوقت، سوف يقيمان ثلاثة صفوف مبطنة بالصفائح فوق الخط المتعرج ليصنعا السياج.

كانت إيدا قد لاحظت أنها لم تكن طريقة روبى دائما أن تبدأ عملا وتنهيه فى نفس الوقت. كانت تعمل على الأشياء حسب الظروف، وهى تعمل تبعا لترتيب ضرورتها الماسة. فإذا لم يكن هناك شىء ملح بوجه خاص، فإن روبى كانت تعمل ما يمكنها أن تعمله فى الوقت الذى يكون فى متناول يدها. وكان وضع صف السياج الأول قد اختير لذلك الصباح لأن من الممكن عمله فى الساعة التى تسبق ذهاب روبى لتقايض مع ايسكو: تفاح فى مقابل كرنب ولفت.

ومن أجل عملية معالجة أمر الأعمدة الثقيلة، ارتدت إيدا قفازين مصنوعين من الجلد، لكنهما كانا قد صنعا والجانب الداخلى منهما خشن، ولذا فإنها عندما فرغت من العمل كانت أطراف أصابعها مسلوخة الجلد، كما لو كانت قد عملت بيدين عاريتين. جلست على الزحافة وتحسست البثور ثم دلكت يديها فى الجدول وجففتهما على تنورتها.

قادتا الحصان عائدتين إلى مخزن الغلال وفكتا عدته وشرعتا تلجمانه استعدادا لرحلة اتجار روبى. لكن روبى توقفت ووقفت تنظر إلى شرك يتعلق من دعامة على جدار مخزن الغلال. كان حجمه مصمما لاصطياد القندس والمرموط والحيوانات التى تشبههما جسما. شيئا خلفه آل بلاك عندما رحلوا إلى تكساس. كان فكاه مدمجين معا تقريبا وقد ظل هناك فترة طويلة الى درجة أن خطوطا من الصدأ كانت تبقع الخط الجانبى تحته.

قالت، هذا بالضبط ما نحتاجه. ويحسن بنا أن ننصبه قبل أن أذهب.

كان بالهما مشغولا بشأن كوخ الذرة. كان جزء ضئيل من الذرة يفتقد كل صباح بعد أيام. وبعد أن لاحظت روبى ذلك النقص، ركبت على الباب قفلا وسقاطة مثقوبة وعملت على سد الثقوب حيث جف الباب وتآكل. وفى الصباح التالى وجدت فجوة قُوِّرت فى الطين الذى سدت به حديثا بين زنود خشب الكوخ. كانت فراغا كبيرا يكفى لمرور يد أو سنجاب، وربما كان واسعا بما يكفى مرور راكون صغير أو بوسوم أو مرموط. كانت قد لبطت الفجوة بالطين مرتين، فقط لتجدها مفتوحة مرة أخرى فى صباح اليوم التالى. لم يكن كثير من الذرة يسرق فى كل مرة، ما يكاد يكفى لملاحظته فحسب، ولكن لو استمرت الخسارة فسرعان ما تبلغ شيئا يستحق القلق بشأنه.

ولذا فإن إيدا وروبى عملتا على إعداد المصيدة، وهما تكشطان الصدأ بفرشة من السلك وتدهنان مفصلاتها بدهن خنزير. وعندما انتهيتا من عملهما وضعت روبى قدمها عليها وفتحت فكيها. ثم لمست صفيحة التعثر بعصا وانطبقت المصيدة مغلقة بشدة إلى حد أنها تواثبت من على الارض. حملتاها إلى كوخ الذرة وآويتاها فى الذرة على مقربة من الفجوة بالضبط. طرقت روبى الشوكة المعدنية التى تقع فى نهاية السلسلة بأعمق ما يمكن أن تصل إليه فى تراب الأرضية المضغوط. وألحت إيدا على لف اسنان المصيدة بشرائط من الخيش، فى حالة ما إذا كانت السرقة من انسان لا حيوان، وهو ما فعلته روبى وهى تحسب الحشوة بحرص حتى لا تخطئ كثيرا باتجاه الرأفة.

وعندما تم ذلك، لجمت روبى رالف وألقت على كاهله جوالين من التفاح. امتطته وساقته عارى الظهر، وعنما بلغت الطريق توقفت وصاحت بإيدا أن تعمل عملا نافعا بأن تقيم خيال مآته فى الحديقة الشتوية. ثم لكزت الحصان بكعبيها وخبت به مبتعدة.

راقبت إيدا روبى وهى تدور عند المنحنى بشيء من الاحساس بالفرج. فقد كان لديها منتصف النهار بأكمله ممتدا أمامها لا يتطلب منها أكثر من عمل دمية كبيرة وهى مهمة سارة طفولية.

فقد كانت هناك مجموعة من الغربان تعمل عملها فى الحديقة الشتوية، تنقر النباتات الصغيرة بطريقة يعتورها الملل، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فإنها سرعان ما تأتى عليها تماما بدون شيء من تثبيط همتها.

كان أحد الغربان يفتقد ريشا من كلتا حافتى جناحيه الزاحفين، ثلمين مربعين متماثلين. كان يبدو رئيس الغربان وكان أول من يطير دائما من الحقل أو من على فرع. وكانت البقية أتباعا فقط. كان صاحب الجناح المثلوم أعلى صوتا من الآخرين، وهو ينطق بكل نوع من أنواع كلمات الغربان الموجودة فى قاموسها، من صوت مفصلة جافة إلى قواق بطة يقتلها ثعلب. كانت إيدا قد ظلت تتعقب أفعاله لأسابيع، وانزعجت روبى منه ذات مره إلى حد أنها أرسلت طلقة ماسورة ثمينة فى اتجاهه، وإن كانت على مدى بعيد جدا بحيث لا تأتى بخير. ولذا فإن إيدا وجدت متعة فى تخيل أن خيال مآتتها سوف يفعل شيئا يجعل صاحب الجناح المثلوم يحسب له حسابا.

قالت بصوت عال بمشاعر مختلطة، إننى أعيش الأن حياة أدون فيها حسابات أفعال طيور معينة.

ذهبت إلى البيت. وفتحت فى الطابق العلوى صندوقا وأخرجت زوجا قديما من سراويل الركوب وقميصا صوفيا داكن حمرة من قمصان مونرو. وكان لقبعته المصنوعة من فراء القندس وشاح رقبة ناصع اللون. ومنها يمكنها أن تركّب خيال مآته رائعا أنيقا. لكن بينما وقفت تنظر إلى الملابس المطوية بين يديها، كان كل ما أمكنها أن تتخيله هو أن تخرج كل يوم وأن ترى صورة مونرو تقف فى الحقل. ولسوف تبدو من الشرفة عند الغسق هيئه مظلمة تراقب. كانت خشيتها أنه سيلوح أكبر وأكثر إزعاجا لعقلها عما سيبدو للغربان.

أعادت إيدا الملابس فى الصندوق وذهبت إلى غرفتها ونبشت فى أدراجها وخزائن ملابسها، وأستقر رأيها أخيرا على ثوبها البنفسجى الذى كانت قد ارتدته فى آخر ليلة من ليالى الحفل على نهر والدو. وأخرجت قبعة من القش صنعت فى فرنسا كان مونرو قد اشتراها قبل خمسة عشر عاما خلال جولتهما فى أوروبا وكانت تتنسل عند طرف حافتها. كانت تعلم أن روبى ستعترض على الثوب، لا على أساس عاطفى ولكن لأن قماشه يمكن أن يستغل بشكل أفضل. فإذا قطع أجزاء، يمكنه أن يكون أغطية للوسادات، أغطية للحاف، أغطية لظهور الكراسى، أى عدد من الاشياء النافعة. ومع ذلك، فإن إيدا قررت أنه لو كانت تريد حريرا، فإن لديها عددا من اللأردية الأخرى يمكن استخدامها بنفس

السهولة كان ذلك هو الثوب الذى أرادت أن تراه قائما فى حقل خلال مطر أو سطوع شمس.

حملت الرداء إلى الخارج، ثم سلكت عروقا من نباتات البقول معا فى شكل صليب، كدرع وإن غرسته بالخارج فى منتصف الحديقة. وغطت قمته برأس صنعته بحشو طرف غطاء وسادة بأوراق أشجار و قش و ظلت وجها يبتسم ابتسامة عريضة بطلاء أثارته من سناج المدفأه وزيت المصباح. وضعت الثوب على العروق وملأت الصدرية بقش ووضعت على هيئة الشخص القبعة المصنوعة من القش كقبعة نسائية جميلة. ومن طرف إحدى الذراعين علقت دلوا قصديريا صغيرا بقاعدته ثقب صدئ. وذهبت إلى صف السياج وقطعت سيقانا من ساق الذهب وزهرة النجمة وملأت بها الدلو.

وعندما فرغت من هذا، تراجعت إيدا إلى الوراء وألقت نظرة فاحصة على عملها. وقف الشكل يحدق بعيدا صوب الجبل البارد، كما لو كان يجمع زهورا أثناء نزهة متأنية ليعمل منها ترتيبا للمائدة توصل إليه مؤقتا على الأقل من خلال جمال المنظر أمامه. كانت تنورة الثوب الخزامى اللون الممتلئة ترف فى النسيم، وكل ما أمكن إيدا أن تفكر فيه هو أنه بعد سنة من تعرضه للجو سيصبح مبيضا حائلا بلون القلف. كانت إيدا نفسها ترتدى ثوبا طبعت عليها زهور حال لونه وترتدى قلنسوة من القش. تساءلت ما إذا كان شخص مراقب يقف بعيدا على حافة جوناس وينظر إلى أسفل الخليج ليحسن الاختيار لو سئل أن يختار خيال المآتة من الشكلين القائمين فى الحقل.

غسلت يديها فى المغسلة على شرفة المطبخ وأعدت لنفسها غداء من بضع رقائق من لحم خنزير ايسكو، وبسكويت بارد باقى من الإفطار، وفلقة من يقطينة مخبوزة من عشاء الأمسية السابقة. أخذت دفتر يومياتها وطبقا وذهبت إلى المائدة تحت شجرة الكمثرى. وعندما فرغت من الأكل تصفحت دفتر اليوميات ـ مرورا برسم البلشون التخطيطى، والتصميمات التمهيدية لثمار شجرة القرنوس العنبية، وعناقيد فاكهة السوماق، وطائرين يخوضان فى الماء ـ حتى وصلت إلى أول صفحة بيضاء، رسمت عليها رسما تخطيطيا لخيال المآتة وفوقه جناحا الغراب المثلمان. كتبت تحتها التاريخ، وتحديدا تقريبيا للزمن، ثم المرحلة الحالية للقمر. وفى أسفل الصفحة كتبت أسماء الزهور الموجودة فى دلو خيال المآتة،

وفى ركن غير مستعمل من الصفحة رسمت رسما تخطيطيا لتفصيل من تفاصيل زهرة النجمة.

بعد أن فرغت إيدا بقليل، جاءت روبى تسير على الطريق. كانت تقود الحصان. وقد ألقت على ظهره ستة جوالات مكتلة مزدوجة من الكرنب. كان ذلك يزيد جوالين على الإنصاف. لم تكن روبى على قدر من الكبرياء تسمح لها بأن تنكر على ايسكو دافعه إلى الكرم. ذهبت إيدا إلى الطريق ومشت روبى إليها وتوقفت ومدت يدها فى جيب تنورتها وأخرجت خطابا.

قالت، هاتنذا. لقد توقفت عند الطاحونة. كان بنبرة صوتها اعتقاد بأن أى رسالة توصلها بغير صوتها، وجها لوجه، من المحتمل ألا تكون موضع ترحيب. كان الخطاب مغضنا ومجعدا، قذرا مثل قفاز عمل قديم، وقد أصابه البلل عند نقطة ما أثناء رحلته وقد جف متجعدا وملطخا. كان ينقصه عنوان للرد عليه، لكن إيدا تعرف الخط الذى كتب به اسمها. وضعت الخطاب فى جيبها، وهى لا تريد أن تقرأه تحت إمعان روبى النظر.

انزلنا حمولة الجوالات معا بجانب مبنى تدخين اللحوم، وبينما راحت روبى تدخل الحصان ذهبت إيدا إلى المطبخ وأعدت طبقا آخر مثل طبق غدائها. ثم أكلت روبى، وهى تتحدث طوال الوقت عن الكرنب والأشياء الأخرى الكثيرة التى تفهمانها منها وهى ما بدت لإيدا قليلة حقا - الطعام المعد من كرنب محمر، والكرنب المقلى، والكرنب المسلوق، والكرنب المحشى، وسلطة الكرنب.

بعد أن فرغت روبى من الأكل ذهبتا، إلى الجوالات. أجلتا جوالا لصنع الكرنب المحمر عندما تعود الأمارات المناسبة له مرة اخرى. اعمليه وإلا فإنه قد يتعفن فى جرار الفخار. أما الباقى فإنهما دفناه حتى يحل الشتاء. كان بالنسبة لإيدا عملية غريبة مزعجة، أن تحفر خندقا مثل قبر خلف مبنى تدخين اللحوم وأن تبطنه بالقش وأن تكوم الرءوس الشاحبة فيه وتغطيها بقش أكثر ثم بالتراب. وعندما فرغتا من تكويم التراب، حددت روبى المكان بلوح خشبى، وهى تطرقه بكعب جاروفها حتى قام مثل شاهد قبر.

قالت روبى، هناك، قد يوفر هذا علينا أن نضطر إلى أن نخدش حول الثلج فى يناير القادم.

كل ما أمكن إيدا أن تفكر فيه هو كم سيكون الأمر جهما فى عصر أحد الأيام الملبد بالغيوم فى منتصف الشتاء - والرياح تهب والأشجار العالية ترج الأرض المغطاة بقشرة رمادية من الثلج القديم - أن تخرج وتحفر تلك الحفرة الجنائزية لاستخراج كرنبة فحسب.

وفى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم جلست على الدرج الحجرى، إيدا خلف روبى وفوقهما الجزء العمودى من درجة السلم. استندت روبى إلى قصبة ساق إيدا وركبتيها كما لو كانت سلما لظهر الكرسى وهما تراقبان الشمس تهبط. وظل جوناس ريدج يزحف على الخليج ثم المرعى. وعصافير مخازن الغلال تطير طيرانا مذعورا غير مكترث. مسدت إيدا شعر روبى الأسود بفرشاة من شعر الخنزير البرى الخشن صنعت فى انجلترا. عملت حتى أصبح الشعر أملس وله لمعان مثل ماسورة بندقية جديدة. مررت أصابعها خلاله، وهى تفرقه إلى سبعة أقسام، وكان لكل جديلة منها ثقلها ومقاومتها فى يديها. فرقتها على مسافات متباعدة على ظهر روبى وراحت تتفحصها.

كانت إيدا وروبى ستقومان بمباراة فى الشعر. كانت فكرة إيدا اوحى إليها بها مشاهدتها لروبى وهى تضفر ذيل رالف شاردة الذهن فى انساق متشابكة. كانت روبى تقف خلفه، وأفكارها فى مكان آخر، وعيناها غير مركزتين، وأصابعها تتحرك فيما يبدو بلا مجهود خلال شعر الذيل الطويل. كان ذلك يبدو كما لو كان يساعدها. وكان ذلك يعين رالف على الإغفاء تقريبا، إذ يقف بحافر خلفى مائل وجفونه تخفق. لكنه، رغم ذلك، كان يسير حول المكان بعد ذلك وخلفيته مطوية تحته، ويبدو عصبيا ومرتبكا، حتى تذهب واحدة منهما إليه وتفك ذيله وتمسده بالفرشاة.

كانت روبى تبدو حاله بدرجة تحسد عليها أثناء عملها للضفائر إلى حد أن إيدا تخيلتها طفلة وحيدة ومهجورة تتجول فى الريف لتضفر ذيول أحصنة الحرب العجوز الوحيدة بدافع من حاجتها إلى أن تكون قريبة من شىء حى ودافئ. أن تلمسه بطريقة حميمة ومتباعدة فى آن واحد، لا أن تضع يدها على حياته مباشرة ولكن على إنبثاقها الجميل الشاحب اللون. وبمثل هذه الروح، كانت إيدا قد اقترحت أن تتنافسا لتريا من يمكنه منهما ان يشكل ضفيرة شعر الأخرى ضفيرة أكثر تشابكا وجمالا وغرابة. وأن مما سيجعل المنافسة أكثر

إثارة أن ايا منهما لن تعرف ما فعلته الأخرى بشعرها هى - مافعلته بشعر الأخرى فحسب - حتى دخلت البيت ووقفتا بمرآتين مزدوجتين لتتفحصا مؤخرتى رأسيهما. كان على الخاسرة أن تؤدى كل عمل الليل بينما الرابحة تتأرجح فى الكرسى الهزاز على الشرفة وتشاهد السماء وهى تظلم وتعد النجوم حالما تظهر.

كان شعر إيدا قد انتهى العمل فيه سلفا. فقد عملت روبى عليه بعض الوقت وهى تجذبه وتلويه حتى جذب إلى الخلف بشدة على صدغى إيدا. كان بإمكانها أن تشعر بجذبه عند طرفى عينيها. وبدأت تربت على مؤخرة رأسها، لكن روبى مدت يدها وصفعت ظهر يدها لتبعدها وتحول دون أى معرفة مسبقة بما كانت عليه المسابقة.

تناولت إيدا الخصلات الثلاثة عند منتصف شعر روبى وعملت ضفيرة تتدلى من خلف رأسها. كان ذلك هو الجزء السهل. ومن الأجزاء الأخرى كانت تخطط لتشكيل ضفيرة عليا معقدة، تتداخل وتضفر فى نسق سبعات وثمانيات مثل سلتها المصنوعة من الألياف، تناولت جزءين جانبيين وشرعت تضفرهما معا.

انجرف أربعة غربان، بقيادة صاحب الجناحين الثلمين، إلى أسفل فى الخليج ثم انفلجت حين رأت خيال المآته. طارت مبتعده وهى تصأ مثل خنازير أصابها طلق نارى.

أبدت روبى تعليقا إطرائيا على إنشاء إيدا.

قالت: تلك القبعة على وجه الخصوص لمسة رائعة.

قالت إيدا: إنها جاءت من فرنسا.

قالت روبى: فرنسا. إن لدينا قبعات هنا. هناك رجل فى إيست فورك يضفر قبعات من القش ويمكن أن يبادلها بالزبد والبيض. وصانع القبعات فى البلدة يصنع قبعات من فراء القندس والصوف لكنه عموما يريد نقودا.

كانت مسألة حمل القبعات من منتصف المسافة حول العالم أمرا غير منطقى بالنسبة لها. كان علامة على الافتقار إلى الجدية فى شخص أن يمكنه التفكير

فى مثل هذه الأمور. لم يكن هناك شىء واحد فى مكان مثل فرنسا أو نيويورك أو تشارلستون تريده روبى. بل إنها لم تكن بحاجة إلى أقل من هذا لا يمكنها أن تصنعه أو تزرعه أو تجده على الجبل البارد. كانت تكن ارتيابا عميقا فى السفر، سواء إلى اوروبا أو أى مكان آخر. ومن رأيها أن عالما متآلفا بشكل صحيح يمكن أن ينتج سكانا متلائمين مع حياتهم فى مكانهم المخصص لهم إلى حد أنهم لن يكونوا أو تكون بهم رغبة فى السفر. ولن يتطلب الأمر أى مركبة سفر أو قطار أو باخرة، فكل مثل تلك المركبات ستتعطل. وسوف يختار الناس بدافع من القناعة الكاملة، أن يبقوا فى بيوتهم حيث إن عدم قيامهم بهذا كما هو ظاهر للعيان أساس بلايا كثيرة حالية وتاريخية. ففى مثل هذا العالم الذى تصورته فى مخيلتها، قد يعيش البعض سنين عديدة سعيدة وهم يسمعون نباح كلب جار بعيد ولا يخاطرون بالخروج إلى أبعد من حقولهم ليروا إذا ما كان النباح من كلب صيد أو كلب صغير، صريح اللون أو منقط.

لم تعبأ إيدا بمناقشتها، لأنها قدرت أن حياتها تتحرك صوب مكان تبدو فيه القبعات المستوردة والسفر ضئيلة. فرغت من الضفيرة، ونظرت إليها بخيبة أمل. فشأن كل محاولاتها بإتجاه الفن، لم تكن تتناسب مع تخيلها لها. رأت أنها تبدو مثل حبل قصير من القنب ضفره معا فلاح مجنون أو مخمور.

نهضت إيدا وروبى من على الدرج وتبادلتا لمس ضفائر كل منهما لتلمسا الشعرات النافرة وتطويا الأجزاء السائبة. ذهبتا إلى حجرة نوم إيدا وتراجعتا بظهريهما إلى المرآة الواسعة فوق الخزانة ذات الأدراج وتناولتا مرآة ذات مقبض فضى وقرنتا الصورتين. كانت جديلة إيدا بسيطة ومحكمة، وعندما لمستها بأصابعها رأت أن ملمسها يشبه لمس فرع شجر قسطل. وبإمكانك أن تعمل عليها طوال اليوم ولن تتفكك

وعندما حان دور روبى استغرقت وقتا طويلا وهى تنظر. لم تكن قد رأت مؤخرة رأسها من قبل ابدا. وضعت يدها على شعرها ولمسته بكف منبسطة، وهى تربت عليه مرارا وتكرارا. وأعلنت أنه متقن وأنها لم تستمع إلى شىء سوى أن تحكم بأن إيدا هى المنتصرة.

عادتا إلى الشرفه وذهبت روبى إلى الفناء لتقوم بالعمل الليلى. لكنها توقفت ووقفت تنظر حولها ثم تنظر إلى السماء. لمست الشعر عند رقبتها وقمة رأسها.

وأمكنهـا أن ترى وهى فى الخـارج من تحت ظل الشـرفـة انه لا يزال هنـاك ضـوء يكفى لقـراءة بضـع صـفـحـات من حلم ليلة منتـصـف صـيف، وقـالت هذا. ولذا فـإنهمـا عـادتا إلى الجلوس على الدرج، وراحت إيدا تقـرأ. وهى تشـرح المعـانى أثناء القراءة، وعندما وصلت إلى سطر روبين - حيث يقول،"مثل الحصـان، وكلب البـحـر، والخنزير، والدب، والنار، عند كل منعطف - "كـان سـرور روبى هـائلا وقـالت الكلمات مرارا وتكرارا كما لو كانت تحمل قدرا هائلا من المعنى فى حد ذاتها.

سرعـان مـا أصبح الضـوء رماديا إلى حـد لا يمكن مـعـه القـراءة. بعث طائر أحجل؟ برسـالتـهمـا ذات الكلمـات الثلاث المتمـاثله من الحقل إلى الغـابات جيئة وذهابا. نهضت روبى وقالت، يحسن بى أن أواصل العمل.

قالت إيدا: تحققى من مصيدتنا.

قـالت روبى قـبل أن تمضى: لا طائل من وراء هـذا. فـانت لا تصطـادين أى شىء بالنهار.

أغلقت إيدا الكتاب وقطفت ورقه شجرة بقس لتكون معلما لصفحات الكتاب. أخرجت خطاب إينمـان من جيب تنورتـها وأمـالت واجـهتـه ناحيـة الغرب ليـسقط عليـهـا مـا بقى من ضـوء هـناك. كانت قـد قـرأت إعـلانه المبـهم تمـامـا عن جـرحـه وعزمه على العودة خمس مرات فى عصر ذلك اليوم. لم تستطع أن تتبين منه بعد القراءة الخامسة أكثر مما تبينته بعد القراءة الأولى، وهو أن إينمـان بدا كمـا لو كان قد توصل إلى رأى قاطع فى أمر الشعور الذى يوجد بينهما، رغم أن إيدا لا يمكنها هى نفسـهـا أن تسـمى كيف كانت تفكر فى وضـعـهـمـا. فلم تكن قد رأته خـلال أربع سنوات تقريبـا، وقد مضـى أكثـر من أربعـة أشـهـر منذ أن سـمـعت منه شيئا لآخر مرة. مـجرد حـاشـيـة قـصـيرة كتـبت على عـجل من بيتـرزبورج، نبرتـها موضـوعيـة مثل شـىء يكتـبه المرء لقـريب تربطه به صـلة قربى بعـيدة، رغم أن ذلك كان أمـرا غير مـعـتـاد، فـقد طلب منهـا إينمـان فى وقت مـبكر ألا يفكرا فـيمـا قد يحـدث بينـهمـا بعـد الحـرب. فـلا أحـد يمكنه أن يتنبـأ بما سـتكون عليـه الأمـور عندئذ، وربمـا يمكنه فقط وهو يتخيل الاحتمالات المختلفة - سـواء كـانت سـارة أو متـجـهـمـة - أن يلقى بظل على أفكاره. كانت مـراسـلاتـهـمـا خـلال الحـرب غيـر

منتظمة. هبات من خطابات، ثم مدى من الصمت. ورغم ذلك كان المدى الأخير مدى واسعا حتى بمقاييسهما.

كان الخطاب الذى تمسك به إيدا الآن لا يحمل تاريخا، لا ولم يحمل أى ذكر للاحداث اخيرا أو حتى عن الجو يمكن تأريخه بها. ومن الممكن أن يكون قد كتب فى الأسبوع الماضى، أو ربما كان قد مضى عليه ثلاثة اشهر. كان حال الخطاب المهروس يدل على تاريخ اقرب إلى الخطاب الأخير، ولكن لم يكن هناك سبيل لمعرفة ذلك. ولم يكن واضحا لها أى شىء عن عودته. هل كان ينوى العودة الآن أم بعد الحرب؟ إذا كان يعنى الآن، فلم يكن هناك ما ينبىء ما إذا كان قد مضى وقت طويل على عودته أو أنه قد شرع فى رحلته لتوه. فكرت إيدا فى القصة التى سمعتها من الأسير من خلف قضبان نافذة مبنى المحكمة. خشيت أن يكون لكل مقاطعة تيج خاص بها.

القت نظرة خاطفة على الورقة ولما كان خط إينمان غير مقروء ومعقد ودقيق، فإن كل ما أمكن إيدا أن تتبينه فى الظلام هو هذه الفقرة القصيرة:

> إذا كنت مازلت تحتفظين بالصورة التى أرسلتها لك منذ أربع سنوات مضت، فإننى أطلب منك، رجاء، الا تنظرى إليها. فأنا لا أحمل حاليا أى شبه بها سواء فى الشكل أو الروح.

ذهبت إيدا بطبيعة الحال على الفور إلى غرفة نومها وأشعلت مصباحا وفتحت أدراجها حتى وجدت الصورة. كانت قد طرحتها جانبا لأنها لم ترى أنها تشبهه كثيرا بادئ ذى بدء. فعندما وصلت، أطلعت عليها مونرو، الذى كان له رأى مستنكر تجاه التصوير الفوتوغرافى ولم يكن قد التقطت له صورة ولم يكن ينوى ذلك أبدا، على الرغم من أنه جلس فى شبابه المبكر أمام رسامين.تفحص وجه إينمان بشىء من الاهتمام ثم أطبق القراب مغلقا. ذهب إلى الأرفف وجذب مجلدا وقرأ مما كتبه إيمرسون عند تجربة التصوير الشمسى، قائلا هذه الكلمات: «وفى حماستك الا تطمس صورتك، هل احتفظت بكل أصبع فى مكانه بقوة إلى حد أن يديك أصبحتا مضمومتين كما لو كانت تستعد لقتال أو تستسلم ليأس، وفى تصميمك على أن تحتفظ بوجهك ساكنا، هل شعرت بأنك كنت متصلبا فى كل لحظة، الحاجبان متقلصان فى عبوس تَتَرىٍ، والعينان مثبتّان كما لو كانتا مثبتتين فى نوبة مرض، أو فى حالة جنون، أو فى موت؟»

وعلى الرغم من ذلك لم يكن على وجه الدقة تأثير صورة إينمان، فإن إيدا اضطرت إلى أن تقر أنها لم تكن بعيدة تماما عن كبد الحقيقة أيضا. ولذا فإنها وضعتها فى مكان أمين حتى لا تطمس ذاكرتها عن إينمان.

لم تكن مثل تلك الصورة الآلية التى حملتها إيدا فى يدها عندئذ نادرة. فقد رأت عددا كبيرا منها. فلدى كل عائلة تقريبا فى المستوطنة لها ابن أو زوج رحل للقتال واحدة، حتى ولو كانت وضعت فى صندوق قصديرى. معروضة على رف مدفأة أو طاولة مع الكتاب المقدس، وشمعة رفيعة، وغصينات جالاكس، بحيث كان تأثيرها أشبه بتأثير مذبح الكنيسة. ففى عام ١٨٦١، كان أى جندى يمكنه، لقاء دولار وخمسة وسبعين سنتا، أن يسجل هيئته فى شكل التصوير على الزجاج أو على لوح معدنى أو على لوح حساس أو التصوير الشمسى. وفى تلك الأيام الأولى للحرب، كانت إيدا قد وجدت معظم الصور التى رأتها كوميدية. وفيما بعد وجدتها تصيب الواحد بالاكتئاب فى تصويرها لرجال ماتوا الآن. فقد جلسوا، واحدا بعد الآخر، منتصبين بأسلحة خشنة أمام المصور من أجل التعرض طويلا لضوء آلة التصوير. كانوا يمسكون بمسدسات متصالبة على صدورهم أو ببنادقهم ذات الحراب إلى جانبهم. يلوحون بسكاكين تشبه الحراب يلوحون بها أمام آلة التصوير. وعلى رؤسهم قلنسوات علف الماشية بزوايا متباهية. فتيان مزارع فى حالة مزاجية أكثر إشراقا من أيام ذبح الخنازير.وكانت أزياؤهم متنوعة الأشكال. الرجال يرتدون كل نوع من الأشياء لخوض الحرب بها، من ملابس يمكنك أن ترتديها للحرث إلى أزياء رسمية حقيقية إلى أزياء مثيرة للسخرية بشكل هائل إلى حد أى واحد يمكن أن يطلق عليك النار حتى فى زمن السلم لارتدائك إياها.

كانت صورة إينمان تختلف عن معظمها فى أنه قد أنفق على قرابها أكثر مما كان مألوفا. كان شيئا صغيرا من فضة مُشبَّكة، دعكتها إيدا من الواجهة والخلف، على تنورتها عند الردف لتصقل فقدان بريقها المترب. فتحته وأمسكت به أمام المصباح. كانت الصورة مثل زيت على ماء. كان عليها أن تميل بها فى يدها، وهى تأتى بتعديلات دقيقة حتى تجعل الضوء يضفى عليها معنى.

كان فوج إينمان اتفاقيا فيما يتعلق بالزى، إذ أتفقوا مع رأى قائدهم أن لا شىء فى قتل الإتحاديين يتطلب تغيير زى المرء العادى. وتمشيا مع ذلك

الاعتقاد، لبس إينمان سترة مصنوعة من نسيج صوفى خشن، وقميصا بلا ياقة، وقبعة رخوة عريضة الحافة، تتدلى حافتها على جبينه. وكان قد انتحل لحية صغيرة مدببة وبدا أكثر منه سيدا صعلوكا عنه جنديا، وعلى ردفه مسدس كولت من مسدسات البحرية، لكن سترته غطت كل شىء ماعدا مقبضه. لم يلمسه كانت يداه مفتوحتين، مستقرتين على أعلى ساقيه. كان قد حاول أن يثبت عينيه على بقعة تبعد عشرين درجة عن جوانب العدسة. لكنه حركهما فى وقت ما أثناء تعرضه لضوء آلة التصوير وبدتا مطموستين وغريبتين، وتعبير وجهه مركزا وصارما حتى بدا أنه يحدق بشدة إلى لا شىء قابل للتحديد، مهتما بشىء آخر سوى الكاميرا أو عملية التصوير أو حتى برأى المشاهد فيه فى تلك الهيئة الساكنة.

لم ينبئ قوله إنه لم يعد يشبه الصورة إيدا بالكثير. لم يسترع قوله هذا ذاكرتها عنه فى أى خصوص فى آخر يوم رأته فيه قبل أن يرحل، ولم يكن هذا بأى حال إلا قبل التقاط الصورة ببعض أسابيع. كان قد مر على البيت ليودعها. كان لا يزال يعيش، فى ذلك الوقت فى غرفة بمركز المقاطعة، وسيرحل فى غضون يومين أو ثلاثة على الأكثر. كان مونرو يقرأ بجوار النار فى قاعة الاستقبال، ولم يشغل باله بأن يخرج ليتكلم. وكانت إيدا وإينمان قد سارا معا إلى الجدول. لم تستطع إيدا أن تتذكر أى شىء عن زيه ماعدا قبعته الرخوة. نفس القبعة التى تبدو فى الصورة. وأن حذاءه العالى الساق قد صنع حديثا. كان صباح يوم بارد رطب عقب يوم من المطر، وكانت السماء مازالت ملبدة بسحب عالية نحيلة. وكان مرعى الأبقار بجوار الجدول يتحول إلى لون أخضر باهت مع سيقان نباتات صغيرة تبرز خلال ما تبقى من حصد زرع العام السابق. كانت مخضلة من المطر حتى لزم على الاثنين أن يختارا سبيلهما خلالها ليحولا دون أن يغرزا فى الوحل حتى قصبات سيقانهما. كانت زهور البرعمة الحمراء وشجر القرنوس تلمع، على طول الشط وعلى جانب التل، على خلفية من الأشجار الرمادية، وفروعها قد غطيت بصقيع وهى تخضر بفعل الحواف الأولى النحيلة لنمو الأوراق.

سارا على طول شط الجدول فيما وراء المرعى ثم توقفا فى موقع تختلط فيه أشجار البلوط وأشجار التوليب. وبينما كانا يتكلمان، بدا إينمان مبتهجا ورزينا

بالتبادل، وعند نقطة ما خلع قبعته، وهو ما فهمته إيدا على أنه استعداد لقبلة. مد يده ليقطف بتلة قرنوس خضراء شاحبة اشتبكت فى شعرها ثم هبطت يداه لتداعب كتفها وتجذبها إليه، لكنه وهو يفعل هذا حف ببروش من العقيق واللؤلؤ على ياقتها. انفتح الدبوس وسقط البروش، وهو يتواثب على صخرة فى الجدول.

عاد إينمان إلى ارتداء قبعته وطرطش فى الماء ونبش على غير هدى حول الصخور المغطاة بالطحالب بعض الوقت حتى أتى بالبروش. أعاد شبكه فى ياقتها، لكنه كان مبتلا وكانت يداه مبتلتين وتلطخ ثوبها عند الرقبة. خطا إلى الخلف بعيدا عنها. كانت أساور سرواله تقطر. رفع فردة حذائه الجديد وترك الماء ينساب منه. بدا حَزينا أن اللحظة قد ضاعت ولم يكن أمامه سبيل لاستعادتها.

وجدت إيدا نفسها تتساءل، ماذا لو كان قتل؟ لكنها لم تستطع، بطبيعة الحال، أن تجهر بالفكرة. لم يكن عليها أن تفعل هذا، رغم ذلك، لأن إينمان قال فى تلك اللحظة، إذا أرديت قتيلا، فلن تتذكرى اسمى بالكاد فى مدى خمس سنوات.

لم تكن واثقة ان كان يداعبها أو يختبرها أو يقول ببساطة ما كان يرى أنه الحقيقة.

قالت، أنت تعلم أن الأمر ليس على هذا النحو.

ومع ذلك، فإنها تساءلت فى أعماقها، وهل نتذكر أى شىء إلى الأبد؟

قالت، انظر إلى هناك. مال برأسه للخلف ليشمل الجبل البارد بعينيه، حيث مازال كل شىء شتويا وسنجابى اللون مثل لوح اردواز. وقف إينمان ينظر إلى الجبل وأخبرها بقصة عنه سمعها وهو طفل من امرأة شيروكية عجوز كانت قد نجحت فى الاختفاء عن الجيش عندما كانوا يجوبون الجبال، يجمعون الهنود استعدادا لدفعهم إلى طريق الدموع. كانت المرأة قد أفزعته. زعمت أنها تبلغ من العمر مائة وخمسة وثلاثين عاما. وأنها تذكر زمنا لم يكن رجل أبيض قد جاء فيه بعد إلى هذه الأرض. تكلمت بصوت يفيد بكل اشمئزازها من الزمن بين ذلك اليوم والآن. كان وجهها مُتَرزا بخيوط ومغضنا. كانت إحدى عينيها تفتقر إلى

اللون كلية. وهى مُركّبة فى راسها ملساء وبيضاء مثل بيضة طائر مسلوقة نزعت قشرتها. وكان وجهها موشوما بثعبانين، تمتد أجسامهما فى خطوط متمايلة إلى حيث يلتف ذيلاهما فى شعرها عند صدغيها، راساهما يواجه أحدهما الآخر عند ركنى فمها، ويبدوان كما لو كانا يشاركان فى حكاية قصتها. كانت عن قرية تدعى كانوجا قائمة منذ سنوات عديدة مضت على فرع نهر بيجون. وقد اختفت منذ زمن بعيد مضى ولم يبق منها اثر سوى شقفات فخار يجدها الناس احيانا وهم يبحثون عن طعم لصيد السمك عند حافة النهر.

ذات يوم جاء رجل مثل أى رجل آخر إلى هذه الكانوجا. بدا عليه أنه غريب، لكن الناس قابلوه بالترحاب وأطعموه. كانت تلك عادتهم مع أى واحد طلق اليدين. وبينما كان يأكل سألوه إذا كان قد جاء من مكان بعيد فى المستوطنات الغربية

قال: لا، إننى أعيش فى بلدة قريبة. وكلنا فى حقيقة الأمر، أقرباؤكم، تحيروا فى الأمر. فأى قريب لهم يعيش على مقربة منهم يكون معروفا لديهم.

سألوه: أى بلدة تلك التى تأتى منها؟

قال، أوه، إنكم لم تروها أبدا، على الرغم من أنها هناك. وأشار إلى الجنوب بإتجاه واتسونالاسوجوتى، التى قالت المرأة الثعبانية إن ذلك كان الاسم الذى يطلقونه على الجبل البارد ولم يكن يعنى بارداً أو جبلاً على الإطلاق بل شيئا آخر كلية.

قال الناس: ليس هناك قرية فى تلك الأنحاء.

قال الغريب: أوه، أجل. إن الصخور المتألقة هى القوائم التى تُثَبت بها البوابة التى تؤدى إلى بلدنا.

قال واحد: ولكننى ذهبت إلى الصخور المتألقة عدة مرات ولم أر مثل هذا البلد. ووافقه آخرون، فقد كانوا يعرفون المكان الذى تكلم عنه جيدا.

قال الغريب: عليكم أن تصوموا، وإلا فإننا نراكم وأنتم لا تروننا. إن أرضنا ليست مثل أرضكم إجمالا. فهنا قتال دائم ومرض وأعداء حيثما تولوا وجوهكم. وسرعان ما يأتى عدو اقوى لم تواجهوه حتى الآن ويستولى على البلد منكم

ويتركَكم منفيين. ولكننا لدينا سلام هناك. وعلى الرغم من أننا نموت كما يموت كل الناس وعلينا أن نصارع من أجل طعامنا، فإننا لسنا بحاجة إلى التفكير فى الخطر فعقولنا لا يملؤها الخوف ولا نناضل ضد أحدنا الآخر فهناك متسع لكم جميعا. ولكن إذا كنتم ستجيئون، فينبغى على كل واحد فيكم أن يذهب إلى بيت البلدة الخاص ويصوم سبعة أيام ولا يغادره مطلقا أثناء ذلك الوقت، ولا يرفع صيحة الحرب أبدا. وعندما يتم ذلك، اصعدوا إلى الصخور المتألقة وسوف تُفتح مثل باب ويمكنكم دخول بلدنا والعيش معنا

وبعد أن قال هذا، رحل الغريب راح الناس يراقبونه وهو يرحل ثم بدأوا يناقشون مزايا دعوته لهم. رآه البعض مُخلصا ورآه البعض الآخر كذابا. ومع ذلك فإنهم قرروا فى آخر الأمر أن يقبلوا الدعوة. وذهبوا إلى بيت البلدة الخاص، ومكثوا هناك جميعا لمدة سبعة أيام، يشربون رشفة أو رشفتين من الماء فحسب كل يوم. كلهم فيما عدا رجلا واحدا، كان يتسلل كل ليلة حين يكون الآخرون نياما. كان يذهب إلى بيته ويأكل لحم الغزال المدخن ثم يعود قبل الفجر.

وفى صباح اليوم السابع شرع الناس يصعدون داتسونالاسجونى صوب الصخور المتألقة بلغوها عند غروب الشمس تماما. كانت الصخور بيضاء مثل ثلج تكدسه الريح، وعندما وقف الناس أمامها، انفتح كهف مثل باب، يؤدى إلى قلب الجبل ولكن داخله كان مضيئا لا مظلما.. وعلى البعد، داخل الجبل، أمكنهم أن يروا بلدا مكشوفا. نهرا. أرضا تربتها غنية بالأملاح يشقها نهر. حقولا فسيحة من الذرة. بلدة فى وادٍ اصطفت بيوتها صفوفا طويلة، وبيت بلدة خاص يقوم أعلى جبل هرمى الشكل، والناس يرقصون فى ساحة البلدة. صوت طبول خافتة.

ثم هدر الرعد. قصف وهدير هائل يبدو كما لو كان يقترب. تحولت السماء سوداء وسقط البرق حول الناس الذين يقفون خارج الكهف ارتعد الجميع، ولكن الرجل الذى كان قد أكل لحم الغزال فقط فقد صوابه من الخوف. جرى إلى فتحة الكهف، وصاح صيحة الحرب.

وعندما فعل ذلك توقف البرق وبدأ الرعد يدوى فى المدى البعيد وسرعان ما انتهى -متحركا صوب الشرق. استدار الناس ليروه يمضى. وعندما نظروا خلفهم إلى الصخور، لم يروا كهفا ولكن واجهة الصخرة البيضاء الصلبة، تتألق فى آخر ضوء للشمس.

عادوا إلى كانوجا، سيرا على الأقدام على الممر المظلم كما لو كانوا فى حداد، وكان كل عقل مثبتا على الرؤيا التى رأوها داخل الجبل. وسرعان ما حدث ما تنبأ به الغريب. أخذت منهم أرضهم، ودفعوا إلى المنفى، فيما عدا القلة التى حاربت واختبأت بين الصخور الشامخة، وهى تعيش فى خوف وتطارد مثل الحيوانات

عندما فرغ إينمان من حكايته لم تعرف إيدا ماذا تقول، ولذا قالت، حسنا، كان ذلك تراثا شعبيا بكل تأكيد.

وفى الحال ندمت على ذلك، لأن من الواضح أن القصة تعنى شيئا لإينمان، رغم أنها لا تعرف على وجه اليقين ماذا تعنيه.

ألقى عليها نظرة وشرع يقول شيئا ثم توقف ونظر إلى الجدول. قال بعد قليل، لقد بدت تلك المرأة العجوز أكبر عمرا من الرب وذرفت من مقلة عينيها البيضاء دموعا وهى تحكى القصة.

قالت إيدا، ولكنك لا تعتبر أن هذه هى الحقيقة؟

أتقبل فكرة أنها من الممكن أن تكون قد عاشت فى عالم أفضل،وانتهى أمرها إلى أن تصبح هاربة. تختبئ فى نباتات البلسم.

لم يعرف أيهما ما يقوله بعد ذلك،ولذا فإن إينمان قال:علىّ أن أرحل. تناول يد إيدا ومس ظهرها بشفتيه فحسب وأطلقها.

وعندما لم يكن قد ابتعد عشرين قدما فإنه، رغم ذلك، ألقى نظرة من فوق كتفه ورآها تستدير لتوها لتمضى إلى البيت أسرع مما يجب. لم تنتظره حتى أن يدور حول المنعطف الأول.

توقفت إيدا عن السير ووقفت ونظرت إليه. رفعت يدها ملوحة له ثم أدركت أنه لا يزال أقرب من أن تكون تلك الإيماءة ملائمة،ولذا فإنها سحبت يدها محرجة وطوت شعرات شاردة فى جديلة شعرها الملتفة عند عنقها كأن ذلك كان قصدها الأول.

توقف إينمان واستدار ليواجهها وقال: يمكنك مواصله السير إلى البيت. ليس عليك أن تقفى لتراقبى رحيلى.

قالت إيدا: أعرف أننى لست مضطرة إلى ذلك.

إن النقطه التى أطرحها هى أنك لا تريدين.

قالت: لن يفى ذلك بغرض يمكنني أن أراه.

قد يشعر بعض الرجال بأن ذلك أفضل.

قالت إيدا: إلا أنت، وهى تحاول بقدر ضئيل من النجاح أن تضفى على صوتها نبرة من المرح.

قال إينمان : إلا أنا، كما لو كان يختبر الفكرة ليرى إن كانت مباشرة وصريحة للعالم المرئى.

ولبرهة، خلع قبعته و أمسك بها قرب ساقه. ومرر يده الأخرى خلال شعره ثم رفع أصبعا إلى جبينه وحياها.

قال: لا، أظن إلا أنا. سوف أراك حين أراك.

وانصرفا، دون أن ينظر إلى الخلف هذه المرة.

ومع ذلك فإن إيدا لم تشعر بعدم اكتراث فيما يتعلق بالحرب وبرحيل إينمان إليها.

كان مساء كئيبا،سبقه مطر قصير الأجل قبل غروب الشمس. دخل مونرو غرفة مكتبه، بعد العشاء مباشرة،ليعمل لساعات على موعظة الأسبوع. وجلست إيدا وحدها فى قاعة الاستقبال على ضوء شمعة رفيعة،راحت تقرأ فى العدد الأخير من نورث أميريكان ريفيو، وعندما فشل هذا فى جذب انتباهها تصفحت الإصدارات القديمة من دايال، سوزرن ليتيرارى مسينجر التى تخص مونرو. ثم جلست وأخذت تنقر البيانو لبعض الوقت. وعندما توقفت كان هناك مجرد صوت الجدول الخافت، وقطرة من طنف الشرفة من آن لآخر، ضفدعة سرعان ما صمتت، والبيت يسكن و من حين لآخر رنين صوت مونرو المكتوم وهو يجرب نبرة عبارة حديثة الانشاء بصوت عال.فى مثل هذا الوقت من الليل فى تشارلستون كان هناك أمواج تلاطم الحواجز، وسعف النخل يخشخش فى

الريح. وطارات المركبات الحديدية تهدر، وحوافر الجياد تطقطق مثل ساعات حائط كبيرة تتبع إيقاعا موسيقيا خاطئا.أصوات من يتنزهون وحفيف جلد نعالهم على حصى الطريق المضاء بالغاز. ولكن كان بإمكان إيدا فى خليج هذا الجبل ان تسمع أذنيها تطنان من الافتقار إلى اى صدى آخر، كان ساكنا للغايه إلى حد انها بدات تظن انها تشعر بوجع خلف عظام جبهتها . وكان الظلام خارج النافذة شاملا كما لو انه تحقق بطلاء الزجاج باللون الأسود.

تقلبت افكارها فى مثل هذا الفراغ. كان هناك عدد من الأشياء تزعجها بشأن النهار. لم يكن من بينها انها تذرف دموعا، ولا أنها لم تعبر عن الأشياء التى يقولها آلاف النساء، متزوجات كن أو غير متزوجات، بعد خروج الرجال، وكلها تتلخص فى فكرة أنهن سينتظرن عودة الرجل إلى الأبد.

ما كان يزعجها هو سؤال إينمان. كيف يمكن أن يكون رد فعلها لنبأ موته؟ لم تكن تعرف، رغم أن احتمال وقوعه يلوح فى عقله أكثر ظلمة فى ذلك المساء عما كان يمكنها أن تظن. واقلقها أنها استبعدت قصة إينمان بأسلوب وقح، أنها لم تستجمع ذكاءها عندئذ لترى انها لم تكن قصة امرأة عجوز لكنها عن مخاوفه هو و رغباته.

شكت فى أن أداءها على وجه الإجمال، كان سطحيا، أو شديد الصلابة أو ضئيلا. ولم تود أن تكون أيا من ذلك. صحيح أن آداب السلوك تلك لها نفعها. فهى تتفوق فى انها تجعل الناس يرتدون خطوة إلى الوراء ويتيحون للمرء متنفسا. لكنها انسجمت معها بحكم العادة، وفى الوقت الخاطئ، وندمت على ذلك. خشيت أن تتمكن منها وتتصلد بداخلها، بدون عمل ما يكفر عنها، وأنها ستجد نفسها ذات يوم مزمومة مثل برعم شجرة القرنوس فى يناير.

نامت نوما مضطربا فى تلك الليلة، تتقلب فى سريرها الرطب البارد. وبعد ذلك أشعلت الفتيل وحاولت أن تقرأ بعض الوقت فى رواية البيت الكئيب، لكن لم تستطع أن تكيف عقلها معها. أطفأت الضوء ورقدت ملتوية فى أغطيتها. ودت لو كان لديها جرعة افيون. وفى وقت ما بعد منتصف الليل جاءها الفرج الذى يجئ العذراء والعانس والأرملة. كانت قد قضت عامها الثالث عشر. وهى فتاة، يزعجها الاعتقاد بأنها وحدها قد اكتشفت مثل ذلك الفعل،أو أنها ربما كانت وحدها قادرة عليه بسبب اضطراب فى تكوين جسمها او خسة تنفرد بها. ولذا

فقد وجدت فرجا عظيم الشأن، حين صححت لها ابنة عمها لوسى، وهى تكبرها ببضعة أشهر مسارها فى مسألة الحب من غير رفيق. كان رأى لوسى المثير للاستنكار أنه، شأن كل العادات، يقترب من مضغ التبغ واستنشاق السعوط وتدخين الغليون فى درجة شيوعها، وهو ما يعنى أننا يحسن بنا أن نعتبرها مسألة كونية. صرحت إيدا بأن مثل هذا الرأى دنىء ومستخف كلية لكن لوسى لم تتزحزح عن رأيها وظلت مرحة إلى حد الرعونة بشأن شىء رأت إيدا أنه غموض مظلم ينشأ من قنوط عظيم إلى حد أن من المؤكد أن يقضى المرء اليوم التالى بلطخة واضحة للعيان على وجهه. ولم تغير آراء لوسى ولا السنون التى مضت بعد تلك الفترة من مشاعر إيدا فى ذلك الأمر

وفى تلك الليلة كانت الصور التى تنساب فى عقلها بلا سِتْر مثل حلم تدور حول إينمان. ولأن معرفتها بالترشيح كانت افتراضية إلى حد ما - وقد تأسست على حيوانات متنوعة وأطفال ذكور وتماثيل مذهلة فى إيطاليا- فإن الصور التى بدت لها بأكبر قدر من الوضوح كانت صورا لأصابعه ورسغيه وساعديه. وماعدا ذلك نظرى ولذا غير واضح المعالم وبلا شكل حقيقى. وبعد ذلك، رقدت مستيقظة حتى قرب الفجر، وهى لا تزال ممتلئة بالتوق واليأس.

لكنها استيقظت فى صباح اليوم التالى صافية الذهن ومتألقة، وقد عقدت عزمها على أن تصلح ما أفسدته. أخبرت إيدا مونرو أنها تريد أن تخرج فى جولة بالحصان، وهى تعلم علم اليقين أين ينتهى بهما الأمر فى أى مرة يمسك فيها بالعنان. أمر الأجير أن يشد رالف إلى المركبة المكشوفة، وفى ظرف ساعة كانا يدخلان البلدة. ذهبا الى موقف الخيل، حيث أخذ الحصان من بين عريشى المركبة ووضع فى مربط الدواب وأعطى نصف مكيال من الحبوب.

وفى الشارع، ربت مونرو على مختلف جيوب سرواله وصدريته ومعطفه حتى عثر على كيس نقوده. تخير قطعة ذهبية صغيرة ذات عشرين دولارا وسلمها لإيدا دون تفكير إلا فى أنها لا أكثر من خمسة سنتات. اقترح عليها أن تشترى شيئا لطيفا مثل الملابس أو الكتب ثم تعود وتلتقى به عند موقف الخيل بعد ساعتين. كانت تعرف أنه فى سبيله إلى أن يجد أحد أصدقائه، طبيبا عجوزا، وأنهما سيتحدثان عن الكتاب والرسامين وما إلى ذلك، وأنه فى هذه الأثناء سيشرب إما كأسا صغيرة من الويسكى أو كأسا كبيرا من النبيذ الأحمر، وأنه سيتأخر خمس عشرة دقيقة بالضبط حتى يلتقى بها.

اتجهت مباشرة إلى محل بيع الأدوات المكتبية، واشترت دون تصفح الكتب مدونة موسيقية مطبوعة بها عدد من ألحان ستيفن فوستر الحديثة، وهو مطرب كانت آراء مونرو وإيدا فيه تتضارب بشدة. أما فيما يتعلق بالكتب، فقد كان الشيء الأول الذى كان فى متناول يدها هو رواية لترولوب فى ثلاثة مجلدات، مكعبة فى حجمها. طلبت من البائع أن يلفه فى ورق وأن يرسله إلى موقف المركبات ثم ذهبت إلى محل تجارى واشترت وشاحا بسرعة، وقفازين من جلد الجاموس، وحذاء يصل ساقه إلى الكاحل من جلد الوعل. وطلبت من البائع أن يلفه أيضا ويرسله. خرجت إلى الشارع، وتحققت من الوقت، واكتشفت أنها قد قضت بنجاح أقل من ساعة إلى حد بعيد فى التسوق.

ولعلمها بأن ما تفعله يتجاوز حدود اللياقة، فإنها انعطفت فى الزقاق الذى يقع فى مكتب المحاماه ومشغل الحدادة. صعدت الدرجات الخشبية المكشوفة التى تؤدى إلى منبسط الدرج المغطى أمام إينمان وطرقت الباب.

كان يلمع حذاء أسود عالى الساقين ولا تزال يده مدفوعة فيه حين فتح الباب، وبيده الأخرى خرقة حيث قبض على المقبض. ويجورب قصير على إحدى قدميه والأخرى منتعلة وإن كان حذاؤها غير ملمع. لم يكن يرتدى سترة، وكما قميصه مشمران حتى المرفق تقريبا. وكان عارى الرأس.

ارتسمت على وجهه دهشه كاملة وهو يشاهد إيدا، وقد تجسدت فى أقل الأماكن احتمالا يمكن لأى منهما أن يتخيلها. بدا عليه أنه لا يعرف أى كلمات ينطق بها، سوى أن الكلمات التى يمكن أن يدعوها بها إلى الدخول لم تكن بين كل الاحتمالات.. رفع سبابته لتدل على فترة زمنية قصيرة، لحظه. ثم أغلق الباب، تاركا إياها واقفة هناك.

كان ما رأته إيدا من الباب المفتوح مثبطا للهمة. كانت دقيقة الحجم ليس لها سوى نافذة صغيرة مرتفعة على الجدار البعيد، تطل فحسب على الألواح الخشبية وألواح المخزن المشقوقة عبر الزقاق. ومن ناحية الأثاث، احتوت الغرفة على هيكل سرير حديدى ضيق، وخزانة بأدراج أعلاها حوض اغتسال. وكرسى قائم الظهر وطاولة كتابة، وبعض الكتب فى أكوام. كانت زنزانة. تليق أكثر ما تليق إجمالا، فى رأيها، براهب عما تليق بواحد يمكنها أن تصنفه على أنه غُندور.

ومخلصا للإشارة التى اتى بها إينمان، سرعان ما فتح الباب ثانية. كان قد انزل أساور قميصه وارتدى سترة وقبعة.، ويرتدى فردتى حذائه، رغم أن إحداهما كانت بنية قذرة والأخرى سوداء مثل غطاء موقد مشحم بالدهن.

قال: أعتذر. لقد أُخذت على غرة.

- ارجو الا تكون مفاجأة غير سارة.

قال: مفاجأة سعيدة، وإن لم يؤيد مثل هذا الشعور تعبير على وجهه.

خرج إينمان إلى منبسط الدرج واستند إلى السور، وذراعاه معقودتان على صدره. بالشمس فى الخارج، ألقت القبعة ظلا على وجهه حتى أن كل ما فوق فمه بدا معتما. ساد صمت طويل. نظر إلى الخلف للباب. كان قد تركه مفتوحا، وخمنت إيدا أنه يود لو أنه كان قد أغلقه لكنه لم يكن قادرا الآن على أن يقرر أيهما أسوأ، الحرج الذى يلازم الخطوتين لفعل ذلك، أو الحميمية الشديدة التى يوحى بها الباب المتثائب وهيكل السرير الحديدى الضيق.

قالت، أردت أن أخبرك أننى رأيت أن الأمور انتهت نهاية سيئة بالأمس. لا كما أردتها على الإطلاق. لا بطريقة مرضية.

زم إينمان شفتيه كما لو كان حبل رفيع قد جُذب بداخله. قال، لا أعتقد أننى أفهم ما ترمين إليه. كنت متجها إلى أعلى النهر لأودع ايسكو وسالى. وعندما بلغت الطريق إلى الخليج الأسود، فكرت فى أنه يحسن بى أن أودعك أنت أيضا. وهذا ما فعلته. وكان فى حدود أفضل ما فى استطاعتى، مرضيا.

كانت إيدا تنقصها الخبرة فى أن يرفض أحد اعتذاراتها، وكانت أول فكرة خطرت ببالها أن تستدير وتنزل الدرج وتضع إينمان خلف ظهرها إلى الأبد..

لكنها قالت، ربما لا نتبادل الحديث مرة أخرى، ولا أنوى أن أترك ذلك التعليق يقوم مقام الحقيقة. أنت لا تريد أن تعترف، لكنك جئت بتوقعات ولم تتحقق. إلى حد كبير لأننى تصرفت بما يتعارض مع قلبى. وأنا آسفة على ذلك. وأود لو أننى تصرفت بشكل مختلف لو واتتنى الفرصة على العودة وإعادة النظر.

- ليس ذلك شيئا متاحا لأى منا، أن نعود. أن نزيل ما لا يناسبنا منذ عهد قريب وأن نعمله على النحو الذى نبغيه.

وقف إينمان ولا تزال ذراعاه معقودتين، ومدت إيدا يدها ولمست المكان الذى تبرز منه أسورة قميصه من كم معطفه. أمسكت بالأسورة بين إبهامها وسبابتها وجذبتها حتى فتحت ذراعيه. لمست ظهر يده، وهى تتعقب بأصبع مسار وريد منحنٍ من مفصل يده إلى الرسغ. ثم تناولت رسغه واعتصرته بشدة، وجعلها ملمسه فى يدها تتساءل عما كانت عليه باقى أجزائه.

لم يكن بوسع أى منهما، للحظة، أن ينظر فى وجه الآخر. ثم سحب إينمان يده وخلع قبعته ودوم بها فى الهواء من حافتها. التقطها ورج رسغه وأرسلها تنزلق خلال الباب لتستقر بالداخل حيث تشاء. ابتسم الاثنان، ووضع إينمان يدا على خصر إيدا والأخرى على مؤخرة رأسها. كان شعرها مرفوعا إلى أعلى بشكل سائب، مثبتا بمحبس، وكان ما لمسته أصابع إينمان هو عرق اللؤلؤ البارد وهو يميل برأسها إليه ليطبع القبلة التى كانت أفلتت منهما فى اليوم السابق.

كانت إيدا ترتدى تقريبا كل الثياب التى ترتديها نساء منزلتها الاجتماعية، ولذا فإن كل جسدها كان مغلقا تحت ياردات متراكبة ومطوية من القماش الميت. ولمست يده عند خصرها عظام سنادات مشدات خصرها، وعندما أخذت خطوة إلى الوراء ونظرت إليه، صرت العظام إحداها مع الأخرى مع حركتها وتنفسها. خمنت أنه يشعر بها كأنها سلحفاة مياه عذبة كامنة داخل صدفتها، تبدى دليلا ضئيلا على أن بداخلها وفى جلدها يرقد شىء حى جلى دافئ ومغلف بجلده.

نزلا على الدرج معا، وقام الباب وهما يمران به مثل وعد بينهما. وعند مدخل الزقاق، استدارت إيدا ووضعت سبابتها على زرار ياقة إينمان لتوقفه.

قالت: يكفى حتى هنا. عد. وكما قلت سأراك حين أراك.

– لكننى أرجو أن يكون ذلك سريعا.

– كلانا يرجو، إذن.

فى ذلك اليوم ظنا أن أكثر وحدات الزمن ملاءمة لقياس غياب إينمان ستكون اشهرا ليس إلا. واتضح أن الحرب، على الرغم من ذلك، تجربة أطول مما عول عليه أى منهما.

القيام به

تبع إينمان خريطة الرجل الأصفر البارعة خلال ما كان السكان المحليون يطلقون عليه جلد التلال. كانت الليالى رطبة وأوراق الأشجار تبدأ فى اكتساب اللون. وبعد أن سار أغلب أيام الأسبوع. تقدم إلى الأماكن البيضاء العادية عند حافة الخريطة البعيد، وأمكنه أن يرى جبال بلو ريدج معلقة أمامه مثل دخان اكتسحه الهواء عبر السماء. استغرق ثلاث ليال أخرى ليمر خلال مكان قذر يدعى الوادى السعيد، وهو شقة عريضة طويلة من أرض محاصيل وأرض مراع عند سفح الجبال. كان هناك أرض مكشوفة أكثر من أن يشعر بالاطمئنان بالمرور فيها نهارا، وبالليل كان هناك صوت إطلاق مسدسات وأضواء مشاعل، والطرق تغص براكبين قاتمين حتى أن إينمان قضى وقتا طويلا مختبئا مثلما قضى وقتا طويلا سائرا. قدر أن الراكبين كانوا الحرس الوطنى، وكلهم سكارى مثل صيادى الراكون وهم يرحبون بالفجر. وقد خرجوا يبحثون عن الاتحاديين الذين هربوا من سجن ساليزبرى. يسارعون إلى الضغط على الزناد.

قامت بيوت كبيرة ذات أعمدة بيضاء على مسافات متباعدة فى الوادى. كان يطوقها أكواخ كئيبة متناثرة حتى أن الوادى بدا مقسما إلى مزارع إقطاعية. نظر إينمان إلى البيوت الكبيرة بالليل وعرف أنه كان يقاتل فى المعارك من أجل مثل هؤلاء الرجال الذين يعيشون فيها، وجعله هذا يشعر بالغثيان. كان يريد

فحسب أن يواصل سيره إلى المناطق الأقل كثافة بالسكان فى الجبال، حيث يأمل فى أن يكون الناس أقل تعويقا ولذا فإنه ما إن استطاع إينمان هذا، حتى تخلى عن الطرق الخطيرة فى ريف الوادى ولجأ إلى درب عربات ضيق يتجه شمالا ويصعد حافة ويهبط إلى وادى نهر عميق ضيق ثم يصعد بمشقة صوب قمة جبل بلوريدج. ظل إينمان يصعد جزءا من يوم وكل اليوم التالى ومازال هناك جدار من الجبل يرتفع عاليا أمامه، والدرب يرتفع متلويا ومتلويا بلا نهاية. وسرعان ما رفعه إلى مرحلة متأخرة من الخريف، ففى المرتفعات كان الموسم مازال ممتدا بالفعل. وكان على الأرض من الأوراق مثلما كان على الشجر.

وفى وقت متأخر من عصر أحد الأيام، بدأ مطر بارد فى النزول، وسار إينمان بحماسة ضئيلة خلال نهاية اليوم فى الظلام. وفى وقت ما بعد منتصف الليل بوقت طويل، وقد تملكه اليأس تقريبا، وهو مبتل مثل كلب الماء، صادف شجرة قسطل كبيرة بتجويف فى قاعدتها، وقد تهدل اللحاء حولها مثل شفاه غليظة. زحف بداخله ورغم أنه لم يكن به متسع حتى يجد وضعا أكثر راحة من القرفصة، إلا أنه كان جاف على الأقل. جلس ينصت وقتا طويلا لتساقط المطر. لف الأوراق الجافة فى شكل أسطوانات محكمة بين سبابته وإبهامه، ثم نقرها بإصبعه إلى الخارج فى الظلام. أما وقد سكن فى الشجرة، فإنه بدأ يشعر بأنه طيف مبتل متوار فى الليل، قزم خرافى ما أو قزم جنى من تحت الأرض، طريد، متذمر مستعد أنْ يندفع إلى مهاجمة أى عابر سبيل بدافع من الضغينة. وفيما بعد ظل يغفو ويستيقظ، فى انتظار الصباح، ثم غلبه النعاس فى آخر الأمر، وهو محشور بإحكام فى قلب شجرة القسطل.

حلم بحلمه عن فريدريكسبورج، ثم بعد وقت قصير من الفجر، استيقظ وهو يرتجف وفى حالة مزاجية شرسة. شعر كما لو كانت الأشياء قد تغير حالها عما تركها. حاول أن ينهض من فجوة الشجرة لكنه وجد أن أجزاء جسمه السفلى قد صارت ميتة. زحف خارجا من الشجرة، وهو يجذب نفسه بذراعيه. وعلى الرغم من كل ما يشعر به فى ساقيه، فقد كان من المحتمل أن يكون الجزء من الخصر إلى أسفل قد قطع بمنشار. كان الأمر كأنه لم يعد هناك شىء، وهو نفسه فى مرحلة أن يصبح مجرد شىء مختلف، يتلاشى من الأرض إلى أعلى، كما لو كان عليه ان يواصل الرحلة التى تمتد أمامه فى شكل حجاب أو شبورة. ورقة رقيقة شبه شفافة.

كان للفكرة جاذبيتها، ظل مسافر.

تمدد إينمان على الأرض الرطبة ونظر إلى أعلى من خلال فروع الأشجار وأوراقها التى تقطر. كانت السحب كثيفة ورمادية. ورقع زرقاء من ضباب دقيق وشاحب مثل مسحوق يتحرك فى الطابق العلوى من فروع أشجار القسطل والبلوط ويقبض على أوراق الخريف اللامعة فرع طائر طيهوج طبوله بعيدا فى الغابات، صوتا عميقا عنيفا مثل دقات قلب إينمان نفسه فى تلك اللحظة قبل أن تتهشم فى صدرة. أمال رأسه إلى أعلى من على الأرض وأصغى، وهو يفكر فى انه إذا كان هذا هو اليوم الأخير له على الأرض فعليه على الأقل أن يكون يقظا. ولكن بعد قليل تفجر خفق أجنحة الطيور وغمغمت وتلاشت فى الغابات. ألقى إينمان نظرة على جسمه بطوله، واكتشف، بمشاعر مختلطة، أنه كان هناك فى أغلبه. حاول أن يهز قدميه، واستجابتا للنداء. دلك وجهه بشدة بكفيه وجذب ملابسه الملتوية ليسويها. كان مبتلا حتى العظام.

زحف ليأتى بمخلاتيه من الشجرة وجلس مستندا إليها وفتح غطاء قارورة مائه وجرع جرعة طويلة. كان كل الطعام الباقى فى مخلاته قدحا من جريش الذرة، ولذا فإنه جمع عصيا ليوقد نارا لطهو العصيدة. اشعل الصوفان ونفخ فيه حتى تراقصت كرات صغيرة أمام بصره، لكن النار اندلعت مرة واحدة وأرسلت دخانا هائلا ثم انطفأت جملة.

قال إينمان، سأنهض فحسب وأظل أسير وأسير حتى أصل إلى أى شىء يمكنه أن ينصت.

وبعد أن قال هذا فإنه، رغم ذلك، ظل جالسا فحسب وقتا طويلا.

قال لنفسه، إننى اقوى مع مرور كل دقيقة. لكنه عندما بحث عن دليل يؤيد هذا، لم يستطع أن يجد أى دليل.

تثاقل إينمان من على الأرض المبتلة ووقف، مرتجفا مثل شمعة رفيعة. سار لفترة قصيرة ثم انحنى، لا إراديا. كان وسطه ينخلع باندفاعات جافة قوية إلى حد أنه خشى أن جزءا ضروريا منه من الممكن أن يتوقف. كان جرح رقبته والجروح الأحدث فى رأسه تلسع وتنبض فى مؤامرة عليه. جلس برهة على صخرة، ثم نهض وسار طوال الصباح خلال الغابات المعتمه. كان الدرب قد أسىء استخدامه، ملتفا ومتعقدا حتى أنه لم يستطع أن يحدد أتجاهه العام. كان

دربا يفضى إلى لا مكان معين سوى إلى أعلى. كانت الطبقة الحية من الفروع المقطوعة ونبات السرخس تتكاثف فى ممر المشى، وبدت الأرض كما لو كانت تجنح إلى درجة أن لن يبقى الطريق فى المستقبل القريب حتى ندبة. فلعدة أميال كانت الأرض تشق طريقا ملتويا خلال غابة من نباتات الشكران الهائلة، وقامت الشبورة بينها كثيفة حتى أن فروعها الخضراء مختفية. الجذوع السوداء بادية فحسب، ترتفع فى السماء الملبدة بالغيوم مثل أنصاب قديمة أقامها جنس منسى ليخلد ذكرى أَسْود أحداث تاريخهم.

لم يكن إينمان قد لمح علامة واحدة على إنسان سوى الممر خلال هذه البرية. لا أحد ليحل لغز موطنه. شعر بأنه فاقد للرشد وبلا طريق، والدرب يتلوى صاعدا إلى أعلى فأعلى. كان لا يزال يحرك قدما قبل الأخرى، بل أكثر قليلا. وحتى ذلك كان يفعله دون أن يكون واثقا بأنه سيتقدم به مثقال ذرة صوب أى علامة يود أن يبلغها.

وقرب منتصف النهار دار حول منحنى وعثر على رقبة شخص ضئيلة هزيلة يقرفص تحت شجرة شكران كبيرة. لم يكن به الكثير سوى رأسه وكتفيه تظهر فوق حوض من السرخس الطويل أحرقه الصقيع، وكل قمة سرخسة يتدلى منها قطرة لامعة من الضباب المتجمع. ومن الوضع الذى اتخذه الشخص ظن إينمان فى أول الأمر أنه قد قاطع طائر غراء فى منتصف تروثه. لكنه عندما أقترب أكثر رأى أنها امرأة عجوز ضئيلة القدر تقرفص لتضع طعما من كتلة صغيرة من شحم كليتى ذبيحة فى عصى إغلاق شرك طيور. لم تكن طائر غراء، إذن، ولكن صديق حميم.

توقف إينمان وقال: هيى، ياسيدتى.

رفعت المرأة عينيها فترة قصيرة لكنها لم تلوح بيد. ظلت جالسة مقرفصة، تعدل وضع الشرك بتفاصيل كثيرة، وتبدو هانئة بمهمتها. وعندما فرغت، وقفت وتجولت حول الشرك مرارا وتكرارا، وهى تتفحصه حتى كانت هناك دائرة كاملة مطروقة فى السرخس. كانت عجوزا للغاية، كان ذلك واضحا، ولكن على عكس التجعيدات والرعثات التى على ذقنها، كان جلد وجنتها يتوهج متوردا ورقيقا مثل جلد فتاة. كانت ترتدى قبعة رجل من اللباد، والشعر الأبيض يتدلى من تحتها نحيلا ويصل إلى كتفيها. كانت ملابسها - كل من تنورتها

الفضفاضة وبلوزتها - مصنوعة من جلود مدبوغة، وبدا أنها قصت على نموذج بسكين له مقبض وحيكت بسرعة. كانت ترتدى ميدعة قطنية مشحمة مربوطة حول وسطها، وكعب مسدس ذى عيار صغير يبرز من حزامه. بدا حذاؤها العالى الساق كما لو كان قد خصفه إسكافى حديث العهد بالصنعة وملتفا مثل مزلاجات الزحافة حول أصابع القدمين. وإلى جانبى شجرة توليب كبيرة قامت بندقية صيد حجل ذات ماسورة طويلة، بقية من بقايا قرن سابق

حدق إينمان فى المرأة قليلا وقال: لن تصطادى سمانة بهذا الشرك إذا اشتمت رائحة بشر حولها.

قالت المرأة: إننى لا أرسل الكثير من الرائحة.

قال إينمان: افعلى ما تشائين. ما أتساءل عنه هو ما إذا كان هذا الطريق يؤدى إلى مكان ما أو أنه ينغلق بعد قليل.

- إنه لايفضى إلى شىء سوى ممشى بعد ميل أو أثنين، ولكنه يستمر ويستمر فى حدود علمى.

- غربا؟

- إلى الغرب عموما. إنه يتبع الحواف. إلى الجنوب الغربى على وجه أكثر دقة. إنه ممر تجارة قديم منذ أيام الهنود.

قال إينمان: أنا ممتن لك. عقف إبهاما تحت سير ربطة، وهو يستعد لمواصلة السير. لكن المطر شرع ينزل من السماء الملبدة بالغيوم، قطرات ثقيلة متباعدة، تسقط مثل الرصاص من برج إطلاق النيران.

مدت المرأة يدا مقوسة مثل قدح وراقبت المطر يتجمع فيها. ثم نظرت إلى إينمان. لم تكن هناك ضمادات على جروحه، فتفحصتها وقالت: تبدو مثل فجوات أحدثتها رصاصات.

لم يجد إينمان ما يقوله ردا على ذلك.

قالت: تبدو ضعيفا. شاحبا.

قال إينمان: أنا على ما يرام.

دققت المرأة فيه النظر أكثر. قالت، تبدو كما لو كنت تستطيع أن تأكل شيئا.

قال إينمان: إذا أمكنك أن تقلى لى بيضة، فإننى على استعداد أن أدفع.

قالت: ماذا؟

قال إينمان: كنت أتساءل إن كان بإمكاني أن أدفع لك لتقلي لي بضع بيضات.

قالت: أبيعك وجبة؟ لا أظن. ليس حالي بهذا السوء بعد. لكن ربما قدمت لك وجبة ليس لدى بيض، رغم ذلك. لا أستطيع أن أحتمل العيش حول دجاجة. ليس لدى استعداد نفسي لدجاجة على الإطلاق.

- هل بيتك قريب؟

- ليس أبعد من ميل، وسوف تسعد يومي لو أنك أويت إلى مخيمي وتناولت الغذاء.

- إذن أكون أحمق لو قلت لا.

تبع إينمان المرأة، وهو يلاحظ أنها تخطو بأصابع قدمين ملتوية إلى الداخل، طراز من السير يقال عنه في أغلب الأحيان أن الهنود يفضلونه، على الرغم من أن إينمان عرف الكثير من الشيروكيين، ومن بينهم سويمر، الذين يسيرون بأقدام مفلطحة مثل بط البلقشة. صعدا إلى منحنى وسارا من هناك على بلاطات من الصخور. بدا لإينمان أنهما كانا على شفا جرف، لأن رائحة الماء الشفيفة تنبئ عن ارتفاع شاهق، رغم أن الضباب يحجب أي تحقق بصرى من السمو. تضاءل المطر حتى أصبح رذاذا نحيلا، ثم تحول إلى كريات صلبة من الثلج تقعقع على الأحجار. توقفا ليشاهداه يسقط، لكنه استمر دقيقة فحسب ثم بدأ الضباب ينقشع. صفائح من الضباب تكتسح تيارا هوائيا صاعدا. تفتحت رقع زرقاء من السماء فوقه. واشرأب إينمان برأسه لينظر إليها. قدر أنه سيكون يوما ملائما تماما لكل أنواع الجو.

ثم عاد ينظر إلى أسفل وشعر باندفاعة دوار عندما تكشف العالم السفلي فجأة تحت مقدمة حذائه. كان حقا على شفا جرف، وأخذ خطوة إلى الوراء. امتد وادي نهر ضيق - فيما يبدو الوادي الذي صعد منه - أزرق وأرجوانيا تحته، وارتاب في أن بإمكانه أن يبصق وأن يصيب تقريبا البقعة التي كان يسير عليها أمس الأول. كانت الأرض حوله عالية ووعرة. تطلع إينمان فيما حوله وأفزعه أن يرى جبلا هائلا متعقدا يتشكل خارجا من الضباب إلى الغرب، ويلوح في السماء. وطلعت الشمس من خلال شق في السحب، وفجأة تدلى في

الهواء شريط عظيم من سلم يعقوب مثل ستار من الشاش بين إينمان والجبل الأزرق.

وعلى جانب السلم الشمالى تشكيل من الصخور، صورة جانبية لرجل ملتحٍ هائل الحجم يضجع عبر الأفق.

قال: هل لذلك الجبل اسم؟

قالت المرأة: تاناوها. كان الهنود يطلقون عليه ذلك الاسم.

نظر إينمان إلى الجبل الجد الكبير ثم فيما وراءه إلى الجبال الأصغر وهى تتلاشى فى الأفق الجنوبى الغربى، وقد غمرت فى سديم دخانى خافت. أمواج من الجبال. ورغم كل الدلائل التى تنبئ عنها العين، فإنها كانت لا نهائية. ميزت حدبات القمم الأبعد الرمادية المتراكبة نفسها بمجرد كونها ظلالا أدكن للهواء الشاحب الرمادى. تكلمت الأشكال ومظهرها الشبحى إلى إينمان بطريقة لم يستطع أن يفسرها بوضوح. كانت تتدرج فى الارتفاع مثل الألم المتضائل من جرح بالرقبة وهو يلتئم.

كسحت المرأة الهواء بذراعها إلى حيث كان ينظر، وهو تومئ إلى أسكتين حادتين على حافة الأفق البعيد.

قالت: صخرة الهضبة هوكس بيل. يقولون إن الهنود كانوا يشعلون نيرانا عليها فى الليالى وكان بإمكانك أن تراها على مدى مائة ميل فى كل الاتجاهات. نهضت وشرعت تسير. قالت، إن المخيم هنا تماما.

سرعان ما تركا الطريق الرئيسى ودخلا طريقا مختصرا كثيف الأشجار فى الجبل، جيب خليج مظلم، تفوح فيه رائحة تعفن النباتات والأرض المشبعة بالماء. كان يشقه جدول صغير. والأشجار تنمو معوقة النمو كثيرة العقد ملتحية ببَهْق الشجر، وكلها تميل بشدة فى نفس الاتجاه. استطاع إينمان أن يتخيل المكان فى فبراير والريح تعوى على سفوح التلال وتدفع الثلج جانبا بين الأشجار العارية. وعندما بلغا مخيم المرأة، رأى إينمان أنه تركيب من الواضح أنه بدأ حياة رُحّلٍ ولكنه مد جذوره فى الأرض. كان عربة صغيرة مغطاة بلون الصدأ تقوم فى مساحة مكشوفة بين الأشجار المائلة. كانت ألواح سقفه المشقوقة مبقعة بعفن أسود، وطحلب أخضر، وبهق شجر رمادى. وكان ثلاثة غربان تتجول على السقف وتنقر شيئا بين الشقوق. وسيقان لبلاب مجدولة فى أسلاك الإطارات

العالية. كانت جوانب العربة قد رسم عليها مناظر صارخة الألوان وصور وجوه، وشعارات ونقوش كتبت بأحرف فجة، وتحت الطنف تدلت حزم من أعشاب تجف، وخيوط من فلفل أحمر، وجذور مغضنة متنوعة. ومن أنبوب يبرز من السقف ارتفع خيط رفيع من الدخان.

توقفت المرأة وصاحت بصوت جهورى: هيى هناك!

وعند صيحتها، طارت الغربان وهى تتعب، وجاءت عنزتان صغيرتان من الغابات ودارتا حول جانبى العربة الصغيرة. وفجأة أحاطت بهما دستتان أو أكثر. سارت إليهما لتتفحص إينمان وأمعنت النظر فيه برقاب ممدوة، وعيونها الضيقة الصغيرة لامعة وذكية. تعجب إينمان من كيف يمكن لعنزة أن تبدو أكثر فضولا وذكاء من الغنم وهى متشابهة فى كثير من ملامحها. تجمعت العنزات حولهما، وهى تبدل موضعها. كانت تزحزح إحداهما الأخرى بالأكتاف، وتثغو، وتجلجل بالأجراس حول رقابها. وارتفع بعضها فى المؤخرة لتضع حوافرها الصغيرة على ظهور العنزات التى كانت أمامها لتحصل على رؤية أفضل.

واصلت المرأة سيرها وحاول إينمان أن يتتبعها، لكن تيسا كبيرا تراجع إلى الخلف خطوة أو خطوتين، دافعا العنزات الأصغر جانبا. شب على قائمتيه الخلفيتين واندفع إلى الأمام، ناطحا إينمان فى ساقه.. كان ضعيفا من سير الأيام السابقة الشاقه، ورأسه تدور من نقص الطعام، ولذا فإن نطح التيس أسقطه على ركبتيه ثم على ظهره وسط نفايات الأرض. كان لون التيس أحمر وأسود وله لحية طويلة بذقنه مدببة على طريقة إبليس. جاء ووقف فوق إينمان كأنما يختبر صنع يديه. تضخم الدوار فى رأس إينمان والألم فى رأسه حتى خشى أن يروح فى غيبوبة. لكنه استجمع نفسه وجلس وخلع قبعته وصفع التيس على وجهه ليتراجع إلى الوراء. ثم نهض مترنحا على قدميه واستعاد اتجاهه. مد يده وصفع التيس مرة أخرى.

لم تعن المرأة حتى بالتوقف عن سيرها، وكانت قد اختفت حول جانبى العربة. تبعها إينمان والتيس وعدد من العنزات. وجدها تجلس مقرفصة تحت ملحق بناء خارجى مسقوف بفروع شجرة الصنوبر، وهى تضع حطبا على جمرات نار طهوها المكومة. وعندما توهجت النار، ذهب إينمان إليها وبسط يديه التماسا للدفء.

القت المرأة بقطع أكبر من شجرة الجوزة على النار ثم تخيرت حوضا مطليا بالمينا، وسارت مسافة ما وجلست على الأرض. جاءت إليها عنزة لونها بني وأبيض وربتت عليها وحكت أسفل رقبتها حتى طوت قوائمها ورقدت. كانت رقبة العنزة طويلة وممدوة إلى الأمام. حكت المرأة قرب فكها الأسفل وربتت على أذنيها. ظن إينمان أن ذلك مشهد سلمى. راح يراقبها وهى تواصل حكها بيدها اليسرى وتمد يدها اليمنى فى جيب ميدعتها.. وبحركة واحدة جذبت سكينا له نصل قصير وقطعت قطعا عميقا فى الوريد أسفل خط الفك ودفعت الحوض الأبيض تحته لتتلقى انبثاق الدم اللامع. ارتج الحيوان مرة، ثم رقد مترجرجا بينما واصلت هى حك فرائه وملاطفة أذنيه. امتلأ الحوض ببطء. وحدقت العنزة والمرأة بتركيز بعيدا باتجاه مسافة بعيدة كأنهما تنتظران إشارة.

وبينما كانت العنزة تلفظ أنفاسها الأخيرة، راح إينمان يتفحص العربة والعلامات التى عليها. كانت هناك حاشية تحمل صورة أشكال قوم صغيرة زرقاء، متماسكى الأيدى، يرقصون عبر الجزء السفلى. وفوق ذلك، وبلا ترتيب معين، كانت هناك رسومات لوجوه، بعضها لم يكتمل، ويبدو أنها تركت فى منتصف رسمها. كان أحد الوجوه، وهو ملتفت الى أعلى مكروبا، معنونا بإسم أيوب. وتحت ذلك كتابة بحروف سوداء مطبوعة تشبه خط اليد، وقد غطى ما تقوله جزئيا بجلد عنز مفرود، ولذا لم يستطع إينمان أن يرى سوى شذرة تقول، فى خلاف مع خالقه. وكانت هناك صورة أخرى لرجل يزحف على يديه وركبتيه، ورأسه مائل إلى أعلى لينظر صوب كرة فوقه. الشمس؟ القمر؟ ماذا؟ وعلى وجه الرجل نظرة فارغة من الانتباه. وتحته سؤال: هل أنت بين الضائعين؟ وكان أحد الوجوه الجزئية مجرد لوثة طلاء بها عيون. عنوانها الفرعى: إن حياتنا الشخصية قصيرة حقا.

تحول إينمان عن الصور وراح يراقب المرأة. شقت العنزة الصغيرة من عظمة القص إلى فتحة شرجها وتركت الأمعاء تسقط فى الحوض مع الدم. ثم نزعت عن العنزة جلدها، فبدت غريبة طويلة الرقبة جاحظة العينين. قطعتها إلى أجزاء. دهنت الأجزاء الغضة بفركة من أعشاب جافة، فلفل مسحوق، ملح وقليل من السكر.

ثم سفدتها على غصينات وتركتها تشوى. وضعت الأجزاء الأخرى فى وعاء حديدى به ماء وبصل ورأس كامل من الثوم، وخمس فلفلات حمراء مجففة

وأوراق مرمرية وزعتر صيفى دعكته بين يديها . كان بالوعاء أرجل صغيرة، وتناولت عصيا حثت بها جمرات تحته لتطهى طهوا بطيئا .

قالت، بعد قليل سوف أضع لنا بها بعض الفاصوليا البيضاء وما إن يحين وقت العشاء حتى نتناول وجبة طيبة.

وفيما بعد، تجمع الضباب ثانية وتساقط المطر قطرات على سطح العربة الصغيرة. جلس إينمان بجوار الموقد الصغير جدا فى المأوى المعتم الضيق. كان المكان تفوح فيه رائحة الأعشاب والجذور والأرض ودخان الخشب. كان قد دخله من خلال الباب الخلفى وانتقل إلى ما يشبه ممرا، ممشى ضيقا طوله ثلاثة اقدام بين خزانة وطاولة إلى جانب، ومرتبة محشوة قشا للنوم إلى الجانب الآخر. خرج منها إلى مكان يشبه حجرة، رغم أنها لا تحيط بأكثر من مساحة قطعة أرض لقبرين. كان هناك موقد صغير دفع بإحكام فى أحد الأركان، لا يزيد حجمه عن دلو دهن خنزير. والجدران مغلفة بقصدير تسقيف لتحول بينها وبين اشتعال النار فيها. وكان لدى المرأة مصباحان مضاءان يعملان بالزيت، وأقداح شاى مشققة تمتلئ بدهن الخنزير، وقد غمس فيها قطع خرق ملفوفة كفتائل. كانت تدخن وهى تحترق وتفوح برائحة عنزات خافتة.

على الطاولة تكومت أوراق فى كومة عالية، على سطحها كتب فى حالة فوضى. معظمها مفتوح فى طبقات مقلوبة واحدة على الأخرى، وأطراف صفحاتها مبقعة من الرطوبة. وقد تناثرت فى أرجاء المكان وثبت على الجدران بدبابيس رسوم تخطيطية عنكبوتية بالقلم والحبر لنباتات وحيوانات، بعضها ملون بغسول رقيق من ظلال ألوان مجففة، وكل منها تحمل قدرا كبيرا من كتابة دقيقة حول حواشيها، كما لو كان الأمر يتطلب قصصا عن تفاصيل كثيرة لشرح الصور الضئيلة. من السقف علقت حزم من الأعشاب المجففة والجذور بخيوط غليظة، وبين الكتب وعلى الأرض رقدت جلود متنوعة بنية اللون لحيوانات صغيرة. وعلى أعلى كومة من الكتب قام جناحا صقر ليلى، وقد فرد ريشه الداكن كما فى حالة الطيران.

ارتفعت خيوط دخان رفيعة من نار خشب التنوب وهى تحترق ببطء من خلال شقوق فى باب الموقد ثم تعلقت فى طبقة على شريحة السقف الخشبية وضلوع الرافدات الخشبية المقوسة.

راح إينمان يراقب المرأة وهى تطهو. كانت تقلى خبزا منبسطا مصنوعا من عجينة جريش ذرة سائلة من الدقيق والبيض فى مقلاة فوق غطاء الموقد. كانت تغمس العجينة فى دهن خنزير يدمس وتطهو قطعة بعد قطعة وعندما تحصل على لفة طويلة فى طبق، كانت تطوى حافة من الخبز حول قطعة من لحم العنز المشوى وتناولها لإينمان. كان الخبز يلمع من الدهن، واللحم بلون بنى يميل للحمرة من النار وفركة التوابل.

قال إينمان: أشكرك.

أكل بسرعة بالغة إلى حد أن المرأة ناولته فحسب طبقا من اللحم والخبز وتركته يطوى بنفسه. وبينما كان هو يأكل، استبدلت هى المقلاة بوعاء وشرعت تصنع جبنا من لبن الماعز. حركت اللبن الذى بدأ يتكاثف، وعندما صار جاهزا فصلته خلال منخل من غصينات صفصاف لولبية الشكل تاركة مصل اللبن ينساب فى وعاء قصديرى. وربتت على اللبن المتخثر الباقى فى رافدة خشبية بلوطية صغيرة. وعندما فرغت من ذلك، ناولته كأسا خزفيا من مصل اللبن الدافئ بلون ماء غسل الأطباق.

قالت: عندما استيقظت هذا الصباح هل كنت تظن أنك سترى جبنا يصنع قبل غروب الشمس.

فكر إينمان فى السؤال. كان قد اتخذ قرارا قبل هذا بكثير أن هناك فائدة ضئيلة فى التفكير كثيرا فيما يأتى به اليوم. كان هذا يفضى بالمرء إلى أخطاء متساوية إما مخيفة أو آملة. ولم ينفع أيهما، حسب خبرته، فى أن يريح عقلك. لكن كان عليه أن يعترف أن الجبن لم يخامره فى فجر ذلك اليوم.

جلست المرأة فى كرسى بجوار الموقد وخلعت حذاءها. فتحت باب الموقد وأشعلت غليونا من خشب الخلنج له شفاط. كانت قدماها الحافيتان وساقاها المفرودتان أمام النار صفراء تعلوها قشور مثل الأجزاء السفلى من دجاجة. خلعت قبعتها ومشطت شعرها بأصابعها، وكان نحيلا للغاية حتى يمكنك ان ترى من خلاله فروة رأس وردية مهما كانت زاوية الرؤية التى تختارها.

قالت: هل عدت حديثا من قتل الرجال فى بيترزبورج؟

– حسنا، هناك جانب آخر لهذا. إذ يبدو أن رجالا كانوا يفعلون ما بوسعهم كى يقتلونى لوقت طويل نوعا ما.

– هل هربت أم ماذا؟

جذب إينمان ياقته واظهر اثر الجرح الساخط على رقبته. قال: مجروح ومسرح بإذن غياب.

- – هل لديك اى أوراق توضح ذلك؟

- – فقدتها.

قالت: أوه، أراهن أنك فعلت.

جذبت أنفاسا من غليونها وأمالت قدميها على عقبيها بحيث ينال باطنا قدميها الملطختين فائدة النار كاملة. اكل إينمان أخر قطعة خبز وبلعها بشربة من مصل لبن الماعز. كان لها نفس المذاق الذى حسبه تقريبا.

قالت: إننى يُعوزنى الجبن ولذلك سأصنع المزيد منه. وإلا لقدمت لك بعضا منه الآن حالا.

قال إينمان: هل تعيشين فحسب فى ذلك الشىء طوال الوقت؟

– ليس لدى مكان سواه. وأود لو أمكننى الانتقال. فلا أريد البقاء فى مكان أطول مما يلائمنى.

– نظر إينمان إلى العربة، إلى صغرها، ومرتبة النوم المحشوة قشا الجامدة الضيقة. فكر فى سيقان اللبلاب المجدولة فى أسلاك الإطارات وقال، منذ متى وأنت تقيمين معسكرك هنا؟

مدت المرأة يديها وكفيها لأعلى وألقت نظرة على اصابعها وظن إينمان أنها على وشك أن تعد السنين بأن تنقر أصابعها بإبهامها، لكنها بدلا من ذلك قلبت كفيها ونظرت إلى ظهريهما. كان الجلد متغضنا، بمجموعتين من الخطوط الدقيقة متعارضتين متوازيتين، خطوط كثيفة مثل ظل غائر فى نقش من الصلب.

ذهبت المرأة إلى الخزانة الضيقة وفتحت الباب، الذى دار على مفصلات جلدية. نبشت بين أرفف من دفاتر اليوميات المغلفة بالجلد حتى توصلت إلى الدفتر الذى تبحث عنه، ثم وقفت وتصفحته بإسهاب.

قالت فى آخر الأمر: إنها تصل إلى خمسة وعشرين إذا كان هذا عام ثلاثة وستين.

قال إينمان: إنه الرابع والستون.

قالت: ستة وعشرين، إذن.

– عشت هنا ستة وعشرين عاما ؟

امعنت المرأة النظر فى الدفتر وقالت: سبعة وعشرين فى أبريل القادم.

وضعت المرأة الدفتر، بعد أن غلقته. على قمة كومة من الكتب موضوعة على الطاولة. قالت: يمكننى أن أرحل فى أى وقت. أربط العنزات، أرفع الإطارات عن الأرض وأسافر. لقد كانت العنزات حولى هى التى تجذبنى إلى هذا المكان حسبما يلائم مزاجي. لقد سافرت حول العالم كله. إلى الشمال حتى ريتشموند. وعلى طول الطريق جنوبا الى تشارلستون، وفى كل مكان بينهما.

– لا أظن أنك تزوجت أبدا ؟

زمت المرأة شفتيها كمن يتشمم لبنا متخثرا. قالت: أجل، كنت، وربما مازلت، رغم اننى أحسب أنه مات منذ زمن طويل. كنت فتاة صغيرة جاهلة وكان عجوزا. وكان قد ماتت له ثلاث زوجات سلفا. لكنه كان يمتلك مزرعة لطيفة، وباعنى أهلى له تقريبا. كان هناك فتى وضعت عليه عينى. بشعر أشقر. مازلت أرى ابتسامته نحو مرة فى السنة فى أحلامى. صحبنى إلى البيت بعد الرقص ذات مرة وكان يقبلنى عند كل منعطف فى الطريق. لكنهم أرقدونى تحت ذلك العجوز بدلا منه. لم يكن يعاملنى أكثر من عامل مزرعة بكثير. وقد دفن الزوجات الثلاث الأخريات بأعلى تل تحت شجرة جميز، وكان يذهب إلى هناك أحيانا وحده ويجلس. لقد رأيت هؤلاء العجائز – خمسة وستون، سبعون – وقد قضوا على خمس زوجات تقريبا. قتلوهن من العمل والأطفال والخسة. استيقظت ذات يوم وأنا راقدة فى السرير بجواره وعرفت أننى لم أكن سوى ذلك: الرابعة فى صف من خمسة شواهد قبور. نهضت فى الحال وامتطيت أفضل جواد لديه خارجة قبل الفجر وقايضت عليه بعد أسبوع بهذه العربة وثمانى عنزات. لم يعد لها الآن جدات تكفى لأن تدل إلى أى مدى تبعد هذه العنزات عن الدفعة الأولى. والعربة تشبه ما يقال عنه إنه فأس عمرها ألف سنة، لم تنل إلا مقدمتين جديدتين ومقبضين جديدين.

قال إينمان: وظللت وحدك منذ ذلك الحين؟

– كل يوم. سرعان ما تعلمت أن المرء يمكنه أن يعيش على العنزات أساسا على لبنها وجبنها ولحمها فى أوقات السنة التى تبدأ فيها فى التزايد إلى أكثر مما أحتاج. اجذب أى عنزة برية صغيرة فى موسم الشبق. شراك طيور. هناك

عالم من الطعام ينمو طواعية إذا عرفت أين تنظر. وهناك بلدة صغيرة على مسافة مسيرة يوم إلى الشمال. أذهب إليها لأقايض الجبن بالخرق البالية، الجريش، دهن الخنزير وما إلى ذلك. دواء، أصباغ، مرهم مسكن، رقى للتآليل.

قال إينمان: طبيبة أعشاب اذن.

– ذلك، وأكسب بعض البنسات من أن إلى آخر من بيع كتيبات دينية.

– كتيبات عن ماذا؟

قالت: هناك كتيبات عن الخطيئة والخلاص. أبيع الكثير من هذه. وهناك واحد عن النظام الغذائي الصحيح. يقول أن المرء يجب أن يتخلى عن اللحم ويأكل خبزا من دقيق جريبام ومحصولات جذرية في الأغلب. وآخر عن بثرات الراس وكيف تقرأ ما تنبئك به عن الشخص.

مدت يدها لتتحسس رأس إينمان بأصابعها، لكنه لوى رأسه جانبا وقال: سيشترى الكتيب الذى يتكلم عن الطعام. وعندما أجوع يمكننى ان أقراه فحسب. جذب من جيبه حزمة من عملات ورقية متنوعة.

قالت: لا أتقاضى سوى نقد معدنى. ثلاثة سنتات.

جلجل إينمان فى جيوبه حتى وجدها.

خطت المرأة إلى خزانة وأنزلت كتيبا أصفر وناولته له.

قالت: انه يقول على غلافه إنه سيغير حياتك إذا تبعته. لكننى لا أزعم شيئا.

تصفح إينمان الكتاب. كان سيئ الطباعة على ورق رمادى خشن. كانت هناك رءوس موضوعات مثل البطاطس: غذاء الآلهه. الكرنب: مقو للروح. دقيق جريبام: السبيل إلى حياة أكثر وفرة.

جذبت العبارة الأخيرة عين إينمان. قالها بصوت عال: السبيل إلى حياة أكثر وفرة.

قالت المرأة: هذا ما يبحث عنه كثيرون. لكننى لست واثقة أن جوالا من الدقيق يمكن أن يقيمك على قدميك.

قال إينمان: أجل. إن الوفرة بدت له، حسب خبرته، شيئا مراوغا. إلا إذا حسبت وفرة العناء.

كانت هناك وفرة من ذلك. لكن وفرة شيء قد يريده المرء فذلك أمر مختلف.

قالت المرأة: إن الندرة هى وجهة الحياة عموما بمراحل، هكذا أراها.

قال إينمان: أجل.

مالت المرأة على الموقد ونفضت ما بقى من نار فى غليونها ووضعته فى فمها ونفخت فيه حتى صفَّر تقريبا. سحبت كيس تبغ من جيب ميدعتها وأعادت ملء الغليون وهى تدك التبغ بإبهام به جسأ. اشعلت قشا من الموقد وأمسكت بها قرب الغليون وجذبت أنفاسا حتى اشتعلت على نحو يرضيها.

قالت: كيف حدث أن أصبت بذلك الجرح الأحمر الكبير وهذين الجرحين الصغيرين؟

– أصبت بجرح الرقبة بجوار حانة جلوب فى الصيف الماضى.

– طعنة سكين فى محل خمور؟

– معركة. أسفل بيترزبورج.

– أطلق الاتحاديون عليك النار، إذن؟

– كانوا يعملون على الاستيلاء على خط سكة حديد ويلدون وكنا نهدف إلى إيقافهم. هاجمنا طوال عصر ذلك اليوم، ونحن نحارب فى أجمات الصنوبر، وحشائش الوزال، والحقول القديمة، كل أنواع الأماكن. ريف منبسط مكسو بأشجار قصيرة ورهيب. كان يوما حارا وتصيبنا عرقا غزيرا إلى حد أننا كان بإمكاننا أن نمد أيدينا وندحرج رغوة من أرجل سراويلنا.

– أظن أنك فكرت عدة مرات أنه لو أن القذيفة أصابتك فى موضع مختلف بعرض إبهام لكنت قد مت؟ فلقد أطاحت برأسك تقريبا.

– أجل.

– يبدو أنه من الممكن أن ينفجر بعد.

– أشعر أنه على وشك أن يفعل هذا تقريبا.

– والجروح الحديثة، كيف أصبت بها؟

قال إينمان: بالطريقة المعتادة. أصبت بعيار نارى.

– اتحاديون؟

– لا. المجموعة الأخرى.

لوحت المرأة بيدها خلال دخان التبغ كما لو كانت لا يمكنها أن تزعجها تفاصيل جروحه المميزّة. قالت: هذه الجروح الجديدة ليست سيئة. عندما تلتئم،

سوف يغطيها الشعر ولن يعلم بها إلا أنت وحبيبتك فقط.. سوف تشعر بجبّار ضئيل عندما تمر بأصابعها خلال شعرك. ما أريد أن اعرفه هو هل كان كل ذلك القتال من أجل عبيد الرجل الكبير يستحق ذلك؟

- لم أر الأمر على هذا النحو.

قالت: وما هو النحو الآخر؟ لقد سافرت قدرا لا بأس به فى المقاطعات الواطئة. إن امتلاك العبيد يجعل الرجل الغنى متكبرا وقبيحا ويجعل الرجل المسكين خسيسا. إنها لعنة نزلت بأرضنا. لقد اشعلنا نارا وهى تحرقنا الآن. إن الله سيحرر العبيد، والحرب للحيلولة دون ذلك ضد الله؟ هل كنت تمتلك أيا منهم؟

- لا. وبالكاد اى انسان كنت اعرفه.

- إذن ما الذى اثار حميتك للقتال والموت؟

- كان بإمكانى أن أخبرك من أربعة سنوات مضت. والآن لا أعرف. لقد نلت كل ما أردته منها، رغم ذلك.

- هذه إجابة ينقصها شىء ما.

- احسب أن العديد منا قاتلوا لكى يدفعوا الغزاة إلى الوراء. كان رجل اعرفه قد ذهب شمالا إلى المدن الكبيرة، وقال إننا كنا نحارب لنمنع كل معلم فى مثل تلك الأماكن. كل ما أعرفه ان اى شخص يظن أن الأتحاديين يريدون الموت ليطلقوا سراح العبيد له رأى رحيم اكثر مما ينبغى فى البشرية.

- مع كل تلك الأسباب الرائعة للقتال، الشىء الذى أريد أن أعرفه هو لماذا هربت؟

- بإذن غياب.

قالت: أجل. ثم مالت إلى الخلف وقالت: كأنها سمعت نكتة تروى: رجل متغيب بإذن بلا أوراق، رغم ذلك إننى أفتقر إلى أى انتماء. ولا أبالى بأكثر من بصقة فى تلك النار أنك هربت.

ولتؤكد نقطتها بصقت كرة سوداء من مادة ما، وهى ترسلها مقوسة بحنكه فى باب الموقد المفتوح. وعادت تنظر إلى إينمان، أنه خطر عليك، هذا كل ما فى الأمر.

نظر فى عينيها وادهشه ان يرى انهما ينبوعان من الرأفة رغم كل كلامها الحاد. لم يكن قد التقى بإنسان واحد لبعض الوقت. أستدرجه فى الكلام مثلما فعلت أمراه العنزات هذه، ولذا فإنه اخبرها مابقلبه العار الذى كان يشعر به الآن حين يفكر فى حماسته فى عام واحد وستين لأن يرحل ويحارب عمال المطاحن المقهورين فى الجيش الاتحادى، رجال من الجهل إلى درجة انهم كانوا بحاجة إلى العديد من الدروس لإقناعهم بحشو خراطيشهم والرصاصة فى المقدمة. كان أولئك هم الأعداء، بلا حصر إلى حد أنه حتى حكوماتهم لم تكن تقيم لهم وزنا. فقط أطلقوهم عليك لسنين بلا توقف، ولم يبد أن هناك عجزا فى اعدادهم. كان بإمكانك أن تحصديهم حتى يوجعك قلبك ويظلون يحتشدون ليسيروا إلى الجنوب.

ثم أخبرها كيف أنه فى هذا الصباح ذاته وجد شجيرة توت أزرق مثمرة بعد أوانها، بلون أزرق مترب على أوجهها المتجهة إلى الشمس، ولا تزال خضراء فى أنصافها الخلفية الظليلة. كيف قطفها وأكلها للإفطار وراح يشاهد سحابة من الحمام الزاجل تحجب الشمس مؤقتا وهى تمر فوق رأسه، فى طريقها إلى اينما تقضى الشتاء فى الجنوب القصى. على الأقل ظل ذلك القدر الوافر بلا تغيير، على حد تفكيره، توت ينضج وطيور تطير. قال إنه لم ير إلا التغيير لأربع سنوات، وظن أن ما كانت تعد به جزءا مما جعل الحرب سعارا فى الأيام الأولى. الجاذبية القوية لوجوه جديده، أماكن جديدة، حيوات جديدة، وقوانين جديدة يمكنك فى ظلها أن تقتلى كل من تريدين ولا تسجنين، بل بالأحرى تقلدين وساما. إن الرجال كانوا يتكلمون عن الحرب كما لو كانوا يقترفونها ليحافظوا على ما لديهم وما يؤمنون به. لكن إينمان يظن الآن أنه الملل من تكرار جولاتهم اليومية هو ما دفعهم إلى أن يمتشقوا أسلحتهم. قوس الشمس الذى لا ينتهى، ودورات المواسم. فالحرب تخرج المرء من دائرة الحياة النظامية وتأتى بموسم خاص بها، لا تعتمد فى كثير على أى شىء آخر. لم يكن محصنا ضد جاذبيتها. ولكن إن آجلا أو عاجلا يتملكك تعب رهيب ويصيبك مجرد الغثيان من رؤية قوم يقتل أحدهم الآخر لأى سبب على الإطلاق، مستخدمين أى أداة تقع فى أيديهم. ولذا فإنه نظر إلى حبات التوت والطيور فى ذلك الصباح وشعر بالابتهاج لمرآها، سعيدا بأنها قد انتظرته حتى يعود الى صوابه، على الرغم من خشيته أنه يشعر بنفسه منافيا بعمق لمثل تلك العناصر من التناغم.

فكرت المرأة فيما قاله، ثم لوحت بساق غليونها إلى رأسه وعنقه. قالت: أمازالت تؤلمك بشدة؟

- لا يبدو أنها تريد أن تكف.

- يبدو ذلك. حمراء مثل رشفة نبيذ لعينة. ولكن هل يمكنني أن أفعل شيئا من أجلك هناك. ذلك في مجال قدرتي.

نهضت واتجهت إلى الخزانة وأخرجت سلة مليئة بزهور خشخاش ذابلة وشرعت تصنع مستحضرا أفيونيا. قطفت رءوس الزهور واحدة واحدة. واخترقت أكياس بذورها بإبرة خياطة ثم أسقطتها في جرة فخارية صغيرة مطلية بمادة كالزجاج وضعتها قرب الموقد حتى تستخلصه عرقا.

قبل أن يمضي وقت طويل سيكون هذا ملائما تقريبا. سوف آخذه وأضيف إليه قدرا ضئيلا من خمر الذرة والسكر. سوف يجعله مستساغا أكثر. اتركه فيتكثف. إنه مفيد لأي نوع من الألم. المفاصل الملتهبة، الصداع، أي ألم. وإذا لم تكن قادرا على النوم، خذ شربة منه فقط وتمدد في السرير وسرعان ما تغيب.

عادت إلى الخزانة وأخرجت جرة صغيرة ذات فوهة ضيقة ومررت بداخلها أصبعا. دهنت عنق إينمان وجروح رأسه بما بدا أشبه بشحم محور عجلة أسود لكن له رائحة الأعشاب والجذور. ارتج حين لمس أصبعها جراحه.

قالت: ذلك ألم فحسب. يزول في نهاية الأمر. وعندما يزول، لا تبقى ذكراه دائمة. لا الجزء الأسوأ منها، على أي حال. يتلاشى. إن عقولنا صيغت بحيث تتمسك بتفاصيل الألم بنفس الطريقة التي تتمسك بها بالهناء. إنه هبه أعطانا الله إياها، أمارة على حرصه علينا.

فكر إينمان أولا في أن يجادل لكنه فكر في أن يلزم الصمت ويدعها تفكر ما تشاء إذا كان ذلك يعطيها راحة، مهما كان منطقي حافلا بالخطأ. ولكن فمه شرع يعمل عندئذ وقال: لا أريد أن أحتار أطول من اللزوم في سبب الألم ولا في الحالة النفسية التي يكون عليها شخص ما لألفق شيئا مثل هذا بادئ ذي بدء.

نظرت المرأة إلى النار في باب الموقد، ثم نظرت إلى سبابتها المشحمه من الدواء. فركت إبهامها فيها ثلاث مرات بسرعة، ثم لوته في ميدعتها لتزيله. صرفت ذهنها عن أصبعها فسقط ليستريح عند عينيها. قالت: عندما تبلغ عمري، فإن مجرد تذكر متع الزمان الماضي مؤلم بما فيه الكفاية.

سدت فوهة الجرة بقولحة ذرة ووضعتها فى جيب معطف إينمان. قالت: خذها معك. تعهد بدهنه دهانا كثيفا حتى يزول الألم، ولكن حافظ على ياقتك بعيدة عنه. فهو لا يزول بالغسيل. ثم مدت يدها فى كيس واسع من جلد العنز وأخرجت حفنة من اقراص استحلاب كبيرة مصنوعة من أعشاب ملفوفة ومغلفة مثل قطاعات من سيجار مفتوح الطرفين. كومتها فى يد إينمان.

– ابلع واحدا من هذه فى اليوم. وأبدأ الآن.

وضعها إينمان فى جيبه، وأحتفظ بقرص. وضعه فى فمه وحاول أن يبلع. بدا كما لو كان ينتفخ. قرصا كبيرا مشبعا بالماء مثل مضغة تبغ. لم يكن ليبلع، وارسل مذاقا مثل مذاق الجوارب القديمة. دمعت عينا إينمان. سد فمه وحاول أن يختطف قدح مصل اللبن وغسل به القرص لينزل.

وفى وقت ما فى المساء تناولا الفاصوليا البيضاء المطهية فى المرق وقطع لحم العنزة الصغيرة. جلسا جنبا إلى جنب تحت تعريشة الأجمة وأصغيا إلى صوت المطر الخافت وهو ينزل فى الغابات. أكل إينمان ثلاثة أوعية ملانة ثم تناول الاثنان أقداحا صغيرة من المستحضر الأفيونى وأذكيا النار وتحدثا. ولدهشته، وجد إينمان نفسه يتحدث عن إيدا. وصف شخصيتها وشخصها بندا بندا وأعرب عن قراره الذى توصل إليه فى المسشفى بأنه يحبها ويود الزواج منها، على الرغم من أنه يدرك أن الزواج ينطوى على إيمان ما بالمستقبل النظرى، تصور لخطين مقترنين ينسابان إلى الأمام خلال الزمن، ويقتربان أكثر فأكثر أحدهما من الأخر حتى يصبحا خطا واحدا. لا ولم يكن هو واثقا على الإطلاق أن إيدا سترحب بعرضه، لا من رجل مقروح فى جسده وعقله كما أصبح. وانتهى إلى القول إنه على الرغم من أن إيدا شائكة بعض الشىء فى سلوكها الوقور، فإنها، تبعا لأسلوب تفكيره جميلة جدا. كانت عيناها تميلان لأسفل ومثبتتين فى رأسها على نحو غير متناسق، وهو ما يضفى عليها دائما تعبيرا حزينا يساعد فى رأيه على إبراز جمالها.

بدت المرأة كما لو كانت ترى أن إينمان نطق بأعظم حماقة سمعتها على الإطلاق. صوبت ساق غليونها إليه وقالت: أنصت. الزواج من امرأة من أجل جمالها ليس أكثر صوابا من أكل طير من أجل صداحه. لكنه خطأ شائع رغم ذلك.

جلسا بعض الوقت دون حديث، يرشفان المستحضر الأفيونى فحسب. كان حلوا وقد غلظ حتى انه لم يكن اكثر سيولة من عصير مركز، ولا أكثر صفاء. كان له مذاق مثل مذاق الكحول المصنوع من الخشب، رغم انه بدون مذاق عسل النحل، ويلتصق بالقدح بإصرار حتى أن إينمان وجد نفسه يلعقه. نزل المطر بشكل اشد وشقت بضع قطرات طريقها خلال قش التعريشة وهش فى النار. كان صوتا موحشا، المطر والنار ولا شىء سواهما. حاول إينمان أن يتصور نفسه يعيش ناسكا بشكل مماثل فى مثل هذا الملاذ العارى الموحش على الجبل البارد. أن يبنى كوخا على شقفة صخرة يغمرها الضباب وأن يظل شهورا لا يرى أى واحد من جنسه. حياة نقية معزولة مثلما بدت له حياة إمرأة العنزات. كانت رؤيا قوية، لكنه رأى نفسه بأسلوب تفكيره يكره كل دقيقة فيها، تسمم الوحشة والحنين أيامه.

قال إينمان، لابد ان الجو يصبح باردا هنا فى الشتاء.

- بارد بما فيه الكفاية. فى الشهور الأشد برودة أحتفظ بالنار ساخنة والبطاطين ثقيلة، وأكثر ما يقلقنى هو الا يتجمد حبرى والوانى المائية وأنا أعمل على المكتب. تأتى أيام باردة للغاية حتى أننى آتى بقدح من الماء بين ساقى لأدفنهما. ومع ذلك فحين أغمس فرشاة مبللة فى اللون. فإن شعرها الخشن يتجمد قبل أن أتمكن من لمس الورقة بطرفها.

قال إينمان: وما الذى تعملينه فى هذه الكراسات؟

قالت المرأة: أدون سجلا، أرسم واكتب.

عن ماذا؟

- كل شىء العنزات. النباتات. أتعقب ما يعمله كل شىء ان هذا يمكنه ان يستغرق كل وقتك مجرد ان تلاحظ ما يحدث.

فوِّت يوما تتخلف وربما لا يمكنك ان تدركه أبدا.

سألها إينمان، كيف تعلمت القراءة والكتابة؟

- بنفس الطريقة التى تعلمت أنت بها، علمنى شخص ما.

- وعشت حياتك على هذا النحو؟

- عشتها حتى هذه اللحظة. لم أمت بعد.

قال، الا تشعرين بالوحشة هنا؟

– من آن لآخر. ولكن هناك الكثير من العمل، والقيام به يحول بينى وبين أن أشغل بالى أكثر من اللازم.

قال إينمان، وماذا لو مرضت هناك وأنت وحدك؟

– لدى أعشابى.

– وإذا مت؟

قالت المرأة، إن العيش مع هذا المدى الهائل من الخصوصية له بعض العيوب. كانت تعلم انها لا يمكنها أن تتوقع العون تحت أية ظروف، ولا كانت تريد كثيرا أن تعيش بعدما تتجاوز النقطة التى يمكنها فيها أن تعول نفسها، رغم أنها تحسب ان ذلك اليوم لا يزال مكتوبا فى تقويم بعيد نوعا ما. وعلمها بأنها من المحتمل ان تموت وحيدة وأن ترقد دون أن تدفن لا يزعجها مثقال ذرة. وعندما تشعر بمجىء الموت، فقد اعتزمت أن تتمدد على قمة جرف صخرى وأن تدع الغربان تنقرها وتحملها بعيدا.

قالت: إما هذا أو الدود. ومن بين الأثنين فإننى أفضل أن تحملنى الغربان بعيدا على أجنحتها السوداء.

بدأ المطر يهطل بشكل أشد، وهو يتساقط بسرعة خلال سقف التعريشة. اعتبرا ذلك نهاية الأمسية، وزحف إينمان تحت العربة والتف فى بطاطينه ونام.

وعندما استيقظ كان قد مر يوم وكان الليل يحل. جلس غراب جاثما على أحد أسلاك إطار وهو ينظر إليه. نهض إينمان ودهن جروحه بالمسَّكنٌ وتناول أدويته العشبيه وجرع جرعة من المستحضر الأفيونى والشراب. أعدت له المرأة مزيدا من الفاصوليا ومرق لحم العنز، وبينما راح هو يأكل جلسا على درجات العربة. حكت المرأة حكاية طويلة هاذبة عن مهمة قامت بها لبيع عنزات بعيدا فى العاصمة ذات مرة. كانت قد باعت ست عنزات لرجل. وكانت تمسك بالنقود فى يدها عندما تذكرت أنها تريد ان تسترد الأجراس لتأخذها معها. رفض الرجل، قائلا إن الصفقة قد انتهت. قالت إن الأجراس لم تكن مطلقا جزءا من الصفقة، لكنه أطلق الكلاب عليها وأضطرها إلى أن تولى هاربة. وفى وقت متأخر من تلك الليلة عادت ومعها سكين وقطعت الأطواق الجلدية واستعادت الأجراس ومرت، على حد تعبيرها، خلال طرقات العاصمة وهى تلعن فحسب.

شعر إينمان بعقله غائما خلال القصة، لأنه كان بوسعه أن يشعر بالأدوية تعمل عملها فيه، لكن عندما فرغت مد يده وربت على ظهر يدها المرقطة المحفورة بالرسوم وقال، بطلة أجراس العنزات.

نام إينمان مرة أخرى وعندما استيقظ كان الظلام قد حل، ولم يعد المطر ينزل، ولكن الجو قارس. كانت العنزات قد تجمعت حوله لتستدفئ ورائحتها حادة إلى درجة تجعل عينيه تدمعان تقريبا. لم يكن لديه أدنى فكرة إذا كان ذلك نفس الظلام الذى غلبه النعاس فيه أو ما إذا كان يوم قد مر بينهما. سقط الضوء من مصباح يضاء بالزيت خيوطا من خلال شقوق فى أرضية العربة، ولذا زحف إينمان إلى الخارج، ووقف على أوراق الشجر المبللة على الارض. كانت هناك شقفة قمر فى جزء من شرق السماء، وقامت كل النجوم فى أماكنها المتوقعة وبدت باردة وهشة. وعند الحافة فوق الخليج، قامت رأس صخرة عارية أسود على خلفية من السماء مثل ديدبان يراقب أى حصار قد تطلقه السماء على الأرض. تملك إينمان دافع قوى للمشى. ذهب وطرق الباب وانتظر أن تدعوه المرأة للدخول، ولكنه لم يتلق ردا. فتح إينمان الباب وخطا إلى الداخل ووجد المكان خاويا. نظر إلى الأوراق المتناثرة على المكتب. التقط دفتر يوميات وفتحه على رسم لعنزات. كان لها عيون وأقدام مثل البشر، ومن الصعب أن يعرب الجمل المدونة تحتها، وإن بدت كما لو كانت توضح التباين بين سلوك عنزات معينة فى الأيام الباردة وبين سلوكها فى الأيام الحارة. تصفح إينمان الدفتر أكثر ووجد صورا لنباتات ثم صورا أكثر لعنزات فى كل وضع يمكن تخيله، كلها مرسومة بلوحة الوان باهتة ومحدودة، كما لو كانت رسمت بصبغة ملابس. قرأ إينمان القصص التى تتمشى مع الصور، وكانت تحكى عما أكلته العنزات وكيف تصرفت إحداها تجاه الأخرى وأى حالات نفسية تملكتها من يوم ليوم. بدا لإينمان أن المرأة تدون قائمة بكل تفصيل عن عادات ثقافتها.

قال إينمان لنفسه، يمكن أن يكون هذا سبيلا للحياة، ناسك بين السحب. والعالم المتصارع ليس إلا ذكرى متلاشية. والعقل متجه فقط إلى انتاجات الله الأكثر روعة. لكنه كلما ازداد تفحصه للدفتر، ازداد تعجبه لكيف يكون الحال للمرأة وهى تحسب الحقب حسابا تنازليا إلى الوراء، وتحسب كم من السنين مرت منذ حادث ما فى شبابها- قصة غرامها بفتى المزرعة الأشقر الذى كانت تريد الزواج به بدلا من الرجل العجوز، ويوم خريفى معين له روعة خاصة،

ورقص فى ذلك المساء بعد الحصاد، وبعد ذلك على الشرفة وقمر عنبرى يرتفع فوق الأشجار، وتقبيلها للفتى بشفتين مفتوحتين بينهما عازفو الكمان بالداخل يعزفون مقطوعة من الموسيقى القديمة ربطت بينها وبين حماسة غير معقولة. وقد أنقضى كثير من السنين بين ذلك الحين والآن إلى درجة أن العدد المجرد يبدو حزينا لدرجة تجل عن الوصف حتى بدون ذكرى ما تصاحبه.

اجال إينمان الطرف ووجد أنه لم يكن هناك قيد أنملة من مرآة فى العربة، ولذا فإنه افترض أن المرأة تتعامل مع زينتها باللمس. هل كانت تعرف حتى وجهها الحالى. شعر طويل شاحب وناعم مثل خيوط العنكبوت، جلد مرتخ مغضن ومطوى حول عينيها وفكيها، مقلم عبر جبينها، شعيرات خشنة تنمو من اذنيها، ووجنتاها فقط متوردتان، وإنسانا عينيها لا يزالان لامعين وأزرقين. ولو امسكت لها مرآة هل كانت لتتقلقل إلى الوراء دهشة وفزعا من أثر من اثار الماضى ينظر إليها، وعقلها لا يزال متمسكا بصورة نفسها متجسدة من بعض حقب ماضية؟ إن المرء يمكن أن يصل إلى مثل هذه الحالة العقلية، وهو يعيش بعيدا إلى هذا الحد.

انتظر إينمان طويلا حتى تعود امرأة العنزات. طلع الفجر. واطفأ المصباح وكسَّر عصيا ليضعها فى الموقد الصغير. كان يريد أن يواصل الطريق، لكنه لم يشأ أن يرحل دون أن يشكرها. لم تعد حتى تقدم الصباح. عبرت الباب وهى تحمل زوجا من الأرانب يتدليان بتراخ من قبضتها على أرجلهما الخلفية.

قال إينمان: علىّ أن أرحل. أردت فقط أن أرى إذا كان بإمكانى أن أدفع لك لقاء الطعام والدواء.

قالت المرأة: يمكنك أن تحاول. لكننى ما كنت لآخذها.

قال إينمان: حسنا، أشكرك.

قالت المرأة: اسمع. لو كان لدى ابن، لقلت له نفس ما أقوله لك الآن. انتبه لنفسك.

قال إينمان: سوف أفعل ذلك.

استدار ليخرج من العربة، لكنها أوقفته. قالت، هاك، خذ هذا معك، وناولته ورقة مربعة رسم عليها بالتفصيل عنقود ثمرة عنبية كروى أزرق، أرجوانى لنبات زهرة الزاغ فى الخريف.

همجيون بالاختيار

عندما بدات تباشير الصباح، كانت روبى قد نهضت من فراشها وبدأت نشاطها اليومى، فى سبيلها إلى البيت لتشعل الموقد وتضع عليه وعاء من الجريش وتقلى بضع بيضات. كان هناك ما يكاد يكفى من الضوء حتى ترى، وكان الهواء محملا بضباب كثيف تجمع لساعة أو ساعتين على طول أسفل الخليج الأسود فى معظم أوقات الصباح فى كل المواسم ما عدا الشتاء. لكنها عندما اقتربت من البيت أمكنها أن تتبين رجلا يرتدى حلة سوداء يقف بجوار كوخ الذرة. اتجهت مباشرة إلى شرفة البيت ودخلت والتقطت البندقية من حيث كانت ترقد محشذة فى موضع التقاء فرعين متشعبين مسمرين فوق إطار الباب. جذبت كلا من مستقدمى الزناد ومشت بنشاط صوب الكوخ.

كان الرجل يرتدى قبعة رمادية عريضة الحواف تغطى جبينه ورأسه مائل إلى أسفل. كان مستندا بكتفه إلى جدار الكوخ، وإحدى ساقيه معقودة على الأخرى ومرتكزة على أصابع القدمين. فى وضع عرضى مثل مسافر مستند إلى شجرة على جانب الطريق فى انتظار مركبة سفر تمر، يقطع بضع ساعات متسليا غارقا فى أفكاره.

أمكن روبى أن ترى، حتى فى الضوء الشاحب، أن الرجل يرتدى ملابس من أرفع انواع القماش والتفصيل. وكان حذاؤه العالى الساق، رغم أنه مخدوش

نوعا ما، فإنه يلائم مالكا اقطاعيا أكثر مما يلائم لصا. شيء واحد يقف دليلا ضد الرجل وهو يبدو مسترخيا كلية فى وضعه الحالى. كانت ذراعه اليمنى بداخل الفتحة الموجودة بفجوة كوخ الذرة.

مشت إليه مباشرة، وقد أمسكت البندقية بزاوية منخفضة لكنها مصوبة رغم ذلك إلى ركبتيه تقريبا. كانت على استعداد لأن تسقطه تماما لسرقة الذرة، لكنها عندما دنت من الرجل، مال برأسه إلى الخلف ليرفع حافة القبعة بعيدا عن مستوى رؤيته. نظر إلى روبى وابتسم ابتسامة عريضة وقال: يالنيران الجحيم.

قالت روبى: اذن فأنت لم تمت؟

قال ستوبرود، ليس بعد. أطلقوا سراح أبيك.

أسندت روبى البندقية إلى جانب الكوخ وفتحت الباب ودخلت. رفعت المصيدة من على تراب الأرضية ورفعت فكيها من حول يد ستوبرود وعادت إلى الخارج. وعلى الرغم من تبطين الفكين، إلا أن ستوبرود وقف، بعد أن سحب ذراعه من الفتحة الموجودة فى فجوة الكوخ، يقطر دما من قطع برسغه حيث كان الجلد نحيلا فوق العظام. وساعده تحيط به من كل جانب كدمات زرقاء. دلك ذراعه بيده السليمة. أخرج منديلا من الكتان الرقيق وخلع قبعته ومسح جبهته وعنقه.

قال، ليلة طويلة قضيتها واقفا واقعا فى الشرك.

قالت روبى، بلا شك. تفحصته بعينها. كان قد تغير قليلا. بدا رجلا عجوزا للغاية، وهو يقف أمامها. قد تساقط نصف شعره عن رأسه، ودب الشيب فى شاربه. لم يكن قد امتلأ بأى شكل، رغم ذلك. كان لا يزال رجلا ضئيلا مثل غصن صفصاف مرن ومتين. كان بحاشية اللحاف لحم أكثر مما عليه.

قالت، كم عمرك الآن؟

وقف يحرك فمه قليلا وحاول أن يحسب الأرقام فى ذهنه.

قال فى آخر الأمر، خمسة وأربعون ربما.

قالت روبى، خمسة وأربعون؟

– نحو هذا

– لا يبدو عليك هذا.

- أشكرك.

- كنت أعنى الجانب الآخر.

- أوه.

قالت روبى: لو كنت شخصا آخر، لسألت لماذا كنت تغرق ذرتنا وأنت لا يبدو عليك أنك بحاجة إلى مال، لكننى أعرفك معرفة أفضل من ذلك. أنك تطوف بأرجاء المكان لتحصل على قليل من هنا وقليل من هناك لتدوير كمية من الشراب. وأنك خلعت هذه الحلة عن شخص ما أو كسبتها فى لعب الورق.

- شىء من هذا القبيل.

- لقد هربت من القتال، بلا شك.

- كانوا مدينين لى بإذن غياب، لكونى بطلا.

- أنت؟

قال ستوبرود، فى كل معركة خضتها، كنت أقود الهجوم.

قالت روبى، سمعت أن الضباط يروق لهم أن يسوقوا روث الأقدام إلى الأمام. ويتخلصوا منهم بطريقة أسرع على هذا المنوال.

ثم، وقبل أن يستطيع ستوبرود أن يجيب قالت: تعال معى. التقطت البندقية وذهبت إلى البيت. أمرته أن يجلس على درج الشرفة وأن ينتظر. وبالداخل، اشعلت النار، ووضعت عليها إناء لتصنع قهوة. مزجت عجينة البسكويت وقعقعت فى المكان لتؤلف إفطارا. بسكويتا وجريشا وبيضا. وبضع شرائح من لحم الخاصرة المقلى.

نزلت إيدا وجلست فى مقعدها بجوار النافذة وشربت القهوة، كالحة الوجه كعادتها فى الصباح الباكر.

قالت روبى، أخيرا أمسكنا بشىء فى تلك المصيدة.

- حان الوقت. ماذا كان؟

قالت روبى، أبى. إنه بالخارج فى الشرفة. كانت تحرك مقلاة من المرق الأبيض صنع من دهن لحم الخاصرة.

- عفوا؟

- ستوبرود. لقد عاد إلى البيت من الحرب. ولكن سواء كان حيا أو ميتا، فهو لا يعنينى فى قليل أو كثير. سوف نعطيه طبق إفطار ثم نرسله فى طريقه.

نهضت إيدا وألقت نظرة من الباب على ظهر ستوبرود الهزيل حيث جلس محدوبا على الدرجة السفلى. كان يمسك بيده أمامه، ويدندن لنفسه، وأصابعه تعمل، تنقر كلوة يده مثل رجل يحسب حسابا سريعا فى ذهنه.

قالت إيدا عندما عادت إلى كرسيها: ربما كنت دعوته للدخول.

- يمكنه أن ينتظر بالخارج هناك.

عندما طهى طعام الإفطار، حملت روبى طبقه إلى المائدة تحت شجرة الكمثرى. تناولت هى وإيدا إفطارهما فى غرفة المائدة، وأمكنهما أن تريا من النافذة أن ستوبرود كان يأكل بسرعة وبعجلة، وحافة قبعته تتذبذب متلازمة مع مضغه. لم يصل به الحال فقط إلى أن يلتقط طبقه ويلعق منه آخر قشطة دهن.

قالت إيدا: كان يمكنه أن يأكل هنا.

قالت روبى، هنا أضع حدا.

خرجت لتستعيد طبقه.

قالت روبى لستوبرود، هل لديك مكان تذهب إليه؟

أخبرها ستوبرود أن لديه حقا بيتا ومجتمعا بأصناف شتى من البشر، فقد صادف مجموعة من المشردين مسلحين بأسلحة ثقيلة. كانوا يعيشون فى كهف عميق من كهوف الجبل مثل همج بالاختيار. وكل ما يتمنون أن يفعلوه هو أن يصيدوا ويأكلوا ويستلقوا مخمورين طوال الليل، يعزفون الموسيقى.

قالت روبى، حسنا، أظن أن هذا يلائمك. لقد كان هدفك فى الحياة دائما أن ترقص طول الليل بزجاجة فى يدك. والآن لقد أطعمتك. يمكنك أن ترحل عن هنا. ليس لدينا شىء آخر لك. وإذا حاولت أن تغترف ذرتنا مرة أخرى، فربما أطلقت عليك ماسورة من الرصاص، وأنا لا أحشوها ملحا.

طوحت بيدها صوبه كما لو كانت تبعد الماشية، ومشى مشية متسكعة، ويداه فى جيوبه، سالكا سبيلا صوب الجبل البارد.

كان اليوم التالى دافئا ومشرقا وجافا. لم يكن هناك سوى مطر صباحى خفيف خلال ذلك الشهر حتى الآن، وأوراق الأشجار التى سقطت والأوراق التى مازالت على الأشجار بعد قصيمة مثل جلد الخنزير المحمر. كانت تطقطق عاليا فى النسيم وتحت الأقدام وإيدا وروبى تسيران إلى مخزن الغلال لتريا كم كان التبغ قد جف. كانت الأوراق العريضة قد ربطت معا عند أطراف سيقانها وعلقت فى صفوف مقلوبة رأسا على عقب من أعمدة مشدودة احدها إلى الآخر بدوبار تحت ستر أطراف مخزن الغلال المرفوعة على كوابيل.. كان يحيط بأشكالها المعلقة كأنها أبواق شىء إنسانى وأنثوى ونذير بسوء، والأوراق المحزومة تنتشر بشكل مروحى مثل تنورات قطنية مصفرة اللون. مشت روبى بينها، تلمس الأوراق، وتفركها بين أصابعها. أبدت رأيها أن كل شىء على ما يرام، بفضل الجو الدافئ المؤاتى والحرص الذى زرع به التبغ وحصد تبعا للأمارات. وسوف يمكنهما عاجلا أن تنقعاه فى ماء العسل الأسود وتلفاه فى أقراص مضغوطة وتستخدمانه فى التجارة.

اقترحت روبى عندئذ أن تستريحا فى علِّية التبن، وهو مكان طيب للقعود، كما قالت. صعدت على السلم الخشبى وجلست ورجلاها مبسوطتان فى باب التبن الواسع ودلت قدميها فى الفراغ المكشوف تحتها بطريقة لا يمكن أن تأتى بها امرأة ناضجة تعرفها إيدا.

ترددت إيدا فى أول الأمر فى الانضمام إليها، جلست فى التبن ورجلاها تحتها وتنورتها رصينة. نظرت إليها روبى بشىء من التسلية، كما لو كانت تقول، إننى أستطيع أن أفعل هذا لأننى لم أكن أبدا لائقة سلوكيا، وأنت تستطعين أن تفعليها لأنك تخليت عن أن تكونى هكذا أخيرا. ذهبت إيدا وجلست عند باب التبن هى الأخرى. تلكأتا ومضغتا قطعا من التبن وأرجحتا رجليهما مثل صبيتين. كان الباب الكبير يؤطر المنظر أعلى التل إلى البيت وما وراءه، عبر الحقول العليا، إلى الجبل البارد، الذى لاح قريبا حاد الحواف فى الهواء الجاف، ومسركشا بألوان الخريف. وبدا البيت أبيض متطاولا بلا لوثة من بقع. ومن أنبوب المطبخ الأسود ارتفعت ريشة من دخان أزرق عمودية إلى أعلى. ثم اكتسحت الخليج نسمة ودومته بعيدا.

قالت روبى: تقولين إن عليك أن تتعلمى كيف تديرين هذه الأرض.

قالت إيدا: أجل.

نهضت روبى وركعت خلف إيدا وقوست يديها فوق عينى إيدا.

قالت روبى: أنصتى. كانت يداها دافئة وخشنة فوق وجه إيدا. وكانت لها رائحة التبن وأوراق التبغ والدقيق، وشىء أكثر عمقا، رائحة حيوانية نظيفة. شعرت إيدا بعظامها النحيلة على عينيها وهما ترفرفان.

قالت روبى: ماذا تسمعين؟

سمعت إيدا صوت الريح فى الأشجار، وحفيف أوراقها الجافة التى تأخر سقوطها. أعربت عن هذا.

قالت روبى بازدراء، أشجار، كما لو كانت تتوقع مجرد مثل هذه الإجابة الحمقاء. مجرد أشجار بشكل عام هل هذا كل شىء؟ مازال أمامك الكثير.

أبعدت يديها وعادت إلى مقعدها ولم تقل شيئا أكثر من ذلك فى الموضوع، تاركة إيدا تستنتج أن ما كانت تعنيه هو أن هذا عالم معين. فلن تبدأ إيدا حتى فى معرفة المكان حتى يمكنها أن تنصت وأن تتعرف عند الحد الأدنى على صوت شجرة الحور من صوت شجرة البلوط فى هذا الوقت من السنة حين يكون ذلك أسهل ما يمكن فعله.

وفى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، وعلى الرغم من الدفء، سقط الضوء هشا وأزرق وأعلن بكل وضوح فى درجة ميله أن العام يدور باتجاه نهايته. كان هذا بالتأكيد يوما من آخر الأيام الدافئة الجافة، وتكريما له قررت إيدا وروبى أن تتناولا العشاء فى الهواء الطلق على المائدة تحت شجرة الكمثرى. قامتا بشىّ شريحة من لحم متن ظبى كان ايسكو قد جلبه لهما. قليتا ملء مقلاة من البطاطس والبصل، ورذذتا دهن لحم خنزير مدخن فوق بعض الخس المتأخر بالنسبة للموسم لتذبلاه. كانتا قد كنستا الأوراق البنية اللون من على المائدة وتعدان مكانين لهما عندما ظهر ستوبرود من الغابات. كان يحمل جوالا كتانيا، وجاء واتخذ مقعدا عند المائدة كما لو كان يحمل بطاقة دعوة فى جيب معطفه.

قالت روبى لإيدا: انطقى بالكلمة، وسوف أطرده مرة أخرى.

قالت إيدا: لدينا الكثير.

وأثناء تناول الوجبة رفضت روبى الكلام، وشغل ستوبرود إيدا بحديث عن الحرب. كان يود لو أنها انتهت حتى يمكنه أن يهبط من الجبل لكنه يخشى أنها ستطول وأن أوقاتا عصيبة ستنقض على الجميع. سمعت إيدا نفسها توافقه الرأى. لكنها حين تطلعت حولها فى خليجها فى الضوء الأزرق الساقط، بدت الأوقات العصيبة بعيدة.

عندما فرغوا من العشاء، رفع ستوبرود جواله من على الأرض وسحب منه كمانا وضعه عَرْضاً على ركبتيه. كان طرازا جديدا. فحيث تكون المدرجة عادة كان هناك رأس مَبْرية لثعبان كبير ملتفتة إلى الوراء على العنق. بكل تفاصيلها حتى القشور وإنسانَىْ عينيه المشقوقين. ومن الواضح أن ستوبرود فخور كل الفخر بها، وكان له الحق فى ذلك، فعلى الرغم من أن الكمان كان أبعد ما يكون عن الكمال. فإنه صاغه بنفسه خلال الشهور التى عاشها هاربا. كانت آلته السابقة قد سرقت منه أثناء رحلة العودة إلى الوطن، ولافتقاره إلى نموذج شكّل الآلة الجديدة من تذكره لنسب الكمان، ولذا فإنها بدت صناعة يدوية نادرة من فترة بدائية ما من صنع الآلات.

قلبها ظهرا لبطن حتى يمكنهما أن يعجبا بوجهيها وأخبرهما بقصة إبداعها. فقد كان قد قضى أسابيع شريدا فى الحواف يقطع أشجار البيسية والراتينج وخشب البقس، وعندما يعالجها فإنه يجلس ساعات كاملة يقطِّع بالسكين أجزاء الكمان. وقد قطّع أشكالا وأكواما من ابتكاره هو. وقد قام بسلق خشب الأجزاء الجانبية الناعمة وشكّلها حتى إذا جفت وبردت فإنها تتخذ أشكالا ذات منحنيات ملساء لا يمكن أن تتعوج. وقد نَحَت الذيل العاجى الذى تشد إليه الأوتار ومشط الكمان وملعب الأصابع يدويا. وسلق حوافر غزلان ليحصل على الغراء. وثقب ثقوبا لمفاتيح ضبط الأوتار، وجمعها جميعا معا. وتركها تجف. ثم ثبت دعامة الصوت بمساعدة سلك، وصبغ ملعب الأصابع بلون داكن من عصير عنب الذئب، وجلس ساعات ينحت رأس الحية ملتفة على الجسم. وأخيرا، سرق علبة ورنيش صغيرة من مخزن أدوات رجل فى ظلام الليل وأضاف اللمسات النهائية إليها. ثم شد أوتارها ودوزن الأوتار. بل خرج فى إحدى الليالى وشذب ذيل حصان ليستخدمه فى صنع القوس.

ثم نظر إلى عمله وفكر، لقد حصلت تقريبا على موسيقاى، إذن بقيت مهمة واحدة، قتل ثعبان. فقد فكر لبعض الوقت أن وضع الذيل العاجى لثعبان مجلجل بداخل الآلة سوف يؤدى إلى تحسين هائل فى الصوت، سوف يعطيه ازيزا وصوت ناقوس ليس له مثيل. وكلما زاد عدد الثعابين ذات الأجراس كان ذلك افضل، كان ذلك رأيه فى المسألة. وصنعها على غرار وصف البحث عن ضالة منشودة.

وسوف يتأتى التحسين الموسيقى الذى كان ينشده على الأرجح من الضبط والربط الصوفى فى الحصول على الثعابين مثلما يتأتى من وظيفتها الفعلية داخل الكمان.

ولتحقيق هذا الهدف، راح يجوب الجبل البارد. كان يعرف أن الثعابين فى أيام الخريف الرطيبة الأولى تتحرك توقعا للشتاء، تبحث عن جحور. قتل عددا من الثعابين ذات الأجراس متوسطة الحجم، ولكن ما إن كان يقتلها، كانت ذيولها تبدو غير كافية لدرجة تدعو إلى الرثاء. وأخيرا، بعد أن تسلق الجبل عاليا، إلى حيث تنمو نباتات البلسم السوداء، صادف ثعبانا مجلجلا هائل الحجم مما يعيش فى الألواح الخشبية القديمة، راقدا على حجر اردواز مسطح يتشمس. لم يكن هائل الطول، لأنها لا تصل إلى أطوال كبيرة، لكنه كان أكثر امتلاء فى جسمه من الجزء السمين فى ذراع رجل. كانت العلامات على ظهره تتمشى معا حتى أصبح أسود مثل الحية السوداء تقريبا. وقد نما بها مجموعة من الأجراس بطول سبابة ستوبرود. وفى حكايته لهذا لإيدا مد أصبعه وبظفر الأصبع الآخر حدد مكانا عند المفصل الثالث. قال، كانت بهذا الطول. وحز الظفر تكرارا على الجلد الجاف.

سار ستوبرود إلى قرب الحجر وقال للثعبان، هيى، إننى أنوى أن آخذ هذه الأجراس. كان للثعبان رأس فى حجم قبضة يد، رفعها عن الحجر وقيَّم ستوبرود بعينيه الصفراوين المشقوقتين. وتزحزح إلى لفة جزئية. معلنا أنه يفضل القتال على الحركة. أرعش الثعبان ذيله لحظة، استعدادا للمباراة. ثم راح يجلجل بصرخة حادة رهيبة تشل تفكير المرء فى كل وحداته.

تراجع ستوبرود خطوة إلى الوراء كما تقصد الطبيعة منه أن يفعل. لكنه كان يريد تلك الثعابين المجلجلة. سحب مطواته وقطع عصى مشعبة طولها نحو أربع

أقدام وعاد إلى الثعبان، الذى لم يكن قد تحرك وبدا كما لو كان يستعذب مشهد المنافسة. وقف ستوبرود على بعد ذراع خارج ما قرر أنه مدى انقضاض رأس الثعبان. أتلع الثعبان عنقه بغطرسة، ورفع رأسه أبعد عن الأرض. حثه ستوبرود على اللدغ.

قال: هووه! وهو يهز العصا فى وجهه.

راح الثعبان يجلجل، رابط الجأش.

قال ستوبرود: واه! وهو ينخسه بالعصا المشعبة. تقلصت الجلجلة شيئا ما فى حجمها وطبقة صوتها عندما زحزح الثعبان لفاته. ثم لزم الصمت، كما لو كان ذلك بدافع الملل.

كان من الواضح أن الثعبان يتطلب عرضا أكثر جوهرية. تقدم ستوبرود إلى الأمام بحرص، ثم ربض. وضع المطواة بين أسنانه وأمسك بالغصين المشقوق فى يده اليمنى معلقه تعليقا دقيقا. لوح بيده اليسرى بسرعة، على مسافة داخل مدى انقضاض الثعبان. اندفع الثعبان اندفاعة مفاجئة، موازيا للأرض. وفكاه مفتوحا المفاصل، ونابا إلى أسفل. بدا فمه الوردى كبيرا مثل كف يد مفتوحة. وأخفق.

طعنه ستوبرود بالغصين وحبس الرأس على الصخرة. تحرك بسرعة ووضع قدمه على ظهر رأس الثعبان. أمسك بالذيل الذى يسيط به. سحب مطواته من فمه. قطع الأجراس المجلجلة تماما، عند الأزرار بالضبط. ووثب إلى الخلف بالطريقة التى تثب بها قطة عندما تفزع. تلوى الثعبان، واستجمع نفسه مرة أخرى فى وضع انقضاض. حاول أن يجلجل، رغم أنه لم يكن لديه الآن سوى طرف غليظ يدمى.

قال ستوبرود، واصل حياتك إذا كنت حريصا على ذلك، ومضى وهو يهز الأجراس. واعتقد منذ ذلك الحين فصاعدا أن كل نغمة يخرجها من القوس سيكون لها صوت جديد. وبه فى مكان ما تحته ندب انذار ثعبان أليم.

بعد أن فرغ من قص حكاية إبداع الكمان على إيدا وروبى، جلس ستوبرود ونظر إليه كما لو كان شيئا يدعو إلى العجب. رفع الكمان أمامهما مثل تحفة معروضة، كجزء من إثبات مقصود به أن يوضح أنه كان الآن رجلا آخر فى

بعض النواحى يختلف عن الرجل الذى رحل للقتال. شيء ما فى الحرب صنع منه ومن موسيقاه شيئا مختلفا تماما.

ظلت روبى متشككة. قالت: إنك لم تظهر قبل الحرب مطلقا اهتماما بعزف الكمان أكثر مما يتطلبه الحصول على شراب مجانى لقاء العزف فى حفل راقص.

قال ستوبرود دفاعا عن نفسه: البعض يقولون إننى أعزف الكمان الآن مثل رجل محموم.

قال: إن التعديل الذى طرأ عليه جاء بشكل غير متوقع. حدث ذلك قرب ريتشموند فى شهر فبراير ١٨٦٢. كان الجيش الذى التحق به قد أقام مآوى شتوية للجنود. وذات يوم جاء رجل إلى المعسكر يسأل عن عازف كمان وأرسلوه إلى ستوبرود. قال الرجل إن ابنته، بنت فى الخامسة عشرة. كانت قد صبت مثلما تفعل فى أغلب الأحيان كيروسينا على الحطب الجديد وهى تشعل نار الصباح. ومع ذلك. فإنها فى هذا الصباح صبت على جمرات مشتعلة اندلعت فى وجهها لحظة بعد أن أعادت غطاء الموقد إلى مكانه. اندفعت دائرة حديد الزهر بقوة هائلة إلى رأسها، وفَحَّم لهب النار الذى خرج من الفتحة لحمها قريبا من العظام. وكانت تموت. كان ذلك مؤكدا. لكنها استعادت وعيها بعد ساعة أو اثنتين، وعندما سألوها عما يمكنه أن يخفف عنها موتها، قالت إن موسيقى الكمان تناسبها تماما.

التقط ستوبرود آلته وتبع الرجل إلى بيته، وهو على مسيرة ساعة. وفى غرفة النوم، وجد الأسرة جالسة حول محيط الغرفة. كانت الفتاة المحترقة مسندة إلى وسادات. شعرها مرقع، وبدا وجهها مثل راكون مسلوخ. كان غطاء الوسادة مبتلا حول رأسها حيث نضج جلدها الفج. وكان هناك شجة عميقة فوق أذنها حيث أصابها غطاء الموقد. كان الجرح قد توقف عن النزيف لكنه لم يتحول حتى إلى اللون البنى. قاست ستوبرود بنظراتها وكان بياض عينيها مفزعا على جلدها الفج. قالت: أعزف لى شيئا.

جلس ستوبرود فى كرسى قائم الظهر إلى جوار السرير وشرع يدوزن. عبث بالمفاتيح وقتا طويلا حتى أن الفتاة قالت: يحسن بك أن تشرع إذا كنت تنوى أن تعزف لى حتى أموت.

قـام سـتـوبرود بـعـزف « حـبـات بسلة فـى الوعـاء »، ثم « سـالـى آن »، وهكذا مـرورا بكل ذخـيـرته من الألـحـان السـتـة. كـانت كلهـا الحـانا راقـصـة، وحـتى ستوبرود ذاته كان يعلم انها غير ملائمة للمناسبة، ولذا بذل ما فى وسعه حتى يبطئها، لكنها رفضت أن تكون كئيبة، مهما جاءت سرعة الإيقاع ثقيلة الحركة. وعندما فرغ لم تكن الفتاة قد ماتت بعد.

قالت: اعزف لى لحنا آخر.

قال ستوبرود: لا أعرف أكثر من هذا.

قالت الفتاة: ذلك يدعو للرثاء. أى نوع من عازفى الكمان أنت.

قال: سكير وردئ الصنع.

جلب ذلك ابتسامة لوجه الفتاة، لكن تألمها منه ظهر فى عينيها والتوى ركنا فمها إلى أسفل.

قالت: صغ لى لحنا إذن.

تعجب سـتـوبرود من مثل هذا الطلب الغريب. لم يدر بخلده أبدا أن يحـاول التأليف.

قال: لا أعتقد أننى قادر على ذلك.

– ولم لا؟ ألم تعالج هذا من قبل أبدا؟

– لا.

قالت: يحسن بك أن تبدأ. فالوقت قصير.

جلس يفكر لحظة. نقر الأوتار وأعاد دوزنتها. وضع الكمان تحت ذقنه ومر عليه بالقوس ودهش هو نفسه للأصوات التى أصدرها. كان اللحن الذى نسجه بطيئا ومترددا، أصاب حالته المزاجية من خلال دندنته وتوقفاته المزدوجة. لم يكن بإمكانه أن يطلق عليه اسما، لكن اللحن جاء على النسق الفريجى الآسيوى الرهيب المخيف، وعندما سمعته أم الفتاة انفجرت فى البكاء وجرت من كرسيها إلى الخارج فى قاعة الطعام.

وعندما فرغ ستوبرود من العزف نظرت الفتاة إليه وقالت: والآن لقد كان ذلك رائعا.

قال بتواضع: لا لم يكن.

قالت الفتاة: كان. وأدارت عنه وجهها وأصبح تنفسها أزيزيا ومبللا.

جاء والد الفتاة إلى ستوبرود وأمسك به من مرفقه وقاده إلى أسفل إلى المطبخ. أجلسه إلى المائدة وصب له قدحا من اللبن وعاد يصعد الدرج. وما إن فرغ القدح، حتى كان الرجل قد عاد.

قال: لقد رحلت. أخرج دولارا اتحاديا من جيبه وضغطه فى يد ستوبرود. قال، لقد سهلت رحيلها فوق.

وضع ستوبرود الدولار فى جيب قميصه وغادر البيت. وأثناء سيره عائدا إلى المعسكر كان يتوقف مرة بعد أخرى وينظر إلى الكمان كما لو كان ينظر اليه للمرة الأولى. لم يكن قد فكر البتة من قبل فى أن يحاول تحسين عزفه، لكن الأمر بدا الآن جديرا بالاهتمام. أن يجرب كل لحن كما لو كان كل شىء على مدى السمع قد اشتعل أخيرا.

كانت الموسيقى التى اختلقها للفتاة شيئا ظل يعزفه كل يوم منذ ذلك الحين. لم يمله أبدا، بل اعتقد فى حقيقة الأمر أن اللحن لا ينضب إلى حد أن بإمكانه أن يعزفه كل يوم مدى حياته، وهو يتعلم شيئا جديدا كل مرة. وقد ضغطت أصابعه على الأوتار وسحبت ذراعه القوس بشكل اللحن عدة مرات حتى الآن إلى درجة أنه لم يعد يفكر فى طريقة العزف. كانت الأنغام تحدث فقط دون مجهود. وقد أصبح اللحن شيئا فى حد ذاته، عادة تساعد على إضفاء نظام ومعنى على نهاية اليوم، مثلما يمكن للبعض أن يصلوا وللبعض الآخر أن يتحقق من المزلاج الموضوع على الباب ويتناول آخرون شرابا عندما يحل الليل.

ومنذ يوم الحريق ذلك فصاعدا، كانت الموسيقى تأتى أكثر وأكثر فى ذهنه. لم تعد الحرب تشغله. أصبحت مواظبته على الحضور عرضية. ولم يفتقد كثيرا. أصبح يفضل قضاء ما يمكنه أن يدبره من الوقت فى مناطق حانات ريتشموند المعتمة، أماكن عفنة تفوح برائحة أجساد لم تغتسل، والشراب المراق، والعطر الرخيص، وأوعية حجرات نوم لم تُفَرّغ. وفى الحقيقة، أنه قد قضى خلال الحرب كل ما يمكنه أن يدبره من وقت فى مثل هذه الأماكن، لكن الفرق الآن أن اهتمامه الرئيسى انصب على الموسيقيين الزنوج الذى يعزفون فى أغلب الأحيان

للزبائن. وكم من ليلة تجول ستوبرود فيها من مكان إلى مكان حتى وجد شخصا يعمل على آلة وترية بثقة، عبقرى ما يعزف الجيتار والبانجو. عندئذ كان يخرج كمانه ويعزف حتى الفجر، وفى كل مرة يفعل فيها ذلك، يتعلم شيئا جديدا.

فى أول الأمر صرف انتباهه إلى امور الدوزنة ولعب الأصابع وتشكيل الجمل. ثم بدأ يصغى إلى كلمات الأغانى التى يغنيها الزنوج، وهو معجب بالكيفية التى يترنمون بها بكل رغبة وخوف فى حياتهم بكل وضوح وكبرياء ممكن. وسرعان ما تملكه شعور متنام بأنه يتعلم اشياء عن نفسه لم يفرزها فى تفكيره من قبل. وكان أحد الأشياء التى اكتشفها بقدر هائل من الدهشة هو أن الموسيقى تعنى له أكثر من مجرد المتعة. كان بها مغزى عميق. ضم الأصوات فى مجموعات، أشكالها وهى ترن فى الهواء وتتلاشى، تقول له شيئا مريحا عن قاعدة الإبداع: ما كانت الموسيقى تقوله هو أن هناك سبيلا للأشياء لتنتظم حتى لا تكون الحياة دائما مجرد تشابك وجنوح لكن أن يصبح لها شكل، هدف. كانت حجة قوية ضد فكرة أن الأشياء تحدث فحسب. وكان يعرف الآن تسعمائة لحن كمان، بضع مئات منها من تأليفه.

أعربت روبى عن شكها فى الرقم، مشيرة إلى أن أصابع يديه كانت دائما فى خدمة حاجته إلى أن يعد إلى ما بعد عشرة فى كل أمور الحياة الأخرى.

قالت: لم يكن لديه ما يكفى من أى شىء حتى يعُد إلى ما بعد عشرة.

قال ستوبرود: تسعمائة لحن.

قالت روبى: إذن، فاعزف واحدا.

جلس ستوبرود وفكر دقيقة، ثم مرر إبهامه على الأوتار ولوى دعامة وجربها مرة ثانية ثم لوى دعامات أخرى حتى أنجز دوزنة غريبة مع الوتر الخامس بعد أن مر عليه بإصبعه فى ثلاثة مواضع على ذراع الكمان حتى ينسجم مع النغمة الثالثة للوتر الأول.

قال: لم أتوقف مطلقا لأطلق اسما على هذا اللحن. لكننى أحسب أنك يمكنك أن تسميه « الفتاة ذات العيون الخضراء».

وعندما ثبت القوس على الكمان، جاءت النغمة مذهلة فى وضوحها، حادة ونقية، وأدى الإسهاب فى الدوزنة إلى إحداث تأثيرات نغمية غريبة متنافرة. كان اللحن بطيئا وشكليا، لكنه مُلِّح فى إيقاعه ومداه الواسع. وأكثر من ذلك أن لحنه الرخيم يلح عليك أن تتقبل فكرة أنه شىء عابر، موجود هنا وغير موجود، لا يمكن تثبيته. كان الحنين هو لحنه الدال.

راحت إيدا وروبى تراقبان مذهولتين وستوبرود ينسج الموسيقى. كان من الواضح أنه تخلى عن ضربات القوس القصيرة المتقطعة التى يستخدمها كل عازفى الكمان المعروفين، على الأقل فى هذه المقطوعة البائسة، وكان يعزف نغمات طويلة شديدة الحلاوة والحدة. كانت موسيقى لم تسمع روبى مثلها أبدا. ولا كانت إيدا، فى هذا الخصوص. كان عزفه سهلا مثل رجل يتنفس، ومع ذلك بإيمان كامل بوضعه المركزى فى أى حياة تستحق أن نطالب بها.

عندما فرغ ستوبرود وأنزل الكمان من تحت ذقنه الشيباء بشعرها الخشن، ساد صمت طويل بدت فيه أصوات الضفادع بجوار الجدول حزينة بشكل خارق للعادة ومتفائلة فى وجه الشتاء القادم. نظر إلى روبى كمن يستعد لتقييم قاس. نظرت إيدا إليها أيضا، وكان التعبير على وجه روبى يقول إن الأمر يتطلب أكثر من حكاية ولحن كمان حتى يلين قلبها تجاهه. لم توجه إليه حديثا لكنها استدارت إلى إيدا وقالت: غريب جدا أنه وهو متقدم جدا فى السن أن يجد أخيرا الأداة الوحيدة، التى أبدى عليها أى مهارة فيما يخص العمل. رجل يرثى لحاله إلى درجة أنه حصل على اسم تدليله من ضربه بقضيب حتى أشرف على الموت بعد أن قبض عليه وهو يسرق فخذ خنزير.

ومع ذلك، فإن الأمر بدا لإيدا أقرب لمعجزة، أن يقدم ستوبرود نفسه، دون سائر الناس، كدليل إيجابى على أنه مهما أضاع المرء حياته هباء، فمن الممكن دائما أن يجد سبيلا إلى التكفير عن ذنوبه، مهما كان هذا التكفير جزئيا.

سرير العروس ملئ بالدم

هام إينمان على وجهه فى الجبال أياما، ضائعا ومحاطا بالضباب خلال مدى من الجو التعس. بدا كأنه يمطر من الهلال إلى البدر، رغم أن لا أحد يستطيع أن يدرى والسماء محجوبة، ما لم تفكر فى أن تحصى الأيام بدءا من أول نقطة سقطت. لم يكن إينمان قد رأى شمس أو قمر أو نجوما لأسابيع على أقل تقدير ولم يكن ليدهشه أن يجد أنه قد سار طول الوقت كله فى دوائر أو بارقام هندسية أكثر تعقيدا وإن كانت بلا اتجاه بالتساوى. ولكى يحافظ على مساره مستقيما، حاول أن يختار نقطا تقع أمامه مباشرة، شجرة معينة أو صخرة يتجه إليها. وظل على هذا الحال حتى خطر له أن النقط التى اختارها يمكن أن تتصل لتصنع دائرة كبيرة، وبدا أن هناك القليل مما يزكى السير فى دوائر كبيرة على السير فى دوائر صغيرة. ولذا فإنه سار على غير هدى فى الضباب، سالكا أى زاوية شعر بأنها تؤدى، فى تلك اللحظة. إلى الغرب، وحاول أن يجعل نفسه راضيا بمجرد الحركة.

كان قد استعمل دواء امرأة العنزات حتى فرغ، وفى زمن قصير كانت جروح رأسه قد أصبحت ندبات متغضنة صغيرة وموضع الجرح فى رقبته شقا فضيا صلبا. سكن الألم ليصبح ضجيجا يأتى من بعيد، مثل العيش بجوار نهر، ألما ظن أنه يمكنه أن ينصت إليه إلى أجل غير مسمى. لكن أفكاره لم تلتئم بنفس السرعة.

أصبحت مخلاة مئونته خاوية من الطعام. اصطاد فى أول الأمر، لكن غابات البلسم بدت وكأنها قد هجرتها الطرائد. ثم حاول الإمساك بسمك النعاب ليسلقه. لكنه وجد أنه يعمل لساعات ليصطاد ما يكفى لملء قمة قبعته، ثم بعد أن أكله شعر بأنه كسب أقل القليل منه. جرد لحاء فرع شجرة دردار ومضغه ثم قمة نبات فطر بلون الياقوت الأحمر الكبير بعرض مقلاة. وبعد خمس عشرة دقيقة شعر بنهم شديد. وسرعان ما أقبل ببساطة على شرب ماء جدول بكفين مقوستين مثل قدحين واقتلاع رشاد برى من على حواف مجرى ماء.

وجد نفسه فى عصر أحد الأيام يزحف على الأرض المكسوة بالطحالب على جانب جدول، يرعى الكلأ عند حافة الماء مثل حيوان من الحيوانات البرية، ورأسه مبتل حتى أذنيه، وطعم الرشاد اللاذع فى فمه وليس بعقله أى فكرة. ألقى نظرة فى غدير ولمح وجهه ينظر إليه، مرتجفا ومنحوسا، وفى الحال حرك أصابعه فى الماء ليبدد الصورة إذ لم تكن به رغبة لأن يرى نفسه.

قال لنفسه، يا إلهى، لو أننى أمكننى أن أورق جناحين وأطير. لرحلت من هذا المكان، وجناحاى الكبيران يحملاننى إلى أعلى وإلى الخارج. ريش طويل يهسهس فى الريح. والعالم ينبسط تحتى مثل صورة مشرقة على شريط من ورق منقوش ولن يكون هناك شيء يربطنى بالأرض. ومجارى المياه والتلال تمر تحتى بسيطة بلا جهد. وأنا أرتفع فحسب وأرتفع حتى لا أصبح سوى ذرة داكنة على السماء الصافية. قد رحلت إلى مكان آخر. لأعيش بين فروع الأشجار وصخور الجرف. وقد تأتى عناصر البشر بين الحين والحين مثل مبعوثين ليسحبونى إلى مجتمع الناس ثانية. ويفشلون فى كل مرة. أن أطير إلى حافة ما عالية وأربض هناك، ألاحظ ضوء اليوم العادى المشرق.

اعتدل فى جلسته وأصغى برهة إلى حديث الجدول وهو يجرى على الأحجار المستديرة، والمطر على أوراق الشجر التى سقطت. هبط غراب مبتل من على فرع شجرة قسطل وحاول أن يهز الماء عن ريشه ثم جلس محدبا سيئ المنظر. نهض إينمان منتصبا وواصل سيره على قدميه، وهو ما كان قدره، حتى توصل إلى درب غير مطروق كثيرا.

وفى وقت ما من اليوم التالى بدأ إينمان يشعر بأن هناك من يتبعه. استدار ورأى رجلا ضئيل القد له عينا خنزير يرتدى رداء عمال سروالى ومعطفا أسود

يسير مكتوم الصوت خلفه تماما.. كان بإمكانه أن يمد يده ويخنق الرجل من عنقه.

قال إينمان: من أنت بحق الجحيم؟

حجل الرجل مبتعدا بداخل الأشجار، منحنيا وراء شجرة حور توليبية كبيرة. سار إينمان إلى شجرة الحور ونظر خلفها. لا شيء.

واصل سيره، وهو ينظر خلفه مرارا وتكرارا. كان يدور على نفسه بسرعة، محاولا أن يمسك بتابعه المبهم على حين غرة، وفي بعض الأحيان يجد الرجل هناك، متخلفا عنه بين الأشجار. قال إينمان لنفسه، إنه يكتشف اتجاهي ثم يذهب ليخبر الحرس. سحب مسدس لي مات ولوح به.

صاح إينمان باتجاه الغابات، سوف أرديك قتيلا. سوف أفعل ذلك دون تفكير. خذ حذرك مني. سوف أفجر فجوة في بطنك يمكن أن يمر منها كلب.

تخلف الرجل ذو عيني الخنزير لكنه واصل متابعته لإينمان، وهو ينتقل بسرعة خلال الأشجار.

وأخيرا عندما انعطف إينمان حول منحنى في الطريق، خطا الرجل خارجا من خلف صخرة إلى الأمام منه.

قال إينمان: ماذا تريد بحق الجحيم؟

وضع الرجل الضئيل أصبعين على فمه واحتفظ بهما هناك لحظة، وتعرف إينمان على الإيماءة بصفتها واحدة من إيماءات فريق الوتر الأحمر أو أبطال أمريكا، لم يستطع أن يتذكر من منهما. فقد نقل أحد العاملين المتطوعين في المستشفى هذه المعلومة عن مثل هؤلاء المتعاطفين مع قضية الاتحاديين. كانوا جميعا سيئين مثل الماسونيين لاتيانهم بإشارات سرية. أعطى إينمان الإشارة المضادة بمرور بأصبعه على عينه اليمنى.

ابتسم الرجل الضئيل وقال: هذه أوقات كئيبة. عرف إينمان أن هذه شفرة أخرى. والاستجابة الصحيحة أن يقول: أجل، ولكننا نتوقع أوقاتا أفضل. وعندئذ يقول الرجل: لماذا؟ فيقول إينمان: لأننا نبحث عن وتر خلاصنا.

ما قاله إينمان بدلا من ذلك هو، لا يمكنك أن تقف هناك فحسب. فأنا لست من الحرس أو أي شيء آخر. وليس لي ولاءات في ذلك الاتجاه أو في أي اتجاه آخر.

- هل أنت هائم على وجهك؟

- أعتبر أننى هذا إذا وجدت نفسى فى مكان يصلح لقضاء الليلة.

- إن هذا يجعلنا حالتين صحيحتين، فأنا تقريبا بلا ولاء مثلك. فقد أردى ابنى قتيلا فى شاربسبورج ولا أبالى مقدار روث بأى من الجانبين من ذلك الحين

قال إينمان: لقد حضرت القتال فى شاربسبورج.

مد الرجل يده وقال: بوتس.

صافح إينمان يده وقال اسمه.

قال بوتس، كيف كان الحال فى شاربسبورج؟

- مثلها جميعا تقريبا، ولكن أكبر من المعتاد. ففى أول الأمر قذفوا قنابل بينهم. ثم جاء الهجوم وإطلاق النار، قذائف عنقودية وقذائف بنادق. مات كثير من الفتيان.

وقفا برهة يتفحصان الغابة القريبة، ثم قال بوتس: تبدو منهكا مثل عجرة.

- كان الطعام نادراً وقد ظللت أسير بمشقة ما أمكننى. وكان سيرا بطيئا.

- كنت لأعطيك شيئا تأكله لو كان فى متناول يدى أى شىء، لكننى خالى الوفاض. هناك فتاة طيبة فى آخر الطريق على بعد ثلاثة أو أربعة أميال سوف تطعمك ولا تسأل أى أسئلة.

نزل المطر مائلا ولاسعا مع الريح. لف إينمان نفسه بغطاء الأرضية وواصل سيره دون أن يبطئ خطوه. بدا مغطى الرأس ومكتسيا مثل حاج من قديم الزمان، راهبا قاتما مرتحلا من أجل صلاح روحه، باحثا عن دواء شاف فى السير من تدنسه باتصاله بالعالم. تقطَّر المطر من على أنفه إلى لحيته.

وفى خلال ساعة وصل إلى البيت الذى وصفه له بوتس، كوخ صغير موحش من حجرة واحدة من ألواح خشب مربعة أقيم فوق الطريق عند مدخل خليج صغير كريه الرائحة. كانت النوافذ تتألف من ورق مشحم. ومن المدخنة المصنوعة من طين وعصى ارتفع دخان بنى اللون ثم خفق فى الريح. وفى حظيرة بأعلى التل كان هناك خنزير يتنقل، وصناديق مأوى للدجاج فى ركن بين البيت والمدخنة. خطا إينمان إلى بوابة فى السور وصاح معلنا عن وجوده.

كان المطر قد أصبح مختلطا بثلج يتساقط. شعر بخديه يلتصقان معا إلى حد أنهما بدوا كما لو كانا يتلامسان داخل فمه الخاوى وبينما كان ينتظر راح يراقب شجيرة توابل على الجانب الآخر من السور مباشرة. وقد بدأ الثلج يلتصق بالعنبيات الحمراء. صاح مرة ثانية وشقت امرأة شابة، فتاة فى حقيقة الأمر، الباب وأبرزت رأسها البنى اللون ثم تراجعت إلى الخلف ثانية. سمع طقطقة مزلاج لإحكام الباب. قال إينمان لنفسه، لديها سبب وجيه للخوف.

صاح مرة أخرى، لكنه أضاف هذه المرة أن بوتس قد أرسله ليتناول وجبة. فتح الباب وخرجت الفتاة إلى الشرفة.

قالت. لماذا لم تقل ذلك؟

كانت فتاة وسيمة، ضئيلة القد ونحيلة ومشدودة الجلد. كان شعرها بنى اللون، وهى ترتدى ثوبا قطنيا مطبوعا لا يتناسب مع الجو القارس. خلص إينمان السلسلة بطولها من على مسمار على دعامة البوابة وسار إلى الشرفة، وهو يفك غطاءه عنه أثناء تقدمه. هز غطاء الأرضية ولفه بطول حافة الشرفة ليقطر. خلع مخلاة المئونة والمخلاة التى يحملها على ظهره ووضعهما على الشرفة فى المكان الجاف. ووقف هناك فى الثلج المتساقط ينتظر.

قالت، حسنا، هيا اصعد.

قال إينمان، سوف أدفع ثمن ما آكله. وخطا إلى الشرفة بجوار المرأة.

قالت، إننى معوزة لكن ليس إلى الحد الذى اضطر معه إلى أخذ نقود لقاء القليل الذى يمكننى أن أقدمه. هناك رغيف من دقيق الذرة وبعض اللوبيا، هذا كل ما هناك.

استدارت ودخلت البيت. كانت الغرفة مظلمة، تضيئها المدفأة فحسب والضوء البنى الضئيل الذى يأتى من النوافذ الورقية ويسقط على أرضية من ألواح الخشب التى نظفت بالدعك، لكنه استطاع أن يرى أن الغرفة وإن كانت عارية مثل مخزن غلال إلا أنها نظيفة. كان هناك القليل من الأثاث. طاولة، كرسيان، خزانة، وسرير من حبال.

ولم يكن هناك أى أثر لزينة فى المكان سوى لحاف على السرير. لا صورة لحبيب أو صورة للمسيح أو حتى صورة مقطوعة من مجلة على الحائط، كما لو

كانت هناك نواهٍ اخلاقية هائلة بشأن الصور المنحوتة تسيطر على المكان. لا ولم يكن هناك تمثال صغير على رف المدفأة أو أنشوطة من شريط مربوط إلى مكنسة المدفأة. قام اللحاف وحده تابلاً للعين. كان مجمعا معا لا بأى نسق محلى فى هذا الريف، لا زهرة نجمة أو طير يطير أو خفاق للمخضة أو ورقة حور، لكنه كتاب تاريخ طبيعى من القرون الوسطى ملفق تماما أو دائرة بروج لمخلوقات حالمة. كانت الوانه الظلال المعتمة للألوان الحمراء والخضراء والصفراء التى يمكن رسمها بلحاء الشجر والزهور أو قشر البندق. وخلافا لذلك لم يكن هناك ذرة لون فى أى مكان بالكوخ، فيما عدا وجه طفل خام الجلد حديث الولادة يرقد مقمطا بإحكام فى مهد صنع بشكل فج من عصى شجر الصنوبر مازالت بلحائها.

وبينما كان إينمان يتطلع فى الغرفة، أصبح واعيا فجأة بقذارته. ففى هذا المكان النظيف المغلق وجد أن ملابسه تفوح برائحة نتنة قوية من العرق الذى تجمع من مسيرته الطويلة. كان حذاؤه ورجلا سرواله متبسة من الطين حتى قصبتى ساقيه، وهو يترك آثارا حيثما خطا. فكر فى خلع الحذاء لكنه خشى أن يفوح جوربه بنتن مثل لحم متعفن. فقد مضى وقت طويل منذ أن سار حافى القدمين. لم يكن الكوخ قديما ولا يزال يحمل رائحة الخشب المصقول القصيم، من شجر القسطل والجوز، وشعر إينمان بأنه موسوم ومتنافر مع شذاه.

جذبت المرأة أحد الكرسيين إلى جانب المدفأة ولوحت له أن يجلس. وسرعان ما بدأ بخار يرتفع حوله من ملابسه المشبعة بالماء، وقطرت من أساوره مياه موحلة على ألواح خشب الأرضية. نظر إلى قدميه ولاحظ أن نصف دائرة من ألواح خشب مصقول قد بليت وبُريت حتى شحب لونها حول مقدمة المدفأة بالطريقة التى ينفض بها كلب مربوط بحبل الأوساخ فى محيط المدى الذى يمكن أن يتحرك فيه.

كان وعاء اللوبيا يتأرجح من دلائه على قضيب حديدى إلى جانب النار. وبداخل موقد له غطاء وضع بالمدفأة يرقد رغيف مستدير طازج من دقيق الذرة. قدمت له المرأة طبقا تكومت فيه اللوبيا وخبز وبصلة كبيرة لم تنزع عنها قشرتها. ووضعت دلوا به ماء ينبوع ومغرفة بجواره.

قالت، يمكنك أن تأكل على المائدة. فهناك أدفأ.

تناول إينمان الطبق والسكين والملعقة فى حجره وأقبل على الأكل. كان جزء منه يريد أن يكون مهذبا، لكن تغلب عليه جهاز كلب عميق بمخه، ولذا فإنه راح يأكل بصوت عال وازدراء، وهو يتوقف فقط عندما يكون هذا ضروريا على الإطلاق. تخلى عن تقطيع البصلة إلى شرائح وأكلها مثلما يأكل تفاحة. كان يحمل اللوبيا الساخنة إلى فمه بملعقة ويقرض أطراف الخبز المشحم بسرعة افزعته حتى هو نفسه. وقطر سائل اللوبيا من على لحيته وسال على مقدمة قميصه. جاء تنفسه متلاحقا يصفُر فى أنفه لافتقاره إلى تنفس منتظم.

أبطأ سرعة مضغه ببعض المجهود. شرب ملء مغرفة من ماء النبع البارد. كانت المرأة قد جذبت الكرسى إلى الجانب الآخر من المدفأة وجلست تراقبه مثلما يراقب المرء خنزيرا يأكل جيفة، أى بقدر ما من الاشمئزاز المبهور.

قال، آسف. فلم أتناول طعاما لأيام. مجرد رشاد برى وماء جدول.

قالت، لست بحاجة إلى إبداء الأسف، بنبرة صوت هادئة إلى حد أن إينمان لم يستطع أن يفسر ما إذا كانت تعنى بالكلمة الأخيرة أن تغفر له أم توبخه.

أمعن إينمان النظر إليها للمرة الأولى. كانت حقا مجرد فتاة نحيفة شاحبة هنا وجدها فى هذه الحفرة حيث لا تسطع الشمس أبدا لمدة طويلة. وحياتها مجردة إلى درجة أنها ينقصها زراير، لأنه لاحظ أن الجزء العلوى من ثوبها مشبوك بغصين شائك من شجيرة مهماز الديك.

قال إينمان: ما عمرك.

قالت، ثمانية عشر.

– اسمى إينمان، ما اسمك؟

– سارة.

– كيف حدث أن تكونى هنا وحدك تماما؟

– رحل زوجى، جون، للقتال. مات منذ فترة مضت. قتلوه فى فيرجينيا. ولم ير طفله أبدا، وبقينا نحن الاثنان فحسب الآن.

جلس إينمان صامتا برهة، وهو يفكر فى أن كل رجل مات فى تلك الحرب على أى من الجانبين كان يحسن به أن يسارع إلى وضع مسدس إلى سقف حلقه اللين وأن يفجر مؤخرة رأسه لانتفاء المعنى.

قال: هل حصلت على أية مساعدة هنا؟

- ولا لعقة.

- وكيف تصرفين أمورك؟

- آخذ محراثا يدفع وأعمل ما يمكنني لأعد رقعة صغيرة من الذرة وحديقة خضر حول جانب التل كلا على حدة، رغم أن أيهما لم يأت بكثير هذا العام. ولدى حوض للطحن لأطحن فيه الذرة. وهناك بضع دجاجات من أجل البيض. وكان لدينا بقرة لكن المغيرين جاءوا من الجبل وأخذوها في الصيف وأحرقوا القليل الذى كان فى مخزن الغلال وسرقوا صمغ النحل وتناولوا بلطة وشطروا كلب صيد كان لدينا هناك بالخارج على الشرفة لكى يخيفونى. وذلك الخنزير الكبير فى الحظيرة هو كل ما لدينا تقريبا للشتاء. وعلىّ أن أذبحه فى أقرب وقت وأخشى ذلك، لأننى لم أذبح خنزيرا بمفردى حتى الآن.

قال إينمان، سوف تحتاجين إلى مساعدة. بدت شيئا ضئيلا للغاية حتى تذبح خنزيرا.

- لا يبدو أن الحاجة والحصول عليها من المحتمل أن يتوقفا فى أى وقت قريب. فكل أفراد عائلتى قد ماتوا الآن، وليس حولى جيران يمكننى أن أسألهم سوى بوتس، وهو ليس معينا على الإطلاق عندما يتطلب الأمر عملا. وما هو بحاجة إلى عمل شأنى أنا وحدى.

سوف تهرم فى مدى خمس سنوات من مثل هذا العبء، وود إينمان وقد تعرف على هذا أنه لم يطأ هذا البيت، ودلو أنه واصل سيره حتى ولو كان ذلك يعنى أن يسقط على جانب الطريق وألا ينهض أبدا. رأى بكثير من الرثاء أن حياتها كانت حياة يمكن أن يدخل إليها وأن يظل يعمل بكد من الليلة وحتى الموت. ولو سمح لنفسه بإمعان التفكير فى هذا للحظة لرأى العالم كله يحوم حول الفتاة مثل الشرك المهلك، على استعداد لأن ينقض ويسحق.

كان الوقت بالخارج مظلما تقريبا الآن والغرفة دامسة مثل عرين دب فيما عدا بصيص ضوء أصفر ترسله النار. كانت رجلا الفتاة ممدودتين أمامها لتتلقيا الحرارة. كانت تلبس جوربا رجاليا قصيرا مقلوبا إلى أسفل عند الكاحلين وحاشية ثوبها مرفوعة بحيث يمكنه أن يرى شعرات ذهبية دقيقة تلمع فى ضوء النار وترقد مسطحة وناعمة على جلد جانبى ربلتى ساقيها النحيلتين.

كان عقله مشوشا عن أيام الصيام السابقة إلى حد أنه فكر فى أن يربت عليها مثلما يربت المرء على رقبة حصان عصبى يريد أن يهدئه، لأنه أمكنه أن يرى كل سمات اليأس محفورة فى كل زاوية من زوايا جسمها.

فاجأ إينمان نفسه يقول: بإمكانى أن أساعدك. إن الوقت مبكر بعض الشىء لكن هذا الجو يمكن أن يصلح لذبح الخنازير.

– ما كان باستطاعتى أن أطلب هذا.

– أنت لم تطلبى. أنا الذى عرضت.

– على أن أقايضك بشىء. بإمكانى أن أنظف وأصلح تلك الملابس التى ترتديها. إنها لا تبدو كما لو لم تكن بحاجة إلى هذا. إن ذلك القد فى معطفك يمكن أن يحتاج إلى اسفين يُخيط عليه. وفى هذه الأثناء، يمكنك ان ترتدى ملابس تركها زوجى. كان فى طول قامتك تقريبا.

انحنى إينمان وأكل مزيدا من الطبق الذى كان على حجره، وسرعان ما مسح آخر العصارة بكسرة من خبز الذرة وأتى عليها وبدون أن تسأله غرفت له سارة كومة أخرى من اللوبيا وأخرجت بالشوكة قطعة خبز. بدأ الطفل يبكى. وبينما راح يعمل على طبق الطعام ذهبت إلى الخلف فى عتمة الغرفة وفكت أزرار ثوبها قرب خصرها وأرضعت الطفل وهى جالسة جانبا من إينمان على السرير.

لم يشأ أن ينظر لكنه استطاع أن يرى مع ذلك الجانب المستدير فى الثدى، ممتلئا ومضيئا أبيض فى الضوء المحبب. وبعد قليل أبعدت الطفل وسقطت نقطة من ضوء النار على طرف حلمتها المبتل.

وعندما عادت إلى المدفأة كانت تحمل كومة من ملابس مطوية وحذاء عالى الساق نظيفا يقوم فوقها. ناولها الطبق الفارغ ووضعت الملابس والحذاء فى حجره.

– يمكنك أن تخرج إلى الشرفة وأن ترتدى هذه. واستعمل هذا.

ناولته ماء فى حوض اغتسال مصنوع من أسفل يقطينة، وقطعة من الصابون وخرقة.

خرج إلى الليل. كان هناك لوح غسيل فى نهاية الشرفة، وعلى عمود يقوم فوق اللوح مرآة مستديرة معلقة من معدن مصقول يصدأ. كان هذا مكان حلاقة

جون الشاب. كان الثلج الدقيق لا يزال يطقطق على أوراق الأشجار الجافة التى لا تزال تلتصق بأشجار البلوط السوداء، ولكن عند نهاية الفجوة المفتوحة أمكنه أن يرى سحبا متقطعة تجفل بدفع الريح عبر وجه القمر الذى يقوم خلفها. فكر إينمان فى الكلب والمغيرين الذين قتلوه على الشرفة، والفتاة تراقب ذلك. تعرى فى البرد، وكانت الملابس التى خلعها مثل جلد حيوان مسلوخ، مبتلة وثقيلة ورخوة. لم ينظر فى المرآة لكنه دعك نفسه بشدة بالصابون والخرقة. صب بقية ماء اليقطينة على رأسه ثم ارتدى الملابس. كانت ملابس الرجل الميت مناسبة لمقاسه، ناعمة ونحيلة من كثرة الغسيل، ولاءمه الحذاء كما لو كان فُصِّل من أجل قدميه، على الرغم من أنه شعر إجمالا بأنه قد ارتدى قشرة حياة أخرى. وعندما عاد إلى دخول الكوخ شعر بما يجب أن يشعر به شبح يشغل شكلا من أشكال الماضى بدون جدوى. كانت سارة قد أشعلت شمعة مغموسة فى شحم خنزير وهى جالسة إلى الطاولة تغسل الأطباق فى حوض غسيل. بدا الهواء حول الضوء كثيفا. وبدت كل الأشياء اللامعة القريبة منه كأنها أحاطت بها هالة. وكان كل ما وراءها فى الظلال مطفأ تماما، كأنه لن يعود للظهور أبدا. وبدا منحنى ظهر الفتاة وهى تميل على الطاولة لإينمان شكلا لا يمكن محاكاته فى كل ما يمتد أمامه من زمن. شيئا يثبته المرء بعقله ويتمسك به، حتى إذا ما أصبح عجوزا أمكن أن تكون الصورة ذات نفع، لا علاجا ضد الزمن لكنها مع ذلك مواساة.

جلس مرة أخرى فى الكرسى بجوار المدفأة. وسرعان ما لحقت به الفتاة، وجلسا فى سكون، يحدقان فى النار الحمراء. رفعت عينيها إليه، ووجهها فراغ جذاب تصعب قراءته.

قالت: لو كان لدى مخزن غلال لأمكنك النوم هناك. لكن ليس لدى الآن.

- كوخ الذرة يناسبنى تماما.

عادت تنظر إلى النار كما لو كانت تصرفه، وسار إينمان خارجا إلى الشرفة ثانية والتقط ربطاته وفراشه المبلل بالماء وسار خلف البيت إلى الكوخ. كانت السحب تتفرق بشدة والمنظر الطبيعى القريب يتجمع ويشرع فى اتخاذ شكل فى ضوء القمر الذى بدا. والهواء يبرد باتجاه صقيع شديد. صعد إينمان إلى داخل الكوخ ونقب بحثا عن بطاطينه وبسطها ما أمكنه على قولحات الذرة. ونعبت بومة

عدة مرات بأعلى الخليج. ونعيبها يتدرج إلى أسفل السلم الموسيقى. تحرك الخنزير ونخر ثم لزم الصمت.

قدّر إينمان أن الليلة ستكون ليلة نوم كئيب ومتعقد، لكنه اجمالا مؤات بخلاف التمدد فى الخارج على الأرض. تسللت أشعة ضوء القمر الزرقاء من بين ألواح الكوخ، واستطاع إينمان أن يتناول مسدس لى مات من المخلاة التى يحملها على ظهره وأن يتحقق من عبواتها العشرة وأن يدعكها بذيل قميص الزوج الميت وأن يضبطه فى وضع نصف استقداح. أخرج سكينه وشحذه على جلد نعل حذاء نظيف، ثم التف فى البطاطين لينام.

لكنه كان قد نام قليلا قبل أن يوقظه وقع أقدام فى أوراق الأشجار. مد يده ووضعها على المسدس، وهو يتحرك ببطء حتى لا تطقطق القولحات. توقفت الخطوات على بعد اثنى عشر قدما من الكوخ.

قالت سارة: تعال إلى الداخل من فضلك. واستدارت وسارت مبتعدة.

هبط إينمان ووقف وزلق المسدس بداخل وسط سرواله وألقى برأسه إلى الخلف ليستعرض شق السماء الضيق. كانت كوكبة الجوزاء قد برزت تماما وتبدو كما لو كانت تفرشح رجليها على خطوط الحواف القريبة عند كل من جانبى الخليج بسلوك امرئ واثق يعرف ما يريد ويتبعه. عاد إينمان إلى البيت، وبينما هو يقترب رأى أن النوافذ الورقية تتوهج مثل فانوس يابانى. وبالداخل وجد أن الفتاة قد غذت النار بكتل من شجر الجوز وهى تتوهج عاليا والغرفة ساطعة ودافئة كما يمكن أن تكون.

كانت فى السرير وقد فكت ضفيرتها وانسدل شعرها على كتفيها ولمع فى الضوء. سار إينمان إلى المدفأة ووضع المسدس على رف صغير بمثابة رف للمدفأة. كان مهد الطفل قد سحب بقرب النار والطفل ينام بوجهه لأسفل حتى أن كل ما يمكن رؤيته هو جسم مكور غائم الملامح يرتفع من الأغطية.

قالت: انك تبدو مثل خارج على القانون بذلك المسدس الضخم.

– لست واثقا من أننى الآن تماما شىء يمكن أن تطلقى عليه اسما.

– لو طلبت منك أن تفعل شيئا، هل تفعله؟

حسب إينمان أن عليه أن يشكل إجابة على هذا وفقا لـ « ربما»، أو «إذا » كان بإمكانى أو عبارة ارتجالية ما على هذا النحو.

لكن ما قاله هو: أجل.

- لو طلبت منك أن تأتى إلى هنا وترقد معى فى السرير وألا تفعل شيئا آخر، هل يمكنك أن تفعل هذا؟

نظر إينمان إليها وتساءل عما تراه وهى تنظر إلى الوراء. شكلا ما مرعبا يملأ ثياب زوجها، زيارة تفقدية لروح نصف مرغوبة، ونصف مخيفة، استقرت عيناه على اللحاف الذى يغطيها. كانت مربعاته تصور حيوانات ممتلئة الجسم، عيونها كبيرة وأرجلها صغيرة، مربكة لكنها خاصة بعلم الأنساب. بدت مرقعة معا من ذكريات حيوانات تبدو فى الأحلام. أكتافها محدبة بعضلات، وأقدامها، ينضب شعرها الخشن أسلاكا، وأفواه تعوى مفتوحة على اتساعها ومليئة بأسنان طويلة.

قالت: هل يمكنك؟

- أجل.

- اعتقدت أنك يمكنك وإلا ما طلبت منك هذا مطلقا.

اتجه إلى السرير وخلع حذاءه وصعد تحت الألحفة بكامل ملابسه ورقد تحت الأغطية مسطحا على ظهره. كان كيس المرتبة فوق الحبال محشوا بقش جديد ويفوح برائحة جافة وخريفيا وحلوا، وتحت ذلك تكمن رائحة الفتاة نفسها، مثل بقعة من أشجار الغار سقطت عنها زهورها على الأرض. ظل كلاهما ساكتا كما لو كانت بندقية محشوة استقدح زنادها ترقد هناك بينهما.

قال: سوف أذهب لو كان ذلك أفضل.

- اصمت.

بكت قليلا ثم توقفت وقعدت ومسحت عينيها بطرف اللحاف وشرعت تتكلم عن نفسها. طلبت من إينمان أن يكون فقط شاهدا على حكايتها. وفى كل مرة حاول أن يتكلم فيها تقول: اصمت. لم يكن بقصتها شىء يسترعى الانتباه سوى أنها كانت قصة حياتها. حكت عن الطريقة التى التقت بها هى وجون وكيف وقع أحدهما فى غرام الآخر. عن بناء هذا الكوخ وعملها شأن أى رجل إلى جانبه، وهى تقطع الأشجار وترفع زنود الخشب المصقولة وتسد الفجوات. عن الحياة السعيدة التى كانا يخططان لها فى هذا المكان الضائع الذى بدا لإينمان أبعد ما يكون عن سند. صعوبة السنوات الأربع الماضية، موت جون، نقص الطعام.

النقطة الوحيدة المشرقة اذنُ تغيب جون القصير عن القتال، وقت من السعادة العظيمة أنتج الطفلة النائمة بجوار النار. قالت سارة، وبدونها لم يكن هناك شىء يربطها بالأرض.

وآخر ما قالته هو، سيكون ذلك الخنزير الذى بالخارج هناك شيئا طيبا. لقد تغذى على ثمر القسطل أساسا، وقد أحضرته من الغابات وأعطيته ذرة طوال الأسبوعين الماضيين ولذا سيسيح دهنه صافيا. وهو سمين إلى حد أن عينيه انتفختا إلى حد أنهما انغلقتا.

وعندما فرغت من الكلام، مدت يدها ولمست الندبة التى كانت على حافة ياقة إينمان، بأناملها فقط فى أول الأمر ثم بكفها بأكمله. أراحت يدها هناك لحظة ثم سحبتها ثم تقلبت وظهرها إليه، وسرعان ما أصبح تنفسها عميقا ومنتظما. قدر أنها وجدت بعض الهدوء لمجرد أن تحكى لشخص آخر عن أى حافة حياة هزيلة موحشة تشغلها، حين يمكن لخنزير واحد أن يتصرف كسدادة لقنينة كبيرة من البلايا.

ورغم ما كان فيه من انهاك، لم يستطع إينمان أن يستريح. فبينما غلب سارة النعاس، رقد ناظرا إلى أعلى، يراقب ضوء النار يتناقص على الجانب السفلى من السقف وكتل الخشب تحترق لآخرها. لم تكن امرأة قد لمسته بيدها بأى درجة من الحنان لوقت طويل إلى هذا الحد حتى أصبح يرى نفسه مثل مخلوق من نوع آخر جملة عما كان عليه. كان قدره أن يتحمل عقاب الخاطئين الذين لم يهتدوا إلى الخلاص من خطاياهم، وأن يحرم من الحنان إلى الأبد. وأن تَسِمَ حياته غلطة مظلمة. وفى حالته العقلية المضطربة وأساه الدائم لم يفكر حتى فى أنه من الممكن أن يمد يده إلى ردف سارة وأن يحتضنها حتى طلوع النهار.

أزعج القليل من النوم الذى ناله أحلاما بعثت من سطح اللحاف. طاردته حيواناتها فى غابة مظلمة، ولم يكن هناك واحد يلوذ به أينما كان ينعطف. تجمع كل عالم تلك المملكة المظلمة فظيعا ومنكبا عليه فى وحدته، وكل ما فيه رمادى ودامس، فيما عدا الأسنان والمخالب بيضاء مثل القمر.

عندما استيقظ إينمان كانت سارة هى التى تهز كتفه وتقول على عجل، انهض وأمضى.

كان الوقت فجرا رماديا فحسب والكوخ قارس البرد وهناك أصوات جياد خافتة على الطريق المؤدى إلى البيت.

قالت سارة، انهض. فسواء كانوا اد رس الوطنى أو مغيرين، فنحن أفضل حالا إذا لم تكن هنا.

جرت إلى الباب الخلفى وفتحته. ونخع إينمان الحذاء على قدميه وتناول مسدس لى مات من على رف المدفأة واندفع إلى الخارج. اتجه إلى خط الأشجار والأجمات التى تقع وراء الخليج عدوا بأقصى سرعة. غطس بداخلها ثم شق طريقه، وهو مختبئ عن الأنظار، حول المكان حتى وجد بقعة كثيفة من أشجار الغار الملتوية واقعة فى مكان يسمح له برؤية واجهة البيت. زحف فى الظلام الذى تجمع تحت الغار ونظر من خلال شعبة فى جذع ليخفى وجهه. كانت الأرض متجمدة فى حبيبات قصيمة تحته.

استطاع أن يرى سارة تجرى حافية القدمين عبر الأرض التى كساها الصقيع بثوب نومها إلى حظيرة الخنزير. أسقطت أعمدة بوابة الحظيرة من على دعاماتها وحاولت أن تستميل الخنزير للخروج، لكنه لم يكن لينهض. دخلت الحظيرة الموحلة وركلت الخنزير، وكانت قدماها حين رفعتها سوداوين من الطين وروث الخنزير حيث اخترقت قشرة الصقيع إلى الوسخ. نهض الخنزير وشرع يمشى، لكنه كان هائل الحجم متدليا إلى أسفل إلى درجة لم يمكنه معها أن يخطو فوق أعمدة البوابة على الأرض. كان قد غادر الحظيرة لتوه وشرع يكتسب قوة دافعة وسارة تدفعه باتجاه الغابات حين ترددت صيحة جاءت من أسفل الطريق.

– توقفى مكانك تماما.

أصحاب السترات الزرقاء، رأى إينمان ثلاثة منهم على جياد يدعو حالها للرثاء. ترجلوا واجتازوا البوابة الأمامية. كان اثنان منهم يحملان بندقيتى سبرنجفيلد فى عقفتى ذراعيهما اليسراوين. وكانت فوهاتهما مصوبة نصف تصويب نحو الأرض لكن أصابع الرجلين كانت بداخل واقيى الزنادين. وكان الرجل الآخر يحمل مسدسا من مسدسات البحرية مصوبا إلى أعلى كما لو كان يصوب لكى يسقط طيرا عاليا، لكن عينيه مصوبتان إلى سارة مباشرة.

اتجه الرجل الذى يحمل المسدس إليها وأمرها أن تجلس على الأرض وفعلت ذلك. اضجع الخنزير على الأرض إلى جوارها. وصعد الاثنان اللذان يحملان بندقيتين إلى الشرفة ودخلا البيت، أحدهما يغطى الآخر وهو يفتح الباب ويدخل.

ظلا بالداخل فترة قصيرة وطوال تلك المدة وقف الرجل الذى يحمل مسدسا فوق سارة دون أن ينظر إليها أو يخاطبها. ومن داخل البيت جاءت أصوات قعقعة وتكسير. وعندما عاد الاثنان إلى الظهور من داخل البيت، كان أحدهما يحمل الطفل من طية فى قماطة مثلما يحمل المرء كيسا جلديا. كان يبكى ونهضت سارة نصف نهوض لتذهب إليه لكن الرجل الذى يحمل المسدس دفعها إلى الخلف على الأرض التى علاها الصقيع.

عقد الاتحاديون الثلاثة اجتماعا فى الفناء، لكن إينمان لم يستطع أن يتبين ما يقولونه فوق صوت الطفل وصوت سارة تناشدهم أن يعطوها الطفل. كان بإمكانه أن يسمع نبرة أصواتهم رغم ذلك، فاترة وسريعة مثل ضربات مطرقة، وأثاروا فيه الحافز إلى أن يشن هجوما مضادا عنيفا. لكنه كان أبعد من أى مدى يعول عليه يمكن أن يصله مسدس لى مات، وحتى لو لم يكن فإنه كان عاجزا عن التفكير فى خطة هجوم يمكن أن تحقق أى نتيجة سوى الموت لسارة وللطفل وله هو نفسه.

ثم استطاع أن يسمع أنهم يسألونها عن نقود، أين خبأتها. قال إينمان لنفسه، ذلك غذاؤهم. قالت سارة ما يمكن أن يكون الحقيقة فقط، إن كل ما لديها من ممتلكات كان القليل الذى يمكنهم أن يروه. سألوها مرة ثانية وثالثة ثم قادوها إلى الشرفة وأمسك الرجل الذى يحمل المسدس بيدها خلف ظهرها فى حين ذهب واحد ممن يحملان بنادق إلى الجياد وأخذ السيور الجلدية التى بدت أجزاء من خط الحرث القديم من داخل خُرج من الكتان. ربطها الرجل الذى يحمل مسدسا بالسيور إلى عمود ثم أشار إلى الطفل بأصبع فحسب. نزع أحد الرجلين القماط عن الطفل ووضعه على الأرض المتجمدة. كان بإمكان إينمان أن يسمع الرجل صاحب المسدس يقول، لدينا اليوم بطوله، ثم استطاع أن يسمع سارة تصرخ.

جلس الرجال على حافة الشرفة ودلّوا أقدامهم وتحادثوا فيما بينهم. لفوا سجائرهم ودخنوها حتى أصبحت كُعْبُرات مبتلة باللعاب. ذهب المرؤوسان إلى الجياد وعادا بسيفين عريضى النصل، وراحا يتجولان فى الفناء ينخسان الأرض الباردة على أمل أن يصيبا الكنز. باشرا ما يفعلان لبعض الوقت. والطفل يصرخ وسارة تناشد. ثم نهض الرجل صاحب المسدس من جلسته على حافة الشرفة وسار إلى سارة وألصق ماسورة المسدس على مفصل رجليها

وقال، ليس لديك أى روث، أليس كذلك؟ جاء الرجلان الآخران ووقفا على مقربة يشاهدان.

شرع إينمان يتراجع فى الغابات حتى يضع البيت بينه وبين الشرفة حتى إذا هاجمهم يستطيع أن يطلق النار على واحد على الأقل وهو يدور حول ركن البيت قبل أن يروه. كانت خطة سقيمة، لكنها كانت كل ما لديه، إذا سلم بالأرض المكشوفة التى ينبغى عليه أن يعبرها ليصل إليهم. لم يكن لديه أى فكرة سوى أنه هو والمرأة والطفل من المحتمل أن يقتلوا، لكنه لم يستطع أن يرى أى مخرج آخر.

وقبل أن يقطع مسافة طويلة، رغم ذلك، خطا الرجال بعيدا عن سارة توقف إينمان وراح يراقب، وهو يأمل فى أن يعيدوا تنظيم صفوفهم بشكل موات أفضل. ذهب صاحب المسدس إلى حصانه وجاء بحبل طويل ومشى إلى الخنزير وربطه به من عنقه. فك أحد رجال البنادق سارة عن العمود وذهب الآخر إلى الطفل ورفعه بذراع وطوحه إليها. ثم شرعوا يطاردون الدجاج فى أرجاء الفناء. أمسكوا بثلاث دجاجات وربطوها من أرجلها بخيط غليظ ودلّوها رأسا على عقب خلف سروج جيادهم.

ضمت سارة الطفل إلى صدرها. وعندما رأت صاحب المسدس يقتاد الخنزير صاحت، إن الخنزير هو كل ما لدى. فإذا أخذته فيحسن بك أن تطلق الرصاص على رأس كلينا وتقتلنا الآن، فسوف ينتهى الأمر إلى نفس الشىء. لكن الرجال امتطوا جيادهم. وصاحب المسدس يقتاد الخنزير، الذى راح يخب بجهد كبير إلى الأمام عند طرف الجبل، انعطفوا حول منحنى واختفوا.

جرى إينمان إلى الشرفة ونظر بعين الإجلال إلى سارة. قال، أدفئى طفلك وأشعلى نارا يصل ارتفاعها إلى رأسك وضعى قدرا من الماء ليغلى. ثم هرول إلى الطريق.

تعقب أثر الاتحاديين، ملتزما بحواف الغابات وهو يتساءل عما ينوى أن يفعله. كل ما كان يأمل فيه أن يهيئ شىء ما نفسه.

لم يذهبوا بعيدا، حوالى ميلين أو ثلاثة، حتى توقفوا بعيدا عن الطريق فى مستنقع عند مدخل خليج صغير رث، ساروا بحذائه مسافة ما وربطوا الخنزير إلى عود شجرة سنط وشرعوا يوقدون نارا على مقربة من حافة صخرة قريبة

من جدول سريع حسب إينمان أن هدفهم هو أن يعسكروا هناك لقضاء الليلة وأن يأكلوا حتى يمتلئوا، حتى لو كان ذلك يعنى أن يقتطعوا فخذى الخنزير. دار إينمان خلال الغابات حتى أصبح فوقهم على قمة الحافة الناتئة. اختبأ فى الصخور وراح يراقبهم وهم يقصفون رقبتى دجاجتين وينزعون ريشهما ويخرجون أمعاءهما ويضعوهما على سفودين من الأغصان الخضراء فوق النار.

جلسوا وظهورهم إلى الصخرة وراحوا يراقبون الدجاجتين تطهيان. استطاع إينمان أن يسمعهم يتكلمون عن الوطن واتضح أن اثنين منهم كانا من فلادلفيا والرجل صاحب المسدس من مدينة نيويورك. تكلموا عن كم يفتقدون الوطن وكم يودون لو كانوا هناك، وود إينمان أيضا لو كانوا هناك، لأنه لم يكن حريصا على أن يأتى ما هو على وشك أن يفعله.

تحرك مسافة لا بأس بها على طول قمة الحافة، وهو يمضى بهدوء وبطء، حتى انحدر إلى مستوى الأرض العادى. قرب حافة الصخرة الناتئة وجد كهفا غير عميق أدخل فيه رأسه ليجد أنه يدخل فى الصخرة عشرة أقدام فحسب عمقا. كان يأوى منذ وقت طويل مضى صيادى الراكون ومن على شاكلتهم، إذ كان به دائرة نار سوداء عند مدخله. وكان الكهف قد آوى أيضا رجالا آخرين حتى قبل ذلك. كانت علامتهم مخربشة على جدران الكهف. علامات غريبة بزوايا من نسق كتابة ما مفقود. لا يستطيع أحد من الأحياء أن يشاهده وأن يدرك الألف من الياء. كانت هناك علامات أخرى تصور حيوانات انقرضت من زمن من على هذه الأرض أو لم تكن هناك أبدا، مجرد شطحات خيال لمقيمين بأقحاف أدمغة خاوية منذ زمن بعيد مثل يقطينة قديمة.

ترك إينمان الكهف وظل يدور حول الحافة حتى استطاع أن يقترب من المخيم وهو يسير هابطا إلى أسفل على طول مجرى الماء خلال الوادى الضيق. وبعيدا عن الأنظار بالضبط، وجد شجرة شكران ضخمة بفروع تنمو واطئة، وتسلقها إلى ارتفاع حوالى عشر أقدام ووقف بطول قامته على الفرع الذى يرتفع من الجذع الأسود إلى أعلى مباشرة مثلما رأى اليوم ذات الآذان الطويلة تفعل عندما ترقد فى النهار تنشد أن تظل مختبئة. أطلق كركرة الديك الرومى البرى ثلاث مرات وانتظر.

استطاع أن يسمع الرجال يتكلمون، لكنه لم يستطع أن يدرك ما يقولونه. وفى ظرف مجرد دقيقة أقبل صاحب المسدس وهو يخفف الوطأ وقد أمسك بمسدس البحرية أمامه. سار تحت الشجرة تماما وتوقف. كان إينمان ينظر إلى أسفل إلى قمة قبعته. دس صاحب المسدس مسدسه تحت إبطه وخلع قبعته ومرر يده خلال شعره. كان أصلع عند مؤخرة رأسه. وكانت هناك بقعة بيضاء من فروة رأسه بحجم فيشة بوكر وصوب إينمان عليها.

قال، هيى!

نظر صاحب المسدس إلى أعلى وأطلق إينمان عليه الرصاص بزاوية أخطأ معها البقعة الصلعاء. دخلت الرصاصة من عند الكتف قرب العنق وتفجرت من المعدة بتدفق لامع يشبه القيء العنيف. سقط الرجل على الأرض كما لو كانت عظام رجليه قد تحولت فجأة إلى سائل. حاول أن يجر نفسه على الأرض بذراعيه. لكن الأرض بدت كما لو كانت تراوغ قبضته. تدحرج ونظر فوقه ليرى أى نوع من الضوارى قد سقط عليه بمثل هذا الثقل. وعندما التقت نظراتهما، وضع إينمان أصبعين إلى حافة قبعته تحية له، ثم مات الرجل فى وضع من الارتباك العميق.

صاح واحد من حاملى البنادق من أسفل التل، هل أصبته؟

بعد ذلك أصبح الأمر سهلاً لحد معقول. هبط إينمان من على الشجرة وعاد أدراجه، وهو يقوم بحركة التفاف من الخلف وحول الصخرة الطويلة الناتئة حتى اقترب هذه المرة من المخيم وهو يأتى من أول الخليج. توقف عند أجمة رودندرون وانتظر.

صاح الرجلان صاحبا البندقيتين على الرجل الميت مرارا وتكرارا واكتشف إينمان أن اسمه كان إيبن. وفى أخر الأمر قطعا الأمل والتقطا بندقيتهما السبرنجفيلد واتجها إلى أعلى الخليج ليجداه. تبعهما إينمان، مستترا بالأشجار، حين عثرا على ايبن. وقفا بعض الوقت على مسافة من الجسم المفكك جزئيا وتحدثا فيما يجب أن يفعلاه.. كان واضحا من صوتيهما أن رغبتهما الحقيقية هى أن ينسيا ما هو مطروح أمامها وأن يعودا إلى الوطن. لكنهما قررا أن يفعلا ما كان إينمان يعلم أنهما سيفعلاه، أن يذهبا إلى أعلى مجرى الماء باحثيْن عن القاتل، الذى لم يستطيعا أن يتصورا إلا أنه هرب.

تبعهما إينمان من خلفهما، مطاردا إياهما إلى أعلى الخليج. تحركا إلى الأمام بين الأشجار المتقاربة على نحو محكم قرب شاطئ الجدول، وهما يخشيان أن يشردا بعيدا عنه وإلا ضلا طريقهما. كانا من فتية المدينة حَذِرَيْن من الغابات مستغرَقَيْن فى القتل الذى افترضا انهما مقدمان عليه. كان المكان بالنسبة لهما برية بلا مسالك، ودخلاها بتهيب عظيم، لكنهما بدوا لإينمان مثل رجلين يسيران فى طريق عام. تصرفا كما لو كانا يبحثان عن علامة تدل على السبيل الذى سلكه القاتل، لكن أى شىء دون أثر قدم كبير عميق فى الوحل لم يجذب انتباههما

اقترب إينمان أكثر وأكثر منهما، وعندما أطلق عليهما الرصاص من مسدس لى مات، كان قريبا إلى حد أنه يمكنه أن يجد يده وأن يلمس ياقتيهما. تلقى الأول رصاصة قرب النقطة التى يلتقى فيها عموده الفقرى بجمجمته وأطاحت الرصاصة بمعظم جبهته وهى فى طريقها إلى الخروج منها. سقط، دون حاجة إلى القول، مكوما. أصاب إينمان الآخر، وهو يستدير نصف استدارة، فى إبطه تقريبا. لم يحدث به تلف قاتل، وهو ما أفزع إينمان كثيرا. سقط الرجل على ركبتيه، قابضا على البندقية أمامه.

قال إينمان، لو أنكم بقيتم فى بيوتكم لما حدث هذا. حاول الرجل أن يؤرجح البندقية السبرنجفيلد الطويلة جانبا لينقض على إينمان، لكن إينمان أطلق النار على صدره من مدى قريب للغاية إلى حد أن ومضة الفوهة أشعلت النار فى سترته.

كان الفلادلفيان قد سقطا غير بعيد عن أعلى الكهف، ولذا فإن إينمان سحبهما إلى داخله وأجلسهما معا. وعاد وأتى بالبندقيتين السبرنجفيلد ووضعهما لصق الحائط بين الرجلين، ثم هبط إلى الوادى الضيق. تحت شجرة الشكران وجد أن الدجاجة الباقية قد تحررت ورأسها غاطس فى بطن إيبن النيويوركى المفتوحة. كانت تنقر لب اللحم الغنى بالألوان الذى تفجر من معدته.

نبش إينمان فى جيوب الرجل بحثا عن مواد سجائر ثم جلس القرفصاء على الأرض وراح يراقب الدجاجة وهى تعمل. لف سيجارة ودخنها حتى آخرها ودعك نارها على كعب حذائه. تذكر أغنية مقدسة تغنى عادة بلحن مصاحب، لكنه دندن قليلا منها لنفسه وفكر فى الكلمات. كانت ما يأتى:

زال الخوف من القبر إلى الأبد.

عندما أموت سوف أحيا ثانية.

سوف تبتهج روحى بالنهر الكريستالى

عندما أموت سوف أحيا ثانية

التسبيح لله سوف أحيا ثانية.

قرر إينمان أن يتأمل ما كان أمامه فى هذا السياق. لم يكن هذا يشبه أى شىء بجانب ساحة المعركة أمام الطريق الغائر عند فريدريسكبورج أو الفوضى المتراكمة فى قاع حفرة الانفجار. من الممكن أن يكون قد قتل أى عدد من الرجال أكثر إرضاء فى كل خصائصهم من ايبن. وعلى الرغم من ذلك، فإنه قدر أن هذه قصة قد لا يحكيها أبدا.

نهض وقبض على الدجاجة من رجليها وجذبها بعيدا عن النيويوركى وحملها إلى الجدول وقلقلها فى الماء حتى عادت بيضاء مرة أخرى. ربط قدميها بقطعة من خيط الاتحاديين الغليظ ووضعها على الأرض. لوت رأسها وراحت تنظر إلى العالم من خلال عينها السوداوين بما بدا لإينمان أنه مستوى جديد من الاهتمام والحماسة.

جر النيويوركى من قدميه إلى الكهف واجلسه بالداخل مع رفيقيه. كان الكهف صغيرا إلى حد أن الرجال جلسوا فى دائرة تقريبا. بدوا مذهولين ومتحيرين، وبدوا فى سلوكهم أشبه بمخمورين على وشك أن يلعبوا دورا من الورق. ومن التعبيرات التى بدت على وجوههم، بدا الموت كأنه قد حل بهم بما يشبه الانقباض النفسى كثيرا، تحطم الروح المعنوية. أخذ إينمان عصا فحم نباتى من النار القديمة عند مدخل الكهف ورسم على جداره رسومات تخطيطية لحيوانات لحاف سارة التى لاحقته فى عالم أحلامه فى الليلة السابقة. تلاءمت الصور التى رسمها فيما يشبه صلة قربى حميمة مع الخربشات الأثرية القديمة التى رسمها الشيروكيون هناك أو أيا كان نوع الشخص الذى جاء قبلهم.

عاد إينمان إلى الساحة المكشوفة وتحقق من الجياد ورأى أن بها وسمات الجيش، مما أحزنه. فك رباطها وقام بثلاث رحلات إلى الكهف، وهو يجر معدات الاتحاديين لترقد معهم، كلها فيما عدا مخلاة تحمل على الظهر. وضع فيها

الدجاجتين المطهيتين قاد الجياد إلى أعلى الخليج فيما وراء الكهف بعيدا وأطلق الرصاص على رءوسها. لم يكن ذلك شيء يسعده أن يفعله، لكن لما كانت تحمل علامات لم يكن هناك سبيل أخر لا يهدد بأن يرتد عليه أو على سارة. وعندما عاد مرة أخرى إلى المخيم، وضع الدجاجة الحية فى المخلاة مع الدجاجتين المطهيتين وعلقها فوق كتفه. فك رباط الخنزير وجذبه من الحبل، ثم غادر هذا المكان مديرا ظهره له.

عندما عاد إلى الكوخ. كانت سارة قد أشعلت نارا قوية فى الفناء. وفوقها قدر أسود به ماء يغلى ويرسل سحابة من البخار فى الهواء القصيم. كانت قد غسلت ملابسه وكانت منشورة على شجيرات لتجف. أمال إينمان رأسه إلى الوراء بإتجاه الشمس ورأى أن الوقت لا يزال صبحا رغم أنه لم يبد له أن من المحتمل أن يكون لا يزال كذلك.

أعدا غداء مبكرا من الدجاجتين المطهيتين وشرعا يعملان. فى خلال ساعتين كان الخنزير يتدلى - بعد أن ذبح، وسمط، وكشط عنه الشعر- شاحبا من فرع شجرة ضخم من عصا لتعليق الذبائح أدخلت فى أوتار عضلات قدميه. وكانت أعضاؤه المختلفة وسوائله ترسل بخارا من أحواض خشبية موضوعة على الأرض. وكانت الفتاة تعمل على حوض لتسييح دهن الخنزير. أمسكت بلوح من غشاء دهنى ونظرت خلاله كما لو كانت شالا من الدنتيلا، ثم لفته على شكل رزمة ووضعته فى الحوض لتسيحه. قسم إينمان الذبيحة ببلطة. شطر كلا من العمود الفقرى حتى سقط الخنزير جانبين من اللحم، أعاد تقسيمهما بطول المفاصل بشكل التصنيفات الطبيعية للحم الخنزير.

عملا حتى قرب حلول الظلام، وسيحا كل الدهن إلى شحم، وغسلا الأمعاء لعمل مصارين مطبوخة، وطحنا وعلبا الملحقات والنفايات فى نقانق، وملحا لحوم فخذ الخنزير ولحم الخاصرتين، ونقعا الرأس حتى يخرج منها الدم ليجهزاه للتخليل.

اغتسلا وذهبا إلى الداخل، وشرعت سارة تحضر العشاء فى حين راح إينمان يتناول وجبة خفيفة من جلد الخنزير المشوى كانت تنوى أن تضيفه إلى خبز الذرة. وحيث أن الكبد والرئتين لا تدوم فترة طويلة، فقد طهت منها نوعا من

اليخنى، متبلا بكثير من البصل والفلفل الحامى. أكلا ثم توقفا واستراحا . ثم أكلا ثانية.

وبعد العشاء قالت سارة، أعتقد أنك كنت لتبدو أفضل حالا نوعا ما لو أنك حلقت.

قال إينمان، إذا كان لديك موسى سأحاول.

ذهبت إلى الحقيبة الكبيرة ونبشت فيها وعادت بموسى ومشحذا ثقيلا من جلد مدهون بالزيت. وضعتهما فى حجر إينمان.

قالت، كان ذلك لجون أيضا.

غرفت ما يكفى من الماء للحلاقة من ماء الدلو فى وعاء أسود ووضعته ليسخن فوق النار. وعندما بدأ الماء يبخر صبته فى حوض اليقطينة الصغير. أشعلت شمعة فى حامل قصديرى، وحمل إينمان كل شىء إلى الخارج وبسطه على لوح الغسيل عند نهاية الشرفة.

شحذ إينمان الموسى وبلل لحيته. رفع الموسى ولاحظ لوثة دم بنية اللون على أسورة قميص جون. لوثة دم رجل أو خنزير. نظر فى المرآة المعدنية، ووضع حد الموسى على وجهه، وشرع يعمل فى ضوء لهب الشمعة الخافق.

لم يكن قد أعتاد على أن يكون حليق الذقن منذ العام الثانى للحرب، وكانت مشاعره مختلطة حول رؤية مظهره بعد كل ذلك الوقت. كشط الشعر حتى ثلم الموسى وأعاد شحذه. لم يرق له أن يشاهد نفسه فترة تكفى للحلاقة، وكان ذلك أحد أسباب توقفه عن الحلاقة. لذلك السبب ولصعوبة تتبع مسار الموسى وتسخين ماء خلال السنتين الماضيتين بدا له إطلاق لحيته شيئا مخصوما مما ينبغى عليه أن يُخفق فيه.

استغرق العمل الحالى بعض الوقت. لكن وجهه تعرى فى نهاية الأمر. كانت المرآة قد صدئت فى رقع متناثرة بنية اللون، وعندما نظر إينمان إلى نفسه فيها، بدا وجهه الشاحب مبقعا بجروح ذات قشور. كان بالعينين اللتين تعيدان النظر فيه شق ونوعية انحراف جانبى لم يكن يذكرها. مظهر ذابل أجوف للملامح أكثر من مجرد الجوع إلى الطعام.

قال إينمان لنفسه إن ما يطل من هناك الآن مختلف كل الاختلاف عن زوجها الفتى. وجه قاتل أودع فى المكان الذى كان جون يطل منه يوما ما. وتساءل: ماذا

يكون رد فعلك لو أنك جلست بجوار نار فى الشتاء ورفعت بصرك إلى نافذة سوداء ورأيت ذلك الوجه يبادلك التحديق؟ أى نوبة مرض أو تقلص يمكنه أن يفجره؟

ما كان إينمان جديرا به، مع ذلك، هو أنه حاول أن يصدق أن مثل هذا الوجه لم يكن هو شكل حقيقى ويمكن أن يتغير بمرور الوقت نحو الأفضل.

عندما عاد إلى الداخل، ابتسمت سارة له وقالت، إنك تبدو انسانا جزئيا الآن.

جلسا وراحا ينظران إلى النار وأرجحت سارة الطفل بين ذراعيها. كان الطفل يسعل سعالا مختنقا. قدر إينمان أن هناك القليل من الأسباب التى تجعله يتوقع أن يخرج من نهاية الشتاء حيا. كان يتموج بضيق بين ذراعى سارة ولم يكن لينام ولذا فإنها غنت له أغنية.

وغنت هى كما لو كانت خجلة من الأصوات التى تصدر عنها، بالطريقة التى تعبر بها حياتها عن نفسها بصوت عال. وعندما بدأت، بدا أن سدا قد قام فى حلقها. ولذا فإن الغناء الذى أفلت منها خرج بجهد كبير. كانت قوة الهواء التى تأتى من صدرها بحاجة إلى مكان ما تذهب إليه، لكن هذه القوة حين وجدت الفك ثابتا مستقرا وناتئا إلى الأمام والفم مزموما ضد الموسيقى، فإنها سلكت السبيل البعيد لتخرج ووصلت إلى التعبير بنبرات أنفية عالية سماعها مؤلم من وحشتها.

سرى الغناء حادا فى الغسق ونطقت نبراته باليأس، والحنق، يوحى بالفزع. بدا غناؤها على خلفية مثل هذه المقاومة أشجع ما صادفه على الإطلاق تقريبا. كان أشبه بمراقبة صراع مرير يصل إلى نتيجة باهظة الثمن. كان صوتها صوت امرأة من القرن الماضى تعيش فى الحاضر، عجوزا ومتعبة للغاية. كانت سارة مثل هذا الطفل تحدث صوتا بتلك الطريقة. ولو أنها كانت امرأة عجوزا كانت تغنى منذ زمن طويل فى شبابها بشكل جميل، لأمكن للمرء أن يقول إنها قد تعلمت استخدام طبيعة صوتها لتصل به إلى أقصى تأثير، وأن ذلك كان درسا فى كيف يحيا الإنسان حياته وهو معطوب، فى كيف يتصالح معها وأن يستخدمها فى حدود ما يمكنها أن تفعله. لكنها لم تكن امرأة عجوزا. كان التأثير غامضا رهيبا، مزعجا. كنت لتظن أن الطفل سيبكى كدرا وهو يسمع أمه

فى مثل هذه الحالة، لكنه لم يفعل. غلبه النعاس بين ذراعها على صوت أغنية مهد

لكن كلمات الأغنية، رغم ذلك، لم تكن أغنية مهد. كانت تترابط لكى تنشئ أغنية رهيبة، موالا عن جريمة قتل يدعى « مارجريت الحسناء ووليام اللطيف » كانت أغنية قديمة، لكن إينمان لم يكن قد سمعها من قبل. كانت أبياتها ما يلى:

حلمت أن أيكتى مليئة بالخنازير الحمر،

وسرير عرسى ملئ بالدم.

وعندما فرغت من تلك الأغنية بدأت أغنية « الغريب عابر السبيل »، تدندنها فحسب فى أول الأمر وهى تدق بقدميها. وعندما ارتفعت طبقة صوتها بالغناء فى آخر الأمر، كانت تحمل قليلا من الانتساب إلى الموسيقى بل أقرب شبها بقصيدة خطابية ضائقة ضيقا مؤلما عن علة الروح. صيحة ودهشة حادة قاحلة صافية وغير مخففة مثل الألم الذى يعقب ضربة حادة على الأنف. وعندما فرغت منها، ساد صمت طويل يقطعه فحسب صوت بومة تنعب فى الغابات السوداء، نهاية ملاءمة لأغان مثقلة بموضوعات الموت والعزلة تحمل أكثر من الماح إلى عالم الأشباح.

كان من الممكن ألا يعطى قربان سارة بمثل هذه الموسيقى أى أمل فى السلوى، لا للطفل ولا، على وجه الخصوص، لإينمان. كم كان مستبعدا أن يمكن لمثل هذه الهيبة القاسية أن تدر تخفيفا للحزن عندما تكون هى ذاتها كئيبة. ومع ذلك فقد كان ذلك هو الحال، فعلى الرغم من أنهما لم يتبادلا حديثا كثيرا بقية الأمسية، فإنهما جلسا جنبا إلى جنب أمام المدفأة، متعبين من قضية الحياة، راضيين ومستريحين وسعيدين، وفيما بعد رقدا معا فى السرير.

وقبل أن يشرع إينمان فى القيام برحلته على الطريق فى صباح اليوم التالى، تناول مخ الخنزير مسلوقا ومخفوقا مع بيضة من الدجاجة التى كانت تأكل من المغير الذى أتى من نيويورك.

عقل مستريح

قضت إيدا وروبى معظم فصل الخريف تعملان على التفاح. جاء التفاح وفيرا وكان يجب أن يقطف ويقشر ويقطع إلى شرائح ويعصر؛ عمل نظيف ومبهج، فى الهواء الطلق بين الأشجار تتعاملان مع الفاكهة. وكانت السماء فى معظم الوقت زرقاء صافية، والهواء جافا. والضوء، حتى عند منتصف النهار، قصيفا وطروبا، حتى أنه ينبئ عن اقتراب العام من نهايته بالزاوية التى يسقط بها فحسب. كانتا تذهبان فى أوقات الصباح تحملان سلمين خشبيين والندى لايزال قائما فى عشب البستان. تتسلقان بين فروع الشجر لتملآ الجوالات بالتفاح، والسلمان يتأرجحان والفروع التى يستندان إليها ترتج تحت ثقلهما. وعندما تمتلئ كل الجوالات، تحضران الحصان ليجر الزحافة إلى البستان، وترفعانها عليها، وتفرغانها وتبدآن ثانية

كان عملا متعبا على نحو معتدل، وعلى عكس العمل بالتبن، ينتج عنه صورة ثابتة مفعمة بالإحساس بالأمان فى عقل إيدا وهى ترقد فى فراشها بالليل: تفاحة حمراء أو صفراء تتدلى من فرع متدل، وخلفها السماء عميقة الزرقة، وكفها إلى أعلى، تمدها إلى التفاحة لكنها لاتلمسها.

ولوقت طويل أكلت إيدا وروبى تفاحات فى كل وجبة، وهما تقليان وتسلقان وتعملان فطائر ومرقا. جففتا دوائر منها فى قصاصات صغيرة من جلد التفاح.

كانتا تخزنانها فى حقائب من القماش وتدليانها من السقف فى المطبخ. وذات يوم أشعلتا نارا فى الفناء وعملتا غلاية سوداء من مربى تفاح بالتوابل كبيرة إلى درجة أنهما عندما وقفتا فوقها وراحتا تحركان هريس التفاح بعصى خشبية، أعاد المنظر إلى ذاكرة إيدا منظر الساحرات فى ماكبث وهن تعملن على صنع شراب مخمر. جاءت مربى التفاح غليظة، بلون عدة الدابة القديمة من التوابل والسكر البنى اللون، وأحكمتا سد ما يكفى منها فى جرار فخارية لتأكلا منها مدة عام. عصرتا عصير تفاح لتخميره من نفايات تفاح وتفاح متساقط، وأطعمتا الخنازير تفل التفاح، لأن روبى قالت إنه سوف يجعل اللحم حلوا.

تجمد عصير التفاح المخمر إلى درجة تكفى لأن تكون له قيمة ما الآن، ولذلك السبب ذهبت روبى فى عصر أحد الأيام فى مهمة تجارية. كانت قد سمعت أن رجلا يدعى آدامز قد ذبح بقرة، وانطلقت بإبريقين من العصير المخمر لترى كم يجلبان من اللحم. تركت إيدا تعمل فى مهمتين. أن تحرق الأغصان المقطوعة التى نتجت عن تنظيف جزء من الحقل السفلى المهمل. وباستخدام الأسلوب الذى علمته لها روبى، أن تشطر القطع الدائرية الست من زند خشب البلوط الذى اكتشفتاه مقطعا سلفا إلى أطول فى الحشائش الطويلة على طرف الحقل. وليكن ذلك استهلالا طيبا فى أعمال الخشب، فسرعان ما سوف تحتاجا إلى أن تذهبا إلى الجبل وأن تقطعا شجرة جوز أو شجرة بلوط، وتفصلا فروعها، وتدعا الحصان يجرها إلى البيت بخطاف لتقسيمها إلى قطاعات وشطرها. كانت إيدا قد تساءلت إن كان لديهما القوة لمثل هذا العمل، لكن روبى ناقشت بالتفصيل أن الأمر لا يتطلب بالضرورة قوة صرفة. مجرد قياس المسافات والصبر والإيقاع. اجذبى المنشار وأفلتيه. انتظرى حتى يجذبه الشخص الواقف عند الطرف الآخر ثم اجذبى مرة أخرى. تجنبى الربط. قالت روبى، إن الشيء الأساسى هو ألا تسبقى أوانك. اعملى بإيقاع يمكن تواصله بلا انقطاع. افعلى فقط ما يمكنك أن تفعليه وأنت ما زلت قادرة على النهوض من الفراش والعمل ثانية غدا. لا أكثر، ولا أقل.

راحت إيدا تراقب روبى وهى تسير على طول الطريق وقررت أن تشطر زنود الخشب أولا وأن تستمتع بالمدفأة فى وقت العصر الرطيب. مشت من الحديقة إلى مخزن الأدوات وجاءت بمدق وإسفين وحملتهما إلى الحقل السفلى وداست دائرة فى الحشائش التى ترتفع إلى مستوى الخصر حول كتل البلوط لتفسح

مجالا للعمل. كانت الزنود راقدة على جنبها ترتفع إلى ما يزيد على قدمين بعرض أطراف القطع. كان الخشب رماديا، لأنه رقد منسيا منذ أن قطع الأجير الشجرة من سنتين أو ثلاث سنوات مضت. وقد حذرتها روبى من أن زنود الخشب الجافة لا تنشطر بسهولة مثلما تنشطر وهى طازجة ومبتلة.

أقامت إيدا أسطوانات الخشب الكبيرة على حدِّها، وهى تشعر بالطريقة التى تلتصق بها بالأرض، وعندما أقامتها معتدلة وجدت خنافس الأيل السوداء اللامعة بحجم إبهامها تحفر جحورا فى اللحاء الذى يتعفن. أقبلت على العمل كما أوضحت لها روبى، بفحص طرف القطع بحثا عن شق محتمل، ثم العمل فيه بالإسفين. والتحرك ببطء، بلا إجهاد، برفع المطرقة التى تزن سبعة أرطال فحسب وتركها تسقط حتى يتآلف الوزن والجاذبية والزاوية السحرية لتشطر الزند. كان يروق لها أن تدفع الإسفين إلى منتصف المسافة ثم تتوقف لتنصت عدة ثوان بعد الضربة الأخيرة. كان العمل هادئا على الرغم من الطرق العنيف. كان تماسك الخشب العنيد وثقل المطرقة يفرضان إيقاعا بطيئا على العمل. وفيما لا يزيد على ساعة كانت إيدا قد شطرت كل شىء سوى مقطع صعب حيث ارتبطت الفروع الكبيرة بالجذع ذات يوم وأربكت اتجاه الألياف. ومن كل مقطع شطرت ثمانى قطع جيدة الحجم لخشب المدفأة وقدرت أن هناك أربعين قطعة ترقد مختلطة بلا ترتيب على الأرض جاهزة لأن ترفع إلى البيت وتحرق. شعرت بإحساس عظيم بالإنجاز حتى أدركت أن الخشب سيفى بالغرض لمدة أربعة، ربما خمسة أيام من الإشعال. شرعت تحسب عدد القطع التقريبى الذى تحتاجانه للشتاء كله، لكنها سرعان ما توقفت لأن الرقم سيكون مرتفعا بشكل يثبط الهمة.

كان ثوب إيدا منقوعا كله بطول كتفيها وظهرها بالعرق، وشعرها لصق رقبتها مبتلا. ولذا ذهبت إلى البيت وشربت مغرفتين من الماء من النبع وخلعت قبعتها وصبت ملعقتين أخريين فوق شعرها ثم اعتصرت الماء منه. بللت وجهها ودلكته بيديها ثم جففتهما على كم ثوبها.

دخلت البيت وأحضرت المكتب الذى تضعه على حجرها ودفترها وخرجت لتجلس فى الشمس على حافة الشرفة حتى جفت.

غمست إيدا قلمها فى الحبر وشرعت تكتب خطابا إلى ابنة عمها لوسى فى تشارلستون. ولبعض الوقت لم يكن هناك بالكاد صوتا سوى خدش سن القلم على الورق وهى تكتب.

أظن أنك لو رأيتنى الآن فى شـــارع مـاركـيت، لما عـرفـتنى، ولا أن تحرصى على هذا كثيرا، إذا رأيت افتقارى الحالى إلى رقة المظهر والزى.

أنا جالسة فى هذه اللحظة على عتبة الباب الخلفية أكتب هذا على ركبتى، وثوبى بلوزة من قميص مبتل ابتلالا كاملا بالعرق من شطر كتل البلوط، وكنت أرتدى قبعة من القش قابلة لأن تنفك عند حافتها وقمتها حتى أنها تنتصب بخشونة تماما مثل أكوام التبن التى سكنًّا إليها منذ وقت طويل لننتظر نهاية العواصف المطيرة (هل تذكرين؟). إن الأصابع التى تمسك بالقلم قاتمة مثل جلود الركاب، ملطخة من تقشير الجوز عن قشوره اللبابية النتنة، وظفر السبابة مشرشر مثل منشار ويحتاج إلى تقليم. والسوار الفضى الذى نقشت فيه زهور شجر القرنوس يبرز بتنافر لامع مع جلد رسغى الأسود. إنه يوم خريفى إلى درجة أن كتابة أى شىء عنه سوف يعنى أن أشغل نفسى بكتابة مرثية. إننى استريح وانتظر أن يجف الثوب قبل أن أوجه اهتمامى إلى إشعال كومة من الأغصان المقطوعة.

لا أستطيع أن أبدأ فى سرد كل العمل الشاق الذى قمت به فى الزمن الذى انقضى منذ وفاة أبى. إننى بنية اللون مثل بنس من بقائى بالخارج طول اليوم. وقد أصبحت مفتولة العضلات عند الرسغين والساعدين. وأرى فى المرآة وجها أكثر صلابة بعض الشىء عما كان عليه سابقا، أكثر تجويفا تحت عظام الوجنتين. وأظن أن تعبيرا جديدا قد كساه أحيانا. ومع العمل فى الحقل. هناك أوقات قصيرة أروح فيها وأغدو بلا تفكير. لاتومض بعقلى فكرة واحدة، على الرغم من أن حواسى يقظة لكل ماحولى. فإذا طار غراب فوقى، فإننى أحدده بكل تفاصيله، لكننى لا أبحث عن تماثل لسواده. أعرف أنه طراز من لاشىء، لا استعارى. شىء بالنسبة لنفسه بدون عقد مقارنة. أعتقد أن تلك اللحظات هى أس طلعتى الجديدة. لن تتعرفى فيها علىّ لأننى أظن أنها تنتسب بشكل ما للرضا.

أمعنت النظر فى الخطاب ورأت أنه أمر غريب وخادع بعض الشىء ألا تذكر روبى، بحيث تعطى الانطباع بأنها وحيدة. ولتفكيرها فى تصحيح الأمر، وضعت الخطاب دون أن يكتمل بداخل غطاء المكتب. جمعت مذراة، بعض الكبريت، شالا، المجلد الثالث من *آدم بيد*، وكرسيا مستقيم الظهر قد نشرت قوائمه بحيث صارت قصيرة وحملتها إلى كومة الأغصان المقطوعة.

كانت هى وروبى قد عملتا بمناجل وخطاطيف الأغصان المقطوعة ومناشير مقوسة معظم يوم فى الشهر السابق وتركتا الأغصان تسقط حيثما شاءت. وكان الخليط من سيقان التوت الأسود والحشائش الطويلة، وأغصان الصنوبر والسوماق قد ظلت منتشرة على الأرض وأصبحت الآن جافة إلى حد معتدل. عملت إيدا فترة قصيرة بالمذراة لتجمع الأغصان معا.

وعندما فرغت كانت الكومة كبيرة مثل كوخ ذرة والهواء محملا بالرائحة الذابلة للأغصان المقطوعة وأوراق الشجر الجافة. جمعت بعض غبار الفحم وبعض عصى ضعيفة على حافة الكومة وأشعلت فيها النار. وبينما كانت النار تنشب فيها وتشعلها جذبت الكرسى القصير فى مدى دفئها وجلست تقرأ *آدم بيد*، لكن الكتاب لم يرق لها. لم يكن بمقدورها أن تركز فيه لأنها كانت مضطرة إلى النهوض فى أغلب الأحيان لتحول دون امتداد اللهب الذى يشرد عبر ماتبقى من الزرع بعد حصده فى الحقل. أطفأته بطرقه بظهر المذراة. ثم، عندما اشتعلت النار بشكل مسطح، كان عليها أن تلملم الكومة معا وأن تكومها عاليا مرة أخرى، وفى كل مرة بقطر أضيق، وعندما تقدم وقت العصر قامت الكومة طويلة ومخروطية الشكل فى الحقل، وألسنة اللهب تتصاعد منها مثل بركان منمنم يقذف الحمم كانت قد رأته مصورا فى كتاب عن أمريكا الجنوبية.

وهكذا عملت تبريرا لعدم تركيز أفكارها على الصفحة. لكنها أيضا منذ فترة طويلة قد نفد صبرها مع آدم وهيتى وباقى الشخصيات وكانت لتترك الكتاب لولا حقيقة أنها قد دفعت الكثير فيه. ودت لو أن كل شخصيات الرواية كانت أكثر قابلية للتمدد، ليست مقيدة بالظرف إلى هذا الحد. كانت بحاجة إلى مجال أوسع، مدى أفسح. قالت توجههما، اذهبوا إلى الإنديز. أو إلى الأنديز.

علمت المكان الذى توقفت عنده بساق نبات الألفية وأغلقت الكتاب ووضعته فى حجرها. تساءلت ما إذا كان الأدب يفقد بعض الاهتمام الذى يثيره عندما تصل إلى عمر أو إلى حالة نفسية حيث تكون حياتها مستقرة فى مجرى واثق حتى يمكن للأشياء التى تقرؤها أن تكف عن أن تبدو اتجاهات بديلة لوجودها بهذا الشكل القوى.

كان نبات الثور الشائك يقوم بجانبها. تذكرت أنها عملت فيما حول النبات بالمنجل بسبب إعجابها بأول زهرة أرجوانية بلغت حجمها الطبيعى، لكنه كان

الآن جافا وأبيض فضيا. كان تفكيرها أنه حيث إن كل مكان دقيق فى العالم يبدو كأنه يصنع وطنا لمخلوق ما، فإنها يمكنها أن تكتشف من يكون سكان نبات الثور. وسرعان ماتطاير الزغب مع النسيم وأمسك بثيابها وشعرها المدخنة. لم تجد إلا شيئا ضئيلا متوحشا مثل سرطان البحر ليس أكبر من رأس دبوس يعيش وحيدا بداخل الزهرة المجففة. كان يمسك بخيط زغب ببعض أرجله الخلفية ويلوح بطرفى كماشة دقيقة أمامه بطريقة يقصد منها أن تحمل تهديدا. وبنفخة أطاحت بزغب النبات الشوكى النيِّر والمخلوق الذى لا اسم له وراحت تراقبهما وهما يدخلان فى تيار هواء صاعد ويحومان حتى اختفيا باتجاه السماء مثلما يزعمون أن أرواح الموتى تفعل.

عندما كانت قد أشعلت النار فى أول الأمر وشرعت تقرأ، كان الضوء مشرقا ومستويا والسماء متدرجة بشكل مستو للغاية من الأفق حتى السمت، بدرجات من الأبيض حتى الأزرق، على النحو الذى ترتبط به إيدا بلوحات المناظر الطبيعية التى تقل نوعيا عن أرفع نوعية. لكن خاتم المساء كان الآن على جوانب التلال التى تكسوها الغابات وعلى المراعى. تفجرت السماء بشرائط ولفات حلزونية ذات ألوان خافتة حتى أصبح الغرب كله مثل أطراف أوراق دفتر يومياتها الرخامية اللون. طار بط كندا، وهو يقوق، بشكل ٧، فوقها متجها إلى الجنوب، يبحث عن مكان يقضى فيه الليلة. هب نسيم وخفقت تنورة خيال المآتة فى الحديقة.

كانت والدو قد ذهبت إلى البوابة بجوار مخزن الغلال. كانت تنتظر وسرعان ما تزعق طالبة نزع كيسها عنها، ولذا تركت إيدا كرسيها ووضعت البقرة فى مربطها وحلبتها. كان الهواء ساكنا ورطبا، يبرد مع أفول النهار، وعندما أدارت البقرة رأسها لتنظر خلفها إلى الحلب، تضببت أنفاسها وفاحت برائحة مثل رائحة الحشائش المبتلة. راحت إيدا تجذب الضروع وتراقب الحليب يخرج وهى تنصت إلى التغير فى طبقة صوته والدلو يمتلئ، فى أول الأمر نشيش عال على الجوانب والقاع، ثم رذاذ أبطأ. كان جلد أصابعها قاتما على خلفية جلد الضلع الوردى.

بعد أن وضعت إيدا الحليب فى المبنى الصغير الذى يقع فوق النبع، جذبت شالها حولها. قدرت أنه لن تمر أيام حتى تصبح الأمسيات أكثر برودة من أن تجلس فى الخارج عند غروب الشمس، حتى لو التفت ببطانية. كان هناك ندى

على الحشائش، فانحنت والتقطت آدم بيد من حيث أسقطته ومسحت وجهه على تنورتها. ذهبت وحركت النار بالمذراة فأطلقت شرارات فى السماء. جمعت فروع شجرة الجوز وفروع الصنوبر الجافة المتساقطة على الأرض، من على حافة الحقل، وألقت بها بالمذراة على النار وسرعان ما توهجت وسخنت دائرة أوسع من الهواء. جذبت إيدا كرسيها قرب النار ومدت يديها لتستدفئا. نظرت إلى خطوط حواف الجبل، وتنوع ظلمتها وهى تتلاشى على البعد. تفحصت السماء لترى متى تخلد للنوم بما يكفى باتجاه اللون الأزرق الداكن حتى تسطع منارتا كوكبين. الزهرة وكوكب آخر - قدرت أنه إما كوكب المشترى أو زحل - قريب من الأرض فى أول الأمر فى الغرب استعدادا لدوران سماء الليل وتدويمها المصابين بالدوار.

وفى هذه الأمسية حددت المكان الذى تندفع فيه الشمس نحو الأفق، فعلى امتداد أسابيع كانت قد زاولت ملاحظة نقطة أفولها على الحافة، كانت قد راقبتها وهى تسير باتجاه الجنوب والأيام تنطفئ أكثر وأكثر بكورا.

وإذا قررت تماما أن تعيش هنا فى الخليج الأسود حتى الموت، فإنها كانت تعتقد أنها ستقيم أبراجا على الحافة تحدد نقاط شمال وجنوب دوران الشمس السنوى. كانت تمتلك مسافة امتداد الحافة بكاملها حيث تغرب الشمس خلال العام، وكان ذلك شيئا يستحق التذوق. كان على المرء عندئذ أن يحدد النقاط فى ديسمبر ويونية حين تنتزع الشمس نفسها من مسارها وتنعطف لتبدأ مجموعة أخرى من المواسم. وعلى الرغم من ذلك فإنها قررت بعد تفكير أنها لم تكن بحاجة ملحة إلى برج. أن تزيل بعض الأشجار فقط.

لتحز الحافة عند نقطة التحول. وسيكون مدعاة سرور عظيم أن تراقب عاما بعد عام انتظارا لاقتراب الشمس من الحز ثم تسقط عنده فى يوم محدد ثم ترتفع منه وتعود أدراجها لتتبع مسارها. وربما تجعل مراقبةُ هذا يحدث، على امتداد الزمن، مرارا وتكرارا، السنةَ تبدو لا تقدما رهيبا فى خط واحد بل دورانا فى حلقة وعودة. تعقب أثر مثل هذا الشيء يحدد مكان الشخص، يكون طريقة لأن يقول، أنت هنا، فى هذا الموضع الواحد، الآن. سيكون إجابة عن سؤال، أين أنا؟

جلست إيدا بجوار النار مدة طويلة بعد غروب الشمس تنتظر عودة روبى. كان كوكب الزهرة وكوكب زحل قد سطعا مشرقين فى الغرب ثم هبطا عند الأفق

وطلع بدر، حين سمعت إيدا حركة فى الغابات. وقع أقدام فى الأوراق الجافة. أصواتا خافتة. وبدافع غريزى أخذت المذراة من حيث كانت تقوم فى التراب وتحركن بعيدا عن ضوء النار. تحركت أشكال على حافة الحقل وتراجعت إيدا أكثر فى الظلام وأمسكت بالمذراة أمامها وشعبها الخمس الحادة مصوبة نحو أصوات الحركة. ثم سمعت اسمها.

صاح صوت بصوت خافت: هيى، أنسة إيدا مونرو.

نطق كلا الاسمين بالطريقة التى كان أبوها يكرهها. لم يتعب مطلقا من تصحيح الناس فى هذا الشأن. كان يقول، ألف استهلالية عريضة فى إيدا، المقطع الثانى مشدد النبر فى مونرو. ولكن إيدا كانت قد كفت، خلال الصيف، عن محاولة أن تفرض اسمها على التعلم الطبيعى لكل شخص، وكانت هى تتعلم أن تكون إيدا مونرو التى ينادى بها الصوت. ألف طويلة ومون ثقيلة.

قالت: من؟

– نحن.

خرج ستوبرود بصحبة رفيق لتضيئهما النار. كان ستوبرود يحمل كمانه وقوسه محتضنين فى عقفة ذراعه اليسرى، والرجل الآخر يحمل آلة بانجو صيغت بشكل خشن من رقبتها، وقد أبرزها أمامه مثل رجل عند معبر حدود يقدم أوراقه لإثبات هويته. أصاب كليهما حَوَلٌ فى وهج النار الصارخ.

نادى ستوبرود مرة ثانية، أنسة مونرو. إنه نحن فحسب.

اقتربت إيدا منهما أكثر، وقد أقامت يدا فوق جبينها لتحجب الضوء.

قالت: روبى ليست هنا.

قال ستوبرود: إننا نقوم بزيارة فحسب عموما. إذا لم يكن لديك مانع للصحبة.

وضع هو والرجل الآخر آلتيهما وجلس ستوبرود على الأرض إلى جوار كرسيها. جذبته إيدا إلى مسافة مريحة بعيدا عنه وجلست هى الأخرى.

قال ستوبرود للرجل الذى يحمل البانجو: جئنا ببعض خشب أكثر لنحيى النار.

وبدون أن ينطق بكلمة، ذهب الرجل داخل حافة الغابات المظلمة، واستطاعت إيدا أن تسمعه يلتقط الفروع ويكسرها بأطوال احتراق. نبش ستوبرود أسفل

معطفه وأخرج زجاجة شراب من جيبه سعة ثمن جالون ممتلئة بشراب بنى اللون. كان زجاجها باهت اللون معتما تقريبا بخدوش وبصمات أصابع. فتح السدادة ومرر الفوهة تحت أنفه. و أمسك بالزجاجة فى ضوء النار ونظر إلى الضوء من خلال الويسكى ثم رشف رشفة رقيقة. أصدر نغمة ضئيلة هامسة من نغمتين، من نغمة عالية إلى نغمة منخفضة.

قال: أطيب من أن يكون لى. لكننى سأشربه على أى حال.

جرع جرعة طويلة ثم عمل على إدخال السدادة بإبهامه ونحّى الزجاجة جانبا.

قالت إيدا: لم نرك منذ فترة. هل كنت بخير؟

قال: نوعا ما. فالحياة فى الجبل مثل خارج على القانون ليست لهوا.

تذكرت إيدا القصة التى سمعت الأسير يقصها من خلال قضبان السجن. شرعت تحكيها لستوبرود تحذيرا له مما ينتظر المشردين، لكنه كان يعرفها سلفا. فقد دارت فى المقاطعة عدة مرات، كأخبار أولا ثم كحكاية ثم فيما بعد كأسطورة.

قال ستوبرود: إن جماعة تيج قتلة. وهم على الأخص هكذا عندما يجدون أعدادا من الناس فى صفهم.

عاد جامع الخشب إلى الضوء وألقى ببعض الأغصان المكسورة على النار ثم قام بعدة رحلات داخل الأشجار لجلب مزيد من الخشب، كوّمه لاستخدامه فيما بعد. وعندما فرغ من عمله جلس على الأرض بجوار ستوبرود. لم يفه الرجل بكلمة ولم ينظر إلى إيدا، لكنه زوى نفسه بعيدا عن النار حتى يمكنه أن يراقب ستوبرود.

سألت إيدا: من هو رفيقك؟

– إنه فتى من عائلة سوانجر، أو من عائلة بانجل. أحيانا يقول شيئا، وأحيانا يقول شيئا آخر. وأى من الجماعتين لايعترف به، لأنه معتوه، لكنه له مظهر عائلة بانجل بالنسبة لى.

كان للرجل رأس مستدير كبير يقوم بغير توازن على كتفيه كما لو كان الله متفكها فى صنع أعضائه الداخلية صغيرة للغاية. وعلى الرغم من أنه كان فى

الثلاثين تقريبا حسبما قال ستوبرود، فإن الناس كانوا ينادونه بالصبى لأن أفكاره لم تكن لتحيط بأقل لغز. لم يكن بالعالم، بالنسبة له، أى ترتيب فى تعاقبه، لا سببية ولا سابقة. كل ماكان يراه صك حديثا، ولذا كان كل يوم عرضا من الأعاجيب.

كان رجلا بدينا رخوا، ذا عجيزة عريضة، كما لو كان قد تربى على نظام تغذية من الجريش ودهن ظهر الخنزير. له ثديان مثل أنثى الخنزير يدفعان مقدمة قميصه إلى الأمام ويتدليان عندما يسير. كان سرواله مطويا فى حذائه العالى الساق ومنتفخا أعلاه، وقدماه الصغيرتان لاتكادان تكونان كبيرتين بحيث تحملان ثقله. كان شعره أقرب إلى البياض وجلده يميل للون الرمادى، ولذا فإنه إجمالا يعطى الانطباع بطبق صينى مملوء بالبسكويت ومرق نشارة الخشب. لم يكن لديه أى موهبة فى الوجود سوى قدرته التى اكتشفها أخيرا على عزف البانجو، ما لم يَعُدُ المرء موهبة حقيقة أنه رقيق وطيب ويتطلع إلى أى شىء يمر أمامه بعينين واسعتين ناعمتين.

وصف ستوبرود الطريقة التى ارتبطا بها، وأثناء ذلك لم يُبْد الفتى أدنى انتباه، لم يَبُد عليه أنه يعرف أو يهتم بأنه كان موضوع المناقشة. فقد نُشئ بانجل تنشئة عشوائية نوعا ما. كانت تلك هى الطريقة التى حكى بها ستوبرود. كان الشعور العام أنه لم يكن له أى قيمة، لأنه لم يكن قادرا على التفكير السليم، ولاعلى أن يُدفع به إلى عمل. اجعليه يعمل بكد فيجلس. اجلديه ويتقبل هذا دون أن يجفل ومع ذلك لايتحرك. لذا فقد ترك مطلق السراح فى باكورة رجولته وظل يقضى الوقت منذ ذلك الحين يتجول فى الجبل البارد. وبلغ به الأمر أن عرف كل شق وفجوة. يأكل مايعرض له، بتمييز ضئيل بين الدويدات ولحم الظبى. لايعبأ بأوقات اليوم، وخلال أوجه القمر الأكثر لمعانا يمضى إلى حد بعيد ليليا. فى الصيف ينام فى أسرة من غبار الفحم المعطر تحت شجر الشكران والبلسم فيما عدا فترات المطر التى تستمر بعض الوقت، حين يأوى تحت حواف الصخور. وفى الشتاء يتعلم من الضفدعة والمرموط والدب: عرينه فى كهف، لايكاد يتحرك خلال الشهور الباردة.

عندما اكتشف بانجل، بشىء من الدهشة، أن المشردين قد أقاموا فى كهفه، استقر بينهم. تعلق بوجه خاص بستوبرود من التياعه بموسيقى الكمان. كان

ستوبرود بالنسبة له تراثا عميقا، ساحرا، كاشف الغيب. وعندما كان ستوبرود يمس أوتار الكمان بالقوس، كان الصبى بانجل يحاول أن يصاحبه بالغناء، لكن صوته مثل تقليد قواق بطة. وعندما كان الآخرون يصيحون به أن يصمت، كان ينهض ويدبدب برقصة غاية فى الغموض، ارتجاجة سلتية وتقلص أثرى قديم، كذلك الذى يمكن تأديته بعد عدد من الهزائم فى معركة ضد رومانى أو جرمانى أو سكسونى أو أنجلونى أو بريتانى. كان الفتى يتقاذف بعنف حتى يزهر بقطرات عرق، ثم يلقى بنفسه على أرض الكهف المدكوكة ويتابع الكمان، و انفه يصف أنساق الموسيقى بنغم يشبه رجلا يراقب ذبابة تحوم.

كان ستوبرود يرسل عددا من النغمات وتعود مرارا وتكرارا وبعد فترة تفعل فعل السحر فى عقل بانجل. كان يروق لبانجل ذلك الشعور الذى يتيحه له عزف ستوبرود وأصبح مخبولا بالكمان وعازف الكمان. بدأ يتبع ستوبرود أينما ذهب، ودائما بتفانى كلب ينتظر طعاما. وفى الليل فى كهف المشردين على الجبل، يرقد صاحيا حتى يخلد ستوبرود إلى النوم ثم يزحف إليه وينام مضغوطا إلى ظهره المقوس. كان ستوبرود يستيقظ عند الفجر ويخبطه بقبعته ليبعده إلى مسافة مريحة. عندئذ يجلس الصبى بجوار النار على فخذيه ويحدق فى ستوبرود كما لو كان من الممكن أن تحدث معجزة فى أى دقيقة.

كان ستوبرود قد عثر على بانجو بانجل ذات يوم فى إحدى الغارات، وهى مصطلح يستخدمه سكان الكهف ليضفوا هيبة على عادتهم أخيرا فى نهب أى مزارع ثرى يحمل أى واحد من جماعتهم ضده ضغينة غامضة. قد تكفى إهانة ماحدثت من عشر سنوات مضت لتكون مبررا. أو أن رجلا خب بجواده إلى جوارك وطرطش بالوحل وأنت واقف مترجلا فى الطريق الموحل، أو حف بك ورطم ذراعك وهو يخرج من متجر بدون كلمة اعتذار، أو استأجرك لأداء عمل وأنقص أجرك أو أصدر أوامر إليك بنبرة يمكن تفسيرها بأنها تعنى أنك أقل منه.. تكفى أى زجرة، إهانة، توبيخ مهما كانت قديمة. الأزمنة لايمكن تشكيلها بشكل أفضل مطلقا لتسوية الحساب.

لقد هبطوا على بيت رجل يدعى ووكر. كان واحدا من أعيان المقاطعة القلائل، واحدا من ملاك العبيد القياديين، وقع فى مشكلة مع مجتمع الكهف، وقد تأرجح رأيهم العام أخيرا نحو توجيه اللوم إلى ملاك الزنوج على أنهم سبب

الحرب ومصاعبها المرتبطة بها. وعلاوة على هذا، فإن ووكر كان لقيطا مستبدا بكل من يعتبرهم أقل منه شأنا، وهو ما كان فى تقديره يتضمن كل واحد تقريبا. قرر سكان الكهف أن العقاب مناسب.

هبطوا على المزرعة عند حلول الليل وربطوا ووكر وزوجته إلى حاجز الدرج وتبادلوا صفع ووكر على وجهه. جاسوا خلال المبانى الملحقة وجمعوا كل الطعام الذى أمكنهم أن يعثروا عليه بسهولة - أفخاذ خنازير ولحوم خصر وكميات من السلع المعبأة فى جرار، وجوالات من الجريش والبرغل. أخذوا من المنزل طاولة من خشب الماهوجنى، وأدوات مائدة فضية وشمعدانات، وشموعا من شمع النحل، وصورة زيتية للجنرال واشنطن من على مائدة غرفة الطعام، وأطباقا صينية إنجليزية الصنع، ومخزنا من خمور تنيسى. وقد زينوا الكهف منذ ذلك الحين بما سلبوه. صورة واشنطن مستندة إلى فجوة فى الجدار، والشموع فى الشمعدانات الفضية. أدوات المائدة المصنوعة من خشب القرنوس والفضة، رغم أن الكثير منهم قد أكلوا طول حياتهم من أدوات مائدة مصنوعة كلية من اليقطين وقرون الحيوانات.

وبشكل ما لم يكن خيال ستوبرود، رغم ذلك، مشغولا بالغارة على ووكر، وكان بانجو بانجل هو كل مانهبه. أخذه من على وتد فى مخزن ووكر للأدوات. كان قبيحا بعض الشىء، ينقصه وحاله ماكان عليه التماثل المتوقع فى أجزائه المستديرة، لكن رأسه كان من جلد قطة والأوتار من أمعائها، ونغمته دقيقة ورخيمة. وكان قد صفع ووكر مرة واحدة فقط ثمن إهانة من مدة طويلة انقضت حين سمع عَرَضا ووكر يسميه أحمق وهو جالس مخمورا على كتلة خشب على جانب الطريق يحاول عبثا أن يخدش موسيقى من كمان. كان ستوبرود قد قال بعد أن فرقع على وجنة ووكر الحمراء سلفا، لقد تمكنت الآن من إتقان العزف على الكمان. وقد قرر، حين أعاد النظر إلى مامضى، أن الغارة على ووكر تقلقه. فلأول مرة فى حياته يفكر فى إمكانية أن يحاسب على أفعاله.

وحين عاد ستوبرود إلى الكهف، أعطى البانجو لبانجل الصبى وأوضح له القليل الذى يعرفه عن كيف يعمل: كيف يلوى المفاتيح لعمل بضع دوزنات، وكيف يضعف الصوت بالإبهام والسبابة، وكيف ينقر الأوتار أحيانا نقرا مرتجلا ويمسك بالأوتار مثلما تقوم بومة يصادفها عائق باختطاف أرنب أحيانا أخرى. ويبدو أن الفتى، بسبب موهبة طبيعية مذهلة ورغبة صادرة من أعماق قلبه لتوفير

مصاحبة مناسبة لكمان ستوبرود، قد أظهر أقل قدر من الصعوبة فى اكتشاف كيف يعزف عليها من واحد يتعلم الدق على طبلة.

لم يكن هو وبانجل قد فعلا الكثير منذ الغارة سوى عزف الموسيقى. وبالنسبة للشراب فقد كان لديهما خمر ووكر الطيب، ولم يأكلا شيئا سوى الجيلاتينات المسروقة. كانا ينامان فقط عندما يغرقان فى السكر حتى يصبحا قادرين على العزف، ولم يرحلا إلى مدخل الكهف مرارا وتكرارا بما يكفى لأن يتعقبا أثر متى يحل الليل والنهار. ونتيجة لهذا، على أية حال، كان الفتى بانجل يعرف الآن كل ذخيرة ستوبرود من القطع الموسيقية وقد أصبحا ثنائيا.

عندما عادت روبى أخيرا، كانت تحمل لحم صدر بقرة صغيرة دامية ملفوفة فى ورق وإبريقا من عصير التفاح المخمر، لأن آدامز كان راغبا فى التخلى عن قدر أقل إلى حد بعيد مما كانت تأمل. وقفت روبى ونظرت إلى أبيها والفتى ولم تتفوه بكلمة. كانت عيناها سوداوين فى رأسها، وقد تفكك شعرها من ربطته وانتشر على كتفيها أثناء سيرها. كانت ترتدى تنورة صوفية داكنة الخضرة بشرائط قشدية اللون، وسترة من أشغال الحياكة رمادية اللون، وقبعة رجالية رمادية من اللباد بها ريشة دقيقة من ريش طائر الكردينال فى شريط من الساتان. أمسكت بالحزمة الورقية فى يدها المرفوعة إلى أعلى وأتت بحركات وزن صعودا وهبوطا.

قالت: لاتكاد يبلغ وزنها أربعة أرطال. وضعتها هى والأبريق على الأرض وذهبت إلى البيت وعادت تحمل أربعة أكواب وقدحا من الملح والسكر والفلفل الأسود والفلفل الأحمر كلها مختلطة معا. فتحت الورقة ودعكت اللحم بالخليط لتغلفه، ثم دسته فى رماد النار وجلست على الأرض إلى جوار إيدا. كانت التنورة قد أصبحت داكنة اللون من زمن بعيد ولايمكن أن يسوء حالها عما كانت عليه بجلوسها فى التراب.

عندما طهى اللحم، راح الجميع يرشفون العصير المخمر، ثم أخرج ستوبرود كمانه، وهزه كى يسمع القعقعات بداخله، ثم وضعه تحت ذقنه، وعزف نغمة بالقوس، ولوى مفتاحا. وعندما فعل ذلك اعتدل الفتى فى جلسته وأمسك بآلته وعزف سلسلة خافتة من العبارات الموسيقية الرنانة. شرع ستوبرود فى عزف لحن من مقام صغير كان مع هذا مفعما بالحيوية.

وعندما فرغ قالت إيدا، الكمان النائح.

نظرت روبى إليها نظرة هزلية.

فسرت إيدا كلامها قائلة، كان أبى يسميه هكذا، بسخرية دائما. وواصلت حديثها قائلة إن مونرو بخلاف النوعية الشائعة من الوعاظ - الذين يعارضون موسيقى الكمان باعتبارها خطيئة ويرون الآلة نفسها باعتبارها صندوق الشيطان وكان يحتقره على أسس جمالية. كان نقده أن كل الحان الكمان تبدو متشابهة تماما وكلها تحمل أسماء غريبة.

قال ستوبرود، ذلك ماأحبه فيها. دوزن المزيد منها، ثم قال: هذا واحد من الحانى. أسميه الزنجى المخمور. كان لحنا مائلا، دائريا ومرخما، لايتطلب عملا كثيرا من اليد اليسرى لكن ذراع القوس متهيج مثل رجل يقاوم بعنف ذبابة غزلان من حول رأسه.

قام ستوبرود بعزف مزيد من ألحانه التى ألفها. كانت إجمالا موسيقى غريبة. إيقاعية بشكل عنيف، لكن الكثير منها لايصلح للرقص، وهو الغرض الوحيد الذى سمعت روبى الكمان موجها إليه. جلست إيدا وروبى وانصتتا، وبينما هما تفعلان ذلك تناولت روبى يد إيدا وأمسكت بها ونزعت سوار إيدا الفضى وهى شاردة الذهن وزلقته فى يدها هى ثم أعادته إلى مكانه بعد بعض الوقت.

غير ستوبرود ضبط أوتار الكمان وصاح بأسماء المقطوعات قبل عزفها، وبالتدريج بدأت إيدا وروبى يرتابان فى أن ماسمعاه يشكل فى مجموعه نوعا من السيرة الذاتية للسنين التى قضاها فى الحرب. من بين الألحان كانت هذه: لمس الفيل، كان كعب البندقية وسادتى، قضيب تنظيف البندقية، ستة أيام مخمورا، شجار فى الحانة، لاتبعه ولكن هَبْه، جرح الموسى، سيدات ريتشموند، وداعا ياجنرال لى.

ولكى يختتم السلسلة عزف لحنا يسمى كان الحجر سريرى، وهو لحن مكون إلى حد كبير من أصوات كشط، له سرعة إيقاع متوسطة، إيقاعات من التقدم والتقهقر، بها قدر كبير من التشويق فى العلاقات بين موازينها. لم تكن لها قصيدة غنائية سوى فى لحظة حين دفع ستوبرود رأسه إلى الخلف وغنى العنوان ثلاث مرات. كان لدى الفتى بانجل مايكفى من الحس لأن يضيف

فحسب سحبات وحشوات رقيقة، وهو يخفف صوت رنين البانجو بمجرد لمس الأوتار بنعومة بالجزء اللحمى من إبهامه وسبابته.

ورغم خشونة الأغنية، فإن إيدا وجدت نفسها متأثرة بها. بل اعتقدت أنها أكثر تأثيرا مما حدث فى أى أوبرا حضرتها من شارع دوك إلى ميلان لأن ستوبرود كان يؤديها بإيمان كامل بجوهرها، بقدرتها على أن تفضى بالمرء إلى حياة افضل، حياة يمكن الوصول فيها يوما ما إلى بال راض. ودت إيدا لو كان هناك سبيل إلى أن تغنم ماكانت تسمعه بالطريقة التى يتلقّف بها التصوير الشمسى صورا، حتى يمكن الاحتفاظ بها احتياطيا للإفادة منها فى مستقبل قد يحتاج المقيمون فيه مرة أخرى إلى الوصول إلى ماتمثله.

عندما اقترب اللحن من نهايته طوح ستوبرود برأسه إلى الخلف حتى بدا أنه يستعرض النجوم، لكن عينيه كانتا مغمضتين. وطرف الكمان السفلى مضغوط إزاء قلبه والقوس يعمل بضربات مرتجة متلعثمة. انفتح فمه فى اللحظة الأخيرة، لكنه لم يطلق صيحة استهزاء أو صيحة حادة كما توقعت إيدا. بل ابتسم، بدلا من ذلك ابتسامة طويلة عميقة تنم عن الابتهاج الصامت.

توقف وأمسك بالقوس معلقا فى الهواء فى المكان الذى انتهت فيه لمسة الأوتار إلى أعلى وفتح عينيه ونظر إلى الآخرين فى ضوء النار ليرى التأثير الذى أحدثه عزفه. فى تلك اللحظة، كان وجهه وجه قديس مرح، مرتخيا نصف مبتسم بسخاء هبته وبحياد جذاب تجاه إمكانياته، كما لو كان قد استسلم بابتهاج منذ عهد بعيد لمعرفته بأنه مهما أدى مقطوعة أداء طيبا، فإنه بإمكانه دائما أن يؤدى أداء أفضل. ولو أن العالم كان له وجه أفضل، لكانت الحرب مجرد ذكرى مريرة.

قال بانجل لإيدا: لقد أفادك بعض الشيء بهذا. ثم بدا مرتاعا لأنه تحدث إليها مباشرة وأحنى رأسه ثم ألقى ببصره بعيدا فى الغابات.

قال ستوبرود: سوف نعزف لحنا أخيرا.

وضع ستوبرود وبانجل آلتيهما على الأرض وخلعا قبعتيهما دلالة على أن الأغنية التالية ستكون أغنية مقدسة. حقيقة منزلة. قاد ستوبرود الغناء وتبعه بانجل. كان ستوبرود قد درب هدرمة الفتى الطبيعية إلى أن وصل بها إلى أعلى صوت رجالى متوتر، ولذا ثرثر بانجل بتكرارات جزئية لعبارات ستوبرود

الموسيقية بأسلوب يمكن أن ينظر إليه على أنه كوميدى، فى ظل أسلوب آخر كامل من التفكير. كان صوتاهما يصارع أحدهما الآخر فى أغلب الأحيان، حتى وصلا إلى غناء الكورس، وعندئذ تماثلا وعثرا على موضع للتوافق العميق. كانت الأغنية عن كم أن حياتنا قاتمة، وكم هى باردة وعاصفة، وكم تخلو من الفهم، وفى النهاية الموت. كان هذا كل ذلك انتهت الأغنية نهاية ناقصة ومحاصرة، فعلى العكس من كل مايمكن توقعه من هذا النوع الفنى، لم يكن هناك طريق ساطع مرسوم فى الدقيقة الأخيرة ليفضى بالمرء إلى الأمام وهو مفعم بالأمل. بدا مقطعا شعريا واحدا قصيرا حاسما. لكن التوافقات الكورالية كانت حميمة وأخوية، حلوة فى حد ذاتها بدرجة تكفى لأن تصنع حركة جزئية إلى الأمام إزاء كآبة الأغنية خلافا لذلك.

أعادا ارتداء قبعتيهما ومد ستوبرود كأسه. صبت له روبى جرعة صغيرة من عصيرالتفاح المخمر وتوقفت وعندئذ لمس ظهر يدها بسبابته. ظنت إيدا، وهى تراقبه، أن تلك لمحة رقيقة حتى أدركت أنها لم تكن سوى إيماءة تحث على صب معيار إضافى.

بعد أن أرتفع كوكب مارس أحمر من خلف حافة جوناس والنار قد احترقت حتى أصبحت حوضا من الجمرات، أعلنت روبى أن اللحم قد تم شواؤه واستخرجته من الرماد بالمذراة. كانت التوابل قد شكلت قشرة حول لحم صدر البقرة، ووضعتها روبى على جدعة شجرة وشرحتها شرائح نحيلة عبر تعريقات اللحم بسكينها. كان داخلها وردى اللون ويسيل عصائر. أكلوا بأصابعهم بدون إفادة من الأطباق ولم يكن هناك شيء آخر للعشاء. وعندما فرغوا جذبوا حشائش السُعْد من حافة الحقل وفركوا أيديهم حتى نظفت.

عندئذ زرر ستوبرود زرار قميصه العلوى وجذب طيتى صدر سترته وهو يشد كل طية منهما بالتبادل ليسوى سترته عليه. التقط قبعته ومسح غصينى شعره عن صدغيه بكفيه وارتدى قبعته.

راقبته روبى ثم قالت للا أحد على وجه الخصوص: إنه على وشك أن يحتاج إلى شخص ما ليفعل له شيئا.

قال ستوبرود: كل ما أريده هو أن أتحدث أليكم. أن أطلب شيئا.

قالت: حسنا؟

قال ستوبرود: المسألة هى، أننى بحاجة إلى من يعتنى بى.

- هل نفذ شرابك؟

- من ذلك، هناك الكثير. قال، المسألة هى أننى خائف. وفسر أن الإغارة سوف تنزل به عقاب القانون. فقد بُعث قائد من بين المشردين - رجل جلد الدب. كان متحدثا وقد أعطاهم عقيدة مشتركة: أن قتالهم فى الحرب لم يكن نقيا كما كانوا يظنون ذات يوم. فقد كان ملوثا لأنهم حاربوا ببلادة فهم من أجل امتلاك الرجل الكبير لعبيده، تدفعهم ضعف الكراهية الإنسانى. وأنهم كانوا جماعة من البلهاء سابقا، لكنهم قد رأوا الضوء. كانوا يتحدثون عن هذا طول الوقت، مجتمعين حول النار فى حلقة دراسية. واتفقوا على أن شن الحروب التالى لن يكون لصالح أى واحد آخر سوى صالحهم. لن يسهل القبض عليهم وإعادتهم إلى الجيوش.

قال ستوبرود، إنه يريدنا جميعا أن نقسم قسما بالدم أن نموت مثل الكلاب بأسناننا منشوبة فى حلق شخص آخر. لكننى لم أهجر جيشا لأوقع لجيش آخر.

كان ما استقر قرار ستوبرود عليه أن ينسحب هو وبانجل بعد قليل، وأن يبحثا عن مأوى. أن يتركا جماعة المحاربين. وكان مايحتاج إليه هو وعد بالطعام، علّية غلال جافة فى الجو الردىء، وربما بعض المال من آن لآخر، حتى تنتهى الحرب على الأقل ويمكنه أن يصبح حرا.

قالت روبى: كُل جذور النباتات. اشرب ماء موحلا. نم فى كتلة خشب مجوفة.

قال ستوبرود: أليس لديك شعور أكثر من هذا لأبيك؟

- إننى اعرض فحسب تعليما فى فن نحت الخشب. هذا يأتى من الخبرة، فقد تعشيت على كثير من جذور النباتات عندما كنت تعربد. ونمت فى أماكن أسوأ من كتل الخشب المجوفة.

- أنت تعلمين أننى فعلت مابوسعى لك. كانت الأوقات عصيبة.

- ليست عصيبة كما هى الآن. ولاتقل إنك فعلت مابوسعك. إنك لم تفعل شيئا على الإطلاق سوى ما كان يلائمك. ولن أتحمل تظاهرك بأننا نعنى شيئا لأحدنا الآخر. لم أكن شيئا على الإطلاق بالنسبة لك. كنت تروح وتغدو وكان

يمكن أن أكون هناك أو لا أكون حين كنت تعود. لم يكن الأمر يهمك على هذا النحو أو ذاك. ولو مت فى الجبل، لكان من الممكن أن تتساءل لمدة أسبوع أو أسبوعين عما إذا كنت سأظهر. مثل كلب صيد راكون ضمن قطيع عديد يُفتقد حين ينفخ فى البوق ويحل الفجر. مجرد هذا القدر من الندم ولا أكثر. لذا لا تتوقع منى أن أتواثب الآن عندما تنادينى.

قال ستوبرود: لكننى رجل عجوز.

– لقد قلت لى إنك لم تبلغ الخمسين بعد.

– أشعر بأننى عجوز.

– هكذا أشعر أنا، مهما كانت قيمة ذلك. وهناك هذا. إذا كان مايقال عن تيج يعد حتى نصف الحقيقة، فإن لدينا كثيرا مما نقلق عليه بشأن إيوائك. وهذا ليس بيتى. وليس لى القول الفصل. ولو كان لى، لقلت لا.

– اتجهت أنظار كليهما إلى إيدا. كانت تجلس بشالها ملتفا حولها ويداها مدسوستان فى طيات تنورتها بين ركبتيها لتدفئهما. كان بإمكانها أن ترى فى وجهيهما أنهما يلجأن إليها بصفتها حكما، ربما لأسباب الملكية أو التعليم أو الثقافة. وعلى الرغم من أنها كان لها سيادة ما على الأرض العاجلة، فإنها تجد نفسها غير مستريحة فى دورها بصفتها سيدا. كل ما أمكنها أن تفكر فيه هو أن والد روبى قد عاد من شىء كالأموات وأنها فرصة ثانية تمنح لقلة.

قالت: هناك وجهة نظر أنه أبوك وأنه عند نقطة ما يصبح واجبك أن تراعيه.

قال ستوبرود: آمين.

هزت روبى رأسها. قالت: إن لنا فكرتين مختلفتين عن الأب. سأخبرك بشىء عنها من وجهة نظرى. لا أعرف كم كان عمرى سوى أننى كنت ما زلت تنبت لى أسنان. ورحل ليقطر الخمور.

التفتت إلى ستوبرود وقالت: هل حتى تتذكر؟ أنت وبوزلر والجبل البارد. هل يذكرك هذا بشىء؟

قال ستوبرود: أذكر.

قالت روبى، حسنا: قل جانبك أنت منه.

وهكذا قص ستوبرود قصته. كان له شريك وتكونت لديهما فكرة صنع الخمور من أجل الربح، فرحلا وعاشا فى بناءين ملحقيين من لحاء الأشجار على الجبل. بدا له أن روبى بمفردها كافية للتعيش، ولذا تركها لمدة ثلاثة أشهر عندما لم تكن قد بلغت بعد الثامنة. لم يكن هو وبوزلر صانعين ماهرين فى تجارة الخمور. دورا دفعات صغيرة سريعة تكاد تملأ إبريق شاى، ووجدا أنه أمر مزعج للغاية أن يضعا جمرات فحم مغسولة فى كل عجينة على حدة، ولذا فإن كل تدويرة تقطرت إما بلون أخضر عكر أو أصفر عكر. لكنه كان قويا. لم يلطفاه متجاوزَين ثلاثة أرباع الكحول الصرف. كان مختلفا فقط فى خصائص ثانوية عن خمر أسلافهم السلتيين. وجدها الكثير من الزبائن، رغم ذلك، منعشة أكثر مما ينبغى للأمعاء. وذوت التجارة ولم يحققا مالا، فبعد أن صبا مايتطلباه لحاجتهما، كان مابقى من الشراب يكفى فقط لمقايضته من أجل دفعة التصنيعات التالية. وظل ستوبرود حتى دفعته الحالة الاقتصادية الشحيحة للمشروع وجو نوفمبر البارد إلى الجبال.

وعندما فرغ من حكايته قالت روبى جانبها منها: مافعلته خلال تلك الأشهر أثناء غيابه. بحثت عن طعام برى، نبشت الأرض بحثا عن جذور نباتات، اصطادت الأسماك بشراك لوتها معا من فروع أشجار الصفصاف، اصطادت طيورا بشراك من صنع مماثل. أكلت أى نوع من الطير صادته بأقل تمييز سوى أن تتجنب الطيور التى تأكل الأسماك حينما أمكنها والتى تأكل الجيف دائما. تعلمت فقط من التجربة والخطأ ماالذى تأكله من أحشائها وما الذى لاتأكله. وفى أسبوع انطبع فى ذاكرتها كان حظها فى الصيد سيئا أكلت فقط ثمار القسطل والجوز بعد أن طحنتها جريشا وخبزت لتصبح رغيفا سهل التفتت على قطعة من اردواز المدفأة. وذات يوم عندما خرجت لتجمع الجوز، صادفت انبيق التقطير. كان ستوبرود نائما تحت مبنى منحدر السطح وقال شريكه، إنه يرقد فى السرير طول اليوم. الشىء الوحيد الذى ينبئك أنه ليس ميتا أنه من آن لآخر يعبث بأصابع قدميه. وكان ليسعدها، فى تلك اللحظة وفى عدة لحظات أخرى منذ ذلك الحين، أن تبادل نصيبها فى الحياة مع وليد أى ذئب. وفى رأى روبى أن رومبولس وريموس اللذين قرأت لها إيدا عنهما كانا صبيين محظوظين، لأنهما على أقل تقدير كان لهما وصى شرس.

ورغم مثل تلك الأوقات الصعبة الموحشة، فإن روبى كان عليها أن تقول لستوبرود إنصافا منها: إنه لم يضع عليها يدا فى حالة غضب. لم يكن بإمكانها أن تذكر أنها ضربت أبدا. ثم أيضا، أنه لم يربت حتى على رأسها أو يداعب وجنتها بيده فى لحظة حنان.

نظرت إلى إيدا وقالت: هاك. وفقى بين ذلك وبين فكرتك عن الواجب وقبل أن تتمكن إيدا من صياغة فكرة كاملة أو حتى أن تقول، ياالهى، نهضت روبى وسارت متشامخة فى الظلام.

لم يقل ستوبرود شيئا، وقال بانجل بصوت خافت، كما لو كان يكلم نفسه: إنها غاضبة الآن.

فى وقت ما بعد ذلك مضت إيدا على الممر المؤدى إلى المبنى الخارجى، بعد أن صرفت ستوبرود وبانجل مع وعود قليلة مبهمة بحل وسط. كان برد الليل يشتد، وخمنت أنه سيكون هناك صقيع بحلول الفجر. كان القمر، بدرا وعاليا، يرسل ضوءا يجعل فرع كل شجرة يلقى ظلا أزرق. ولو شاءت إيدا، لأمكنها أن تسحب *آدم بيد* من جيبها وتفتحه فى ضوء القمر وتقرأ. كانت ألمع النجوم تسطع على خلفية السماء الرمادية. لاحظت إيدا، وهى تستعرضها، أن كوكبة الجوزاء تصعد فى الشرق، ثم رأت أن القمر ينقصه جزء. كان طرف نحيل منه مقتطعا. كان ذلك خسوفا.

عادت إلى البيت وجاءت بثلاثة ألحفة ومنظار مونرو المكبر. كان إيطالى الصنع جذاب المنظر، وبه كثير من الزخرفة اللفيفية منحوتة فى النحاس، وإن لم يكن دقيقا شأن المناظير التى يصنعها الألمان. عادت إلى حظيرة الأدوات وأخرجت كرسى مخيمات، وهى تتساءل إذ تجذب واحدا من كومة من أربعة ما إذا كان ذلك هو الكرسى الذى مات فيه مونرو. فردته فى الفناء الأمامى ولفت نفسها جيدا بالألحفة ومدت رأسها مائلة إلى أعلى باتجاه السموات. نظرت من خلال المنظار، وهى تلفه لتركزه فى بؤرته. أطبق القمر على عينيها بحدة، والحافة الظليلة نحاس أحمر وإن لم تزل ظاهرة للعيان بوضوح. بأعلاها فوهة بركان بمنتصفها جبل.

راقبت إيدا تقدم الظل وهو يسير عبر الوجه اللامع، وحتى عندما كان

الخسوف كاملا، كان القمر لايزال ظاهرا للعيان قليلا، بلون سنت قديم بنى اللون، وعلى مايبدو كبيرا مثله تقريبا. وعندما كان القمر كله يختفى، سطع درب التبانة، نهرا من الضوء عبر السماء، شريطا مثل غبار طريق مثار. مرت إيدا بالمنظار عليه وتوقفت وأمعنت النظر فى عمقه. تكاثرت النجوم خلال المنظار فى شكل أجمات متشابكة من الضوء وبدت كما لو كانت تتواصل وتتواصل حتى بدأت تشعر بأنها ترقد معلقة تعليقة دقيقة على حافة واد ضيق عميق. كما لو كانت تنظر إلى أسفل، لا إلى أعلى، تتدلى من الطرف السفلى لنصف قطر الكوكب. وللحظة دارت فى ذلك النوع من الدوار الذى شعرت به عند حافة بئر إيسكو، كما لو كانت ستصبح منفصلة وتسقط عاجزة فى تلك الأشواك من الضوء.

فتحت عينها الأخرى ونحَّت المنظار جانبا. كانت جدران الخليج الأسود ترتفع وتمسك بها مثبتة فى فنجان من الأرض، ورقدت راضية وراحت تراقب السماء والقمر يبرز بالتدريج من ظل الأرض. فكرت فى لازمة لحن من ألحان ستوبرود غناه تلك الليلة، أغنية حب غير متألقة الأداء. كان البيت الأخير فيها هو: رجائى منك أن تعود إلى. لم يكن باستطاعة ستوبرود أن ينطق بها بيقين أكبر لو أنها كانت بيتا من أعمق أبيات قصيدة *انديميون*. كان على إيدا أن تعترف بأن مجرد قول ما يعتمل فى قلبك، من آن لآخر على الأقل، مباشرا وبسيطا وبلا تحفظ، يمكن أن يكون أكثر فائدة من عشرة آلاف بيت من شعر جون كيتس. لم تكن أبدا قادرة على أن تفعل ذلك طوال حياتها، لكنها ظنت أنها تود لو تعلمت كيف تقولها الآن.

دخلت البيت وأتت بالمكتب الذى تضعه على حجرها وفانوسا به شمعة وعادت إلى الكرسى. غمست قلمها فى الحبر ثم جلست وحدقت فى الورقة حتى جف سن القلم. بدت كل عبارة فكرت فيها لاشىء سوى وضع متكلف وسخرية. مسحت القلم حتى نظف على نشافة وغمسته ثانية وكتبت، رجائى منك أن تعود إلى. وقعت باسمها وطوت الورقة وعنونتها على المستشفى فى العاصمة. التفت بإحكام فى الألحفة وسرعان ماغلبها النعاس وسقط الصقيع عليها وأصبح الجزء الخارجى من اللحاف قصيفا بصقيع حبيبى أبيض.

عهد مع الدب

سار إينمان خلال ريف الجبل متقفيا أثر الدروب ورأى قليلا من الناس. قاس المسافة بأجزاء من اليوم. مسيرة يوم كامل. نصف يوم. أقل من نصف يوم. وكان أى شىء أقصر من ذلك مجرد قطعة ضئيلة على الطريق. أصبحت الأميال والساعات صورا ذهنية يزدريها حيث لم يكن لديه وسيلة يقيس بها أيهما.

عُوِّق تقدمه فى سفره بعد أن صادف امرأة ضئيلة الحجم تجلس محدودبة على حاجز سور تبكى ابنتها المتوفاة. كان غطاء قلنسوة المرأة يظلل وجهها ولذا فإن كل ما أمكن إينمان أن يراه كان أسود فيما عدا طرف أنفها. عندما أدارت رأسها لتواجه إينمان، رغم ذلك، كانت الدموع التى تتساقط من عظام فكيها تومض فى ضوء الصباح. أبقت على فمها مفتوحا بشق بألم مبرح حتى أن عقل إينمان شبهه بفتحة غمد سيف. لم تكن الشمس قد طلعت بعد وكان عليها أن تدفن طفلتها ملفوفة فى لحاف قديم، لأنها لم يكن لديها أى فكرة عن كيف تصنع صندوقا.

عرض إينمان مساعدتها وقضى اليوم فى فنائها الخلفى، يركب بشكل فج تابوتا من ألواح خشب انتزعت من بيت تمليح وتدخين اللحوم. كان يفوح منها

رائحة دهن الخنزير ودخان خشب شجرة الجوز، وكانت جنبات الألواح سوداء ولامعة من سنين كثيرة من صنع أفخاذ الخنازير. من آن لآخر كانت المرأة تأتى إلى الباب الخلفى لتتحقق من تقدمه وتقول فى كل مرة: كانت أمعاء ابنتى سائبة مثل رماد الموقد لمدة أسبوعين قبل أن تموت.

عندما فرغ إينمان من النجارة بطّن قاع الصندوق بابر صنوبر جافة. دخل البيت وجاء بالفتاة التى كانت ترقد فى سرير بالطابق السفلى، وغلف الصندوق باللحاف. رفعها، وكانت متصلبة، حزمة محكمة مثل قرن فاصوليا أو تضخم فى نسيج نباتى. حملها من خلال الباب الخلفى بينما جلست المرأة إلى طاولة المطبخ وهى تنظر إليه من عينين بلا تعبير. فك اللحاف ووضع الفتاة على غطاء التابوت وحاول الا يجعل عقله يتناول بالتفصيل وجنتيها الرماديتين المجوفتين وأنفها الحاد. قطع اللحاف بسكينة وطواه فى التابوت كبطانة، ثم رفع الفتاة وأسكنها فى الصندوق والتقط المطرقة وذهب إلى الباب.

قال: يحسن بى أن أثبت المسامير.

خرجت المرأة وقبلت الفتاة على كل وجنة مجوفة وعلى جبينها، ثم جلست على حافة الشرفة وراحت تراقب إينمان وهو يطرق الغطاء بإحكام.

دفناها على ربوة يقوم عليها أربعة قبور، محددة بأجزاء مسطحة من طين النهر *الصفحى*. كانت القبور الثلاثة الأول لأطفال، وتواريخ الميلاد ينقصها الشهر بصفته جزءا من السنة وحده. تواريخ الوفاة تقع مجرد أيام بعد الولادة. كان القبر الرابع للأم، ولاحظ إينمان أنها كانت قد ماتت فى تاريخ ميلاد الطفل الأخير. حسب فى عقله مجموع أرقام ورأى أنها عاشت حتى العشرين فقط. حفر إينمان الحفرة للقبر الجديد عند نهاية صف الأحجار الصغير، وعندما فرغ قال: هل تريدين أن تقولى شيئا؟

قالت المرأة: لا.

وما إن أهال إينمان التراب فى الحفرة حتى كان الظلام يحل. عاد هو والمرأة إلى البيت.

قالت، يجب أن أطعمك، لكن ليست بى قدرة حتى على إشعال نار، وأقل من هذا بكثير أن أطهى وجبة.

ذهبت إلى الداخل وعادت بمؤن. ربطتين صغيرتين من قماش، واحدة بها برغل ذرة والأخرى بها دقيق. قطعة من شحم الخنزير مربوطة فى ورق داكن اللون من الشحم، وقطعة بنية اللون من رقبة خنزير مملحة ومدخنة، بعض الذرة المحمصة، وحوالى قدح من مرق الفاصوليا ملفوف فى ورقة مربعة، وكُرّات وحبة لفت وثلاث جزرات، وقطعة مستطيلة من صابون قلوى. تناولها إينمان وشكر المرأة واستدار ليمضى لكن قبل أن يصل إلى بوابة السور نادته المرأة.

قالت: لايمكننى أن التفت إلى هذا اليوم فى المستقبل أبدا بعقل مستريح لو تركتك تمضى دون أن أطهى لك.

أشعل إينمان نارا، وجلست المرأة على كرسى مدفأة واطئ بلا ظهر وقلت له شريحة لحم كبيرة الحجم من بقرة صغيرة غاصت فى وحل مستنقع وماتت قبل أن ينتبه أحد إلى أنها مفقودة. ملأت المرأة طبقا فخاريا بنى اللون ببرغل ذرة أصفر اللون مطهى رقيق القوام حتى أنه سال على الحواف. تقوست شريحة اللحم فى المقلاة مثل يد تمتد لتتناول فكة النقود، ووضعتها أعلى البرغل والجزء المقوس إلى أسفل ثم وضعت عليها بيضتين مقليتين أعلى قبة اللحم. وللتتبيل النهائى غرفت قرصا من الزبد بحجم رأس سنجاب على البيضتين.

عندما وضعتها على الطاولة، ألقى إينمان نظرة على الطبق وبكى تقريبا وهو يراقب الزبد يذوب على صفار البيضتين وبياضهما واللحم البنى اللون والبرغل الأصفر حتى تلألأ الطبق كله فى ضوء الشمعة الرفيعة. جلس وقد أمسك بالسكين والشوكة مرفوعتين أمامه فى قبضتى يده. لكنه لم يستطع أن يأكل. بدا الطعام كأنه يتطلب شكرا خاصا من نوع ما ليقابل شيئا بمثله، ولم يستطع أن يجد الكلمات. صاح طائر حجل من الخارج فى الظلام وانتظر إجابة ثم صاح ثانية، وهبت ريح صغيرة ونزل مطر مؤقت جعل أوراق الشجر وألواح السقف تقعقع ثم توقف.

قال إينمان، هذه الوجبة بحاجة إلى أن تُبارك.

قالت المرأة: قل مباركة، إذن.

فكر إينمان لحظة وقال: لا أستطيع أن استدعى واحدة.

قالت: نشكرك على ما أنعمت به علينا. هذه واحدة.

كرر إينمان كلماتها، وهو يجرب مقاسها. ثم قال، أنت لاتعرفين كم طالت بى المدة. وبينما كان يأكل، تناولت المرأة صورة من على رف وتفحصتها.

قالت، لقد التقطت لنا صورة ذات يوم. زوجى يرتحل في مركبة مع كل عدة التصوير الخاصة به. وأنا الباقية الوحيدة على الحياة الآن.

تناولها إينمان وأمالها في اتجاه الشمعة. صورة شمسية. كان بها أب، والمرأة أصغرمنه بسنوات، وجد عجوز، وستة أطفال يتراوحون بين صبية كبار بما يكفى لأن يرتدوا قبعات ذات حواف وأطفال يرتدون قلنسوات. كان كل أعضاء الأسرة يرتدون السواد ويجلسون بأكتاف محدبة والجميع يبدون إما مرتابين أو مذهولين، كما لو كان قد وصلهم للتو تقرير عن موتهم.

قال إينمان، أنا آسف.

وعندما فرغ من الأكل، ودعته المرأة. سار في الظلام حتى قامت أنساق نجوم جديدة، ثم أقام مخيما بلا نار بحذاء جدول ضيق.. داس بقدميه الحشائش الميتة الطويلة وهيأ مكانا للنوم ولف نفسه فى بطانيته ونام نوما عميقا.

ثم سار طالما أمكنه، عدة أيام مطيرة تالية، ونام فى مأوى الطيور. وفى إحدى الليالى مأوى حمام وتجاهلته الطيور فيما عدا حين كان يتقلب، ثم نشطت كلها وأصدرت أصوات غرغرة مائية ثم سكتت. وفى الليلة التالية نام على مربع جاف من الأرض تحت برج حمام مخروطى، وهو تكوين يوحى بمعبد مكرس لآله دقيق لا قيمة له. كان عليه أن ينام مكورا، فلو أنه تمدد لأصاب قدميه أو رأسه السائل المتقطر من سقف مؤخرات الحمام الشديد الانحدار. ونام ليلة أخرى فى عشة دجاج مهجورة، وبسط غطاء الأرضية على أرض العشة، التى تكاثف عليها روث الدجاج القديم الطباشيرى الذى كان يصر تحته حين يتحرك ويفوح برائحة مثل رائحة بقايا موتى قدماء ترابية. وعندما استيقظ فى وقت ما قبل طلوع الفجر بوقت طويل ولم يستطع أن يعود للنوم، دس يده فى ربطته ووجد جذمة

شمعة وأشعلها. بسط رق برترام وأمسك به قرب الضوء الأصفر وقلب الصفحات حتى وقعت عيناه على فقرة جذبت انتباهه. كانت هذه:

إن البرية الجبلية التى اجتزتها أخيرا كانت تبدو متموجة بشكل منتظم مثل المحيط العظيم بعد عاصفة، والتموجات تنخفض بالتدريج، ومع ذلك تظل منتظمة، مثل قشرة السمك، أو تداخلات قرميد على سطح بيت: وأقرب أرض لى مكتملة الخضرة بشكل مثالى، والأرض التالية عليها أكثر شحوبا فى خضرتها، وأخيرا زرقاء تقريبا مثل الأثير الذى يبدو أن أبعد منحنى عند الأفق يمتزج معه. كنت تقريبا عديم الحس أو غافلا عن الأشياء الفاتنة التى كانت فى متناول يدى، وخيالى مشغول كلية على هذا النحو فى تأمل هذا المنظر الطبيعى الرائع.

قفزت الصورة التى أورد برترام تفاصيلها فى ذهن إينمان بأبعادها الثلاثة. جبال ووديان تمتد وتمتد إلى الأبد. منظر طبيعى كثير العقد ومشوه حيث يمكن أن يُنظر إلى الإنسان فيه بصفته فكرة تالية. كان إينمان قد نظر مرات كثيرة عبر المنظر الذى وصفه برترام: كان الريف المتاخم الذى يمتد بلا نهاية شمال وغرب منحدر الجبل البارد. كان إينمان يعرفه تمام المعرفة. فقد سار فى محيطه المنحرف المتعرج بالتفصيل، وشعر بكل مواسمه وسجل ألوانه وشم روائحه. كان برترام مسافرا فحسب وعرف مجرد الموسم الوحيد فى زيارته والجو الذى تصادف وقوعه فى غضون أيام. لكن الأرض بالنسبة لذهن إينمان كانت تقوم لا كما رآها وعرفها طوال حياته، ولكن كما أوجزها برترام. كانت القمم تقوم الآن أعلى، والوديان أكثر عمقا مما كانت عليه فى الحقيقة. تخيل إينمان صفوف الحواف المتلاشية وهى تقوم شاحبة وطويلة مثل شواطئ من السحب، وشكل محيطاتها ولونها، كل درجة لون أكثر شحوبا وأكثر زرقة حتى غلبه النعاس، حين وصل أخيرا إلى خط الحافة الملفق حيث يضمحل فى السماء.

طلع اليوم التالى على إينمان وهو يهبط بزاوية صوب الجنوب الغربى، وهو يشق طريقه بصعوبة على قدميه على ممر قديم لعربات اليد خلال الجبال. يوم سريع الحركة وكل أوراق الشجر ميتة وعلى الأرض، لم يكن حتى مدركا لأى مقاطعة كان هو فيها. ربما بلدى ماديسون. جاء إلى لافتة وقرأ على أحد جوانبها ت و ب ٥٥م وعلى الجانب الآخر ت و أ ٥٦م. وكل ما أمكنه أن يحسبه هو أنه على مسيرة لا بأس بها من أى بلدات تعنيها.

دار حـول منحنى ووصل إلى حـوض صـغـير، نوع من الينابيع، والصـخـور حوله مـخضرة بالطحالب. كان قـاع الينبوع مـغطى بأوراق بلوط وحـور والمياه عنبرية اللون مـثل منقوع ضـعيف منها، شاى. مال إينمان ليغمس زمزميته. هبت الريح وسمع طقطقة وفرقعة، صـوتا يشبـه مـحاولة لعزف موسيقى باسـتـخدام عصى جافة قديمة فحسب كآلات. التفت إلى الغابات على جانب الحوض باتجاه الصوت واكتشـف منظرا غريبا. وجد إينمان نفسـه يشـاهد ثلاثة هياكل بشـرية تتأرجح فى النسيم وتقرع أحدهما الآخر.

بقبقت الزمزمية حتى أمتلأت. وقف إينمان وسدها وسار إلى العظام. كانت تتدلى فى صف من الفرع السفلى لشجرة شكران ضـخمة. لم تكن حتى تتدلى من حبل، مجرد شرائط مجدولة من غصينات شجرة جوز. كانت عظام حوض ورجل أحدها قد سقطت إلى الأرض ورقدت فى كومة، وقد برزت أصابع إحدى قدميها. وعلى أحد الهياكل الكاملة، كانت الجدائل قد تمددت إلى حد أن أصابع القدمين وصلت إلى الأرض. كسح إينمان أوراق الشـجر جانبا، وهو يفكر فى أن يجد رقعـة مطروقة فى التراب الذى كـان الرجل قد تراقص حوله ودك التراب تحته وهو يموت. كان شعره قد سقط عن الجمجمة ورقد بين أوراق الشجر حول عظام قـدمـيـه. أشـقـر وكل العظام بيـضـاء للغـاية، والأسنان صـفـراء فى فكين مـرتخـيين. مـر إينمـان بيده أسفل عظام ذراع الرجل التى تسـاقطت. كـان بها حبيبات. وعظام الرجلين والقدمين فى كومة مثل حطب لإشعال نار. جال بخاطر إينمـان، أنه لم يسـتطع أن يفك رباطه ليـقـع، ولكنه لو صـبـر، لحـدث هذا فى المستقبل.

وبعـد ذلك بأيام، صـعـد إينمان طول الصـباح وهو لا يعرف حـقا أين كـان. تحركت الشبورة أمامه مثل غزلان تعدو بين الأشجار. ثم سار طوال العصر على درب على خط الحافة يتدحرج بين هضاب جبلية من أشجار البلسم وفجوات صغيرة فى غابة تقوم فيها أيكات خوخ ونهايات أشجار خليجية صلبة الخشب تصل إلى أكثر الأماكن ارتفاعا حيث يمكنها أن تعيش. وبينما هو يسـير بدأ يرتاب فى أنه يعرف على وجه التقريب أين كان. كـان ممرا قـديما، كـان ذلك

واضحا إلى هذا الحد. مر بركام صخور حيث اعتاد الهنود الحمر الشيروكيون فى قديم الزمان أن يقيموا نصبا على طول الطريق للدلالة على شىء ما، ولكن لم يكن بالإمكان الآن معرفة ما إذا كانت مَعْلما أو نصبا تذكاريا أو مكانا مقدسا. التقط إينمان صخرة جديدة وأسقطها على الكومة بالمناسبة تخليدا لذكرى توق ما قديم للصعود إلى أعلى.

وفى وقت متأخر من اليوم وجد نفسه على منحدر صخرى شديد تتاخمه صلعة مرج، تشابك كثيف من أشجار أزاليا وغار ونبات الآس العطرى تنمو حتى تصل إلى حافة الصخرة العارية. كان الدرب يصب فيها كما لو كان المسافرون قد تعودوا أن يتوقفوا عندها للإعجاب بالمنظر. ثم عاد الطريق يدخل الغابة من خلال ممر شاحب فى الأزاليا لا يبعد أربعين قدما عن البقعة التى خرج منها.

كانت الشمس تنحدر، وقدر إينمان أنه سيقيم مخيما مرة ثانية بدون الإفادة من نار أو ماء. جمع القليل من تراب الفحم الموجود لينِّعم مكانا للنوم، فى الفراغ بجانب حافة المنحدر. أكل ذرة محمصة من كفه وتمدد فى فراشه لينام، وهو يود لو كان هناك قمر أكبر فى السماء ليضىء المشهد أمامه.

أيقظه عند أول خيوط الفجر الرمادية صوت مشى فى المرج. اعتدل فى جلسته وأعد مسدس لى مات فى وضع استقداح زناد كامل وصوبه باتجاه الصوت. وفى دقيقة دست دبة سوداء رأسها خلال أوراق الشجر على مسافة لا تبعد عشرين قدما من حيث جلس إينمان. وقفت، وخطمها الأسمر الذى يميل إلى الصفرة مرتفع، وعنقها ممتد طويلا، تتشمم النسيم وتطرف بعينيها الصغيرتين.

لم يرق لها ما شمته. حكت قدميها فى الأرض وهى تتقدم وقبعت. وصعد شبل واحد ليس أكبر بكثير من رأس رجل مسافة قصيرة أعلى جذع شجرة تنوب فريزر حدثة خلفها. كان إينمان يعلم أنها بنظرها الضعيف يمكنها أن تشمه لكن ألا تراه فى الضوء الشاحب. كانت فى حقيقة الأمر قريبة للغاية حتى أنه بأنف الإنسان الهزيل أمكنه أن يشم رائحتها. مثل كلب مبتل وشىء آخر أكثر عمقا.

أرسلت الدبة من أنفها وفمها هواء مرتين وتحركت إلى الأمام على سبيل التجربة. تزحزح إينمان ووقف، وانتصبت أذنا الدبة. طرفت بعينيها ومدت عنقها مرة ثانية وتشممت الهواء وأخذت خطوة أخرى إلى الأمام

وضع إينمان المسدس على فراشه، لأنه كان قد قطع على نفسه عهدا مع الدببة ألا يطلق النار أبدا على دب، على الرغم من أنه قتل وأكل الكثير منها فى شبابه وكان يعرف أنه لا يزال يحتفظ بولع شديد بنكهة شحم الدب. كان القرار قد جاء نتيجة لسلسلة من الأحلام لاحقته على امتداد أسبوع فى خنادق بيترزبورج الموحلة. فى أول الأحلام كان قد بدأ يكون رجلا. كان مريضا ويشرب شايا من أوراق عنب الدب كمقوٍ، وتحول بالتدريج إلى دب أسود. وخلال الليالى ركبته رؤى دببة. كان إينمان يطوف فيها بجبال الأحلام الخضراء وحيدا وعلى أربع، متحاشيا كل جنسه والأجناس الأخرى. كان ينبش فى الأرض بحثا عن أطعمة شاحبة ويندفع إلى أشجار النحل من أجل العسل ويأكل التوت الأزرق الأمريكى ملء شجيرات، وكان سعيدا وقويا. وفكر أنه قد يكون فى هذا الأسلوب من الحياة درس فى كيف يخوض حربا من أجل السلام ويشفى جراح الحرب حتى تلتئم فى ندبات بيضاء.

ومع ذلك فإن صيادين أطلقوا عليه النار بعد مطاردة طويلة، فى الحلم النهائى. علقوه من شجرة بحبل حول عنقه وسلخوه، وهو يراقب العملية كأنه يراقبها من عل. كانت جثته الحمراء التى تقطر دما كما يعرف جثة دب حقيقى بعد سلخها، أى أشبه بإنسان، أشد هزالا مما يتوقع المرء، وتكوين المخالب تحت الفراء طويلة بطول يد إنسان. وبذلك القتل كانت الأحلام قد أخذت مجراها، واستيقظ فى ذلك الصباح الأخير وهو يشعر بأن الدب حيوان له أهمية خاصة له، حيوان يمكن أن يلاحظه ويتعلم منه، وأنه سيكون بمثابة خطيئة بالنسبة له أن يقتله مهما كان الثمن، لأنه كان هناك بالدب شىء يحدثه عن الأمل.

ومع ذلك، فإنه لم يرض كثيرا عن وضعه الحالى، وظهره إلى حافة المنحدر الصخرية، والمرج متعقد أمامه، والدبة عصبية بشبل ولد خارج الموسم. كان ما يأتى فى صالحه: كان يعلم أن الأكثر احتمالا بالنسبة للدبة أن تجرى لا أن تهاجم، إنها قد تقوم على أكثر تقدير بهجوم زائف، عدوا إلى الأمام لمسافة

خمسة عشر قدما أو ما إلى ذلك، وهى تتواثب أثناء مجيئها على رجليها الأماميتين وتنخر هواء. كان الغرض أن تخيفه، لا أن تؤذيه. لكن لم يكن لديه سبيل للعدو. كان يريد أن يعرف أين هو، ولذا فإنه خاطبها قائلا: لست أقصد أن أزعجك. سوف أواصل السير من هنا ولن أعود أبدا. إننى أطلب مجرد ممر سالك. تكلم بهدوء ومباشرة وأراد أن ينقل صوته الإحساس بالاحترام.

تشممت الدبة الهواء أكثر. تزحزحت من قدم إلى قدم، وتأرجحت من جانب إلى جانب. لف إينمان فراشه وزلق مخلاتيه على كتفه.

قال: سوف أمضى.

تحرك خطوتين وشنت الدبة هجوما زائفا.

كان بإمكان إينمان أن يحسب فى ذهنه عندما حدث هذا أن لا شىء من مقاييسه يمكن أن يتحقق. مثل مشكلة نجارة لا تتوافق أى من أبعادها. كان أمامه ثلاث أقدام فقط للتراجع. وكان لديها كل زخم حجمها وعشرة أقدام أمامها قبل حافة الجرف.

أخذ إينمان خطوة جانبية واندفعت الدبة إلى جواره وغاصت من فوق الحافة العالية التى لم ترها مطلقا فى الظلام. كان بإمكانه أن يشم رائحتها القوية وهى تندفع بجواره. كلب مبتل، وتراب أسود.

ألقى نظرة من فوق الحافة ورآها تتهشم على الصخور بعيدا إلى أسفل مثل زهرة هائلة حمراء فى ضوء الفجر. فتات جلد أسود مبعثرة على الصخور.

قال لنفسه، روث. حتى أفضل نواياى تصل إلى عدم، والأمل ذاته ليس إلا عائق.

أطلق الشبل صيحة عالية من شجرة التنوب فى ألمه المبرح. لم يكن بعد حتى مفطوما وسيذوى ويموت بلا أم. وسوف يعوّل لعدة أيام حتى يموت جوعا أو ينهشه ذئب أو فهد.

مشى إينمان إلى الشجرة ونظر فى وجه الشبل الصغير. طرف بعينيه السوداوين وفتح فمه وبكى مثل طفل بشرى.

ومما يحسب لإينمان، أنه استطاع أن يتخيل أنه يمد يده ويمسك بالشبل من قفاه ويقول، نحن أقارب. ثم يخلع مخلاته ويدفع الشبل فيها براسه فقط بارزا. ثم يعيد الربطة إلى مكانها ويغادر المكان، والدب يتطلع فيما حوله من هذا المنظور الجديد لامع العينين مثل طفل هندى احمر. أعطه لإيدا كحيوان مدلل. أو إذا طردته، فقد يربيه ليكون دبا أليفا جزئيا، وعندما يصل إلى قمة نضجه فقد يتوقف بجانب كوخه الزاهد على الجبل البارد من آن لآخر من أجل الصحبة. أن يأتى بزوجته وأولاده حتى يمكن لإينمان فى السنين القادمة أن يكون له عائلة حيوانية إن لم يكن له عائلة أخرى.

غير أن ما فعله إينمان كان كل ما يمكنه أن يفعله. التقط مسدس لى مات واطلق النار على رأس الشبل وراقبه وهو يتوقف عندما تراخت قبضته على الشجرة ويسقط على الأرض.

وحتى لا يُضيّع اللحم سدى، أوقد إينمان نارا وسلخ الشبل وقطعه إلى أجزاء وسلقه. بسط الجلد الأسود على صخرة ولم يكن أكبر من جلد راكون. وبينما كان الدب يطهى جلس وانتظر عند المنحدر والصباح يطلع. تبددت الشبورة وأمكنه أن يرى الجبال والأنهار تصطف حتى حافة الأرض النائية. كانت الظلال تنزلق أسفل منحدرات أقرب خط للحواف، وتسقط فى الوديان كأنها تُصرُف فى بركة قاتمة تحت الأرض. وكانت مزق من السحب تتدلى فى الوديان أسفل قدمى إينمان، ولكن لم يكن هناك فى كل ذلك الأفق سطح سقف واحد أو ريشة من دخان أو حقل ممهد يحدد مكانا استقر فيه الإنسان. كان بإمكانك أن تمد بصرك عبر ذلك المنظر الطبيعى المطوى وتنبئك كل حاسة لديك أن ذلك هو كل العالم الموجود.

كانت الريح وهى تكتسح أعلى الجبل تحمل معها رائحة الدب وهو يسلق وتترك فقط رائحة الحجر المبتل. تمكن إينمان من أن يرى الغرب يمتد عشرينات من الأميال. قمة ومنحدر وجرف شديد الانحدار، مكومة ورمادية، تمتد إلى الأفق البعيد. كانت الكلمة التى يطلقها عليه الشيروكيون هى « كاتالوتشى». وتعنى أمواجا من الجبال فى صفوف متلاشية. وفى هذا اليوم كانت الأمواج لا تكاد

تختلف عن سماء الشتاء الفجة. كلاهما مُزَلج ومكسو برخام بنفس درجات اللون الرمادى فحسب، وهكذا امتد المنظر عاليا وواطئا مثل بلاطة من اللحم المخطط. لم يكن بإمكان إينمان نفسه أن يرتدى أفضل مما يرتديه ليخفى نفسه وسط هذا العالم، فكل ما يرتديه رمادى وأسود وأبيض متسخ.

ورغم كآبة المنظر، كان هناك بهجة تنمو فى قلب إينمان. كان يقترب من موطنه، كان بإمكانه أن يشعر بذلك فى لمسة الهواء الشفيف على جلده، فى حنينه إلى أن يرى تواثب دخان المدفأة من بيوت الناس الذين عرفهم على امتداد حياته. ناس لن يطلب منه أن يكرههم أو يخشاهم. نهض واتخذ وقفة بأرجل مفتوحة على الصخرة وضيق عينيه حتى يكون المنظر أكثر حدة عبر المشهد الهائل لأحد الجبال. كان يقوم وحده منفردا عن السماء مثل ضربة قلم غمس فى الحبر بدرجة هزيلة فحسب، خطا نحيلا سريعا إيمائيا. لكن الشكل تدرج ببطء واضحا لا يمكن أن يخطئه المرء. كان الجبل البارد هو ما ينظر إليه.. لقد حقق أفقا مما كان يعنى بالنسبة له أرض الوطن.

وبينما كان يتفحصه، تعرف على خط كل حافة بعيدة وواد يحملان له أكثر من مجرد ذكرى. بدت منقوشة منذ زمن بعيد بشكل لا يمحى على قرنيتى عينيه بآلة حادة. ألقى نظرة على هذه الهضبة وعرف أسماء الأماكن والأشياء. قالها بصوت عال: ليتل بيرتيل ريدج، واجون رود جاب، ريبشن، هنجر كريك، كلوهامر نوب، روكى فيس. لم يكن هناك جبل أو مجرى ماء ينقصه تسمية. لا طير ولا شجيرة مجهول الاسم. بيته.

أرجح رأسه من جانب إلى جانب، وشعر بها تتوازن من جديد على ساق رقبته. تسلى بفكرة أنه يقف ممتلئ الجسم على الأفق بشكل غير مألوف. وللحظة بدا أن مما يقبل التفكير أنه قد لا يشعر أبدا بأنه منزوع اللب. فمن المؤكد أنه على البعد فى ذلك البلد المتعقد كان هناك مكان يمكن أن يختفى فيه رجل. كان بإمكانه أن يسير وأن تهب الريح وتعصف بأوراق الشجر الصفراء عبر آثار قدميه وسيكون هو مختبئا وآمنا من تحديق النظرة الذئبية للعالم أجمع.

جلس إينمان وراح يعجب ببلده حتى طهيت قطع لحم الدب، ثم رش عليها دقيقا وقلاها فى أخر ما تبقى من شحم الخنزير من الورقة الملفوفة التى أعطتها له المرأة قبل أيام. أكل وهو جالس على قمة الجرف. لم يكن قد أكل لحم دب بهذا الشباب من قبل، وعلى الرغم من أن اللحم كان أقل سوادا وشحما من الدب الأكبر سنا، فإنه كان لا يزال له طعم الخطيئة. حاول أن يسمى أيا من الخطايا السبع المهلكة التى تنطبق. وعندما فشل قرر أن يُلحق بها خطيئة ثامنة، الندم.

العدم والأسى

لو كان نتوء الجبل المستدير له اسم، لما عرفه ستوبرود. سار هو ورفيقاه محدبى الظهر، ورءوسهم المنحنية لأسفل مطبقة بإحكام ضد البرد، وحواف قبعاتهم مائلة قرب أنوفهم، وأيديهم مرفوعة بداخل أكمام معاطفهم. امتدت ظلالهم أمامهم حتى انهم كانوا يطأون أشباههم. مرت الغابات من حولهم دون أن يلاحظوها. وكانت عصى كستناء الحصان، والجرس الفضى، وشجرة التوليب والزيزفون الأمريكى يُلَّوح فى النسيم. كانت آلاف من أوراق الشجر تحت أقدامهم تخفف صوت وقع خطواتهم.

كان الفتى بانجل يمشى فى أعقاب ستوبرود تماما. تبعهما الشخص الثالث متخلفا عنهما بست خطوات. حمل ستوبرود كمانه فى جواله مشدودا بإحكام تحت ذراعه، وبانجل يحمل عنق آلة البانجو مربوطا من فوق كتفه. لم يكن الرجل الثالث يحمل أى آلة موسيقية لكنه يحمل كل حاجيات المجموعة الضئيلة فى مخلاة بيده، وهو يستر نفسه ببطانية بلون جوزى غربلتها العثة تتجرر على الأرض وهى تجر فى أعقابها أثرا فى أوراق الشجر.

كانت أمعاؤهم تصطخب جميعا من عشاء الليلة السابقة، التى أعدوها من أنثى ظبى وجدوها ميتة على الأرض، متجمدة بها. ومن جوعهم إلى اللحم، كانوا قد اختاروا أن يتجاهلوا لافتات تشير إلى كم من الوقت ظل ذلك الشىء هناك او كيف قد تكون ماتت. فقد أوقدوا نارا يتصاعد منها الدخان وطهوها من كلفلها

حتى لم تزد عن كونها قد تخلصت بالدفء من آثار البرد. أكلوا منها كمّاً لا بأس به. وكانوا الآن نادمين على ما فعلوا. لم يتكلموا. من أن لآخر كان أحدهم يهرع إلى داخل أجمة ويلحق بهم بعد ذلك.

لم تهسهس ريح ولا صاح طير. والصوت الوحيد هو صوت ابر دقيقة تتساقط عندما يمرون تحت مواقع شجر الشكران. كانت آثار ضئيلة من الفجر تنتشر بشكل مروحى بلون المَغْر الأصفر فى الشرق، وسحب نحيلة تسوقها الرياح بسرعة عبر الشمس الهشة. وقامت فروع الأشجار صلبة الأخشاب القاتمة المجدولة محفورة على خلفية من الضوء الضعيف. لم يكن هناك لون أى شىء أرضى لبعض الوقت سوى درجات لون بنى ورمادى داكنة. ثم مروا بحافة صخرة يكسوها الثلج ورأوا نُحِلَة ما رخوة من الطحلب أو عشبة الورت، لامعة إلى درجة توجع العين. مد بانجل يده وكسر طرفا جلديا مروحيا وأكل متأملا وبانتباه شديد. لا هو بصقه ولا جذب المزيد منه، ولذا كان من الصعب تسمية رأيه فى المذاق. غير أنه بعد ذلك سار على طول الطريق ومدركاته الحسية متألقة، متنبها لمثل هذه الهبات الأخرى التى قد يمنحها العالم.

وبمرور الوقت صعدوا إلى قطعة مسطحة من الأرض حيث تلتقى ثلاثة ممرات معا: واحد مما وصلوا إليه منحدر، وآخران لا يزالان أكثر شحوبا صاعدين. كان المفرق الأكبر قد بدأ حياته دربا للجاموس ثم ممرا هنديا، وظل باقيا شديد الضيق فى مروره بين أشجار بحيث لا يمكن أن يكون حتى طريقا للمركبات. كان الصيادون قد أقاموا هنا مخيما وتركوا وراءهم دائرة نار استخدمت كثيرا وقطعوا أشجار من أجل حطب النار وكانت الغابات نحيلة على بعد خمسين خطوة من نقطة التقاء المفارق الثلاثة. ورغم ذلك، كان هناك شجرة حور هائلة تقوم فى مفرقى الدربين الصاعدين. لم تكن قد استثنيت من القطع بدافع من تبجيل جمالها أو حجمها أو عمرها. لم يكن هناك منشار قطع متعارض فحسب فى أى مستوطنة قريبة طويل بما يكفى لأن يصل إلى طرفيها. كان محيط جذعها كبيرا، مثل كوخ الذرة، حيث يدخل فى الأرض.

وظنا منه أنه يتذكر المكان على نحو باهت، فإن ستوبرود توقف ليستعرضه، وعندما فعل ذلك خطا بانجل فى أعقابه. خرجت قدم ستوبرود من الحذاء كاملة، ووقف مرتديا جوربه على عفن أوراق شجر متجمد. استدار ووضع إبهاما

خشنا على عظمة قص الفتى ودفعه خطوة بعيدا عنه ثم انحنى ووضع جوال كمانه على الأرض وأعاد ارتداء حذائه.

وقف الرجال معا يلهثون من الصعود وينظرون إلى الدربين الواقعين أمامهم. كانت أنفاسهم تدوّم حولهم كما لو كانت قلقة، ثم فقدت الأشكال المبهجة أهميتها واختفت. كان هناك جدول يتعثر فى مكان ما على مقربة على مسمع منهم، وهو يوفر كل الصوت المسموع فى المكان.

قال الرجل الثالث: إن الجو بارد.

نظر ستوبرود إليه ثم صفى حلقه وبصق تعليقا على كآبة المنظر وضحالة الملاحظة.

مد بانجل يدا من داخل كمه وأدار كفه لأعلى إلى عناصر الطبيعة ثم ضم قبضته وأعاد سحبها إلى الداخل مثل رأس سلحفاة بحرية.

قال، آه، يا إلهى، إنه يقفقف أمعاءك فى بطنك.

قال الرجل الثالث، هذا ما أعنيه.

كانا قد حصلا على الرجل فى كهف المشردين. لم يكن قد ذكر اسما ولا اهتم ستوبرود بأن يعرفه. كان فتى من جورجيا لا يزيد عمره على سبع عشرة سنة، أسود الشعر، بنى الجلد، له خصلات صغيرة دقيقة فى لحية نامية على ذقنه، لكنه أملس الوجنتين مثل عذراء. به بعض دماء شيروكية، أو ربما كريكية. وشأن أى واحد آخر، كان لديه حكاية عن الحرب. كان هو وابن عمه مجندين صغيرين يدعوان إلى الرثاء، وقد ضموا إلى الجند فى عام ثلاثة وستين. كانا قد قاتلا مدة عام فى نفس الفوج، رغم أنهما لم يكن لديهما الكثير مما يسهمان به حيث إن بندقيتهما من الطراز القديم كانت ترتفع أعلى من قمتى قبعتيهما. وقد ناما كل ليلة تحت نفس البطانية، وهربا من الجندية معا. كان تفكيرهما أنه ليست هناك حرب تدوم إلى الأبد، وعلى الرغم من أن الإنسان ولد ليموت، فإنه من السخف أن يفعل هذا عشية السلام. ولهذا هربا. لكن المسيرة إلى البيت كانت طويلة ومربكة، ولم يكونا قد حسبا حساب أنه ستمر من تحت أقدامهما مثل هذه المناظر الطبيعية الجمة. استغرقا ثلاثة أشهر للوصول إلى الجبل البارد، ولم يعرفا حتى فى أى حالة كان.

ضـلا طريقـهـمـا بـشكل عـويص، ومـات ابن العم فى خليج كـالح، مـحمـومـا ومدمرا من سعال نتيجة اضطراب ما مشبع بالرطوبة فى رئتيه.

كان أحد أصحاب الكهف قد عثر على الفتى بعد بضعة أيام، وهو يتجول على غير هدى. سُلِّم إلى ستوبرود وبانجل، اللذين كانا سيرحلان ليؤسسا جاليتهما الخاصة بهما من اثنين فى مكان ما بأعلى الجبل بالقرب من الصخور اللامعة. وحتى على الرغم من أن ستوبرود كان يزدرى ولاية جورجيا ازدراء شديدا، فإنه اتفق على أن يوضح هذا للفتى عندما يبلغان ارتفاعا يتيح لهما أفقا جنوبيا عظيما.

فى أول الأمر، على أى حال، هبطا من الكهف إلى مكان يختبئون فيه بحثا عن الطعام، وهو يخبر الفتى عن إيدا على الطريق وكيف قادت روبى فى آخر الأمر إلى روح الإحسان. وكانت روبى قد وضعت شروطا لإحسانها، مع ذلك. كانت هى وإيدا تعملان فى حدود ضيقة من أجل الشتاء، وليس بإمكانهما أن يعطيا إلا القليل، مـا لا يكفى رجلين أن يعـيـشـا عليـه كليـة. ورأت أن زيارة ستوبرود وبانجل محفوفة بالمخاطر. لم تكن تريد أن ترى حتى ظلهما حول المزرعة مرة ثانية.. كان الطعام يترك فى مكان مـا آمن ومـختبئ، وقد اقترحت مكانا عاليا بحذاء الحافة اكتشفته أثناء هيامها على وجهها فى طفولتها. حجر مسطح مستدير موسوم بعلامات من الحافة إلى الحافة بكل أنماط من الكتب المقدسة الغريبة. وأبعد من هذا، أنها لم تكن تريد أن ترتبط بأى برنامج محدد المواعيد. كانت تحمل الطعام إلى هناك عندما يروق لها ولا تحمله عندما لا يروق لها. وكان الأمر متروكا لستوبرود أن يتحقق من ذلك.

عندما وصل الرجال إلى المكان، جال ستوبرود فيه ببصره ثم ركع وتحسس بيديه تحت أوراق الأشجار. ثم شرع يقلب التربة بطرف حذائه وسرعان ما كشف عن حجر مستدير مسطح مثبت فى الأرض. كان بحجم فتحة حوض غسيل تقريبا، ولم تدل العلامات على أى ملمح من الأسلوب الشيروكى. كانت مبتورة وصارمة للغاية فى زوايا حروفها، تتململ على وجه الحجر مثل عنكبوت على مقلاة. لعله جاء من جنس ما قبل الإنسان. تحت حافة الصخرة وجدوا صندوقا قصديريا من جريش الذرة، بعض التفاحات المجففة ملفوفة فى قطعة ورق من جريدة، وبضع شرائح رقيقة من لحم جانب الخنزير، وجرة فخارية بها فاصوليا مخللة. أضافوا هذه الأشياء إلى مئونتهم من الشراب وتبغ التدخين وتبغ المضغ.

قال فتى جورجيا لستوبرود الآن: أى درب نريده فى تقديرك؟ تخبطت البطانية صعودا وهبوطا حين أومأ بمرفقه صوب مفارق الدروب وصنعت طيات فى الأرض مثلما تفعل الأغطية فى حجر منحوت.

نظر ستوبرود إلى حيث أشار. لكنه لم يكن واثقا مطلقا أين كانوا ولا إلى أين يذهبون. كان يعلم فقط أن عليهم أن يصعدوا أعلى، وأن يذهبوا أبعد. كان جبلا ضخما أن يسير فى محيط دائرة حول ما يمكن أن يسمى بقاعدته ولن يسير أقل من مائة ميل. فهناك مدى فطن حقا يكتنف ذلك الأمر، حتى ولو كان مسطحا مثل خريطة لقطعة أرض صغيرة بدلا من أن يكون مرتفعا إلى أعلى فى السماء ومتثنيا بكل أنواع الخلجان والتجويفات والوديان. وعلاوة على ذلك، فقد كانت خبرة ستوبرود السابقة بالجبل البارد، حينما كان ممكنا، هى خبرته وهو مخمور. ولذا فإن الدروب، فى ذهنه، تتشابك معا ويمكن أن تؤدى إلى أى مكان.

راقب بانجل تفحص ستوبرود المرتبك للمنظر الطبيعى. ثم قال أخيرا، بتمهيد لاعتذار متلعثم لأنه يعلم أكثر مما يعلمه ناصحه المخلص، إنه يعرف بالضبط أين يوجد ويعلم أن المفرق إلى اليمين سرعان ما يصبح ضئيلا لكنه يشق طريقه إلى الأمام قدما عبر الجبل، مفضيا إلى أبعد مما حرص على تقفى أثره مطلقا، ذاهبا إلى حيث كان الهنود يذهبون. وكان المفرق إلى اليسار أكثر عرضا فى أول الأمر لكنه يتعرج ويتضاءل حتى يتلاشى بعد وقت قصير قرب بركة ماء كريهة الرائحة.

قال ستوبرود، سوف نطهى لأنفسنا وجبة ونتقدم.

جمع الرجال خشبا وأوقدوا لهبا يرتفع على مضض فى حلقة الأحجار القديمة السوداء. وضعوا بعض عصيدة جريش الذرة ليسلق فى ماء الجدول، وهم يفترضون أن لطفه قد يهدئ معداتهم المهتاجة. جذبوا كتل خشب ليجلسوا عليها وأشعلوا غلايين طفلية وراحوا ينفثون الدخان ويحتشدون قرب ألسنة النار ما أمكنهم دون أن يشعلوا النار فى ملابسهم ونعال أحذيتهم. مرروا قنينة الشراب وجرعوا جرعات طويلة. كان الجو القارس قد تسرب إلى عظامهم وحول نخاع عظامهم إلى جيلاتينة فى صلابة شحم الخنزير البارد. وجلسوا فى هدوء فى انتظار أن يُلَيِّنهم دفء النار والشراب.

وبعد بعض الوقت، انشغل ستوبرود انشغالا عميقا فى اختبار نصل سكينه اختبارا دقيقا فى جرة الفاصوليا المخللة التى كان يمسك بها أمامه. قضم حبة فاصوليا بتأن واحدة بعد الأخرى من طرف سكينه وهو يمسح الخل بين كل

واحدة والأخرى من على النصل على رجل سرواله. اكل بانجل حلقة صغيرة ذابلة من التفاح المجفف، وهو يدعكها أولا مسطحة بين كفيه ويمسك بها أمام عينيه كما لو كان قلبها يصلح منظارا مكبرا ليعطى منظورا جديدا للأشياء التى فى العالم.

كان فتى جورجيا يجلس محدبا ويداه باتجاه النار. كانت بطانيته تغطى راسه مثل قلنسوة راهب، وقد تركت وجهه كله مظللا لولا ضوء النار الذى يخترق عينيه. وضع يدا على بطنه وتصلب كما لو كان احد قد دفع عصا مدببة إلى أعلى فى أحشائه.

قال فتى جورجيا، لو كنت أعلم أن ستصيبنى هذه الفركات بهذه الشدة لما أكلت لقمة واحدة من لحم الظبى ذلك.

قام ومشى ببطء وببعض الرقة إلى داخل أجمة الرودندرون وراء المساحة المكشوفة. راقبه ستوبرود وهو يمضى.

قال: أشعر بالأسف لذلك الصبى. إنه يود انه لم يغادر بيته أبدا، لكنه ليس لديه حتى الإدراك ليعرف أى ولاية حقيرة جاء منها. لو كان لدى شقيق فى السجن وأخر فى جورجيا، لحاولت تهريب الشقيق من جورجيا أولا.

قال بانجل، لم أذهب أبدا إلى حد أن أصل إلى جورجيا.

قال ستوبرود، ذهبت إليها مرة واحدة. ليس بها إلا أقل القليل. لمجرد أن أستطيع أن أرى من أى مادة هزيلة صنعت، ثم عدت.

توهجت النار من هبة ريح، ومد الرجلان أيديهما ليستدفئا. غلب ستوبرود النعاس. تداعت رأسه حتى وصلت ذقنه إلى صدره. وعندما ارتجت إلى أعلى، كان ينظر إلى رجال يمتطون جيادا فى الدرب، وهم يصلون إلى قمة منحدر التل فحسب. جماعة من الكشافين يثير منظرهم الرثاء يقودهم رجل متأنق فى مظهره وصبى ضئيل الحجم. لكن الرجال كانوا يحملون سيوفا عريضة النصل ومسدسات وبنادق، العديد منها مصوب إلى ستوبرود. ركب الحرس إليهم وهم ملتفون بمعاطف ثقيلة ومغلفون ببطانيات والجياد يتصاعد منها البخار فى الجو البارد وتنفخ ريشات من فتحات أنوفها المنتفخة. كانت هناك طبقة نحيلة من الثلج فى الطريق، وعندما خطت إلى الأمام صرت حوافرها فيه مثل مدق على ملاط.

صعد الحرس الدرب وبلغوا المساحة المكشوفة حتى لاحوا فوق الرجال وألقوا بظلهم عليهم. حاول ستوبرود أن ينهض وقال تيج، الزم مكانك كان يجلس متراخيا فى السرج ويحمل بندقية ذات ماسورة قصيرة من طراز سبنسر وصحفة كعبها المعدنية الملتوية إلى الداخل تتوافق مع تضخم فخذه. وكان يرتدى قفازين من الصوف، وقد قُطِّع من قفاز يده اليمنى السبابة والإبهام حتى يستطيع أن يجذب قادح البندقية ويضغط الزناد دون أن يعوقه شيء وهو يمسك باللجام المضفور بدقة بين سبابة وإبهام يده الأخرى المغطاة. تفحص الرجلين الجالسين أمامه بعض الوقت. كان جلدهما رماديا وبدت عيونهما فجة مثل ثقوب فى سطح لحاف. كان شعر الصبى البدين ينتصب بحواف ناتئة مشحمة بنية اللون مثل كعكة من مزيج السكر والبيض المخفوق على جانب من رأسه ويرقد متلبدا على جمجمته على الجانب الآخر. كان جلد قمة رأس ستوبرود الصلعاء محببة وكامدة، غير محكمة الشد على العظم، ينقصها إجمالا اللمعان المحكم المألوف لدى الصلع من الرجال. كان وجهه يبدو مطويا حول أرنبة أنفه حتى أنه يشبه قمعا.

قال تيج: لن أسألكما حتى إذا كان لديكما أوراق. فقد سمعت الأكاذيب التى يتقولون بها فى ذلك الخصوص. نحن نتعقب جماعة من المشردين يقال إنهم يعيشون فى كهف. لقد كانوا يسرقون الناس. ولو كان هناك رجل يعرف أين يتجوف ذلك الكهف فى الجبل فربما يكون فى صالحه أن يُخبِّر عنه.

قال ستوبرود: أنا لا أعرف بالضبط. كان صوته سريعا حقا ومشرقا، رغم اكتئابه الداخلى وهو يحسب أنه فى خلال شهر سيعود إلى فيرجينيا اللعينة ليعمل على بندقية بقضيب تنظيف. قال: كنت لأقول لو كنت أعرف. لقد سمعت لتوى كلاما عن مثل هذا الشيء. البعض يقولون إنه بعيد جدا فوق فى الجانب الخلفى من الجبل، قرب بيرين برانش أو الجدول اللامع أو مكان من هذا النوع.

نظر بانجل إلى ستوبرود مستغربا. والحيرة قائمة على وجهه مثل ظل.

قال تيج لبانجل: ما قولك فى هذا؟

جلس الصبى بجذعه مائلا إلى الوراء، وثقله مستقر على منصة عظام مؤخرته العريضة، وهو يظلل عينيه بيده من الشمس المغبشة التى تقوم خلف أكتاف الفرسان المتجمعين أمامه. أمعن النظر من عينيه صغيرتى الحجم ببعض الحيرة. تساءل كيف يجيب أفضل إجابة عن السؤال الذى وجه إليه. وكل أنماط الأفكار تلوح على وجهه الناعم.

قال بانجل أخيرا وهو ينظر إلى ستوبرود: إن هذا ليس حتى قريبا منه. إنه فى هذا الجانب. تعرف. فوق بيج ستومب. لا أكثر من ثلاثة أميال أعلى خليج نيك. تصل إلى حيث يفترق الطريق مثل أقدام الديك الرومى وهناك موقع لأشجار الجوز أعلى المنحدر الأيمن. كثير من السناجب تنبش الأرض تحتهم فى الخريف. سناجب كثيفة على الأرض. يمكنك أن تقتلها بصخور. عليك أن تصعد إلى أعلى فى هذا الاتجاه خلال أشجار الجوز تلك إلى منحدر صخرى، ثم عند قمته تجده هناك. هناك تجويف فى الجرف كبير مثل علّية مخزن الغلال.

قال تيج، شكرا جزيلا. استدار إلى فارسين ضخمين كئيبين وفتل أحد ركنى فمه بدرجة تحمل ظلا ضئيلا من مغزى.. ضغط بثقله على ركابه وصرت جلوده وأرجح رجْلا من فوق الحصان وترجل.

تبعه الرجال الآخرون.

قال تيج لستوبرود، سوف ننضم إليكما عند ناركما إذا لم يكن لديكما مانع. نتناول بعض الإفطار معكما. نطهو ونأكل. ثم بعد قليل سوف نستمع إليكما وأنتما تعزفان بعض الشىء لنرى إن كان لكما أى اعتبار.

أوقدوا النار وجلسوا حولها كما لو كانوا جميعا زملاء. كان لدى الحرس كمية ضخمة من النقانق مربوطة فى أغلفة، وعندما أخرجوها من حقائب سروجهم، كانت بالغة التجمد وملتفة مثل أمعاء شىء ما. كان عليهم أن يقطِّعوها قطعا تصلح للطهو ببلطة يدوية صغيرة. وضعوا الأجزاء المقطعة على أحجار مسطحة على حافة النار لتذوب بما يكفى لأن يغرزوا فيها عصيا حادة ويمسكوا بها لتشوى.

سرعان ما كانت النار تتأجج لهبا وجمرا وحوضا من الرماد، وارسلت ما يكفى من الحرارة إلى حد أن بانجل فك أزرار سترته ثم أزرار قميصه وأبرز مساحة ضيقة من صدره الشاحب وبطنه للنار وأصبح مطمئنا تماما. لم يكن لديه أى إدراك أن هناك أى شىء يشوب تلك اللحظة سوى الدفء والرفقة ورائحة الطعام يطهى. تفحص آلة البانجو لحظة، ويبدو عليه أنه يعجب بشكلها وصحة موادها كما لو كان لم يرها من قبل أبدا. كما لو كان يروق له أن يتفحص هندستها بمثل ما يروق له عزفها تقريبا.

وسرعان ما تشوشت عيناه واغمضتا وجلس متهاويا، انهار كل ثقله خلال جذعه على قاعدة مؤخرته العريضة، حتى أن مقدمته أصبحت شلالا صغيرا من لفات لحم أبيض. كان تمثالا منحوتا من دهن خنزير.

قال ستوبرود، لقد غاب عن العالم. منهك.

أخرج تيج زجاجة خمر من جيب معطفه ودفع بها إلى ستوبرود.

قال، ليس الوقت مبكرا أكثر من اللازم بالنسبة لك، أليس كذلك؟

قال ستوبرود، لقد بدأت منذ وقت مضى. فحين لم تكن قد نمت إلا غفوة أو غفوتين لأيام يصعب أن تقول ما هو مبكر أكثر من اللازم.

تناول الزجاجة المقدمة له وجذب السدادة وأمالها على فمه، وعلى الرغم من أنها كانت من نوعية متوسطة الجودة فإنه كان مهذبا فى تقييمه لها. تلمظ بشفتيه ونفخ أنفاسه ولوح برأسه مشيرا إلى مذاقها.

قال تيج، لماذا لم تنم؟

شرح ستوبرود أنهما كانا يعزفان موسيقى ويقامران بضعة أيام وليال مع بعض الخبراء، على الرغم من أنه أهمل قول أن ذلك كان فى كهف المشردين. أوراق لعب، صراع ديوك، صراع كلاب، النرد. أى مباراة أمكنهم أن يفكروا فيها ليراهنوا عليها. مقامرون كبار محمومون بالرهان. بعضهم تتملكه حمى بالغة إلى حد أنه قد يكسب القبعة من على رأسك ثم شخص يشذ عن الجماعة ويراهن على شعرك. ولافتقارهم إلى شيء أكثر لفتا للنظر، فإنهم يراهنون على أى سرب من طيور سيطير أولا من على فرع شجرة. راح ستوبرود يتباهى بأنه خرج متعادلا، وهو شيء يدعو للعجب فى مثل تلك الصحبة.

ضم تيج مفاصل أصابع يديه معا وأتى بحركة مثل تقليب أوراق اللعب بإبهاميه.

قال: رياضيون.

انتفخت النقانق، ونضحت دهنا، وصرت فى مغلفاتها، وأصدرت أصوات نشيش وهى تقطر فى الجمر.. أصبحت فى آخر الأمر بنية اللون، أكلها كل الرجال فيما عدا بانجل، الذى كان لا يزال نائما، من أطراف عصى الطهو.. وبعد أن أكلوا حتى فرغ اللحم، نظر تيج إلى الكمان والبانجو وقال: هل يمكنكما العزف على تلك الأشياء؟

قال ستوبرود: بعض الأشياء.

قال تيج، اعزف لى شيئا إذن.

لم يكن ستوبرود يريد أن يعزف كثيرا. كان متعبا. وحسب أن جمهوره ليس لديه فكرة عن الموسيقى، أنهم ينقصهم كلية ما يحتاجه حبها. لكنه أخرج الكمان وفرك جلد كفيه الجاف على الأوتار وعرف من همساتهم أى مفاتيح يلوى.

قال: ماذا تريدون أن تسمعوا؟

- غير مهتم. اختر أنت.

مد ستوبرود يده ونخس بانجل فى كتفه. تنبه الصبى، وعيناه الصغيرتان شقين لا أكثر. استجمع أفكاره بمجهود واضح حتى تتدرب على غرض ما.

قال ستوبرود: إنهم يريدون أن يسمعونا نعزف لحنا.

لم يقل بانجل شيئا، لكنه حرك مفاصل أصابعه برهة فى حرارة النار والتقط آلة البانجو من مفاتيحها ثم، دون أن ينتظر ستوبرود، بدأ يعزف بسرعة بضعة أنغام من لحن باكستيب سيندى. وعندما راح يعزف، كانت طيات الدهن فى صدره وبطنه تتهزهز متزامنة مع العزف، لكنه حين وصل إلى حيث يعود اللحن مستديرا مرة أخرى، أختلطت الأنغام كلها معا وعجز عن التقدم وتوقف.

قال لستوبرود: لقد وصل هذا الى عدم وأسى. فلو حددت أنت طبقة النغم فربما نصل إلى مكان ما.

عزف ستوبرود بالقوس نغمة أو اثنين من سيندى، ثم بعض أنغام أخرى، تبدو عشوائية وغير مترابطة. كررها مرة بعد أخرى، وبدأ يتضح أنها لا تؤدى معنى. لكنه استجمعها فجأة وعمل تنويعا عليها، ثم آخر لكنه أكثر دقة. وجد النسق الذى كان ينشده، وتبع درب الأنغام إلى حيث تفضى. مكتشفا سبيل منطقها، الذى كان مفعما بالحيوية، هشا، بلا مجهود مثل الضحك. عزف تعاقب نغماته السريعة مرة أو مرتين حتى أجرى بانجل التغييرات فى أوتاره ونسج سلسلة من النغمات السريعة المتجاوبة، مشرقة وخشنة. ثم شرعا يعزفان معا ليريا أى نوع من الأشياء ألفاه.

وعلى الرغم من أنها لم تكن لا رقصة سريعة مفعمة بالحيوية ولا رقصة شعبية اسكوتلاندية أو أيرلندية، فإنها تصلح للرقص. غير أن معداتهما كانتا متهيجتين بحيث لا يستطيع أيهما أن يجرر قدما. ولكن بانجل، على أية حال، كان ينقر الأرض بقدم واحدة مع النغمة التى لا تتسق مع النسق العام ويومئ برأسه وعيناه مرتخيتان حتى لم يكن هناك إلا حافة مرتعشة من بياض العينين

تبدو بين الرموش. عزف ستوبرود تعاقب نغمات سريعة ثم أنزل الكمان من تحت عنقه الذى انتصب الشعر فيه خشنا حتى استقر طرفها الغليظ على صدره. نقر الإيقاع على الأوتار بقوسه. فهم بانجل وفعل نفس الشىء بيده المبسوطة على جلد المربوط برأس آلة البانجو، وكان هناك إدراك مؤقتا أن الآلتين اللتين يعزفان عليهما كانتا إنجازين منمقين للطبلة. ومع النقر بالإبهام، كان ستوبرود يلقى برأسه إلى الوراء ويغنى كلمات أغنية يرتجلها فى نفس اللحظة. كان لها علاقة بالنساء اللاتى كانت بطونهن صلبة مثل رقاب البغال. كانت الأغنية تصرح بأن مثل هاتيك النساء كن قاسيات بشكل لا يضاهى أغلبية جنسهن.

عندما فرغ من الغناء، عزفا دورة أخرى وتوقفا. تشاورا ولويا المفاتيح مرة أخرى ليضبطا تناغم لحن الرجل الميت، ثم شرعا يعزفان مقطوعة تذكر بشكل ضئيل بـ « تقهقر بونابرت»، الذى يسميه البعض لحن جورج واشنجطن. كان هذا أكثر نعومة وأكثر تأملية، لكنه مع ذلك متجهم مثل الموت. عندما انساق المفتاح الصغير فيه كان أشبه بظلال تحت أشجار، واستدعت المقطوعة إلى الأذهان غابات مظلمة، وضوء فانوس. كانت موسيقى قديمة رهيبة مؤلفة بكيفية قديمة أثرية، موسيقى تلخص ثقافة وهى تعبير صادق عن حياتها الداخلية.

قال بيرتس: المسيح بكى. لقد استولت عليهم النوبة الآن.

لم يكن أى من الحرس قد سمع كمانا وبانجو يعزفان معا بمثل ضبط المفاتيح هذا، ولا سمعوا عزفا بمثل هذه القوة وذلك الإيقاع يطبق على ألحان دالة رهيبة ورثائية إلى هذا الحد. كان استخدام بانجل للإبهام على الوتر الخامس والهبوط به إلى الوتر الثانى شيئا خاصا من أعجوبة تفيض بالكبرياء. كان أشبه بقرع جرس العشاء، لكنه رصين. كان أصبعاه الآخران يعملان بأسلوب شاق، يتلمس طريقه، لكنه أسلوب مشحوذ إلى حد الكمال الهمجى. كان لشدهما للأوتار تأن، تفحص، يغيب تماما عن جذب القوس اللامبالى باليد اليمنى. كانت كلمات الأغنية التى يغنيها ستوبرود تحكى عن حلم – حلمه أو حلم متكلم مختلق – يقال إنه حلم به على سرير من أوراق الشكران وينطوى على رؤيا ثرية لحب ضائع، مرور الوقت الرهيب، فتاة ترتدى عباءة من الخضرة. كانت الكلمات بدون موسيقى تكاد تبدو أكثر امتلاء بالتفاصيل من رسالة تلغرافية، لكنهما يصنعان معا عالما كاملا.

عندما وصلت الأغنية إلى نهايتها، قال بيرتس لتيج، ياآلهى الكريم، إنهما رجلان مقدسان.. إن عقليهما يدوران حول أمور ظلت خافية على أمثالك وأمثالى.

مصمص تيج على إحدى أسنانه ونظر إلى بعيد كما لو كان يتذكر شيئا.

وقف وسوى طيتى صدر معطفه وفتل خصر سرواله حتى عدَّل سرواله بطريقة ترضيه. تناول مسدسه من صنع سبنسر من على الأرض وصوب فوهته فى اتجاه المسافة بين ستوبرود وبانجل.. كان مقبضه مستقرا على ظهر رسغه الأيسر واليد متدلية هادئة.

قال موجها كلامه إلى ستوبرود: قف عند شجرة الحور تلك. وخذ ذلك الصبى معك.

ولافتقاره إلى فكرة أفضل. ذهب ستوبرود ووقف عند الشجرة. كانت ترتفع ما يقرب من مائة ياردة منتصبة وخالية من الشوائب ومتناغمة فوقه قبل أن يبرز منها فرع. وحتى عندئذ لم يكن هناك سوى فرعين، بحجم الأشجار المألوفة أنفسها، يرتفعان فى منحنيين مثل ذراعى شمعدان. كانت قمة الشجرة قد كسرت فى وقت ما فى القرن السابق، وظلت أسطوانتها المتنية المكسوة بالطحالب باقية على الأرض على مقربة، تذوب ببطء فى التراب، طرية من العفن إلى حد أن بإمكانك أن تركلها فتتفتت مثل كومة قديمة من الروث وتراقب الخنافس بأنسجتها العضوية تعدو مهرولة.

أمسك ستوبرود بالكمان أمامه فى عقفة ذراعه. وتدلى القوس من أصبع وأختلج قليلا، متزامنا مع دقات قلبه. وقف بانجل إلى جواره، وكان الوضع الذى اتخذاه هو الوضع العصبى المتكبر الذى كان الرجال يتخذونه لتلتقط لهم صورة على لوح من الزجاج فى بداية الحرب، على الرغم من أن ستوبرود وبانجل كانا يمسكان، بدلا من بندقية ومسدس كولت وسكين تشبه الحربة، بكمان وبانجو أمامهما كآلتين تُعيناهما.

طوق بانجل كتفى ستوبرود بذراعه الطليقة كما كان أطفال المدارس يفعلون ذات يوم. رفع الحرس بنادقهم وابتسم بانجل لهم ابتسامة عريضة. لم يكن بالابتسامة أى قدر من الاستهزاء أو التظاهر بالشجاعة. كانت ابتسامة ودودة فحسب.

قال أحد الرجال: لا أستطيع أن أطلق النار على رجل يبتسم لى، وهو يخفض بندقيته قليلا.

قال تيج لبانجل: كف عن الابتسام.

لوى بانجل فمه وأغلقه وعمل على أن يسوِّيه، لكنه اختلج وعاد يبتسم ابتسامة عريضة.

قال تيج: ليس هنا شيء مضحك. ولاشيء أعد نفسك للموت.

مسح بانجل وجهه بكلتى يديه من مفرق الشعر إلى الذقن. جذب ركنى فمه إلى أسفل بإبهاميه وعندما تركهما ارتدتا إليه حتى أن وجهه تفتح بابتسامة مثل زهرة.

قال تيج: اخلع قبعتك.

خلع بانجل قبعته، وأمسك بها بيديه من حافتها عند مستوى الخصر، وهو لا يزال يبتسم.

قال تيج: أمسك بها فوق وجهك.

رفع بانجل القبعة ووضعها فوق وجهه، وعندما فعل ذلك ضغط الحرس زناد بنادقهم وتطايرت رقائق خشب من جذع شجرة الحور الهائلة حيث اصطدمت الأعيرة النارية بعد أن مرت من خلال لحم الرجلين.

لحاء أسود فى الشتاء

وعندما فرغوا من ضغط أصابعهم على الزناد، قفزت كل الجياد وفزعن وأخذ زعيمهم يلعنهم وخلع قبعته وصفعهم بها جميعا على وجوههم. لم يغطوهما أو حتى يذهبوا ليقفوا فوقهما ليقولوا كلمات فيما عدا واحد منهم قال إن ما حدث يمكن تسميته نوعا ما تبادل لإطلاق النار حيث إن الطلقات النارية قد أطلقت. ثم ضحك واحد منهم وذهب واحد آخر وبال على النار وامتطوا جيادهم وانطلقوا. وأنا لا أعرف أى نوع من الأماكن هذا الذى أنا فيه، حيث يقتل الناس أحدهم الآخر بتلك الطريقة.

كان مظهر فتى جورجيا مظهر رجل يعانى من عواقب الفزع تقريبا. كان لا يزال بعد مهيج المشاعر، وهناك عجلة فى رغبته أن يعبر عن حكاية يعتقد أنها مثيرة وحقيقية.

قال: لقد رأيت كل ذلك يفعل. رأيته كله.

قالت إيدا، إذن فلماذا لم يقتلوك أو يقبضوا عليك، إذا كنت قريبا بما يكفى لأن تشاهد.

فكر الفتى فى الأمر. ألقى نظرة بعيدة جانبية ومشط شعره عن جبهته بأصابعه المبسوطة. ثم نقر مزلاج البوابة بإبهامه. كان يقف على جانب الطريق

من ســور الفناء، وإيدا وروبى على الجــانب الآخــر. كــانوا يتكلمــون من فــوق سياجات البوابة، وبإمكانهما أن يشما دخان الخشب فى ثيابه المبللة بالعرق، وشعره المبتل غير المغسول.

أجاب، سمعته يحدث، على اى حال. سمعت ما لم أره، وهذا كثير فى حد ذاته. كنت قد مشيت إلى داخل الغابات. إلى الخلف قليلا فى أشجار الغار بدافع ضرورة، على حد القول.

قالت إيدا: أجل.

- من أجل الاختلاء، كما يمكنك القول.

قالت روبى: فهمنا ماتعنيه، وماخلاصة كل هذا؟

- إنه ما أحاول أن أخبركما به. أننى تركتهما راقدين هناك ينزفان دما وميتين فى كومة تحت شجرة حور ضخمة. ثم جريت طول الطريق إلى هنا. تذكرت أين قال عازف الكمان أنكما تعيشان. ذهبت إلى الصخرة التى تحمل صورة حيث توقفنا بالأمس من أجل الطعام. وجريت على طول الطريق من هناك حتى وجدت البيت.

قالت روبى: منذ متى؟

تطلع الفتى فيما حوله وتفحص السحب الرمادية المسطحة وخطوط الحواف الزرقاء كما لو كان يحاول أن يحدد اتجاهاته. لكنه لم يستطع أن يستدعى فى أى اتجاه يقع الغرب، لا ولم تسعفه السماء بمساعدة كبيرة لتنبئه كم تكون الساعة، فلم يكن بها أى بقع مشرقة، مجرد بضعة ألوان لمقبض فأس قديم.

أخبرته إيدا، أنها الساعة الثالثة. الثانية والنصف على أكثر تقدير.

قال الفتى، وقد أخذته الدهشة على نحو معتدل. نظر إلى أسفل وتفحص الأرض المطروقة عند عتبة الفناء. زم شفتيه معا وأعمل فمه. كان يعد عدا تنازليا. مد يده إلى أعلى وقبض على سياجين فى قبضتى يديه. نفخ هواء من بين شفتيه بطريقة لايراد بها عمل صفير.

قال أخيرا، سبع ساعات. كنت لأقول، ست أو سبع.

قالت روبى، وأنت تجرى على طول الطريق؟

قال، كنت أجرى فى أجزاء منه. كنت خائفا.. من الصعب أن أتذكر، لكننى جريت حتى انقطع نفسى. ثم جريت بعض الشىء وسرت بعض الشىء. مرة هكذا ومرة هكذا.

قالت إيدا، سوف نحتاجك لترشدنا إلى هناك

لكن الفتى لم يكن يريد أن يعود إلى أعلى الجبل.

وزعم أنه كان ليود لو أطلق عليه الرصاص حيث كان على أن يزوره مرة أخرى. فقد رأى كل ما يهمه أن يراه. فكل رفيق عرفه كان ميتا الآن فى غاباته. وكان يريد أن يعود إلى بيته، تلك رغبته الوحيدة. وبطريقة تسجيله لما حدث، فإن الأنباء التى جاءهما بها وحدها تستحق بعض الطعام وبطانية أخرى وشيئا أو شيئين آخرين قد يحتاجها فى رحلته.

قال: فكثير من رجال آخرين كانوا ليتركوا الاثنين راقدين حيث سقطا ولايهتمون إن كانت الذئاب سرعان ما تجردهما حتى العظم. وأخبر المرأتين أنه يظن أن الذئاب قد وصلت سلفا إلى ابن عمه الميت. فبدون أدوات حفر كان أفضل ماااستطاع عمله على سبيل دفنه هو أن يضع الجسد تحت حافة شلال صغير فى الجدول. كان هناك مكان جاف تحت حافة ناتئة قُطِّع الجزء الأسفل منها وينسكب الماء من فوقها ويصنع ستارا، حتى أنه كان بمثابة غرفة بين الأرض والماء. أخبرهما كيف أجلس ابن عمه معتدلا معقود الساقين إلى صخرة وقال بعض الكلمات فوق وجهه الساكن مؤداها أن هناك هذا العالم وهناك عالم آخر وأنهما قد يلتقيان فى ذلك العالم الآخر مرة أخرى. قال إنه سار مبتعدا، ثم نظر إلى الوراء وكانت الشمس تسطع من خلال شبورة الشلال وترسل أقواس قزح منها. ولذا، فلا. لم يكن لديه نية فى أن تعود قدمه تطأ ذلك الجبل.

قالت روبى، إن الجبل البارد يقع مباشرة فى الطريق الذى تريد أن تقصده، لكن افعل ما يروق لك. لسنا بحاجة إليك. أنا أعرف المكان الذى تتحدث عنه، ويمكننا أن نسوق الحصان دون أن ينقصنا شىء لكى نصل إلى هناك فى خمس ساعات، ونحن نسير كل خطوة على الطريق.. وسنطعمك، رغم ذلك. المسألة ليست أننا كنا لا نطعم واحدا من كل ضالين يهيمان على وجهيهما.

فتحت روبى البوابة ودعت الفتى إلى الدخول فى الفناء. دخل وجلس على الدرج الأمامى بين شجرتى القرنوس الكبيرتين وفرك يديه معا ونفخ فيهما. مكثت روبى عند البوابة. مدت يدها إلى أعلى وأراحتها على فرع عارٍ ملتو من فروع شجرة التفاح البرى ووقفت تتطلع فى الطريق.

خطت إيدا إلى جوارها ونظرت إلى جانب وجهها. وحسب خبرة إيدا، فإن ما تفعله النساء فى مثل أوقات الفقد هذه هو أن تبكين وتحتضن إحداهما الأخرى وأن يقلن كلمات مواساة وإيمان. وعلى الرغم من أنها لم تعد تثق كلية بمثل هذه الصيغ، فإنها كانت مستعدة أن تقدم أيا منها لروبى يمكن أن يخفف عنها. وفى الحقيقة أن إيدا مدت يدها ولمست الشعر الأسود الذى لملمته روبى وربطته بشريحة جلدية عند رقبتها.

ومع ذلك، فإن روبى لم يبد عليها أنها ترحب حتى بتلك المواساة الضئيلة، لوت رأسها بعيدا. لم تكن تبكى أو تجذب حاشية ميدعتها بيديها، أو تضطرب بأى شكل ظاهر العيان لنبأ موت ستوبرود. أراحت يدها فحسب على فرع شجرة التفاح البرى وراحت تنظر فى الطريق.عبرت عن قلق واحد فحسب. هل يدفنون الرجلين فى الجبل أم يأتون بهما إلى الخليج الأسود ويرقدونهما فى المدفن الصغير بين السود؟ كانت هناك أسباب مع وضد أى من الطريقتين. ولكن حيث إن ستوبرود والسود لم يُعْنَ أحدهم بالآخر فى الحياة، فإنها رأت أن من الأفضل إجمالا أن تبقيهما منفصلين فى الموت.

قالت روبى: نحن بحاجة إلى أن نعرف الآن، فهذا أمر يخص ماعلينا أن نحزمه. مجرفات وما إلى ذلك.

كانت إيدا مرتبكة نوعا ما بشأن عدم إعادة الرجلين. بدا الأمر غير رسمى للغاية، مثل دفن كلب.

قالت: لايمكننا أن نصعد إلى هناك ونحفر حفرة ونضعهما فيها ونعود إلى البيت.

قالت روبى: كيف يختلف ذلك عما كنا لنفعله لو سحبناهما إلى هنا؟ لو كنت أنا، لفضلت تقريبا أن أستريح فى الجبل عن أى مكان آخر يمكن أن تسميه.

ولما طرح الأمر على هذا النحو، لم تستطع إيدا أن تجد ما تجادل به. كانت بحاجة إلى دخول البيت لتعد غداء للفتى، لكنها قبل أن تفعل هذا مدت يديها

واحتضنت روبى لمواساة نفسها ان لم يكن لأى شىء آخر. أدركت إيدا أن هذه هى أول مرة يتعانقان فيها، ووقفت روبى بذراعيها إلى جانبيها وكانت مجرد عقدة من شخص بين ذراعى إيدا.

أعدت إيدا فى المطبخ طبقا من بقايا غدائهم البارد - تفاحات مقلية، خبز ذرة، وبعض حبات الفول المجففة كانت قد طهيت لمدة طويلة لتتحول إلى شىء طرى لا شكل له. كانت حبات الفول قد تجلطت فى الوعاء عندما بردت، وكان لها لون وقوام ذكّرها بمعجون اللحم المفروم المتبل. ولذا فإنها فى نزوة عابرة أعادت تشكيل الفول من الوعاء وقطعته شرائح.

وعندما خرجت ناولت الفتى الطبق. تفحص الفول لبعض الوقت. كانت النظرة التى على وجهه تقول إنه يعتقد أنه وجد دليلا آخر على نوع المكان الذى كان فيه.

قالت إيدا: هذا فول.

نظر الفتى إليه مرة ثانية ثم التقط بالشوكة قضمة دقيقة ليختبر صدق كلامها.

قال، نحن لا نأكله بهذا الشكل مطلقا فى المكان الذى جئت منه.

وبينما كان الفتى يجلس على الدرج ويأكل، جلست روبى على درجة فوق، وتحدثت إليه عن خريطة الطريق الطويل حول الجبل البارد. جلست إيدا فى مقعد هزاز فى الشرفة وراحت تراقبهما، شخصين قصيرين قاتمى اللون يشبهان أحدهما الآخر إلى درجة أنه يمكن أن يُحسبا أخا وأخته. أخبرت إيدا الفتى كيف يلتزم بالحواف العالية ويتجنب الطرق الأساسية على امتداد وديان الخليج حيث يوجد الناس. ووصفت له كل المعالم التى يحتاج إليها ليشق طريقه إلى أعلى نتوء النبع البارد، ثم إلى فتحة النبع المزدوج وصولا إلى فتحة عرين الدب، فتحة عظمة الحصان، فتحة الخوخ. ومن هناك يتجه إلى أسفل التل، وعند أى مفرق فى الدرب أو الجدول، أن ينعطف إلى الجنوب الغربى. ومن مثل هذا الطريق يقع موطن الفتى المسطح الذى يدعو للرثاء لا أكثر من مسافة مسيرة أسبوعين.

قالت روبى: امض فى طريقك مع حلول الظلام ونم بالنهار ولاتشعل ضوءا. وأحسب أنك حتى ولو لم تجر طول الطريق فسوف تصل إلى هناك لتحضر عيد الميلاد. يقولون إنك تعرف جورجيا حين تصل إليها، فهى ليست إلا تربة حمراء وطرقات وعرة.

صرفت روبى انتباهها عنه واستدارت إلى إيدا وشرعت تخطط لرحلتهما. كان التوقيت قد حسب على نحو سيئ. كان تفكير روبى أنهما فى الذهاب أو العودة، سيقضيان ليلة فى الغابات بشكل أو آخر، حيث إن الأيام المقبلة ستكون أقصر أيام السنة. ولم يكن من الأهمية بمكان، حسب تفكيرها، أى ليلة كانت. ويحسن بهما أن يشرعا فى رحلتهما. ولذا فإن إيدا وروبى تركتا الفتى يمسح الطبق بعقب قطعة خبز ذرة ودخلتا البيت وردمتا النار وجمعتا بسرعة عدة تخييم حسب مواصفات روبى. فراش، أدوات طهو، طعام، شموع، علبة كبريت يشتعل بالحك وصنفرة تحتاجانها لإشعاله، حزمة حطب إشعال من أخشاب مدهونة بالشحم، لفة حبل، فأس يدوية صغيرة، بندقية وبارود ورصاص وحشوات، وحبوب للحصان، ومعول وجاروف. كوّمتا العدة فى جوالين مزدوجين من القنب وربطتا أعناقهما معا وألقيتا بهما على ظهر رالف مثل سلتين تحملان على ظهر الدابة ثقيلتين وبدائيتين.

ألقت روبى نظرة على السماء بحثا عن أى علامات سحب أو هواء أو ضوء يمكن أن تنبئ عن الجو، وكانت ما أنبأت به هو ثلج وبرد يتجمع.

قالت: هل لديك أى سراويل فى البيت.

قالت إيدا: سراويل؟

- صوفية أو كتانية، أيها. زوج منها.

- من سراويل أبى، أجل.

قالت روبى: نحن بحاجة إلى ارتدائها.

قالت إيدا: سراويل رجال؟

- ارتدى أنت ماتريدين، لكننى لا أستطيب الإحساس بريح الشتاء وهى تفتح ذيل ردائى. ولكن من يكون هناك ليرى؟

وجدتا زوجين من سراويل الصيد الصوفية الثقيلة، زوجا أسود والآخر رماديا. ارتديتا ثيابا داخلية طويلة ثم لبستا السراويل وطويتا أسفلها ثم حزمتاهما عند الوسط بحزامين حتى تجمع القماش الزائد مثل طيات خنزير. ارتديتا قميصين من الصوف وسترات من أشغال الحياكة، ولاحظت روبى قبعات مونرو ذات الحواف العريضة وقالت إنها تحجب الثلج عن وجهيهما، فأنزلتا قبعتين من على الرف وارتديتاهما أيضا. قالت إيدا لنفسها، لو كانت الظروف أسعد حالا، لكان هذا أشبه بمباراة فى تسريحة الشعر، وهى مباراة فى ارتداء ملابس تنكرية يمكن ان تراهنا عليها لتريا من يمكنها أن تجهز نفسها بشكل أكثر إقناعا على أنها رجل. أن تأخذا سناج مصباح وترسما لحى على الخدين وشوارب على وجهيهما، وتحملا سيجارا غير مشعل ويقلدا إيماءات الرجال السخيفة التى يستخدمونها فى تدخينها. لكنهما بدلا من ذلك لم تتكلما بالكاد وهما ترتديان ملابسهما، وكلتاهما ممتلئة بالفزع من اليومين القادمين.

وقبل أن تغادرا دهنتا حذاءيهما بشمع العسل وفتحتا حظيرة الدجاج وكذلك باب مربط البقرة وكومتا تبنا على أرضيته. وحسبت روبى أن والدو ستزعق لنزع كيسها عنها حين تعودان. أعطيتا الفتى طعاما وفراشا وأخبرتاه أن ينام فى علّية التبن حتى يحل الظلام ويؤمن له سفره. وعندما انصرفتا وهما تقودان الحصان، ظل الفتى جالسا بين شجرتى القرنوس، ولوح لهما مثل مضيف يودع زواره.

وقرب المساء، سقط الثلج خلال شبورة فى الغابات. سارت إيدا وروبى فى ضوء معتم تحت أشجار تنوب، ولم تكونا سوى شكلين قاتمين مبهمين يتحركان خلال مكان يفتقر إلى كل الألوان ماعدا تدرجات الظلمة. بدت أقرب الأشجار كثيرة الشبه بأشجار حقيقية، لكن الأشجار الأبعد قليلا مجرد إيحاء بأشجار كما فى رسم تخطيطى سريع، إيماءة عرضية إلى شكل أشجار. بدت كلها لإيدا كأن لم يكن هناك شيء يشكل منظرا طبيعيا وأنها تتجول فى سحابة، مع القليل الذى كان بإمكانها أن تراه على بعد ذراع منها. وكل ماعداه محجوب عن الفهم. جعل ذلك رالف عصبيا، ومضى الحصان مطأطئ الرأس إلى اليمين وإلى اليسار وهو يعمل أذنيه إلى الأمام وإلى الخلف ليلتقط أى أصوات تحمل تهديدا.

كانتا قد صعدتا زمنا طويلا تحت عريشة الشكران القاتمة. ثم عبرتا حافة واطئة وهبطتا إلى وادى خليج. كانتا قد خلفتا وراءهما من زمن ما كان بالنسبة

لإيدا أرضا مألوفة.. كانت مواطئ الأقدام ناعمة من طبقات الإبر المتساقطة، وسقط الثلج من خلال قمم الأشجار جافا مثل الجريش المغربل ودوّم على الأرض فى شكل أنساق أقواس وحلقات. لم يبد عليه أنه يريد ان يرقد.

وبعد بعض الوقت عبرتا جدولا أسود، وهما تخطوان بحرص على ظهور الأحجار المحدبة الجافة. ألقت إيدا نظرة على الطريقة التى يتشبث بها الجدول بحافة نحيلة من الثلج على طول شاطئيه وحول الصخور والأشجار الساقطة وكعبرات الطحالب، اى شىء يعوق انسيابه. وعلى الرغم من ذلك كانت المياه السريعة تمرق على امتداد الجدول كما تفعل دائما فى منتصفه.

وحيث كان ينساب فى أماكن أكثر ضحالة وبطئا، كانت تلك، إذن، الأماكن القابلة للتجمد. كان مونرو يعمل درسا من مثل هذا، كما قالت إيدا لنفسها. كان يقول ماهو مقابل أجزاء ذلك الخليج فى حياة أى شخص. ماكان الله يقصد به أن يكون نموذجا له. فكل أعمال الله ليست إلا تماثلا. كل صورة مشرقة فى العالم المرئى مجرد ظل لشىء الهى، حتى أن الأرض والسماء، العالى والواطئ، تتوافق بشكل غريب فى الهيئة والمعنى لأنها فى حقيقة الأمر متطابقة.

كان لدى مونرو كتاب يمكنك أن تهتدى به إلى النماذج. الوردة - بأشواكها وزهرتها- نموذج للسبيل الشاق والخطر إلى اليقظة الروحية. الطفل - إذ يقبل إلى العالم معوّلا بألم ودماء- نموذج لحياتنا الأرضية التعيسة التى تستنفد تماما فى العنف. الغراب-بلونه الأسود، وطبيعته المارقة، وميله إلى الاستمتاع بالتهام الجيفة - نموذج لقوى الظلام التى تترقب لتباغت روح الإنسان.

ولذا فإن إيدا، فكرت بشكل فطرى ان مجرى الماء والثلج ربما يقدمان سلاحا للروح أو، ربما، تحذيرا. لكنها رفضت أن تصدق أن أى كتاب يمكنه أن يقول كيف يجب أن يُفسر أو فى أى شىء يصلح استخدامه.. فمهما يكن مايقوله كتاب فإنه ينقصه شىء جوهرى ولاجدوى منه فى حد ذاته مثل مسمار مفصلة لمفصلة باب بدون محور ارتكاز.

على شاطئ مجرى الماء القصى توقف الحصان وهز جلده حتى قعقعت الأوانى فى جوالاتها، ثم مد عنقه وتنفس بصوت خافت وطويل فى العالم على أمل أن يتجاوب معه نَفَسُ رفيق مطمئن. قوست إيدا يدها على خطمه البنفسجى. أبرز لسانه وتناولته بين سبابتها وإبهامها وهزته ثم واصلت طريقها.

لازمتا جانب الشاطئ، بعض الوقت، حتى انحدر من الجبل، لكن الدرب دار أعلى فرع ضئيل، ودخل غابة من أشجار الخشب الصلب حيث كانت هناك نفايات أوراق شجر ملتوية تلتصق بأشجار البلوط. كانت أشجار بلوط عجوز متعبة بها كرات من نبات الهدال فى فروعها. سقط الثلج بشكل أشد وبدأ يلتصق بالأرض وأصبح الدرب خطا غائرا وشاحبا خلال الغابات، شيئا يسهل إخطاؤه والليل يتقدم. وكان ما يبدو من الممر لايحمل حتى آثار أقدام خنازير مقوسة. بدا ممرا ما هنديا مهجورا، لم تطأه قدم من زمن طويل، يربط بين مجموعة من النقط لم يعد لها وجود.

واصلتا سيرهما إلى ما بعد منتصف الليل والثلج لايزال يسقط. كانت السحب كثيفة وتخفى القمر الذى يكبر. ورغم ذلك كان هناك ضوء فى الثلج حيث قام متراكما تحت جذوع الأشجار السوداء.

كان المأوى هو الفكرة الأولى التى طرأت لإيدا، وهى تقول عند كل حافة صخرة ناتئة، هناك مكان يمكننا أن ننام فيه. لكن روبى قالت إنها تعرف مكانا أفضل، أو على الأقل تظن أنها تتذكر مكانا قريبا، وواصلتا السير.

وأخيرا، وصلتا إلى كومة مهوشة من صخور ضخمة مسطحة.. بحثت روبى حتى وجدت ماتبحث عنه: ثلاث صخور سقطت إحداها على الأخرى حتى تكون بناء مستندا إلى جدار، نوعا من الضريح جدرانه مستقيمة ومسطحة، قمته مهيأة بإحكام بزاوية إلى الوراء حتى تريق الماء، تاركة تحتها مساحة لاتزيد على مساحة علِّية صغيرة، لكنها تكفى للجلوس فى وضع معتدل والتزحزح فيها. ذكَّر معمارها إيدا برمز الحرف السادس عشر من الألفبائية اليونانية. وبالداخل كانت الأرضية مغطاة بكثافة بأوراق الأشجار الجافة. ومن الأرض يرتفع ماء نبع لا يبعد عشرين ياردة، يحيط به من جميع الاتجاهات أشجار قسطل وبلوط لم تقطع ابدا منذ بدء الخليقة. كان المكان يشكل مخيما رائعا يمكن أن يتوقع أحد أن يجده مطلقا، وقالت روبى إنها على الرغم من أنها لم تذكر المكان منذ سنوات فإنه كان بالضبط كما تذكره من قضائها ليالٍ كثيرة هناك حين كانت طفلة تبحث عن طعام.

كلفت روبى إيدا بأن تحمل ملء ذراعيها من أكثر الأغصان جفافا يمكنها أن تجدها، وخلال نصف ساعة كان لديهما وهج دافئ يشتعل عند مدخل المأوى. وإناء ماء يغلى لإعداد شاى، وعندما نقع، جلستا وشربتاه، وأكلتا بعض البسكويت المجفف وبعض التفاحات المجففة. كانت الحلقات من تفاحات صغيرة للغاية حتى لتكاد تكون أكبر قليلا من قضمة لكل واحدة لكن مذاقها الحاد كان يجتمع فيه أفضل ملامح الموسم الدافئ السابق.

لم تتكلما كثيرا أثناء الأكل، فيما عدا قول إيدا إن فتى جورجيا لم يبد عليه مايكفى من الرجولة التى تميز الرجال. وقالت روبى إنها لم تجده أسوأ بشكل خاص من صنف الرجال عموما، وهو ما يعنى أنه كان ليستفيد فائدة عظمى من ركله فى ظهره فى كل دقيقة صحو.

عندما فرغتا من الأكل، أزاحت روبى أوراق الشجر من أرضية المأوى بكعب يدها واغترفت ترابا نخلته من بين أصابعها وعرَضت كفها لضوء النار كى تراه إيدا. شذرات من الفحم النباتى وشظايا من حجر الصوّان. نار أثرية قديمة وبقايا رءوس سهام معطوبة ومطروحة. قُشارات من امل قديم مهما كان ضئيلا.

لم تقل أى منهما أى شىء، لكن إيدا نبشت فى شظايا حجر الصوّان واحتفظت برأس السهم الأقرب إلى الاكتمال ووجدت سلوى فى ان ناسا فى وقت ما آخر معتم قد فعلوا ما كانتا تفعلانه، ووجدوا مأوى فى كومة الصخور وتناولوا وجبة وناموا.

هسهس الثلج وهو يتساقط وكانت درجة الحرارة تنخفض بسرعة، لكن النار سرعان ما سخنت الأحجار. وعندما التفت إيدا وروبى بالبطاطين ونبشتا بين أوراق الأشجار الجافة وكومتا مزيدا من الأوراق فوق الألحفة، أحستا بالدفء كما لو كانتا ترقدان فى سرير فى البيت. قالت إيدا وهى ترقد هناك، هذا يكفى. الدرب المهجور خلال الجبال والأنهار. ولا نَفْس حولك.. المأوى الحجرى دافئ وجاف وغريب مثل مأوى جنى صغير. وعلى الرغم من أن الآخرين قد يرونه ملاذا عاريا كلية، فإنه يتوافق مع احتياجاتها للغاية إلى درجة أنها تستطيع مجرد أن تتحرك فيه وتعيش هناك.

أرسلت النار أنساقا من الضوء والظل على حجر السقف المنحدر، ووجدت إيدا أنها لو راقبت ذلك طويلا بما يكفى لصاغت النار أشكال الأشياء الموجودة

فى العالم. طيرا. دبا. ثعلبا. أو ربما كان ذئبا. لم يبد أن النار لها اهتمامات سوى بالحيوانات.

ذكّرت الصور إيدا بأغنية، إحدى أغانى ستوبرود. كانت قد علقت بذهنها بوجه خاص. كانت قد انتبهت إليها لغرابة كلماتها ولتغنى ستوبرود بها، كان بها من الحدة البالغة إلى درجة جعلت إيدا تفترض أنها تمثل تعبيرا شخصيا عميقا. كانت تتناول موضوعا لها السلوك المتخيل لمن نطق بها، ما يود أن يفعله لو كان لديه القدرة على أن يكون نوعا من مخلوق بهيمى. سحلية فى الربيع – تسمع حبيبها يغنى. طائرا له جناحان يطير بهما – ليعود إلى حبيبته كى يبكى ويئن حتى يموت. حيوان خلد فى الأرض – يقتلع جبلا من جذوره حتى يتهاوى.

أصاب إيدا القلق على الأغنية. كانت الحيوانات تبدو مدهشة ورهيبة فى رغباتها، حيوان الخلد على الأخص، ناسك أعمى لا حول له ولا قوة مدفوع بالوحشة والحنق لكى يدمر العالم حوله. وأكثر روعة ورهبة كان الصوت الإنسانى وهو ينطق بكلمات الأغنية ويود أن تخفف إنسانيته من الألم الذى ينزله الحب الضائع.

استطاعت إيدا أن تسمع فى تنفس روبى أنها كانت لاتزال مستيقظة، ولذا قالت: هل تذكرين تلك الأغنية التى غناها والدك عن حيوان الخلد فى الأرض.

قالت روبى إنها تذكرها، وسألتها إيدا إن كانت تظن أن ستوبرود كتب كلمات الأغنية. قالت روبى: إن هناك الكثير من الأغانى التى لايمكنك أن تقولى إن شخصا بعينه ألفها. فالأغنية تدور من عازف كمان إلى عازف كمان وكل منهما يضيف شيئا ويحذف شيئا حتى تصبح الأغنية فى النهاية شيئا مختلفا عما كانت عليه، يكاد يصعب التعرف على لحنها أو كلماتها. لكنك لا يمكنك القول إن الأغنية قد تحسنت، فكما يصدق على كل الجهد البشرى، لم يكن هناك رقىٌ أبدا. فكل مايضاف يعنى شيئا مفقودا، وفى أغلب الأحيان تقريبا يكون ما فقد مفضلا على الشىء المكتسب، حتى أننا بمرور الوقت سنكون محظوظين إذا تعادلنا فحسب. وأى فكرة بخلاف هذا غطرسة فارغة.

رقدت إيدا وراحت تراقب ظلال النار وتصغى إلى صوت الثلج فى أوراق الشجر وسرعان ما انجرفت ونامت نوما بلا أحلام، ولا حتى استيقظت عندما

نهضت روبى لتلقى بمزيد من الأخشاب على النار. عندما استيقظت إيدا كان أول ضوء، واستطاعت أن ترى أن الثلج قد وهن تساقطه لكنه لم يتوقف. كان يرقد على الأرض بعمق يصل إلى كاحل القدم. لم تكن أى من إيدا أو روبى متلهفة على السير قدما فى اليوم الذى يمتد أمامهما. جلستا بالبطانيات ملفوفة حول أكتافهما، ونفخت روبى فى الجمرات وأذكت النار. قَلَت قطعة من لحم خاصرة الذبيحة وأخرجتها بشوكة ووضعتها على صخرة مستوية. ثم أضافت ماء إلى الشحم وطهت وعاء من البرغل وأخذت قطعة اللحم من على الصخرة وفتتها فى الوعاء وقلَّبتها فى البرغل. وفى الوعاء الأصغر، أعدت إيدا شايا، وبينما كانتا ترشفانه حكت روبى كم أعجبت بالشاى، عندما تناولته أول مرة حين زودتها مسز سوانجر به، إلى حد أنها أعطت ستوبرود حفانا منه مربوطا فى قطعة قماش مربعة عندما خرج فى رحلة صيد راكون. وفى المرة التالية عندما رأته بعد بضعة أسابيع سألته عن كم راق له. وكان ستوبرود قد قال إنه لم يكن أفضل من متوسط الجودة وإنه لم يجده أفضل من أى نوع آخر من الخضراوات. واتضح لروبى أنه قد طهاه مع شريحة من دهن ظهر خنزير وأكله مثل الرشاد.

عندما بلغتا مفترق الدرب، وجدتا بانجل الصبى راقدا وحده، ووجهه لأعلى تحت شجرة الحور. كان مغطى بعباءة من الثلج، كانت ترقد متكئة عليه، أكثر نحولا مما كانت على الأرض بالقرب منه، ومن الواضح كيف ذاب الثلج حوله ثم لم يذب. كشطت روبى الثلج لتنظر إلى وجهه، وعندما فعلت ذلك وجدته لايزال مبتسما، على الرغم من النظرة المتحيرة التى ارتسمت فى عينيه، وهى نظرة قد تكون مجرد نظرة الموت. قوست روبى يدها على وجنته ثم لمسته بأناملها على جبينه، كأنما تدمغه بسمة منبوذ يماثلها.

استدارت إيدا عنه وشرعت تركل الثلج بمقدم حذائها العالى الساق. وعندما فعلت ذلك كشفت عن البانجو المكسور. ثم قوس الكمان المكسور، وعروة القوس تتدلى من شعر الحصان وسددت مزيدا من الركلات باحثة عن الكمان، لكنها لم تجده. لا كمان ولا ستوبرود.

قالت إيدا: أين هو؟

قالت روبى، ليس هناك أى شخص من جورجيا يمكنه أن ينطق بأكثر من نصف الحقيقة. سواء كان حيا أوميتا، فقد أخذوه معهم.

استقر رأيهما على أن تدفنا بانجل على حافة صخرة مسطحة أعلى الدرب قرب شجرة قسطل. كان من السهل حفر الأرض ولم تكونا بحاجة بالكاد إلى المعول، فقد كانت قشرة نحيلة فحسب من الأرض متجمدة وتحت ذلك الطبقة السطحية من التربة سوداء ومفككة تغوص إلى أسفل وأسفل. تبادلتا العمل بالجاروف، وسرعان ما شعرتا بالحر وهما ترتديان معطفيهما فخلعتاهما وعلقتاهما على فرعى شجرة، ثم شعرتا ببرودة شديدة، لكن كان من الأفضل أن تشعر بالبرد عن أن تبلل ملابسك بالعرق.. وما إن بدأتا تضربان فى صخور ذات أهمية حتى كانتا قد حفرتا حفرة لا بأس بها، على الرغم من أنها لاتزال أقل عمقا بقدمين عن الأقدام الست التى رأت إيدا أنها قاعدة حفر القبور. قالت روبى، لكنها تكفى.

ذهبتا إلى بانجل وأمسكت كل منهما برجل وسحبتاه على الثلج إلى القبر وزلقتاه. لم يكن لديهما صندوق ولا حتى بطانية زائدة على الحاجة لتكفناه، ولذا بسطت إيدا منديلها فوق وجهه قبل أن تبدأ جرف التراب. وما إن غطيتاه حتى لم يعد يظهر منه إلا قدم ظاهر فحسب، حتى كانت إيدا تبكى، على الرغم من أنها لم تر الفتى إلا مرة واحدة فى حياتها، وتلك المرة فى ضوء النار. وكل الكلمات التى تبادلاها كانت قوله إن عزف ستوبرود قد أفادها بعض الشىء.

تذكرت إيدا أفكارها حين دفنتا كرنب الشتاء، كيف عملتاه استعاريا. لكنها وجدت هذا الدفن أمرا مختلفا تمام الاختلاف. ففيما وراء حقيقة الحفر فى الأرض، لم يكن هناك أى تشابه على الإطلاق بين الأمرين.

عندما ملأتا القبر فوق المستوى، كانتا لاتزالان لديهما مزيد من التراب، لاحظته روبى وعزَت أمره إلى ذلك الوقت من الشهر، ازدياد حجم القمر باتجاه البدر.. احفرى قبرا فى أسبوع فى المحاق ويصبح لديك أرض مستنقعية منخفضة عندما تفرغين. كومتا تراب القمر الإضافى فى شكل رابية فوق بانجل وطرقتاه بظهر الجاروف. ثم أخذت إيدا مطواتها وجردت لحاء من غصين شجرة جوز وبحثت عن شجرة سنط كاذب وبترت فرعين من فروعها بفأس اليد الصغير وربطتهما معا بغصينات شجرة الجوز لتشكل صليبا. أقامته فى الأرض الرخوة

عند رأس بانجل، وعلى الرغم من أنها لم تردد أى كلمات بصوت عال فوقه، فإنها رددت بعضها فى ذهنها. كانت قد سمعت روبى تقول إن السنط الكاذب لديه إرادة قوية على الحياة إلى درجة أن بإمكانك أن تشطر أعمدة سور من خشب جذعه فيمد جذوره فى الأرض أحيانا فى حفر الأعمدة وينمو. هكذا كان أمل إيدا مما شكلته بيدها، أن ترتفع شجرة سنط يوما ما لتحدد مكان بانجل، وأن تحكى باختصار حكاية مثل حكاية بيرسيفونى كل عام فى القرن القادم.

كانت أيديهما متسخة. جرفت روبى ثلجا بحفنتيها ودلكته بين كفيها ونفضت الماء القذر. لكن إيدا جاست خلال الغابة حتى وصلت إلى الجدول وركعت وغسلت يديها ثم رشت ماء مثلجا على وجهها. قامت وهزت رأسها وتطلعت فيما حولها. سقطت عيناها على حافة صخرة منخفضة ناتئة وراء الخليج. كانت تصنع جزءا ناتئا، مأوى. برز لون التراب البنى على خلفية الثلج. وتحت حافة الصخرة جلس ستوبرود، رغم أن إيدا استغرقت دقيقة لتتعرف عليه حيث إن ملابسه توافقت مع قتامة الأرض العارية. كان ساكنا، عيناه مغمضتان، وقد جلس برجليه معقودتين، ورأسه إلى جانب ويداه متماسكتان حول الكمان فى حجره. هبت ريح واهنة وقعقعت أوراق شجرة البلوط القليلة ونفضت ثلجا من على الأغصان العارية. سقط على شعر إيدا وعلى سطح الخليج، حيث ذاب حين لمسته.

قالت إيدا: روبى، أنا بحاجة إليك هنا.

وقفتا فوقه وكان وجهه بلون الثلج وبدا ضئيلا جدا فى بعض أجزائه. رجل ضئيل للغاية.. كان قد فقد الكثير من الدم من جروحه ولفظ المزيد منه، وكان ملوثا به على امتداد مقدم قميصه. تناولت روبى الكمان من حجره وناولته لإيدا، وتزحزحت أجراس الحية بصوت جاف بداخلها. وعندما فكت روبى أزراره، كان الدم على قميصه أسود ومتصلبا. كان صدره هزيلا وأبيض. وضعت روبى أذنها عليه وتراجعت ثم أنصتت مرة ثانية.

قالت، إنه حى.

مزقت ثيابه وأدارته حتى تعاين التلف ووجدت أنه أصابته ثلاث رصاصات. خلال اليد التى يمسك بها القوس حيث كان يمدها أمامه. خلال لحم فخذه قرب

عظمة مفصل الفخذ. وأكثرها خطورة خلال حلمة صدره. كانت تلك الرصاصة قد كسرت ضلعا وحزت خدشا فى أعلا رئته واستقرت فى عضلات ظهره فوق عظمة الكتف. كان هناك ورم أزرق تحت جلده بحجم تفاحة برية. وأثناء تحريكه لم يسترد وعيه أو حتى يئن ألما.

جمعت روبى حطبا للنار وبرت قُشارات من فرع شجرة صنوبر وأشعلت النار بالكبريت. وعندما اندلعت النار، أمسكت بنصل السكين المنزلية الصنع فى ألسنة اللهب. شقت ظهر ستوبرود ولم يزل لايصدر صوتا ولايطرف بعينيه. كان هناك مجرد قشيرة دم من القطع، كأنه لم يعد منه مايكفى للجرح الجديد أكثر من أن ينضح قطرات حمراء. وضعت روبى أصبعها بداخل ظهره وفحصته من الداخل ثم عقفت الرصاصة وأخرجتها. مدت يدها ووضعتها فى يد إيدا وكانت أشبه بكتلة لحم نيئ.

قالت روبى، اذهبى واغسلى ذلك برفق. فسوف يريدها يوما ما.

ذهبت إيدا إلى الجدول ومدت يدها فى الماء وتركت التيار ينساب خلال أصابعها المقبوضة. عندما سحبتها إلى الخارج ونظرت إليها، كانت الرصاصة نظيفة ورمادية.. عند مرورها خلال ستوبرود كانت قد انضغطت فى شكل يشبه نبات قطر، كبسولتها بها حزوز ومنشطرة ومتقلصة.. كانت نهاية جذعها المعدنى، رغم ذلك، سليمة، محززة بثلاث حلقات أثناء صناعتها لتستفيد خير استفادة من الحزوز الحلزونية فى ماسورة البندقية.

عادت إيدا إلى الحافة الناتئة ووضعت الرصاصة بجوار الكمان. كانت روبى قد لفت ستوبرود فى بطانيات والنار تشتعل عاليا بمستوى الركبة.

قالت روبى: ابقى أنت واغلى بعض الماء.

راحت إيدا تراقبها وهى تجوس فى الغابات، الجاروف فوق كتفها، ورأسها منكسة، تبحث عن جذور نباتات شافية يمكنها أن تعرفها من سيقانها الجافة وقشورها تبرز من الثلج. رتبت إيدا أحجارا حول النار يستقر الوعاء عليها وذهبت إلى الحصان وجاءت بوعاء من الخرجين. غمسته فى الجدول حتى امتلأ من مائه ووضعته على الأحجار ليسخن. جلست وراحت تنظر إلى ستوبرود،

وهو يرقد مثل رجل ميت. لم تكن هناك أى أمارة تدل على أنه حى سوى حركة ضئيلة من مقدم سترته حين يتنفس. تساءلت إيدا عن مئات الألحان التى ألفها. أين هى الآن وأين يمكن أن تذهب لو مات.

عندما عادت روبى بعد ساعة، كانت جيوبها ممتلئة بأى جذور أمكنها أن تجدها قد تكون مفيدة ولو من بعيد- آذان الدب، ألفية، أرقيطيون، جِنْسة. لكنها لم تجد الختم الذهبى، وهو ما كانت بأقصى الحاجة إليه. كانت العشبة نادرة فى الآونة الأخيرة. يصعب العثور عليها. ساورها القلق لأن الناس قد أثبتوا أنهم لايستحقون الشفاء وأن الختم الذهبى قد رحل متقززا.

كمدت هريسا من آذان الدب والألفية بداخل جروح ستوبرود وربطتها بشرائح قطعتها من البطانية. نقعت شايا من آذان الدب والجِنْسة وقطرته فى فمه، لكن حلقه بدا مغلقا بإحكام ولم تستطع أن تعرف إن كان أى منه قد نزل فى حلقه أو لم ينزل.

وبعد برهة قالت: ان المسافة إلى البيت بعيدة للغاية. لن يصل إلى هناك حيا. وقد تمر أيام قبل أن يتمكن من السفر، ولن يدهشنى أن سقط المزيد من الثلج. نحن بحاجة إلى مأوى أفضل من هذا.

قالت إيدا، لنعد إلى مأوى الصخرة؟

- لن يسعنا جميعا. ولا أن نجد براحا للطهو والعناية به. هناك مكان أعرفه. اذا كان لايزال هناك بعد.

تركتا ستوبرود حيث يرقد وقطعتا أعمدة طويلة لتصنعا عريشا لمزلجة تُجَر. ربطتا الأعمدة معا بحبل وثبتتا المزيد منها متقاطعة معها كألواح تقوية بين الحافتين وطقمتا الحصان بالعدة. حملتا ستوبرود عبرالجدول فى البطانيات ووضعتاه عليها، لكن عندما اتجهتا لأعلى المفرق الشمالى للدرب وهو يتجرجر خلف الحصان ويرتطم بكل صخرة وجذر، أمكنهما أن تريا أن أفكارهما خاطئة وأن الرج سيمزق جروحه إربا. ولذا فككتا الزحافة إلى أجزاء، وجدلتا الحبل وطويتا ستوبرود فوق الحصان ومضيتا ببطء.

كانت السماء مسطحة ورمادية تدوِّم فوق رأسيهما قريبة إلى حد أن بدا أن بإمكانهما أن تمدا أيديهما وتلمساها. ولفترة قصيرة، برز الثلج منها مرة أخرى، تكتسحه ريح لاذعة. نزل أول الأمر قُشارات ضخمة مثل زغب الأوز، ثم ضئيلا وجافا مثل رماد. وعندما توقف الثلج، ارتفع الضباب كثيفا حولهم، وكان الشيء الوحيد الواضح هو أن النهار ينصرم.

سارتا بعض الوقت دون أن تتكلما إلا عندما كانت روبى تقول، هنا، وعندئذ تستديران عند مفرق. لم تكن إيدا تعرف أى سبيل تسلكان فقد فقدت منذ وقت طويل ثقتها بالاتجاهات الأصلية.

عندما توقفتا لتستريحا، وقف الحصان منكس الرأس، متعبا وتعيسا، منهكا من الحمل الذى يحمله ومن الارتفاع. كشطت إيدا وروبى الثلج من على زند خشب وجلستا. لم يكن بإمكانهما أن تريا أى شىء فى الضباب سوى أقرب الأشجار. وكان ملمس الهواء، رغم ذلك، يوحى بأنهما على حافة وأن هناك هواء طلقا وجاذبية حولهما. ربضت إيدا بداخل معطفها، وهى تحاول ألا تفكر فى قضاء يوم آخر من هذا أو فى أين تقضيان الليلة، فى مجرد الميل التالى. رقد ستوبرود مطويا فوق الحصان حيث وضعته إيدا وروبى بالضبط.

وأثناء جلوسهما، اندفع بازان جوالان من داخل الضباب. طارا فى الريح المتغيرة، وأجنحتهما تخفق خفقات قصيرة لتحكم طيرانهما ضد الهواء الشرس. تماوجا على مقربة من إيدا إلى حد أنها سمعت حفيف الريح خلال الريش. استيقظ ستوبرود ورفع رأسه لفترة وجيزة عند مرور الطائرين ثم حملق فى إثرهما بشكل مبهم وهما يتلاشيان فى الضباب. سال خط من الدم إلى ذقنه من ركن فمه، نحيلا مثل جرح موس.

قال: صقر الحمام، كما لو كان إطلاق اسم على الطائرين يمكن أن يساعده فى استعادة موطئ قدميه.

بدأ يقاوم وبدا أنه يريد أن يُربِّع على الحصان ليركبه، ولذا فإن روبى ساعدته. لكنها عندما تركته تهاوى إلى الأمام حتى استقرت رأسه على أعلى كاهل الحصان. كانت عيناه مغمضتين وذراعاه ممدوتين إلى أبعد من رأسه ليقبض على معرفة الحصان بكلتى يديه. تأرجحت رجلاه أسفل بطن رالف المستديرة. مسحت روبى فمه بكم معطفها وواصلوا سيرهم.

وعلى مدى ساعة تقريبا ظلوا يهبطون جانب تل شديد الانحدار ثم ظنت إيدا أنهما فى حضن واد، رغم أنها لم يكن بإمكانها أن ترى بعيدا بما فيه الكفاية فى أى اتجاه لتتأكد من شعورها. عبرا مكانا مستنقعيا وعلى كلا جانبى الدرب أجمات توت أزرق تنمو بارتفاع قامة المرء. ومرا فى قاع الوادى ببركة من مياه سوداء ساكنة، برزت من الضباب كما لو كانت حفرة قد تفتحت فى العالم. كانت تطوقها شرائط قديمة ميتة من حزم أعشاب رمادية، والثلج يطرز ماحول حافتها تطريزا مروحيا كأنها مثل حدقة آلة تصوير تنغلق. وفى منتصف البركة كانت ثلاث بطات تطفو بلا حركة، ورءوسها مطوية على صدورها خطر لإيدا أنها لو كانت تكتب كتابا عن الأنماط، لكان ذلك المنظر يتناسب مع الخوف.

كان الضباب ينقشع قليلا. صعدوا مرة أخرى، مجرد حافة واطئة تنمو على نتوئها المدبب أشجار شكران وقد عصفت الريح بالكثير منها وطبقات جذورها تقوم مكشوفة فى الهواء كأنها تشريح. هبطوا خلال الأشجار ودخلوا موقعا لأشجار القسطل. كانوا يتحركون صوب مجرى ماء يمكنهم سماعه ولايمكنهم رؤيته. كانت مسيرة عسيرة. لم يكن هناك درب حقا على الإطلاق، مجرد مساحة بين الأشجار والفروع المقطوعة المشرشرة ومجموعة شجيرات قصيرة وقميئة تكفى لشق ممر. وعندما تركوا الحافة باتجاه قاع جدول ضيق، لم يكن الضوء قد تغير، رغم ان النهار لم يبد عليه أنه انصرم.

بدأت إيدا تميز أشكالا مستطيلة خلال الأشجار. أكواخ. عشش قرية شيروكية دقيقة، بلدة أشباح، دفع بأهلها منذ زمن بعيد خارجها على درب الدموع ونفوا إلى ارض جرداء. وفيما عدا أثر متعفن من عصر قضبان الأغصان المضفورة والجص، كانت الأكواخ مصنوعة من زنود خشب القسطل بعد أن قُشّر وحُز وتراكب فوق بعضه البعض. سقوفها مكسوة بألواح خشبية وحلقات من لحاء أشجار القسطل. كانت شجرة بلوط ضخمة قد سقطت على إحدى العشش، لكن الباقى لايزال سليما إلى حد بعيد بعد ثلاث حقب فقط، وكانت قدرة أخشاب القسطل على مقاومة الرطوبة بالغة إلى حد يمكن معه أن تبقى لمائة سنة أخرى قبل أن تتحلل فى الأرض. كانت الطحالب الخضراء تنمو على زنود الأكواخ الخشبية وقامت سيقان عشبة الحصان وعشبة الخنزير وشيخ الربيع من الثلج فى مداخل الأكواخ. لم تكن هناك أرض مسطحة لإنبات الكثير من المحاصيل، ولذا فربما كانت مخيم صيد موسمى. أو ملاذا عاش فيه

حفنة من أكلة اللحوم المنبوذين، زاهدون تقريبا. وإجمالا، نصف دستة من صوامع صغيرة بلا نوافذ كانت مقامة على مسافات متفاوتة أسفل شاطئ الخليج، الذى كان عميقا وقويا وأسود، ومساره تقطعه جلاميد ضخمة ملساء يكسو سطحها طحلب أخضر.

ظنت إيدا، وهى فى حالة إعياء، أنها مسألة بالغة الأهمية أن تعرف، دون أن تسأل، على أى شط من الجدول تقوم الأكواخ. شمالا، جنوبا، شرقا، غربا. فلسوف يسهم هذا فى ترتيب ذهنها فى توافق مع أين كانت. وكانت روبى، فيما يبدو دائما، عليمة باتجاهات البوصلة وتجدها ذات مغزى، لا فى توجيه تعليمات فحسب ولكن حتى فى سرد قصة والإشارة إلى أين حدثت واقعة ما. الشاطئ الغربى لليتل ايست فورك، الشاطئ الشرقى لويست فورك، مثل هذه الأشياء. كان الحديث بتلك اللغة يتطلب صورة يحتفظ بها الذهن عن الأرض التى يشغلها المرء. وكانت إيدا تعلم أن الحواف والخلجان والمصارف هى إطارها، هيكلها العظمى. كانت تتعلمها وتعرف أين تقوم فى علاقتها أحدها بالآخر، ثم تضيف التفاصيل فى تلك العلامات المعروفة. من العام إلى الخاص. كل شىء له اسم. أن تعيش بكل معنى الكلمة فى مكان طيلة حياتك، فإنك تظل تهدف إلى الانتباه لأصغر وأدق التفاصيل.

وكانت إيدا قد بدأت لتوها فى تكوين مثل هذه الصورة، ووجهت نظرها إلى السماء لتعينها على أن تجد الاتجاه. لكنها لم تقدم لها أى عون، لأن السماء ترقد دانية إلى حد أنها من الممكن أن تدقها برأسها. ولم تكن هناك المامات أخرى تتبعها. ففى مثل هذا الجو الموفور الخضرة، كان الطحلب ينمو على أى جانب شجرة يشاء. لم يكن الشمال يعنى أى شىء بالنسبة للطحالب. ولذا علمت إيدا فحسب أن القرية، فى حدود مايعنيها، يمكن أن تقوم على أى شاطئ من شواطئ الخليج مهما كان. ولايمكن استبعاد أى اتجاه.

بدت الأكواخ التى مروا بها رصينة فى هجرها، مكدسة بمجارى المياه وجبين الجبل الناتئ المغطى بالسحب. قد يكون بعض أهله مازالوا يعيشون بعد، وتساءلت إيدا كم من مرة يتذكرون هذا المكان الموحش، وهو لايزال مثل نَفَس ممسك به. ومهما كانت الكلمة التى اطلقوها عليه فسرعان ما ستعد بين أسماء الأشياء التى لم تنتقل إلينا من الأسلاف والتى أقصيت عن ذكرياتنا. ارتابت فى أن يكون أهله، حتى فى أيامهم الأخيرة، قد نظروا إلى الأمام مطلقا وتخيلوا أن

تكون الخسارة كاملة إلى هذا الحد وسريعة إلى هذا الحد لم يتنبأوا بيوم قريب حين يصبح عالمهم عالما آخر مليئا بناس آخرين تنطق أفواههم بكلمات أخرى، يهدئ نومَهم أحلام أخرى أو تزعجه، يتقدمون بصلواتهم إلى آلهة أخرى.

انتقت روبى أفضل الأكواخ، وتوقفوا أمامه. أنزلتا ستوبرود من على الحصان وأعدتا له مأوى على الأرض من القماش المشمع والبطانيات، ثم دخلتا إلى حجرة الكوخ الوحيدة التى بلا نوافذ. كان الباب مصنوعا من ألواح خشبية مشقوقة وكانت ذات يوم تدور على مفصلات جلدية، كسرت منذ زمن بعيد. كان يرقد على الأرضية. وكل مايمكن أن يعمل لإغلاقه هو إسناده على فتحته. كان تراب الأرضية المطروق تتناثر عليه أوراق الشجر البنية اللون. وكنستاه بفرع شجرة صنوبر. كانت هناك مدفأة مبنية بحجارة دون ملاط، ومدخنة من الطين والعصى. أدخلت روبى رأسها فيها ونظرت إلى أعلى ورأت ضوء النهار. لكنها فيما يبدو لم تكن تسحب الدخان جيدا وعروق السقف من زنود أخشاب شجر القسطل قاتمة ولامعة من سنين من الدخان المتجمع. وتحت رائحة الغبار، كان البيت لايزال تبعث فيه رائحة دسمة لنيران مخيمات من ألف عام.

وبينما كانت روبى تشعل نارا فى المدفأة، خرجت إيدا وقطعت فرعا مستقيما طويلا وشذبته بالبلطة ودقته فى الأرض وثبتت الحصان إلى وتد تحت شجرة أرز. لكنه كان مبتلا يرتجف. وقف منكس الرأس وبطانة لبدة سرجه مضغوطة بحلقات سوداء على جلده من ذوبان الثلج. نظرت إيدا إليه وإلى السماء وقاست درجة البرودة من لسع وجنتيها. قد يموت رالف عند طلوع الصباح.

فكته من الوتد وحاولت أن تسوقه إلى داخل أحد الأكواخ. لكنه لم يشأ أن يحنى رأسه ليدخل من الباب. جذبت حبل المقود فأرخى مؤخرته وتراجع إلى الوراء، وهو يجذبها معه حتى سقطت على وجهها فى الثلج. نهضت ووجدت عصا كبيرة فى استدارتها مثل معصمها ودارت حوله وضربته مرة بعد أخرى بكل ما بقى فيها من قوة، وهو ما لم يكن قدرا كبيرا. واخيرا اقتحم فتحة ذلك الباب الأسود كما لو كان يسير إلى حتفه.

وما إن دخل رالف، على الرغم من ذلك، حتى كان راضيا فى الحال، لأن المنزل يكاد لايختلف فى أبعاده أو مواد بنائه عن مربط الدواب. وخلال دقائق

كان قد استرخى. هز مؤخرته وفرشح رجليه وبال بولا طويلا ومرضيا. أطعمته إيدا حبوبا من إناء الطهى ثم أخذت الإناء وغسلته جيدا فى الجدول.

كان الظلام قد حل تقريبا ووقفت إيدا تنظر إلى لمعان الضوء الأخير على الماء. كانت متعبة تشعر بالبرد وخائفة.. بدا ذلك المكان اشد الأماكن وحشة على وجه الأرض. وهى فزعة من الليل واللحظة التى ينتهى فيها كل عمل التخييم ويصبح عليها أن تلف نفسها ببطانية وترقد فى الظلام على التراب البارد للكوخ الشبح فى انتظار النهار. كانت متعبة إلى حد أنها شعرت برجليها محترقتين تحتها، لكنها تؤمن بأنها بإمكانها أن تجتاز هذا لو أنها عملت عملا واحدا فى الوقت الواحد وفكرت فى الأشياء المتبقية التى تعمل على التوالى، لا بالتركم.

ذهبت إلى الداخل ووجدت أن روبى قد طهت عشاء مثل إفطارهما. لكن عندما رفعت إيدا أول ملعقة من البرغل المشحم إلى فمها، لم تكن لتنزل فى حلقها. تعقدت معدتها. قامت واتجهت إلى الخارج وتقيأت فى الثلج، وعلى الرغم من أن كل ماتبقى بداخلها لتتقيأه كان صفراء سوداء. ثم دلكت فمها بالثلج واتجهت إلى الداخل مرة ثانية حتى فرغ طاسها. جلست ممسكة به فى حجرها، منهكة وصامتة صمتا مذهولا أمام المدفأة.

كانت قد نسيت أن تشرب ماء فى أغلب النهار، ذلك والبرد والسير وعملية الدفن والعلاج قد أدارت رأسها بشكل غريب حتى أصبحت رغبتها الوحيدة أن تنشد رؤى أسعد حالا فى جمر المدفأة. أطالت النظر لكنها لم تجد أيا منها سواء فى أشكال اللهب السائلة أو فى الخدوش الهندسية التى تفحمت فى جوانب زنود النار الخشبية. لكن الخشب المحترق كان يصدر أصوات صرير مثل وقع أقدام فى الثلج الجاف. وحتى إيدا أدركت ماينذر به ذلك. المزيد مهيأ للسقوط.

وقع أقدام فى الجليد

عندما بلغ إينمان المكان الذى تلتقى فيه المفارق الثلاثة لم يكن قد تبقى بالكاد مايكفى من الضوء خلف السحب الغربية لأن يتفحص العلامات على الأرض بحثا عن الحكاية التى تحكيها. كان الثلج موسوما بآثار تصل إلى الأرض المستوية عند المفرق ثم تصعد إلى الدرب الأيسر الصاعد. كان هناك دم أسود على الأرض تحت شجرة حور ضخمة حيث تمت عملية قتل. والثلج فى أرجاء المكان ممخض من سير ناس وجياد.

كانت هناك نار حديثة فى حلقة من الأحجار فيما وراء شجرة الحور، رمادها بارد لكنه لايزال يحمل رائحة دهن لحم خنزير. وآثار أقدام وأثر مزلجة تفضى إلى صليب من عصى يقوم عند رأس حفر فج. جلس إينمان القرفصاء وألقى عليه نظرة، وهو يفكر فى هذا: إذا كان هناك عالم فيما وراء القبر كما تزعم التراتيل، فإن هذه الحفرة تشكل مدخلا جهما موحشا إليه.

كان متحيرا بعض الشىء. كان يجب أن يكون هناك قبران. وعلى الرغم من أن إينمان قد رأى رجالا يدفنون فوق أحدهم الآخر لتوفير أعمال الجرف، إلا أنه حسب أن ذلك لم يكن الحال فى الحالة التى أمامه. نهض وعاد يتفحص العلامات، وتبعها عبر الخليج إلى مأوى الصخرة ووجد تحتها مزيدا من الدماء

على الأرض وجمرات نار صغيرة مازالت دافئة. كومة من الجذور المشبعة بالماء ألقى بها على الأرض مع ماء طهوها. التقط أجزاء جذور وفركها فى يده وتشممها، واستطاع أن يتعرف على الجنسة وآذان الدب.

وضعها على صخرة وذهب إلى الجدول واغترف حفنة ماء ليشرب. تحرك بين الأحجار سمندر، مرقط عشوائيا بألوان وأنساق ينفرد بها ذلك الجدول وحده. رفعه إينمان وأمسك به فى يده مقوسة ونظر إلى وجه السمندر. كانت الطريقة التى يتقوس بها فمه حول رأسه تشكل ابتسامة بها من الصفاء مايثير فى نفس إينمان الحسد والأسى. قال إينمان لنفسه، أن يعيش مختبئا تحت صخرة جدول هو تقريبا السبيل الوحيد لأن يحقق مثل هذا الوجه. أعاد السمندر إلى مكانه وعاد ووقف فى ثنية الدرب وألقى نظرة بعيدة إلى حيث تؤدى الآثار. لم يكن يكاد يرى أبعد من عشرة أقدام أمامه قبل أن تتلاشى فى الظلام الذى كان يحل بسرعة. حسب أن إيدا قد تنسحب من أمامه إلى الأبد وتتركه مهاجرا متوحدا يرتحل ويرتحل.

كانت السحب تتدلى واطئة وكثيفة. لن يكون هناك قمر وسرعان ما يصبح الليل دامسا مثل جوف موقد بارد. دفع رأسه إلى الوراء وتشمم الهواء وفاح برائحة الثلج. كان الأمر هو أيهما أسوأ، أن يفقد الأثر فى الليل أو أن يغطيه الثلج.

ومن بين الاثنين، كان الظلام مؤكدا وقريبا، ولذا ذهب إينمان إلى الحافة الناتئة وجلس وراح يراقب آخر ضوء يتلاشى. أنصت إلى الجدول وحاول أن يلفق قصة تلائم العلامات، قصة تفسر القبر الوحيد ولماذا عبرت المرأتان الجبل بدلا من أن تتبعا آثارهما عائدتين إلى البيت.

لكن كان من العسير أن يفكر تفكيرا واضحا فى الحال التى كان عليها. فقد كان إينمان صائما، بالاختيار جزئيا وبالضرورة جزئيا، وما كانت حواسه لتعمل على الوجه الصحيح. فلم يكن قد أكل قضمة واحدة لأيام منذ طهى شبل الدبة. كان للجدول رنين أصوات فى اندفاع مياهه وطقطقة أحجار قاعه أحدهما فى الآخر، وظن أنها قد تنبئه بما حدث هناك لو أنصت بعناء كاف. لكن الأصوات غيرت اتجاهها وتشوشت ولم يكن للكلمات معنى بالنسبة له، مهما حاول أن

يفسرها. ثم حسب أنه لايسمع أصواتا على الإطلاق، مجرد كلمات تتشكل فى رأسه، وحتى عندئذ لم يستطع أن يدرك فحواها. كان أكثر خواء من أن يدرك معنى.

كانت مخلاتاه لاتحملان أى طعام سوى بضع جوزات التقطها من على الأرض قبل يومين عند مكان احترق فيه كوخ. لم يبق منه أى شىء سوى مخروط من التراب المختلط بالسناج حيث كانت المدخنة تقوم ووراءها شجرة جوز ذات حجم طيب حيث كان يجب أن يكون البيت. كان لايزال على الأرض تحتها جوزات. كانت قشورها السوداء ترقد فى أعشاش صغيرة فى الحشائش حيث نمت الحشائش طويلة حول القشور وتعفنت القشور. كان إينمان قد وضع ما أمكنه أن يجده من جوز فى مخلاة مؤنته، ولم تسنح له الفرصة ليأكلها، فكلما فكر حسب أن العمل الذى يتطلبه كسرها يفوق القوت الذى يحصل عليه منها. وكل واحدة لاتحمل من اللحم أكثر مما حول نهاية مفصل سبابتك. لكنه لم يلق بها مع ذلك، لأنه أقلقه أنك لو وضعت كل الحياة موضع هذا الاختبار لما بدت تستحق أن تعاش، ووجد، أيضا، أن صوتها مواس وهو يسير. كانت تقعقع إحداهما مع الأخرى بطقطقة عظام قديمة جافة تتدلى من أشجار.

نظر إلى الجذور المرة على الصخور حيث ألقاها. فكر فى أول الأمر أن يقرضها، لكنه التقطها عندئذ وألقى بها فى الجدول. تناول جوزة من مخلاته وقذف بها فى الجدول أيضا، وأصدرت الصوت المصراعى لضفدعة خائفة تغطس فى الماء.

ترك الجوزات الأخرى فى مخلاته، على الرغم من أنه قد عقد نيته على ألا يأكل شيئا حتى يعثر على إيدا. وإذا لم تكن لتريده فلسوف يواصل سيره إلى المرتفعات ليرى إن كانت مداخل الصخور المتألقة ستفتح له مثلما أوحت إليه المرأة صاحبة الوشم الثعبانى أنها تفعل مع رجل صام قلبه، خاويا فى كل ملكاته. لم يكن إينمان يستطيع أن يفكر فى أى سبب يمكن أن يعوقه عن هذا. شك فى أن يكون هناك رجل فى العالم أكثر خواء منه فى تلك اللحظة. كان ليغادر هذا العالم على الفور ويواصل سيره إلى ذلك الوادى السعيد الذى وصفته.

كسر إينمان الفروع وأشعل نارا قوية من جمرات النار السابقة. دحرج حجرين كبيرين فيها لتسخن. وظل راقدا مدة طويلة متدثرا ببطانياته وقدماه للنار وفكر فى الدربين اللذين يفضيان إلى بعيد.

عندما بدأ يومه لم يكن قد ظن أنه سيكون راقدا على الأرض الباردة مرة أخرى بحلول الظلام. فقد افترض أنه ما إن يعود إلى موطنه سيختلف عن ذاته الحالية فى كل شىء، فى تصميمه لأسلوب حياته، فى آرائه عن الحياة، بل حتى فى الطريقة التى يمشى بها ويقف. وفى ذلك الصباح كان قد فكر فى أن من المؤكد أنه سيكون قد صرح بنواياه لإيدا بحلول الليل وحصل على جواب ما. أجل، لا، أو ربما. كان قد أدى المشهد من بدايته إلى نهايته فى ذهنه عدة أيام وهو يسير وهو يرقد فى انتظار النوم فى كل مخيم عار على طول الطريق. سيكون قادما يسير إلى أول الطريق ليصل إلى الخليج الأسود، وسوف يبدو منظره منهكا. كل مامر به سوف يبدو على وجهه وعلى هيكله الإنسانى، ولكن مجرد هذا فحسب ليوحى بالبطولة. سيكون قد أخذ حماما وارتدى حلة نظيفة. سوف تخطو إيدا خارج الباب إلى الشرفة دون أن تعرف أنه آت، لتشرع فى أداء أعمالها فحسب. سوف تكون مرتدية أروع ثيابها. سوف تراه وتعرف كل ملامحه. سوف تهرع إليه، وهى ترفع تنورتها إلى مافوق كاحل حذائها العالى الساق وهى تنزل الدرج. وتندفع عبر الفناء وخلال البوابة وتنورتها الداخلية مضطربة، وحتى قبل أن تنصفق البوابة مغلقة سيكونان قد احتضن أحدهما الآخر على قارعة الطريق. لقد رأى هذا فى ذهنه مرارا وتكرارا حتى أصبح يبدو له أنه ليس هناك طريقة أخرى يمكن أن تحدث بها فيما عدا إذا قتل فى طريقه إلى موطنه.

كان مثل هذا المنظر المتخيل لعودته إلى الوطن بعد طول غياب هو الأمل الذى يعتمل فى قلبه عندما جاء سائرا بأول طريق الخليج الأسود قبل الظهر. وكان قد أدى دوره حتى يبدو هكذا، لأنه وصل منهكا لكنه نظيف، بعد أن توقف عند جدول فى اليوم السابق وهو واع أنه يبدو أكثر فظاظة من أحقر سائق بغال - ليستحم ويغسل ثيابه. كان الجو باردا لمثل هذا العمل، لكنه أشعل نارا من زند خشب جاف حتى قامت ألسنة اللهب عالية تصل إلى كتفه. سخن وعاء بعد وعاء

من الماء إلى درجة الغليان تقريبا وكشف عن صابونته من لفة ورقتها البنية اللون، التى كانت قاتمة ومشحمة من الشحم الحيوانى. صب الماء على ثيابه وفركها بالصابون وعصرها وطرقها على أحجار ثم غسلها برفق فى الجدول. وبسط الملابس على أجمات قرب النار لتجف ثم شرع يعمل على جسمه كان الصابون بنى اللون ومفعما بالرمل والحصى وبه قدر كبير من محلول قلوى إلى درجة أنه يكاد ينزع عنه جلده. واغتسل بماء ساخن يمكنه أن يتحمله وحكَّ جلده بالصابون حتى شعر به خاما. ثم لمس وجهه وشعره. كان قد نمت له لحية جديدة تقريبا منذ حلاقتها فى كوخ الفتاة، وشعره نصف جامح حول رأسه. لم يكن لديه موسى، ولذا فقد كان على اللحية أن تبقى. وكان يعد نفسه حلاقا رديئا. حتى لو كان لديه مقص ومرآة. ولم يكن يتوقع أن بإمكانه أن يحسن حلاقة شعره إلى أى حد، وهو لا يملك سوى سكين غمدية وغدير ساكن عند حافة الخليج. كان أفضل مايمكنه أن يفعله هو أن يسخن مزيدا من الماء، وأن يدلك شعره بالصابون ويشطفه، ويمشطه بأصابعه ويحاول أن يجعل له شكلا على رأسه حتى لاينتصب ويبدو مفزعا.

عندما فرغ من الاغتسال، جلس بقية اليوم البارد القرفصاء عاريا لكنه نظيف تحت البطانيات. ونام عريان، ملتفا بالبطانيات بينما ثيابه تجف فوق النار. وحيث أقام مخيمه، نزل الثلج مجرد رذاذ من السماء لفترة وجيزة ثم توقف. وعندما ارتدى ثيابه فى الصباح، كانت تفوح منها على الأقل رائحة الصابون القلوى وماء الجدول ودخان خشب القسطل لا رائحة العرق.

عندئذ شق طريقه إلى الخليج الأسود متعقبا آثاره، حريصا على ألا ينزل إلى الطريق حتى يكون على بعد منحنى أو منحنيين أسفل البيت. وعندما بلغه كان هناك دخان يصعد من المدخنة بلا أى معالم حياة أخرى، والثلج يرقد فى الفناء دون أن يحمل أثرا. فتح البوابة وذهب إلى الباب وطرقه. لم يأت أحد، وطرق الباب مرة أخرى. دار حول البيت إلى الخلف، حيث وجد آثار حذاء رجل عالى الساق فى الثلج بين البيت والمرحاض. ومن حبل الغسيل تدلى ثوب نوم متجمد متصلب. وفى عشة الدجاج رفت الدجاجات بأجنحتها وقاقت ثم سكتت. ذهب إلى الباب الخلفى وطرقه بشدة وفى ظرف دقيقة فتحت نافذة فى الطابق

العلوى وأبرز فتى أسود الشعر رأسه وسأله عمن يكون بحق الجحيم وماذا بحق الجحيم يعنى بعمل مثل هذه الجلبة.

وفى نهاية الأمر، استطاع إينمان أن يجعل فتى جورجيا يأتى إلى الباب ويدعوه إلى الدخول. جلسا بجوار النار وسمع إينمان حكاية عمليتى القتل. كان الفتى قد عمل فى ذهنه على القصة وصقلها حتى اكتسبت كل سمات معركة هائلة بالمدافع، أن يقاتل حتى يشق طريقا بعيدا لكن ستوبرود وبانجل كانا قد أسرا وقتلا.. وفى هذه الصيغة الأخيرة، كان لحن ستوبرود النهائى من تأليفه هو وتَأَتّى من معرفته الكاملة بالموت الفورى. وأن ستوبرود قد مال به ليصبح وداع عازف الكمان وكانت أكثر أغنية إثارة للحزن ألفت على الإطلاق واجتذبت الدموع من عيون كل الحاضرين، حتى جلاديه. لكن الفتى لم يكن موسيقيا ولايمكنه أن يستنسخ اللحن، ولا أن يَصفِره حتى بدقة ولذا فإنه قد ضاع إلى الأبد. وقد جرى طول الطريق ليخبر المرأتين بالقصة، وقد أصرتا تقديرا له، على أن يقضى عدة أيام يأكل ويستريح فى البيت مايستغرقه من زمن حتى يشفى من القشعريرة التى منى بها فى فراره اليائس أسفل الجبل. وكانت بلوى غريبة ويمكن أن تكون مميتة، مع بضع علامات خارجية قليلة.

كان إينمان قد وجه عددا من الأسئلة للفتى لكنه وجد أنه لايعرف من كان مونرو ولا أين يمكن أن يكون ولا يمكنه أن يقدم أى عون فى تحديد هوية رفيقة إيدا الأنثى سوى أنه يظن أنها ابنة عازف الكمان. أعطاه الفتى أفضل توجيهات بإمكانه، وشرع إينمان يسير مرة اخرى.

وهكذا وجد نفسه ينام مرة ثانية على الأرض. كان ذهنه كله متشابكا. رقد بجوار النار وجاءته أفكار وراحت وهو لا يسيطر عليها. كان إينمان يخشى أنه يتمزق إربا فى وقت سيئ، ثم تساءل متى يمكن أن يكون الوقت الطيب. لم يستطع أن يفكر فى وقت طيب. حاول أن يرغم التنفس الذى يشرخ فى صدره وأن يجعله يخرج بشكل ثابت. كان الافتراض الذى بدأ العمل به هو أن تحكمه فى أفكاره قد يتبع تحكمه فى تنفسه، لكنه لم يستطع حتى أن يجعل صدره يعلو ويهبط طبقا لأمره ولذا فإن ذهنه وتنفسه فعلا مايحلو لهما بطريقة منتفضة.

فكر فى أن إيدا قد تنقذه من مصاعبه وأن تخلصه فى السنوات الأربع السابقة وأن أمامها وقت يسمح لها بأن تفعل ذلك. ارتاب فى أن بإمكانك أن تعمل لنفسك خيرا ما لتهدئة ذهنك بالتفكير قدما فى المتعة العظيمة التى تحظى بها عندما تضم حفيدك على ركبتك. لكن الإيمان بأن مثل هذا الحدث يمكنه أن يقع فعلا كان يتطلب إيمانا عميقا بالنظام الصحيح. كيف تتولى أمر الحصول عليه وهو على هذا الحال من الشح؟ رن صوت قاتم فى ذهن إينمان وقال، مهما يكن قدر توقك إليه وصلاتك من أجله، فلن تصل إليه أبدا. فمن الممكن أن تدمر إلى حد بعيد. والخوف والكراهية يغربلان لبك مثل ديدان القلب. ففى مثل هذا الوقت، لم يعد الإيمان والأمل فى صميم الموضوع. وكنت أنت مهيأ لحفرتك فى الأرض. فقد كان هناك كثير من الوعاظ على شاكلة فيسى الذين أقسموا أن بإمكانهم أن ينقذوا أرواح أبغض انواع الخطاة. وعرضوا الخلاص على قتلة ولصوص وزناة حتى على أولئك الذين قرضهم اليأس. لكن صوت إينمان القائم ظن أن مثل هذه الادعاءات المتباهية أكاذيب. فهؤلاء الرجال لم يكن بمقدورهم أن ينقذوا أنفسهم من أن يعيشوا حياة فاسدة.. وكان الأمل الذى يطرحونه ساما مثل أى سم. وكل البعث الذى يمكن أن يتوقعه أى رجل هو بعث فيسى، أن يسحب ميتا من القبر عند نهاية طرف حبل.

كانت هناك حقيقة فيما قاله الصوت القاتم. كان بإمكانك أن تصبح ضائعا فى المرارة والغضب إلى حد أنك لاتستطيع أن تعثر على طريق عودتك. بلا خريطة أو دليل يرشدك فى مثل هذه الرحلة.. كان جانب من إينمان يعرف ذلك. لكنه كان يعرف أيضا أن هناك آثارا فى الجليد وأنه لو استيقظ يوما ما لتبعها إلى حيث تقضى ما دام بإمكانه أن يضع قدما أمام الأخرى. بدأت النار تخبو، ودحرج الأحجار الساخنة على الأرض وتمدد إلى جوارها وغلبه النعاس. وعندما أيقظه البرد قبل الفجر كان ملتفا حول أضخمها كما لو كانت محبوبته.

وعند أول ضوء شرع فى المشى، ولم يكن هناك بالكاد أثر يمكن أن تراه العين على الإطلاق، مجرد خواء يشعر به يجذبه إلى الأمام. ولو لم يكن هناك تعقب الآثار فى الثلج القديم، لما أمكن لإينمان ألا يحيد عن الطريق. فقد كان قد فقد الثقة بإدراكه الاتجاه الصحيح، إذ أنه خلال الأشهر الماضية قد ضل طريقه

فى كل مكان لم تطوقه فيه أسوار متوازية وتحول دون أن يمضى فى طريق خاطئ. انخفضت السحب. ثم هبت الريح باتجاه أسفل المنحدرات، حاملة معها ثلجا جافا ودقيقا بحيث لا يمكن أن يسمى قُشارات. نزل بشدة لمدة دقيقة حتى أنه يلسع الوجنات، ثم توقف فى الدقيقة التالية. نظر إينمان إلى الآثار المجوفة وكانت تحتفظ بالثلج الجديد كأنه برغل يُنفخ.

وصل إلى بركة سوداء مستديرة مثل غطاء جرة على الأرض. كان الثلج قد حففها واعتلى الماء عند منتصفها ذكر بط وحيد ولم يعبأ حتى بأن يدير رأسه لينظر إلى إينمان. بدا أنه لاينظر إلى شىء. قدر إينمان أن عالم ذكرالبط كان يضيق حوله وأنه سيظل طافيا هناك حتى يشدد الثلج قبضته على الغشاء الذى يمتد بين مخالب قدميه. ومهما حاول أن يرفرف بجناحيه، فسوف يُجذب إلى أسفل ليلقى حتفه. فكر إينمان أولا فى أن يطلق عليه النار ويغير مصيره على الأقل فى احد التفاصيل الثانوية، ولكن لو أنه فعل لكان عليه أن يخوض فى الماء ليحصل عليه إذ أنه يمقت أن يقتل حيوان ولايأكله. وإذا حصل عليه فسوف يجد نفسه فى مأزق فيما يخص صيامه. ولذا ترك ذكر البط يصارع الأمر مع خالقه وواصل سيره.

عندما دار الدرب صاعدا، بدأ الثلج يسقط مرة أخرى. فى هذه المرة كان ثلجا حقيقيا يسقط قُشارات مثل زغب الشوك، مائلا بكثافة جعلت إينمان يشعر بدوار من حركته، بدأت الآثار تتلاشى مثل الغسق والثلج يغطيها. مشى بسرعة، صاعدا حافة، وعندما بدأت الآثار تختفى راح يركض. ركض وركض هابطا إلى أسفل خلال أشجار شكران قاتمة. راح يراقب الآثار يغطيها الثلج وحوافها تُطمس. ومهما أسرع فى ركضه، كانت آثار الأقدام تختفى أمامه حتى أصبحت كليلة، مثل ندوب على جروح. ثم مثل علامات مائية من خلال ورق يمسك به أمام ضوء نافذة. ثم رقد الثلج أملس فيما حوله، بلا علامات.

كانت القُشارات تسقط بشدة ولم يستطع إينمان حتى أن يشعر بالاتجاه الذى يمضى فيه الدرب. لكنه واصل الركض حتى توقف أخيرا فى مكان تقوم فيه أشجار الشكران سوداء حوله وتجعل تمييز العالم أمرا مستحيلا، بلا زاوية

بوصلة مفضلة على زاوية أخرى وبلا صوت سوى سقوط الثلج على الثلج، وحسب أنه لو رقد لغطاه وعندما يذوب سيمسح الدموع عن عينيه، وأخيرا عينيه من رأسه وجلده عن جمجمته.

نامت إيدا وروبى حتى بدأ ستوبرود يسعل سعالا بلغميا موجعا. كانت إيدا قد نامت بملابسها واستيقظت على إحساس غريب بالسروال يلتف حول ساقيها. وكان الكوخ معتما وباردا وقد خبت النار إلى احتراق ببطء وبغير لهب. والضوء الآتى من الخارج غريب متوتر ينذر بسقوط الثلج. ذهبت روبى إلى ستوبرود. كان هناك خيط من دم طازج يسيل من ركن فمه إلى ياقته. انفتحت عيناه لكن لم يبد عليه أنه عرفها. وضعت يدها على جبينه ونظرت إلى إيدا وقالت، إنه يحترق. ذهبت روبى إلى أركان الكوخ وجذبت خيوط عنكبوت حتى أصبح لديها كرة منها فى يدها؛ ثم نبشت فى جراب الجذور وأخرجت جذرين وقالت، أحضرى بعض الماء وسوف أعد كمادة لأضعها على تلك الفتحة المثقوبة فى صدره. ذهبت وألقت الخشب على الجمرات وانحنت لتنفخ فى النار.

لمت إيدا شعرها وارتدت قبعتها لترفعه. أخذت الوعاء إلى النبع وغمسته حتى امتلأ بالماء وحملته إلى الحصان. شربه حتى أتى عليه بصوت امتصاص عال. أعادت ملء الوعاء من الجدول وبدأت مشوار العودة. سقط الثلج بشدة من سحب واطئة كئيبة وكست باللون الأبيض كم معطفها وهى تمد ذراعها إلى الأمام حاملة الوعاء. هبت ريح ورفرفت ياقتها على وجهها.

وعندما كادت تبلغ الكوخ اجتذب عينها شىء، حركة ضئيلة أعلى المنحدر، إلى حيث دخلت القرية فى عصر اليوم السابق. وهناك كان سرب من الديوك الرومى البرية، عشرة أو اثنا عشر منها، يتحسس سبيله خلال الثلج بين الأشجار العارية على منحدر التل، يقوده ذكر ضخم، لونه رمادى شاحب مثل حمامة. كان يأخذ خطوة ثم يتوقف ويسبر غور الثلج بمنقاره ثم يواصل التحرك. بدا سير السرب جهيدا، مثل عجائز مشدودين إلى أحمال يجذبونها من عصابات تمتد من جباههم عبر أكتافهم لتسند ربطات على ظهورهم. كانت طيورا ذات أجسام نحيلة وطويلة، تختلف فى تكوينها تماما عن ديوك الفناء.

تحركت إيدا ببطء حتى وضعت الكوخ بينها وبين الطيور. دخلت ووضعت الوعاء بجوار النار. كان ستوبرود يرقد هادئا. عيناه مغمضتان ووجهه أصفر رمادى، بلون شحم الخنزير البارد. نهضت روبى من حيث تجلس إلى جواره، وانشغلت بوضع الماء ليغلى وتجهيز جذور الأعشاب.

قالت إيدا لروبى وهى منحنية على ما تؤديه من تقشير الجذور وفرمها: هناك ديوك رومية على منحدر التل.

رفعت روبى رأسها. قالت: بإمكانى أن أشحم ذقنى برجل ديك رومى. تلك البندقية محشوة. كلتا الماسورتين. اذهبى واقتلى واحداً لنا.

قالت إيدا: أنا لم أطلق بندقية أبدا.

– إنه من أسهل مايكون. اجذبى قادحى الزنادين إلى الوراء. صوبيها. ثبتى حلقة النيشان فى الحز، اجذبى أى زناد، ولاتغلقى عينيك وأنت تفعلين ذلك. وإذا أخطأت المرمى، اجذبى الزناد الآخر. ثبتى كعب البندقية بشدة إلى كتفك، وإلا كسرت ترقوتك عندما تنطلق. تحركى ببطء لأن الديوك البرية لديها موهبة أن تختفى من أمامك. وإذا لم تستطيعى أن تصلى إلى عشرين خطوة منها على الأقل، فلا تبددى حشوة.

– شرعت روبى تهرس قطع الجذور على حجر بنصل السكين المسطح. لكن إيدا لم تتحرك، ورفعت روبى رأسها مرة أخرى. قرأت عدم الثقة فى وجه إيدا.

– قالت روبى: كفى عن الحيرة فى الأمر. إن أسوأ مايمكن أن تفعليه هو أن تفشلى فى قتل ديك رومى وليس هناك صياد فى العالم لم يفعل ذلك، هيا.

تسلقت إيدا المنحدر بحرص بالغ وترو. استطاعت أن ترى الديوك تتحرك خلال موقع أشجار القسطل أمامها وفوقها. كانت تسير فى الاتجاه الذى يسقط فيه الثلج مائلا مع الريح. كانت تجتاز المنحدر ولم يبد عليها أنها متعجلة. فعندما كان الذكر يعثر على شىء يأكله، كانت تتجمع وتنقر فيه على الأرض ثم تتحرك قدما.

كانت إيدا تعرف أن روبى مخطئة فى قولها إن أسوأ مايمكن أن يفعله المرء هو أن يخطئ المرمى. فكل واحد فى الجماعة قد سمع بقصة أرملة الحرب التى تعيش باتجاه مجرى النهر. ففى الشتاء السابق، كانت المرأة قد تسلقت شجرة فى موقع للغزلان وسقطت منها بندقيتها وانطلقت حين ارتطمت بالأرض إلى درجة أنها، فى واقع الأمر، أطلقت النار على نفسها من خارج الشجرة. كان من حظها أنها عاشت لتصبح هزؤة من أجل ذلك. فقد كسرت المرأة إحدى رجليها أثناء سقوطها ولن تعد إلى السير بشكل قائم بعد ذلك، وأصبح لديها ندبتان فى وجنتها كأنهما علامتا جدرى بفعل خردق صيد الأيائل.

أحرزت إيدا تقدما مضطربا باتجاه أعلى المنحدر، وهى تفكر فى مثل هذه الأفكار المزعجة عن صيد الطرائد السيئ ونتائجه. كانت تشعر بالبندقية طويلة وغير متوازنة أمامها وتبدو مرتجفة بين يديها. حاولت أن تدور لتصل إلى الممر الذى تتبعه الديوك وأن تنتظرها، لكنها غيرت اتجاهها وسارت إلى أعلى بشكل أكثر مباشرة. تبعتها لبعض الوقت، تصعد حين تصعد الديوك وتتوقف حين تتوقف. وحين كانت تسير كانت تحاول أن تكون هادئة وساكنة فى حركاتها، إذ تهبط بقدمها ببطء، تاركة للثلج أن يُخفِّت وقع قدميها.. وهى مسرورة لأنها ترتدى سراويل، لأن محاولة التلصص وهى مرتدية تنورات طويلة وما تحتها من ملابس داخلية كانت مستحيلة، مثل السير فى الغابات وهى ترفرف لحاف سرير حولها.

وحتى مع هذا الحرص، خافت إيدا أن تفعل الطيور مازعمته روبى وأن تختفى. لم ترفع عينيها عنها وكانت صبورة وفى آخر الأمر اقتربت إلى المسافة الصحيحة تقريبا التى عينتها روبى. توقفت الديوك ودارت برءوسها لتنظر حولها. وقفت هى ساكنة ولم ترها الديوك. نقرت الثلج بمناقيرها بحثا عن طعام. خمنت إيدا أن تلك كانت أوضح ما يحتمل أن تحصل عليه من إطلاق الرصاص، ولذا فإنها رفعت البندقية ببطء ونظرت خلال جهاز التسديد إلى الطيور التى تمشى بتثاقل. أطلقت النار، ولدهشتها سقط طائران. أقلعت الطيور الأخرى وهى تطير على مستوى منخفض فى اضطراب عظيم، ومن ذعرها طارت باتجاه أسفل التل باتجاهها مباشرة. ولثانية، اخترق الجو حول رأسها مائتا رطل من الطيور.

احتمت الطيور فى أجمة غار، ووقفت إيدا وتذكرت أن تتنفس. فكرت فيما حدث ولم تجد أى ذكرى لهزة ابتهاج، رغم أنها شعرت بكتفيها مخدرتين. كانت تعرف حقا - على الرغم من أنها لم تستعمل أبدا أى سلاح نارى من أى طراز فى حياتها وليس لديها سوى إطلاق نار واحد لكى ينبئها - أن عمل البندقية عمل مبهم، وأن جذب الزناد استغرق مدة طويلة وله صوت طقطقة وأن الأمر ينطوى على قدر ما من عدم الثقة أين يمكنك أن تجد نقطة التوتر والراحة على مدى انطلاقها، نظرت إلى أسفل إلى الزخرفة اللفيفية على البندقية، وحدات زخرفية من سيقان بناتات معترشة وأوراق وقادحى الزناد المعقدين اللذين ينفذان اللحن الدال. أنزلت الزناد الثانى ببطء من حيث كان ينتصب يقظا.

عندما وصلت إيدا إلى الطائرين اللذين سقطا، وجدت أنثى وذكرا صغيرا. كان لريشهما لون لمعان المعدن، وكانت إحدى قدمى الأنثى الرمادية ذات القشور لاتزال تنقبض وتنبسط فى الثلج.

سمع إينمان طلقة نارية على مسافة غير بعيدة من حيث كان يقف. جذب قادح الزناد الرئيسى لمسدس لى مات إلى آخر مدى واتجه إلى الأمام. خرج من تحت ظل شجرة الشكران الكثيف إلى أيكة قسطل تنحدر باتجاه جدول شديد التحدر يسقط فى مكان ما أسفله. كان الضوء رماديا خشن النسيج والثلج يتساقط فى أشجار القسطل وقد كسا فروعها بالصقيع. سار هابطا فيما بينها وكانت هناك فجوة فى الطريقة التى تنمو بها حتى أن الجذوع السوداء قامت مصطفة على الجانبين وأهداب الفروع البيضاء تلتقى فوق رأسه لتشكل نفقا. وإلى أسفل كان هناك مايوحى بحارة، على الرغم من أنه لم يشق هناك طريق أبدا. كان الثلج يعصف بشدة ويلوث التفاصيل. وعلى الرغم من أن إينمان يستطيع أن يرى بوضوح إلى مسافة ثلاث أشجار لاغير خلال الغبشة، فإنه بدا أن هناك دائرة ضوء مبهم عند نهاية الحارة يحففها فروع أشجار مغطاة بالثلج. أمسك بالمسدس سائبا فى يده، وفوهتاه مصوبتان إلى لا مكان بالذات سوى إلى الأمام. كان أصبعه متصلا بالزناد إلى درجة أن كل الأجزاء التى تربطه بقادح الزناد كانت تتلامس وتشتد ضيقا مثل شرارة تشق سبيلها من جزء إلى جزء.

مضى قدما، وسرعان ماتفتح الضوء أمامه عن هيئة شخص، طيف خيال أسود تتقوس فوقه فروع أشجار. كان يقف مفرشح الرجلين عند نهاية نفق أشجار القسطل وعندما رآه سدد إليه بندقية طويلة. كان المكان ساكنا إلى حد أن إينمان استطاع أن يسمع طقطقة المعدن وقادح الزناد يدفع إلى الخلف بإبهام.

خمن إينمان، أنه صياد. صاح قائلا: اننى ضال. وعلاوة على هذا، فإننا لا نعرف ما فيه الكفاية أحدنا عن الآخر حتى نشرع فى قتل أحدنا الآخر.

خطا إلى الأمام ببطء. كان بإمكانه أن يرى الديكين الروميين أولا راقدين أحدهما إلى جوار الآخر على الأرض. ثم رأى وجه إيدا الرائع يعلو هيئة شخص يرتدى سروالا، مثل طفل مسترجل.

قال إينمان: إيدا مونرو؟ إيدا؟

كان صائبا فى حسبانه القائم على التجربة أن حواسه ليست شيئا يعتد به. اعتقد أن حياته الفكرية قد شردت إلى حد أنها لم يعد لها اتجاه أكثر مما لدى مجموعة من الجراء العمياء فى غطاء صندوق. فما رآه يمكن أن يكون خدعة ضوء ما تعمل على عقل مشوش، أرواحا سيئة صادفته فى شكل ما لتحيره كان الناس يرون أشياء فى الغابات، حتى أولئك المتخمون وعقولهم مستقرة. أضواء تتحرك حيث لايمكن أن تكون هناك أضواء، أشكال من ماتوا من زمن تجوس خلال الأشجار وتنطق بكلمات بأصوات ضائعة، أرواح مخادعة فى شكل أكثر رغباتك عمقا تقودك قدما وقدما لتموت مذهولا فى جحيم ما من الغار. ضغط إينمان قادح زناد الطلقة الصغير الثانى لمسدس لى مات

ارتبكت إيدا لسماع صوتها ينطق به. تركت فوهتى البندقية تتدليان بضع بوصات عن الصدر الذى كانتا مصوبتين نحوه. تفحصته ولم تعرفه.

بدا شحاذا يرتدى ملابس مهملة، خرقا ملقاة فوق صليب من العصى. كان وجهه ممطوطا ووجنتاه غائرتين فوق اللحية ذات الشعر الخشن المنتصب، وهو يحدق فيها بعينين سوداوين غريبتين تلمعان فى عمق محجريهما تحت ظل حافة قبعته.

وقفا حذرين، على بعد عدد من الخطوات أحدهما من الآخر، العدد المحدد لمتبارزين. لايتعانقان من القلب كما تخيل إينمان، لكن مسلحين أحدهما ضد الآخر، والسلاحان يعكسان ضوءا شديدا فى الفراغ بينهما.

تفحص إينمان إيدا بحثا عن خدعة تأتى من داخله أو من روح العالم. كان وجهها أكثر صرامة عما يذكره، أكثر صلابة. لكنه كلما رأى المزيد داخله الاعتقاد بأنها هى حقا، على الرغم من الزى غير المتوقع. ولذا فإنه، بعد أن حمل السلاح دون أن يتدبر العواقب، قرر الآن أن ينحيه جانبا مع ذلك. أنزل قادح زناده وأزاح سترته إلى الخلف ودس المسدس تحت حزامه. نظر فى عينيها وعرف أنها هى وغلبه الحب مثل رنين فى روحه.

لم يعرف ماذا يقول، ولذا فإنه قال ما أنبأه به الحلم الذى حلمه فى مخيم الغجر: كنت آتيا إليك على طريق شاق ولن أدعك تذهبين.

لكن شيئا بداخله لم يسمح له بأن يخطو إلى الأمام ليعانقها. لم تكن البندقية فقط هى التى تجنبه من الاقتراب. لم يكن الموت هو بيت القصيد. لم يكن بإمكانه أن يخطو إلى الأمام. مد يديه الخاويتين وكفاه أعلى على جانبيه.

ولم تزل إيدا لاتعرفه. بدا لها مجنونا ما يتجول فى العاصفة، مخلاته على ظهره والثلج فى لحيته وعلى حافة قبعته، ينطق بكلمات جامحة ورقيقة إلى ما ظهر أمامه، الصخرة والشجرة والجدول. وعلى الأرجح ليقطع رقبة شخص ما، هكذا كان يمكن أن يكون تقدير إيدا، رفعت إيدا البندقية مرة أخرى لتمزقه إربا إذا جذب الزناد فحسب.

قالت: أنا لا أعرفك.

سمع إينمان الكلمات وبدت له عادلة. مبررة تماما، وبشكل ما متوقعة. خطر له، أربع سنوات مرت فى قتال، لكن الآن قد عدت إلى أرض الوطن ولست أفضل من غريب كريه الرائحة هنا. مهاجر جوال فى بيتى ذاته. هذا هو الثمن الذى سأدفعه تكفيرا عن السنوات الأربع السابقة.. أسلحة نارية تقوم بينى وبين كل ما أريده.

قال: أعتقد أننى أرتكبت خطأ.

استدار ليغادر المكان. أن يواصل سيره إلى الصخور المتألقة ليرى إن كانت لتقبله. وإن لم يكن، أن يستأنف بحث فيسى عن ضالته المنشودة وأن يسير إلى تكساس أو حتى إلى أنحاء أصعب مراسا بلا حكومة، إذا كان هناك مثل هذه الانحاء. لكن لم يكن هناك درب يتبعه. فأمامه أشجار فحسب وثلج وخطواته يغطيها الثلج بسرعة.

استدار إليها وعرض يديه الخاويتين مرة أخرى وقال، لو كنت أعرف إلى أين أذهب لذهبت إلى هناك.

ربما كان جرس صوته، زاوية وجهه من الجانب. شيء ما . طول عظمة ساعده، شكل مفاصل أصابعه تحت جلد يديه. لكن إيدا عرفته فجأة، أو ظنت أنها عرفته. أنزلت البندقية إلى حيث يمكن أن تفعل أى شىء الا أن تبتر ركبتيه.

نطقت باسمه وقال: أجل.

عندئذ كان كل ما تفعله إيدا أن تنظر فحسب إلى وجهه الممطوط لترى لا رجلا مجنونا ولكن إينمان. كان ذابلا ومخربا، رث الثياب ومتعبا ونحيلا، لكنه رغم هذا إينمان يحمل ختم الجوع على جبينه، مثل ظل فوقه. تواقا إلى الطعام والدفء والحنان.. أمكنها أن ترى فى تجويفى عينيه أن ما سلبته منه الحرب الطويلة والطريق الشاق إلى الوطن قد حَتّ فى عقله وترك قلبه سجينا داخل قضبان ضلوعه. ترقرقت الدموع فى عينيها، لكنها طرفت بهما مرة واختفت. أنزلت الفوهتين إلى الأرض وأراحت قادح البندقية.

قالت: تعال معى.

قرنت أقدام الديكين الروميين ليكونا مقابض وانتزعتهما صدرا لصدر، وعندما فعلت ذلك تفتحت أجنحيتهما وتخبطت رأسهما وانجدلت رقبتاهما كما لو كانتا فى حالة حب مقلوب. غادرت المكان وهى تحمل البندقية متوازنة على كتفها، كعبها إلى الخلف، وهى تمسك بالماسورة بشكل سائب فى يدها اليسرى المرفوعة: تبعها إينمان، وكان متعبا إلى درجة أنه لم يعرض عليها حتى أن يحمل عنها بعضا من حملها.

نزلا على منحنيات المنحدر. خلال أشجارالقسطل وقبل أن يمر وقت طويل استطاعا أن يريا الجدول وجلاميده المكسوة بالطحالب والقرية بعيدة تحتها، والدخان يرتفع من كوخ روبى. ارتفعت رائحة الدخان خلال الغابات.

وبينما كانا يسيران، راحت إيدا تتحدث إلى إينمان بصوت كانت قد سمعت روبى تستخدمه فى مخاطبة الحصان عندما يكون عصبيا. لم تكن الكلمات تُهم كثيرا. كان بإمكانك أن تقولى أى شىء، أن تعملى النظر فى الجو بأكثر الطرق ألفة أو أن تتلى أبياتا من قصيدة الملاح العجوز، فالكل سواء. كل مايحتاجه الأمر هو نبرة مهدئة، الراحة التى يجلبها صوت رفيق.

ولذا تكلمت إيدا عن أول شىء خطر لها. عددت ملامح المنظر الحالى الذى يقطنون فيه. عن نفسها فى ثياب صياد قاتمة تعود بطرائد أسفل التلال التى تكسوها الغابات، والمساكن الكوخية التى تقع فى القرية أسفلهم يرتفع الدخان منها، والجبال الزرقاء حولها من كل جانب.

قالت إيدا، إنها لاينقصها سوى نار على الأرض وقليل من الناس يوقدونها. صيادين فى الثلوج. وتكلمت على غير هدى، وهى تتذكر مشاهدتها لتلك اللوحة منذ سنوات عديدة مع مونرو أثناء رحلاتهما فى أوروبا. كان قد كره سمتها ذاته، إذ وجدها واضحة أكثر من اللازم، خافتة الألوان إلى حد بعيد، ينقصها أى إشارة إلى عالم غير هذا العالم. وكان رأى مونرو أن أى إيطالى لم يكن ليبدى أى اهتمام برسم مثل هذا الشىء. وعلى الرغم من ذلك فقد انجذبت إيدا إليها ودارت حولها بعض الوقت لكنها افتقرت فى النهاية إلى الشجاعة كى تقول ماشعرت به، حيث إن الأسباب التى جعلتها تروق لها كانت فى كل نقطة منها متطابقة مع النقاط التى استخدمها مونرو ليدعم بها استنكاره لها.

كان تفكير إينمان ملبدا إلى حد لايسمح له بمتابعة أى شىء تقوله سوى أنها تتحدث عن مونرو كما لو كان قد مات وأنها يبدو عليها أن لديها فى تصورها وجهة فى الحياة، وأن نبرة ما فى صوتها تقول، إننى أعرف فى هذه اللحظة بالذات أكثر مما تعرف، وأن كل ماأعرفه يمكن أن يكون رائعا.

الجانب البعيد من الغناء

كان الكوخ ساخنا ومشرقا من النار التى تتواثب عند المدفأة، وهناك قدر ضئيل من الدلائل، وقد أغلق الباب، لتشير إلى إن كان الوقت صباحا أو ليلا بالخارج. كانت روبى قد أعدت قهوة. جلست إيدا وإينمان يشربانها، قريبا جدا من جانب المدفأة إلى درجة أن الثلج الذائب فى معطفيهما كان يتبخر حولهما. لم يقل أحد كثيرا عن أى شىء وبدا المكان بالغ الصغر بأربعة أشخاص فيه لم تكد روبى تعترف بوجود إينمان حتى اغترفت طاسا من البرغل ووضعته على الأرض بجواره لكى يتناول افطاره.

استيقظ ستوبرود بوعى جزئى وحرك رأسه من جانب إلى جانب. فتح عينيه، وكان بهما نظرة تدل على الحيرة والألم. ثم رقد ساكنا مرة أخرى.

قالت إيدا: إنه لايعرف أين هو.

قالت روبى: وكيف يمكنه.

قال ستوبرود مخاطبا لا أحدا على وجه الخصوص، وعيناه مغمضتان، كان هناك كثير من الموسيقى عندئذ.

أنزل رأسه وارتد إلى نوم عميق. ذهبت روبى ووقفت فوقه وشمرت كمها ووضعت رسغها على جبينه.

قالت، مُنْدى. وذلك يمكن أن يكون أمرا جيدا أو رديئا.

نظر إينمان إلى طاس البرغل ولم يستطع أن يتخذ قرارا. ما إذا كان ليلتقطه أم لا. وضع قدح القهوة إلى جواره. حاول أن يفكر مايجب أن يكون عليه الشيء التالى. لكنه، لكونه منهكا، لم يستطع أن يحتفظ بعينيه مفتوحتين. مال رأسه ثم ارتد، ثم كان عليه أن يعمل ليركز عينيه. كان هناك الكثير من الأشياء التى يريدها، لكن أول ماهو بحاجة إليه هو أن ينام.

قالت روبى: هذا الشخص مرهق.

طوت إيدا بطانية وأعدت له حشية على الأرضية. قادته إليها وحاولت أن تساعده فى فك رباطى حذائه وخلع معطفه، لكنه لم يكن ليقبل أيا من هذا: تمدد وغلبه النعاس وهو بكامل ثيابه.

أذكت إيدا وروبى النار وتركتا الرجلين نائمين. وبينما كان إينمان وستوبرود غارقين فى النوم، راح الثلج يسقط ويسقط، وقضت المرأتان ساعة باردة وتقريبا بلا كلام تجمعان الخشب وتنظفان كوخا آخر وتقطعان أغصان شجر التنوب لتغلقا صدعا فى ألواح اللحاء القديمة. فى هذا الكوخ كان هناك خنافس ميتة فى أرجاء الأرضية، أشياء مقرحة مجففة. كانت تنسحق وتفرقع تحت أقدامهما. خنافس من سكان الأكواخ ذات طراز أثرى قديم. كنستها إيدا خارج الباب بغصن شجرة أرز.

وفى ركام الأرضية عثرت على كأس خشبية قديمة. أو شيء أقرب إلى طاس. كان شكله غير محدد نوعا ما. كان به شق واسع حيث جف الخشب، والشق مرقع بشمع عسل النحل، مقدد بشكل صلب وسريع الانكسار. نظرت إلى تجزيع الخشب وقالت لنفسها، خشب قرنوس. تصورت صنع ذلك الشيء واستخدامه ثم ترقيعه، وقررت أن الطاس قد يقوم معلما على كثير مما ضاع.

كان هناك كوة في جدار الكوخ، رف مقطوع في الخشب، ووضعت الطاس هناك مثلما يبرز ناس في أجزاء أخرى من العالم أيقونات أو طواطم حيوانية منحوتة.

عندما أصبح الكوخ نظيفا والسقف مرقعا، أسندتا الباب في مكانه وأوقدتا نارا حامية في المدفأة بأي نوع من الخشب أمكنهما العثور عليه في الثلج. وبينما راح يحترق أعدتا فراشا عميقا من فروع شكران متراكمة وبسطتا فوقه لحافا. ثم نتفتا ريش الديكين ونظفتاهما، وكومتا الأحشاء في حلقة كبيرة من اللحاء قشرتاها من على جذع شجرة قسطل أُسقطت. ألقت إيدا باللحاء وكل شيء خلف شجرة على مجرى الجدول، وكانت كومة قبيحة وردية اللون ورمادية في الثلوج.

وفيما بعد، عندما هبطت النار وأصبحت فرشة من الجمرات، وضعتا عليها فروع شجرة جوز خضراء لتدخن جثتي الديكين المذبوحين مشبوكين في عصى مشحوذة وشويتاهما طوال النهار على نار بطيئة، وهما تراقبان جلدهما يتحول إلى لون عنبري. كان الكوخ دافئا ومعتما، تفوح فيه رائحة دخان الجوز والديكين الروميين. وعندما هبت الريح، تسرب الثلج من خلال المكان المرقع في السقف وسقط حولهما وذاب. جلستا قريبا من النار لمدة طويلة ولم تتكلم أي منهما، ولم تكادا تتحركان فيما عدا خروج روبي في إحدى الفرص لتلقي بالمزيد من الخشب على نار الرجال ولتضع رسغها على جبين ستوبرود.

عندما بدأ الظلام يحل، جلست روبي بجوار النار، في وضع قائم على قاعدتها، وركبتاها منفرجتان ويداها على ركبتيها. كانت ملتفة ببطانية تمتد مشدودة ومسطحة مثل ملاءة سرير عبر ركبتيها. وراحت تعمل على غصين شجرة جوز بسكينها حتى بَرَتْها إلى سن حاد: نخست الديكين بنزق بالعصا حتى سال منهما عصير تحت الجلد المرقط وسقط يهسهس منشنشا في الجمرات.

قالت إيدا: ماذا بك؟

قالت روبى: كنت أراقبك هناك هذا الصباح معه وقد ظللت أفكر منذ ذلك الحين.

سألتها إيدا: فيه؟

- فيك أنت.

- وماذا عنى؟

- كنت أحاول أن أعرف فيم تفكرين. لكننى لا أستطيع التوصل إليه. ولذا سأقول بصراحة مايشغل ذهنى. وهو أننا يمكننا الاستغناء عنه. ربما تظنين أنه لايمكننا، لكننا يمكننا. فنحن مازلنا فى البداية. إن لدى رؤية فى ذهنى لما يجب أن يكون عليه ذلك الخليج. وأعرف مانحتاج إلى عمله لنصل إلى هذا. المحاصيل والحيوانات. الأرض والمبانى. سوف يستغرق ذلك زمنا طويلا.

لكننى أعرف كيف نصل إلى هذا. سواء فى الحرب أو فى السلم. ليس هناك مالايمكننا أن نعمله بأنفسنا.

نظرت إيدا إلى النار. ربتت على ظهر يد روبى حيث كانت مستقرة ثم التقطتها إيدا من على ركبة روبى ودلكت كفها بشدة بإبهامها حتى استطاعت أن تشعر بالعروق تحت الجلد. خلعت خاتما من خواتمها ووضعته على يد روبى وأمالته إلى أسفل باتجاه ضوء النار لتنظر إليه. زمردة كبيرة مركبة على ذهب أبيض وحولها أحجار ياقوت أصفر. هدية عيد ميلاد مونرو منذ سنوات مضت. أتت إيدا بحركات لتترك الخاتم حيث وضعته، لكن روبى خلعته وفتلته بخشونة وهى تعيده إلى اصبع إيدا.

قالت روبى: أنت لست بحاجة إليه.

قالت إيدا، أعلم أننى لست بحاجة إليه. لكننى أعتقد أننى أريده.

- حسنا، هذا أمر مختلف تماما.

لزمت إيدا الصمت، وهى لاتعرف ماذا تقول أبعد من هذا لكنها تفكر بغضب. أشياء فى حياتها السابقة كان لايمكن تخيلها بدت فجأة ممكنة، ثم بدت

ضرورية. فكرت فى أن إينمان قد ظل وحده أطول من اللازم، مشردا. بلا مواساة من لمسة إنسانية، يد محبة توضع ناعمة ودافئة على كتف، ظهر، ساق، وهى نفس الشىء أيضا.

قالت أخيرا بصوت عال: ما أنا واثقة من أنى لاأريده هو أن أجد نفسى يوما ما فى قرن جديد، امرأة عجوزا ممتلئة بالمرارة تلتفت إلى الوراء، وتود الآن حالا لو أننى قد كان لدى المزيد من الشجاعة.

استيقظ إينمان بعد حلول الظلام. كانت النار ترقد فى رمادها وترسل وهجا معتما فحسب فى الكوخ. لم يكن هناك سبيل لأن يعرف كم تقدم الليل. ولفترة قصيرة لم يعد يتذكر حتى أين كان. وقد مضى وقت طويل للغاية منذ أن نام فى نفس المكان مرتين إلى حد أنه كان عليه أن يرقد ساكنا ويحاول أن يعيد فى ذهنه تشكيل أيام متعاقبة نام فيها فى سرير يعرفه. اعتدل جالسا وكسر عصيا وألقى بها على الجمرات حتى توهجت ألسنة نار جديدة وألقت ظلالا على الجدران. عند ذاك فقط أمكنه أن يقول بثقة أى نقطة فى الجغرافيا كان يشغلها.

سمع إينمان صوت تنفس يجذب. طقطقة بلغمية. تلولب ورأى ستوبرود فى مرقده، عيناه مفتوحتان وسوداوان ولامعتان فى الضوء. حاول إينمان أن يتذكر من كان الرجل. كانوا قد أخبروه لكنه لايستطيع أن يتذكر.

تلاعب ستوبرود بفمه فأصدر أصوات طقطقة. نظر إلى إينمان وقال، أى ماء؟ جال إينمان ببصره فى أرجاء المكان ولم ير أى دلو أو جرة. نهض وفرك يديه على وجهه، وفى شعره.

قال، سآتيك بجرعة.

ذهب إلى مخلاتيه وأخرج زجاجة مائه وهزها ووجدها فارغة. وضع المسدس فى مخلاة مئونته ووضع سيرها الجلدى فوق كتفه.

قال، سأعود فى الحال.

حرك الباب من المدخل. بالخارج كان الليل دامسا وهب الثلج داخلا. استدار إينمان وقال، أين ذهبتا؟

رقد ستوبرود مغمض العينين. لم تصدر منه محاولة للإجابة سوى هزتين من سبابة يده اليمنى وأصبعها الوسطى، التى ترقد خارج بطانيته.

خطا إينمان إلى الخارج وأعاد إسناد الباب فى مكانه ووقف وانتظر أن تعتاد عيناه الظلام. كانت هناك رائحة برد وثلج فى الهواء مثل معدن جُز. وروائح دخان الخشب وأحجار الخليج المبللة المتعارضة. عندما استطاع أن يرى بما يكفى لأن يسير، شق إينمان طريقه فى اتجاه مجرى الماء كان الثلج الراقد على الأرض يصل إلى قصبة الساق. وبدا الجدول أسود بلا قاع بل لعله ينساب فى عرق عميق يصل إلى باطن الأرض. جلس القرفصاء وغمس الزجاجة ليملأها وشعر بالماء على يده ورسغه أدفأ من الهواء.

عندما شرع فى العودة استطاع أن يرى ضوء نار يتوهج أصفر اللون من ثغرات فى شقوق الكهف حيث كان قد نام. وأيضا من كوخ آخر باتجاه مجرى الخليج. شم رائحة اللحم يطهى وتملكه فجأة جوع شديد.

عاد إينمان إلى الداخل ورفع ستوبرود وقطر ماء فى فمه. ثم استند ستوبرود على مرفقيه وشرب، بينما إينمان يمسك له الزجاجة، حتى اختنق وسعل ثم شرب المزيد احتفظ برأسه مرفوعا وفمه مفتوحا وعنقه ممدودا. ذكَّر هذا الوضع إينمان والطريقة التى ينتصب بها شعره وشعر لحيته الخشن النامية على فودية والنظرة العمياء فى عينيه بفرخ فقس لتوه، نفس الميل الفطرى المروع القصم إلى الحياة.

لقد رآه من قبل، ورأى عكسه، إرادة الموت. كان الرجال يتقبلون جراحهم بأشكال مختلفة. فقد رأى إينمان الكثير من الرجال الذين أطلقت النار عليهم فى السنين الأخيرة حتى بدا أن الطبيعى أن تطلق النار عليك بقدر ما هو طبيعى ألا تطلق النار عليك. شرط طبيعى من شروط الحياة. ورأى رجالا تطلق النار على كل جزء من أجسامهم يمكن إطلاق النار عليها. وقد رأى النتيجة التى يمكن أن يصل إليها إطلاق النار، من الموت الفورى إلى الألم المبرح الصارخ الذى منى بها رجل فى مالفيرن هيل وقف والدم يقطر من يده اليمنى التى تشظت وأطلق ضحكة مدوية هائلة، وهو يعلم أنه لن يموت لكنه منذ ذلك الحين فصاعدا لن يكون قادرا على أن يجذب زنادا.

لم يكن بوسع إينمان أن يعلم ماذا يمكن أن يكون مصير ستوبرود، لامن النظرة التى اتسمت فى عينيه ولامن حالة جرحه، الذى وجده إينمان بعد فحصه جافا وقد حشر فيه خيط عنكبوت وقُشارات جذور. كان ملمس ستوبرود حارا، لكن إينمان قد كف منذ زمن بعيد عن التنبؤ بما إذا كان الرجل المصاب بطلق نارى سيعيش أم لا. فمن تجربته أن الجروح البالغة تلتئم أحيانا، وأن الجروح الصغيرة تتقرح. وأى جرح قد يلتئم على الجلد لكنه يظل يحفر إلى الداخل حتى يصل إلى لب الرجل إلى أن يقضى عليه. لم يتح له الاستفهام عن السبب فى ذلك، شأن كثير من الأسباب فى الحياة، سبيلا للوصول إلى منطق.

أوقد إينمان النار حتى توهجت، وعندما أصبح الكوخ مشرقا ودافئا ترك ستوبرود نائما وغادر المكان. خطا على آثاره ذاتها إلى الجدول مرة أخرى واغترف ماء بحفانه ورشه على وجهه. جذب غصينا من فرع شجرة زان وأبلى طرفه بظفر إبهامه ونظف به أسنانه. ثم سار إلى الكوخ المضاء. وقف بالخارج وأنصت لكنه لم يستطع أن يسمع أصواتا. عبأت رائحة الديك الرومى المشوى الهواء.

قال إينمان: هالو؟

انتظر ولم يكن هناك جواب وقالها مرة أخرى. ثم طرق الباب. دفعته روبى لتفتحه باتساع يد وألقت نظرة على الخارج.

قالت: أوه، كما لو كانت تتوقع شخصا آخر.

قال: استيقظت. ولا أعرف كم ساعة نمت. ذلك الرجل بالخلف هناك كان يريد ماء وقد أعطيته بعضا منه.

قالت روبى: لقد نمت اثنتى عشرة ساعة أو يزيد. زلقت الباب لتفسح الطريق ليدخل.

كانت إيدا تجلس على الأرض أمام النار معقودة الساقين، وعندما دخل إينمان رفعت ببصرها إليه. كان الضوء الأصفر على وجهها، وشعرها الداكن سائبا على كتفيها. فكر إينمان أن منظرها مليح بقدر ما يسمح للرجال أن

يروا، وفوجئ به لمدة قصيرة. بدت جميلة للغاية إلى حد أن عظام وجنته آلمته. ضغط مفصل أصبع تحت عينه. لم يعرف ماذا يفعل بنفسه. لم يبد أن أى صيغة سابقة لآداب السلوك تنطبق، سوى أن يخلع قبعته. كان هناك القليل من الرسميات التى يمكن التمسك بها فى كوخ هندى فى عاصفة ثلجية، على الأقل لا رسميات هو على علم بها. ظن انه يحسن به أن يذهب ويجلس إلى جوارها.

ولكن قبل أن يتاح له ما هو أكثر من أن يستقر على رأى ويضع مخلاته فى الركن، نهضت إيدا وخطت على مقربة منه ووقفت أمامه وفعلت شيئا عرف أنه لم يكن لينساه أبدا. مدت يدها خلفه ووضعت كفا على أسفل ظهره. وضغطت الكف الأخرى على بطنه فوق وسط سرواله تماما.

قالت: إننى أشعر بك نحيلا بين يدى.

لم يستطع إينمان أن يفكر فى جواب يندم فيما بعد على أنه لم يكن كافيا.

أبعدت إيدا بيديها وقالت، متى كانت آخر مرة أكلت فيها؟

عدّ إينمان عدا تنازليا. قال، ثلاثة أيام. أو أربعة. أربعة، فيما أظن.

- حسنا، إذن، ستكون جائعا بما يكفى لئلا تقلق بشأن تفاصيل الطهو.

كانت روبى قد أزالت اللحم سلفا عن عظام أحد الطائرين وجثته تسلق فى الوعاء الكبير فوق النار لتعد حساء لستوبرود. ولذا جلست إيدا وإينمان على الأرض بجوار المدفأة وناولته إيدا طبقا من اللحم المنزوع عن الديك الرومى ليشرع فى قضمه. ركعت روبى وانصرفت إلى الوعاء بتركيز شديد. قشدت الرغوة الرمادية من على سطح الماء بمكشطة برتها فى عصر ذلك اليوم من غصن شجرة حور لنقص شجر القرنوس الذى تحتاجه لتؤدى المهمة على الوجه الصحيح. قذفت الرغوة فى النار، حيث هسهست حتى احترقت.

وبينما كان إينمان يأكل قطع الديك الرومى الكبيرة، عملت إيدا فى توليف عشاء حقيقى. وضعت حلقات من التفاح المجفف فى الماء، وبينما كانت تنقع قلَت أقساما من البرغل المتبقى من بقايا الطعام فى الدهن من شريحة من دهن ظهر الخنزير. عندما أصبحت حبيبات البرغل قصمة وبنية اللون عند حوافها،

أخرجتها ووضعت التفاحات فى مقلاة وقلبتها. كانت تطهو وهى معقودة الساقين بعض الوقت، وهى تميل إلى الأمام منصرفة إلى الطعام. ثم استدارت جانبيا ومدت ساقا أمامها مباشرة واحتفظت بالأخرى مطوية.

راقبها إينمان باهتمام بالغ. لم يكن قد تعود بعد على سروالها الرجالى، ووجد الأوضاع التى يسمح لها بها تتطلب نشاطا فى حرية حركتها.

كانت الوجبة التى توصلت إليها إيدا دسمة وبنية اللون، أضفى دخان الخشب ودهن الخنزير عليها نكهة، وكان ذلك النوع من الطعام الذى يتطلبه الانقلاب الشتوى الوشيك الوقوع، طعام يقدم سلوى ضد الأيام القصيرة والليالى الطويلة. انكب إينمان على أكله وهو الرجل الذى يتضور جوعا كما كان حاله، لكنه توقف وقال، ألا تتناولين شيئا؟

قالت، لقد تناولنا غذاءنا منذ بعض الوقت.

أكل إينمان بدون كلام، وقبل أن يفرغ، كانت روبى قد قدرت أن جثة الديك الرومى قد أعطت لماء الجدول كل ما بها من ناحية القوت. غرفت ما يكفى لملء الوعاء الأصغر إلى منتصفه. كان بالحساء حياة الطائر البرى وهو دسم وأغبش، بلون لحم المكسرات المشوية فى مقلاة جافة.

قالت، سوف أرى إن كان بإمكانى أن أجعله يتناول بعضا منه.

تناولت الوعاء من مقبضه ومشت إلى الباب. توقفت قبل أن تخرج وقالت، حان وقت تغيير حشوة ذلك الجرح. وسوف أجلس معه بعض الوقت وهو ما يعنى أننى سأتغيب بعض الوقت.

بعد أن غادرت روبى، بدا المكان أصغر، وجدرانه تنضغط إلى الداخل. لم يستطع أى منها أن يفكر فى أى شىء يقوله. ولوقت قصير، تدفق فى المكان كل المحاذير القديمة ضد ترك شابة وشاب وحدهما فى بيت وجعلتهما يشعران بالحرج. قالت إيدا لنفسها ان تشارلستون، بكل كادراتها من العمات اللاتى يقمن على تنفيذ شعائر معقدة من المرافقة فى حفلات اجتماعية، كانت مكانا

مختلفا، ذا علاقة تماس فحسب مع العالم الذى تعيش فيه الآن. مثل أركاديا أو جزيرة بروسبيرو.

ولكى يكسر الصمت، شرع إينمان يعلق مطريا الطعام، كما لو كان يتناول غذاء فى يوم الأحد. لكنه ما كاد يبدأ يكيل الثناء على الديك الرومى حتى توقف وشعر بأنه أبله. ثم انبثق بداخله، على الفور، توق متعدد الأنواع حتى أنه خشى أن تنسكب كلها فى خليط من الكلمات المخيفة إن لم يغلق فمه ويجد اتجاها ما أفضل لأفكاره.

نهض واتجه إلى مخلاته وأخرج مذكرات برترام وأراها لإيدا كما لوكانت تنهض دليلا على شىء. كانت ملفوفة ومربوطة بعقدة أنشوطية من دوبار قذر وقد ابتلت وجفت وابتلت مرة أخرى لشهور الآن وبدت متسخة وقديمة بما يكفى لأن تحتوى على المعرفة الإجمالية لحضارة ضاعت. أخبرها كيف أنها ساعدته على أن تؤازره فى رحلته، كيف أنه قرأها ليالى كثيرة على ضوء نار مخيم موحش. لم تكن إيدا مطلعة عليها، ووصفها إينمان لها بصفتها كتابا يتعلق بهذا الجزء من العالم ذاته وبكل شىء مهم فيه، تقاسم معها رأيه بأن الكتاب يقترب من القداسة وكان به ثراء بالغ إلى حد أن المرء يمكنه أن يغطس فيه كيفما اتفق ويقرأ جملة واحدة ويكون واثقا مع ذلك أن يعثر على التعليم والمتعة.

ولكى يثبت نقطته، جذب طرف الأنشوطة وترك الطرف المطوى للكتاب الرخو غير المغلف ينفتح. وضع أصبعه على جملة تبدأ، كالمعتاد، بصعود جبل وتستمر فى معظم الصفحة، وبينما كان يقرؤها بصوت عال لم يستطع أن ينتظر ليصل إلى علامة الوقف إذ كان كل ما تتعلق به يبدو عن الجنس، مما جعل صوته ينشرخ ويهدد بأن يتورد وجهه. كانت ما يلى:

بعد أن بلغنا قمته، استمتعنا بمنظر ساحر، امتداد فسيح من المراعى الخضراء وحقول من الفراولة، ونهر متعرج ينساب خلاله، يُحَيِّى فى منحنياته المختلفة الربوات المعشوشبة الخضراء المنتفخة، التى تزينها روضات من الزهور وأحواض الفراولة المحملة بالثمار؛ وأسراب الديوك الرومية تمشى حولها على مهل؛ قطعان من الغزلان تتواثب مرحا فى المراعى أو تقفز فوق التلال؛ جماعات

من صبايا العذارى الشيروكيات البرينات، بعضهن منهمكات فى جمع الفاكهة المعطرة الثرية، والأخريات يضطجعن، بعد أن ملأن سلالهن سلفا، تحت أيكات فطرية عطرة مزهرة من أشجار الماجنوليا والأزاليا والفيلادلفيا والكاليكانثوس المعطرة والياسمين الأصفر الحلو وشجيرات الجيلسين اللازوردى، تكشف عن جمالها للنسيم الخفاق، وتغسل اغصانها فى الجداول سريعة الانسياب، فى حين راحت جماعات أخرى، أكثر مرحا وخلاعة مازالت تجمع الفراولة، أو تطارد رفيقاتها بدعر، يلاعبهن، ويصبغن شفاههن و وجنتاهن بالفاكهة الدسمة

عندما فرغ جلس صامتا.

قالت إيدا، هل كله هكذا؟

قال إينمان، لايكاد يكون أيا من ذلك.

كان مايريده أن يضطجع على سرير الشكران وإيدا إلى جواره وأن يحتضنها بشدة، كما كان برترام فيما يبدو يتوق إلى أن يفعل مع العذارى تحت الأيكات. لكن مافعله إينمان هو أنه لف الكتاب ووضعه فى كوة الجدار مع الكأس الخشبى القديم. وشرع يجمع أدوات الطهى. وقف بها مكومة تتزحزح بين ذراعيه، سأذهب لفرك هذه الأشياء.

ذهب إلى الباب والتفت وراءه. كانت إيدا تجلس بلاحراك، تحدق فى الجمرات. ذهب إينمان فى اتجاه الماء، وقرفص وحك كل قطعة بالرمل الذى جرفه من قاع الجدول الأسود. لم يكن سقوط الثلج قد خف مثقال ذرة. كان ينزل بشدة إلى أسفل مباشرة، وحتى الجلاميد فى الجدول كان يعلوها ريش طويل من الثلج. نفخ إينمان سحبا من الأنفاس خلال قشارات الثلج وحاول أن يفكر فيما يفعله. فقد كان الأمر يتطلب أكثر من اثنتى عشرة ساعة من النوم وعشاء كبيرا لتصلح من شأنه. كان يعلم أن أقصى مايريده هو أن يزيح عن نفسه عبء الوحدة. وقد أصبح مختالا من سيره وحيدا، من توحده، وحشته.

كانت معدته وظهره مازالا يحملان ضغطة كفى إيدا. وبينما كان يقرفص هناك فى ظلام الجبل البارد، بدت تلك اللمسة المحبة مثل مفتاح الحياة على

الأرض. ومهما كانت الكلمات بداخله التى يحتاج إلى أن يقولها، فإنها ترقى إلى لاشىء بالمقارنة إلى لمسة اليدين.

عاد إينمان إلى دخول الكوخ وذهنه مستقر على أن يذهب إلى إيدا وأن يضع يدا على عنقها ويدا على وسطها وأن يجذبها إليه ويوضح بذلك كل رغباته. لكنه عندما أعاد الباب إلى مكانه، أصابه دفء النار وتعقدت أصابعه. كانت خشنة من الرمل، متصلبة من الماء البارد، متجمدة فى أوضاعها مثل كلابات سرطانات الماء السوداء التى رآها فى جولته التفقدية على طول الساحل. مخلوقات كابوسية تلوح بأسلحة مشرشرة باتجاه العالم كله، حتى نوعها ذاته. نظر إلى أسفل إلى الأطباق والأوانى المسطحة والوعاء والمقلاة، ورأى أنها لاتزال تحمل غشاوة من الدهن المتخثر عليها. إذن فقد تبددت جهوده، ويحسن به أن يمكث بالداخل وأن يضع أوانى الطهى مقلوبة على سطوحها فى الجمرات حتى تنظف بالاحتراق.

رفعت إيدا عينيها إليه وراح يراقبها وهى تجذب نَفَسين وتحول عينيها عنه. وأمكنه أن يخمن أن الأمر تطلب كل الشجاعة التى أمكنها أن تستجمعها لتلمسه كما فعلت، أن تأخذه بين يديها. كان يعرف ذلك. فقد شقت طريقها إلى مكان يسوده نظام آخر كلية مختلف عما عرفته دائما. لكنه كان الشخص الذى خط تلك الكلمات فى أغسطس، ويقع عليه الآن عبء أن يجد وسيلة يقول بها ماكان عليه أن يقوله.

أنزل إينمان حمله وذهب إليها.. جلس خلفها ودلك يديه إحداهما فى الأخرى ثم على فخذيه. عقد ذراعيه واحتضن يديه تحتهما وشدهما بإحكام إلى جنبيه. ثم مد ذراعيه من خلفها وبسط يديه للنار وضغط جانبى رسغيه وساعديه على كتفيها.

قال، هل كتبت لى خطابات بينما كنت فى المستشفى؟

قالت، عدة خطابات. خطابين أثناء الصيف ومذكرة قصيرة فى الخريف لكننى لم أكن أعلم أنك كنت هناك حتى كنت قد رحلت. ولذا فإن الخطابين الأولين ذهبا إلى فيرجينيا.

قال، لم يجدانى هناك. أخبرينى عما كانا بشأنه.

أوجزت إيدا محتوياتهما، وإن لم يكن ملخص الخطابين بالدقة كما كانا. وصفتهما كما يمكن أن يكونا لو أنها استطاعت أن تنقحهما من منظورها الحالى. كانت فرصة نادرا ما تتيحها الحياة، أن تعيد كتابة حتى شقفة من الماضى، ولذا فإنها استخدمتهما خير استخدام. كانت الخطابات، فى شكلهما المنقح، باعثين على ارتياح أكبر لكليهما عما يمكن أن يكون عليه أصلاهما. أكثر بوصا بتفاصيل حياتهما، أكثر عاطفية فى حساسيتهما، أكثر ثقة ومباشرة فى تعبيرهما. أكثر اجمالا. لكنها، على الرغم من ذلك، تركت المذكرة دون أن تقول عنها شيئا.

قال إينمان عندما فرغت، أود لو أننى تسلمتهما. وبدأ يردف قائلا إنهما كانا يخففان عنه بعض الأيام السيئة، لكنه لم يكن يريد أن يتكلم عن المستشفى فى تلك اللحظة بالذات.

عرَّض يديه للمدفأة الدافئة وعد إلى الوراء كم من الشتويات ظلت مظلمة وباردة. قال. مضت ست وعشرون سنة منذ أوقدت نار هنا.

أتاح ذلك لهما موضوعا للحديث. جلسا برهة مرتاحين معا وتحدثا مثلما يتحدث الناس فى خرائب الماضى، وهما يتملكهما الشعور الذى لايمكن تجنبه وهو أننا هنا لوقت قصير، وقد مضى وقت طويل. تخيلا النار الأخيرة التى احترقت فى المدفأة، ووزعا أدوار الممثلين الذين تخيلوهما يجلسون أمامها. عائلة شيروكية. أم، أب، أطفال، جدة عجوز. أضفوا عليهم شخصيات متفردة لكل منهم، مأساوية أو كوميدية بما يلائم الحكاية التى كانا يحكيانها. جعل إينمان من واحد من الصبية صبيا يشبه سويمر تماما. شخصية غريبة صوفية.. أرتاحا لتلفيق حياة للعائلة المتخيلة التى كانت أكثر تكاملا بالغريزة عما يمكنهما هما أن يحققاه ابدا بمجهود شاق. وفى قصتهما عن العائلة، أسبغ إينمان وإيدا عليها هواجس داخلية بنهاية عالمها. وعلى الرغم من أنه صحيح أن كل عصر يعتبر العالم فى حال مقلقل، على حافة الظلام تماما، فإن إيدا وإينمان ارتابا فى أن يكون الإحساس بنهاية، فى أى زمن سابق فى التاريخ، مبررا مثلما كان

عندئذ. وقد تحققت مخاوف أولئك الناس تماما. فلقد عثر عليهم العالم الأوسع هنا، بل مختبئين هنا، ونزل عليهم بكل ثقله.

وعندما فرغا، جلسا هادئين برهة وشعرا بالإحساس غير المريح بأنهما يشغلان فراغا تكشفت فيه حياة ناس ثم اختفت.

وبعد فترة قصيرة أخبرها إينمان بكل مااستطاع أن يفكر فيه على طول طريق العودة إلى الوطن هو الأمل فى أن تقبل به، أن تتزوجه. لم يغب هذا عن ذهنه، وزاره فى أحلامه. لكنه قال انه لايستطيع أن يطلب منها الآن أن ترتبط به. لابشخص مشوش العقل كما يعرف عن نفسه.

قال، إن ماأخشاه هو أننى دمرت بحيث لايمكن رأب الصدع. وإذا كان الأمر كذلك، فسوف نكون فى زمن قصير تعيسين وممتلئين بالمرارة.

تزحزحت إيدا واستدارت ونظرت إليه من فوق كتفها. كان قد فك ازرار ياقته من الدفء، وكان هناك الجرح الأبيض فى رقبته. وجراح أخرى فى سيماء وجهه وفى عينيه، اللتين لم تشاء أن تلتقيا بعينيها.

استدارت وأولته ظهرها. كان ماتفكر فيه هو أن فى عالم الطبيعة توجد كل أنواع المداواة. فكل ركن وشق فيها ممتلئ فيما يبدو بدواء ودواء مجدد للصحة ليرأب الشقوق الخارجية.. وحتى أكثر الجذور خفية أو نسيجا يفى بغرض. وهناك روح تبعث من الداخل لتحيك ندبة عنيدة فوق الجوانب الخلفية للجراح. ومع ذلك، ففى كلا الحالين عليك أن تعمل من أجل مثل هذا الإصلاح. وسوف يخذلك كلاهما لو داخلك الارتياب فيهما أكثر من اللازم. وقد اكتسبت ذلك من روبى، على الأقل.

وفى النهاية، ودون أن تنظر إليه، قالت: أعرف أن، الناس يمكن ترميمهم. لا كلهم، وبعضهم على الفور أكثر من غيرهم. لكن يمكن ترميم بعضهم. ولاأرى لم لاتكون أنت؟

قال إينمان: وكأنه يختبرالفكرة، ولم لا أكون أنا؟

أبعد يديه من حيث مدهما ليستدفئا عند النار ولمس وجهه بأنامله ليرى إن كانت لاتزال باردة مثل أطراف عقد نتوءات الجليد المتدلية. وجدها دافئة عكس توقعه. لم يشعر بأنها تشبه أجزاء من سلاح على الإطلاق. مد يده إلى شعر إيدا الداكن، الذى كان يستلقى على كتفيها مرسلا، ولمه فى حزمة كثيفة فى يده. رفعه بيد، وبأنامل اليد الأخرى لمس برفق تجويف عنقها بين الوترين اللذين ينسابان إلى داخل كتفيها، وعقصات الشعر الدقيقة.. مال إلى الأمام ولمس بشفتيه تجويف عنقها.. ترك الشعر يرتد إلى مكانه وقبل قمة رأسها ورشف عطر الشعر الذى يذكره. مال إلى الخلف وجذبها إليه، وسطها فى بطنه، وكتفاها فى صدره.

عنكت رأسها تحت ذقنه، واستطاع أن يشعر بثقلها يسكن فيه. ضمها إليه بشدة وانسابت منه الكلمات دون إنشاء مسبق. وفى هذه المرة لم يبذل أى جهد حتى يشد بإحكام على فكيه ويضغطهما ضغطا مؤلما. أخبرها عن المرة الأولى التى شاهد فيها مؤخرة عنقها وهى تجلس فى مقعد الكنيسة. عن الشعور الذى لم يغب عنه أبدا منذ ذلك الوقت. حدثها عن إهدار سنين هائل بين ذلك الحين والآن. وقال إن التفكير فى كيف كان يمكن استغلال تلك السنين أفضل استغلال لاطائل منه، فلم يكن بإمكانه بالكاد أن يستغلها استغلالا أسوأ. ولم يكن هناك مجال لتعويض الوقت الضائع. فبإمكانك أن تحزنى بلا نهاية على ضياع الوقت وعلى التلف الذى أحدثته فيه. من أجل الموتى، ومن أجل ذاتك الضائعة أيضا. ولكن ما تقوله حكمة العصور إننا نعمل خيرا بألا نحزن بلا انقطاع. قال إينمان: وأولئك الناس القدامى كانوا يعرفون أمرا أو أمرين وكان لديهم حقيقة ماينبئوننا بها، فبإمكانك أن تبلى قلبك من الحزن، وتظلى تراوحين فى مكانك فى نهاية الأمر. وكل حزنك لم يغير شيئا. فما فقدته لن يعاد إليك. سيظل أبدا ضائعا. ولايبقى لك سوى ندوبك تسم الخواء. وكل مايمكنك أن تختارى عمله هو أن تستمرى أم لا، ومع ذلك، فعلى امتداد كل تلك السنين التى ضاعت سدى، احتفظ فى ذهنه برغبته فى أن يقبلها هناك على مؤخرة رقبتها، وقد فعل ذلك الآن. كان هناك تكفير من نوع ما، فيما يعتقد، فى مثل هذا التحقيق الكامل لرغبة ظلت مؤجلة طويلا.

لم تتذكر إيدا ذلك الأحد بخصوصية كبيرة، مجرد أحد من أحاد كثيرة. لم يكن هناك ما يمكنها أن تضيفه إلى ذكراه عن ذلك اليوم لتجعل منه ذكرى مشتركة. لكنها كانت تعلم أن مافعله إينمان فى حديثه هو أن يرد لها بطريقته اللمسة التى منحتها له عندما دخل الكوخ. مدت يدها خلفها وأزاحت الشعر عن كتفيها وعن عنقها وأمسكت به برسغها على مؤخرة رأسها. ومالت برأسها إلى الأمام قليلا.

قالت: افعل ذلك مرة أخرى.

وقبل أن يتمكن إينمان من أن يفعل، صدر صوت عند الباب. وما أن زحزحته روبى عن إطاره وأدخلت رأسها، حتى كانت إيدا تجلس معتدلة مرة أخرى وقد أسدلت شعرها على كتفيها. تطلعت روبى إلى الاثنين، إلى حرجهما وغرابة جلوسه خلفها.

قالت، هل تريدانى أن أعود إلى الخروج وأسعل؟

لم يقل أحد شيئا. أغلقت روبى الباب ووضعت الوعاء على الأرضية. أزاحت الثلج من على معطفها وطرقت قبعتها على ساقها.

قالت روبى: لقد هبطت درجة حرارته الآن بعض الشىء. لكن هذا لا يدل على كثير. فهى ترتفع وتهبط.

نظرت روبى إلى إينمان. قالت: لقد قطعت بعض الأغصان وأعددت سريرا أكثر ملاءمة من مجرد حشية من البطانيات. توقفت ثم أضافت، أحسب أن شخصا ما يمكنه أن يستخدمه.

التقطت إيدا عصيا خشبية ونخست النار ثم وضعت العصى بداخلها لتحترق.

قالت لإينمان، اذهب انت. أعرف أنك متعب.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه كان متعبا، فإنه قضى وقتا عصيبا وهو يحاول أن ينام. راح ستوبرود يشخّر ويتمتم بنتف من جوقه على لحن كمان أبله، لم

يكن – حسب أفضل تفسير استطاع إينمان أن يتوصل إليه – أكثر من هذا: كلما صعد القرد إلى أعلى، بانت تم– ت– تم– تم– تالا– لا أكبر. كان إينمان قد سمع رجالا يقولون كل أنواع الأشياء وهم غارقون فى ظلام جرح غائر، كل الأشياء من صلوات إلى لعنات. لكن هذا اللحن نال جائزة الهزل الأحمق.

حاول إينمان أن يقرر، فى فواصل الصمت، أى فترة فى المساء يمكنه أن يمعن النظر فيها بإسهاب بأكبر قدر من الاستمتاع. يد إيدا على بطنه أو طلبها منه قبل أن تفتح روبى الباب مباشرة. كان لايزال يحاول أن يقرر عندما غلبه النعاس.

رقدت إيدا مستيقظة وقتا طويلا هى الأخرى. تفكر أى عدد من الأفكار. أن إينمان كان يبدو أكبر سنا عما ينبغى أن تعلله أربع سنوات، نحيلا ومتجهما للغاية ومنقبضا بداخله. وفكرت لوقت قصير أنها ينبغى أن تقلق على فقدان جمالها، على أنها أصبحت داكنة اللون ومفتولة العضلات وخشنة. ثم فكرت فى أنك تواصل حياتك يوما بعد آخر، وبعد وقت قصير تصبح شخصا آخر، وذاتك السابقة أشبه بقريب وثيق القربى فحسب، أخت أو أخ، تقاسمت معه ماضيا. لكنك شخص مختلف، حياة منفصلة. ومن المؤكد أنها لا هى ولا إينمان كانا من كانا عليه فى آخر مرة كانا معا. واعتقدت أنها ربما يروق لها كلاهما أكثر الآن.

انتفضت روبى فى سريرها وتقلبت واستقرت ثم استدارت مرة أخرى. اعتدلت جالسة ونفخت بإحباط. قالت: لا أستطيع النوم. وأعرف أنك مستيقظة هناك تفكرين أفكارا غرامية.

قالت إيدا: أنا مستيقظة.

قالت روبى: مايحول بينى وبين النوم هو أننى أفكر فيما أفعله معه لو عاش.

قالت إيدا: مرتبكة، مع إينمان؟

– مع أبى. فجرح مثل هذا سوف يشفى ببطء. ولمعرفتى به، فإنه سيبقى فى السرير مدة أطول من اللازم. ولا أستطيع أن أقرر ماذا أعمل معه؟

قالت إيدا: سوف نأخذه إلى البيت ونعنى به هو الجواب. وفى حالة الأذى التى هو عليها، لن يأتى أحد ليبحث عنه. ليس فى وقت سريع. ولابد أن تنتهى هذه الحرب يوما ما.

قالت روبى: أنا ممتنة لك.

قالت إيدا: لم تكونى ممتنة لأحد قبل ذلك أبدا. ولايهمنى أن أكون الأولى. مجرد شكراً تكفى.

قالت روبى: وذلك أيضا.

ظلت هادئة فترة قصيرة ثم قالت، كم من ليلة وأنا صغيرة، وحدى فى الكوخ، وددت لو استطعت أن آخذ ذلك الكمان الذى يخصه إلى المرتفع وأن أقذف وأدع الريح تحمله بعيدا. وفى ذهنى أننى كنت أراقبه يسقط فحسب حتى يصبح مجرد ذرة، ثم أفكر فى الصوت العذب الذى يصدره وهو يتحطم إربا على صخور النهر هناك إلى أسفل بعيدا.

طلع فجر اليوم التالى رماديا وأشد برودة أيضا. لم يعد الثلج يراق بشدة من السماء فى قشارات ممتلئة، بل نزل ناعما ودقيقا مثل جريش مطحون يسقط من بين أحجار الرحى ناموا جميعا فى وقت متأخر، وتناول إينمان طعام الإفطار فى كوخ المراتين، حساء ديك رومى مع مزقات من الديك فيه.

ثم، فى وقت متأخر من الصباح، أطعمت إيدا وإينمان الحصان وذهبا للصيد معا. كانا يأملان أن يقتلا مزيدا من الطيور أو غزالا، إذا كانا محظوظين إلى أبعد حد. صعدا التل ولم يجدا شيئا يتحرك فى الغابات، ولاحتى آثار حيوان على الثلج العميق. صعدا خلال أشجار القسطل إلى داخل أشجار التنوب وصعدا على الحافة. تبعا نتوءها حيث تتقوس. ولم يكن هناك طرائد مع ذلك ولكن بضعة عصافير تزقزق عاليا فى أغصان شجر التنوب وحتى لو أمكنك أن تقتل واحدا، فلن تكون سوى مضغة من لحم رمادى، ولذا فإنهما لم يبددا طلقة.

وصلا فى آخر الأمر إلى صخرة مسطحة بارزة عند حافتها، وكسح إينمان الثلج عنها وجلسا معقودى الأرجل يواجه أحدهما الآخر، ركبهما متلاصقة،

وغطاء الأرضية الذى كان إينمان يحتفظ به فى صرته خيمة فوقهما، مستقرا على قمتى رأسيهما. وكان الضوء الذى يتخلل نسيجها بنى اللون ومعتما. أخرج إينمان حبات الجوز من مخلاته وكسرها بحجر فى حجم قبضة يده، والتقطا لحمها وأكلاه. وعندما فرغا، وضع يديه على كتفى إيدا ومال للأمام ولمس جبينها بجبينه. ولفترة قصيرة فقط كانت أصوات الثلج التى ترتطم بغطاء الأرضية تكسر الصمت، لكن إيدا بدأت تتكلم بعد برهة.

كانت تريد أن تخبره كيف آل بها الحال إلى ماهى عليه.. كانا مختلفين الآن كان بحاجة إلى أن يعرف هذا. أخبرته بموت مونرو، والنظرة التى ارتسمت على وجهه فى المطر وبتلات القرنوس المبللة. أخبرت إينمان بقرارها ألا تعود إلى تشارلستون، عن الصيف، وكل شىء عن روبى.. عن الجو والحيوانات والنباتات والأشياء التى بدأت تتعرف عليها. كل الأساليب التى تتشكل بها الحياة. كان بإمكانك أن تقيم حياتك ذاتها على ملاحظتها. كانت لاتزال تفتقد مونرو أكثر مما تستطيع قوله، وأخبرت إينمان بأشياء مدهشة عنه. لكنها أخبرته أيضا بشىء مروع: أنه حاول أن يبقيها طفلة وأنه نجح فى ذلك، بمقاومة ضئيلة منها.

قالت إيدا: وهناك شىء تحتاج أن تعرفه عن روبى. فمهما حدث بينك وبينى، فإننى أريدها أن تبقى فى الخليج الأسود طالما شاءت. وإذا لم تغادر أبدا فإن ذلك من دواعى سرورى. وإذا رحلت فسوف أتفجع على غيابها.

قال إينمان: السؤال هو هل يمكنها أن تتحمل وجودى فى المكان.

قالت إيدا: أظن أنها يمكنها إذا لم تفهم أنت أنها خادمة أو أجيرة فهى صديقتى. لاتتلقى أوامر، ولاتفرغ جرار الليل سوى جرتها هى.

غادرا الصخرة وواصلا رحلة الصيد، متجهين إلى الأرض الواطئة فى مستنقع رطب مشبع برائحة الأماكن التى ينمو فيه عشب الجالاكس، ما يطين خلال أجمات متناثرة من الغار الملتف إلى جدول ضيق. سارا حول شجرة شكران ساقطة تمتد عبر أرضية الغابات. كان حوض النباتات الجذرية ينتصب عاليا فى الهواء مثل جملون بيت مائل، ويطبق بإحكام على الجذور التى ترتفع عدة أقدام فى الهواء أحجارٌ أكبر من براميل الويسكى.

وأسفل ذلك التجويف، وجدت إيدا موقعا لنبات الختم الذهبى، أوراقه التى تشبه أقدام الغراب ذابلة لكن يمكن تحديدها حيث برزت من خلال الثلج الأكثر نحولا فى جانب شجرة الحور الذى يحجب الريح، وهى شجرة ضخمة الجذع تتطلب خمسة أشخاص يمسكون بأيدى أحدهم الآخر فى دائرة حتى يحيطوا بها.

قالت إيدا، إن روبى بحاجة إلى الختم الذهبى من أجل أبيها.

ركعت عند الشجرة وانتزعت النباتات عنوة بيديها، وقف إينمان يراقبها، كان منظرا بسيطا. مجرد امرأة تركع على ركبتيها تنبش الأرض، ورجل طويل القامة يقف ويتطلع فيما حوله منتظرا. ولو لم يكن هناك قماش معطفيهما الذى اشترياه من أحد المتاجر، لأمكن أن يكون المكان أى مكان فى الزمن على الإطلاق. بضع سمات قليلة للغاية توضح أى عهد معين.. نفضت إيدا التراب عن الجذور الشاحبة ووضعتها فى جيبها.

حدث وهى تقف أن اكتشفت الرمح فى شجرة الحور. عبرته إيدا بعينيها تقريبا، ميزته على أنه غصين مكسور، لأن جزاء من قصبة الرمح كانت باقية، رغم أنها لم يكن بها ريش. كان خشبها قد تعفن نصف تعفن، وإن كان لايزال مرتبطا براس السهم بلفات محكمة من أوتار. سن مدبب من الصوان الرمادى، نحت فى شكل تجويفات. مثالى فى تناسق شكله مثلما يمكن أن يكون عليه شىء صنع يدويا. كان غائصا بمقدار بوصة فى الشجرة، وبعض ذلك من نمو الشجرة حوله بندبة لها قشرة. لكن مايكفى منه ظل مكشوفا لرؤية أن رأسه كانت عريضة وطويلة. ليست إلا طرفا مستدقا صغيرا. صوبت إيدا إليه أصبعا لتجذب انتباه إينمان.

قال إينمان: سهم لقتل الغزلان. أو لقتل رجل.

بلل إبهامه على لسانه ومرره عبرالجزء المكشوف للحافة القاطعة مثل شخص يتحقق من شحذ مدية جيب.

قال: يمكنه أن يقطع لحما بعد.

أثناء الحرث وتمهيد التربة فى أواخر الصيف، كانت إيدا وروبى قد استخرجتا أى عدد من الأطراف المستدقة أو مكشطات، لكن هذا بدا لها بشكل ما مختلفا، كما لو كان لايزال حيا بسبب وضعها. تراجعت إيدا ونظرت إليه حسب قواعد المنظور. ورغم أنه يوجز الكثير، فإنه لايزال بعد شيئا صغيرا للغاية.

طلقة أخطأت المرمى من مائة عام مضت. ربما أكثر. أو من زمن ليس ببعيد إذا نظر إليها نظرة صحيحة. خطت إيدا إلى الشجرة ووضعت أصبعا على طرف قصبة الرمح وهزته. ثابت.

كان من الممكن وضع السهم فى إطار بصفته أثرا قديما، جزءا من عالم آخر، وفعلت إيدا شيئا من هذا. رأته بصفته شيئا يعد سلفا من بين أشياء كانت يوما ما.

لكنه لم يبد هكذا تماما بالنسبة لإينمان. قال: جاع شخص ما. ثم تساءل، هل كانت أخطاء المرمى ترجع إلى نقص فى المهارة؟ يأس؟ تزحزح الريح؟ ضوء سيئ؟

قالت إيدا: علِّم هذه البقعة فى ذهنك.

وواصل إينمان حديثه ليوصى بأن يعودا إلى زيارة المكان خلال حياتهما ليتحققا من تقدم العفن على طول قصبة الرمح، ونمو خشب شجرة الحور الأخضر حول السن الصوانى.. وصف مشهدا مستقبليا، هو وإيدا وقد تقوس ظهراهما، رماديين بلون الرماد، يحضران أطفالا إلى الشجرة فى عالم مستقبلى معدنى من نوع ما، لايستطيع حتى أن يتخيل ملامحه السائدة. وبحلول ذلك الوقت سيكون الرمح قد اختفى. تساقط. ولكن شجرة الحور لاتزال عنيدة بعد، قد نمت مستديرة حتى تحيط بالحجر كلية. ولاشىء ظاهر للعيان سوى ندبة ناتئة فى اللحاء.

لم يكن باستطاعة إينمان أن يتخيل لمن يكون الأطفال، لكنهم سيقفون مسحورين ويشاهدون العجوزين يقطعان فى الحور الرخو بسكينيهما

ليستخرجا ملء مغرفة من الخشب الجديد، ثم يرى الأطفال، فجأة، النصل الصوانى كما لو كان قد استحضر بالسحر. قطعة فنية صغيرة ذات هدف واضح، هكذا تخيلها إينمان. وعلى الرغم من أن إيدا لم يمكنها تصور ذلك الزمن البعيد فإن بوسعها أن تتخيل الدهشة على وجوه الصغار.

قالت إيدا، وهى مستغرقة فى القصة التى يحكيها إينمان: هنود. سيقول الزوجان العجوزان فحسب، هنود.

عاد إلى القرية عصر ذلك اليوم بلا طرائد. كل ما أمكنهما إظهاره من نزهتهما كان الختم الذهبى والحطب. كانا يجران الخشب خلفهما وهو ينحت شرائط وخطوطا فى الجليد. أغصانا كبيرة من شجرة قسطل وأغصانا أصغر من شجرة أرز. وجدا روبى جالسة إلى جوار ستوبرود. كان إلى حد ما مستيقظا وبدا عليه أنه يعرف إيدا وروبى، لكنه خاف من إينمان.

قال: من ذلك الرجل الضخم الداكن اللون؟

ذهب إينمان وجلس القرفصاء بجانب ستوبرود حتى لايلوح ضخما فوقه.

قال: أعطيتك ماء. أنا لا أطاردك.

قال ستوبرود: حسنا.

بللت روبى قطعة قماش ومسحت على وجهه وتململ مثل طفل من ذلك. هرست قطعا من الختم الذهبى وحشتها فى الجروح ونقعت قطعا أخرى فى شاى وجعلت ستوبرود يشربه. وعندما فرغت غلبة النعاس على الفور.

نظرت إيدا إلى إينمان، إلى التعب البادى على وجهه. قالت، أعتقد أنه ينبغى عليك أن تفعل نفس الشىء.

قال إينمان، فقط على ألا تدعينى أنام إلى ما بعد الظلام. خرج، وبينما كان الباب مفتوحا كان بوسع إيدا وروبى أن تريا الثلج خلفه، يخطط الهواء وهو يتساقط.. أمكنهما أن يسمعا الأصوات التى يحدثها وهو يكسر الفروع، وفى وقت قصير فتح الباب مرة أخرى. وضع ملء ذراع من خشب القسطل بالداخل

تماما ثم غادر. أوقدتا النار وجلستا معا لمدة طويلة وظهراهما على جدار الكوخ، ملتفتين ببطانيتين.

قالت إيدا: أخبريني عما سنفعله بعد ذلك، عندما يحل الجو الدافئ. أى أشياء نرتب بها المكان؟

التقطت روبى عصا ورسمت خريطة فى التراب، الخليج الأسود. وضعت فيها الطريق والبيت ومخزن الغلال، وخدشت مساحات توضح الحقول الحالية، قطع أرض الأخشاب، البستان. ثم تحدثت، وكانت رؤياها رؤيا من الوفرة وكيفية تحقيقها. أن تقايضا على بغلين. أن تستصلحا الحقول القديمة من الأعشاب المهلهلة والسوماق. أن تنشئا حقول خضروات جديدة. أن تشرعا فى العمل على مزيد قليلا من الأرض الجديدة. أن توسعا البستان. أن تزرعا مايكفى من الذرة والقمح لتغطية حاجاتهم من الخبز. أعوام وأعوام من العمل. لكنهم سيرون يوما ما الحقول تقوم عالية فى الصيف بالمحاصيل. دجاجات تنقر فى الفناء، بقرات ترعى فى المرعى، وخنازير تبحث عن طعامها من ثمر البلوط على جانب التل. كثيرة للغاية إلى حد أن يمكنهم الحصول على مجموعتين: خنازير للحم المقدد، أرجلها نحيلة وخواصرها طويلة؛ وخنازير من أجل أفخاذها، على وشك التزاوج وبدينة، وبطونها تتأرجح على الأرض. جوانب من اللحم المقدد والأفخاذ تتدلى كثيفة فى بيت تدخين اللحوم؛ ومقلاة جيدة ومشحمة طول الوقت أعلى الموقد. وتفاحات مكومة فى بيت التفاح، وجرار وراء جرار مرصوصة على أرفف فى بيت التعليب. وفرة.

قالت إيدا: سيكون منظرا باعثا على الابتهاج.

مسحت روبى الخريطة بكفها. جلستا صامتتين، وبعد برهة سقطت روبى فجأة واستندت على كتف إيدا بكتفها وأغفت، متعبة من مجهود التخيل. جلست إيدا وراحت تشاهد النار وتنصت إلى فرقعتها وهسيسها، وفيما بعد سقوط الجمرات القصيم. شمت رائحة دخان الخشب العذبة وفكرت فى أن الانتباه إلى تفاصيل العالم مقياس لنجاح المرء، إذا استطاع المرء أن يتعرف على الأشجار من رائحة دخانها. سيكون ذلك مهارة يتوق المرء إلى أن يبرع فيها بكل سعادة.

كان هناك أشياء أكثر سوءا يعرفها الواحد. أشياء تحدث ضررا بالآخرين وبالمرء ذاته فى نهاية الأمر.

عندما استيقظت روبى، كان الوقت متأخرا عصرا، مظلما تقريبا.

اعتدلت فى جلستها وطرفت بعينيها ودلكت وجهها وتثاءبت. ذهبت لتتحقق من ستوبرود. لمست وجهه وجبهته، وأزاحت الأغطية ونظرت إلى جراحه.

قالت، لقد عاودته الحمى. ستكون الليلة أزمة، فيما أعتقد. سوف يمكث أو يرحل، لكن الليلة ستكون حاسمة. يحسن بى ألا أتركه.

أتت إيدا ووضعت رسغها على جبهة ستوبرود. لم تستطع أن تشعر بفرق عن الاختبارات السابقة. نظرت إلى روبى، لكن روبى لم تكن لتبادلها النظرة.

كان الظلام قد حل حين سارت إيدا باتجاه مجرى الخليج إلى الكوخ. كان الثلج يتساقط قشارات، ومايرقد منه على الأرض عميقا بحيث كان عليها أن تسير على نحو غير مريح، أن تخطو بركبتين مرفوعتين إلى أعلا، على الرغم من أنها تطأ آثار الأقدام السابقة. كان الثلج يحتفظ بأى ضوء يأتى من خلال السحب حتى أن الأرض بدت مضاءة بشكل متساو من داخلها، نيرة مثل فانوس من الميكا شبه الزجاجية. فتحت الباب بهدوء ودخلت. كان إينمان يرقد نائما، ولم يتحرك، والنار قد خبت.. وأمامها، رأت إيدا أشياءه منشورة لتجف مثل أشياء معروضة فى متحف، كأن كل واحد منها يحتاج إلى فراغ حوله ليكشف عن معناه الحقيقى ويُقَيِّم بشكل صحيح. ثيابه، حذاؤه، قبعته، مخلاة مئونته، المخلاة التى يحملها على ظهره، عدة الطهو، السكين الغمدية، المسدس الكبير القبيح بأجزائه المصاحبة له: قضيب التنظيف، علبة المتفجرات، نبل التشحيم، خراطيش، مواد الحشو، بارود، خردق صيد الأيائل لماسورة البندقية. ولكى يكتمل عرضها، كانت بحاجة إلى إنزال برترام من كوته ووضعه بحذاء المسدس. وبطاقة بيضاء مطبوعة تصنف ما يراه المرء: المشرد وعُدّته.

خلعت إيدا معطفها ووضعت ثلاثة فروع من شجرة الأرز على النار ونفخت فى الجمرات. ثم ذهبت إلى إينمان وركعت إلى جواره، كان يرقد ووجهه إلى

الحائط. وفاح فراش فروع الشكران برائحة حادة ونظيفة والابر مكسورة تحته. لست جبينه، وملَست شعره إلى الخلف، ومررت أصابعها على جفنيه وعظام وجنتيه وأنفه وشفتيه وذقنه الخشنة الشعر. أزاحت البطانية ووجدت أنه قد خلع قميصه، وضغطت بكفها على جانب رقبته، ندبة جرحه المشدودة. مررت يدها أعلى كتفه وأمسكت به بشدة واحتوته هناك.

استيقظ ببطء. تزحزح فى الفراش واستدار ونظر إليها وبدا أنه فهم نيتها، ولكن عندئذ وعلى غير إرادته فيما يبدو، أغمضت عيناه وعاد إلى النوم.

كان العالم مكانا موحشا للغاية إلى درجة لا تصدق، وبدا أن مجرد رقودها إلى جواره، وجلداهما متلامسان، هو الشفاء الوحيد. اجتاحت عقل إيدا الرغبة فى أن تفعل ذلك. وعندئذ، ارتعد بداخلها شىء قريب من الذعر، مثل أوراق شجر ترتجف فى الريح. ولكنها نُحته عنها وقامت وشرعت تفك زرار وسطها وصَفَ أزرار فتحة سروالها الطويلة الغريبة.

اكتشفت أنه رداء لا يمكنك خلعه برشاقة. انفكت الرجل الأولى بسهولة، ولكن عندما حولت وزنها فجأة من قدم إلى قدم فقدت توازنها وكان عليها أن تتواثب مثل غراب لتستعيده. نظرت باتجاه إينمان ووجدت أن عينيه مفتوحتان، تراقبانها. وشعرت بأنها حمقاء وودت لو كانت فى الظلام بدلا من وقوفها أمام ألسنة النار الصفراء الواطئة التى تنبعث من نار الأرز المدخنة. أو أنها كانت ترتدى ثوبا نسائيا يمكنها أن تدعه يسقط فى شلال صغير ناعم حولها. غديرا عند قدميها يمكنها ان تخطو خارجه. لكنها كانت واقفة هناك وسروال مونرو لا يزال يصر حول إحدى ساقيها.

قالت، أدر ظهرك.

قال إينمان، ولا مقابل كل دولار ذهبى فى الخزانة الاتحادية.

استدارت بعيدا عنه، عصبية ومرتبكة. ثم أمسكت ثيابها أمامها، بعد أن تعرت، واستدارات استدارة جانبية إليه.

اعتدل إينمان فى جلسته والبطانية حول وسطه. كان قد عاش مثل رجل ميت وكانت هذه حياة أمامه، قربانا فى متناول يده.. مال إلى الأمام وجذب الملابس

من يديها وجذبها إليه. وضع الجزء المستوى من كفه على مقدمتى فخذيها، ثم حرك يديه إلى أعلى على خاصرتيها وأراح ساعده على عظمتى حرقفتيها ومس بأنامله المنخفض عند مستدق ظهرها. حرك أصابعه إلى أعلى ولمس عُقَد عمودها الفقرى واحدة واحدة. لمس باطنى ذراعيها، ومرر يديه أسفل جنبيها حتى استقرتا على تموج ردفيها. مال برأسه على ليونة بطنها. ثم قبلها هناك وكانت رائحتها رائحة دخان خشب الجوز. جذبها إليه وضمها وضمها. وضعت يدا على مؤخرة عنقه وضمته بشدة أكبر ثم ضغطت ذراعيها البيضاوين حوله كما لو كان ذلك إلى الأبد.

بدا الكوخ الدافئ الجاف فى طية الجبل الذى يشغله، والثلج يتراكم فى الخارج، مثل مرفأ آمن حقا، على الرغم من أنه لم يكن كذلك للناس الذين عاشوا هناك. فقد عثر عليهم الجنود وجعلوا من الكوخ رأس درب إلى ممر من النفى، والضياع والموت. ولكنه كان لفترة قصيرة تلك الليلة، مكانا لا يضم بين جدرانه ألما أو حتى ذكرى ألم مبهمة.

وبعد ذلك، رقدت إيدا وإينمان مغزولين معا على فراشهما من فروع شجر الشكران. كان الكوخ القديم مظلما تقريبا، وفروع الأرز تدخن فى المدفأة وعَرَق الشجر الساخن يفوح برائحة كأن شخصا ما قد مر خلاله وهو يؤرجح مبخرة. فرقعت النار. وهسهس الثلج وتنهد وهو يسقط. وعملا ما يعمله العشاق فى أغلب الأحيان وهما يظنان أن المستقبل يمتد إلى مالانهاية أمامها مشرقا مثلما كان فى منتصف نهار الخلق: تكلما بلا انقطاع عن الماضى، كما لو كان كل منهما ينبغى أن يحيط علما بأعمال الآخر السابقة قبل أن يمكنهما أن يتحركا إلى الأمام قدما مقترنين.

تحدثا خلال أغلب الليل، كما لو كانا مكلفين بحكم القانون أن يسردا بأدق التفاصيل طفولتهما وشبابهما: وصوراهما كلاهما كما لو كانا أناشيد ريفية. حتى حرارة أوقات الصيف الوحشية الحارة الرطبة فى تشارلستون اكتسبت عنصرا دراميا فى رواية إيدا عنها. عندما وصل إينمان إلى سنى الحرب، على الرغم من ذلك، فإنه وضحها بتفصيل رواية الصحف الهزيل فحسب- أسماء

الجنرالات الذين كانوا قواده، تحركات الجند الواسعة النطاق، فشل ونجاح الخطط الاستراتيجية المختلفة، قوة الحظ الأعمى المتكررة الحدوث فى تحديد أى الجانبين يسود. كان مايريد إيدا أن تعرفه هو أن بإمكانك أن تروى مثل هذه الأشياء بلا انقطاع ومع ذلك لاتصل إلى الحقيقة الكاملة للحرب أكثر مما يمكنك الوصول إلى الحقيقة الكاملة لحياة دبة من خلال تتبع آثارها فى الغابات. علامة مخلب على شجرة نحل ورغيف كبير من *النمس* المشحم تتخلله بذور توت صفراء يقصان حلقات قصيرة وربما مضللة فى مسلسل الغموض الكبير الأسود الذى يحيط بالدبة نفسها. فلا يمكن لأى رجل، ولاحتى لو قطعت كل الطريق إلى جنرال لى، أن يصف بدقة أكثر من يد أمامية فظة واحدة من أيدى الدب- مخالبها السوداء الخطافية، وسادات القدم المشققة الممتلئة، الشعر الخشن اللامع الذى يتقوس على أطراف المخلب.. وتصور إينمان أنه هو نفسه ربما يعرف شيئا سريع الزوال مثل نَفَسها. فلا أحد يمكنه أن يعرف التمام أكثر مما يمكننا أن نعرف حياة أى حيوان، فكل منها يسكن عالما يخصها لاعالمنا.

وكل ما أراد إينمان أن يقصه له طبيعة شخصية كان قصصا صغيرة مثل ذلك الوقت الذى قضاه أثناء مخيم شتوى فى عام اثنين وستين عندما اشتعلت مدخنة كوخه المبنية من الطين والعصى، وسقط السقف اللحائى الطحلبى مشتعلا عليه وعلى رفاقه النائمين وجروا وهم يشهقون ويضحكون إلى الخارج فى البرد مرتدين سراويلهم الداخلية وراحوا يراقبونه وهو يحترق ويقذف أحدهم الآخر بكرات الثلج، وعندما خبت النار ألقموها سياجات السور ليظلوا مستدفئين خلال الليل.

سألته إيدا إن كان قد رأى المحاربين العظماء المشهورين. أشباه الآلهة المزعومين لى، جاكسون الجهم، ستيوارت المزوَّق، لونجستريت المتبلد الحس. أو النجوم الأصغر، بيلام المأساوى، بيكيت المثير للشفقة.

كان إينمان قد رأى الجميع فيما عدا بيلام، لكنه أخبر إيدا أنه ليس لديه ما يقوله عنهم، لاعن الأموات منهم ولا الأحياء. لا ولم يكن يعبأ بأن يعلق على قادة الاتحاديين، على الرغم من أنه كان قد رأى بعضهم من على بعد وعرف الباقين

من أعمـالهم. كان يرغب فى أن يعيش حياة يمكن أن يوجد بها أقل القليل من الاهتمام بعصـابة واحدة من الطغاة يشنون هجمات أحدهم على الآخر، لا ولم يكن يريد أن يعدد الأفعال التى اقترفها هو نفسه. فقد كان يريد أن يحكم على نفسه بمقياس آخر يوما ما، فى زمن لايموت فيه الناس بهذه الكثرة.

قالت إيدا، أخبرنى إذن عن رحلة عودتك الطويلة إلى أرض الوطن.

فكر إينمان فى الأمر، لكنه عندئذ ترك نفسه يتخيل أنه قد وصل أخيرا إلى الجانب الآخر من العناء ولم تكن به رغبة فى أن يعود إلى زيارته، ولذا فإنه اخبرها فقط كيف راح يراقب على طول الطريق ليالى القمر ويعدها إلى أن يصل إلى ثمان وعشرين ثم يشرع فى العد من جديد، كيف كان يشاهد كوكبة الجوزاء تصعد إلى أعلى فى منحدر السماء ليلة بعد ليلة، كيف حاول أن يمشى بلا أمل وبلا خوف لكنه فشل بشكل تعيس، فقد قضى على الاثنين. ولكن كيف حقق فى أفضل أيام سيره بعض النجاح فى التوفيق بين أفكاره وبين الجو، سواء كان مظاما أو مشرقا، حتى يتناغم مع أى سحاب أو تألق يقضى به الله.

ثم أضـاف، قـابلت عـددا من الناس على الطريق. كـانت هناك امرأة ترعى عنزات أطعمتنى، وزعمت أنها علامة من علامات رحمة الله أنه لن يدعنا نتذكر أكثر تفاصيل الألم احمرارا فى اللون. فهو يعرف الأدوار التى لايمكننا أن نتحملها ولن يدع عقولنا تمثلها مرة أخرى. فمع مرور الوقت، ومع إهمالها، فإنها تشحب. كان تفكيرها على الأقل على هذا النحو، أن الله يلقى على عاتقك مالايحتمل ثم يسترد بعضا منه.

استماحته إيدا عذرا فى أن تختلف معه فى جزئية من أفكار امرأة العنزات. قالت، أظن أنك يجب أن تساعده على أن تنسى. عليك أن تعمل على الا تحاول أن تستدعى مثل هذه الأفكار، فلو أنك استدعيتها بشدة كافية لجاءتك.

عندما استنفدوا الماضى مؤقتا، تحولا إلى المستقبل. تحدثا عن كل أنواع الأشياء المأمولة. كان إينمان قد رأى فى فيرجينيا منشرة خشب، متنقلة وتعمل بالطاقة المائية. فحتى فى الجبال، كانت البيوت المبنية من ألواح الخشب تتجاوز الطلب على الزنود الخشبية، ولذا فإنه فكر فى أن مثل هذه المنشرة ستكون شيئا

رائعا إذا حصل عليها. فبإمكانه أن يسحبها إلى أرض أى رجل وأن يقيمها وأن ينشر لبناء بيت من أخشاب الرجل نفسه. سيكون فى ذلك اقتصاد، وإرضاء للرجل أيضا، فبإمكانه أن يجلس فى بيته الكامل البناء وأن يبتهج بكل جزء فيه لأنه جاء من أرضه ذاتها. وكان بوسع إينمان أن يتقاضى الثمن نقدا، أو إذا لم يتوافر ذلك فإنه يمكنه أن يتقاضى الثمن خشبا، يمكنه بعدئذ أن ينشره ويبيعه. وكان يستطيع أن يستدين من أسرته لشراء المعدات.. لم تكن خطة سيئة. فقد أثرى كثيرون على أقل من هذا.

وكانت هناك خطط أخرى. فسوف يرسلان فى طلب كتب تتناول موضوعات كثيرة: الزراعة، الفن، علم النبات، الرحلات. وسوف يتصديان للآلات الموسيقية: الكمان والجيتار أو ربما الماندولين. وإذا عاش ستوبرود، فيمكنه أن يعلمهما، وكان إينمان يتوق إلى تعلم اللغة الإغريقية. سيكون ذلك أمرا جديرا بالمعرفة. وبإمكانه أن يواصل به جهود باليس. أخبرها عن قصة الرجل بالمستشفى، ساقه المقطوعة ورزمة الورق التى خلفها عند موته المحزن. قال إينمان فى ختام حديثه، إنه ليس كلاما بلا معنى أن يقال إنها لغة ميتة.

استمرا يتحدثان. وكان موضوع مناقشتهما هو الزمن. تحدثا بالتفصيل عن زواج متخيل، والسنين تمر هانئة وآمنة. ترتيب الخليج الأسود طبقا لمواصفات روبى. وصفت إيدا الخطط بالتفصيل، وكان كل ما يرغب إينمان فى تنقيحه هو غياب العنزات، فهو يود أن يربى القليل منها، اتفقا على ألا يحفلا الآن بالطريقة التى تدبر بها الزيجات عادة. فسوف يفعلان ما يحلو لهما وأن يديرا حياتهما بدورات المواسم. ففى الخريف ستكون أشجار التفاح متألقة ومحملة بالتفاح وسوف يصطادان الطيور معا، حيث إن إيدا قد أثبتت نجاحها مع الديوك الرومية. ولن يصطادا بسلاح مونرو الايطالى المتأنق ولكن ببنادق بسيطة ودقيقة يرسلان فى طلبها من إنجلترا. وفى الصيف سيصطادان أسماك التروت بعدة الصيد من نفس هذا البلد الرياضى. وسوف يهرمان معا وهما يقيسان الزمن بفترات حياة سلسلة متعاقبة من كلاب صيد الطيور المنقطة. وعند نقطة ما، بعد أن يتجاوزا منتصف العمر بكثير، ربما يتصديان لرسم اللوحات وأن يحصلا على علب ألوان مائية قصديرية صغيرة يمكن حملها، وأيضا من انجلترا. أن

يخرجا فى نزهات سيرا على الأقدام فى الريف، وعندما يريان منظرا يبهجهما، يتوقفان ويغترفان ماء بأقداح من مياه خليج ويشكلان خطوطا وألوانا خفيفة على ورق للرجوع إليها فى المستقبل. أن يتباريا معا ليريا من منهما يمكنه أن يصور المنظر فنيا بنجاح أكبر. استطاعا أن يتصوروا بواخر تمخر عباب شمال الأطلنطى الذى لايؤتمن لحقب زمنية ما لتجلب لهما أدوات تسلية رائعة. أوه، الأشياء التى يمكن أن يفعلاها.

كان كلاهما قد بلغ عمرا إلى حد أنهما كانا يقفان على قمة منحنى. وكان بوسعهما أن يظنا فى جزء من عقليهما أن حياتهما كلها تمتد أمامهما بلا حد فاصل أو حد أقصى. وفى نفس الوقت خمن جزء آخر أن الشباب قد أوشك أن يولى بالنسبة لهما وأن ما يمتد أمامها بلد آخر كلية، تضيق فيه الإمكانيات لحظة بلحظة.

أرواح غريان، ترقص

ما أن حل صباح اليوم الثالث فى القرية حتى كانت السحب قد تبددت وصفت السماء وسطعت شمس مشرقة. بدأت الثلوج تذوب تساقطت وثرات من قطن من فروع الأشجار المائلة، وطوال اليوم جاء صوت الماء ينساب تحت الثلوج على الأرض. وارتفع قمر المساء هلالا من خلف حافة الجبل، وسقط ضوؤه زاهيا إلى درجة انه أرسل ظلالا هشة لجذوع الأشجار وفروعها على الثلج. لم يبد الليل المتلألئ نقيضا للنهار بل تنويعا جديدا عليه، وفدا مفوضا.

رقدت إيدا وإينمان تحت الأغطية بعض الوقت مجدولين يتحدثان، والنار واطئة وباب الكوخ مفتوحا، تاركا شبه منحرف متألقا من ضوء القمر البارد يسقط على فراشهما. أعدا خطة لهما، استغرقت مناقشتها معظم الليل. تحرك شكل الضوء عبر الأرضية وتغيرت زواياه، وعند نقطة ما أعاد إينمان الباب إلى مكانه وأذكى النار. وعلى الرغم من الوقت الذى استغرقه وضع الخطة، فأنها كانت بسيطة وليست بحال من الأحوال فريدة من نوعها بالنسبة لهما. فقد توصل أزواج من العشاق فى تلك الأيام الأخيرة إلى استنتاجات متطابقة، لأنه لم يكن هناك سوى ثلاثة سبل للاختيار من بينها، كل واحد منها خطر وفى حد ذاته مرير.

كان المنطق الذى اتبعاه بسيطا. كانت الحرب قد خسرت تقريبا ولا يمكن أن تستمر شهورا أكثر كثيرا. وقد تنتهى فى الربيع وقد لا تنتهى. ولا يمكن لخيال أن يتصور أنها ستستمر بعد أواخر الصيف. وكانت الخيارات هى. كان بوسع إينمان أن يعود إلى الحرب. فمع نقص الأيدى كما كان الحال عليه سيستقبلونه بأذرع مفتوحة ويعيدونه إلى الخنادق الموحلة فى بيترزبورج، حيث يحاول ألا يتهور ويأمل فى نهاية مبكرة. أو كان بإمكانه أن يمكث مختبئا فى الجبال أو فى الخليج الأسود كمشرد وأن يصاد مثل دب أو ذئب أو قط جبلى. أو بوسعه أن يعبر الجبال شمالا ويسلم نفسه للاتحاديين، اللقطاء الذين قضوا أربع سنوات يطلقون عليه النار. سوف يطلبون منه أن يوقع باسمه على قسم الولاء لهم، لكنه عندئذ ينتظر حتى تنتهى الحرب ويعود إلى الوطن.

حاولا أن يستنبطا خططا أخرى، لكنهما نسجا أوهاما فحسب. أخبر إينمان إيدا عن حلم فيسى بتكساس، عن مظهرها الوحشى وحريتها والفرصة المتاحة فيها. كان بوسعهما أن يحصلا على حصان ثان، وعدة تخييم، ويشرعا فى الرحيل غربا. وإذا اتضح أن تكساس كئيبة فهناك إقليم كولورادو، ويومنج. إقليم نهر كولومبيا العظيم. لكن الحرب كانت هناك أيضا. ولو كان لديهما مال، لاستطاعا أن يبحرا إلى مكان مشمس بعيد، إلى اسبانيا أو إيطاليا. لكنهما لم يكن لديهما مال وكان هناك الحصار. وكملاذ أخير، كان بوسعهما أن يصوما على مدى عدد الأيام المنصوص عليها وأن ينتظرا أن تفتح لهما مداخل الصخور المتألقة وترحب بهما فى أرض السلام.

وأخيرا، اعترفا بأن هناك حدودا للأشياء. فقد كانت الاختيارات الثلاثة الأصلية هى كل الاختيارات التى تسمح بها الحرب. رفض إينمان الاقتراح الأول بصفته مرفوضا. ونقضت إيدا الاقتراح الثانى بصفته أخطرها فى تقديرها. ولعدم وجود خيار آخر، فإنهما استقرا على الخيار الثالث. من فوق الحافة الزرقاء. ثلاثة أيام أو أربعة من المشى المطرد، ملتزما بدروب البرية، ثم يعبر حدود الولاية. أن يرفع يديه ويحنى رأسه ويقول أنه قد ضرب بالسياط. أن يقوم بتحية علمهم المخطط الذى حاربه ماوسعه. وأن يتعلم من وجوه العدو أن الرجل

الذى يُجلد عموما، على عكس تعاليم الأديان المختلفة، يشعر بارتياح أكبر عن الرجل الذى يتلقى الجلد، مهما كان من المخطئ فى ذلك الأمر.

قالت له إيدا، لكن هناك ذلك أيضا. أن الوعاظ والنساء العجائز يعتقدون أن الضرب يولد الشفقة. وهم على حق. يمكن أن يكون الأمر كذلك. لكنه يولد أيضا الصلابة. هناك اختيار لدرجة ما.

وفى النهاية، كان ما أقسما عليه هو أن يتذكرا أن العودة إلى الوطن ستكون بعد بضعة أشهر من تلك اللحظة. أنهما سينطلقان من هناك إلى أى عالم جديد خلفته الحرب وراءها. وأن يجعلا دورهما يتوافق مع رؤاهما للمستقبل التى ناقشاها فيما بينهما خلال الليلتين السابقتين.

وفى اليوم الرابع لهما فى القرية، بدأت رقاع من أوراق الشجر البنية اللون والتراب الأسود تتفتح عن رقاع مكشوفة، وأتت إليها أسراب من طيور كاسر البندق وطيور القُرقُف وراحت تنقر شيئا على الأرض التى تكشفت. فى ذلك اليوم أمكن ستوبرود أن يجلس دون مساعدة وأن يتكلم كلاما له معنى جزئيا، وهو ما قالت روبى إنه كل مايمكنك أن تتوقعه منه، حتى فى أكثر عنفوان صحته تألقا. كانت جراحه نظيفة بلا رائحة وأبدت أمارات على أنها سرعان ما تلتئم. وأمكنه أن يأكل طعاما صلبا، على الرغم من أن كل ما تبقى لديهم كان قليلا من الجريش وخمسة سناجب أطلقت روبى عليها النار ونظفت أحشاءها وسلختها. كانت قد سفدتها فى عصى وشوتها برءوسها عليها فوق جمرات من خشب القسطل، وفى ذلك المساء أكلت روبى وستوبرود وإينمان أنصبتهم كما يمكنك أن تأكل قولحة ذرة. جلست إيدا دقيقة وتفحصت نصيبها. كانت الأسنان الأمامية صفراء وطويلة. لم تكن معتادة على أكل أشياء بأسنانها لاتزال عليها. راقبها ستوبرود وقال، إن تلك الرقبة تنقطم فى الحال، إذا كانت تزعجك.

وما إن حل فجر اليوم الخامس، حتى كان الثلج قد اختفى أكثر من نصفه. كات هناك إبر أشجار كثيفة على أكوام الثلج التى بقيت تحت أشجار الشكران، واللحاء على الجذوع مخطط بالبلل وأسود من ذوبان الثلج. كانت سحب عالية قد ظهرت بعد يومين مشمسين، وأعلن ستوبرود أنه على استعداد للرحيل.

قالت روبى، ست ساعات للوصول إلى البيت. سبع على أكثر تقدير.. ذلك إذا أخذنا فى الاعتبار المشى المتوعك والتوقف قليلا للراحة.

افترضت إيدا أنهم سيذهبون جميعا كفريق، لكن إينمان رفض ذلك رفضا باتا.

قال، إن الغابات تبدو خالية أحيانا، ثم ممتلئة أحيانا أخرى. يمكنكما انتما الاثنان أن تذهبا حيث تشاءان دون أن يزعجكما أحد.. إننا من يريدونهما (وهو ينقر بإبهامه فى اتجاه ستوبرود). ليس هناك معنى لأن نعرض الجميع للخطر.

رفض رفضا باتا إلا أن تسيرا إيدا وروبى فى الطليعة. وسوف يأتى خلفهما بعد قليل مع ستوبرود منفرج الساقين على الحصان. وسينتظران فى الغابات حتى حلول الظلام.. وفى صباح اليوم التالى، إذا بدا الجو مبشرا بالخير، فسوف يرحل ليستسلم.. وتحتفظان بستوبرود فى البيت مختبئا عن الأنظار، وإذا لم تكن الحرب قد انتهت بمجرد أن تلتئم جراحه، يرسلانه عبر الجبل ليلحق بإينمان.

لم يكن لستوبرود رأى فى الموضوع، لكن روبى قدرت أن ما قاله إينمان معقول، وهكذا فعلوا. رحلت المرأتان سيرا على الأقدام، ووقف إينمان وراقبهما يصعدان المنحدر.. وعندما اختفت إيدا بين الأشجار، بدا كأن جزءا من ثراء العالم قد اختفى معها. فقد ظل وحيدا فى العالم وخاويا وقتا طويلا. لكنها ملأت حياته إلى أقصى حد. ولذا فإنه اعتقد أن كل ماسلب منه ربما كان لغاية، أن يجلو حيزا لشىء أفضل.

انتظر برهة ثم حمَّل ستوبرود على الحصان وتبعه. ركب ستوبرود أحيانا وذقنه تتواثب على عظمة القص وجلس أحيانا مرفوع الرأس وعيناه متألقتان. مرا حول البركة، وكانت متجمدة والثلج لايحمل أثر ذكر بط أو حتى جثة ذكر بط. فقد غرق أو غاص إلى القاع الموحل أو طار بعيدا. لم يكن هناك ماينبئ بأى من هذا، على الرغم من أن إينمان تصوره وهو يرفرف بجناحيه ويصارع ثم يرتفع فى السماء، وهو يجر خلفه قشورا من الثلج التصقت بأنسجة قدمه الصفراء المشدودة.

عندما وصلا إلى مفرق الدرب، نظر ستوبرود إلى شجرة الحور الهائلة وإلى توهجات خشب نسغها المتألقة حيث جذت الرصاصات اللحاء. قال، شجرة كبيرة ابنة عاهرة.

مرا بجوار قبر بانجل. وكان يرقد فى الظل على المنحدر الشمالى، والثلج لايزال يغطيه ويكاد يصل إلى المفصل المثبت فى الصليب الذى أعدته إيدا من فروع السنط. أشار إينمان إليه فحسب، ونظر إليه ستوبرود وهما يمران. أخبره كيف كان بانجل يزحف لينام خلف ظهره فى الكهف. والصبى لا يلتمس أكثر من الدفء والموسيقى. ثم قال ستوبرود، لو أن الله شرع أن يقتل كل رجل على الأرض بحسب نقائصه، لجاء ذلك الصبى فى آخر الصف.

واصلا سيرهما بضعة أميال، وسحب قائمة تدوِّم فوقهما، والممر وعر وشديد الانحدار. وصلا إلى مكان اصطفت فيه أجمات الغار على جانبى الممر وتقوست فوقه مثل سقف نفق. ونباتات الجالاكس كثيفة على الأرض، أوراقها لامعة داكنة الحمرة. وأوراق الغار منطبقة فى شكل أنابيب من البرد.

خرجا من النفق إلى قطعة أرض صغيرة منظفة، وواصلا السير ثم سمعا أصواتا خلفهما، استدارا، وكان هناك فرسان يخرجون ليملأوا الدرب.

قال ستوبرود، يا الله الرحيم.

قال تيج، ذلك رجل يصعب قتله. يشبه الموت وقد دبت فيه الحرارة، رغم ذلك.

نظر ستوبرود إلى الكشافين وقد أعيد تشكيل هيئاتهم إلى حد ما. ظل تيج والفتى الذى يحتفظ به إلى جواره. كانوا قد فقدوا رجلا أو اثنين وكسبوا رجلا أو اثنين منذ أن أطلقوا عليه النار. تعرف ستوبرود على وجه من كهف المشردين، نفاية بيضاء. وكان الحرس قد كسبوا أيضا كلبين غير متوافقين. كلب ضخم لتعقب آثار المجرمين، أذناه متدليتان، وكلبة ذئبية، لها ما يشبه لحية من الأسلاك. جلس الكلبان مترهلين وبطريقة عرضية. ثم بدون تحريض من أى أحد سوى نفسها، نهضت الكلبة الذئبية وبدأت تسير بانحراف باتجاه إينمان وستوبرود.

جلس تيج منفرج الساقين على حصانه، واللجام متراخ فى يده اليسرى. استخدم اليد الأخرى ليعبث بقادح زناد بندقيته القصيرة من نوع سينسر، كما لو كان غير واثق إذا ما كان جذبه إلى آخره أمرا يتطلبه الموقف.

- نحن فى غاية الامتنان لك وللصبى لتوجيهنا إلى مهاجمة ذلك الكهف. مكان لطيف وجاف للجلوس بعيدا عن الثلج. غيرت الكلبة الذئبية اتجاهها فجأة ودارت، دون أن تتحرك بسرعة، آتية بزاوية. لم تكن نظراتها تلتقى بنظراتهما، لكن كل ما تفعله يدنيها منهما أكثر.

تطلع إينمان فيما حوله ليعاير منحنيات ارتفاع الأرض ليرى كيف كانت تضاريسها مهيأة للقتال، وتعرف على نفسه كما كان فى أرض العنف المألوفة. كان يريد جدارا حجريا. ولم يكن هناك واحد. تفحص الحرس وعرفهم من النظرة المرتسمة فى أعينهم. لم يكن هناك معنى للحديث مع هؤلاء الرجال. فاللغة لن تغير شيئا، لا أكثر من إصدار أصوات جوفاء فى الهواء. ولا معنى للانتظار.

مال صوب ستوبرود وأتى بحركات ليتفحص الرسن وحبل مقود الحصان.

قال هامسا، تشبث بكل قوتك.

ضرب الحصان بشدة على كفله بقبضة يده اليسرى، وجذب مسدسه بيده اليمنى. وبمنحنى حركة واحد أطلق النار على الكلبة الذئبية التى تتجه نحوه ثم أطلق الرصاص على واحد من الرجال. لم يكن هناك وقت بالكاد بين دوى الطلقتين لكى تطرف بعينيك. سقطت الكلبة والرجل مثل مصروعين. ولم يتحركا إلا قليلا حيث سقطا. انطلق ستوبرود بالحصان مجفلا بطول الدرب مثل رجل يروض حصانا عمره ثلاث سنوات ليتعود على السرج.

حلت لحظة سكون، ثم قدر هائل من الهرج. قفزت كل الجياد وأخذت خطى فى أماكنها وخلفياتها مضمومة تحتها. لم يكن لديها أى اتجاه مشترك، ولكنها كانت بحاجة ماسة إلى أن تذهب إلى مكان ما غير هذا المكان. جرى كلب تعقب الأثر بين قوائمها وكدر صفوها أكثر، ثم رُكل فى رأسه وسقط يعوى.

جذب الراكبون الأعنة ليكبحوا جماح الجياد. تطلع الحصان الخالى الذى سقط عنه راكبه فيما حوله باحثا عن توجيه، ولكنه، حين لم يجد أى توجيه، تحرك فجأة ليعدو على غير هدى. ولم يكن قد ابتعد ثلاث خطوات، مع ذلك، قبل أن يدوس على عنانه الذى يتجرجر على الأرض وتعثر فى الجياد الأخرى، وراحت كلها تصهل وتدور، وحاول الراكبون أن يتشبثوا فحسب.

هجم إينمان دون إبطاء على فريق الكشافين المرتبك. لم يكن هناك ستر يستحق التسمية، مجرد أشجار نحيلة. لا جدار يلجأ خلفه. لا اتجاه يذهب فيه سوى إلى الأمام، لاوقت سوى الآن. لا أمل فى أن يفعل أى شىء سوى أن يعدو داخلا فى وسطهم وأن يحاول قتلهم جميعا.

وبخطوة واسعة، أطلق النار على راكب وأسقطه عن السرج. لم يبق إلا ثلاثة، أحدهم بدا يتقهقر بالفعل، أو أن حصانه جمح. انطلق يعدو وثبا جانبيا، صاعدا التل إلى داخل موقع لأشجار الجوز.

كان الراكبان الباقيان مجتمعين معا، وقفز جوادهما مرة أخرى عند سماع صوت الطلقة النارية الجديدة ثم سقط أحد الجياد وهو يصهل ويضرب فى التراب بحوافره ليستعيد قائمتيه الخلفيتين تحته. كان راكبه ينتزع رجله، يستخرجها اعتصارا ليرى التلف الذى أصابها حيث سقط الحصان عليها. وعندما لمس طرف عظمة عارية مشرشر، صرخ بألم مبرح، وكان جزء من صرخته مجرد أصوات وجزء آخر كلمات، وكانت تلك صلوات لله وتعليقات غليظة على ثقل وزن الحصان. صرخ بصوت عال يكاد يخمد صوت صهيل الحصان.

دار الحصان الآخر بحيث تعذر التحكم فيه. دار فى دائرة ضيقة ورأسه ملتوية وحوافره متجمعة تحته. راح تيج يجذب العنان بشدة بيد واحدة وأمسك بندقيته القصيرة مرفوعة باليد الأخرى. كان قد فقد ركابا، وضوء النهار ينفذ بينه وبين سرجه. كان على وشك أن يسقط، وأطلق عيارا لا إراديا فى الهواء. قفز الحصان مرة أخرى كما لو كنت قد خزقته بسيخ محمى. بل دار أسرع.

جرى إينمان إلى المكان الساكن الذى دار الحصان حوله. دفع يده إلى أعلى وانتزع البندقية القصيرة من يد تيج وتركها تسقط على الأرض. التحمت عيناه وعينا تيج، ومد تيج يده المتحررة إلى حزامه وجذب سكينا طويلا وصرخ، سألطخ نصل سكينى سوادا من دمك.

استقدح إينمان زناد الطلق النارى من مسدس لى مات وأطلق النار. كاد المسدس الكبير يقفز من يده، كما لو كان يحاول أن يفر هاربا. أصاب العيار تيج فى صدره وشقه: سقط وهو يتقلب على الأرض ورقد كومة، وحجل حصانه خطوات مبتعدا ووقف وبياض عينيه باد، وأذناه مثبتتان على رأسه.

استدار إينمان ونظر إلى الرجل الذى يعوى. كان يولول الآن بلعنات يستمطرها على إينمان وينبش الأرض محاولا الوصول إلى مسدسه الذى يرقد فى وحل جليدى. مال إينمان والتقط البندقية السبنسر من طرف ماسورتها.. أرجحها بيد واحدة وأصاب الرجل فى جانب رأسه بالجزء المسطح من دعامة كعبها، وكف الرجل عن العواء. التقط إينمان مسدس الرجل ودسه فى وسط سرواله.

كان الحصان قد انتصب واقفا على قوائمه مرة أخرى. كان رمادى اللون وفى الضوء الخافت بدا مثل شبح حصان. ذهب ووقف بحذاء الجياد الأخرى التى لايركبها أحد، وبدت كلها مذهولة إلى حد أنها لم تحاول الهرب تأرجحت إلى الأمام والخلف، وهى تبحث عن أى إشارات يمكن تفسيرها على أنها مواساة لها.

تطلع إينمان فيما حوله باحثا عن الراكب الأخير. توقع أن يكون الرجل قد رحل من زمن طويل، لكنه وجده بعيدا فى أكثر أجزاء موقع أشجار كثافة، على بعد مايقرب من خمسين ياردة. كان بعيدا بما يكفى لأن يجعل طلقة من مسدس أمرا مشكوكا فيه. كان لايزال هناك ثلوج تحت الأشجار ارتفعت منها شبورة وأيضا من بطانة لبدة سرج الحصان، ومن خطمه نفختان من نَفَس. كان الحصان فرسا بقعاء، تناسقت بشكل طيب للغاية مع الثلوج والأشجار ورقاع

الأرض المكشوف إلى حد انها بدت كما لو كانت تذوب فيها. وخلف أشجار الجوز، صخرة قطرانية مكسورة شديدة الانحدار.

حاول الراكب أن يناور ليجعل بينه وبين إينمان شجرة، لكنه نجح فى ذلك نجاحا جزئيا. ففى الأوقات التى كان فيها معرضا للخطر، كشف عن أنه لا يعدو أن يكون صبيا. كان بوسع إينمان أن يرى أنه قد فقد قبعته. كان أبيض الشعر. بدا أن به دما ألمانيا أو هولنديا، ربما أيرلنديا أو نتاجا ما من تلاقح أقارب فى كورنوول.. لايهم. لم يكن أمريكيا صرفا، بشرة بيضاء، شعر أبيض، وقاتل. لكنه بدا كما لو كانت حلاقة ذقنه الأولى لاتزال تنتظره فى المستقبل، وكان أمل إينمان ألا يضطر لإطلاق النار على صبى.

قال إينمان بطبقة صوت مرتفعة تكفى لأن تُسمع: اخرج من هناك.

لاشىء.

ظل الصبى خلف الأشجار. كل ما كان ظاهرا هو كفل الحصان ورأسه وقد شطرته شجرة الجوز. خطا الحصان خطوة إلى الأمام ثم جذب الصبى العنان.

قال إينمان: تعال. لن أطلب منك ذلك مرة ثانية. ألق بأى أسلحة لديك ويمكنك أن تعود إلى بيتك راكبا.

قال الصبى، لا، ياسيدى. هنا مكان جيد.

قال إينمان: ليس بالنسبة لى. ليس جيدا على الإطلاق. سوف أطلق الرصاص على حصانك فحسب. وسوف يجعلك هذا تخرج من مخبئك.

قال الصبى، أطلق عليها النار إذن. إنها ليست ملكى.

قال إينمان، اللعنة. إننى أبحث عن طريقة لا أقتلك بها. بإمكاننا أن نفعل هذا حتى أننا بعد عشرين سنة ربما نلتقى مصادفة فى البلدة ونشرب كأسا معا ونتذكر هذا الزمن الأسود ونتحسر عليه.

قال الصبى، لايمكننا وقد ألقيت مسدسى. فسوف تطلق على النار على كل حال.

- أنا لست واحدا منكم جميعا وليست هذه هى الطريقة التى أتصرف بها. لكننى سوف أقتلك قبل أن أهبط هذا الجبل وأنا قلق فى كل خطوة أخطوها أنك وراء الصخرة تسدد رصاصة إلى رأسى.

قال الصبى، أوه، كنت لأكذب عليك لو قلت إننى لن أفعل.. كنت لأكذب.

قال إينمان، حسنا، هذا هو القول الفصل. فسوف يكون عليك أن تخترقنى لتخرج من هناك.

ذهب إينمان والتقط البندقية السبنسر وتفحص خزانة البندقية فى كعبها الغليظ ووجدها فارغة.. خرطوشة نحاسية مستهلكة فى خزانة الضغط. ألقاها على الأرض ونظر إلى اسطوانة مسدس لى مات. ست حشوات بقيت من تسع. أخرج خرطوشة ورقية من جيبه وقضم طرفها وترك البارود ينساب فى الماسورة الكبيرة ثم دفع ورقة الطلقة فى الماسورة ودكها فى مكانها بقضيب تنظيف البندقية وثبت كبسولة نحاسية على نبل التشحيم.

وقف معتدل القامة وانتظر.

قال: سيكون عليك أن تخرج من خلف تلك الشجرة فى وقت ما.

وبعد لحظة خطا الحصان إلى الأمام. حاول الصبى أن يخترق الغابة وأن يدور عائدا إلى الدرب. جرى إينمان ليقطع عليه الطريق. كان هناك مجرد رجل يمتطى حصانا ورجل يجرى على قدميه يطارد أحدهما الآخر فى الغابات. كانا يستخدمان الأشجار وتضاريس الأرض، وظلا يناوران جيئة وذهابا، وهما يحاولان أن يصلا إلى إطلاق رصاصة بلا عوائق لكنهما يحاولان أيضا ألا يقتربا أكثر من اللازم أحدهما من الآخر.

كانت الفرس مرتبكة ولديها ماتريده، أولها أن تذهب وتقف كتفا لكتف مع الجياد الأخرى المذعورة. قضمت على الشكيمة التى بين أسنانها، واندفعت من حيث كان الصبى يحاول أن يرشدها بالزمام، وجرت باتجاه إينمان مباشرة. عندما اقتربت منه، جفلت نصف إجفالة ثم حفَّت الصبى فى جذع شجرة جوز وكسحته من على السرج. عندما انفكت الشكيمة فى فمها، نهقت مثل بغل وخبَّت وذهبت إلى الجياد الأخرى وتلامست أنوفها وارتجفت.

رقد الصبى فى الجليد حيث سقط. ثم هم بالجلوس وتلاعب فى كبسولات ومستقدح زناد مسدسه.

قال إينمان، ضع ذلك الشىء على الأرض. كان قد استقدح زناد إطلاق الرصاصة، والفوهة مصوبة إلى الصبى.

نظر الصبى إليه وكانت عيناه خاويتين مثل دائرة من الثلج متجمدة على قمة دلو. بدا وجهه أبيض وأكثر شحوبا فى هلالّى عينيه. كان شيئا صغيرا ديدانيا أشقر، شعره مقصوص قصيرا كما لو كان يصارع أخيرا قمل الرأس. وجه أجوف.

لم يتحرك فى الصبى شىء سوى يده، وكانت تتحرك بأسرع مما يمكنك رؤيتها.

رقد إينمان فجأة على الأرض.

جلس الصبى ونظر إليه ثم نظر إلى المسدس في يده وقال، ياإلهى. كأنه لم يحسب أبدا حسابا لأنه يؤدى وظيفته مثلما فعل.

سمعت إيدا أصوات إطلاق النار على مسافة بعيدة، أصواتا جافة ونحيلة مثل عصى تتكسر. لم تقل شيئا لروبى. استدارت فجأة وجرت. طارت قبعتها من على رأسها وواصلت عدوها وتركتها على الأرض مثل ظل خلفها. التقت بستوبرود وهو يقبض على معرفة رالف قبضة مستميتة، على الرغم من أن الحصان أبطأ عدوه.

قال ستوبرود، هناك إلى الخلف. وواصل طريقه.

عندما بلغت المكان، كان الصبى قد جمع الجياد سلفا ورحل. ذهبت إلى الرجال الملقين على الأرض ونظرت إليهم، ثم وجدت إينمان منفصلا عنهم. جلست وأمسكت به فى حجرها. حاول أن يتكلم، لكنها أسكتته. ظل يغفو ويصحو وحلم حلما متألقا ببيت. كان به نبع ماء بارد يخرج من صخرة، حقول سوداء التربة، أشجار طاعنة فى السن. بدت السنة فى حلمه كما لو كانت تحدث كلها فى وقت واحد، وكل الفصول تمتزج معا. أشجار التفاح تتدلى مثقلة

بالثمار، لكنها تزدهر بعد على نحو ليس له تعليل، والثلج يغطى حافة النبع، ونباتات البامية مزهرة بألوان صفراء وحمراء داكنة، أوراق أشجار القبقب حمراء فى أكتوبر، وقمم الذرة تكسوها شرابات، وكرسى محشو جذب إلى مدفأة قاعة الاستقبال متوهجة، واليقطينات تلمع فى الحقول، وأجمات الغار مزهرة على جوانب التلال، وضفاف ترابية ممتلئة بزهرات المجزاعة البرتقالية، وزهور بيضاء على أشجار القرنوس، أرجوانية على أشجار الزمزريق. كل شىء يبعث إلى الحياة فى آن واحد. وكانت هناك أشجار بلوط بيضاء، وعدد كبير من الغربان، أو على الأقل أرواح الغربان، ترقص وتغنى فى الفروع العليا، وكان هناك شىء يريد أن يقوله.

كان أى مراقب موجود أعلى جبين الحافة ينظر إلى أسفل على لوحة بعيدة ساكنة فى الغابات الشتوية. خليج، بقايا جليد. فَرجة فى غابة، معزولة عن البشر بوجه عام. عاشقان. الرجل مضطجع برأسه فى حجر المرأة. وهى تمسد الشعر عن جبينه، وهى تنظر فى عينيه. وهو يمد ذراعا غير رشيق فى حركته ليطوق الجزء الطرى من ردفها. منظر من الهدوء والسلام للغاية إلى حد أن المراقب الذى يقف على الحافة بوسعه أن يجاهر به فيما بعد بطريقة يمكن أن تؤدى بأولئك الذين يملكون رهافة حس مبتهجة أن يتخيلوا تاريخا ما يمكن تصوره تمتد فيه حقب طويلة من الزواج السعيد أمام الاثنين اللذين يجلسان على الأرض.

خاتمة
أكتوبر، ١٨٧٤

حتى بعد كل هذا الوقت وقد اجتمع الأطفال الثلاثة معا، ومازالت إيدا تجدهم يضم أحدهم الآخر فى أشد اللحظات غرابة. فى علّية مخزن الغلال بعد أن يفككوا أعشاش طيور السنونو الطينية المقوسة. خلف بيت تدخين اللحوم بعد إذكاء النار بقولحات ذرة مبتلة أو فروع شجرة الجوز. وفى وقت مبكر من هذا اليوم، كان ذلك فى الخارج فى حقل البطاطس أثناء تكسير الأرض بمعزقات كبيرة تنبش الأرض. كانوا يقفون بشكل لا رشاقة فيه وقد باعدوا ما بين أقدامهم فى الأخاديد، وكل منهم يعانق الآخر بذراع، ويقبض على المعزقات باليد المتحررة.

فى أول الأمر فكرت إيدا أن تبدى تعليقا ساخرا ما. هل أنا بحاجة إلى أن أسعل؟ لكنها عندئذ لاحظت مقابض المعزقات. كانت الزوايا التى تهبط بها على التربة توحى برافعات تُشغِّل الآلات السرية للأرض. واصلت عملها فحسب وتركتهم وشأنهم.

لم يكن الصبى قد عاد إلى جورجيا وقد أصبح رجلا فى الخليج الأسود، ولم يكن رجلا سيئا فى هذا الصدد. كانت روبى قد تكفلت بالأمر. ظلت تلاحقه على مدى السنتين اللتين قضاهما أجيرا ولم تكف عندما أصبح زوجها. ركلة فى

الظهر عندما احتاج الأمر إلى ذلك، وخلافا لذلك عناق. ونجحت تلك الطريقة بمعيارين متساويين تقريبا. كان اسمه ريد. وكان أطفالهما قد ولدوا يفصل بينهم ثمانية عشر شهرا كل على حدة، كلهم صبية، تمتلئ فروات رءوسهم بشعر أسود ولهم عيون عسلية لامعة مثل ثمار كستناء مركبة فى رءوسهم، كانوا ينمون ليصبحوا مخلوقات قصيرة وبدينة بوجنات متوردة وابتسامات حاضرة، وكانت روبى تجعلهم يعملون بشدة ويلعبون بشدة. وعلى الرغم من فارق السن، فإنهم عندما كانوا يتدحرجون فى الفناء تحت أشجار القرنوس يبدون متشابهين مثل مجموعة من الجراء.

وكانوا يجلسون القرفصاء الآن، فى وقت متأخر من العصر، حول حفرة نار خلف البيت. أربع دجاجات تشوى فوق جمرات على الأرض، والأطفال يتعاركون أحدهم مع الآخر على من كان دوره فى مقايضتها بصلصلة خل وفلفل حام.

وقفت إيدا تحت شجرة الكمثرى تراقبهم، وهى تنشر مفرشا وتصف ثمانية أطباق شديدة التجاور على المائدة الصغيرة. كانت قد فاتها حتى الآن مجرد عام واحد منذ الحرب من القيام بنزهة أخيرة للأكل فى الهواء الطلق قبل أن يحل الجو البارد. وقد كان ذلك منذ ثلاث سنوات مضت، أكتوبر لا يشبه كل شهور أكتوبر الأخرى، بسماوات مثقلة ومطر على امتداد الشهر فيما عدا يوم واحد عندما نزل ثلج.

كانت إيدا قد حاولت أن تحب كل السنة بالتساوى، بدون تمييز ضد رمادية الشتاء، وفوحه برائحة أوراق الشجر العطنة تحت الأقدام، والسكون فى الغابات والحقول. ومع ذلك، فإنها لم تتمكن من أن تتغلب على حبها الأفضل للخريف. ولا أن تتغلب كلية على المغالاة العاطفية فى أن تجد سقوط الأوراق أمرا مثيرا للأسى، فى أن تراه مثل خاتمة للسنة وبالتالى استعارية. على الرغم من علمها بأن المواسم تعود وتعود من جديد ولم يكن لها بداية ولاخاتمة.

كان أكتوبر عام ١٨٧٤ يتطور بشكل مجدٍ من دواعى ابتهاجها، رائعا تماما شأن أى شهر يمكن أن يكون فى الجبال. كان جافا وهادئا وصافيا لأسابيع، وأوراق الأشجار قد سارت قدما فى تغيرها إلى حد أن شجرة الحور كانت صفراء وشجرة القبقب حمراء، لكن شجرة البلوط مازالت خضراء. وكان الجبل

البارد مرقش الألوان وهو يرتفع خلف البيت. كان يتغير يوما بعد يوم، ولو أنك راقبته عن كثب لأمكنك تتبع اللون وهو يلحق بالخضرة ويهبط أسفل الجبل وينتشر فى الخليج مثل موجة تتكسر فوقك ببطء.

وبعد وقت قصير، ولم يبق على النهار إلا ساعة، خرجت روبى من المطبخ. وإلى جانبها، فتاة نحيلة طويلة القامة فى التاسعة من عمرها. كلتاهما تحمل سلالا. سلطة بطاطس، ذرة، خبز ذرة، فاصوليا خضراء. أخذ ريد الدجاجات من على الجمرات، ووزعت روبى والفتاة الطعام على المائدة. جاء ستوبرود من مخزن الغلال حيث كان يحلب البقرة وضع الدلو على الأرض بجوار المائدة. وغمس الأطفال أقداحهم حتى امتلأت. وأخذ الجميع أماكنهم.

وفى وقت متأخر، والغسق يستقر فى الخليج، أوقدوا النار، وأخرج ستوبرود كمانه وعزف تنويعا ما عمله على بونى جورج كامبل، وقد زاد فى سرعة إيقاعه وغَشَّاها برقصة سريعة مرحة. جرى الأطفال جميعا حول النار وتصايحوا.. لم يكونوا يرقصون بل يجرون فحسب على أنغام الموسيقى، ولوحت الفتاة بعصا مشتعلة وعملت أشكالا مكتوبة بأحرف متصلة فى الهواء المعتم بالجذوة الصفراء فى طرفها حتى أمرتها إيدا أن تتوقف.

عزف ستوبرود شكل اللحن البسيط مرارا وتكرارا حتى تورد الأطفال وابتلت ملابسهم. وعندما توقف انهاروا على الأرض إلى جوار لنار. أنزل ستوبرود الكمان من تحت ذقنه. كان يريد أن يغنى بشارة دينية، لكن الكمان فى نهاية الأمر صندوق الشيطان ومحرم عليه مثل هذه الأغانى فى كل مكان فى العالم. ومع ذلك، فقد أمسك به كشىء عزيز، محتضنا إياه فى صدره، والقوس مستند إلى أصبع معقوف. غنى أغنية زمرة الملائكة، لحنا جديدا. وغنت الفتاة خلفه كجوقة، وصوتها صاف وعال وقوى. احملنى بعيدا على جناحيك الأبيضين كالثلج.

نحَّى ستوبرود الكمان جانبا، وتوسل الأطفال يطلبون قصة. أخرجت إيدا كتابا من ميدعتها ومالت به باتجاه ضوء النار وقرأت. بوسيس وفيلمون. قلبت الصفحات بصعوبة ضئيلة لأنها كانت قد فقدت طرف سبابتها اليمنى من أربع سنوات سابقة بعد الانقلاب الشتوى.

كانت بأعلى الحافة وحدها تقطع الأشجار فى البقعة التى حددت الشمس أن تغرب فيها فى اليوم السابق من الشرفة. كانت السلسلة التى تمسك بزند الخشب قد تعقدت وكانت تحاول أن تفكك العروات المشوشة عندما شرع الحصان يسير إلى الأمام فى سيور الزحافة وقرص قرصا مؤلما على طرف إصبعها حتى بتره بالكامل بمثل صوت طرقعة يحدثه مصاص طماطم. وضعت روبى كمادة عليها، وعلى الرغم من أنه استغرق معظم السنة، فإنه التأم بشكل دقيق للغاية إلى حد أنك كنت لتظن أن أطراف أصابع الناس مقصود بها أن تبدو هكذا.

عندما وصلت إيدا إلى خاتمة القصة، وكان العاشقان القديمان، بعد سنين طويلة عاشاها معا فى سلام وانسجام، قد تحولا إلى بلوط وزيزفون، كان الظلام قد أطبق. وكان الليل يكتسب برودة هادئة، ونَحَّت إيدا الكتاب جانبا. قام هلال قريبا من كوكب الزهرة فى السماء.

والأطفال يداعب النعاس عيونهم، وسوف يبزغ الصباح مبكرا وكثير المطالب شأنه دائما. آن لهم أن يدخلوا وأن يردموا الجمرات ويجذبوا خيط سقاطة الباب.

شكر وتقدير

اود أن أتقدم بالشكر للعديد من الناس لمساندتهم لى أثناء كتابة *الجبل البارد*. ويسعدنى أن أكون مدينا لهم. فقد صان أبى، تشارلز أو. فريزر، قصص العائلة وتقاسمها معى. ووضعنى على درب إينمان، وكانت معرفته التفصيلية بتاريخ نورث كارولينا الغربية معينا لى فى كل شىء. وكانت كيى جيبونز سخية فى نصحها وتشجيعها؛ فقد حملت كتابى محمل الجد قبل أن أفعل أنا هذا وقدمت نموذجا للعمل الجاد والالتزام. ووفر و.ف ودورابيل لى خلوة رائعة لكاتب فى جبال نورث كارولينا، حيث كتب قدر وافر من هذا الكتاب، والمنظر البعيد من الشرفة هو الروح التى تسيطر على هذا الكتاب. وكان لى فريدمان يحفزنى إلى الأمام حين أعجز عن التقدم ويساعدنى على أن أجد الاتجاه الذى تسير فيه القصة. وقد أصلح شكل الكتاب النهائى على وجه محسوس إعداد اليزابيث شميتز له للنشر، بتبصرها وحساسيتها وحماستها.

وكان عدد من الكتب معينا لى فى تطوير خلفية الرواية الثقافية والتاريخية، وأخص بالذكرمنها هذه الكتب:

روبرت كانتويل: تصنيف عشب *الكَشية : تركيب الصوت الجنوبى القديم* (١٩٨٤)؛ ريتشارد تشيس: *حكايات جاك* (١٩٤٣)؛ *وحكايات الجد* (١٩٤٨)؛ وولتر كلارك: *تواريخ الأفواج والكتائب التى جاءت من نورث كارولينا فى الحرب الكبرى* (١٩٠١)؛ دانييل ايليس: *مغامرات مثيرة* (١٨٦٧)؛ ج. فى. هادلى: *سبعة اشهر سجينا* (١٨٩٨)؛ هوارس كيبهارت: *سكان مرتفعاتنا الجنوبية* (١٩١٣)؛ و. ك. ماكنيل: *صور ابالاشية فى ثقافتنا التراثية والشعبية* (١٩٩٥)؛ جيمز مونى: *خرافات الشيروكيين* (١٩٠٠)؛ *والصياغات المقدسة لدى الشيروكيين* (١٨٩١)، فيليب شو بالودين: *ضحايا* (١٩٨١)، ويليام ر. تروتر: *ضاربوا الأجمات: الحرب الأهلية فى نورث كارلينا*، مجلد٢، *الجبال* (١٩٨٨).

وأخيرا، فإننى أود أن أقدم اعتذاراتى عن تخطياتى الهائلة لحدود اللياقة فى تعاملى مع حياة و. ب. إينمان وفى تعاملى مع الجغرافيا المحيطة بالجبل الأبيض (٦٠٣٠ قدما).

رقم الإيداع ١٥٨٨٠ / ٢٠٠٢
I.S.B.N 977-320-090-6

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

رواية تشارلز فريزير « *الجبل البارد* »، من أكثر الروايات التى لاقت استحسانا، فهى فى آن واحد تحفة تاريخية أسرة، وقصة حب مثيرة، واستدعاء وضاء للحرب الأهلية ، تحكى فى شكل ملحمى محمَّل بالتفاصيل وقائع قصة عاطفية رقيقة أثناء هذه الدراما .

فبعد أن جرح جرحا أليما وتحرر بشكل مهلك م... القتال فى بيترزبورج، يقرر إينمان، وهو جندى كونفيدرالى، أن يعود سيرا على الأقدام إلى موطنه فى جبال الحافة الزرقاء وإلى إيدا، المرأة التى أحبها قبل ذلك بسنوات. وتصطدم رحلته عبر الجنوب مع العبيد الآبقين والمغيرين وصيادى المكافآت والساحرات، فى تضاد يجمع بين النفع والأذى. وفى نفس الوقت، تحاول إيدا أن تبعث الحياة من جديد فى مزرعة أبيها المهملة وأن تتعلم أن تبقى على قيد الحياة فى عالم اكتسحت منه كل أشكال اليقين اكتساحا. وبينما تجدل رواية *الجبل البارد* قصتيهما، فإنها تؤكد نفسها بصفتها *أوديسا* أمريكية أصيلة، قوية إلى حد بعيد، بديعة على نحو رائع، م... ...ى نحو حاد.

وقد ترعرع المؤلف تشارلز فريزير فى ج... ...نا، ويعيش حاليا فى رالى مع زوجته وابنته، حيث ... ...ذه هى روايته الأولى .

...ـر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب